العمل السرى

فى ثورة ١٩١٩

الطبعـــة الأولـــى

١٤٣٠ هـ - مارس ٢٠٠٩ م

مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٨ - ٢٤٥٠١٢٢٩ - ٢٢٥٦٥٩٣٩

المكتبة: ٢ شارع البورصة الجديدة - قصر النيل - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٣٩٢٨٠٧١ - ٢٣٩١٢٠٧٢

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

الدكتور محمد الجوادي

مذكرات الشبان الوفديين

العمل السري في ثورة ١٩١٩

مذكرات

- إبراهيم عبد الهادي
- سيد باشا
- عريان يوسف سعد
- محمد مظهر سعيد

مكتبة الشروق الدولية

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
د(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

الجوادى، محمد.

العمل السرى فى ثورة ١٩١٩ ـ مذكرات الشباب الوفديين/ محمد الجوادى.

ط١ ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩م

٥٨٤ص؛ ١٧ × ٢٤سم.

تدمك 0 - 66 - 6278 - 977 - 978

١ - مصر ـ تاريخ ـ العصر الحديث ـ ثورة ١٩١٩.

٢ ـ مصر ـ حزب الأمة.

٣ ـ السياسيون المصريون.

٤ ـ التراجم الذاتية.

أ. العنوان. ٩٦٢,٠٤٨

رقم الإيداع ٤٧٩٣ / ٢٠٠٩م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 6278 - 66 - 0

المحتــويـات

الموضـــــوع	الصفحة
الإهداء	٧
الفهرس التفصيلى	٩
هذا الكتـاب	٦٥
• الباب الأول :	
مذكرات إبراهيم عبد الهادى	٧١
• الباب الثانى :	
حياتى . مذكرات سيد محمد باشا	٢٧٧
• الباب الثالث :	
سجين ثورة ١٩١٩ . . مذكرات عريان يوسف سعد	٤٢٩
• الباب الرابع :	
مذكرات الدكتور محمد مظهر سعيد	٤٨٩
• كتب للمؤلف	٥٦٨

الإهـــداء

إلـى الأستـاذ الدكـتور عبـد العـزيـز حجازى ...

عالمًا جليلاً، وسياسيًا رفيع المقام، ووطنيًا من طراز نادر

د. محمـد الجـوادى

الفهـرس التفصيـلى

• البـاب الأول :

مذكرات إبراهيم عبد الهادى

• الباب الثانى :

حياتى .. مذكرات سيد محمد باشا

• الباب الثالث :

مذكرات عريان يوسف سعد

• الباب الرابـع :

سجين ثورة ١٩١٩.. مذكرات الدكتور محمد مظهر سعيد

الباب الأول : مذكرات إبراهيم عبد الهادى

* التعريف بالمذكرات وصاحبها * ما يرويه عن ثورة ١٩١٩ ، وعن دوره فى جهازها السرى الذى كان تحت قيادة عبد الرحمن فهمى * يحرص على أن يصور حياته وشخصيته ثمرة من ثمار ثورة ١٩١٩ * يرى فى نشأته نشأة عادية لم تكن لتؤهله لدخول عالم السياسة لولا ما حدث عند اندلاع ثورة ١٩١٩ ، ومع أنه يشير بكل وضوح إلى أنه دخل عالم السياسة من خلال التنظيم السرى لثورة ١٩١٩ ، فإنه لا يقدم المبررات التى جعلته ينضم إلى التنظيم السرى، ولا القرائن التى دفعته إلى هذا الانضمام * يتحدث بذكاء شديد عن طبيعة دوره فى ثورة ١٩١٩ ، لافتًا النظر إلى السلاح الفعال الذى اعتمد عليه هو وزملاؤه فى مجابهة المؤامرات التى واجهتها الحركة الوطنية، وهو سلاح الوحدة الوطنية، وكيف كان لهذا السلاح أثره الفعال فى تجاوز الاختلافات التى كانت كفيلة بإفشال ثورة ١٩١٩ فى كل مرحلة من مراحلها * ويبدو فهم إبراهيم عبد الهادى لسلاح الوحدة الوطنية عميقًا وممتداً لا يقف بهذه الوحدة عند الحدود التى بات يقف عندها من الجمع بين المسلم والمسيحى تحت راية واحدة، وإنما هو يفهم معنى الوحدة الوطنية الواسع الذى يجعل أبناء الوطن يتوحدون فيه، وهو ينتبه إلى أن هذا السلاح كان بمثابة ملجأ يتكرر اللوذ به طيلة الحقبة الحديثة من تاريخ مصر * يلمح بوضوح إلى أنه هو ومجموعته من شباب ثورة ١٩١٩ كانوا يقومون فى بعض الأحيان بمجابهة بعض رجال الحزب الوطنى الذين كانوا يحاولون أن يقللوا من عمل سعد زغلول ورفاقه * يتحدث بوضوح عما هو معروف فى صفحات التاريخ من نجاحه هو ومجموعته فى إقناع الأزهريين بصدق التوجه الوطنى لثورة ١٩١٩ ، على حين كانت بعض قيادات الحزب الوطنى القديم تبنى حساباتها على انضمام الأزهريين لها فى مواجهة الوفد ومنافسته * الإشارة إلى أن سيد باشا يفرق بين مجموعتين من الحزب الوطنى، ويرى أن الحزب الوطنى قد أيد زعامة سعد زغلول أما الذين لم يؤيدوه فكانوا أعضاء اللجنة التنفيذية لذلك الحزب ، ونحن نجد إبراهيم عبد الهادى يذهب هذا المذهب وإن لم يكن بالوضوح نفسه * يورد تفصيلات دقيقة عن الساعات الأولى من المظاهرة الأولى للطلبة فى مارس ١٩١٩ ، وقد كانت هذه المظاهرة بمثابة أبرز مظاهر الثورة المصرية التى اندلعت بدءاً من ذلك اليوم * وتدلنا التفصيلات التى يرويها إبراهيم عبد الهادى على ما كان

يتمتع به من سلطان معنوى على زملائه بفضل قوة شخصيته، وقدرته على التعبير والخطابة، وهى مؤهلات جوهرية فى مثل ظروف تلك الأيام * نراه منذ البداية أو فى ذلك الحين منتبهًا إلى غلبة طبيعة التحفظ والتريث فى شخصيات زملاء سعد زغلول فى الوفد من طراز عبد العزيز فهمى، وعلوبة، ولطفى السيد * نراه حريصًا على أن يثبت استقلال مجموعة الشباب واعتزازهم بمسئوليتهم المباشرة عن أنفسهم وتصرفاتهم * يحرص على أن يؤكد على جماعية القرار والالتزام بجماعيته * وسنرى فى حواره مع مستر إيموس مستشار الحقانية قدرة فائقة على الوصول إلى الهدف وتجنب الجدل غير المفيد * يورد ما يتذكره عن اشتباك أحد زعماء الطلبة بعميد كلية الطب فى ذلك الحين، ومن الطريف أن إبراهيم عبد الهادى يورد تفصيلات كثيرة عن هذا الاشتباك لم يوردها حافظ محمود فى كتابه «المعارك» الذى اكتفى بتصوير الأمر على أن الناظر المتعجرف حاول دفع الطالب لكن الطالب ركله، وينفرد إبراهيم عبد الهادى بذكر اسم الطالب وما وصل إليه فى سلك الوظيفة بعد ذلك * مذكرات كل من سيد باشا وعريان يوسف سعد تقدمان وصفًا تفصيليًا يضيف كثيراً من الحقائق والشرح للتفصيلات التى يقدمها إبراهيم عبد الهادى * يواصل الحديث عن خط سير المظاهرة وعن المحاولات المستميتة التى بذلتها الشرطة من أجل إيقافها، وهو حريص على ذكر أسماء الضباط الذين تصدوا للمظاهرة بالقوة، ومنهم حيدر باشا الذى أصبح وزيراً للحربية فى عهد الملك فاروق * يحاول تصوير مدى الإهانة التى تعرض لها الطلاب الذين قبض عليهم فى ذلك اليوم، مكتفيًا بالقول بأنهم حجزوا فى مكان ضيق جداً حتى إن بعضهم قد نام على صدر زميله * تنفرد المذكرات بالإشارة إلى الدور الذى لعبته مجموعة من شباب الوفد، كان هو أحدهم، فى زجر وإرهاب مجموعة من الأثرياء والأعيان أسس لهم الإنجليز حزبًا باسم الحزب «المستقل الحر» * من الطريف أن هذا الحزب فقد وجوده بسرعة على يد هؤلاء الشباب الذين تمكنوا من إرهاب رجال هذا الحزب فى عقر دارهم من * الجدير بالذكر أن سيد باشا حينما تناول هذه الواقعة أشار إلى أن ذلك الحزب كان يسمى بحزب الأمة لا المستقل الحر * القضية التى قدر لإبراهيم عبد الهادى أن يقضى بسببها أربع سنوات فى السجن، قضية المؤامرة الكبرى * على عكس المتوقع فإنه لا يقدم حديثًا تفصيلياً عن محاكمته الشهيرة فيما سمى بقضية المؤامرة الكبرى * يكتفى بذكر موجز أحداث هذه القضية على الرغم من أنه حكم عليه فيها بالإعدام، وقضى فى السجن بضع سنوات بسببها، وكان أبرز المتهمين فيها عبد الرحمن فهمى * يبخل علينا بذكر أسماء زملائه الذين اتهموا معه فى هذه القضية * يتحدث عن قضية المؤامرة الكبرى فيشير إلى ما يعتقده من أنها كانت وسيلة لترهيب الوطنيين، وذلك من خلال إصدار أحكام مسبقة ومعروفة على عدد من المتهمين من رجال الحركة الوطنية * يشير إلى أن البريطانيين كانوا حريصين على أن يفعلوا عكس ما كانوا يتظاهرون به من رغبة فى الوصول إلى اتفاق صادق * ينفرد بالإشارة إلى موقف مهم لعلى ماهر استجاب فيه الزعيم

سعد زغلول نفسه لثاقب رأيه الذى دعا إلى تفويت الفرصة على الإنجليز فى كسب شيء مقابل إفراجهم عن عبد الرحمن فهمى وإخوانه المعتقلين على ذمة قضية المؤامرة الكبرى الذين كان منهم إبراهيم عبدالهادى * يعود فى موضع آخر ليؤكد على فكرة أن جهود البريطانيين فى تدبير قضية المؤامرة الكبرى قد باءت بالفشل بسبب إصرار سعد زغلول على رفض مشروع ملنر فى الوقت الذى مال فيه زملاء سعد فى الوفد إلى قبول المشروع تخلصًا من المحاكمات العسكرية التى كانت تهدد المشتغلين بالحركة الوطنية * لا يمل من تكرار التعبير عن فكرته القائلة بأن الإنجليز انتبهوا إلى دور عبد الرحمن فهمى الجبار فدبروا هذه القضية للخلاص منه ومن أعوانه، لكن سعد زغلول صمد فى الميدان حتى نصره الله على حد تعبير إبراهيم عبد الهادى * حديثه عن حلقات الكفاح الوطنى التى لم يقدر له أن يشارك فيها فى الفترة التى سجن فيها على ذمة قضية المؤامرة الكبرى * يحرص على أن يشير إلى أن الكفاح المسلح استمر فى الفترة التى كان هو وزملاؤه معتقلين فيها على ذمة قضية «المؤامرة الكبرى»، وهو بهذا الحرص يؤكد على معنى مهم وهو أنه كان يرى نفسه جنديًا من جنود الثورة لا تتوقف الثورة على وجوده، وهو معنى نبيل ينم عن إيمان عميق بحقيقة دوره فى الحركة الوطنية، وبأن هذا الدور يزداد قيمة إذا ما استمرت الثورة حتى فى أثناء غياب قياداتها فى السجون * يصور حجم التضحيات التى قدمتها الأمة المصرية فى مظاهرات واضطرابات ثورة ١٩١٩، ويتراوح تقديره لعدد شهداء المصريين فى هذه المظاهرات بين ألف وثلاثة آلاف شهيد دون أن يذكر السبب فى اختلاف الأرقام التى يوردها، لكن الأهم عنده أنه كان يرى فى انتشار التضحية فى جميع أنحاء البلاد على هذا النحو الدعامة الكبرى لنهضة الأمة وحياتها!! * ينبه فى ذكاء شديد إلى الحديث عن الدور الذى لعبه الأقباط فى إجهاض محاولات المستعمر البريطانى المستمرة من أجل إشاعة الفرقة بين المسلمين والأقباط والتى تجلت بصورة واضحة عند ترشيح يوسف وهبة لرياسة الوزارة * يحرص على أن يذكر أن التخطيط لمعارضة هذا التوجه تم علانية فى الكنيسة المرقسية الكبرى نفسها * من الجدير بالذكر أن مذكرات عريان سعد تقدم تفصيلات أدق عن هذه الواقعة * يحرص على أن يشيد بالدور الوطني الذى أصر زميله عريان يوسف سعد على أن يقوم به ووصل إلى حد التضحية بنفسه من أجل إرهاب وتأديب الوزير القبطى يوسف وهبة، الذى قبل أن يتولى رياسة الوزارة فى ظل الإنجليز، مما كان كفيلاً بالقضاء على الوحدة الوطنية * نرى هذا الرجل منتبهًا إلى أهمية تسليم نفسه والاعتراف حتى يثبت المعنى الذى أراد إثباته * يستطرد إلى رواية قصة شبه مشهورة عن اللقاء الذى شهده مكتب سعد زغلول بعد سنوات بين يوسف وهبة وبين عريان يوسف سعد الذى حاول قتله * ينتهز الفرصة للإشادة بأخلاق عريان يوسف سعد ووطنيته، وهو يقدم قصيدة مديح فى غاية القوة فى هذا الزميل الذى شاركه البطولة فى الحركة الوطنية، ومن الطريف أن إبراهيم عبد الهادى يطلعنا على ما لم يطلعنا عليه غيره من اهتمام عريان يوسف سعد باليوجا ونشره

لها بين المصريين، فضلاً عما هو معروف عنه من قدرته على الترجمة * ينفرد بالإشارة إلى أن عريان يوسف سعد رفض قبول منصب الوزارة عندما عرضه عليه صدقى باشا فى مطلع الثلاثينيات، ومن العجيب أن مذكرات عريان نفسه التى نشرتها دار الشروق فى ٢٠٠٧ لم تتضمن أى إشارة إلى هذه الواقعة، ولا إلى أى واقعة من الوقائع التى تلت سجنه!! * الحق أن نموذج عريان يوسف سعد لم يكن نادراً بين هذا الجيل المعجون بالوطنية، وبروح الفداء والإيثار، لكننا نعجب أن يمضى عصر ثورة يوليو ١٩٥٢ دون أن يفيد من وجود مثل هذه الشخصية النبيلة * يتحدث بكل ما يملك من الإعزاز والتقدير عن زميله الآخر الدكتور سيد محمد باشا الذى عرض على صدقى باشا دخول الوزارة فى الثلاثينيات فاعتذر عن دخولها * يظهر من روايته عن نشاط الدكتور سيد باشا فى التنظيم السرى لثورة ١٩١٩ أنه كان على وعى كامل بنشاط ذلك الزميل، وهو وعى لا يتأتى من خلال الزمالة وحدها، وإنما يبدو أنه نتيجة للمشاركة * يبدو أنه أراد أن يتحدث عن نشاطه هو فى هذا التنظيم من خلال حديثه عن نشاط زميله بهذا الإعزاز الواضح * يقدم حديثًا تفصيليًا عن نشاط زميله الدكتور سيد محمد باشا فى أثناء عهد وزارة محمد سعيد باشا، وهى فترة من فترات ازدهار النشاط السرى الذى نظمه الوفد، بل موله وأشرف عليه عن قرب * ينتقل قافزاً إلى حديث دار بين النقراشى وبين سيد باشا، ونفهم من الحديث أن إبراهيم عبد الهادى كان ميالاً إلى القول بأن النقراشى كان صاحب فضل فى توجيه نشاط سيد باشا وزملائه، وهو ما لا نجده بالوضوح نفسه فى مذكرات سيد باشا الذى يميل إلى التقليل من جهد النقراشى وفضله فى نشاطهم السرى * لا نزال معه فيما يرويه عن نشاط مجموعة الفدائيين من شباب ثورة ١٩١٩، ونحن نراه حريصًا كل الحرص على أن يتحدث عن دور للنقراشى باشا فى توجيه هذا النشاط وإصدار الأوامر لرجاله، وهو ما لا نجده بالدرجة نفسها من الوضوح فى مذكرات سيد باشا نفسه، ولا فى مذكرات رجال الحزب الوطنى، ويصل الأمر فى التفاوت فى الحديث عن دور النقراشى إلى حد أن إبراهيم عبد الهادى يروى أنه هو الذى أصدر الأمر بقتل محمد سعيد باشا رئيس الوزراء * يشير إلى حقيقة مهمة أغفل غيره الإشارة إليها، وهى أن الجهاز السرى لثورة ١٩١٩ تمكن من الحصول على صور جميع المخبرين السريين الذين يعملون مع الحكومة البريطانية فى مصر، ونجح فى تجنبهم تماما، مما كان له أثره فى نجاح نشاطهم الدائب فى عمليات الاغتيال * نراه يشارك غيره ممن كتبوا مذكراتهم عن هذه الفترة فى الثناء العميق على دور الحاج أحمد جاد الله ودقته فى تنظيم العمل الفدائى، وهو ما نرى له مثيلاً فى مذكرات عبد العزيز على، وعبد الفتاح عنايت وغيرهما * لا تخلو المذكرات من إشارات ذات قيمة إلى دور الطوائف المختلفة فى ثورة ١٩١٩، ومن هذه الإشارات إشاراته التفصيلية إلى دور «عقيلات كبار رجال مصر» على حد تعبيره فى حث أزواجهن على التصدى لمحاولات الإنجليز شق صف الوحدة الوطنية، وذلك بتحذير هؤلاء من قبول تشكيل الوزارة رأيه فى

بعض أحداث النشاط السرى التى واكبت ثورة ١٩١٩ والفترة التالية لها، ومن المهم أن نشير إلى أن بعض حوادث الاغتيال والنشاط السرى (مقتل قطبى الأحرار الدستوريين) تمت من خلال جماعات مرتبطة بالحزب الوطنى، ونسبت خطأ إلى التنظيمات الوفدية مع عدم علم الوفد بها ولا بمن وراءها، وإلى أن بعض حوادث الاغتيال والنشاط السرى (مقتل السردار) قد تمت فيما يبدو على مستويات قاعدية مشتركة من تنظيمات الحزب الوطنى، وتنظيمات الوفد، لكنها لم تحظ بموافقة القيادات المسئولة فى هذه التنظيمات المرتبطة بالوفد أو الحزب الوطنى. كما أن بعض الحوادث (محاولة اغتيال سعد زغلول نفسه) قد تمت على يد بعض المنتمين للحزب الوطنى وضد إرادة الوفد بالطبع، وإن لم يمنع هذا من تورط السراى أو الإنجليز، وهو ما ينسحب أيضًا على الحوادث الأخرى على نحو ما يوحى به إبراهيم عبد الهادى * المذكرات لا تصل فى توجيه الاتهامات إلى الدرجة التى يصل إليها سيد باشا فى مذكراته، حيث يضع كما سنرى فى الباب الثانى من هذا الكتاب سيناريوهات كاملة لكل حادثة * من المهم أن نتدارس آراء عبد الهادى فى بعض الحوادث التى تمثل هذه الأنماط الثلاثة من النشاط السرى * يعلق فى مذكراته على حادث مقتل قطبى الأحرار الدستوريين، وهو يقدم أحكامًا قاطعة بأن رجال العمل السرى الوطنى كانوا واضحين فى رؤيتهم للهدف من عملياتهم السرية، فعلى حين كانوا يستهدفون قتل رجال الاحتلال فإنهم لم يكونوا يقصدون أكثر من إرهاب المصريين المتعاونين مع الاحتلال * يحرص على أن يكرر نفى علمه بحادث مقتل قطبى الأحرار الدستوريين * يصل فى هذا الأمر إلى نفى علمه حتى تاريخ كتابة مذكراته، وذلك على الرغم من أن عبد الفتاح عنايت قد أشار فى مذكراته إلى مسئولية تنظيمه عن هذا الحادث على نحو ما ذكرنا بالتفصيل فى كتابنا «فى ضوء القمر»، كذلك فإن عبد العزيز على وغيره أيدوا ما أشار إليه عبد الفتاح عنايت * على الرغم من نفيه لمعرفته بالذين خططوا لقتل قطبى الأحرار الدستوريين، فإنه يحاول تلمس الطريق إلى تحديد هوية هؤلاء ودوافعهم أو مَنْ كان وراءهم، وهو يتبنى رأى الدكتور هيكل القائل بأن السراى هى التى قامت بالعملية من أجل تعديل الدستور، ومع هذا فإنه يستعيد من ذاكرته ما كتبه توفيق دياب فى مقاله «أنتم قتلة الوطن» * يعبر عن حيرته فيما يتعلق بحادث السردار * يصل بالحيرة إلى حد أن يفكر فى أن المؤامرة التى دبرت هذا الحادث كانت ماهرة وخبيثة، وهو لا ينظر إلى الحادث إلا من زاوية ما ترتب عليه من إكراه سعد زغلول على ترك الحكم * يحرص على أن يشير إلى أنه لم يشارك فى مقتل السردار، على الرغم من إيمانه بأن هذا شرف كبير يتمناه كل وطنى * يستطرد إلى الحديث عن طبيعة دوره مشيرًا إلى أن عبد الرحمن فهمى نفسه كان حريصًا على إبعاد مجموعة الخطباء وكتاب المنشورات عن العمل السرى * موقفه من قصة اغتيال السردار وكيف قرر الاختفاء حتى تنجلى الأمور، ومع أنه ظل مختفيا لمدة شهرين فإنه اندفع إلى تسليم نفسه للنائب العمومى بعدما أعلن أن المحاكمة ستكون أمام

محكمة مصرية لا أمام محكمة عسكرية إنجليزية، وهو حريص على الإشارة إلى أن أيامه فى هذه القضية كانت أسوأ أيام حياته بسبب ما لقيه من معاملة فى السجن على أيدى الكونستابلات الإنجليز * يورد قصة موقفين صادفاه فى أثناء سجنه على ذمة قضية اغتيال السردار، فى الموقف الأول يروى أن عبد الحميد عنايت نبهه إلى أنه بعيد عن التحقيق * يستطرد إلى الثناء المستطاب على شخصية عبد الحميد عنايت، أما الموقف الثانى فيروى فيه حوارات دارت بينه وبين كل من وكيل النائب العام وحكمدار العاصمة، وفى الحوارين ما يدل على ثقة إبراهيم عبد الهادى بنفسه، وشخصيته القوية * يلقى بعض الأضواء المهمة على حادث مقتل السردار، ومن هذه الأضواء أن سعد زغلول كان قد عين الخائن نجيب الهلباوى فى وظيفة تتناسب مع مؤهلاته، لكن المخابرات البريطانية كانت أسبق إلى تحويله إلى خائن، كما أنه يشير إلى أن عبد الفتاح عنايت كان هو الوحيد الذى اعترف على زملائه الذين شنقوا، وهو يقارن بينه وبين الدكتور نظير الذى اتهم فى جريمة قتل وأعدم وتقبل الإعدام الظالم مع أنه كان يعرف القاتل الحقيقى، وقد أشرنا فى كتابنا «فى ضوء القمر» إلى الروايات الأخرى المتاحة عن اتهام نظير وإعدامه * ينتهز فرصة الحديث عن حادث السردار ليثنى على كل من إبراهيم موسى ومحمود راشد ببعض ما يستحقانه من الثناء * يحرص على الإشارة إلى ما أحسه فى تحقيقات النيابة من دأب الإنجليز فى محاولة الوصول إلى خيط يمكنهم من الربط بين حادث مقتل السردار وبين أى توجيه به يكون قد صدر عن الزعيم سعد زغلول نفسه * تتضمن المذكرات تفصيلات مهمة عن جريمة أخرى سبقت قتل السردار، وهى محاولة اغتيال الزعيم سعد زغلول نفسه قبل سفره لإجراء المفاوضات مع الإنجليز * يصف هذا الحادث بأنه كان نموذجا للتلفيق على الطريقة الإنجليزية!! * يحرص على تحقيق مسألة مهمة هى الزج بصديقه الدكتور سيد محمد باشا فى الاتهام بقتل سعد زغلول. ومع أن إبراهيم عبد الهادى يستند فيما يورده فى هذه المذكرات إلى ما رواه له الدكتور سيد باشا، فإنه فى بعض ما يرويه يختلف فى بعض الجزئيات التى أوردها سيد باشا نفسه فى مذكراته التى نشرها بعد وفاة إبراهيم عبد الهادى، وهى اختلافات مقبولة فى مثل هذه الروايات، و إن كانت رواية إبراهيم عبد الهادى لا تقل حبكة وفنية عن رواية سيد باشا نفسه، بل ربما فاقتها فى التركيز على مناطق الدراما فى الحدث * لكن العجيب فيما يرويه إذا صح أنه كان على هذا النحو أن نرى تورط حسن نشأت فى بناء مجده على الرغم بأنه هو الذى تمكن من طرد الخديو عباس من إيطاليا بمساعدة الجمعية، ويلفق تهمة لصاحب الفضل فى هذا الطرد وهو الدكتور سيد باشا حتى لا ينال ما سرقه هو من مجد، ومع هذا فإن التلفيق ينطلى وتتورط فيه أجهزة الدولة والإنجليز أيضا مع أن ما يرويه كل من إبراهيم عبد الهادى وسيد باشا عن هذه الوقائع قد يبدو صعب التصديق، فإن أجواء الدسائس كفيلة بما هو أكثر من ذلك من مفارقات وأكاذيب يلفقها أصحاب المصلحة، ويتعرض الوطنيون الشرفاء بسببها إلى المتاعب * يشير إلى أن الدكتور سيد باشا

استقال عقب اغتيال سردار الجيش المصرى فى السودان، وبعد أيام تلقى كتابًا من وزارة المعارف بفصله، فبحث عن عمل بالمدارس الحرة وعين وكيلاً لمدرسة الإعدادية الثانوية لمؤسسها المرحوم السيد فهمى الذى كان متهمًا مع المرحوم إبراهيم الوردانى بقتل بطرس باشا غالى، ثم ترك مدرسة الإعدادية الثانوية وافتتح مدرسة لحسابه هى «مدرسة النيل الثانوية» بشبرا بحارة «الدرمللى» * بداية علاقته بممارسة السياسة في مستواها العالى من خلال علاقته اللصيقة بالزعيم سعد زغلول، واختياره زعيمًا لشباب الوفد، ثم من خلال آرائه فى أداء الوزارة الزيورية عقب حادث مقتل السردار * يروى كيف تنامت علاقته بالزعيم سعد زغلول بعد خروجه من السجن فى أثناء تولى سعد زغلول رياسة الوزارة، ونحن نفهم مما يرويه إبراهيم عبدالهادى أن هذا التنامى كان تعبيراً عن إعجاب سعد زغلول بما سمعه من قبل عن نشاط إبراهيم عبدالهادى وقدراته الخاصة، وهو ما جعله يقربه إليه بالتدريج حتى جعله مدعواً على مائدة غدائه باستمرار * نفهم أيضا مما يرويه كيف قدر له أن يحل محل الزعيم الطلابى الوفدى الشهير حسن يس فى رياسة لجنة الطلبة، وهو ما لم يقابل من حسن يس بكثير من الارتياح * يبدى أسفه للجو السياسى الذى سيطر على مصر فى أعقاب مقتل السردار واضطرار سعد زغلول إلى الاستقالة وتولى زيور الحكم لتنفيذ تعليمات الإنجليز * ينتقد حكومة زيور فى سلوكها تجاه اللورد جورج لويد، بدءا من استقباله استقبالا لا يكون إلا لصاحب السلطان فى البلاد * يعبر عن اعتقاده بأن هذه الوزارة ساعدت جورج لويد على أن يؤدى فى نجاح بالغ دورين متناقضين فى مصر: دور الحاكم المطلق، ودور المتظاهر بصداقة الشعب * يمضى فى انتقاد سياسة الوزارة الزيورية تجاه اللورد جورج لويد، منبهًا إلى أن الشعب لم ينخدع بهذه السياسة، ولم يشارك فيها، بل ندد بها رجال الوفد والحزب الوطنى، وهو يندد أيضًا بسلوك بعض المنتفعين من أمثال محمد باشا الشريعى، وصالح باشا لملوم على حسب روايته * يضيف عنصراً جديداً من انتقاداته لسلوك اللورد جورج لويد، وأثرها السلبى على سعد زغلول والإجماع السياسى، وهو موقف القاضى الإنجليزى الذى أعلن أسرار المداولة فى قضية السردار، حيث أصر على أن يفصح عن معارضته فى تبرئة الدكتور أحمد ماهر وبعض زملائه، وإن كان صرح بأنه وافق على براءة اثنين آخرين هما النقراشى، وعبد الحليم البيلى لعدم كفاية الأدلة * نصل إلى سابع الموضوعات المهمة التى يتناولها إبراهيم عبد الهادى فى هذه المذكرات، وهى معاهدة ١٩٣٦ وما أعقبها من إلغاء الامتيازات الأجنبية * يلخص موقف الزعماء السياسيين من معاهدة ١٩٣٦، وهو حريص على أن يفعل هذا على الرغم من أنه كان ممثل الوفد فى الدفاع عن هذه المعاهدة فى مجلس النواب، لكنه مع هذا يعبر عما لابد من التعبير عنه من إحباطه المتكرر من رفض المفاوضين التالين لما توصلت إليه معاهدة صدقى من إنجازات، هذا فضلاً عن إحباطه فى مفاوضاته هو نفسه وهو رئيس للوزراء مع الإنجليز * يعطى أهمية كبيرة للخطوة التى تمت عقب معاهدة ١٩٣٦ بإلغاء الامتيازات

الأجنبية من خلال معاهدة مونتريه، وهو حريص على الإشادة القصوى بزعيمه أحمد ماهر وبأدائه في هذه المفاوضات، وهو أداء لقى إعجاب الجميع وتقديرهم، كما أنه يشيد أيضا بعبد الحميد بدوى وجهده فى المفاوضات * يتحدث عن دوره فى المشاركة فى صياغة العريضة التى قدمتها الأحزاب المعارضة إلى مؤتمر الثلاثة الكبار الذى عقد مع وضع الحرب العالمية لأوزارها وتعطى المذكرات دوراً بارزاً لمحررها محمد على أبو طالب فى هذه الواقع * يظهر اعتزازاً كبيراً بما تم إنجازه من مشروع معاهدة صدقى ـ بيفن * يفخر بأنه كان وزير الخارجية الذى اشترك مع صدقى باشا فى إتمام مشروع هذه المعاهدة * يلقى التبعة فى فشل مصر فى عقد هذه المعاهدة على عاتق مكرم عبيد الذى بدأ الهجوم على هذه المعاهدة واندفع فيه على عادته فى النظرة الحزبية الضيقة التى لا تراعى مصلحة كبرى، ويظهر إبراهيم عبد الهادى أسفه لأن ينضم رجال من قبل لطفى السيد إلى مكرم فى معارضته للمعاهدة، ثم يتعجب لموقف على ماهر وشريف صبرى وعلى الشمسى الذين عارضوا مشروع المعاهدة دون سبب جوهرى، * ينتهى إلى أن حديث صدقى باشا لروز اليوسف عن المعاهدة كان خاتمة المطاف فى الإجهاز على مشروعها وضياع فائدته على مصر * يكرر كثيراً وفى مواضع مختلفة فكرة الندم على معاهدة ١٩٤٦ التى كان هو نفسه بمثابة الرجل صاحب الفضل فى إتمامها بعد إسماعيل صدقى باشا، وينسب إلى الأحزاب وبخاصة الوفد السبب فى عدم استفادة مصر من الفرصة التى أتاحتها هذه المعاهدة * يعاود الحديث عن ندمه الشديد على فقدان مصر الاستفادة من مشروع معاهدة ١٩٤٦ * يؤكد على هذا المعنى مستنداً إلى عجز حكومة الوفد فى مفاوضاتها عن أن تصل إلى مثل ما وصلت إليه مصر فى معاهدة صدقى ـ بيفن * ما يرويه من تفصيلات مفاوضاته هو نفسه مع الجنرال البريطانى «سلم» فى أثناء رياسته للوزارة، وهى المفاوضات التى لم ينشر عنها الكثير، والسبب فى هذا تكتم إبراهيم عبد الهادى نفسه، ونحن نرى مما يرويه إبراهيم عبد الهادى أن الإنجليز كانوا لا يزالون حريصين على استبقاء قواتهم أو بعضها فى منطقة القناة، كما أنهم كانوا منذ البداية حريصين على اللجوء إلى السراى قبل الوزارة، وإلى إشراك الخبرات العسكرية بدلاً من السياسيين . . . إلخ، لكن إبراهيم عبد الهادى كان من الذكاء بحيث قفز على هذه التفصيلات ودخل إلى جوهر المفاوضة بأسرع ما يمكن، وسجل المواقف وانتهى إلى فهم استراتيجية البريطانيين على حقيقتها، وإن لم يوفق فى تحقيق أمله فى استخلاص حقوق بلاده * نجاحه فى إجهاض محاولة الإنجليز العمل على إرهاب حكومة مصر بالروس والمد الشيوعى، وهى الدعوى التى كانت قد أخذت ترفع فى ذلك الوقت * يظهر مما يرويه أن الإنجليز لم يكونوا يملكون قدرة على نقض التقدير الواقعى الذى كانت تتبناه مصر والذى عبر عنه إبراهيم عبد الهادى بوضوح * محاورة إبراهيم عبد الهادى والمارشال سليم حول إشراك العسكريين فى تقدير الوقت اللازم للانسحاب ومحاولة البريطانيين إعطاء دور أكبر للعسكريين فى المفاوضات، وانتباه إبراهيم عبد الهادى إلى

خطورة الإقرار بمثل هذا الوضع * يلخص ما انتهى إليه تقدير خبرائنا العسكريين الثلاثة للقوات والمخازن، وللمناقشات التى دارت حول هذه المعدات والأسلحة وفكرة ائتمان المصريين عليها أو استبقائها فى أيدى خبراء بريطانيين يلبسون ملابس مدنية * وجهة نظره فى هذه المفاوضات فيأسف أنه لم يترك الصحف تتحدث بما فعل فى ذلك الحين، لأن أحداً لم يعرف حقيقة الدور الذى قام به فى ذلك الوقت، وذلك بسبب قسوته على نفسه فى إنكار الجهد الكبير الذى تولاه والذى لم يتحدث عنه، بل منع الحديث عنه من أجل الأمل فى الوصول إلى حل مشرف لمصر متأثرا فى هذا بما تسببت عنه أحاديث الصحافة من فشل معاهدة صدقى ـ بيفن * انشقاق السعديين على الوفد، ولا تتضمن مذكرات إبراهيم عبد الهادى كثيراً من التفصيلات حول خلافات الوفد مع السعديين، ويبدو أنه لم يكن يؤمن بأن خصومة الفريقين تستحق ما استدعته من خلافات، وقد كان إبراهيم عبد الهادى أحد أقطاب هذا الانشقاق * من العجيب أنه ينأى بنفسه عن أن يحصر نفسه ومكانته فى الحزب السعدى من خلال هذا الانشقاق، وإنما هو يتناوله تناولاً غير مباشر مركزاً على سياسات السعديين وتوجهاتهم فيما بعد هذا الانشقاق * يحرص على أن يصور أن انشقاق السعديين عن الوفد كان له أثر كبير على حزب الوفد نفسه وعلى شعبيته فى الشارع السياسى، وهو يدلل على وجهة نظره هذه بالحديث عن انفضاض فرق القمصان الزرقاء، وعن نجاح مرشح غير وفدى لمنصب نقيب المحامين فى أول استثناء للقاعدة التى جرت منذ ١٩٢١ * يتصل برأيه فى انشقاق السعديين رأيه فى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، ولا يخرج رأى إبراهيم عبد الهادى فى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ عن مجمل رأى المنصفين من الساسة المصريين، فهو يرى أن النحاس لم يصدر قراره إلا عن مشاورة لكبار الوفديين، كما أنه يسند التصرفات المتعددة التى قامت بها بعض الجماهير الوفدية إلى مسئولى اللجان الوفدية، ويجزم بأن النحاس كان مستاء لهذه التصرفات، لكن الأمر كان قد خرج من يده * مع ما أشرنا إليه من عدم اهتمامه بالحديث عن الخلافات بين الوفد والسعديين، فإننا نراه يروى باهتمام كبير قصة الخلاف الحاد الذى وقع حول استقالة رئيس ديوان المحاسبة وما أدى إليه تتابع الأحداث بعده من إقالته هو نفسه من مجلس الشيوخ * يلخص بعض الآراء التى أبداها مصطفى مرعى فى استجوابه وحذر فيها الحكومة من تجاوز ما أشار إليه تقرير ديوان المحاسبة ومن تجاوز الدور المهم الذى يقوم به ديوان المحاسبة من أجل الوطن، ومن أجل الحكومة نفسها * يلخص ما يصفه بأنه مغالطات ودفاع مرتب قام به فؤاد سراج الدين بالنيابة عن وزارة الوفد، وكان دافعه الحرص على بقاء وزارة الوفد فى الحكم بعدم إغضاب الملك مع الحاشية * يلخص رد الدكتور إبراهيم مدكور وإلى بلورة ما انتهت إليه مناقشات الشيوخ من رفض فكرة الانتقال إلى جدول الأعمال والتفكير فى تشكيل لجنة للتحقيق، وهو ما صرح فؤاد سراج الدين برفضه، وتحول المناقشة إلى البحث فى دستورية تشكيل لجنة للتحقيق فى الموضوع * يبدو فى كل ما يرويه أقرب إلى الحياد

بحكم ثقته فى صواب حكمه هو والذين أبدوا ضجرهم من تصرفات كريم ثابت والحاشية * يلقى بعض الضوء على ما تنامى إلى سمعه عن الترتيب للانقلاب الدستورى الذى حدث عقب هذه الأزمة ؟ واقتضى تعديل نسب الأحزاب فى مجلس الشيوخ عن طريق إخراج الشيوخ الذين عينوا بمرسوم يناير ١٩٤٥ وتعيين شيوخ آخرين مكانهم، وقد كانت هذه الحلقة هى آخر ملفات المعركة التى دارت سجالاً حول هذا التعيين، وأشرنا إليه أكثر من موضع من كتبنا والمذكرات التى تدارسناها * يشير باعتزاز إلى الدور الذى لعبه هو ورئيسا الحزبين الزميلين : هيكل باشا وحافظ رمضان باشا من أجل محاولة إبطال هذه المراسيم، وكيف باءت محاولتهم هذه بالفشل بسبب أداء وكيل مجلس الشيوخ حسين الجندى بصوته الجهورى وحرصه على مقاطعة المتحدثين * أداء الزعامات الحزبية فى الحقبة الليبرالية، وطبيعة ممارسة السياسيين الكبار لأدوارهم فى الحقبة الليبرالية قبل الثورة، وكيف كان الزعماء السياسيون ملتزمين بدرجات عليا من الأخلاق المتينة، وعزة النفس* يقدم تفصيلات دقيقة عن الخلاف الذى نشب فى أثناء وزارة محمد محمود بين أحمد ماهر باشا رئيس الحزب السعدى، وبين سابا حبشى باشا الوزير السعدى، وكيف كان أحمد ماهر حريصاً على الديمقراطية الحقة فى إدارته لهذا الخلاف، وذلك على الرغم من استهجان محمد محمود رئيس الوزراء لسلوك سابا حبشى، والخلاف مشهور فى الأدبيات التى تتحدث عن تاريخ هذه الفترة، ويعود سببه إلى رغبة أحمد ماهر فى دعم شركة البوستة الخديوية من موازنة الدولة، على حين كان سابا حبشى يعارض فى هذا الدعم * ينقل تفصيلات هذا الخلاف مما رواه الدكتور هيكل باشا فى مذكراته، ومعه حق كبير فى هذا؛ فقد كان الدكتور هيكل أحد شهود هذه الوقائع، وقد صاغ روايتها بطريقة دقيقة وجذابة * يقدم فى هذه المذكرات نموذجًا فريداً يبين عن مدى قدرة الوزير السياسى ورئيس الوزراء فى مواجهة المشكلات المفتعلة التى يدبرها بعض رجال الأعمال ويلوون بها ذراع الحكومات المتعاقبة، * نرى فيما يرويه مثلاً حيًا على الدور الحاكم والذكى الذى يمكن للوزراء الأذكياء أن يلعبوه بالحسم والوضوح واستغلال سلطاتهم من أجل مصلحة الجماهير * فى موضع ثالث من المذكرات يحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يذكر حقيقة قصة خروج عبد المجيد بدر من منصب وزير المالية فى وزارة النقراشى باشا الثانية وتعيينه مديراً للسكك الحديدية، وهو يحمل نفسه المسئولية عن هذه الخطوة/ الحل، ونحن نعرف أن مذكرات كريم ثابت، وهو كما نعرف رجل مشبوه، أشارت إلى هذه الواقعة فى إطار أن الملك فاروق كان قد فوجئ فى أثناء دخوله أحد الملاهى الليلية بعبد المجيد بدر وأحمد عطية (وزير الدفاع)، لما لم ينصرفا صمم الملك فاروق على إقالتهما، لكن إبراهيم عبد الهادى يقدم رواية غير هذه الرواية الشائعة فيذكر أن هذه الاستقالة حدثت لسبب مشرف جداً لعبد المجيد بدر، وهو أنه لم يستجب لرغبة الملك فى الحصول على دولارات مقابل قطن الخاصة الملكية * الواقع أن رواية إبراهيم عبد الهادى تنسب هذا الرفض إلى

النقراشى (رئيس الوزراء)، وإليه هو نفسه (وقد كان رئيسا للديوان)، * نعلق على ما يرويه إبراهيم عبد الهادى بما لم يذكره من أن وجود عبد المجيد بدر فى الحلمية بالاس نفسه كان بمثابة صفعة للملك، فقد ظل فى جلسته دون أن يأبه لوجود الملك * حرص إبراهيم عبد الهادى على الدفاع عن وجهة نظر السعديين فى ضرورة اشتراك مصر فى الحرب العالمية الثانية، ويحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يفيض فى الحديث عن هذا الرأى الذى ظل على الإيمان به حتى عندما كتب مذكراته عن تلك الفترة التى مضى عليها أكثر من أربعين عامًا * يبرر وجهة نظره بالحديث عما كان يعتقد فيه من أن الاشتراك فى هذه الحرب كان بمثابة فرصة لمصر فى تسليح الجيش المصرى، وفرصة أخرى من أجل إشراك الجيش المصرى فى حرب حقيقية، وهو يشيد بجوهر الاتفاق الذى كان على ماهر قد وصل إليه مع الجيش البريطانى * يعاود الحديث عن وجهة النظر هذه * يحرص على أن يشير إلى المراحل المختلفة التى شهدت تشبث السعديين برأيهم فى ضرورة إعلان مصر الحرب إلى جانب الحلفاء * يتحدث عن حوار تليفونى دار بين الملك وبين على ماهر، وعقب عليه ماهر بالقول بأن الشيخ المراغى انحاز كلية للإيطاليين، وقد كان من نتائج هذا أن صمم الإنجليز على إخراج السفير الإيطالى فى مصر، فلما سوّف على ماهر فى الاستجابة لهذه الخطوة أخرجوه هو نفسه * واقع الأمر أن إبراهيم عبد الهادى ظل على اعتقاده الراسخ فى صواب الرأى الذى تبناه السعديون بضرورة دخول مصر الحرب العالمية الثانية كيما يستفيد جيشها من هذه التجربة، وهو يضرب المثل على هذا بما حدث مع الهنود حين استفادوا من دخولهم الحرب العالمية الثانية * يقدم تلخيصًا للآراء المعارضة لرأى السعديين الداعى إلى إعلان مصر الحرب، وقد كان فى مقدمة هذه الآراء رأى رئيس الوزراء حسن صبرى نفسه * يشير إلى ما هو معروف من أن الإنجليز أنفسهم قد تغير رأيهم ولم يعودوا يطلبون أن تشترك مصر فى الحرب معهم، وهو يقدم ما يعتقد أنه مبررات لهذا التبدل فى الموقف الإنجليزى، وبعضها مبررات غير مقنعة فى نظرنا، فلم يكن الإنجليز ليحسبوا حساب وفائهم بالعهد، ولا مجرد التفكير فى هذا الوفاء إذا كان فى وسعهم أن يفيدوا من إمكانات غيرهم إلى أقصى حد ممكن * يشير بعد هذا إلى تشبث السعديين بموقفهم إلى حد أنهم قدموا استقالاتهم من وزارة حسن صبرى * فى لفظ عفيف يصف إبراهيم عبد الهادى بيان حسن صبرى فى الهجوم على السعديين نتيجة استقالاتهم بأنه كان بيانًا ظريفًا * يواصل دفاعه عن منطق السعديين فيما يتعلق بدخول الحرب إلى جانب الإنجليز وإعلان الحرب على المحور، وهو فى هذا الإطار يفخر بموقف السعديين حين رفضوا الاشتراك فى وزارة حسين سرى عقب وفاة حسن صبرى، ويقرن هذا الفخر بالحديث عما ينبغى التحلى به من شعور الكرامة، لكنه سرعان ما يجد نفسه أمام موقف السعديين أنفسهم وقد تغير بقبول الدخول فى وزارة حسين سرى الثانية، وهو عندئذ يقدم تبريراته لقبول السعديين الاشتراك فى الوزارة، وهى تبريرات تتراوح بين الضعف الغالب والقوة البسيطة * ما

تتضمنه المذكرات من حديث عن علاقة إبراهيم عبد الهادى بالإخوان المسلمين، وهى علاقة شائكة إلى أبعد الحدود * نبدأ بأن نورد بعض ما يلخص به إبراهيم عبد الهادى فى وسط مذكراته رأيه فى الإخوان المسلمين * من العجيب أننا نراه ينتصر لفكرة أن الإخوان طائفتان، طائفة أخيار مخلصون لله وللدين، وطائفة أخرى قتلة هم أعضاء التنظيم السرى * يحرص على أن يسرد كثيراً من الوقائع التى يرى أنها أوحت إليه بالشك المبكر فى سلوك الإخوان وتوجهاتهم * يسرد واقعة التحقيق مع عبد الحكيم عابدين فى تجاوز خلقى وما أسفرت عنه التحقيقات من استقالة وكيلى الجماعة * فى موضوع تال من مذكراته يضمن كثيراً من الهجوم الشخصى الذى يرد به على الهجوم الذى تعرض له من قبل بعض قيادات جماعة الإخوان المسلمين، وعلى سبيل المثال فإنه يتصدى لعبد الحكيم عابدين مذكراً بما حدث منه من جرم خلقى استتبع محاكمته فى مكتب الإرشاد، فلما ثبت عليه الخطأ وصدر الحكم مخففًا استقال بعض أعضاء مكتب الإرشاد وذهبوا إلى إبراهيم عبد الهادى يطلبون تأمين أرواحهم * يروى موقف الجماعة وصحفها من أحمد عبد الغفار باشا، وكيف شنت عليه حملة ابتزاز على الرغم من أنه كان قد قدم للجماعة خدمات كثيرة، وكيف تمكن هذا الرجل من إجهاض محاولة الإضراب التى دعمتها الجماعة فى تفتيش سخا بشمال الدلتا * يروى قصة لقاء له بالشيخ حسن البنا وهو رئيس للديوان الملكى، وكيف أنه حاول فى هذا اللقاء تعديل فكر حسن البنا بما يتفق مع الواقع ومع طبائع الأشياء فى السياسة، لكنه أدرك من مناقشته معه أنه متعجل للوصول إلى الحكم * ينفرد فى روايته لقصة حل جماعة الإخوان المسلمين على يد النقراشى بالإشارة إلى أن عبد الرحمن عمار وكيل الداخلية حذر النقراشى من إصدار هذا القرار، وذلك خلافًا للشائع فى الأدبيات التاريخية من أن عبد الرحمن عمار هو الذى كتب مذكرة حل الجماعة * يذكر تفصيلات مهمة لا تختلف عن الرواية المتواترة بأن النقراشى هو الذى شطب بنفسه اسم قاتله من قائمة المعتقلين * يذكر تفصيلات مهمة عن قتل الشرطة للضابط الذى تولى تدبير تفصيل وارتداء زى الشرطة لقاتل النقراشى، وهى تفصيلات غير شائعة فى الأدبيات المتاحة * يورد تفصيلات أخرى عن دور الشيخ سيد سابق فى عملية الاغتيال * يصل إلى أن يورد فى روايته أن رئيس المحكمة قال للشيخ سابق إنه لم يبرأ إلا لعدم كفاية الأدلة * يصف صاحب المذكرات هذا الموقف بأنه ذروة من ذرى العدالة * لا يفوّته الفرصة فى مذكراته ليحدد من وجهة نظره موقف الإنجليز من الإخوان المسلمين، وهو يمضى فى طريق اتهام الإخوان بالعلاقة بالبريطانيين * يستطرد فى حديثه عن علاقته بالإخوان المسلمين إلى المقارنة بين موقفه منهم وموقف مَنْ تلوه فيقول بكل صراحة * يتساءل عما كان مطلوبًا منه بعدما تم الوصول إلى الكشف الذى يضم أعضاء الجهاز السرى للإخوان فى أثناء ضبط السيارة الجيب * يضمن مذكراته مونولوجا طويلا من أسئلة التعجب عما كان مطلوبًا منه فى مواجهة ما تم اكتشافه من تورط التنظيم السرى للإخوان فيما يهدد أمن مصر

ومستقبلها * فى وسط كل هذا الحديث يورد تفصيلات حوار دار بينه وبين أحد أبرز علماء الدين وهو العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى * يصل فيما يرويه إلى أنه استطاع إقناع الشيخ عبد الجليل عيسى بوجهة نظره، وأنه نزع الغطاء عن كثير من الأكاذيب التى نسبت إليه. * ربما يجعلنا هذا نتساءل عن شعوره فى مواجهة سوء الفهم الذى كان يفرض نفسه على الروايات المتواترة عن موقفه من الإخوان المسلمين ومن عدائه السافر لهم، وربما يجعلنا هذا أيضاً ندرك حقيقة أن إبراهيم عبد الهادى تصدى وهو رئيس للوزراء لمهمة هى من صميم اختصاصات رئيس الدولة، ولهذا فإنه لم يلق التقدير على ما بذل من جهد فيها، بل إن رئيس الدولة نفسه تخلص منه بعد شهور معدودة، وتظاهر بأن هذا التخلص عنصر من عناصر إرضاء الإخوان، وهكذا تحمل إبراهيم عبد الهادى وحده المسئولية، ونسبت كل الأخطاء إليه، بينما كان الأمر مختلفاً فى العهد التالى حين تولى رئيس الدولة الأمر بنفسه فنال مزاياه وتجنب كل ما تعرض له إبراهيم عبد الهادى من نقد وهجوم * ربما كان هذا الموقف أحد دروس التاريخ فى مثل هذه القضية الشائكة * يحرص فى موضع سابق من مذكراته على أن يشير إلى حقيقة التأييد الذى حصل عليه فى البرلمان عندما حاول البعض إثارة الحديث عن تجاوزاته فى التعامل مع الإخوان المسلمين * يشير إلى أن من حقه أن يفخر بأنه كان قادراً بصرامته وجديته على إعادة الأمن إلى ربوع البلاد، وأن واحداً من أبرز رجال الوفد هو صلاح بك الشواربى شهد بذلك فى وجه وزير الداخلية فؤاد سراج الدين فى عهد سطوة سراج الدين نفسه * يستطرد إلى تأكيد حرصه على صورته فى مواجهة ما أذاعه الإخوان عنه * يقدم بعض الأدلة القاطعة على عدم تورطه فيما اتهمته به هذه الأقوال المرسلة التى لم تثبت صحتها رغم تحقيقها قضائيا مرة بعد أخرى * فى أثناء حديثه المطول عن محاكمته أمام محكمة الثورة يعطى أهمية خاصة لحرصه على تبرئة نفسه مما أشيع فى حقه من أنه كان المسئول عن اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا، وهو يقدم أسانيده التاريخية والقضائية فى هذه القضية على نحو مسلسل * ما ذكره إبراهيم عبد الهادى (ولا نقول اعترف به) فى أنه هو وليس النقراشى باشا الذى تولى التحقيق فى وقائع تدريب الإخوان للشبان على السلاح، فقد بدأ هذا التدريب يأخذ صورة شبه علنية عند قيام حرب فلسطين، ورأى النقراشى أن يتغاضى عنه باعتباره من الأعمال الوطنية، لكن إبراهيم عبد الهادى حسب روايته هو نفسه أمر ببعث الملفات من مرقدها حين بدأت الاعتداءات تترى على رجال البوليس ورجال الحراسة الليلية * ذكريات عن حرب ١٩٤٨ بدءا من دخولها، ثم سير المعارك، ثم عقد الهدنة، ثم الاحتكاكات بالأردنيين وباعتراضات العراقيين، ودوره فى دعم مجهودات الكفاح الوطنى فى هذه الحرب * الواقع أن المذكرات لا تخلو من بعض أسرار حرب فلسطين، وهو على سبيل المثال يشير إلى امتعاضه الشديد من أن يكون حيدر باشا هو العسكرى الأول على رأس الجيش فى حرب فلسطين، وهو الذى كان ملازم أول يطارد ثورة ١٩١٩ (!!) كما أنه يجزم بأن النقراشى

لم يكن موافقاً على دخول الحرب * يلخص نتيجة حرب ١٩٤٨ من وجهة نظره هو، بما فى ذلك الوصول إلى اتفاقات الهدنة على يديه، وهو يجاهر بأن الجيش المصرى لم ينهزم فى هذه الحرب حتى لو أنه لم ينتصر، وهو يرى فى القول بانهزام الجيش نوعاً من أنواع التجنى، ويكفى فى نظره أن الجيش المصرى رغم ظروفه تمكن من أن يحرم إسرائيل من الوصول إلى السويس، وهو يلفت النظر إلى أن بسالة الضباط والجنود المصريين عوضت جزئيًا ضعف التسلح الذى يصفه بأنه كان من بنادق الغفر، وهو يستشهد بالفريق محمد نجيب الذى خاض المعركة بنفسه، مع أن قواعد الجيش تحظر هذا كما يلفت النظر إلى ما أحرزته مصر من خلال محكمة الغنائم عن طريق القانون الدولى * الواقع أن فقرة إبراهيم عبد الهادى تحفل بكثير من الأفكار الاستراتيجية المهمة والقابلة للنقاش * ينفرد بالإشارة السريعة إلى بعض التفصيلات العسكرية فى حرب ١٩٤٨، ومن الطريف (وربما المذهل فى نظر البعض) أن نرى الإسرائيليين قد سبقونا فى ١٩٤٨ إلى إبرام ما يناظر صفقة الأسلحة التشيكية الشهيرة، وذلك حين حصلوا على بعض الطائرات من تشيكوسلوفاكيا عن طريق السوفييت على حد تعبير إبراهيم عبد الهادى، وربما يقصد أن يقول من السوفييت عن طريق تشيكوسلوفاكيا * من الطريف أن الشائع فى وصف صفقة الأسلحة التشيكية فى عهد الثورة أنها جاءت من السوفييت عن طريق تشيكوسلوفاكيا * يرى أن هذه الأسلحة هى التى رجحت كفتهم ومكنتهم من فتح ثغرة فى الخط الشمالى لجيشنا، ويبدو إبراهيم عبد الهادى وكأنه متأثر بما شاع فى أدبيات حرب أكتوبر ١٩٧٣ من حديث عن الثغرة التى لم تتحقق إلا بعد وصول أسلحة متطورة للعدو * أخطر فقرة فى حديث إبراهيم عبد الهادى عن حرب فلسطين وهو حديثه عن الهدنة، وهو يدلى لنا بمعلومتين تبدوان متناقضتين إلى درجة كبيرة، لكنهما فى الحقيقة تصدران عن نفس المنطق، إذ يقول ما نفهم منه أن النقراشى كان يتحرق شوقاً إلى فرصة للهدنة وهذا صحيح، كما يقول فيما يرويه على لسان النقراشى ردا على سؤال منه إن الإنجليز والأمريكيين هددوا النقراشى بقطع السولار عن مصر إذا لم يستجب لقرار الهدنة! وهكذا اجتمع الأمران اللذان يبدوان متناقضين حتى جعلا النقراشى يقبل الهدنة الأولى * يشير فى فقرات متعددة بكل وضوح إلى أن الرجل العسكرى الأول(!!) الفريق محمد حيدر وزير الدفاع كان يلح عليه فى الوصول إلى حل سياسى بأسرع وقت، وتمثل هذه الفقرات أهمية بالغة لأنها تصدر عن رئيس الوزراء الذى تولى بنفسه العمل من أجل عقد وتوقيع اتفاقية رودس، ومع أنه من السهل أن نلقى بصفة التبرير على ما يتحدث به إبراهيم عبد الهادى من مقدمات الهدنة، إلا أننا لابد أن نعترف للرجل بشجاعته فى تحمل المسئولية والحديث عنها بهذا الصدق بعيداً عن الشعارات أو عن إلقاء التبعة على الآخرين، وبخاصة ونحن نراه يردف حديثه عن رأى وزير الدفاع بالاعتراف بأنه كان مؤمناً بفكرة وزير الدفاع فى ضرورة الحل السياسى * الواقع أن إبراهيم عبد الهادى كان يحرص على اقتناص لحظة تساعده فى المفاوضات من

موقف أقوى، وهو فى هذا الصدد يعترف بالفضل للواء فؤاد صادق الذى كان قمة فى الإيمان وعدم الحرص على الحياة والدفع إلى الصمود * يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى هيأ له اللحظة التى كان يتمناها حين أسقطت القوات الإسرائيلية، عن طريق الخطأ، بعض الطائرات البريطانية التى جاءت للاستطلاع وظنها الإسرائيليون قد جاءت لمساعدة المصريين، مما أصاب الإنجليز بالجنون وجعلهم يهاجمون الإسرائيليين * ينتهز الفرصة بأسرع ما يمكن ويحدد موعدا للقاء الوزير البريطانى فى منزله على الرغم من أن هذا الرجل كان قد تجاهل البروتوكول ولم يقم بزيارته، كما نراه حاسماً فى ردوده على الوزير البريطانى الذى أراد أن يحصل منه على اعتراف بجميل لم يقصد إليه البريطانيون * ينتقل إلى الحديث عن تفصيلات حوار استراتيجى دقيق دار بينه وبين الوزير المفوض البريطانى، ويظهر من هذا الحديث قيمة وجود رجال دولة من طبقة إبراهيم عبد الهادى يتمتعون بالقدرة على الإلمام بالتاريخ، وتفصيلات العلاقات الخارجية، وحقوق وطنهم فى مقابل حقوق الآخرين * يحرص على ألا ينتقص من المواقف التى أحرزها أسلافه من السياسيين المصريين من حزبه أو من غير حزبه * انتهى إلى بناء موقف صلب فى مواجهة ألاعيب البريطانيين ومحاولتهم المن على مصر بموقف من مواقف حرب ١٩٤٨، بينما هم يقيدون أيديها حتى عن أن تنتفع بما تملك من سلاح أعارته للبريطانيين، وقد كان هذا الموقف بطبيعة العلاقات الدولية فى ذلك الوقت مشجعًا للأمريكيين على أن يأخذوا دورهم الذى كانوا يتطلعون إليه على نحو ما نراه من رواية إبراهيم عبد الهادى * من الجدير بالنظر أن نرى إبراهيم عبد الهادى رجل دولة قادراً على أن يأخذ قراره وأن يحصل لهذا القرار على موافقة مجلس الوزراء قبل أن ينهى كل هذا إلى الملك فاروق * من الجدير بالنظر أن نرى أيضا أن إبراهيم عبد الهادى ينص على أنه أبلغ القرار إلى الملك بوصفه القائد الأعلى للجيش لا بوصفه الملك * يورد بعض تفصيلات مهمة عن اتفاقيات الهدنة التى تمت بين مصر وإسرائيل فى عهده * يعترف بأن الجزء الأكبر فى الفضل فى إتمام هذه الاتفاقيات يعود إلى مسئول الأمم المتحدة، كما يعترف بأن طريقة الانتقال بين أطراف النزاع تجنبًا لالتقائهم مع بعض كانت شيئًا مضحكًا * كاتب مذكرات إبراهيم عبد الهادى كان حريصاً على التقليل من قدر محمود رياض حين يذكر أنه كان يوصف بحامل الحقيبة، وإنى أستبعد أن يكون إبراهيم عبد الهادى يقصد المعنى الظاهر لهذه العبارة التى أوردها كاتب المذكرات، ذلك أن إبراهيم عبد الهادى كان وزيراً للخارجية من قبل ويعرف أن اصطلاح «حامل الحقيبة» اصطلاح يطلق على مهمة يقوم بها دبلوماسى وليس اللفظ دليلاً على وظيفة دائمة أو صفة دائمة * يشير إلى الحل الذكى الذى استطاع أن ينتهجه للقضاء على مشكلة طارئة نشأت عن الاحتكاك بين الجنود المصريين والأردنيين فى منطقة الخليل * يبدو فيما يرويه مدى قدرة رجال الدولة المتميزين من أمثاله على إجهاض كثير من المشكلات الطارئة، ووضع الإطار القانونى والقانون الدولى الذى يتصدى للأقاويل والافتراءات مبكراً * يبدى تحفظه علنيا

على سياسة الملك عبد الله فى أثناء حرب ١٩٤٨ ، مشيداً كل الإشادة بالجيش المصرى الذى جاهد بأعز ما يملك دون أن تؤثر فيه المؤامرات والمناورات * تتضمن المذكرات ما يشبه الإدانة لسياسات الحكومة العراقية فى أثناء حرب ١٩٤٨ ، وهو يؤكد على ما شاع فى التاريخ العربى المعاصر أن القادة العراقيين الميدانيين كانوا يتقاعسون عن الاشتراك بقواتهم فى الحرب معلنين أنه لم تصل إليهم الأوامر بالاشتراك * يروى كل وضوح أنه صارح بهذا المعنى ومدلوله سفير العراق عندما جاءه حاملاً عتاباً من رئيس الوزراء العراقى لإبراهيم عبد الهادى لأنه لم يأخذ رأيه قبل توقيع الهدنة * من الواضح أن الحق كان فى جانب مصر وإبراهيم عبد الهادى * يزيد هذه اللقطة إيضاحًا راويًا ما يعرفه بحق عن تاريخ العراق الحديث، وطموحات نورى السعيد فى فكرة الهلال الخصيب، ومنازعة مصر على زعامة العرب * يستطرد بذكر حقيقة أن الباجهجى الذى خلف نورى السعيد فى رياسة وزارة العراق لم يكن قادراً على إمضاء سياسته العربية القوية لأن الجيش لم يكن ليقبل بغير سياسة نورى السعيد والأمير عبد الإله الوصى على العرش * بقى فى مدارستنا لحديث هذه المذكرات عن حرب ١٩٤٨ أن نشير إلى ما ذكره إبراهيم عبد الهادى من أنه ساعد بكل قوته وهو رئيس للديوان الملكى على نقل الأسلحة التى تمكن الوطنيون فى الإسماعيلية بقيادة عبد الحميد صادق من الحصول عليها من الجيش الإنجليزى : * ما يتحدث به إبراهيم عبد الهادى عن رأيه فى الملك فاروق وعن علاقته به فى أثناء رياسته للوزارة، ومن قبل ذلك فى أثناء رياسته للديوان، وربما كان من الأفضل أن نبدأ هذا الاستعراض بأن نتحدث عن الأزمات التى شهدتها فترة رياسته للوزارة باعتبارها أدلة كاشفة عن طبيعة هذه العلاقة، ثم نستعرض طبيعة علاقته به حين عمل معه رئيسًا للديوان، ثم نورد أهم آرائه فى شخصية الملك فاروق وأدائه * يورد الهادى تفصيلات مهمة لكنها مجملة عن أزمة حقيقية ارتبطت باختيار عثمان المهدى رئيسًا للأركان خلفًا لإبراهيم عطا الله، ويشير إبراهيم عبد الهادى إلى أنه هو نفسه كان يفضل تعيين اللواء أحمد فؤاد صادق لبطولته فى حرب فلسطين وكفاءته التامة، وأن إسماعيل شيرين كان أيضًا من هذا الرأى، لكن حيدر نجح فى تخويف الملك من أحمد فؤاد صادق مصوراً له على أنه «عرابى جديد»، ومن طرائف التاريخ أن أحمد فواد صادق كان المرشح الأول عند ثوار ٢٣ يوليو ليكون قائداً للثورة لكنه اعتذر عن قبول عرضهم التزامًا منه بالقسم الذى أقسمه بالولاء للملك * نأتى إلى الأزمة الثانية التى ارتبطت برغبة الملك فى تعيين عثمان المهدى بأمر ملكى بدلاً مما تم بالفعل وهو تعيينه بمرسوم ملكى، ومن الحق أن نشير إلى أن إبراهيم عبد الهادى وقف فى هذه القصة موقفًا متميزاً، وقد أشار حسن يوسف نفسه إلى هذه الوقائع فى مذكراته ونقلناها عنه وعقبنا عليها فى كتابنا «فى كواليس الملكية»، ومن العجيب أن الملك فاروق ظل يلح هذا الإلحاح الغريب من أجل سحب المرسوم ليصدر أمرًا ملكيًا بدلاً منه حتى دفع إبراهيم عبد الهادى نفسه إلى الخطأ فى حقه بقوله : أنا لم أسرق لنفسى فكيف أسرق لغيرى؟

ويبدو إبراهيم عبد الهادى نفسه شاعراً باندفاعه إلى هذا الخطأ نتيجة للإلحاح الثقيل والمتكرر الذى ووجه به * نأتى إلى ثالث أزماته مع الملك فاروق فى أثناء رياسته للوزارة، وهى أزمة التصديق على الحكم على مصطفى كمال صدقى، وكان الملك يريد من رئيس الوزراء ألا يصدق على الحكم على حين كان رئيس الوزراء يرى أن من واجبه أن يصدق على الحكم كى لا يكون أقل حرصًا على تطبيق القانون من القاضى المدنى الذى أصدر الحكم، وقد وصل إلحاح الملك إلى أن الرسل كانت تذهب إلى إبراهيم عبد الهادى صباحًا وظهراً ومساء * من الإنصاف لإبراهيم عبد الهادى أن نتأمل فيما يرويه عن الأزمة الرابعة، وهى التى تعلقت بالخلاف الذى وقع بينه وبين الملك فاروق بسبب مصروفات إصلاح يخت المحروسة، وهو الخلاف الذى يروى بعض المعاصرين أنه كان السبب فى إخراج إبراهيم عبد الهادى من رياسة الوزارة، ويظهر مما يرويه إبراهيم عبد الهادى أنه تحمل وحده مسئولية التوفيق بين الرغبات الفجائية للملك وبين القانون، كما وضع من القواعد ما يكفل سلامة الإجراءات دون أن يخلق مشكلة تصادم حادة، ومع هذا فإن مشاعر التربص والعداء فى القصر كانت كفيلة بأن تصور الأمور للملك فاروق على نحو آخر * يفاجئنا بأن الملك فاروق نجح فى أن يخفى مشاعره تجاهه، وأنه على النقيض من ذلك أظهر له تودداً لم يظهره من قبل لغيره، وذلك على الرغم من ضيقه منه، وعلى الرغم من أن بعض الوزراء المقربين من إبراهيم عبد الهادى كانوا قد علموا نية الملك فى إقالة الوزارة، وربما يدفعنا هذا إلى التفكير فى أن الملك لم يكن فى واقع الأمر صاحب قرار إقالة إبراهيم عبد الهادى وإن كان طرفًا فى اتفاق على هذا، وأنه لهذا السبب حاول أن يظهر له من الود ما يتكفل بتخفيف وقع الإقالة عليه! ونحن نعرف من مذكرات كريم ثابت وحسن يوسف وغيرهما أن الاتفاق بين الملك والبريطانيين كان قد تم على إعادة الوفد إلى الحكم * فى موضع آخر من المذكرات يلخص إبراهيم عبدى الهادى الأسباب التى أدت إلى اتخاذ قرار إقالة وزارته والاتفاق على هذه الإقالة من جانب الملك، ومن جانب الإنجليز على حد سواء * نعود مع المذكرات إلى الفترة التى عمل فيها بالقرب من الملك رئيسًا للديوان الملكى (طيلة عام ونصف العام) وانطباعاته عن الملك فى هذه الفترة، وهى الفترة التى لم تتطور علاقة الرجلين فيها إلى ما هو أكثر من الوظيفة * فى أكثر من موضع من المذكرات يتحدث إبراهيم عبد الهادى عن عدم مشاركته للملك فى سهراته، ولا حتى فى سهره * يؤكد على ما أصبحنا متأكدين منه الآن من أن الملك لم يكن يعاقر الخمر، لكن فى زمن نشر إبراهيم عبد الهادى لمذكراته كانت لاتزال هناك عقيدة فى أن الملك يشرب الخمر * يشير إلى أنه فى علاقته بالملك عندما كان رئيسًا لديوانه استطاع أن يرسم لنفسه حدوداً كرئيس ديوان قانونى فقط دون أن يتدخل فى أمور التشريفات أو البروتوكول * يروى كيف أنه حاول إصلاح بعض عيوب الملك دون جدوى، وهو يلخص صفات الملك البارزة فى أربع صفات: ذكاء حاد، حرص على الثأر، اعتقاد فى الفهم الكامل، حرص شديد على جمع المال *

مع أنه لا يضرب أمثلة كثيرة على الصفات الثلاث الأولى فإنه يفيض فى الحديث عن الصفة الرابعة، وهو يستعرض قصة مهمة حول حرص فاروق على المال راويًا موقف الملك من المقارنة التى عقدها له (الضمير يعود على إبراهيم عبد الهادى نفسه) بين سلوك ملكى اليمن والسعودية بما يتعلق بجمع المال والحرص عليه، وقد لمس أن الملك فاروق كان يؤثر أسلوب ملك اليمن فى اكتناز المال والإكثار منه!! * يشير بصراحة إلى شح الملك بالمعونة فى إنشاء معمل لقاح لمواجهة الأوبئة، على حين أنه أعلن عن رفض تبرع البدراوى باشا بعشرة آلاف جنيه للمشروع، وذلك على الرغم من محاولة إبراهيم عبد الهادى الحصول على دعمه المادى للمشروع دون جدوى * يعزو كثيرًا من تصرفات الملك فاروق إلى ضعف تعليمه، نافيًا عنه فى الوقت نفسه الجهل * يحرص على أن يبرئ الملك فاروق من التساهل فى حقوق البلد، وهو يقول إنه كان وطنيًا وكان هذا يكفيه، لكنه كان يريد أن يظهر كل شيء على أنه تم بتوجيهه وبمشورته، وهو ما يعتبره إبراهيم عبد الهادى رغبة فى التسلط وضعفا فى التعليم * ونأتى إلى جوهر آراء إبراهيم عبد الهادى فى الملك فاروق وأدائه، ونحن نراه يلخص رأيه فى الملك فاروق فيقول: إنه كان يعيش وسط الخدم ولا يطيق معارضة أحد من الرجال المحترمين، وأن هؤلاء الذين كانوا يكونون حاشيته كانوا سعداء بوجودهم إلى جوار الملك فاروق دون أن يظهروا ضيقًا بأى تصرف منه، وهو يضرب بحيدر ومرتضى المراغى المثل على المسئولين الذين كانوا يخضعون للخدم * ينسب المسئولية عن فساد الملك إلى على ماهر وحسنين باشا، وهو يحرص على أن ينقل بعض ما رواه مراد محسن عن سلوك أحمد حسنين الشائن * يتصل بحديثه عن علاقته بالملك ورأيه فيه ما يرويه عن دوره فى تأجيل طلاق الملكة فريدة وإلحاحه على الملك ألا يمضى فى هذا السبيل، ومحاولته أو تفكيره فى محاولة الاتصال بالملكة فريدة عند مرض الملك، وما انتهى إليه الأمر فى قضية الطلاق حين دعا الملك الشيخ أبا العينين وأكرهه على إجراء الطلاق * قصة اللقاء المحورى بين جمال عبد الناصر وبين صاحب هذه المذكرات، وقد كان اللقاء غير تقليدى على نحو من الأنحاء، فهو لقاء بين رئيس وزراء يحقق بنفسه فى تورط بعض الضباط الشبان فى حمل السلاح، وبين ضابط تورط فى هذا الجرم ثم أصبح بعد أقل من ٣ سنوات من كبار رجال عهد جديد فرضته ثورة شارك هو نفسه فى صنعها * الواقع أنه قد حرص فى مذكراته على أن يجلو حقيقة موقفه من التحقيق مع جمال عبد الناصر حين قبض عليه بتهمة حيازة السلاح، وهى تهمة كانت عقوبتها تصل إلى خمس سنوات، ويبدو إبراهيم عبد الهادى غاضبًا من روايتين متناقضتين شاعتا فى عهد الثورة، ولم يكن لهما فى رأيه نصيب من الصحة، الأولى وردت فى كتاب للدكتور الحوفى عن البطولة والأبطال وفيها صور إبراهيم عبد الهادى وهو رئيس الوزراء خائفًا من جمال عبد الناصر المقبوض عليه وهو صاغ(!!) أما الثانية فهى مناقضة للأولى تماما وقد أريد بها إظهار تعسف إبراهيم عبد الهادى فقيل إنه أوقف جمال عبد الناصر تسع ساعات أمامه * أما رواية إبراهيم

عبد الهادى عن هذه الواقعة فتتضمن ما يسجل به أنه لم يخف إعجابه بجمال عبد الناصر لأنه اعترف بأنه كان من الإخوان المسلمين، وبأن الأسلحة تخصه وقد جمعها فى أثناء اشتراكه فى حرب فلسطين وحصاره فى الفالوجا * ذكرياته عن الفترة الأولى من عهد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وهى الفترة التى شهدت محنته الشهيرة حين حوكم أمام محكمة استثنائية وحكم عليه بالإعدام * يروى قصة اللقاء الذى تم بين مجموعة من رموز الأحزاب المعارضة كان هو منهم، وبين بعض قادة الثورة، وهو لقاء فاتر، حيا فيه الزعماء قادة الثورة فرد هؤلاء التحية عليهم دون أن يدعوهم للجلوس وأبقوهم واقفين كالتلامذة على حد تعبير إبراهيم عبد الهادى * يروى كذلك أن اللواء أحمد فؤاد صادق زاره فى منزله وأنهى إليه أن الرجل المسيطر على الجماعة وهو جمال عبد الناصر يعتبر رجله هو، أى رجل إبراهيم عبد الهادى، لأنه هو الذى أنقذه من قبل من الاعتقال * ينتقل إلى رواية ذكرياته عن تشكيل محكمة الثورة وتقديمه هو نفسه ليكون أول المتهمين الثلاثين أمام هذه المحكمة، وهو يعود بذاكرته إلى ما سمعه بأذنيه حين ذهب لتهنئة رجال الثورة، ولم يعره التفاتًا فى وقتها * فى موضع ثان يروى بمرارة ملحوظة كيف نمى إلى علمه مبكرًا ما سوف يحدث له على يد محكمة الثورة، وهو حريص على أن يشير إلى أنه كان يثق فى الله وفى نفسه، ولم يجزع لما أدرك أنه مقبل عليه * فى موضع ثالث يتحدث عن معرفته المبكرة بما كان مبيتًا له من أمر هذه المحاكمة * يلخص فى هدوء شديد وقائع الجلسة الأولى لمحاكمته مظهرًا تعسف عبد اللطيف البغدادى رئيس المحكمه معه (وقد ظل إبراهيم عبد الهادى يسخر من البغدادى كلما جاء ذكره فى مواضع من مذكراته مكررًا ما وصف البغدادى نفسه به مرة أنه ولد قاضيا) * على الرغم من أن إبراهيم عبد الهادى فهم أن عليه أن يكتفى بكلمة مذنب أم غير مذنب فإنه حرص على أن ينفى الاتهام فى كل مرة، وأن يردف بذكر رأيه فى اختصار بليغ على نحو ما نرى * يروى بعضًا من المناقشات التى دارت بين كل من الأستاذ مصطفى مرعى وبين المدعى العام وهيئة المحكمة، وفيها تظهر قدرات مصطفى مرعى وسرعة بديهته التى تتجلى على سبيل المثال فى قوله «المريض حد يروح يسأله»، وفى قوله للمدعى: «لا تشاور عليها أنا عاوز أحط إيدى أنا عليها» * يحرص على أن يستعرض ما حدث فى الجلسة الثانية حيث تقدم أحد أشقاء الشيخ حسن البنا بمذكرة تستهدف منع مصطفى مرعى من الدفاع عن إبراهيم عبد الهادى باعتباره كان وسيطًا بين الحكومة (إبراهيم عبد الهادى) من ناحية، وبين الإخوان من ناحية أخرى * يشير إلى أن مجلس نقابة المحامين نفسه قرر أنه لا يجوز أن يتخلى مصطفى مرعى عن دفاعه عن إبراهيم عبد الهادى * يتحدث عن موقفه المبدئى مما اتهم به من الخيانة العظمى وحرصه على أن تكون مناقشة هذه التهمة مناقشة علنية كى يبرأ منها ولا تظل مرتبطة باسمه، وكيف تعنتت المحكمة فى معاملتها له مما أدى بمحاميه الأستاذ مصطفى مرعى إلى أن ينسحب من الدفاع * يروى أنه كان حريصًا على أن يتهم الفريق محمد حيدر أمام محكمة الثورة

بعد أن وجد قيادة الثورة قد جعلت منه شاهد إثبات ضده فى المسئولية عن حرب فلسطين * لايزال رغم مرور السنوات يعجب من هذا المصير الذى قدر عليه أن يلقاه أمام محكمة الثورة، ويبدو حديثه فى المذكرات وكأنه لايزال يعانى من الذهول من فقدان المنطق فيما وجه إليه من اتهام، وما تعرض له من محاكمة * يتحدث عن السبب الذى جعله يقرر أن يكف عن الدفاع عن نفسه لأنه وجد الهدف من المحاكمة يتمثل فى تعذيبه وإهانته، لا فى البحث عن حقيقة، وهو لا يكف عن إظهار ضيقه بتصرفات عبد اللطيف البغدادى رئيس المحكمة، ولا يكف كما ذكرنا عن وصفه بقوله: «القاضى الذى ولد قاضيا» فى تعريض ظاهر بما تحدث به البغدادى عن نفسه * يصل فى حواره مع البغدادى إلى أن يثبت على البغدادى، بطريقة غير مباشرة، خطأه المتجاوز فى حقه * يروى على طريقته جوهر الاتهام له بالخيانة، وهو، أى الاتهام، كما نرى فى حديثه اتهام متهرئ، وربما يعجب المرء أن تكون هذه هى الطريقة التى لجأت إليها الثورة فى مثل هذه المحاكمات، والواقع أن الأمر ليس بمستغرب فيما يسمى بالمحاكمات السياسية * لا يفوت أن يتحدث عن عبرة التاريخ فى دوران الأيام على الإخوان المسلمين الذين سعوا لإعدامه بتهمة الخيانة العظمى، ثم لم تمض شهور حتى وجهت لهم نفس التهمة * حديثه عن بعض شخصيات عصره * نبدأ بحديثه عن الزعماء الأربعة الذين دان لهم بالزعامة وهم: سعد زغلول، وعبد الرحمن فهمى، وأحمد ماهر، والنقراشى * يظهر فى الحلقات الأولى من مذكراته اعتزازاً لا نهاية له بشخصية سعد زغلول وقدراته وتاريخه الوطنى، وهو يخصص فقرات كثيرة من المذكرات للحديث عن طبيعة مواقف سعد وماضيه الوطنى وإجماع الأمة عليه، وهو ينقل رأى الحزب الوطنى المبكر فى عظمة سعد زغلول ووطنيته * من الجدير بالالتفات أن حديث صحافة الحزب الوطنى عن تعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف فى زمن الاحتلال البريطانى كان حديثًا حافلاً بالتقدير للرجل، والحديث عن الأمل فى أداء مميز للوزير الجديد، وتقييم موقف الوزراء والساسة والوزير بتفصيل دقيق مما لا يتاح فى صحفنا فى القرن الحادى والعشرين * للتدليل على قدرات سعد زغلول الفائقة يروى إبراهيم عبد الهادى مجموعة من الحوادث التى شهدها عهده فى وزارة المعارف، ومما يرويه موقف سعد زغلول من نبوية موسى حين كانت لاتزال طالبة فى المدرسة السنية، ومن الطريف أن إبراهيم عبد الهادى يروى القصة بأفضل مما روتها نبوية موسى نفسها * كذلك يروى موقف سعد زغلول من توجيه ناظرة المدرسة السنية التى حولها سعد زغلول وهو وزير إلى المجلس للتأديب، ثم رأى أن المجلس لم يوقع عليها ما تستحقه من عقاب فنقلها غير عابئ بسلطة المستعمر البريطانى ورجاله * يحظى عبد الرحمن فهمى بكثير من ثناء إبراهيم عبد الهادى وإعجابه الذى لا حدود له، وهو يسميه ديدبان مصر، وهو يتحدث عن دور هذا الرجل فى ثورة ١٩١٩ بكل ما يملك من اعتزاز بهذا الدور وصاحبه، ويرى فيه مثلاً أعلى وأبًا روحيًا، وهو يروى بكل وضوح أن الفضل فى قيام ثورة ١٩١٩ يعود إلى هذا

الرجل ودوره العظيم فيها «فى هذا الجو المرهق بقى ديدبان مصر ، وإذا قلت ديدبان مصر فإنما أقصد الرجل العظيم عبد الرحمن فهمى . لقد بقى هذا البطل مكبا على عمله ، صامدا فى موقفه لا يتزعزع ولا تلين قناته ، يخطط ويدبر وكله ثقة وإيمان بالله والوطن» * يعبر عن أسفه وأساه للمصير الذى انتهت إليه العلاقة بين الزعيم سعد زغلول وبين ديدبان مصر عبد الرحمن فهمى ، ونلمح فى حديث إبراهيم عبد الهادى انحيازاً إلى زعامة سعد زغلول على الرغم من إيمانه العميق بعبد الرحمن فهمى ودوره وانتمائه إليه ، ويلجأ إبراهيم عبد الهادى فى تفسير وقوع الخلاف بين الرجلين إلى تفسير ذكى يحفظ لكلا الرجلين قدرهما فى الحركة الوطنية ، لكن العجيب أن تفسير سعد زغلول نفسه لوقوع الخلاف بينه وبين عبد الرحمن فهمى يلصق بعبد الرحمن فهمى سبباً شبيهًا بالانحياز إلى القصر نفسه لا إلى أتباعه على نحو ما يصور إبراهيم عبد الهادى رأى عبد الرحمن فهمى فى سلوك سعد زغلول * انحياز إبراهيم عبد الهادى إلى زعامة سعد زغلول فإنه يصل إلى القول بأن سعد زغلول نفسه لم يكن يرتاح إلى الحديث فى موضوع عبد الرحمن فهمى لأنه كان يحس بخطئه (!!!) * من الجدير بالذكر أن إبراهيم عبد الهادى يلجأ إلى نقل نص لمصطفى أمين يحاول تفسير الأمور بما لا يحرج سعد زغلول (!!) وذلك على الرغم من تصريح إبراهيم عبد الهادى باعتقاده فى خطأ سعد (!!) * تحفل المذكرات بالثناء على أحمد ماهر فى مواضع عديدة، وعلى سبيل المثال فإنه يثنى على بعد نظره وسعة أفقه حين تنبأ بأن الجيش الألمانى لن يستطيع أن يكسب الحرب إلى النهاية ، ومع أن حججه كانت قوية واضحة فإن الأمة لم تستمع له !! (على حد تعبير إبراهيم عبد الهادى) * ويضرب إبراهيم عبد الهادى أمثلة على شجاعة أحمد ماهر فى مواجهة خصومه من عامة الوفديين وخاصتهم ، وهو يروى قصة مظاهرة مرتبة فى أثناء حكم الوفد ، كما ينفرد برواية قصة ضرب أحمد ماهر للهلالى باشا بالقلم على وجهه (وكلاهما من رؤساء الوزارة) ، وإن كان الهلالى لم يصل إلى الرئاسة إلا بعد وفاة مَنْ ضربه بالقلم على حد رواية إبراهيم عبد الهادى * فى موضع آخر من مذكراته يثنى إبراهيم عبد الهادى على أحمد ماهر وسعة أفقه * يروى قصة الأزمة الكبيرة التى حدثت بين الملك فاروق وبين أحمد ماهر فى بداية عهد الأخير برياسة الوزارة ، ونرى فيما يرويه إبراهيم عبد الهادى انحيازاً تامًا إلى أحمد ماهر ، ورفعًا من قدره ، وشهادات أخرى بقدره وقيمته على لسان أسلافه من أمثال أحمد عبد الغفار وغيره ، ونرى إبراهيم عبد الهادى يصور الملك فاروق نفسه وقد اضطر للاعتذار بنفسه لأحمد ماهر قولا وفعلا ، حيث حضر إلى بيته بنفسه ، ويدلنا ما يرويه إبراهيم عبد الهادى فى هذه الواقعة على أن الملك فارق كان حتى ذلك الحين لايزال قابلاً للمناقشة والمراجعة والعدول عن رأيه * وهو يثنى على دور أحمد ماهر فى وضع قانون الضرائب الذى أتاح أموالاً ضخمة للموازنة * يمضى فى الثناء على أحمد ماهر فيذكر ما تواتر عن أن الوزير البريطانى إيدن كان قد أشار إلى أحمد ماهر من طرف خفى بأنه ليس

من المصلحة تقديم النحاس للمحاكمة، لكن أحمد ماهر رد عليه بأن هذا شأن من شئون مصر الداخلية * يشير إلى مدى قدرة أحمد ماهر على إقناع زملائه من الزعماء السياسيين بسياساته التى انتهجها وهو رئيس للوزراء، ومنها دعوته إلى إعلان الحرب على اليابان * وكما يثنى على أحمد ماهر فإنه يثنى أيضا على خلفه النقراشى باشا ثناء متكررا فى كل ما يتعرض له من تاريخه وكفاحه ومواقفه السياسية * يصل فى ثنائه على النقراشى إلى حدود كبيرة لكنها لا تصل بحال من الأحوال إلى جوهر ثنائه على أحمد ماهر * يشير فى موضع آخر من مذكراته إشارات واضحة إلى دور النقراشى فى محاولة توجيه الملك فاروق دون جدوى * يكرر فى مذكراته تكذيبه لما شاع عن أن وزارة النقراشى فتحت كوبرى عباس عام ١٩٤٦ مما أدى إلى سقوط الطلاب فى النيل، وهو يعجب من أن تستمر رواية الأكاذيب فيما يتعلق بهذا الحادث * نأتى إلى الآراء العابرة التى أبداها إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته عن بعض الزعماء ورجال السياسة فى مصر، ومع أن المذكرات خلت من الهجوم على النحاس أو التعريض به، فإن إبراهيم عبد الهادى يحرص على أن يعلن بوضوح أنه أيد سياسة النحاس فى إعلان إلغاء معاهدة سنة ١٩٥١، وأنه لم يكن من سبيل غير تأييد النحاس فى هذا العمل، وهو مع ذلك يكرر إبداء ندمه على أن مصر لم تنجح فى الحصول على ما يوازى ما كان متاحاً فى مشروع صدقى ـ بيفين * ينفرد بالحديث عن دور قدر له أن يقوم به فى محاولة الإصلاح بين النحاس باشا والأستاذ العقاد، ومن الطريف أن محاولة الصلح التى نجح إبراهيم عبد الهادى فى أن يعقدها لم تصمد دقيقة واحدة وسرعان ما ذابت تمامًا ليبدأ جليد جديد بين هذين الرجلين العظيمين المعتدين بنفسيهما * تحفل المذكرات بما يعبر عن اعتزازه بالدكتور محمد حسين هيكل سياسيا، وكاتبا، وهو ينقل كثيراً من رواياته دون أدنى حرج، ويبدو اعتزاز إبراهيم عبد الهادى بجريدة «السياسة» واضحًا، وذلك على الرغم من أنه لم ينتم أبدًا إلى حزب الأحرار الدستوريين الذى كانت «السياسة» لسان حاله، وهو يشير إلى كثير من مقالات «السياسة» وحملاتها، كما أنه ينقل عنها بعض نصوص رئيس تحريرها الدكتور هيكل، وبعض كبار محرريها، كما نقلنا نص توفيق دياب، وهو يشيد بدور هذه الصحيفة فى كشف تجاوزات إبراهيم كريم باشا وزير الأشغال * يعترف بأن الفضل فى توليه رياسة الوزارة يعود إلى الدكتور محمد حسين هيكل الذى أشار على الملك بذلك فور اغتيال النقراشى باشا * يحظى حسين رشدى باشا بكثير من ثناء إبراهيم عبد الهادى، وهو يصوره صديقًا صدوقًا للحركة الوطنية ولسعد زغلول، وهو يستطرد من الحديث عن موقفه من لجنة ملنر إلى مواقفه السابقة عند إعلان الحماية وعند جمع توكيلات الوفد * يحظى على ماهر بكثير من تعاطف إبراهيم عبد الهادى وتقديره له، وإن كان حريصًا على أن يقرن هذا التقدير بانتقاده لبعض سلوكيات على ماهر، ولاعتقاداته فى نفسه، وعلى سبيل المثال فقد رأينا أن إبراهيم عبد الهادى يثبت لعلى ماهر الفضل فى إقناع سعد زغلول نفسه بعدم التفاوض مع ملنر ولجنته حول

قضية المؤامرة الكبرى التى كان أول المتهمين فيها هو عبد الرحمن فهمى عم على ماهر نفسه * نراه أيضا يتحدث عن دور على ماهر فى المفاوضات التى سبقت إقرار معاهدة ١٩٣٦ ، وفى حكم البلاد بكفاءة فى تلك الفترة الانتقالية التى شهدت وفاة الملك فؤاد وتولى الملك فاروق الحكم * هذه فقرة طريفة، من موضع آخر من المذكرات، يتحدث فيها إبراهيم عبد الهادى عن أسلوب على ماهر فى إدارة جلسات مجلس الوزراء فى وزارته الثانية (١٩٣٩) التى دخلها صاحب المذكرات وزيراً لأول مرة فى حياته * على الرغم من أن إبراهيم عبد الهادى يدافع عن وطنية على ماهر فإنه يراه قصير النظر، أقرب إلى الغرور * يحرص على تبرئة عبد الرحمن عزام وعلى ماهر باشا مما أشيع فى نطاق محدود حول موقف غير كريم لهما من قضية فلسطين * يحظى إسماعيل صدقى بكثير من ثناء إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته، ونحن نراه حريصًا على الإشادة بالنجاحات المدنية التى حققها صدقى باشا فى أثناء فترة حكمه فى الثلاثينيات، وهو يورد هذه الإشادة ضمن حديثه عن التتابع التاريخى للأحداث السياسية فى تلك الفترة المبكرة التى شهدت صدام صدقى مع الوفد حين كان إبراهيم عبد الهادى لايزال فى الوفد ، ومن الحق أن نشير إلى أن مبعث إشادة إبراهيم عبد الهادى بصدقى وإصلاحاته المدنية لم يكن انفعالاً وقتيًا بهذه الإصلاحات عند إتمامها ، وإنما جاءت هذه الإشادة بعدما عرف الرجل عن قرب فى وزارته الأخيرة، وبدأت صورته الحقيقية ترتسم أمامه، فضلاً عن أن صدقى نفسه كان فى هذه الفترة الأخيرة حريصًا على ما لم يكن حريصًا عليه فى تصويره لنفسه قبل ١٥ عاما * يثنى على السنوات الأخيرة من عمر صدقى، مشيرا إلى جهده الكبير فى معاهدة صدقى ـ بيفن، وإلى موقفه من تعيين كريم ثابت مستشاراً صحفيًا للملك * يروى قصة اشتراكه فى وزارة صدقى باشا الثالثة (١٩٤٦) وزيراً للخارجية، فينسب هذا الاختيار إلى النقراشى باشا الذى اشترط لمشاركة السعديين فى وزارة صدقى أن يتولى إبراهيم عبد الهادى وزارة الخارجية ليكون شريكًا أصيلاً فى المفاوضات ونتائجها، وذلك على الرغم من أن النقراشى باشا كان قد رفض الاشتراك فى وزارة صدقى باشا عند تشكيلها فى فبراير ١٩٤٦ * يحرص على الإشادة بحسن صبرى باشا ووطنيته، وذلك على الرغم من أن حسن صبرى صاحب أول إقالة(!!) خرج بها السعديون من الحكم، كما أنه أصدر بيانًا سخر فيه من السعديين بسبب استقالتهم من وزارته * ينفرد بنسبة الفضل فى اختيار حسن صبرى لرئاسة الوزراء إلى أحمد ماهر، وهو ينفرد بالحديث عن أن الملك عرض الوزارة على أحمد ماهر فأبان له هذا عن أن الإنجليز لن يوافقوا على مثل هذا الاختيار، ولا على اختيار محمد محمود خليل، ثم استمهل الملك وبعد قليل اتصل بالملك ورشح له حسن صبرى، ومع أن المصادر التاريخية المتاحة أمامنا لا تذكر هذه القصة، ولا تذكر أن الأحداث مضت على هذا النحو، وإنما تقدم روايات أخرى مختلفة تمامًا، فإن من حق إبراهيم عبد الهادى أن نورد روايته ونتأملها فى ضوء ما قد يتكشف فى المستقبل * يحرص على أن يشيد بعلى باشا عبد

الرازق، وهو ينحاز إلى موقفه عندما ألف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ولقى بسببه الفصل من وظيفته، وهو يضيف إلى هذا أمراً غير مشهور عن على عبد الرازق حين أصر على الحفاظ على الأوقاف من مطامع السراى مهما كلفه هذا من متاعب * تتضمن المذكرات كثيراً من الثناء على عدد من قادة الجيش المصرى وبخاصة أولئك الذين شاركوا فى حرب فلسطين، يأتى فى مقدمتهم الفريق أحمد فؤاد صادق، واللواء محمد نجيب، وضبع الفالوجا السيد طه، والواقع أن إبراهيم عبد الهادى كرجل دولة كان يتمتع بعلاقات حسنة مع القادة العسكريين، وكان هؤلاء يقدرونه ويرتاحون إليه * هذا نموذج لاستطرادات إبراهيم عبد الهادى فى الثناء على العسكريين الذين قدر لهم أن يعملوا بالقرب منه فى رياسة الوزارة وغيرها من المناصب * من الشخصيات العسكرية التى تحظى بثناء إبراهيم عبد الهادى بطريقة عارضة اللواء عبد المجيد فؤاد، وهو يذكر لهذا الضابط الذى كان رئيساً لمجلس عسكرى عدالته وذكاءه وحرصه على حقوق المتهم * بقى أن نشير كذلك إلى حرص إبراهيم عبد الهادى على الثناء على أنور السادات وزكريا محيى الدين وموقفهما فى أثناء محاكمته، وذلك فى مقابل هجومه المتكرر على عبد اللطيف البغدادى * نأتى إلى السياسيين الذين ينتقدهم إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته، وأبرز هؤلاء اثنان هما حسين سرى، ومكرم عبيد، ومع أن ألفاظه فى انتقاد حسين سرى أكثر صراحة من ألفاظه فى انتقاد مكرم عبيد، فإن جوهر انتقاده لمكرم عبيد يبتعد بمكرم تماماً عن حدود الوطنية الحقة، والإنسانية المعقولة * الواقع أن أحداً من الساسة المصريين لا يحظى فى مذكرات إبراهيم بهذا القدر من الانتقاد الذى يحظى به حسين سرى، وعلى سبيل المثال فإن إبراهيم عبد الهادى يتحدث باستخفاف عن وصول حسين سرى إلى رئاسة الوزارة لأول مرة عام ١٩٤١، وعن سرعة تغييره لموقفه الداعى إلى دخول مصر الحرب مع الإنجليز بعد أن غير الإنجليز موقفهم * فى إطار انتقادات إبراهيم عبد الهادى المتعددة والمتكررة لحسين سرى فإنه يستطرد فى آخر مواضع ذكرياته إلى الحديث عما رواه فؤاد سراج الدين من أحد المواقف المشينة لحسين سرى، ونحن نفهم بالطبع مدى المرارة التى كان الرجلان، لأسباب مختلفة، يحملانها من حسين سرى وسلوكياته، وها هى قصة الموقف الذى يصوره فى أدنى درجات الإحساس بالكرامة * يبدى ضيقه من الأسلوب الذى تعامل به خلفه فى رياسة الوزارة حسين سرى باشا، وهو حريص على أن يصفه بأنه كان ذا صلة قوية بالإنجليز، وأنه أساء معاملته على الرغم من أنه زاره فى المنزل وأنهى إليه توصية الملك له أن يأخذ مشورته فى كل شىء، وبصفة خاصة فيما يتعلق بالأمن العام * يذهب إلى ترديد ما هو شائع فى كتابات وأحاديث غيره من معاصريه، من أن أعداء الوفد من أن حسين سرى إنما جاء ليمهد لعودة الوفد * يروى إبراهيم عبد الهادى فى هذا الصدد ما كثر ترديده من أن فوز الوفد فى انتخابات ١٩٥٠ كان غالبية دوائر ولم يكن غالبية أصوات * هكذا نجد فى مذكراته تكراراً لهذه النغمة التى تحاول التقليل من حجم الفوز الذى أحرزه حزب الوفد فى انتخابات ١٩٤٩

التى جرت على يد حسين سرى وزوج ابنته محمد هاشم باشا حتى إننا نراه حريصاً على أن يشير إلى محاولة محمد هاشم زوج ابنة حسين سرى الاعتذار له عن الموقف الذى وقفه ضده فى هذه الانتخابات * يورد قصة استقالة مصطفى مرعى من وزارة حسين سرى فى سياق حديثه عن التصديق على حكم مصطفى كمال صدقى، مع أننا نعرف أن هذه القصة لم تكن السبب الوحيد ولا السبب المباشر فى كتابة مصطفى مرعى لاستقالته الشهيرة. ومع هذا فإن واقعة مصطفى كمال صدقى وحدها تكفى لأن تكون سببا لهذه الاستقالة المشرفة * مع كل هذا الانتقاد لحسين سرى فإن إبراهيم عبد الهادى يذكر لوزارته من الخير أنها استصدرت مرسوما بتعيين الأستاذ محمود محمد محمود رئيسًا لديوان المحاسبة، وهو يثنى على هذه الخطوة معتبراً أنها الحسنة الوحيدة التى أحرزتها وزارة سرى باشا * نأتى إلى مكرم عبيد وما يحظى به من نقد متكرر مباشر وغير مباشر فى مذكرات إبراهيم عبد الهادى، ولا يبدأ هذا النقد عند الفترة التى انفصلت فيها الهيئة السعدية عن الوفد بسبب سلوك مكرم عبيد المتعنت مع النقراشى وأحمد ماهر، وإنما يسبق هذا التاريخ ليعبر عن الضيق النفسى الذى كان يعترى وطنيين من طراز إبراهيم عبد الهادى من سلوك مكرم عبيد وما يجره على الائتلافات والتوافقات الوطنية من آثار حزبية متحيزة كان مكرم حريصًا عليها، وعلى سبيل المثال فإن إبراهيم عبد الهادى يستحضر من ذاكرته بعض المقالات التى تكشف عن حرص مكرم عبيد المبكر على الإساءة إلى الائتلاف بين الوفد والأحرار الدستوريين، وهو الائتلاف الذى كان قائما قبل وفاة سعد زغلول، واستمر قائما لبعض الوقت بعد هذه الوفاة، وقد استمرت وزارة عبد الخالق ثروت فى الحكم إلى أن بدأ مكرم يدفع الوفد إلى مناوأتها * ينسب السبب فى الانشقاق الوفدى الذى حدث فى مطلع الثلاثينيات، وهو الانشقاق المعروف بانشقاق السبعة ونصف إلى سياسة مكرم، ولاشك أن إبراهيم عبد الهادى محق فى هذا الذى يدعيه ومع احترامنا لما يبديه إبراهيم عبد الهادى فى روايته من أسباب متقبلة فإننا لابد أن نشير إلى الحقيقة الأخرى فى هذه الحادثة، وهى أن هؤلاء (أى الزعماء الثمانية) كانوا أميل إلى الوصول إلى حل وسط مع صدقى باشا بعد إجراءاته العنيفة التى صعدها طيلة عهد وزارته فى الثلاثينيات * كذلك يحظى مكرم عبيد بانتقاد إبراهيم عبد الهادى لمغالطاته فى المعالجة الصحفية لموضوع اعتراض السراى على تعيين يوسف الجندى وزيرًا * يلقى بعض الضوء على الخلافات التى تفاقمت بين مكرم عبيد (وزير المالية) وبين النقراشى (وكان رئيسا للوزراء)، وهو يرى أن هذه الخلافات كانت السبب فى إنهاء حياة وزارة النقراشى فى مطلع ١٩٤٦، ذلك أنها شجعت المعارضة الوفدية على توجيه ضربات شعبية إلى الوزارة من خلال المظاهرات التى كان من نتيجتها فتح كوبرى عباس وما أشيع من غرق الطلاب فى النيل، ويحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يكرر الاستشهاد بما أدلى به فؤاد سراج الدين وزير الداخلية فى برلمان ١٩٥٠ من أن أحداً لم يمت فى هذه المظاهرات * يستشهد برأى الدكتور هيكل

فى مسلك مكرم عبيد وأنه لم يكن ليسلك معه مسلكه مع النقراشى، ويشير إبراهيم عبد الهادى إلى السبب الذى جعل النقراشى يتحمل مضايقات مكرم عبيد * يحرص على إدانة الدور الذى لعبه يحيى إبراهيم باشا فى رياسة حزب الاتحاد، وهو يلجأ فى هذه الإدانة إلى أسلوب ذكى حيث ينقل بعض فقرات من حديث عبد العزيز فهمى الذى سخره لنقد يحيى إبراهيم وسلوكه فى حزب الاتحاد، وقد وصل فى هجومه عليه أن وصفه بأنه غير مسئول عما يفعل، وبأنه ضعيف القلب واللسان، وإن كان ذا لقب ضخم * بحكم انتماء إبراهيم عبد الهادى إلى مجموعة السعديين الذين خرجوا على النحاس باشا فإنه يحرص فى كثير من فقرات مذكراته على الإشارة إلى الماضى غير الوطنى أو غير المشرف لبعض مَنْ وصلوا إلى مواقع متقدمة فى الوفد فى عهد النحاس باشا، وهو ينتهز فرصة الحديث عن حادث السردار وخروج سعد زغلول من الحكم ويشير إلى موقف المغازى باشا، ثم يستطرد أيضا إلى موقف حفنى الطرزى * يضمن مذكراته قليلاً مما لم يتناوله كثيرون مما يعرف بأحاديث النميمة السياسية، ومن هذا حديث حقيقة علاقة السير لامبسون بأمين عثمان باشا، وأنه كان لهذه العلاقة جانب خفى يتمثل فى إعجاب لامبسون بزوجة أمين عثمان * ينفرد بالإشارة إلى وقوع الجنرال ريتش فى غرام إحدى السيدات المصريات مما أثر على أدائه فى قيادة قوات الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية.

* * *

الباب الثانى: حياتى .. مذكرات سيد محمد باشا

* التعريف بالمذكرات وصاحبها * ونبهنا إلى وعيه التام لما قد تجلبه المذكرات عليه من غضب، وهو يعتذر سلفا إذا جاء رأيه مخالفا لرأى آخر أو عقيدة، ولا يقطع بالصواب فيما يرويه وإنما يعترف باحتمال الخطأ* يتحدث عن قيمة امتداد العمر فى حماية صاحبه من الخوف من قول الحقيقة، كما يتحدث عن الدافع النبيل الذى سيطر على حياته كلها، وهو الجهاد من أجل الحق والفدائية فى سبيل هذا الحق، وهى فدائية العمل الجاد والتفانى فيه حتى لو أدى هذا إلى فقدان حياته هو * يظهر ألمه من التزوير والادعاءات الكاذبة التى تطرقت إلى تاريخ ثورة ١٩١٩ * يجاهر برأيه فى أن الفدائية وحدها هى سبب نجاح ثورة ١٩١٩، ويقدم أسانيده القوية على ما يقول * يقدم وصفا دقيقا لفلسفة الفدائيين فى عملهم السرى، وهو وصف ينطق بالوعى الذى كان صاحب المذكرات يتميز به، سواء كان فى ذلك هذا الوعى سابقا على الأعمال الفدائية، أم كان لاحقا لها، لكننا نحس من عبارات الرجل وألفاظه أن هذه كانت فلسفة حاكمة لمجموعتهم * يحرص على أن

ينفى خضوع جماعته لقيادة وفدية من التى صورت مسئولة عن النشاط السرى فى ثورة ١٩١٩، وإن لم يقف أيضا وجود بعض العلاقات السريعة * يحرص على الإثبات المستوعب مقررا مسئوليته التامة عن كل القنابل التى ألقيت منذ مايو ١٩١٩ وحتى * يدلل على صدق منطقه بتوقف حركة إلقاء القنابل بعد سفر أحمد عبد الحى كيرة * يبدى رأيا ذا قيمة فى أهمية العمل الفدائى فى ثورة ١٩١٩، وأنه سبب نجاح الثورة مقدما فهما تاريخيا عميقا يعز وجوده حتى بين كثير من المؤرخين الذين تضغط الأيديولوجية على أحكامهم * يتحدث حديثاً صريحاً عن بدايات اهتماماته بالسياسة فيشير إلى الدور البارز الذى لعبه نادى المدارس العليا فى تنمية وعى الشباب المصرى بقضايا الوطن أياًما كانت دوافعهم الأمنية إلى النحاس مع هذه القضايا والتفاعل معها، وعلى سبيل المثال فإنه فى الوقت الذى بدأ وعى سيد باشا بأحاديث السياسة فى ذلك النادى كانت القضية تتمثل فى الصراع بين الجيشين التركى والبريطانى عند حدود سيناء * يتحدث عن إحساسه المتنامى بمبادئ الإنجليز ضاربا مثلا بأسلوبهم فى اختيار المدرسين فى مدرسة المعلمين العليا وحرصهم على «نجلزة» التعليم * يشير إلى بداية علاقته بأقطاب الحزب الوطنى (القديم) دون أن يشير إلى اسم الحزب الوطنى نفسه، وكأنه يريد أن يصور علاقته بهؤلاء فى إطار زعامتهم لمنتدياتهم لا فى إطار انتمائهم للحزب الوطنى * يتحدث حديثاً دقيقاً عن طبيعة المعارضة التى لقيها الوفد المصرى عند بداية تكوينه، وكيف أنها كانت محدودة جدا وهو يحقق مسألة مهمة، وهى أن المعارضة التى نسبت إلى الحزب الوطنى لم تكن صادرة عن أعضاء الحزب البارزين، وإنما عن بعض أعضاء لجنته التنفيذية فقط، بينما أن المكباتى والنحاس وحافظ عفيفى وعلى ماهر كانوا مؤيدين (وهو يستثنى أستاذه عبد اللطيف الصوفانى الذى لم يبد رأيه صراحة على حد تعبير سيد باشا) * يشير إلى دوره ضمن مجموعة الشباب فى إيقاف حركة الحزب الذى كان يتزعمه الشريعى، وإن كان يعتقد أن اسم «حزب الأمة»، «المستقل الحر» على حد رواية إبراهيم عبد الهادى * يقدم رواية متميزة ومختصرة لأحداث الثورة فى ١٩١٩ ودور الطلبة فيها، ومع أن هذه الرواية قد تختلف فى بعض جزئياتها مع روايات كثيرة أخرى نقلناها عن إبراهيم عبد الهادى وعز الدين يوسف سعد وغيرهما، فإنها تمثل اختلافات من زوايا الرؤية التى قدر لأصحابها أن يروا الأحداث * ينسب تأليف نشيد «احنا التلامذة» الشهير إلى الدكتور محمود الحفنى * ينفرد بالإشارة إلى محاولات المتظاهرين شق بطن خيول السلطة بأمواس الحلاقة، كما يواجه سيد باشا الواقع بصراحة ويعترف بأن أعمال شغب قد اقتحمت المظاهرات على يد بعض المندسين الذين حطموا عربات الترام * يشير إلى أن اليوم الثالث للمظاهرات شهد إضراب المحامين وتعطل المواصلات تماما، مما دعا الإنجليز إلى إصدار أوامرهم بمنع المظاهرات، بل بدءوا إطلاق النار على المتظاهرين بكثرة، وهو يشير إلى أسماء زعماء المظاهرات، وإلى الاتفاق على اجتماع يومى فى بيت الأمة أو الأزهر * يشير إلى أن تطور الثورة فى

اليوم الرابع امتد بها إلى الأقاليم، وبدأ قطع خطوط السكك الحديدية، وأسلاك التليفونات والتلغرافات، أما فى القاهرة فقد بدأت الجماهير تتحدى الجنود الإنجليز بعد أن تكاثرت أعداد عمال المصانع المضربين * يشير إلى محاولات ذكية قام بها المتظاهرون لتعطيل حركة الجنود الإنجليز، وإلى قسوة الإنجليز فى إصدار الأحكام بالجلد والسجن وكلاهما معا، فضلا عن إطلاق الرصاص على حاملى الرايات * ينفرد الحديث عن الدور المبكر لمحمد عثمان الطوبجى فى تحريك جموع العمال، وفى الاتصال بعمال العنابر والترسانة من أجل ضمهم لتيار الحركة الوطنية، وكيف ظهر مجهوده هذا فى ١٥ مارس، أى قبل مضى أسبوع على بدء الثورة * يتحدث فى مذكراته عن مظاهرة السيدات المصريات فى مسارها حديثاً دقيقاً يدل على ما تميزت به هذه المظاهرات من روح التنظيم، والحرص على النجاح، والواقع أن هذه المظاهرة كانت تعبيرا ذكيا عن روح شعب قادر على الثورة، وعلى تنظيم أموره فى الوقت نفسه بعيدا عن الصورة التى كان الإنجليز يصورونها فيها * يقدم وصفا دقيقا لكبرى المظاهرات الوطنية، وهى مظاهرة الطوائف المختلفة التى استمرت ست ساعات كاملة، ويرينا الوصف الذى يقدمه سيد باشا مدى القدرة على التنظيم التى وصل إليها الطلاب فى خلال أسبوع واحد من بدء ثورة ١٩١٩، وهى قدرات عالية كانت أهم ما ساعد على نجاح ثورة ١٩١٩ على نحو ما نجحت، * الوصف الذى يقدمه عريان يوسف سعد لهذا اليوم فى مذكراته لا يكاد يختلف فى تفصيلاته، وإن كان يتمتع بنفس أطول * ينفرد بالحديث عن البطولة الخارقة لإحدى المظاهرات حين تمكن المتظاهرون من الانقضاض على المدافع الكبيرة من أجل خطفها، مما ألقى الرعب فى قلوب الجنود الإنجليز * ينفرد كذلك بالإشارة إلى دور الجامع الأزهر كمعقل من معاقل المقاومة، فضلا عن دوره فى التوجيه والمشاركة، وهو يروى معلومة نادرة لأحد طلاب الأزهر فى إحدى المظاهرات * يروى موقفا مشرفا لشيخ الأزهر فى عدم الاستجابة لإغلاق الأزهر، ويشير إلى أن الأزهر ظل بمثابة نقطة تجمع رغم حصاره، وقد كان الطلاب يدخلونه فرادى * يتحدث عن الدور الذى قدر له ولزملائه أن يقوموا به من أجل بدء إضراب الموظفين، ومع أن هذا الدور لم يكن منظما على نحو مسبق، فإنه كان من الذكاء بحيث استبق الأحداث وجعل من الضمائر هاديا للتصرفات المرجوة من دون سعى إلى اتفاق أو ترتيب كتابى، وهنا تظهر مهارة عقلية عالية لسيد باشا وزملائه، أو مَنْ قام منهم بهذا العمل على وجه التحديد * هذا الترتيب الذى أفلح فى بدء إضراب الموظفين لم ينجح من المرة الأولى، وإنما اقتضى محاولات دائبة من أجل البحث عن الأسلوب الأمثل للتأثير والنجاح * يعترف أن الجزء الأكبر من النجاح الذى تحقق فى إضراب الموظفين يرجع إلى خطبة ألقاها رئيس مجلس اللوردات البريطانى واستثار فيها، دون أن يدرى، روح الوطنية عند الموظفين الذين لم يكن يليق بهم إلا أن يضربوا احتجاجا * يقدم تفسيرا معقولا لما يسميه التحول الذى أصاب إضراب الموظفين * يستعيد من ذاكرته أحاسيسه القوية فى يوم إضراب

الموظفين، أى يوم ٣ أبريل ١٩١٩، وهو يشير إلى أن هذا اليوم كان يوما مميزا فى تاريخ مصر، لأنه شهد إضراب الموظفين الذى لم يحدث فى تاريخ مصر إلا فى ذلك اليوم * يتذكر مع هذا ما هو بمثابة ذكرى خاصة به وحده، حيث استطاع فى ذلك اليوم أن يقتل إنجليزيا، وأن يتم هذه العملية فى حذر وهدوء ونجاح، محققا رغبته فى الانتقام لإخوانه فى الوطن الذين قتلتهم السلطات البريطانية بعسفها وجورها * يروى الصدفة التى جاءت إليه بالطبنجة مع أخيه محمد، وكيف أنه فكر فى استغلالها، وانضم إلى إحدى المظاهرات حتى وصلت إلى ميدان عابدين، وهناك قابل ديكسون رئيس مفتشى السكة الحديد وهو يتذمر من المظاهرات فما كان منه إلا أن قتله، وقد نجح المتظاهرون فى أن يغطوا على تصرفه، حيث رفعوه وكأنه هو الذى يهتف بالمظاهرة، ثم تحركوا به إلى حيث يمكنه الهرب * يروى أنه استحلف زميله فى اللجنة العليا ألا يبوح بسره على الإطلاق * يقدم تفصيلات شائقة عن دوره فى قتل أحد الإنجليز * يروى أنه كان واحداً من الوفد الذى شكله الوطنيون لإتمام الصلح مع الأرمن بعدما صادفوا هجوما بالرصاص من بيت واحد من الأرمن على المظاهرات، مما اضطر الوطنيين إلى قتل الأرمنى الذى وجدوه فى المنزل الذى انطلق الرصاص منه * يشير إلى هروبه إلى وطنه الأصلى بعيدا عن القاهرة * يشير إلى أنه كان يتمنى على الله جل وعلا أن يغير رأى والدى ويجعله يسمح له بالعودة إلى القاهرة * يذكر أنه لم يضع وقت إقامته فى بلده من دون مشاركة فى الثورة، وإنما استغل صلاة الجمعة وخطب فى المجتمعين مبيناً لهم مساوئ الاستعمار، ومظالم الإنجليز المستعمرين» * مكث فى البلد نحو عشرة أيام قام خلالها بجولة فى القرى المجاورة لقريتنا، وكان يدعو أهل القرية التى حل بها إلى الاجتماع فى مسجدها ثم يخطب فيهم مبيناً لهم الأعمال الضارة التى يرتكبها الإنجليز فى حق المصريين * يشير إلى أن نشاطه هذا لفت أنظار السلطات إليه، مما جعل والده يفضل له العودة إلى القاهرة بعيداً عن الأنظار المركزة عليه وحده!! * تتضمن المذكرات تفصيلات دقيقة عن تكوين لجنة طلبة المدارس العليا ومندوبى المدارس فى هذه اللجنة، وهى معلومات تتفق فى مجملها مع ما رواه الدكتور مهدى علام فى ذكرياته التى نشرها أبو بكر عبد الرازق * يشير إلى أن هذه اللجنة تولت تنظيم حركة الإضرابات وقيادتها حيث يقوم مندوبو المدارس ومَنْ يختارونهم لمعاونتهم بالدعاية للإضراب الذى يقرر، ثم منع كل مَنْ تسول له نفسه بالذهاب إلى عمله فى أيام الإضراب * ويروى فى هذا الصدد قصة الدور الذى قدر له أن يلعبه فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية بالعباسية * يشير إلى دور هذه اللجنة فى طبع المنشورات التى تكتبها اللجنة وغيرها من الهيئات المشتغلة بالثورة، وهو يذكر أسماء المطابع الأهلية التى ساعدت هؤلاء الطلاب الثوار على أداء مهمتهم * يشير إلى التطور الطبيعى لفكرة شراء مطبعة خاصة بالثورة، بما يوفر على أعضاء اللجنة من إجراءات الأمن والتأمين، ويمكنهم من أداء مهمتهم على نحو أسرع، وهو يذكر تفصيلات فى غاية الدقة عن المكان الذى اختير لتوضع المطبعة فيه *

يشير إلى عناصر مشوقة فى مغامرة نقل ماكينة الطباعة إلى المكان الذى اختير لوضع المطبعة فيه، وما حدث من مفاجآت كادت تفسد كل التخطيط، وتقود إلى وقوع زعماء الطلاب فى التهلكة * يتحدث الدكتور سيد باشا بفخر عن قدرته الفذة على معالجة الموقف علاجا سريعا وحاسما، وكيف رزق من قوة الفصل ما مكنه من أن يؤدى عملا شاقا فى سرعة خاطفة وقوة، وهو يشير إلى الفطريات القائلة بإمكان قيام الإنسان بعمل خارق عند تعرضه للخطر الشديد * يتحدث سيد باشا عن التحول الذى طرأ على تفكيره فيما يتعلق بتحديد مكان المطبعة، وكيف أنه انتبه إلى أفضلية وجودها فى مكان مطروق حيث لا ينمو الشك فى نفوس أجهزة البوليس * يروى تفصيلات طريفة عن الطريقة التى تمكن بها هو وزملاؤه من طباعة جريدة «المصرى الحر» السرية * يظهر لنا ذكاء هؤلاء الثوار الذين انتبهوا إلى أهمية الفصل بين مكان جمع الحروف، وبين مكان الطبع * يدلنا ترتيب الخطوات التنفيذية التى كان هؤلاء الطلاب يتبعونها فى أدائهم لمهمتهم السرية هذه على مدى ما كانوا يتمتعون به من نضج وقدرة على التخطيط الجيد، والتنفيذ الدقيق، وهى الصفات التى مكنت من تعاظم دورهم فى ثورة ١٩١٩، ونجاح هذه الثورة * يشير الدكتور سيد باشا آسفا إلى المصير المجهول الذى لقيته هذه المطبعة على يد قيادات التنظيم السرى لثورة ١٩١٩، وذلك على الرغم من أنه هو وزميله كانا يملكان آلاتها * يورد فى مذكراته تفصيلات متعددة عن الوسائل التى لجأ إليها الطلاب فى ثورة ١٩١٩ من أجل تسليح أنفسهم، ومن الطريف أنهم حصلوا على الأسلحة من الضباط الإنجليز غير الملتزمين(!!) وهى فكرة طبيعية فى مثل هذه الظروف، على أن الأهم من الحصول على السلاح كان هو الحصول على القنابل * وظف علمه من أجل وضع خطة إنتاج القنبلة التى تمكن الثوار من تصنيعها فى بعض الورش الميكانيكية، بمعاونة عمال ورش عنابر السكك الحديدية * يأتى أخيرا دور البطل أحمد عبد الحى كيرة فى حديث صديقه وزميله الدكتور سيد باشا، وقد رحب هذا البطل بالمشاركة فى تحضير القنابل، وتولى استحضار بعض المواد الكيميائية الخاصة بها * يشير إلى وعيه بأهمية تجريب القنابل قبل استخدامها، وإلى قيامه بهذا التجريب بنفسه، وإلى وعيه أيضا بضرورة تأمين تخزين القنابل حتى الحاجة إليها فى النشاط الفدائى * يشير إلى محاولة تكوين تنظيمات عنقودية، وإن لم يستخدم المصطلح، وكيف تم تنظيم العمل من خلال هذه العناقيد * نلاحظ مما يرويه سيد باشا أنه يعترف اعترافاً واضحاً، وإن لم يكن صريحا، بالفضل الأكبر (لحلقة) العمال، وإن كان يشير إلى أنه كان بمثابة الموجه أو المنسق لهذه الجماعة الفدائية التى تولت كل العبء فى إنجازات العمل الفدائى فى ثورة ١٩١٩ * يشير إلى ما يصفه بأنه ثلاث خطط متوازية * نفهم بالطبع أن مثل هذه الخطط لم ترد على هذا النحو فى الاتفاقات المبدئية، وإنما طورتها التجربة والنجاح فى النشاط السرى على هذا النحو * فى خضم هذا الحديث كله لا يغفل عن التنفيس عن شعوره بالضيق ممن سموا أنفسهم «جماعة اليد السوداء»، وعن إدانة تصرف المنتمين

إلى هذه الجماعة التى استغلت العمل الوطنى من أجل النصب * يتحدث أيضا عما اعتراه هو وأصحابه من التفكير فى تدبير التمويل من خلال التنظيمات المرتبطة بالوفد، وذلك فى ظل غياب سعد باشا زغلول عن مصر، وهو يشير إلى رأى ينفرد به، وهو أن عبد الرحمن فهمى كان معارضا للعمل السرى على الرغم من شهرته الذائعة بالمسئولية عن مثل هذا العمل!! * نصل إلى ما يرويه عن التخطيط للاعتداء على رئيس الوزارة محمد سعيد باشا، وهو أول مَنْ قبل رياسة الوزارة الإدارية بعد استقالة وزارة رشدى باشا، وهو يتحدث بالتفصيل عن الدور الذى قدر له أن يقوم به فى هذه المحاولة الفدائية * يحرص على أن يورد رواية عن لقائه بالمصادفة بالنقراشى، الذى كان يعرفه من قبل، وحديثهما عن النشاط الفدائى، وإعجاب النقراشى بالخطوات التى مضى فيها سيد باشا، وحرصه على تعريف زميليه أحمد ماهر والشيشينى بسيد باشا، ومع أن سياق القصة كلها يأتى فى موضعه الطبيعى، فإننا نعجب أن يضحى سيد باشا بكل احتياطاته ويندفع فى الحديث عن كل التفصيلات للنقراشى على هذا النحو * يزداد عجبنا من حرصه على إلقاء كثير من الظلال على علاقته بالنقراشى عندما نقرأ ما يرويه عن لقائه بالصوفانى، وما يرويه كذلك عن لقائه التالى بالنقراشى * يصل إلى الحديث عن الواقعة نفسها حين شارك فى محاولة اغتيال محمد سعيد باشا، وكيف فشلت هذه المحاولة * تنفرد المذكرات بالإشارة إلى اسم الزميل الذى تسبب فى فشل هذه المحاولة، على حين لم يشأ الآخرون ممن رووا ذكرياتهم تحديد شخصيته (وهو عبد الحميد المنصورى) * يستطرد راوياً تفصيلات ما اعتراه من شكوك بسبب موقف عبد الحميد المنصورى * يورد تفصيلات طريفة عن هربه بالسكة الحديد إلى قريته مدعيًا أنه كفيف يحرص على أن يبدى سعادته بنجاة بيت عائلته من اكتشاف ما كان فيه من أدلة كانت كافية لإدانته * يشير إلى نصيحة والده له بأنه إذا كنت أرغب فى البقاء بعيداً عن القاهرة لمدة أسبوع، فليكن ذلك عند صديق له اسمه الشيخ أحمد طرابية من أعيان كفر حميدة الواقع على مسافة كيلومترين جنوبى عزبة البرج المواجهة لرأس البر، وأنه قد أخذ بنصيحة والده هذه * فى وسط حديث ذكرياته عن الأيام التى ظل هاربا فيها، والتى امتدت نحو خمسة أشهر، يروى لنا الدكتور سيد باشا كيف أنه بدأ يحس بالقلق الدافع على البحث عن صدى هربه عند الناس، وأنه غامر بالخروج من المنزل المختبئ فيه كى يرى الدنيا ويلتقى أهلها، وهو يجد ما توقعه من ملاحقة السلطات لأهله ومعارفه، فينفجر، لكنه سرعان ما يتذكر فضل الله عليه فى هذه الناحية فيشير إلى أن عمله كان خالصا لوجه الله * نجده حين كتب مذكراته فى شيخوخته لايزال ملما بكل هذه التفاصيل * يتحدث عن المحاولة الثانية للاعتداء على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا، وهى المحاولة المعروفة التى قام ببطولتها الطالب الأزهرى سيد على، ونحن لا نجد فى المصادر الأخرى المتاحة ما يدلنا على اكتشاف علاقة سيد باشا بهذه المحاولة * عندما يصل سيد باشا إلى الحديث عن محاولة اغتيال رئيس الوزراء يوسف وهبة باشا، فإنه ينهى

إلينا قرار اغتياله على يد قبطى، وكأن هذا القرار كان من البديهيات ولم يسبقه تفكير ذكى * ينسب علاقة عريان يوسف سعد بهم إلى زميلهما أحمد عبد الحى كيرة، وهو ما لا يتعارض ما تضمنته مذكرات عريان يوسف نفسه التى لم تنشر أيضا فى كتاب إلا بعد سنوات طويلة من وقوع هذه الحوادث * نقرأ فى حديثه عن محاولة اغتيال يوسف وهبة تفصيلات أخرى عن قيام العمال والطلبة وخلاياهم المشتركة بمحاولات ناجحة لقتل الشخصيات الإنجليزية البارزة * يصل إلى المرحلة التى تقرر فيها تهريبه للخارج، معللا هذا القرار بما وصل إليهم من قرار محمد بدر الدين مدير الأمن العام بتكثيف الجهود للقبض عليه باعتباره المدبر الأساسى لجرائم الاغتيالات السياسية * يحرص على أن يرينا أن قمة الثقة بالنفس قد دفعته هو وزملاءه إلى أن يقيموا له حفل وداع قبل سفره للخارج، وإلى أنه قام أيضا بوداع أهله واستأذنهم فى السفر، ولا يستطيع أحد أن ينكر مدى نجاح سيد باشا فى التصوير المؤثر للخطوات التى سبقت سفره للخارج، وربما يمكننا القول بأنه لم يكن يؤدى هذه الخطوات بهذا القدر من الثقة فى ذلك الوقت، لكننا لا نستطيع على أية حال أن نمنع أنفسنا من الإعجاب بشجاعته وجسارته * نصل إلى الباخرة التى ستنقله إلى الجانب الآخر من المتوسط، حيث يبدأ حياة جديدة * تحفل رواية صاحب المذكرات بما يدل على سرعة تصرفه، وعلى قدرته على انتهاز اللحظات المناسبة لإتمام خططه، كما تحفل أيضا بقدرته على الاحتياط والاحتراز، وإن لم يخل الأمر بالقطع من عنصر الحظ المواتى * ليس من الشذوذ فى شىء أن نرى صاحب المذكرات غير ملم بنظام السفر، ولا بقواعده، وربما كان هذا من حسن حظه، إذ لو عرف الحقيقة لانتابه القلق الكفيل بضياع نتائج جسارته واندفاعه إلى هدفه، وربما يدلنا هذا على ما فى هذه المذكرات من صدق فنى أتاح لها قدرة على التأثير، وعلى فهم قارئها لحقائق التاريخ * نأتى إلى خطوات لا يبدو أن سيد باشا قد شرع فيها من وحى اللحظة، وإنما كان قد دبر أمرها وهو لا يزال فى بلاده، وقد استوحاها من قصص مماثلة قرأها أو سمعها، أو طورها على نحو كان كفيلا به بالنجاح على نحو ما نرى * يبدأ سلسلة من مداعباته الثقيلة للسلطات الإنجليزية * ينتقل بعد فترة قصيرة إلى العاصمة الإيطالية قاصدا الالتحاق بجامعتها، ويكرر ما بدأه من قبل من مغامرات محسوبة تكفل له تأمينا لخططه، وإمتاعا لشخصيته المغامرة التى بدأت تعيش حرية كانت محرومة منها طيلة شهور * نراه قادرا فى ذكاء شديد على توظيف معلوماته عن الصراعات الدولية من أجل تحقيق مكاسب تكفل له العيش الآمن، وربما الرغد، بيد أننا بحاسة التمحيص لا نستطيع أن نستبعد نوعا من العلاقة بينه وبين الأتراك كانت قد بدأت، مما مكنه من مثل هذه الخطوة، وليس لنا أن نلومه على مثل هذه العلاقة * يستأنف سيد باشا نشاطه البارز فى الحركة الوطنية، فهو يسعى إلى لقاء عبد اللطيف المكباتى عضو الوفد، والتعاون معه من أجل خدمة القضية الوطنية * يحرص على مزج هذا الشعور الجميل بالألم من تعرف أحد المصريين الذين زعموا لأنفسهم دورا لم يحدث، متجنين بذلك على

الأبطال الحقيقيين على حد إيحاء سيد باشا فى مذكراته * لا يقف الإلهام النفسى له عند هذا الحد، لكنه يبدى ألمه المستتر من أن زميله وصديقه أحمد عبد الحى كيرة لم يقم معه فى إيطاليا وانتقل إلى ألمانيا، ثم تركيا، حيث اغتالته المخابرات الإنجليزية * يصل اعتداده بنفسه وبنشاطه فى خدمة الحركة الوطنية إلى أن يسافر من روما إلى باريس كيما يطمئن زعيم الأمة على أن جهود الفدائيين ستتكفل له موقفا أقوى مما قد يسفر عنه مؤتمر الصلح، ونحن نرى سعد زغلول فى رواية سيد باشا زعيما حقيقيا قادرا على المتابعة والنقد والتحليل، ملما بالخيوط، وقادرا على استيعاب العلاقات، وعلى السؤال الجيد * بعد أن يفرغ من رواية هذا اللقاء والحوار الكاشف بينه وبين زعيم الأمة، نراه يضطر نفسه كى يقدم بعض التفسيرات المباشرة، وكأنما لم يكفه الإيحاء البارع الذى تمكن منه، وليس من شك فى أن هذا السلوك يعبر عن شخص مخلص لفكرته، لكنه لا يؤمن بالفن وأثره فى توصيلها، فإذا هو يلجأ إلى التصريح الفج بعد أن نجح بالفعل فى توظيف التلميح الذكى، وربما أنقص التصريح الفج من قيمة ما كونه بالتلميح الذكى * نراه يؤكد على هذا المعنى من خلال إثباته أو نقله لفقرة فى مذكرات سعد باشا توحى بوضوح بعلاقته المباشرة بالفدائيين * فى موضع آخر من مذكراته يشير إلى لقائه بسعد زغلول فى باريس * قد لا يدهشنا فى المذكرات حرصه الشديد على الولاء لسعد زغلول وزعامته * يدافع عن سعد دفاعا حارا ضد الاتهامات التى كالها له مَنْ خرجوا عليه * تنطق المذكرات بحب سعد زغلول وتقديره، والتماس المعاذير له فيما كان جيل الشباب الفدائيين يأخذه عليه، وعلى سبيل المثال فإنه يحكى قصة لقائه هو وزميله يوسف العبد مع سعد باشا وتعجبهما من أن يثنى سعد على توفيق نسيم الذى لم يطلب الرأفة لزميلهما إبراهيم مسعود على أن هذا كان فى وسعه * يتحدث بزهو معقول عما استطاع تحقيقه من مكانة فى إيطاليا، وكيف وظف هذه المكانة المتميزة من أجل قضية مصر الوطنية، وهو يصل إلى الاعتراف الصريح بأنه كانت تربطه علاقة مباشرة بموسولينى رئيس تحرير جريدة «البوبو دى إيطاليا» وقبل أن يصبح زعيم حزب الفاشيست، ثم رئيس الحكومة الإيطالية * بعد هذه الأضواء المضيئة لطبيعة نشاطه، وبخاصة فى إيطاليا، نراه يقدم ما يشبه كشف حساب عن إنجازاته فى فترة المنفى ودراسته * يقطع تسلسل الرواية ليتحدث عن أسفه لحرمانه مما كان يستحقه من إشادة بجهوده وجهود محمد محمود * يذكر بالامتنان لقاءه على الشمسى حين زار روما فى صيف عام ١٩٢٢ للدعاية للقضية المصرية وكيف أبدى على الشمسى تقديره لجهد صاحب المذكرات * نأتى إلى إحدى الوقائع المهمة فى تاريخ صاحب المذكرات، وهى واقعة اتصاله بالخديو السابق عباس حلمى، وما جره هذا الاتصال عليه من مشكلات وسببه له من متاعب، على الرغم من حرصه على أن يظهر سطحية هذه العلاقة كما سنرى فيما يرويه * الواقع أن أى علاقة لأى أحد بالخديو عباس كانت بمثابة خميرة عكننة للملك فؤاد، وبخاصة فى ظل وجود عدد لا يستهان به من العملاء المزدوجين الذين كانوا يفيدون من

تأجيج الأزمة من حين لآخر * ترينا روايته بعدا مهما فيما يتعلق بأدوار رجال السياسة الذين لعبوا على أوتار هذه القصة * نستأنف ما يرويه عن تطور علاقته بالخديو عباس حلمى، وبداية التوتر فى هذه العلاقة حين تصدى لرغبة الخديو فى احتواء الحركة الوطنية واستغلالها لمصلحة عودته إلى عرشه * نأتى إلى مشاركته فى مؤتمر لوزان ١٩٢٢ * يشير إلى أن على الشمسى باشا هو الذى ألحقه بهذا الوفد، وما شهده هذا المؤتمر من محاولة محكوم عليها بالفشل فى التوحيد بين جهود الحزب الوطنى والوفد فى ظل سعى الخديو عباس حلمى إلى استغلال المؤتمر لصالحه، وهو ما لم يكن الوفديون ليوافقون عليه * يورد تفصيلات مهمة عن مؤتمر لوزان وممثل مصر فيه * أورد فى مذكراته نص خطاب مصطفى كمال أتاتورك إلى حسن حسيب باشا رئيس وفد مصر لدى مؤتمر لوزان * نصل إلى اللحظة التى شهدت تفجر الخلافات بين ممثلى مصر فى مؤتمر لوزان، ونحن نجد سيد باشا يصور نفسه فى حواره مع على الشمسى أكثر وعيا منه بالحقائق الحاكمة لتصرفات السياسيين وقصور نظرهم * تنفرد المذكرات دون غيرها من أدبيات تاريخنا المتاحة بالحديث التفصيلى عن الخديو عباس حلمى من مؤتمر لوزان * لا تقف جسارة سيد باشا فى حديثه عن سلوكيات كبار رجال الدولة عند حد، ونحن نراه يعلن أنه اكتشف من بين أعضاء الوفد مَنْ يتجسس عليه لحساب الملك فؤاد * يقدم أدلته على أن اللذين قاما بهذا الدور هما عبد الحليم البيلى، وإبراهيم راتب اللذان كانا عضوين فى وفد مصر إلى لوزان، كما كانا منتمين للوفد * تنفرد المذكرات بالتأكيد على أهمية النتائج التى حصلت عليها مصر فى مؤتمر لوزان، وربما لا يوافق القارئ على مثل هذه الأهمية، إذ أن القراء يدركون الآن أن ككل هذه المعاهدات الدولية لا تقيم حقا من تلقاء نفسها، وأن قيمتها تكمن فى أنها قد تصلح كأسانيد * يصل فى التعبير عن عداوته للخديو عباس إلى حد أن يذكر أنه أقنع وزير المستعمرات الإيطالية بتآمر الخديو، مما جعل إيطاليا تقرر إبعاده عن إيطاليا وعدم السماح له بدخولها، وهو ما استمر حتى وفاته * يتحدث بفخر شديد عن حصوله على الدرجات النهائية من أحد عشر ممتحنا هم لجنة الدكتوراه، ولا يعجبن القارئ من أن يحصل سيد باشا على هذه الشهادة بهذه السرعة، فقد كان النظام الإيطالى فى ذلك الوقت قائما على هذا النحو، وهكذا كانت الدكتوراه التى يتحدث عنها سيد باشا أقرب إلى درجة البكالوريوس البريطانية والفرنسية، حيث كان النظام الجامعى الإيطالى يتيح هذه الدرجة عقب المرحلة الجامعية الأولى مباشرة * ينسحب حكمنا هذا على ما يرويه عن لقائه هو وزميله يوسف سعد بالزعيم سعد زغلول قبيل توليه رياسة الوزارة، واقتراحهم عليه ألا يقبل بهذا المنصب، مكتفيا بزعامة الأمة * انتهى لقاء سيد باشا وزميله بسعد باشا إلى حرصهما على إثبات وجهة نظرهما فى أن الإنجليز لن يطيقوا بقاء سعد فى الوزارة، وهما لا يقفان عند حد فى تشخيصهما للموقف على هذا النحو، وإنما يندفعان بمعونة صديق ثالث إلى كتابة منشور يحرض على عدم التعاون مع الإنجليز، ويؤكد على أن الكفاح المسلح لايزال

ضروريا!! * من الطريف أن سعد زغلول نفسه كان لا يجد حرجا فى أن يظل مثل هذا الرأى سائدا بين أوساط مؤيديه، فها هو يضحك لهذين الشابين ويقول: «لكم دينكم ولى دين» * نصل إلى مفترق الأحداث فى العلاقة بينه النقراشى، وهو المفترق الذى جاء سريعا عندما أصدر سيد باشا وأصدقاؤه منشورهم المندد بالتعاون مع الإنجليز من خلال الوزارة والبرلمان * نراه لا يجد حرجا فى أن يغمز النقراشى بقوله: إن شعوره بالهزيمة لا يغضبه فحسب، وإنما يجننه * يروى تطور ترقيته الوظيفية من بعد عودته من إيطاليا فى أساليب شيقة، وهو حريص على أن يوحى إلينا أن انتمائه إلى الحركة الوطنية كان بمثابة عبء على مستقبله السياسى * يفاجئنا بأن أحد زملائه فى الكفاح المسلح، وهو النقراشى، هو الذى خفض مرتبه!! ووقف أمام نواله ما كان يعتبره بمثابة حقه الطبيعى * نصل إلى مرحلة حتمية فى كل ثورة حققت بعض نجاحاتها من خلال العمل السرى، وهى مرحلة العمل على استئصال المبرزين فى العمل السرى حتى لا يظلوا مصدر خطورة كفيل بتغيير أوضاع مَنْ وصلوا إلى السلطة، ومع أن القراء يعرفون عن ثورة يوليو ١٩٥٢ أنها اتبعت هذا الأسلوب حتى أقصاه، فإن أحدا لا يتصور أن ثورة ١٩١٩ عانت هى الأخرى من بعض المؤامرات التى كانت تفقدها أبناءها المخلصين، وتفرض عليها الانتهازيين والنفعيين * من العجيب أن معاناة سيد باشا مع الحكومة فى عهد وزارة سعد زغلول بدأت عندما وقعت محاولة اغتيال سعد زغلول نفسه، واستسهلت أجهزة الأمن أن تضعه بين المشتبه فيهم * يروى الأعقاب المباشرة للاعتداء على سعد زغلول، وما اقتضته إجراءات الأمن من تفتيش بيته * يفاجئنا بأن اتهامه فى قضية مقتل سعد زغلول قد تطور على يد السلطات إلى اتهام آخر بمحاولة قتل الملك فؤاد نفسه من أجل التمهيد لعودة الخديو عباس حلمى * مع ما يبدو فى هذا التفكير من شذوذ واضح فى تدبير الأمور، فإن ديناميات الصراعات السياسية تدلنا على أن مثل هذه المؤامرات تمثل نمطا طبيعيا فى محاولات التخلص من الشخصيات المؤثرة من طراز صاحب هذه المذكرات * يروى كيف أفاده موقفه الصعب وجعل السلطات تحسن معاملته * يقدم وصفا تفصيليا للتحقيق الذى أجرى معه فى حضور وزير المعارف، ووكيل وزارة المعارف، وشخصيتين كبيرتين من المعروفين بولائهم للقصر الملكى * كان هذا التحقيق فيما يبدو توصل إليه سعد زغلول باعتباره رئيسا للحكومة فى مواجهة الاتهامات التى رمى بها سيد باشا، والتى لم يكن من الممكن للنيابة العامة أن تمضى فى خطواتها بعدما تأزم التحقيق الذى بدأه النائب العام نفسه مع سيد باشا * نرى فى وصف سيد باشا لجلسات التحقيق مدى ما يمكن للقضاء أن يحققه من عدالة، ومدى ما يمكن للسياسة أن تتورط فيه من أحكام جاهزة بناء على رغباتها وانحيازاتها * نمضى معه وهو يقيم للمحقق على بك سالم الأدلة على أن علاقته بالخديو عباس لم تتعد حدود التعاون اليسير من أجل دعم جمعية شبابية، وأنه على النقيض من الاتهامات المجهزة ضده كان معاد للخديو، بل إنه، كما أشرنا من قبل كان يعتقد فى نفسه عن طرد

الخديو من إيطاليا * يصل إلى ذروة الدراما فى التحقيق معه، حيث تحول بفضل ذكائه من متهم إلى مدع أحرج حسن نشأت نفسه * عند هذا الحد نجده يبدأ فى محاولة تبرير لجوء حسن نشأت إلى تلفيق الاتهام له نصل إلى نجاحه الفذ فى حمل سكرتير الخديو على الاعتراف بأنه أجبر على كتابة التقرير الذى قدم ضد سيد باشا لإثبات تواطئه مع الخديو على قلب نظام الحكم * يصل إلى الحديث بفخر عن نجاح خطته فى الإيقاع بسكرتير الخديو السابق * ليس من العجب أن يتطرق التحقيق معه إلى الحديث عن عقيدته فى تفصيل النظام الجمهورى، ونحن نراه قادرا على الدفاع عن مثل هذا الاتهام دفاعا مقنعا جعل المستشار المحقق يسأله: هل هو دكتور القانون؟ * يورد بعد هذا بعض ما تضمنته نتائج التحقيق من تبرئة له من التهم التى نسبت إليه، لكنه يأسف من أن وزارة المعارف، وكنا لانزال فى عهد وزارة سعد زغلول، كانت قد أصدرت قرارا بفصله من العمل * لسنا نعرف لماذا انصرف سيد باشا عن أن ينال حقه من خلال معرفته بسعد زغلول نفسه! * تنفرد المذكرات، دون المذكرات والكتابات التاريخية، بتقديم تصور كامل لقضية مقتل السردار، وهو يلجأ فى إكمال الصورة التى يرسمها إلى بعض ما قد يوصف بالتعسف أو التزيد فى الاستنتاج، لكننا لا نستطيع أن ننفى أن تصوره كفيل بحل كثير من الألغاز فى هذه القضية المعقدة التى لاتزال بعض جوانبها فى حاجة إلى التأمل والدراسة * من السهل على الناقد التاريخى أن يطعن فى رواية سيد باشا بذكر عداوته السابقة لعبد الحليم البيلى مثلا، أو لحسن نشأت، لكننا لا نستطيع أن نوافق على مثل هذا الطعن، فقد كان خلاف الجانبين نفسه انعكاسا لموقفهما من الحركة الوطنية، ولم يكن خلافا شخصيا، وهكذا فإن سياق الاختلاف والخلاف يمضى فى صالح رأى سيد باشا ولا يمكن أن يؤخذ ضده * نلاحظ فى رواية سيد باشا عنصرا مهما غاب عن روايات عبد العزيز على، وعبد الفتاح عنايت وغيرهما، وهو العنصر المتعلق بشفيق منصور ومدى إسهامه فى هذه القضية، حيث يذهب عبد العزيز على وعبد الفتاح عنايت إلى أن شفيق منصور برىء من الاشتراك فى هذه القضية، وأنه لم يكن موافقا على إتمام عملية الاغتيال على هذا النحو * يقدم تحليلا وتوصيفا أقرب إلى المعقولية حتى وإن غابت حقائقه عن المشاركين فى الاغتيال أنفسهم، وهو يصور شفيق منصور متورطا فى التهمة بسبب عدم وصوله إلى ما وصل إليه غيره ممن اعتبرهم أندادا له فحسب، وهكذا لعب القصر على هذا الوتر حتى دفعه إلى المشاركة الفاعلة فى التخطيط للاغتيال على نحو ما تم * أما دور محمود إسماعيل فقد حظى بتحليل جيد من سيد باشا، وهو تحليل ساعدت عليه معرفة مسبقة جيدة بالرجل وطباعه وتاريخه * من العجيب فى هذا كله أن سيد باشا كان قريبا جدا من العملية، لكنه حرص على أن يبتعد عنها نهائيا، وهذا هو ما نجاه من الاتهام * يتهم حسن نشأت اتهامات واضحة ومبررة فيما يتعلق بقضية مقتل السردار * يصل إلى النص على ما يوحى به ما روى عن تأجيل عملية الاغتيال أسبوعا حتى أمكن إقناع إبراهيم موسى وغيره * يقدم مجموعة كبيرة من الأدلة والقرائن

على أن قتل السردار كان بتدبير وتحريض السراى والمندوب السامى الإنجليزى فى مصر؟ * يقدم أدلة جيدة تدل على تفكير منطقى، وعلى قربه من مسرح العمليات. ومن مسرح الأحداث معاً، ومع احترامنا لآراء سيد باشا فإننا لن نمنع أنفسنا من أن نعلق عليها بعض تعليقات سريعة من قبيل القول بأن بعضها لا يعدو أن يكون فى إطار تقاطع المصالح، أو توافق الغايات من مساع مختلفة * نأتى إلى ما يرويه صاحب هذه المذكرات عن الوقائع التى كان هو نفسه (أى سيد باشا) طرفا فيها * يلقى أضواء كاشفة على طبيعة الدور الذى لعبه نجيب الهلباوى فى الإيقاع بالمتهمين فى حادث مقتل السردار * يتحدث مبكرا عن إدراك عريان يوسف سعد المبكر لتحول نجيب الهلباوى عن انتمائه الوطنى، وتحوله إلى عمالة المخابرات السياسية * يواصل نهجه الفكرى والنقدى فى تعامله مع قضية مقتل السردار إلى أن يصل إلى أن يشخص أن خمسة من الذين أعدموا شهداء، وأن اثنين منهم ذهبا ضحية أطماعهما * يميل إلى القول بأن الإيقاع بشفيق منصور كان بمثابة البناء الذى بنى عليه قرار الاتهام * على المستوى الشخصى فقد كان حادث مقتل السردار حاسما فى اتخاذ سيد باشا قراره بالتقاعد والابتعاد عن مجال العمل الفدائى * يكرر أسفه لوجود طائفة الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ممن صوروا قادة للعمل الفدائى ولم يكونوا كذلك، وممن نالوا أمجادا ومناصبا نتيجة هذا التصوير دون أن يستحقوا من ذلك شيئا * يضرب مثلا على هذا السلوك باثنين من الفدائيين الذين نسبوا فضلا قام به هو إلى النقراشى مع أن النقراشى لم يقم بهذا الفضل * يتطرق إلى نقد بعض التأليفات الخيالية التى نشرتها الصحف لأناس يصفهم بأنهم لم يكونوا على مستوى المسئولية فيما نشروه، ويخص بالنقد روايات المستشار كامل أحمد ثابت، الذى صور نفسه رئيسا لجمعية اليد السوداء، ونسب إلى نفسه أمجادا خارج سياق ثورة ١٩١٩ * يمتد بنقده إلى بعض مَنْ كتبوا التاريخ محاولين إعادة توزيع الأمجاد على طريقتهم، متخذا لذلك مثلا من محاولة فتحى رضوان الارتفاع بقامة عبد الرحمن فهمى على حساب سعد زغلول * مع تحفظه على أسلوب مصطفى أمين فى نشر مذكرات قادة التنظيم السرى فى ثورة ١٩١٩، فإنه يشير إلى ما صرح به الرجل من أن السلطة الحاكمة لم تتقبل فكرة اشتراك العمال فى ثورة ١٩١٩، مفضلة أن تصف الثورة فى خانة البرجوازية فحسب * يروى ما يسميه كشف أعمال جماعة فدائى سنة ١٩١٩، وقد حرصنا على وضع هذا الكشف على هيئة جدول تيسيرا على القراء والباحثين عند مقارنة هذه البيانات بغيرها مما نشره عبد العزيز على وعبد الفتاح عنايت وغيرهما * يقدم صورة بديعة لمحاولات البوليس السياسى التأثير عليه هو ويوسف العبد وعريان يوسف سعد من خلال ثلاثة من أقطاب البوليس السياسى حاولوا معه كل ما أمكنهم من ترغيب وتهديد * يتطرق بعد هذا إلى محاولات مستميتة بذلها البوليس السرى للإيقاع به وبزملائه دون جدوى بفضل حرصهم وذكائهم * يروى ذكرياته عن قضية الاغتيالات التى شهدت محاكمة أحمد ماهر والنقراشى وغيرهما *

يتحدث عن محاربة السراى له فى رزقه، وعمل الحكومة على منعه من السفر، ثم على منعه من الاستفادة من إجراءات بنكية كفتح الاعتماد فى بنك مصر * يتعرض فى مذكراته لقصة شائعة فى الأوساط السياسية، وهى أن صدقى باشا فى وزارته عام ١٩٣٩ عرض عليه على عريان يوسف سعد منصب الوزارة، ولا يثبت سيد باشا الرواية على هذا النحو، لكنه يثبتها بصيغة أن صدقى عرض عليهما أن يرشحا نفسيهما لعضوية النواب، ومن ثم يوليهما الوزارة، لكنهما اعتذرا عن عدم قبول عرضه * كان متحفظا تماما على معظم زعماء عصر الليبرالية، فمع انتقاده للنقراشى الذى قرأناه وسنقرؤه، نراه يتحفظ على صدقى * يجاهر بكل وضوح بانتقاده لكل من النحاس وأحمد ماهر ورفضه عرضيهما للترشيح لمجلس النواب * يقدم فى مذكراته ملخصا شبه موجز لتجربته فى عالم الصحافة الوطنية حيث أقدم على نشر مجلة «المشهور» التى سرعان ما حوربت وتوقفت عن الصدور بسبب ضغط الحكومة * يورد قصة تعرضه للسجن بتهمة العيب فى الذات الملكية، وكيف أمكن له الخلاص من الفخ، وإن كان كل من الرسام رخا وعمر عزمى صاحب امتياز المجلة قد وقعا فى الفخ بديلا عنه * لا تزال العلاقة بينه والنقراشى تعانى من التوتر حتى يأتى عام ١٩٣٩ ويتولى النقراشى وزارة المعارف فى وزارة على ماهر الثانية، فيحاول الاستعانة بسيد باشا فى وظائف الوزارة لكن سيد باشا يعتذر لعدم مواءمة الوظيفة المعروضة لما كان يعرفه فى نفسه من كفاءة وأقدمية* يهمنا فى هذا المجال أن نثبت ما لخص به سيد باشا موقف النقراشى منه ومن رجال الحركة الوطنية بالوزارتين، وتفسيره لهذا الموقف على أنه تبرؤ من الفدائيين وإبعاد شبهة معرفتهم عن نفسه * على أن علاقته بالنقراشى لا تجعله يغمط النقراشى حقه حتى فيما اختلفا فيه، وهو يروى قصة وقوفه ضد قرار مجلس الوزراء فى عهد النقراشى، ومعالجة النقراشى التى جعل النقراشى نفسه مما هو معروف عنه من عناد يتراجع عن قرار مجلس الوزراء بإغماض عينه عن مخالفة سيد باشا لهذا القرار * يتصل بهذه العلاقة الشائكة بين النقراشى وسيد باشا ما يرويه سيد باشا من رفض النقراشى تعيينه سكرتيرا عاما لوزارة المعارف، ومع هذا فإنه يحرص على إثبات قيامه بتأبين النقراشى تأبينا شهد له الأستاذ على عبد الرازق بأنه أفضل التأبينات، هذا فضلا عن تنظيم الحفل * ربما كان من الضرورى أن نلقى الضوء على بعض ما يمكن للروح الفدائية أن تبثه فى نفس صاحبها من اعتزاز بالنفس والرأى، وعمل على تنفيذ أمانيها دون خوف أو حسابات مسبقة، ولعل المثل الذى نضربه على هذا من ذكريات سيد باشا يدلنا بوضوح على أنه لم يكن ممكنا لغيره مثل هذا الموقف فى ظل التحذيرات المتتالية التى تلقاها من الوزير ورجال الحاشية، لكن روحه الفدائية هى التى مكنته فى النهاية من النجاح * نأتى إلى تفاصيل مفاوضات سيد باشا البروتوكولية حول المدعوين للحفل الذى نظمه * فى هذه المذكرات فقرات مهمة تكشف عن طبيعة تفكير سيد باشا، وانتصاره لما يراه بعد دراسته وتمحيصه * تتعلق الفقرات الأولى بموقفه من السد العالى، ومع أنه لم يكن فى موقع

المسئولية حين تم هذا البناء فإنه يحرص على أن يذكر أن كان من المصريين القلائل الذين عارضوا فكرة السد العالى * يقدم أسانيده فى هذه المعارضة على نحو مرتب * أما الفقرة الثانية فتتعلق بتأييده مساعى السادات فى قيادة مصر نحو السلام بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، ونراه على غير عادة مَنْ يكتبون فى مثل هذه المواقف يجاهر بأمرين مهمين، بأنه كان واحدا من أربعة مصريين فقط أيدوا قرار التقسيم، (هو وعريان سعد وإسماعيل صدقى ومحمد أبو سلطان) * أما الأمر الثانى فهو قوله: «إنه يتمنى من صميم قلبه أن تتم مبادرة السلام بسلام حتى لو أدى هذا إلى صلح منفرد مع إسرائيل» * تحفل المذكرات بالتعبير عن الضيق النفسى من انصراف تقدير الوطن فى مصر إلى الأسماء الكبيرة، والبخل به على الشبان المجتهدين من أمثاله * يروى واقعة الإعجاب بمقال له وأن هذا الإعجاب بدأ يتحول إلى انتقادات عندما علم المجتمعون أنه هو كاتب المقال، ولم يكن دافعهم فى هذا شرفيا * من الشخصيات التى تحظى بأضواء كاشفة فى مذكرات سيد باشا، عبد المجيد عمر باشا، الذى كان وزيرا للأشغال، ومن قبل ناظرا لمدرسة المهندسخانة العليا * نراه يصوره فى صورة المسئول الكبير الذى أدرك معنى الرجولة وقيمتها.

* * *

الباب الثالث: مذكرات عريان يوسف سعد

* التعريف بالمذكرات وصاحبها * نجحت مجلة «مجلتى» فى أن تدعوه إلى كتابة مذكراته عن فترة السجن وقدمت المجلة لنشر هذه الحلقات * تثبت ما تحدث به عريان يوسف سعد عن إيمانه بالدور الذى لعبه العمل الفدائى فى ثورة ١٩١٩، وفى النجاح الذى أحرزته هذه الثورة، وهو يجيد تبرير السبب فى هذا الكفاح المسلح الذى قامت به مجموعة من الشبان الفدائيين فيشير إلى أنه بدأ كرد فعل على الاعتداءات الوحشية التى كانت قوات الجيش البريطانى تمارسها بين المدنيين * يصل إلى تقديم استنتاجه المنطقى الذى يجعل حركة الفدائيين فى جوهرها الحقيقى بمثابة رد فعل طبيعى * يعتز بالإشارة إلى الدور الإيجابى الذى أسهم به الشعب المصرى فى دعم هذا التوجه الفدائى، وهو يعتبر مثل هذا الحديث بمثابة المدخل الجوهرى للحديث عن مذكراته، وهو يصل إلى أحكام تكاد تتوافق مع ما وصل إليه كل من إبراهيم عبد الهادى، وسيد باشا اللذين كانا على صلة صداقة به * لا يكف عن التعبير عن وجهة نظر شبيهة بوجهة نظر زميله سيد باشا فى أن هذا العنف الثورى هو الذى حقق الاستقلال، وأن تلك القنابل التى كان يلقيها طلبة المدارس بغير خبرة ولا سابق تمرين، وتلك

الرصاصات التى كان الطلبة والعمال يطلقونها على المستعمرين وأذنابهم، هى المطرقة التى تفتت تحتها صلف البريطانيين فخضعوا لرجال السياسة فى بريطانيا، وأخلوا لهم سبيل العمل فتفتق ذهنهم عن ذلك المخدر الفعال، تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ من جانب بريطانيا وحدها الذى أعلنت فيه إنهاء الحماية على مصر وإعلانها دولة مستقلة ذات سيادة * يفتتح عريان مذكراته بوصف تفصيلى دقيق للإضراب الشهير الذى قام به الطلاب ومراحل هذا الإضراب وملامحه، حتى مروا على كلية الطب حيث تمكن طلابها من الهجوم على العميد الإنجليزى كيتنج * يجيد وصف النجاح الذى حققه الإضراب باستمراره فى ذروته وضمه لعناصر أخرى متتابعة من المدارس العليا المختلفة، وانضمام مدرسة التجارة العليا، ثم الوصول إلى قسم السيدة زينب ثم إلى مقر مديرية الأمن * يروى تفصيلات عن حوار مأمور قسم السيدة زينب الصاغ موسى صبرى مع جموع الطلاب * يفيض فى تصوير التعاطف الشعبى الذى أحاط بمظاهرات الطلبة، وهو تعاطف ينم بوضوح عن إيمان الشعب بهذه الحركة الوطنية وبما تمثله من هدف نبيل * يروى تفاصيل اعتقاله هو وزملائه فى ذلك اليوم، مشيرا بكل وضوح إلى طبيعة الممارسات التعسفية للبريطانيين فى مواجهة مثل هذه الحركات الوطنية ومحاولة قمعها بكل قسوة، وإن ظل هذا فى إطار قواعد النظام * تحتفظ ذاكرته بتفصيلات عن «المعتقل المؤقت» الذى قررت السلطات إيداعهم فيه، وقد كان مسجدا أثريا يخلو من الإضاءة، فإذا هم يستعينون بعيدان الكبريت حتى يروا بعضهم * يروى بعض الملامح التى فرضت نفسها على إدارة المعتقلين لشئون أنفسهم فى ظل هذه الظروف القاسية * يصل إلى لحظة خروجه من هذا المعتقل فيجيد تصوير المشاعر الإنسانية والتعبير عنها بدقة شديدة، تعكس ما يعبر عن نفسية ثورى بدأ لتوه أولى خطواته فى سبيل الوطن* يعبر بدقة عن شعوره تجاه «منظره»، وكيف اختلف هذا الشعور بمجرد تحرره من المعتقل يرويتجربته المثيرة حين حاول العودة (سرا) إلى موطنه الأصلى ميت غمر بعد خروجه من هذا الاعتقال * ينفرد بذكر أن ميت غمر كانت قد أعلنت استقلالها، وهو خبر غير مشهور، فالمشهور هو أن المدينة المقابلة لها على النيل، وهى مدينة زفتى، أعلنت الجمهورية * يحدثنا عن محاولة شبيهة قامت بها ميت غمر، وليس هناك ما يمنع من أن تكون حركة ميت غمر قد تمت على هذا النحو * يورد تفصيلات مهمة عن دوره فى تأجيج مظاهر الثورة ضد البريطانيين فى ميت غمر، ولا نقول فى إشعال الثورة، فقد وصل إلى ميت غمر بينما الثورة مشتعلة بالفعل، وهو يروى أنه خطب فى الكنيسة بعد شيخ الجامع وبعد راعى الكنيسة، وأنه دعا إلى قطع السكة الحديد حتى لا يأتى البريطانيون إلى ميت غمر لتأديب أهلها، وأن دعوته لقيت قبولا واسعا حتى إن عمال الورش جاءوه فى منتصف الليل ودعوه إلى مشاركتهم فى تنفيذ هذه الخطوة التى دعا إليها * يلخص نتائج حركتهم هذه على نحو ما حدثت، حيث انقطعت السكة الحديد، وانتقم الإنجليز بإطلاق النار عشوائيا على بعض المشاركين فى جنازة، وجاءت قوة بريطانية

(من جنود نيوزيلنديين) لتسيطر على الموقف * يشيد بالدور الوطنى للمأمور عمر وهبى، وهو واحد من رجال الأمن المصرى المتميزين لم يلق بعد حظه من التكريم * يقدم نموذجا لتعامل القوة الإنجليزية مع الأهالى، وحرص هذه القوة على الاحتياط لأى ثغرة يمكن للوطنيين أن يستغلوها فى إشعال الثورة مرة أخرى * ننتقل إلى ما يرويه عن حوادث الاغتيالات التى قدر له أن يشترك فيها، أو أن يكون قريبا منها * من الملاحظ أنه حرص فى مذكراته على أن يركز حديثه على دوره الأشهر فى الاعتداء على يوسف وهبة، إلا أنه بدأ حديثه برواية ما يذكره عن محاولة اغتيال محمد سعيد باشا رئيس الوزراء، وعلى الرغم من أن حديث عريان يوسف سعد عن تفصيلات هذه المحاولة لا يقدم الأجواء ولا التفصيلات التى يقدمها حديث زميله سيد باشا فى مذكراته التى تناولناها فى الباب الثانى من هذا الكتاب، فإن تصوير عريان يوسف سعد لبطولةأحمد عبد الحى كيرة وسيد باشا وذكائهما وحسن تصرفهما يتفوق بكثير على وصف سيد باشا نفسه * نحن نلاحظ أنه ينسب إلى ذكاء أحمد عبد الحى كيرة الفضل فى النجاة من الكمين الذى أعده البوليس السياسى الذى كان قد أوشك على الإيقاع بالفدائيين، وهو ما لم يصرح به سيد باشا على هذا النحو، وإن كان قدم رواية أخرى ذكرنا تفصيلاتها فى الباب الثانى من هذا الكتاب * يقدم القصة على نحو ما يتصورها * ربما كان من المهم هنا أن نشير إلى أن رواية عريان يوسف سعد قفزت على بعض الأحداث حتى وصلت إلى هروب سيد باشا إلى إيطاليا * ننتقل إلى ما يرويه عن حقيقة الدور الذى لعبه هو نفسه فى محاولة اغتيال يوسف وهبة رئيس الوزراء، وهو حريص على أن يحدثنا عن تفصيلات الحوار النفسى الذى عاشته نفسه حين قرر أن يكون هو نفسه بطل هذه العملية * يصل فى هذا التفكير إلى قراره بالحرص على أن يعترف بمشاركته فى الحادثة حتى يظهر مغزاها الحقيقى، بالإضافة إلى الفائدة التى تتحقق من المحاولة نفسها * نصل إلى التفصيلات التى يرويها عن واقعة الاعتداء على يوسف وهبة، وكيف قدر له أن يؤدى الدور الذى خطط له بذكاء وقوة، وكيف استعد لهذا الدور بتخطيط جديد، وبمعطف طويل، وكيف عالج جيب هذا المعطف بحيث يحافظ على وضع القنبلتين بلا انفجار، وكيف أجل إفطاره ليكون بمرأى من الناس فى مطعم رئيسى * لا يبخس البوليس الملكى حقه فى الاعتراف بنجاحه فى إسراعه بالقبض عليه ومعالجته الموقف بطريقة سريعة وحاسمة * نأتى إلى اللقاء البارد فى عصفه الذى تم بين «القاتل» و«المقتول»! ونتأمل فى محاورة عريان يوسف سعد ليوسف وهبة باشا * يروى فى بساطة شديدة ما يذكره من وقائع تفتيشه فى ذلك الوقت فيكشف لنا فى صراحة عن جزئيتين مهمتين هما: وقوعه فى الخطأ بنسيانه كشفا بأسماء زملائه فى جيب بنطلونه، وعن تفكيره السابق فى الانتحار وترتيبه لهذه الخطوة * يجدر بالذكر أن النائب العمومى محمد توفيق رفعت (باشا) أصبح وزيرا بعد هذا وتولى وزارات عديدة فى وزارات عديدة، ثم عين عضوا فى مجمع اللغة العربية ورئيسا له * سرعان ما ينتقل عريان يوسف سعد من الحديث عن هذا

الدور البطولى الذى أتمه إلى الحديث عن دور آخر لا يقل جسارة ولا بطولة، وهو دوره فى مواجهة السلطات نفسها بمعتقداته التى دفعته إلى القيام بهذا العمل الفدائى الذى قام به * ترينا رواية عريان يوسف لإجاباته فى أثناء التحقيق مدى ما كان يتمتع به من ذكاء وسرعة بديهة * يروى كيف أمكن له بذكائه أن يدبر موافقة النيابة على أمر مبيته على نحو لائق بدلاً من أن يوضع فى التخشيبة وعذابها، وكيف نجح فى أن يتم هذا الترتيب فى أثناء إجراء التحقيق معه حين تستهدف سلطات التحقيق الحصول على بعض ما يفيدها، وقبل أن يصبح مجرد إنسان غير مرغوب فى الحصول منه على شيء * على نمط ما فعل عريان يوسف سعد من قبل حين رتب أمر مبيته، فقد كان من الذكاء بحيث رتب أمر عشائه أيضا * ينبهنا إلى حقيقة مشاعره حين اكتشف أن موظفى السجن الذى بات فيه ليلة فى أثناء التحقيق، والسجانين كانوا مقدرين للدور الذى أداه، وأنهم كانوا يصفونه بالبطولة والفداء والشجاعة والإقدام، بل إن هذا يدفعه إلى الرضا عن النفسى، وعما أدته من واجب، ونحن نرى مثل هذا التعبير يتكرر فيما بعد حين حديثه عن انطباعات النائب العام والوزراء أيضا * يقدم صورة بديعة للحوار الذكى الذى قاده مع النائب العام نفسه حين حاول ذلك الرجل القانونى الضليع أن يوقع به، وأن يدفعه إلى التصريح بأسماء أى ممن شاركوه فى هذه العملية الفدائية * حين يحاول النائب العام الذكى الأريب أن يوقع عريان يوسف سعد بطريقة ذكية فإن عريان يتمكن من مراوغته بدهاء شديد، وربما تدفعنا خبرتنا بتحليل النصوص إلى الظن بأن عريان يوسف سعد أورد هذا الجزء من مذكراته لنفى أمر شاع عن وقوعه فى شبهة توريط بعض زملائه، أو لنفى اعترافه على بعض هؤلاء، وأيا ما كان الأمر فإن الرواية ترينا صلابة موقف الشبان الوطنيين الفدائيين * ينفرد برواية أن النائب العام محمد توفيق رفعت باشا عبر له عن عطفه عليه بعد أن وجه له التهمة، وكذلك فعل كل من مساعد النائب العام، وكاتب التحقيق، ولا يفوت عريان يوسف سعد أن يشير إلى أن تحية كاتب التحقيق كانت أعظم وقعا فى نفسه من تحية الرجلين الكبيرين صاحبى المنصبين العظيمين * لا يبخل علينا بتصوير دور أسرته فى محاولة إنقاذ رقبته وحياته بكل ما هو ممكن من وسائل الدفاع، حتى إن والده حرص على أن يوكل للدفاع عنه محاميا إنجليزيا كانت أتعابه باهظة * يتحدث عن وقائع يوم محاكمته، وما شهدته هذه المحاكمة من ثباته، وذكائه، وحسن تصرفه، وقدرته على رسم صورة تحتفظ له بالبطولة العالية حتى إن ساعدت أيضا على التخفيف عنه * تنتقل المحكمة بعريان يوسف سعد إلى مرحلة الاستجواب أمامها عن الوقائع التى وردت فى إدعاء النيابة * يحدثنا عن ذكائه فى اختيار الشاهدالإنجليزى الذى شهد له بحسن الأخلاق * يلخص جوهر الاتهام الذى وجهه له مدعى الأحكام على نحو أمين * يصف فترة الأيام الأربعة التى انقضت بين محاكمته وبين إعلانه بالحكم بأنها كانت أقسى الفترات فى حياته، وهو شعور صادق ودقيق * لا يبخل علينا بوصف تفصيلات مروعة عن معاملة المسجونين الذين حكم عليهم بأحكام تقتضى تقييد

حركة أجسامهم، وتدفعه ثقته بالنفس ألا ينكر شيئا مما تعرض له على أيدى السجانين والسلطات * لا يغفل الحديث عمن قابلهم من المسجونين السياسيين ذوى الشأن فى العمل العام فى سجن قرة ميدان * لا يفوته أن يشير إشارات ذات مغزى إلى المعاملة الحسنة التى كان بعض ضباط السجون يحرصون على أن يخصوه بها، ومنهم ذلك الضابط الوطنى إبراهيم صفوت الذى أوردنا عدة شهادات إيجابية فى حقه فى كتابنا «فى ضوء القمر» * نأتى إلى أفضل ذروة يصل إليها فدائى فى تقديمه لقصته مع التضحية، وهو مشهد الجماهير المؤمنة به وبعمله وهى ترفع بطلها الفدائى إلى أعلى موضع فى وجدانها حين تحرص على أن تودع بطلها ورمزها فى مظاهرة كبيرة وهو فى طريقه إلى السجن

* * *

الباب الرابع: سجين ثورة ١٩١٩.. مذكرات الدكتور محمد مظهر سعيد

* التعريف بالمذكرات وصاحبها * يشير إلى السبب العميق الذى دفعه إلى تسجيل مذكراته، وإلى السبب الحقيقى الذى أجل تسجيل ونشر هذه المذكرات، ونحن نراه يلجأ إلى أسلوب مناور فى تفسير هذا التأخير، وتبرير توقيت النشر الجديد * على هذا النحو وجد فرصته فى أن يخلص نفسه من ورطة الظهور بمظهر الحريص على تسجيل أحداث بعد فوات الأوان المناسب لتسجيلها، بينما كان فى وسعه أن يسجل هذه الأحداث فى مرحلة سابقة كانت ترحب بمثل هذا التسجيل، وهو يحل هذه المفارقة حلاً تلفيقياً غير موفق، لاجئاً إلى الهجوم على العهد القديم الذى تلا ثورة ١٩١٩، وصانعاً فى الوقت نفسه ما يتناقض مع هذا الهجوم من مصالحة وطنية جميلة بين ثورات ١٨٨١ و١٩١٩ و١٩٥٢ على الرغم من أن الواقع لم يكن على هذا النحو * يشرح أهمية ثورة أسوان من وجهة نظره، مشيراً إلى نجاح هذه الثورة فى تجنيب مصر ويلات تصرف خاطئ ومدمر كان يمكن أن ينسب إليه * يتحدث فى التعريف بنفسه عن العوامل التى دفعته بطريقة غير مباشرة إلى الاشتراك فى ثورة ١٩١٩ والحركة الوطنية على نحو ما أتيح له أن يشترك، ونرى فى هذا التعريف الذى يقدمه الرجل أن الاشتراك فى الحركة الوطنية كان أمراً طبيعياً فى حالة كل وطنى سوى يؤمن بدينه ووطنه ويشعر بواجبه نحوهما، ويشير محمد مظهر سعيد إلى أن والده نفسه كان شاهداً على معاناة المهنيين البارزين فى جيله من نفوذ الاستعمار الإنجليزى، وتربصه المستمر بالوطنيين الناجحين * يستطرد إلى رواية ما لمسه هو نفسه من اضطهاد الأجانب للمصريين

وتفضيلهم الأجنبى فى الوطن المحتل عليه وعلى أمثاله من أبناء وطنه * يعود بذاكرته إلى بعض ما تكون فى أعماق هذه الذاكرة من وعى بحكايات الطفولة التى أوردتها جدته على مسامعه، وهو يشير فى سياق حديثه هذا إلى انتساب جدته إلى سلالة عبد الرحمن كتخدا، وإلى انتسابه من ناحية أبيه إلى صالح بك سليمان أركان حرب الجيش المصرى فى السودان * فى أثناء حديثه عن الثورة فى أسوان يشير إلى أن جده الكبير لطيف باشا كان حاكماً عاماً للسودان سنة ١٨٥٠ قبل الثورة المهدية، وإلى أن جد صديقه حبيب كان من كبار نقباء الميرغنية فى السودان * ومع أنه يشير إلى أن جدته أم والدته كانت عربية، فإنه يحرص أيضًا على أن يشير إلى أن ثقافة والدته كانت إيطالية(!!) دون أن يشير إلى السبب فى هذه الثقافة، ولا إلى حقيقة جنسية والدته، ومن الطريف أننا نرى وسط المذكرات إشارة إلى أن والدته كانت إيطالية الجنسية، ولسنا ندرى هل كانت كذلك أم أنه زعم هذا الزعم فى إحدى المرات لمجرد التخلص من موقف من المواقف الحرجة التى قابلها فى أثناء نشاطه فى الحركة الوطنية، ومع هذا فإننا نراه حريصاً فيما يروى على أن يثبت أن والدته كانت ذات ثقافة غربية تماماً فى سلوكها وفى طباعها * يشير فى هذه المذكرات إلى أولى التجارب السياسية التى شارك فيها، والتى كانت نتيجتها أن فصل من المدرسة، ونحن نفهم من هذه القصة أن بذور روح الثورة كانت قد فرضت نفسها على هذا الرجل منذ طفولته الباكرة، ونحن نرى رد العقل الذكى عند أهل هذا الطفل فقد حافظوا له على سياق سنواته الدراسية وألحقوه بمدرسة بنى سويف حيث موطن جدته، ومن أجل هذا غيروا اسمه إلى اسم آخر غير ذلك الذى سجل به فى شهادة الميلاد * عاش حياته بالاسم الجديد الذى سمى به تيمنا باسم عم والده المهندس المصرى العظيم محمد مظهر، وهذه هى القصة التى ينفرد صاحب المذكرات بروايتها، والتى لم نجد لها أثراً فى مصدر آخر، على الرغم من أنها حفية بالتدوين والتسجيل والفخر * يتحدث أيضاً عن تجربة وطنية مبكرة أخرى أعقبت التجربة الأولى بعامين، حين قدر له أن يلقى كلمة فى تأبين الزعيم مصطفى كامل، ونقتطف للقارئ من فقرات محمد مظهر ما يصور به صدى الكلمة التى ألقاها فى هذه المناسبة، ومدى ما منحته هذه المناسبة من ثقة مبكرة فى توجهه الوطنى، خاصة بعدما أعقبها من ثناء أستاذه عليه، ووشاية ضابط المدرسة به، وما ترتب عليها من عقوبة * يروى أنه كان بعد حصوله على الابتدائية يفكر فى دخول المدرسة الحربية ليكون ضابطاً، لكنه كان صغير السن، وقد تمكن والده من النجاح فى توجيهه إلى العلم ضارباً على وتر الوطنية الظاهر فى تصرفاته، ومع أن ما يرويه محمد مظهر سعيد يبدو عادياً أو طبيعياً فإن تفرده فيما يتعلق بالحركة الوطنية كبير، إذ أنه يدحض القول الشائع بأن بذور هذه الحركة وبداياتها لم تكن بهذه القوة فى مثل هذا الزمان * ينتهز فرصة حديثه عن دراسته للمرحلة الثانوية فى المدرسة الخديوية ليحدثنا كتربوى قديم وكوطنى مثابر، عن بذور اكتشافه لحقيقة سياسة المحتل البريطانى فى اختيار مدرسى هذه المرحلة، وهو يجاهر بأن أسلوب هذا الاستعمار كان دليلا على زيف الأسطورة البريطانية * يصل إلى حد تكرار قول غير مشهور بأن

مستشار التعليم الإنجليزى الأشهر دنلوب كان إسكافيا فى الأصل * يتحدث عن نجاحه فى البكالوريا فى ١٩١٤ قافزاً مباشرة إلى ما يتبناه من رؤية بعض المؤرخين(!!) القائلة بأن ما حدث فى ثورة ١٩١٩ كان نتيجة حتمية لثورة وطنية مبكرة حدثت عام ١٩١٤، وهو يروى قصة اللقاء العاصف بينه وبين المستر كيتنج ناظر مدرسة الطب الإنجليزى. وكيف كان حفاظه على كبريائه سبباً فى فقدانه لمكانه الطبيعى طالباً فى كلية الطب رغم محاولات والده علاج الموقف، وهكذا تحول مسار حياته إلى أن يكون طالباً فى مدرسة المعلمين العليا * ينتقل بكل ما فى صدره من وطنية للدراسة فى مدرسة المعلمين العليا، وهو ينتهز أول فرصة تسنح له فى هذه المدرسة كى يعبر عن مشاعره الوطنية المسيطرة على وجدانه. * تنبئنا القصة التى يرويها عن أن مجادلة البريطانيين كانت لاتزال ممكنة رغم فرضهم الحماية على مصر * ولأن الجرة لا تسلم فى كل مرة، فسرعان ما جاءت الفرصة لعقاب محمد مظهر سعيد وأمثاله على وطنيتهم التى دفعتهم إلى إفساد زيارة السلطان حسين كامل لمدرسة المعلمين فى عام ١٩١٥، وهى واقعة تدل على مدى ما كان هذا العهد كفيلاً به من بساطة فى البروتوكول كانت تتيح للمشاعر الوطنية أن تجد طريقها إلى الظهور فى يسر شديد مهما كانت النتائج والمعقبات * هكذا كان عليه من يواجه حاضراً قاسياً ومستقبلاً مظلماً، وإذا هو يكتشف أن اسمه قد وضع فى قائمة سوداء منعته من السفر إلى إنجلترا وإلى تركيا، وحتى من القيد فى مدرسة الحقوق الفرنسية، فضلا عن تعرض بيته للتفتيش من آن لآخر، وهو شأنه فى هذا شأن الذين يعانون من مثل هذه الإجراءات التعسفية يحس بالضيق، ويحس فى الوقت ذاته بطبيعة المشاعر الإنسانية التى تقدر موقفه لكنها تتحفظ فى إبداء هذا التقدير * نعجب حين نرى تصوير صاحب المذكرات لكل هذه المعاناة فى ذلك العهد الذى لم يشتهر بهذا النمط من معاملة الخصوم السياسيين، لكننا لا نستطيع أن ننكر على صاحب المذكرات ما يرويه مما أثر بالفعل فى مستقبله * ووسط كل هذه المشاعر القاسية يستبطن صاحب المذكرات ذاته ويستعرض مواقف حياته الماضية، ويرى فيها بارقة الأمل فى نبوءة سعد زغلول باشا له بمستقبل زاهر. لكنه يتعجب من الحال الذى آل إليه هذا المستقبل وهو لايزال فى شبابه، بل إن محمد مظهر سعيد يعترف، فى سرعة بالغة، بأنه حاول الانتحار * لا يولى هذه التجربة الإنسانية بعض ما تستحق من تأمل أو تعمق، وإنما يتجاوزها سريعاً إلى ما بعدها مما مر به فى الحياة * فى وسط هذا كله تتاح له فرصة العمل بالتدريس فى إحدى المدارس الثانوية بأسوان، ونفهم من حديثه الخاطف عن تعاقده لهذا العمل أنه كانت هناك بورصة للمعلمين الذين يقومون بالعمل فى المدارس الأهلية، وأن المؤهلات والخبرة لم يكونا لازمين بوضوح لمثل هذا العمل، كما نفهم من حديثه أن تحديد هذا العمل لأمثاله من الذين بدءوا الدراسة فى المعلمين العليا كان ممكنا باتباع المفاهيم التربوية والحرص على التفرغ لأداء هذه الوظيفة السامية * هكذا بدأت الأقدار تضع هذا الشاب الصغير فى المدينة التى قدر له أن يقود ثورتها عام ١٩١٩ نأتى إلى فقرة يروى فيها ما لخص له أحد أصدقائه من رجال الحياة العامة فى أسوان، وهو ممتاز بك،

طبيعة رجال الحكومة فى أسوان، وهو التلخيص الذى أثبتت الأيام صدقه، وجعلته بمثابة ضوء هاد أمام صاحب المذكرات فى جهوده البارزة فى الحركة الوطنية * يلخص لنا خبراته الشخصية مع هؤلاء بطريقة موجزة لكنها كافية لإلقاء الضوء على الشخصيات الأبطال فى مسرح الأحداث الذى شهد روايته لقصته مع ثورة ١٩١٩ * نأتى إلى حلقة مهمة من حلقات ذكريات محمد مظهر سعيد حيث أتيح له أن يعيش فى المسكن فى أسوان مع زميل له عاش من قبل فى كمبردج وأحبها، فظل يستحضر صورتها طيلة حياته معه فى السكن، ومن الطريف أن هذه الخبرة «السلبية» ساعدت صاحب المذكرات فيما بعد على التعامل العميق والذكى مع البريطانيين، وعلى تقمص دور مَنْ عاش فى بلادهم وتربى فى تعليمهم * سنرى فى رواياته أن هذه الخبرة «السلبية» المبكرة بالحياة البريطانية قد ساعدته فى مستقبل حياته مساعدات ذات شأن عظيم كما ترينا تطورات الأحداث * هذه حلقة ثانية من حلقات ذكرياته أتاحت له مسرحاً متميزاً لأداء الدور الوطنى رفيع القدر الذى أتيح له أن يقوم به فى هذه الحركة الوطنية، حيث هيأت له الظروف الانتقال إلى سكن جميل كان فى الأصل استراحة خاصة بأحد المليونيرات الألمان الذين كانوا على علاقة بالمخابرات الألمانية، فلما أوشك أمر اتصال هذا المليونير بالمخابرات الألمانية أن ينكشف هرب وترك تلك الفيلا التى أتيح لمحمد مظهر سعيد أن يستأجرها وأن يؤدى من خلال إقامته فيها دوره الوطنى الكبير فى ثورة ١٩١٩ * هكذا أتاحت الأقدار هذا المقر المتميز له وصديقه محمد حبيب، وقد قادتهما روحهما الوطنية إلى أداء الدور الذى يؤهل لزعامة وطنية أو لقيادة محلية ذات تأثير، وسارت بهما الأمور من نجاح إلى آخر فى عدد من المجالات الاجتماعية التى خدمت دورهما فى الحركة الوطنية * نرى فيما يرويه ما يدلنا على أن أجهزة الأمن كانت واعية بمكرها الطبيعى لما يمكن أن ينتوى مثل هذين الشابين قيادته من عمل وطنى أو سرى * تأبى الأقدار إلا أن تهيئ له وصديقه محمد حبيب فرصة إثبات ما يدل على ولائهم للبريطانيين لا لأعدائهم، حين سلموا لهم ما وجدوه مما يدل على خطورة الدور الذى كان يقوم به الهر فورل، * كانت النتيجة أن حصلا على كتاب شكر وتقدير من السلطات البريطانية، وكان هذا الكتاب فيما بعد بمثابة سلاح من أسلحتهما فى الدفاع عن نفسيهما من الاتهامات التى وجهت لهما نتيجة دورهما فى ثورة ١٩١٩ * نأتى بعد هذا كله إلى ما يرويه عن جوهر دوره الطليعى فى ثورة ١٩١٩ فى مدينة أسوان، ومن الطريف أنه يحرص على أن يروى أن بداية اتصاله بالثورة المصرية كان فى صورة «حادث عارض»!! ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن محمد مظهر سعيد ينفرد بأن يشير إلى ما لم يشر إليه غيره من أن أول سكرتير عام للوفد كان هو المهندس محمد بدر، وأن تكليفهما بدورهما فى الثورة جاء عن طريق هذا السكرتير العام، من الجدير بالذكر أن المصادر التاريخية التى كتبت عن ثورة ١٩١٩ لم تثبت لهذا الرجل هذا الدور وإنما نجد فى كتاب الأستاذ مصطفى أمين الكتاب الممنوع ما نفهم منه أن كان سكرتيراً لسعد زغلول باشا لا للوفد كله * يروى أن معرفة هذا الرجل لهم بدأت عندما قدم أسوان لعمل استثمارى ورأى

مكانتهما فى هذه المدينة، ولهذا كان من الطبيعى أن يعتمد عليهما فى خطوات ثورة ١٩١٩، وذلك عندما بدأ الوفد بجمع توقيعات المواطنين فى المدن والأقاليم لتأييده وإثبات حقه الشرعى فى التحدث باسم الشعب المصرى من أجل الحصول لمصر على حقها فى الاستقلال * يروى تفصيلات كثيرة عن كيفية اتصالهما (هو وزميله محمد حبيب) بمندوبى سعد زغلول، ونرى فيما يرويه قدرات هائلة للشعب المصرى على التزام الحيطة فى الخطوات الثورية التى كانت ممنوعة بأمر المستعمر البريطانى، ونحن نرى الضابط «ك» الذى كان يراقب الوطنيين والحركات الوطنية قادراً على أن يتبع مثل هذه التحركات، لكن يقظة محمد مظهر وإخوانه من نشطاء الحركة الوطنية كانت، على نحو ما نرى، كفيلة بإنقاذهم وبإنقاذ خطوات الثورة من هذه العملية * يورد نص الخطاب الذى حرره فى اليوم السابق صديقهما محمد بدر سكرتير عام الوفد المصرى، ولسنا نعرف هل احتفظ محمد مظهر سعيد بالرسالة أم أنه كان يحفظ نصها عن ظهر قلب * يورد أيضاً نص التوكيل الذى كان عليهما أن يحصلا على توقيعات المواطنين عليه * يروى ما يدل على عبقرية فطرية فى الخطوات التى اتخذها لجمع التوكيلات وحفظها، فقد لجأ إلى مساعدة فندقى نمساوى الأصل كان من رعايا الأعداء لكنه كان يكرههم، وقد أخلص هذا النمساوى هو وزوجته للحركة الوطنية حتى نجحت عملية تجميع التوكيلات فى أسوان على نحو ما نجحت فى غيرها من البلاد المصرية التى هبت لتأييد سعد زغلول وإخوانه فى ثورة ١٩١٩ * يورد بعض أسماء زعماء الطوائف الذين تعاونوا معهم فى هذا الإنجاز الوطنى * نأتى إلى قصة المغامرة التى يرويها أنه قام بها، مستغلا مرضه وإقامته فى المستشفى للتغطية على قيامه بتسليم التوكيلات إلى مندوب الوفد، ونحن نرى طرافة شديدة فى تدبير محمد مظهر سعيد لخطته للقيام بهذا الدور الذى لم يتعد تسلم سلة التوكيلات من طه كحالة وتسليمها لزهدى، مع أن عملية التسليم والتسلم كانت ستتم فى المكان نفسه، لكننا نقدر ما كان يقدره هؤلاء الوطنيون من ضرورة تأدية مثل هذه الأعمال على الوجه الأكمل من دون ترك أية ثغرة لخطأ غير مقصود * لا تكتمل طرافة المغامرة التى رواها من دون أن نرى الجانب الآخر لها متمثلاً فى التحقيق الذى أجرته السلطات حول ما وصلها من معلومات بشأنها، ومن الإنصاف أن نشيد بسلوك هذه الأطراف الذين يستحق سلوكهم الإشادة به، وفى مقدمتهم الطبيب نسيم الذى كان قادراً على مواجهة الضابط بما يدحض شهادته من أساسها * حدث عن الأثر المعنوى الذى واكب نجاحه فى هذه العملية الفدائية، وبخاصة أن هذه العملية قد كرست مكانته هو وزميله نائبين عن زعيم الأمة سعد زغلول، ونحن نرى ملامح الذكاء الاجتماعى واضحة فى سلوك هذين الوطنيين اللذين دفعا بالموقف خطوات متعاقبة أخرى فى طريق نيابتهما عن زعيم الأمة وقيادتهما للحركة الوطنية فى أسوان، وقد نجحا فى دعوة الأسوانيين إلى دارهم فى زيارة لهؤلاء الأعيان والتجار فى دورهم أيضا * يقترن حديث الثورة فى هذه المذكرات بأحاديث أخرى عن مجريات الحياة العادية والخاصة، فها هو محمد مظهر سعيد يروى دوره فى توزيع خطاب سعد زغلول فى ١٥ يناير ١٩١٩، ويعقب هذا بدعوته لوالدته

وأشقائه إلى الإقامة معه فى أسوان، ومدى الحفاوة التى لقيتها والدته عندما زارت هذه المدينة * تمضى الأيام حتى يأتى له التكليف بتنظيم مظاهرة شعبية كبرى فى أسوان، وذلك عقب اندلاع الثورة فى القاهرة ٩ مارس ١٩١٩، ونحن نلاحظ النجاح الرهيب الذى أحرزه صاحب المذكرات فى تنظيم المظاهرة فى ١٥ مارس ١٩١٩، أى قبل أن ينقضى أسبوع على قيام ثورة القاهرة التى اندلعت عقب القبض على سعد زغلول وصحبه * فيما يرويه كل مظاهر الثورة الشعبية الحقيقية، بدءاً من تعاون الفئات المختلفة فى إنجاز متطلبات الثورة، كما نلاحظ فيما يرويه صاحب المذكرات ما يدل بوضوح على قدرات تنظيمية متميزة له ولزميله وللأعيان ومجموع الشعب * نرى فيما يرويه ما يدل على الأسباب التى ساعدت على نجاح الثورة من الاقتناع والإخلاص والولاء والفهم والتعاون * يحرص على أن يقدم صورة شبه كاملة لسيناريو يوم الثورة، وهو سيناريو جميل منظم ومعبر عن رغبة جموع الشعب فى تغيير الوضع، وعن استعدادهم لتحمل تبعاتهم من أجل هذا التغيير، * نرى فى الوصف الذى يقدمه صاحب المذكرات الأهمية القصوى لعنصر الكلمة متمثلة فى الخطب المختلفة التى تلقى فى الجماهير فى المراحل المختلفة للمظاهرة، وكأن هذه الخطب جرعات متوالية دافعة إلى الحماس وإلى استمرار جذوة الثورة على النحو الكفيل لها بتحقيق أهدافها * نأتى إلى الوصف التفصيلى لما حدث فى يوم المظاهرة من نجاحات، ومن معوقات ومن محاولات ناجحة للقضاء على هذه المعوقات، وقد كانت أبرز هذه المعوقات فيما يتعلق بصاحب المذكرات هى المحاولة المبكرة التى قام بها بعض أعضاء مجلس إدارة مدرسة الأقباط لإجهاض دوره فى المظاهرة بدعوى حماية مصلحة المدرسة نفسها من عسف الحكومة التى كانت تتولى تقديم الإعانة السنوية لها * نرى ردود صاحب المذكرات تبين عن إيمان عميق بالثورة وجدواها، والوثوق فى نجاحها وسيطرتها على مستقبل البلاد، ونرى كذلك أن ثقته هذه كانت مبعث النجاح له فى مناقشاته مع المحامى الذى وجه إليه الاتهام، كما نرى جذوة الوطنية الحقيقية فى تعليق المهندس لبيب نسيم الذى تمكن به من أن ينتصر لمستقبل الحركة الوطنية، كما نرى حنكة الناظر وقدرته على فهم ما توحى به عبارات محمد مظهر سعيد من ثقته فى المستقبل * لا يفوته أن يشير إلى طبيعة اقتناع الشعب بقمة الثورة وأهميتها * يصل بنا إلى مرحلة التعاهد على الثورة، ووضع ما يمكن وصفه بأنه خطة بديلة لتسلم زمام الحكم المحلى فى مدينة أسوان، وربما كانت هذه الصيغة التى وصل إليها هؤلاء الثوار بمثابة «حجر الزاوية» فى الاتهام الذى وجهته إليهم سلطات الاحتلال ومعاونوها فيما بعد * نأتى إلى المرحلة التى شهدت تقدير الموقف على الجهة الأخرى، ونحن نراه يلجأ إلى الحكمدار وهو المسئول الأول عن قوات الشرطة ويفهم منه أن الشرطة المصرية لن تشارك فى عداء الشعب أو مقاومة ثورته، وأنه أبلغ المدير (وهو ما يناظر منصب المحافظ الآن) بهذا المعنى، وهكذا بدأت المعطيات تتغير لصالح الثورة والحركة الوطنية * مع كل هذه البشائر فإن حذر محمد مظهر سعيد غلبه، ورأى أن يؤمن ظهر المظاهرات بدعم من الجيش المصرى الموجود فى أسوان فى حراسة

خزان أسوان (قيادة أورطة الخزان)، وقد كان من حسن حظ الحركة الوطنية أن القومندان كان مرحباً بالثورة، حانقاً على الحكومة، ومع أنه لم يكن يحبذ الاشتراك فى عمل خارج عن حدوده إلا أنه توصل إلى حل وسط ذكى بأن قام بإجازة وترك للضباط التالين له تسيير الأمور، وهكذا أمكن أن تشارك قوات الجيش المصرى طلائع الحركة الوطنية فى ثورة أسوان، وقد كان مدبرو الثورة من الذكاء بحيث انتبهوا إلى الأهمية البالغة لحماية الخزان، وإلى ضرورة تحركهم قبل الفجر، وإلى أهمية حماية جوانب المظاهرة حتى لا تستغل أو تصور فى اتجاه آخر * لا يقف ذكاء محمد مظهر سعيد وإخوانه من مدبرى ثورة أسوان عند هذا الحد، وإنما يتعداه إلى محاولة ذكية فى إشراك السلطة القضائية نفسها فى حوادث الثورة، وهو ما مكنهم من الوصول إلى حل وسط يمكن للثورة، ولا يلزم القاضى بما لا يوافق عليه * بل إن الثوار نجحوا فى أن يكسبوا حياد بعض الضباط الإنجليز والنزلاء الأجانب فى فندق كتراكت وأن يضعوا أسساً كفيلة بتنظيم تعامل هؤلاء مع قيادة الثورة، وأن يثبتوا هذا فى مكاتبات رسمية كانت عوناً لهم فيما بعد على الخلاص من حبل المشنقة * نأتى بعد هذا كله إلى ما لابد من حدوثه فى كل ثورة وفى كل حركة وطنية من تيارات معاكسة، تكشف عن قدرة الثوار الحقيقية إذا ما نجحوا فى مجابهتها بالتصرفات السليمة، وبردود الأفعال المنضبطة * من حسن حظ ثورة ١٩١٩ فى أسوان، حسبما ترويه هذه المذكرات، أن قادتها كانوا على مستوى المسئولية واستطاعوا أن يتصدوا بذكاء وحسم لمحاولة بعض الإنجليز نسف خزان أسوان، وهى خطة بدءوا خطواتها بوضع الديناميت فى عيون الخزان، لكن يقظة المهندس المصرى أحمد حسنين كانت كفيلة بإجهاض مثل هذا المخطط الإنجليزى الذى حاول بعض الإنجليز من خلاله التصدى للثورة * يبدو أن روايات التاريخ عن ثورة ١٨٨٢ بقيادة عرابى وما لقيته من الغدر كانت قد بثت فى وجدان القائمين على ثورة ١٩١٩ فى مدينة أسوان قدراً هائلاً من الحذر فى مواجهة احتمالات الغدر من حيث لا يحتسبون جغرافياً، فإذا هم ينتبهون إلى أهمية التصدى لمحاولات الهجوم عليهم من هنا أو هناك بإجهاض هذه المحاولات بالسبل المناسبة من التمويه والإنكار وقطع الاتصالات والإمدادات * عند هذه النقطة يستطرد صاحب المذكرات إلى رواية ما قصته عليه زوجه من دور المرأة المصرية فى فرض المقاطعة على المحلات الإنجليزية، ومنع المصريين من دخولها، وفى تقوية إضراب الموظفين بمراقبة الذين يخربون الإضراب، وتوبيخهم بتقديم المال والخبز لهم كناية عن ضرورة إشعارهم بما يفرضه الحس الوطنى * نأتى إلى النتائج المباشرة والحتمية التى لابد أن تعقب كل هذه الأدوار التى قام بها محمد مظهر سعيد، فقد رتبت سلطات الاحتلال للقبض عليه ومحاكمته، وعقابه بما يرونه من العقاب * صاحب المذكرات يقدم لنا سيناريو جميلا ومحكما لخطة استدعائه وخداعه للقبض عليه، وتصوير الأمر على أنه مدعو لتناول الغداء مع ضيوف عند مدير أسوان، ومن الجدير بالملاحظة أن نتأمل حركة أخيه مصطفى التلقائية أو الفطرية التى عمدت إلى نزع المسدس وتصويبه، وهى حركة عصبية لكن كان لها فيما بعد أثر مفيد * نصل

إلى تفصيلات القبض على قادة الثورة وما ترتب على خيانة المدير لهم، وهروبه من مواجهتهم وتصويره لهم، عند الإنجليز، فى صورة المخربين ومغتصبى السلطة * يقدم تفصيلات أخرى عن طريقة معاملة القوات الإنجليزية لهم، وما فعلت به من انعدام الإنسانية والتهذيب * فى وسط هذه المعاناة والغدر يأتى صوت الحكمدار الذى يحاول صادقاً أن ينقذ ما يمكن إنقاذه وأن يرشد هؤلاء الوطنيين إلى بعض ما يخفف به عنهم أدلة الاتهام فيما هم مقبلون عليه على يد سلطات الاحتلال، ويبدو ذكاء محمد مظهر سعيد فى قدرته على اتخاذ القرار المناسب فى مثل هذه الظروف * يروى ما يذكره من تفصيلات المحكمة الصورية التى عقدت على عجل فى صالونات من صالونات القطار، وكانت أحكامها فيما يبدو جاهزة لا تنتظر أقوالاً ولا تحقيقاً ولا دفاعاً ولا شهوداً، وقد انتهت المحكمة إلى إيداعهم المعتقل حتى يبلغ لهم الحكم بعد أن يصدق عليه * يورد محمد مظهر سعيد بعض ما يذكره عن المعتقل الذى أودع فيه فى الأقصر، ويشير إلى مدى ما كان فى هذا المعتقل من تعسف فى المعاملة * يروى وحشية ضابط السجن النوبتجى حين وجد يديه غير مقيدتين نظراً لنحافتهما فوضعهما معاً فى حلقة واحدة من حلقات القيد الحديدى * يصل بنا صاحب هذه المذكرات إلى اليوم الذى شهد انفراج معاملة السلطات البريطانية لهم حيث زارهم الجنرال أوين باشا نفسه فى السجن، وأظهر تعجبه من المعاملة القاسية التى يلقونها بلا مبرر، وذكر لهم أن برنارد باشا حرص على أن يسجل لهم الشكر على مسلكهم معه ومع الضباط الإنجليز وأسرهم، وقد حرص هذا الباشا على أن يلفت نظرهم إلى حسن معاملة السلطة البريطانية لمعتقليها، وإلى التزام بريطانيا بالعدالة * يروى أن المعاملة بعد هذه الزيارة قد تغيرت تماماً، وأن البكباشى قدم لهم كل ما يمكن تقديمه من تسهيلات غذائية فى هذا السجن، وكذلك فعل الطباخ، بل إنه حرضهم على طلب كل ما يشاءون، ومن الطريف أن محمد مظهر سعيد يحرص فى نهاية هذا الحديث على أن يعبر عن سعادته البالغة بهذا التغيير الكبير الذى حدث فى حياتهم، وهو شعور طبيعى لمن كان فى مثل وضعه معانياً من عذابات السجن، منتقلاً إلى راحة الإنسان ونظافته * يمضى فى تصويره للمعاملة الحسنة التى بدا الجنرال أوين باشا حريصاً على أن يحيطهم بها حتى إنه أمر بنقلهم إلى فندق ونتر بالاس وبتخصيص حجرة مفردة لكل واحد منهم، وقد بدت التعليمات بإكرامهم واضحة حين ألقاها الجاويش على جنود الحراسة بعد أن أطلق واحد منهم النار من مسدسه كرد فعل لسقوط إحدى الصفائح من يد حبيب فيما ظنه الجندى مؤامرة لقتله، ويشير محمد مظهر سعيد إلى توثق علاقاتهم بالضابط والجنود * يروى قصة لقائهم بمعتقلين آخرين كان منهم شقيق الدكتور طه حسين * نأتى إلى أقسى اللحظات العصيبة فى حياة محمد مظهر سعيد وإخوانه حين واجهوا الحقيقة المرة وهى أنهم قد حكم عليهم بالإعدام * نرى من تصويره مدى ما اعتراهم من صدمة أودت بحياة واحد من هؤلاء الأربعة حين أدرك من مقدمات حديث الجنرال أوين أن حكم الإعدام قد صدر عليهم * يقدم وصفاً دقيقاً للساعات التى سبقت تنفيذ حكم الإعدام فيه وفى

زملائه، ونرى فى هذا الوصف الدقيق انطباعاته الذكية تجاه التقاليد العسكرية البريطانية فى مثل هذه الأحوال، وهو يصف هذه التقاليد بالنفاق. كما أنه يصف حالته النفسية والبدنية بدقة شديدة، ويصور بدقة شديدة تفصيلات الذهول الذى اعتراه، والهروب الذى لجأ إليه عقله، كما يصور عودته إلى أرض الحقيقة على نحو دقيق. والواقع أن هذا الوصف نادر الوجود لأن القصة التى حدثت لمظهر سعيد وإخوانه كانت ولاتزال نادرة الحدوث أيضاً * نرى فى الحكم العسكرى الذى أصدرته المحكمة العسكرية البريطانية تجاوزاً فى توصيف التهم وتضمينا لها دون أن تعنى هذه المحكمة بتقدير الشعور الوطنى وما يترتب عليه، وهذا أمر طبيعى * فى وسط كل هذا يتضح لنا السبب فيما كان الجنرال أوين باشا حريصاً عليه من إحسان معاملة هؤلاء الذين كان يعرف أنهم قد تم الحكم عليهم بالإعدام، وأن تاريخ تنفيذ الحكم قد صدر بالفعل فى الحكم الصادر عليهم * من المفيد أن ننقل ما يرويه عما يتذكره من حكم المحكمة العسكرية عليه وعلى إخوانه * نأتى إلى اللحظة الفارقة التى قدر فيها لهؤلاء أن ينجوا من حكم الإعدام الذى لم يكن بينهم وبينه إلا دقيقة واحدة أو أقل منها، فإذا بعربة مسرعة تحمل قائداً كبيراً تأتى لتنقذهم من هذا الموت المحدق بهم، ومع هذا فإن محمد مظهر سعيد، وهو صادق فيما يرويه، لا يتصور ما حدث إلا على أن حكم الإعدام قد نفذ فيه، وأنه قد أصبح فى القبر المظلم، وأنه وجد على صدره شيئاً لزجاً كالدم * يحاور زميله حبيب فيجد عنده الظن نفسه فى أنهما ضربا بالرصاص وفارقا الحياة، وأنهما ينتظران حساب الملكين ويستعدان له * نقرأ حديث صاحب المذكرات الذى يستقى معرفته مما يراه المرء فى البيئة المصرية التى تحفل بتلقين الموتى عند دفنهم، وهو يمضى مع خيالاته هذه التى رحمه الله بها فى هذا الموقف العصيب ويظل ماضياً معها حتى يعود إلى الحقيقة، فإذا به فى حجرة من المعتقل، وإذا بضابط سودانى يحكى لهم أنهم أحضروا من ساحة الإعدام إلى هذه الحجرة وهم فى ذهول، ذهبوا بعده فى نوم عميق فلم يشأ وزملاؤه أن يوقظوهم، ويلفت الضابط السودانى نظرهم إلى أن زميلهم الشيخ مصطفى لايزال نائماً، ويطلب منهم إيقاظه فى هدوء * لاتزال الحيرة مسيطرة على صاحب المذكرات وأصحابه وهم يلجأون إلى التكهن، لكنهم يعجزون عن التفكير فيفوضون أمرهم لله، ويحاولون النوم فيعجزون بالطبع عن النوم المتواصل * يلخص ما حدث فى قضيتهم والقضايا المشابهة من واقع ما ينقله من أقوال القائد العسكرى الذى نقل لهم ما حدث من اتفاق القائد العام للقوات البريطانية مع الحكومة المصرية على إلغاء قرار محاكمتهم الأول وإعادة محاكمتهم، ومن الجدير بالذكر أن محمد مظهر سعيد نقل عن هذا الضابط نمطين من أنماط مشاعره تجاه الذين لقوا حتفهم قبلما أن ينقذوا على نحو ما أنقذ مظهر وإخوانه، فهى مشاعر ارتياح لإعدام المتهمين الذين قاموا بالثورة فى دير مواس، لأنهم كانوا فى نظره متوحشين، وأما المشاعر الثانية فهى مشاعر أسف لمقتل مأمور بوليس أسيوط الشهيد محمد كامل قبل وصول القرار بإعادة محاكمته بدقائق * يطلعنا على الوجه الآخر من هذا الموقف، وهو موقف زميلهم الثالث الشيخ مصطفى الذى كان فطناً إلى

طبيعة سياسة الإنجليز الخادعة التى تبرئ نفسها من الإجرام وتنسبه إلى الحكومة المحلية، وهو يعبر له عن إيمانه بهذه العقيدة بعد كل ما رأى من تصرفات الإنجليز فى السودان * يورد ما يدلنا على أن رؤية الشيخ مصطفى أو وجهة نظره كانت فى محلها، فها هم فى السجن، وإذا بالمأمور القائمقام جودة ينهى إليهم فى سرية أن الأوامر الإنجليزية صدرت إليه بإساءة معاملتهم، مع أنه يؤمن أنهم لا يستحقون الإساءة، لكنه مع هذا يدعوهم إلى عدم مخالفة لوائح السجن محذراً لهم من العقوبات القاسية التى يعتبر الجلد أخفها، وهو ينهى إليهم أنه يعرف تاريخهم وأنه سيحاول أن يتلطف معهم، لكنه يطلب إليهم أن يتعاونوا معه حتى تمر الأمور على خير، وقد سهل المأمور لهم أن ينضموا إلى بقية زملائهم المعتقلين، وأن يلتقوا بهم ويتناولوا معهم طعامهم * يستطرد إلى قصة الزيارة التى قام بها الأميرالاى لوكاس مفتش عام السجون إلى المعتقل الذى أودعوا فيه، وقد كانت لهذا الرجل صلة قوية بمظهر سعيد حيث كان أستاذ الجغرافيا فى المدرسة الخديوية، وكان وهو مدرس يعامل مظهر باللطف والحنو، لكنه على العكس أو النقيض من ذلك أساء معاملته إلى أقصى حد وضربه على وجهه ضربتين قاسيتين أسالتا الدم من صدغه ووجهه * تتوالى المفاجآت التى قدر الله أن ينجى بها محمد مظهر سعيد وزميليه من الإعدام أو من حكم قاس، فها هو الضابط المصرى المكلف بأن يتولى الترجمة يطلب من المحكمة أن تأذن له فى إطلاع المتهمين على قانون الأحكام العسكرية * ستغل هذا الموقف لتلقين هؤلاء المتهمين وإرشادهم إلى ما يمكنهم من الإفلات من العقوبات، كما أنه يؤكد لهم ما استنتجه محمد مظهر سعيد من أن هؤلاء الأهالى قد جيء بهم ليشهدوا ضدهم، وقد أحس بهذا عندما لم يردوا عليه التحية حين ألقاها عليهم * نصل إلى جوهر الدفاع الذى قام به صاحب المذكرات عن نفسه، وكيف نجح فى أن يحول القضية إلى قضية شخصية مع مدير أسوان وزعم أن المدير كان يبتغى تزويجه هو وصديقه حبيب من ابنتيه لكنهما اعتذرا لارتباطهما السابق، ولا ندرى هل كانت هذه الفكرة من بنات أفكار محمد مظهر سعيد، أم أنها كانت من ضمن ما أشار عليه به اليوزباشى حسن الزيدى، والاحتمالان واردان، ويروى صاحب المذكرات أن القاضى العسكرى الإنجليزى بدأ يميل إليه * عند هذا الحد يجد محمد مظهر سعيد الفرصة سانحة ليروى الأحداث المعروفة مع تحويرها تحويراً ذكياً بالقدر الذى يكفل نجاته، ومن دون أن يظهر أنه يختلق قصة جديدة تتعارض مع ما استقر فى الأذهان والوجدان والأوراق، وهنا نلمس مدى ذكاء الرجل الذى تمكن من صياغة جديدة ودقيقة لا يزيد فيها الاختلاق على الحد المطلوب لنجاته هو وزملائه * هنا ينتبه الشريك الثانى لصاحب المذكرات إلى ما ينبغى عليه أن يدعم به الرواية التى قدمها زميله، وهكذا يتدخل حبيب وينبه المحكمة إلى حقيقة دورهما السابق فى الإبلاغ عن الأدوات التى كان يستخدمها صاحب الفيلا الألمانى فى التجسس، وهو ما يدل دلالة قاطعة على أنهم لم يكونوا أعداء للبريطانيين، وإنما كانوا على العكس من ذلك حريصين على التعاون معهم * يردف هذا بالحديث عن دورهم فى الحفاظ على أرواح الضابط الإنجليزى والسكرتير المالى لحكومة السودان وعامل

الإنجليز فى مستعمرة الخزان ❊ يعود ليستشهد بالوقائع التى حدثت بالفعل بما يدل على براءتهما الظاهرة من مثل هذه التهم التى أجيد سبكها وترتيبها ❊ يدلنا على أنه هو وزميلاه كانوا يعتمدون على بديهة سريعة مكنتهم من أن يحولوا الشهود المجبرين عن موقفهم الذى جاءوا من أجله وتجهزوا له بما لقنتهم السلطات ❊ على أن الأمور التى قادت إلى براءات هؤلاء لم تكن لترضى غرور مفتش الداخلية الذى صمم على أن ينتقم بكل طريقة من هذين البريئين، لكن مأمور السجن بضميره الحى أبى أن ينساق إلى إجراءات تعسفية لا داعى لها فى نظره، فإذا هو يطيب خاطر مظهر وحبيب ويحرص على أن يعدهما بأنه سوف يعوضهما عن بقائهما فى السجن بكل ما يمكنه من تعويض ❊ يتوالى التعاطف الحكومى مع مظهر وحبيب فيأتيهما رئيس نيابة قنا بعد يومين بنفسه ويتولى بنفسه كتابة ما ينجيهما به من عسف مفتش الداخلية الإنجليزى وبطشه، صادراً فى هذا عن خبرته بجنون هذا المفتش الإنجليزى ❊ نصل إلى نهاية عهد الرجلين بالسجن والمعتقلات ونرى الروح الوطنية تسرى فى دماء المصريين وهى تقيم الاحتفالات الفورية بمجرد العلم بخبر الإفراج عن الرجلين، وهو الخبر الذى كان يسبق تحركهما من محطة إلى محطة من محطات القطار ❊ لا يفوته بعد هذا كله، وبعد أن يروى الحفاوة والترحيب والتمجيد الذى حظى به هو وزملاؤه أن يروى أن المدير نفسه كان قد حاول أن يعتذر لوالدته عما ارتكبه معهم، وأن يمضى فى خداعها عن موقفه المتواطئ مع سلطات الاحتلال، وأنه وصل فى هذا السبيل إلى حد أن ذهب بنفسه إلى الفيلا ليعتذر لها إلا أنها بذكائها الشديد لقنته درساً قاسياً ولم تسمح له بمقابلتها، وأهانته على مسمع من الناس ❊ يقفز صاحب المذكرات إلى ما بعد هذه الأحداث بربع قرن حين أتيح له أن يزور أسوان فى عمل رسمى، وهو يوجز القول فيما لقيه من ترحيب وتمجيد، وفى أصداء ذكراه فى نفوس الأهالى ❊ يتواصل الترحيب به دون أن نجد فى الرجل رغبة فى أن يوَفّى هذا الترحيب حقه الواجب بأن يبقى مع هؤلاء، أو أن يقرر العودة إليهم فى إجازة من إجازات نصف السنة، وكأنه لا يريد أن تبقى له صلة بماضيه فى الثورة إلا صلة الذاكرة، وهو شعور يتطلب قدراً كبيراً من الدرس والبحث والتأويل والتأمل ❊ ثناء المؤرخ عبد الرحمن الرافعى على الملخص الذى بعث به إليه صاحب المذكرات.

❊ ❊ ❊

هـــذا الكتـــاب

نتدارس فى هذا الكتاب مذكرات أربعة من الذين قادوا العمل السرى الفدائى فى ثورة ١٩١٩ تحت راية الوفد، وانتهت علاقتهم بالعمل السرى بعد نجاح هذه الثورة فى تحقيق ما حققته من آثار مباشرة وغير مباشرة، ومن حسن حظنا أن هذه المذكرات تمثل طيفًا واسعًا من الخبرة بالعمل السرى والفدائى، فإبراهيم عبدالهادى هو زعيم الطلبة فى هذه المظاهرات، مدبرًا وخطيبًا وقائدًا، وقد قاده نجاحه الباهر فى مهمته إلى السجن، وإلى الاقتراب من الإعدام، والدكتور سيد باشا كان مع زميله أحمد عبد الحى كيرة بمثابة الرأسين المدبرين لكثير من الحوادث الفدائية، وعريان يوسف سعد كان هو الفدائى الذى تطوع بإلقاء القنبلتين على رئيس الوزراء يوسف وهبة باشا معرضًا رأسه للمقصلة، لكنه عوقب بالأشغال الشاقة وبقى فى السجن حتى أفرجت عنه وزارة الشعب برئاسة سعد زغلول باشا، والدكتور محمد مظهر سعيد كان مع زميله محمد حبيب بمثابة قائدى الثورة فى أسوان، مما دفع بهما إلى السجن وحكم الإعدام، وهو حكم لم ينفذ فى مفارقة تاريخية درامية يندر تكرارها.

ومن العجيب أن هؤلاء الأربعة رزقوا طول العمر، وقد كتبوا بالطبع كثيرًا من المذكرات، ورووا كثيرًا من الأحداث، وأدلوا بكثير من الأحاديث، لكن أهم الأعمال التى يمكن أن تسمى مذكراتهم هى هذه الأعمال التى نتدارسها فى كتابنا هذا.

* * *

ومن المهم أن نشير إلى أن ثلاثة من هؤلاء هم محمد مظهر سعيد والسيد محمد باشا وعريان يوسف سعد يمثلون نماذج بارزة للوطنيين الذين ينظرون إلى العمل الوطنى الفدائى على أنه مرحلة من مراحل الحياة، لا على أنه مهنة ملازمة تؤدى طوال الحياة، وأنه فرض واجب يُؤدى فى المرحلة التى يكون الإنسان قادراً فيها عليه دون أن يعنى هذا أن يظل الفدائى طيلة حياته سياسيًا يتنقل بين مقاعد الأحزاب والبرلمان والوزارة على نحو ما حدث مع إبراهيم عبد الهادى طيلة حياته السياسية.

وليس من شك أن تاريخ العمل السياسى والوطنى فى مصر قد حفل بهذا النموذج، الذى أرضى ضميره بما قدمه لأمته فى وقت من الأوقات، ثم عاد إلى الحياة العامة يخوضها كأى إنسان آخر دون أن ينال المكافأة المستحقة له عن جدارة فى صورة وسام أو فى صورة وظيفة أو فى صورة موقع سياسى بارز.

والواقع أن إحساس الجندية الذى يدفع بعضًا من خيرة الشباب الوطنى إلى أداء مثل هذه المهمات فى أوقات الأزمات وأزمنة التحول يمثل نعمة من النعم الإلهية التى ظلت تحفظ للأمة المصرية روح الحياة وروح الثورة الكفيلة بالإبقاء على الحياة، كما أنها ظلت تحفظ للمجتمع نسيجه القادر على مجابهة التحديات والمصاعب، والانتصار للوطنية وللواجب.

من زاوية أخرى فإن أمثال هؤلاء بسلوكهم هذا قد أثبتوا للتاريخ المصرى المعاصر زيف الادعاء بأن رجال ثورة ١٩١٩ قد انشغلوا بغنائمها ريثما نجحت الثورة فى تحقيق بعض أهدافها، وأن هؤلاء الرجال الذين أشعلوا الثورة وأداروا تنظيماتها السرية أصبحوا بمثابة الوزراء البيروقراطيين الكبار بعد ذلك، ذلك أننا نكتشف ما سبق لنا أن اكتشفناه فى المجلد السابق من هذه المجموعة من المجلدات التى تناولنا فيها مدارسة المذكرات وهو كتاب «فى ضوء القمر» وهو أن خلية العمال الوطنيين كانت هى صاحبة الفضل الأول فى كل ما تحقق ونسب إلى تنظيمات الوفد والحزب الوطنى على حد سواء.

ومن الحقائق التى تبدو ضربًا من ضروب المفارقة أننا حين نتأمل ما كتبه أصحاب المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب قد نصل إلى شعور بأن الذين صوروا على أنهم

زعماء التنظيمات السرية لم يكونوا كذلك، لكنهم صُوروا كذلك فملأوا الفراغ المعرفى الذى يتوقع فى الحديث عن أصحاب الفضل فى مثل هذه الأحداث التى لابد أن يكون لها صاحب!! وهكذا مضت الأمور سنوات طوالاً دون نزاع معلن بين هؤلاء الذين صوروا مسئولين عن التنظيمات السرية ونشاطها، وبين أصحاب الفضل الحقيقى فى هذه التنظيمات، ولم يكن الأخيرون فى حاجة إلى أن يدخلوا معركة من هذا القبيل، ولا أن يثبتوا لأنفسهم حقًا فى الحديث عن روح الفداء التى هى فى الأصل روح إيثار تأبى أن تتحدث بفضل الفداء أو الإيثار إذا ما كانت قد وصلت إليه بالفعل.

وتقودنا هذه النتيجة إلى نتيجة أخرى لا تقل عنها أهمية، وهى أن أصحاب الفضل الجوهرى فى العمل السرى لا يمكن أن يكونوا من أصحاب المذكرات عامة أو الذين نستعرض مذكراتهم اليوم، ولا من أصحاب الحق التاريخى الذين صاروا معروفين بهذا الفضل (من أمثال عبد الرحمن فهمى وأحمد ماهر والنقراشى.. إلخ)، وإنما هم أناس يصدق عليهم، بل ولا يصدق عليهم إلا اسم الجندى المجهول(!!) وذلك من قبيل بعض الأبطال العظماء من العمال الذين أعدموا عقابا على قتل السردار!! ولا يعنى هذا أن ننفى الفضل عن أصحاب الحق الأسمى، ولا عن أصحاب المذكرات، لكننا ننبه إلى أصحاب الفضل الجوهرى دون أن يعنى هذا أن هناك أفضالاً أخرى لا تقل أهمية عن هذا الفضل الجوهرى.

ولعلنا ننطلق من هذه الجزئية إلى جزئية أخرى تتعلق بطبيعة الفضل غير الجوهرى الذى نراه لا يقل أهمية عن الفضل الجوهرى، وتكمن هذه الطبيعة فى نظرنا فى دور الثقافة والعلم حين يضيفان نكهتهما إلى الروح الوطنية الفدائية المتأججة فيوجهان هذه الروح التوجيه الذى يكفل تحقيق أقصى المكاسب بأقل الأضرار، وحين يحميان هذه الروح من براءتها الفطرية، ومن حسن ظنها، ومن قلة خبرتها بالشر والشريرين، وقد بذلنا فى كتابنا السابق «فى ضوء القمر» جهودًا كثيرة فى إضاءة هذه الفكرة قبل أن نصرح بها على هذا النحو الواضح فى مقدمة هذا الكتاب الذى هو ثانى مجلد فى ميدانه.

والواقع أن كلا من العمل الفدائى والتخطيط له كانا يجدان أكبر عون ممكن من روح الثورة العظيمة التى فاضت بها نفوس أبناء الوطن بعد إحساسهم القوى والعميق

بضرورة الثورة قبل جدواها، ومن ثم فإن نفوسهم انطلقت إلى الإيمان الذكى بحتمية الثورة وباعتبارها الطريق الوحيد الذى لم يعد هناك مناص من اللجوء إليه من أجل تحقيق الهدف الوطنى الكبير.

وربما جاز لنا أن نبحث عن الأسباب التاريخية طويلة المدى التى جعلت روح الوطن تصل إلى هذا الاقتناع، وتؤمن به على هذا النحو، ومن الإنصاف أن نشير إلى أن المذكرات التى نتدارسها تتناول ما هو كفيل بأن يضىء هذا المعنى وأن يثريه، فنحن نرى الإدارة البريطانية تمارس غطرسة لا مبرر لها، وتواصل ممارسة هذه الغطرسة دون أن تعنى بالحوار مع طوائف الشعب، ولا مع ممثليه، ولا حتى مع طبقته العليا التى كان لبريطانيا نفسها يد ما فى ارتفاعها ووصولها إلى ما وصلت إليه. ونحن نرى أن هذه السياسة قد تنامت فى إيذائها لمشاعر الوطنيين حتى وصلت بهم إلى الإحساس بالغربة فى وطنهم، وهو شعور قاس على نفس الحر.

ونرى فى مقابل هذا عالمًا جديدًا يتشكل ويعطى للمستعمرين حقوقًا كان المصريون يرون أنفسهم أصحاب الحق فيها، بل كانوا يرون أنفسهم أصحاب الفضل فيها أيضًا، وذلك أنهم قدموا للحلفاء معونات ضخمة اعترف بها الحلفاء أنفسهم، كما أنهم منعوا أنفسهم من الانضمام إلى حليف طبيعى يتمثل فيما آلت إليه الدولة العثمانية من دولة جديدة خاضت الحرب ضد الحلفاء بروح متطلعة إلى النصر والفوز بكثير من المكاسب، لكن البريطانيين بطبيعتهم الاستعمارية كانوا أبعد ما يكون عن فهم مثل هذه الروح، ومثل هذه النفسية، ولهذا وقع الصدام العلنى، ولهذا أيضًا وقع الصدام السرى حين وجد المخلصون أن الصدام العلنى أعجز من أن ينبه البريطانيين بقوتهم إلى نقاط ضعفهم.

ولا يخالجنى شك فى جدوى كل هذا العمل السرى، وفى دوره فى تحقيق ما تحقق لوطننا فى تلك الحقبة التى سبقت نهضة مصر المعاصرة.

لا أريد أن أطيل على القارئ فى عرض أفكار سيراها واضحة وضوح الشمس، ومصفاة كالنبع الصافى على مدى صفحات هذا الكتاب.

وإنى لأرجو للقارئ أن يسعد بهذا الكتاب كما سعدت، وأن يسعد بقراءته على

نحو ما سعدت بكتابته، وأن يستمتع بقراءة ما يحتويه على نحو ما سبقته أنا إلى هذا الاستمتاع الذى لاشك فيه.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يذهب عنى ما أشكو منه من وصب ومن نصب، ومن ألم ومن قلق، وأن يرزقنى الشفاء والعافية، وأن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه، وأن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يجعل جهدى خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع بعملى وبعلمى، وأن يزيدنى علما وعملاً وفهمًا وذكاءً ووفاء وعطاءً وولاءً لوطنى وأهله أجمعين وأن يحفظ علىّ عقلى وذاكرتى، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن ينعم علىّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعيننى على نفسى وأن يكفينى شرها، وشر الناس، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعنى بما علمنى، وأن يعلمنى ما ينفعنى، وأن يمكننى من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذى منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول. وهو جلّ جلاله الذى هدانى، ووفقنى، وأكرمنى، ونعّمنى، وحبب فىّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتى وهى - بالطبع وبالتأكيد - كثيرة ومتواترة ومتنامية. فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

محمد الجوادى

البــاب الأول

مذكرات إبراهيم عبد الهادى

(١)

إبراهيم عبد الهادى أشهر من أن يعرف ، لكننا لابد أن نقدم فى تعريفه ما يضمن أن تسير مدارستنا لمذكراته فى سلاسة .

هو رجل دولة من الطراز الأول، وهو الرئيس الثالث لحزب الهيئة السعدية (المعروف اختصاراً بالحزب السعدى) بعد مؤسسيه الأولين أحمد ماهر (ت ١٩٤٥)، والنقراشى (ت ١٩٤٨)، وهو رئيس الوزراء الذى عقدت فى عهده اتفاقية «رودس» مع إسرائيل (١٩٤٩)، كان من أبرز الطلاب الذين شاركوا فى الحركة الوطنية فى ثورة ١٩١٩ ، وقد دفع به نشاطه وبلاغته وشخصيته إلى أن يكون أبرز زعماء الطلبة الثائرين وخطبائها، وبسبب مشاركته فى أحداث الثورة حكم عليه بالإعدام الذى خفف إلى السجن المؤبد فى قضية المؤامرة الكبرى المعروفة بقضية عبد الرحمن فهمى، فقد اتهم وآخرون بالمشاركة فى قتل ضباط وجنود إنجليز، ثم أفرج عنه سنة ١٩٢٤ فى أعقاب تشكيل سعد زغلول لوزارته بعد أن أمضى فى السجن ٤ سنوات، وعندما حكم عليه بالسجن لم يكن قد أكمل دراسته بالحقوق، وبعد خروجه من السجن أكمل دراسته وحصل على إجازة الحقوق (١٩٢٥).

وقد قبض عليه مرة أخرى وقضى فى المعتقل ما يقرب من شهرين فى أعقاب اغتيال السير لى ستاك (سردار الجيش المصرى بالسودان) (نوفمبر ١٩٢٤)، لكن التحقيقات لم تسفر عن اتهام محدد ضده فأفرج عنه، واستمر يؤدى دوره الوطنى والحزبى بامتياز حتى تولى الوزارة (١٩٣٩)، ثم رياستها (ديسمبر ١٩٤٨)، وقبل أن يتولى رياسة الوزارة كان الملك فاروق قد اختاره على حين فجأة ودون سابق مقدمات لرياسة الديوان الملكى (١٩٤٧).

* * *

ولد فى فبراير ١٨٩٨ فى قرية الزرقا التابعة لمركز فارسكور محافظة الدقهلية (وهى الآن مدينة عاصمة لمركز يتبع محافظة دمياط)، وهو ينتمى إلى عائلة المليجى، وكان والده من الأعيان، لكنه لم يعرف فى التاريخ وأدبياته إلا باسمه المختصر: إبراهيم عبد الهادى.

(٢)

أما مذكراته فقد نشرت بعد وفاته فى مجلة روزاليوسف فى ثمانية وعشرين حلقة متتابعة، وقد بدأ نشرها فى ٢ مايو حيث نشرت الحلقة الأولى، ونشرت الثانية فى ٩ مايو ١٩٨٢، والثالثة فى ١٦ مايو، والرابعة فى ٢٣ مايو، والخامسة فى ٣٠ مايو، والسادسة فى ٧ يونيو، والسابعة فى ١٤ يونيو، والثامنة فى ٢١ يونيو، والتاسعة فى ٢٨ يونيو، والعاشرة فى ٥ يوليو، والحادية عشرة فى ١٢ يوليو، والثانية عشرة فى ١٩ يوليو، والثالثة عشرة فى ٢٦ يوليو، والرابعة عشرة فى ٢ أغسطس والخامسة عشرة فى ٩ أغسطس، والسادسة عشرة فى ١٦ أغسطس والسابعة عشرة فى ٢٣ أغسطس، والثامنة عشرة فى ٣٠ أغسطس، والتاسعة عشرة فى ٦ سبتمبر، والعشرون فى ١٣ سبتمبر، والحادية والعشرون فى ٢٠ سبتمبر، والثانية والعشرون فى ٢٧ سبتمبر، والثالثة والعشرون فى ٤ أكتوبر، والرابعة والعشرون فى ١١ أكتوبر، والخامسة والعشرون فى ١٨ أكتوبر، والخامسة والعشرون فى ١٨ أكتوبر، والسادسة والعشرون فى ٢٥ أكتوبر، والسابعة والعشرون فى ١ نوفمبر، والثامنة والعشرون (الأخيرة) فى ٨ نوفمبر ١٩٨٢.

وقد تولى الأستاذ محمد على أبوطالب تحرير هذه المذكرات التى نشرت فى «روزاليوسف» وذكر اسمه على هذه الحلقات ببنط كبير حفظ له حقه

(٣)

بدأ إبراهيم عبد الهادى عهده الوزارى كوزير للدولة للشئون البرلمانية فى وزارة على ماهر باشا الثانية (١٨ أغسطس ١٩٣٩)، وفى الوزارة التالية وهى وزارة حسن صبرى (٢٨ يونيو ١٩٤٠) عمل كوزير للتجارة والصناعة، حيث كانت فرصة

السعديين فى وزارة حسن صبرى أفضل منها فى وزارة على ماهر، لكنه ترك الوزارة عند خروج السعديين منها فى ٢١ سبتمبر ١٩٤٠، وبقى بعيداً عن الوزارة طيلة الفترة الباقية من وزارة حسن صبرى ووزارة حسين سرى الأولى، شأنه فى ذلك شأن زملائه السعديين. لكن ما أن اشترك السعديون مرة ثانية فى الائتلاف الوزارى وتكونت وزارة حسين سرى باشا الثانية فى ٣١ يوليو ١٩٤١ حتى انضم إليها، وهنا ارتفعت أهمية وزارته مرة أخرى لتكون الأشغال العمومية، وبقى وزيراً للأشغال العمومية حتى انتهاء عهد هذه الوزارة فى ٤ فبراير ١٩٤٢، وهكذا عمل فيما قبل حادث ٤ فبراير وزيراً لثلاث وزارات مع ثلاثة رؤساء وزارة مختلفين، وقد بقى بالطبع خارج الوزارة طيلة عهد وزارة الوفد.

عاد إبراهيم عبد الهادى إلى المناصب الوزارية مع عودة السعديين فى الائتلاف الكبير عقب الحرب العالمية الثانية، ومن الطريف أنه عمل وزيراً للصحة ثلاث مرات فى الوزارات الثلاث المتتالية، وهى وزارات: أحمد ماهر الأولى (٨ أكتوبر ١٩٤٤) والثانية (١٥ يناير ١٩٤٥) والنقراشى الأولى (٢٤ فبراير ١٩٤٥)، وهكذا أصبح رصيده ٤ وزارات مع خمسة رؤساء وزارة فى ست وزارات.

ولما تولى إسماعيل صدقى باشا رئاسة الوزارة خلفاً للنقراشى (فبراير ١٩٤٦) لم يشاركه السعديون فى وزارته فى البداية، ولكن بحلول ١١ سبتمبر ١٩٤٦ دخل السعديون الوزارة (وكأنما كان هذا تعويضاً عن خروجهم قبل ست سنوت إلا عشرة أيام من وزارة حسن صبرى فى سبتمبر ١٩٤٠)، وأصبح إبراهيم عبد الهادى وزيراً للخارجية لأول مرة، وهكذا أصبح رصيده ٥ وزارات مع ستة رؤساء وزارة فى سبع وزارات. فقد عمل حتى الآن تحت رئاسة: على ماهر باشا، وحسن صبرى باشا، وحسين سرى باشا، وأحمد ماهر باشا، والنقراشى باشا، وإسماعيل صدقى باشا.

فى ٩ ديسمبر ١٩٤٦ ترك صدقى رئاسة الوزارة، لكن إبراهيم عبد الهادى لم يترك الوزارة لأنه أصبح عضواً بارزاً فى الوزارة الجديدة التى شكلها النقراشى باشا، وهى وزارته الثانية التى استمرت لأكثر من عامين، وفى هذه الوزارة قفز نجم إبراهيم عبد الهادى بالطبع ليصبح وزيراً للمالية وليحل بهذا محل مكرم عبيد الذى كان يتولى هذا المنصب طيلة وزارات ماهر والنقراشى الثلاث المتصلة (١٩٤٤ ـ ١٩٤٥).

لكن إبراهيم عبد الهادى لم يلبث فى هذا المنصب إلا سبعين يومًا فقط، فقد وقع عليه الاختيار ليكون رئيسًا لديوان الملك، وهكذا ترك الوزارة بعد أن أصبح عدد الوزارات التى تولاها ٦ وزارات (الدولة للشئون البرلمانية، التجارة والصناعة، الأشغال، الصحة، الخارجية، المالية)، مع ٦ رؤساء وزراء فى ثمانى وزارات.

ولا يعود إبراهيم عبد الهادى إلى الوزارة إلا ليرأسها بعدما وقع حادث اغتيال النقراشى باشا، ويشكل إبراهيم عبد الهادى وزارته الأولى والأخيرة فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ ويتولى وزارة الداخلية مع رئاسة الوزارة طيلة عهد هذه الوزارة، كما يتولى وزارة المالية طيلة الأسبوعين الأولين من عهد هذه الوزارة، بهذا يرتفع عدد وزاراته إلى سبع وزارات، وعدد الوزارات التى شارك فيها إلى تسع وزارات (منها وزارته).

(٤)

نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات باستعراض ما يرويه صاحبها عن ثورة ١٩١٩، وعن دوره فى جهازها السرى الذى كان تحت قيادة عبد الرحمن فهمى ومن الجدير بالذكر أن إبراهيم عبد الهادى يحرص على أن يصور حياته وشخصيته ثمرة من ثمار ثورة ١٩١٩، وهو يرى فى نشأته نشأة عادية لم تكن لتؤهله لدخول عالم السياسة لولا ما حدث عند اندلاع ثورة ١٩١٩، ومع أنه يشير بكل وضوح إلى أنه دخل عالم السياسة من خلال التنظيم السرى لثورة ١٩١٩، فإنه لا يقدم المبررات التى جعلته ينضم إلى التنظيم السرى، ولا القرائن التى دفعته إلى هذا الانضمام:

«. . . فأنا مجرد طفل عادى ولد عام ١٨٩٨ فى بلدة اسمها «الزرقا» فى مديرية الدقهلية، وكان والدى فلاحًا ثريًا، يؤدى فرائض دينه، ويربى أولاده، وبفضل ثراء والدى لم أعرف الحرمان، وكانت لى دائمًا عزوة وعصبية، وعشت حياة سهلة من أيام الدراسة فى «الكتاب» إلى أيام الدراسة فى مدرسة الحقوق، وكنت أتمتع أيام دراسة الحقوق بشقة فسيحة نظيفة فى «جنينة ناميش» مع سيدة ترعى كل شئونى، وتسهر على خدمتى، ولم يكن لى، بحكم سنى، نصيب المشاركة فى أى عمل سياسى طوال الحرب العالمية الأولى، ولم يكن مقدرًا لى أن أدخل أصلاً عالم السياسة».

«لكن نقطة التحول فى حياتى كانت ثورة ١٩١٩».

«وعندما انخرطت فى حركة الطلاب الثائرين، بعد نفى سعد زغلول، وانضممت إلى تنظيمها السرى الذى يتولى طبع منشوراتها، وتجنيد الأنصار لها، لم أكن قد رأيت بعد سعد زغلول».

(٥)

يتحدث إبراهيم عبد الهادى بذكاء شديد عن طبيعة دوره فى ثورة ١٩١٩، لافتًا النظر إلى السلاح الفعال الذى اعتمد عليه هو وزملاؤه فى مجابهة المؤامرات التى واجهتها الحركة الوطنية، وهو سلاح الوحدة الوطنية، وكيف كان لهذا السلاح أثره الفعال فى تجاوز الاختلافات التى كانت كفيلة بإفشال ثورة ١٩١٩ فى كل مرحلة من مراحلها.

ويبدو فهم إبراهيم عبد الهادى لسلاح الوحدة الوطنية عميقًا وممتدًا لا يقف بهذه الوحدة عند الحدود التى بات يقف عندها من الجمع بين المسلم والمسيحى تحت راية واحدة، وإنما هو يفهم معنى الوحدة الوطنية الواسع الذى يجعل أبناء الوطن يتوحدون فيه، وهو ينتبه إلى أن هذا السلاح كان بمثابة ملجأ يتكرر اللوذ به طيلة الحقبة الحديثة من تاريخ مصر:

. . . .

«صاغت مصر بقيادة سعد زغلول سلاحها الذى لا يقهر: وحدتها الوطنية، وراء قيادة وطنية».

«كان يمكن أن تفشل الثورة لو لم نكتشف هذا السلاح».

. . . .

«. . . ولا يستطيع كائن من كان أن يسلب هذه الثورة فضل صياغة هذا السلاح الذى نلجأ إليه حتى الآن كلما تأزمت الأمور، وواجهتنا العقبات، سلاح الوحدة الوطنية، الذى جمع ما بين المسلم والقبطى، وما بين الفلاح والباشا، وما بين الوزير

وماسح الأحذية، السلاح الذى عجزت أمامه بريطانيا العظمى فى عنفوان بطشها، ويئست حتى يوم جلائها من تجريد الشعب المصرى منه».

(٦)

يلمح إبراهيم عبد الهادى بوضوح إلى أنه هو ومجموعته من شباب ثورة ١٩١٩ كانوا يقومون فى بعض الأحيان بمجابهة بعض رجال الحزب الوطنى الذين كانوا يحاولون أن يقللوا من عمل سعد زغلول ورفاقه، وهو يتحدث بوضوح عما هو معروف فى صفحات التاريخ من نجاحه هو ومجموعته فى إقناع الأزهريين بصدق التوجه الوطنى لثورة ١٩١٩، على حين كانت بعض قيادات الحزب الوطنى القديم تبنى حساباتها على انضمام الأزهريين إليها فى مواجهة الوفد ومنافسته.

ربما كان من الجدير بالذكر أن نشير إلى أن سيد باشا يفرق بين مجموعتين من الحزب الوطنى، ويرى أن الحزب الوطنى قد أيد زعامة سعد زغلول أما الذين لم يؤيدوه فكانوا أعضاء اللجنة التنفيذية لذلك الحزب، ونحن نرى إبراهيم عبد الهادى يذهب هذا المذهب وان لم يكن بالوضوح نفسه.

«... وكانت لى فى هذا الصدد تجربة عاصرتها بنفسى، فبينما طلاب الجامعة والمدارس الثانوية يؤيدون الرأى العام ضد بريطانيا، بعد نفى سعد زغلول، بدأ بعض رجال الحزب الوطنى يوجهون شبابهم إلى الأزهر الشريف، ويزعمون لطلاب الأزهر أن رجال الأمة يسعون إلى ما دون الاستقلال».

«وكان من نصيبى أن كنت من الذين كلفوا بتدارك هذه الحركة الخطيرة».

....

....

«ونحمد الله أن وفقنا فى هذا توفيقًا تامًا، حتى انفردنا بمنبر الأزهر كاملاً، وكانت اجتماعاته الضخمة ذات الألوف المؤلفة من الأزهريين وطلبة المدارس عامة والمتعلقين من أفراد الشعب بمتابعة الحركة الوطنية والمشاركة فيها قوة عظيمة فى مجابهة قوات الاحتلال والاستهانة بها».

«ورب ضارة نافعة، فهذه الاجتماعات والمطارحات بيننا وبين شباب الحزب الوطنى بدلاً من أن تحدث اضطرابًا فى صفوف الأمة، وأنصار الوفد من الشباب، كانت سببًا ضخمًا من أسباب قوته، وتعلق الأمة بسعد زغلول والتفافها حوله إلى حد لم يسبق له مثيل».

«وبدلاً من أن يكون رسل الحركة الوطنية إلى الأرياف من طلبة المدارس العليا والثانوية وحدهم، زادوا زيادة هائلة بانضمام طلبة الأزهر إليها، وكانوا من عناصر الدعاية الوطنية القوية، ولعل فصاحتهم كذلك بين أهل الريف خصوصًا كانت أكثر».

(٧)

ويورد إبراهيم عبد الهادى تفصيلات دقيقة عن الساعات الأولى من المظاهرة الأولى للطلبة فى مارس ١٩١٩، وقد كانت هذه المظاهرة بمثابة أبرز مظاهر الثورة المصرية التى اندلعت بدءًا من ذلك اليوم، وتدلنا التفصيلات التى يرويها إبراهيم عبد الهادى على ما كان يتمتع به من سلطان معنوى على زملائه بفضل قوة شخصيته، وقدرته على التعبير والخطابة، وهى مؤهلات جوهرية فى مثل ظروف تلك الأيام، ونرى إبراهيم عبد الهادى منذ البداية أو فى ذلك الحين منتبهًا إلى غلبة طبيعة التحفظ والتريث فى شخصيات زملاء سعد زغلول فى الوفد من طراز عبد العزيز فهمى، وعلوبة، ولطفى السيد، كما نراه حريصًا على أن يثبت استقلال مجموعة الشباب واعتزازهم بمسئوليتهم المباشرة عن أنفسهم وتصرفاتهم، وفى الوقت نفسه فإنه يحرص على أن يؤكد على جماعية القرار والالتزام بجماعيته، وسنرى فى حواره مع مستر إيموس مستشار الحقانية قدرة فائقة على الوصول إلى الهدف وتجنب الجدل غير المفيد:

« . . . وكنت أحد المترددين على بيت سعد زغلول كل يوم تقريبًا».

«وفى يوم ٩ مارس التالى لاعتقال سعد ورفاقه ذهبت إلى بيت الأمة وأنا فى طريقى إلى مدرسة الحقوق مع زميلين آخرين هما عبد الحليم عابدين، وحافظ عمار، فلقينا عبدالعزيز فهمى، ولطفى السيد باشا، ومحمد على علوبة بك، وسألناهم عن صحة ما سمعناه فى الطريق إلى بيت الأمة من أن الإنجليز قبضوا على سعد باشا، فأيدوا الخبر».

«واستشعروا من روحنا أننا نعتزم أمراً فحاولوا أن يردونا عنه، ونصحنا عبد العزيز بك فهمى بالذات أن نقصر جهودنا على إتقان دروسنا استعداداً لخدمة بلادنا، وكرر نصحه بألا نقوم بإجراء قد يضر بجهد الوفد فى مساعيه لأن الظرف يحتاج إلى التصرفات السليمة المدروسة التى يقوم بها جيلنا، فأكدنا له أننا حين نرى مع إخواننا رأيًا معينًا أجمعنا عليه فسنعلنه على مسئوليتنا وحدنا، وليس للوفد دخل فيما نتخذه من قرارا!».

«وذهبنا من فورنا إلى مدرسة الحقوق بالجيزة، وهناك أعلنا إخواننا بهذا النبأ والتقينا جميعا فى الصالة الداخلية للمدرسة وتبارى الطلبة فى إلقاء الكلمات».

«كان واضحًا أن أغلبية الآراء تميل إلى ترك الدراسة، ولكن ناظر المدرسة يومئذ كان رجلاً كنديًا على جانب كبير من التهذيب، وعلاقته بالطلبة علاقة أبوية حقيقية، فرجانا أن ننتظر قليلاً حتى يحضر مستر إيموس مستشار وزارة الحقانية، وكان ناظراً من قبل لمدرسة الحقوق».

«ولعل الناظر الكندى قدر أن مستر إيموس له من النفوذ على طلبة كلية الحقوق، بحكم نظارته السابقة عليهم، وقد امتدت سنوات، ما يساعد على إقناعهم بالاستمرار فى الدراسة».

«وجاء مستر إيموس على عجل ونزلنا لمقابلته فى فناء المدرسة، فوقف هو وناظر المدرسة وأساتذتها على رأس السلم ووجه إلينا الخطاب بألا نستقل برأينا فى اتخاذ القرار، وأن علينا أن نرجع إلى آبائنا وأولياء أمورنا نستشيرهم ونعمل برأيهم، فأجبته بما فتح الله علىّ به وقتها وما قلته: «أين آباؤنا وأولياء أمورنا الذين نرجع إليهم فى المشورة، لقد نفيتموهم ولا نود أن ندرس القانون فى بلد يداس فيه القانون!».

«ونادى حافظ عمار ـ رحمه الله: «يحيا الإضراب»، فردد الحاضرون نداءه بكل قوة».

«واندفع الطلبة فوراً إلى خارج المدرسة وتوجهنا إلى مدرسة المهندسخانة، فخرج طلابها، وذهبت جموعنا إلى مدرسة الزراعة العليا، فمدرسة السعيدية الثانوية، وكلها قريبة من بعضها البعض».

«وانضم إلينا جميع طلبتها، وذهب جميعنا فى مظاهرة ضخمة مخترقة الجيزة، وعبرنا كوبرى عباس».

(٨)

ثم يورد إبراهيم عبد الهادى ما يتذكره عن اشتباك أحد زعماء الطلبة بعميد كلية الطب فى ذلك الحين، ومن الطريف أن إبراهيم عبد الهادى يورد تفصيلات كثيرة عن هذا الاشتباك لم يوردها حافظ محمود فى كتابه «المعارك» الذى اكتفى بتصوير الأمر على أن الناظر المتعجرف حاول دفع الطالب لكن الطالب ركله، وينفرد إبراهيم عبد الهادى بذكر اسم الطالب وما وصل إليه فى سلك الوظيفة بعد ذلك، ومن الجدير بالذكر أن مذكرات كل من سيد باشا وعريان يوسف سعد تقدمان وصفًا تفصيليًا يضيف كثيرًا من الحقائق والشرح للتفصيلات التى يقدمها إبراهيم عبد الهادى:

«وتوجهنا إلى مدرسة الطب بشارع قصر العينى، وفيها خرج ناظرها مستر كيتنج وكان رجلاً استعماريًا فظًا شديد الوطأة على المدرسين، وكان لا يستحى أن يشتمهم بأحط الألفاظ».

«. . . فما أن سمع بالمظاهرة حتى خرج لملاقاتها ووقف على أعلى السلم، فصعد إليه الطالب عبد الحميد داود وكيل وزارة الرى بعدئذ، ولكنه لم ينتظره بل نزل درجتين على السلم محاولاً استعمال العنف معه الذى اشتهر به، فأمسك به عبد الحميد داود وكان قوى البنية وهزه بعنف ورماه على السلم، فاستنجد بأحد أساتذة كلية الطب وكان يقف إلى جواره، فرمى أستاذ الطب نفسه على عبد الحميد داود فدفعه عبدالحميد وانهال عليه طالبان بشنطة الكتب، فوقع فوق الدكتور كيتنج، وكان موقفًا شديدًا لا يحسدان عليه».

«وعرف أن الدكتور كيتنج كسرت ذراعه فى هذا الحادث».

«خرجت المظاهرة بعد أن حاول محمد خليل عبد الخالق ضابط المدرسة غلق الأبواب».

«ويقال إن الدكتور كيتنج استقال بعد هذا الحادث قائلاً: إنه لا يحب أن يخدم شعبًا . . لا يحبنا».

(٩)

ويواصل إبراهيم عبد الهادى الحديث عن خط سير المظاهرة وعن المحاولات المستميتة التى بذلتها الشرطة من أجل إيقافها، وهو حريص على ذكر أسماء الضباط الذين تصدوا للمظاهرة بالقوة، ومنهم حيدر باشا الذى أصبح وزيراً للحربية فى عهد الملك فاروق، وهو يحاول تصوير مدى الإهانة التى تعرض لها الطلاب الذين قبض عليهم فى ذلك اليوم، مكتفيًا بالقول بأنهم حُجزوا فى مكان ضيق جدًا حتى إن بعضهم قد نام على صدر زميله:

« . . . وسارت المظاهرة نحو مدرسة دار العلوم والتجارة العليا بالمنيرة، فلحقت الشرطة بالمظاهرة بقيادة وكيل حكمدار القاهرة البريطانى، والصاغ مرقص فهمى مأمور قسم السيدة زينب، لكن المظاهرة سارت رغم قبض الشرطة على عدد من الطلبة أذكر من بينهم محمد صقر، ومحمد عفيفى، ومحمد على صالح، والثلاثة من طلبة المهندسخانة».

«وصلنا إلى ميدان السيدة زينب واتجهنا إلى مدرسة الخديوية الثانوية فلحق بنا اليوزباشى محمد حيدر على صهوة جواده (الفريق محمد حيدر باشا ياور الملك فيما بعد)، واليوزباشى سليم عزت ومعهما قوة راكبة تقدر بأكثر من خمسين جنديًا، وجرى الالتحام بين المتظاهرين والبوليس، وحاولوا جهدهم أن يخيفوا الزاحفين أو يقفوهم فلم يقدروا، ولكن بعض الطلبة والأهالى وقع تحت سنابك الخيل وأصيب عدد منهم إصابات شتى، وقبض على البعض وأودع بعضهم قسم السيدة، وأودع البعض الآخر سجن القلعة ومسجد مجاور لها».

«ولم يقع قتلى فى ذلك اليوم، لكن المقبوض عليهم من طلبة المدارس العليا والمعتقلين فى القلعة والمسجد المجاور أهينوا كثيرًا وأهمل شأنهم حتى إن كل عشرة منهم كانوا ينامون متجاورين فى مكان ضيق، حتى إن بعضهم كان ينام على صدر زميله».

(١٠)

وتنفرد مذكرات إبراهيم عبد الهادى بالإشارة إلى الدور الذى لعبته مجموعة من

شباب الوفد، كان هو أحدهم، فى زجر وإرهاب مجموعة من الأثرياء والأعيان أسس لهم الإنجليز حزبًا باسم الحزب «المستقل الحر»، ومن الطريف أن هذا الحزب فقد وجوده بسرعة على يد هؤلاء الشباب الذين تمكنوا من إرهاب رجال هذا الحزب فى عقر دارهم، ومن الجدير بالذكر أن سيد باشا حينما تناول هذه الواقعة أشار إلى أن ذلك الحزب كان يسمى بحزب الأمة لا المستقل الحر:

«ونما إلى الشباب عن طريق «ديدبان» مصر حارسها الساهر اليقظ عبد الرحمن بك فهمى، أن هناك حزبًا تشكل تحت اسم «المستقل الحر» جمع له الإنجليز طائفة من الأثرياء والأعيان لم تعرف البلاد لهم فى المواقف والتضحيات سابقة وطنية تذكر من قريب أو بعيد، وليست لهم صلة بالسياسة كذلك، ولكنهم كانوا من أحرص الناس على الوقوف تحت مظلة الحاكم احتماء بسلطانه ورضاه، وكسبًا للنفوذ والنفع عن طريقه».

«فتوجهنا فورًا نحن الشباب إلى مقر هذا الحزب المسمى «بالمستقل الحر»، وما هو مستقل ولا حر، وإنما هى أسماء أطلقوها، توجهنا إليه فى مقره بعابدين بأمر عبد الرحمن فهمى فوجدنا عزمى باشا رئيسه، وهو رجل من أصهار البيت المالك طاعن السن لا يكاد يقوى على حمل قدميه، ولكنه اسمه يرن.. عزمى باشا!!».

«وجدناه وقد صدروه رئيسًا للحزب، ويكفى أن عزمى باشا من أصهار العائلة المالكة، ويلبس طربوشا مطبقًا بغير خوصة ينزل على أذنيه، ووجدنا معه نفرًا لا يزيدون على أصابع اليد الواحدة أذكر منهم محمد بك الشريعى، والملوم بك السعدى (وقد أصبحوا باشوات فيما بعد)، واختاروا لهم كاتبًا من أصحاب الألسنة الطويلة ويحسن الكتابة باللغة العربية اسمه محمد إبراهيم، وقد اشتط هذا الكاتب فى تهجمه على سعد زغلول فى مجلة «الكشكول» فيما بعد».

«استأذنا فى الدخول عليهم فسمح لنا على أننا قدمنا لتأييدهم والوقوف إلى جوارهم، فذهلوا حين رأونا وأمارات الشر على وجوهنا، كنا أربعة عبد الحليم عابدين، وحافظ عمار، وكامل عبد الشهيد، وأنا».

«فتوجهنا إليهم بالسؤال التالى:

«لقد علمنا أنكم تنشئون حزباً جديدا».

«فقال محمد بك الشريعى الذى تولى الكلام عنهم:

«نعم . . لقد ألفنا الحزب فعلاً».

«فسألناه: لماذا؟».

«فقال: للمطالبة باستقلال مصر!».

«فقلنا: وهل الوفد يطلب غير استقلال مصر، إن الوفد يعبر عن رأى الأمة كلها فلماذا لا تنضمون إليه مادام الهدف واحد وهو استقلال مصر؟ وهل طلبتم إليه ذلك ورفض؟».

«ولما أخذتهم الحجة لاذوا بالصمت».

«وهنا خاطبهم عبد الحليم عابدين بعنف وكبس طربوش عرفى باشا بيده حتى غطى عينيه: «مافيش حزب «المستقل الحرب» أبدًا، يعنى ما فيش حزب وإلا . . . ».

«استيقنوا أن الأمر جد وليس كلاماً فى الهواء، وأن المسألة لن تمر بسلام إذا استمروا مصرين على موقفهم».

«وأصبحنا فإذا حزب «المستقل الحرب» قد تبخر وليس له وجود نهائيا».

(١١)

ونصل إلى ثانى أهم موضوعات هذه المذكرات الحافلة بالانفرادات وبالتصويرات الدقيقة، وهى القضية التى قدر لإبراهيم عبد الهادى أن يقضى بسببها أربع سنوات فى السجن، قضية المؤامرة الكبرى.

وعلى عكس المتوقع فإن إبراهيم عبد الهادى لا يقدم حديثًا تفصيليًا عن محاكمته الشهيرة فيما سمى بقضية المؤامرة الكبرى، وهو يكتفى بذكر موجز أحداث هذه القضية على الرغم من أنه حكم عليه فيها بالإعدام، وقضى فى السجن بضع سنوات بسببها، وكان أبرز المتهمين فيها عبد الرحمن فهمى، وهو يبخل علينا بذكر أسماء زملائه الذين اتهموا معه فى هذه القضية:

«هذا البطل العظيم (الحديث عن عبد الرحمن فهمى) كانت عيون الإنجليز عليه بالمرصاد، قلم مخابراتهم يتعقبه لعله يظفر بالدليل الذى يأخذون به عنقه فلم يفلحوا، إذًا لابد من التلفيق».

«. . . وقد لفقوا له التهمة ومعه سبعة وعشرون شابًا فى قضية المؤامرة الكبرى، وقدموها إلى المحكمة العسكرية الإنجليزية، مع أن الإنجليز قد سبق لهم واتفقوا مع وزارة محمد سعيد باشا على وقف المحاكمات العسكرية، ولكنهم نقضوا هذا الاتفاق وحاكموا المتهمين جميعًا فى هذه القضية الملفقة أمام محكمة عسكرية إنجليزية، وكانت القضية تعد من أكبر وأخطر المحاكمات فى ثورة سنة ١٩١٩».

«كان اتهامنا فى هذه القضية بأننا أعضاء فى جماعة سميت «جمعية الانتقام»، وهو نفس اسم الجمعية التى ادعوا أن سعد زغلول كان أحد أعضائها بعد الثورة العرابية لقتل الخونة المصريين، وكذلك قتل الموظفين والضباط البريطانيين».

«وأن غرض هذه الجمعية «جمعية الانتقام» هو خلع عظمة السلطان وقلب حكومته، والتحريض على العصيان والقتل، وقام الاتهام على شخص اسمه عبد الظاهر السمالوطى قيل إنه كان ضمن أعضاء الجمعية وخانهم وأفشى سرهم».

«وعبد الظاهر السمالوطى هذا كان ناظرًا لزراعة محمد بك الشريعى وكيل الحزب المستقل الحر الذى كان يرأسه عزمى باشا، واستطاع عبد الرحمن فهمى بأسلوبه أن يقضى عليه بعد تأليفه بـ ٤٨ ساعة، ويهرب أعضاءه خوفًا على حياتهم (ربما من المهم أن نشير إلى ما نقلناه عن إبراهيم عبد الهادى نفسه فى هذا الباب من دوره هو وزملائه فى هذه المهمة)، وقد جند محمد بك الشريعى (محمد باشا الشريعى فيما بعد) ليكون هذا الشخص جاسوسًا على المقبوض عليهم فزجوا به فى السجن للتجسس على المتهمين».

«وقد حوكمنا أمام المحكمة العسكرية وكانت مؤلفة من خمسة ضباط برئاسة البريجادير جنرال لوسون».

«وترافع عنا جمع كبير من المحامين المصريين والإنجليز، وصدر الحكم بإعدام سبعة منا، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على الباقين، ثم خفف حكم الإعدام بالسجن وبالجلد والغرامة مائة جنيه فيما عداى، فكانت غرامتى ٢٥٠٠ جنيه».

(١٢)

وفى موضع آخر يتحدث إبراهيم عبد الهادى عن قضية المؤامرة الكبرى فيشير إلى ما يعتقده من أنها كانت وسيلة لترهيب الوطنيين، وذلك من خلال إصدار أحكام مسبقة ومعروفة على عدد من المتهمين من رجال الحركة الوطنية، وهو حريص على أن يشير إلى أن البريطانيين كانوا حريصين على أن يفعلوا عكس ما كانوا يتظاهرون به من رغبة فى الوصول إلى اتفاق صادق:

«... وبينما كان الإنجليز يتظاهرون بالدعوة إلى اتفاق صادق، كانت سياستهم الاستعمارية لاتزال هى السائدة والغالبة عليهم».

«وبما انطوت عليه طبيعتهم السيئة الغادرة دبروا داخل مصر أمرا يعوق الحركة الوطنية وهداهم تربيرهم إلى اختلاق مؤامرة لإثارة الفوضى فى البلاد وقلب نظام الحكم فيها بالقوة، وقتل السلطان أحمد فؤاد».

«وأعدوا محكمة عسكرية بريطانية كبرى لتستقبل حشدا من المتهمين لتجرى فيهم أحكامها المسبقة المعروفة، لتخيف بمصيرهم كل مَنْ يريد أو يحاول أن يسير على نهجهم فى مقاومة الحماية، ووسائلها وعمالها».

«تلك هى التى سموها «قضية المؤامرة الكبرى» أو قضية عبد الرحمن بك فهمى وإخوانه».

(١٣)

وينفرد إبراهيم عبد الهادى بالإشارة إلى موقف مهم لعلى ماهر استجاب فيه الزعيم سعد زغلول نفسه لثاقب رأيه الذى دعا إلى تفويت الفرصة على الإنجليز فى كسب شىء مقابل إفراجهم عن عبد الرحمن فهمى وإخوانه المعتقلين على ذمة قضية المؤامرة الكبرى الذين كان منهم إبراهيم عبد الهادى:

«وبينما كانت المفاوضات تجرى بين الوفد المصرى ولجنة ملنر، وكان عبد الرحمن بك فهمى وإخوانه مقبوضًا عليهم، وأودعوا السجن، مما جعل سعد باشا يستشيط

غيظًا من هذا التصرف الظالم، وهم بأن يتوقف نهائيًا عن المفاوضات لولا أن على ماهر استعان بأعضاء الوفد فى إقناع سعد زغلول بالاستمرار فى المفاوضات حتى لا يستغل الإنجليز الرغبة فى الإفراج عن المقبوض عليهم لكسب شىء على هذا الحساب، ومشيرًا فى الوقت نفسه إلى أن رأس المقبوض عليهم هو عمه عبد الرحمن بك فهمى، قبل سعد زغلول الاستمرار فى المفاوضات على كره منه».

«واستمر حبس عبد الرحمن فهمى وإخوانه من غير تقديم تهمة إليهم حتى تم الأخذ والرد فى مشروع ملنر الأخير، الذى رأى سعد باشا ضرورة عرضه على الأمة لتقول فيه كلمتها لأنه لم يجد تلك الصيغة متمشية مع توكيله فى طلب الاستقلال».

(١٤)

ويعود إبراهيم عبد الهادى فى موضع آخر ليؤكد على فكرة أن جهود البريطانيين فى تدبير قضية المؤامرة الكبرى قد باءت بالفشل بسبب إصرار سعد زغلول على رفض مشروع ملنر فى الوقت الذى مال فيه زملاء سعد فى الوفد إلى قبول المشروع تخلصًا من المحاكمات العسكرية التى كانت تهدد المشتغلين بالحركة الوطنية:

«وكنت فى السجن فى هذه الفترة انتظارًا للمحاكمة أمام المحكمة العسكرية الإنجليزية فى قضية المؤامرة الكبرى (عبد الرحمن فهمى ومَنْ معه)، وقد استمرت المحاكمة من شهر يوليو حتى أوائل شهر نوفمبر عام ١٩٢٠».

«وكان لهذه المحاكمة أسوأ الأثر فى نفس سعد زغلول، لأنها وقعت فى الوقت الذى عرض فيه ملنر مشروعه على الوفد برياسة سعد باشا فى أوروبا».

«وكانت هذه المحاكمة مدبرة تدبيرًا محكمًا من الإنجليز فى هذا الوقت بالذات للتأثير فى سير المفاوضات لتحمل سعد على قبول مشروع ملنر تخلصًا من قسوة المحاكمات العسكرية التى تهدد كل مشتغل بالحركة الثورية، وعلى الرغم من أن هذه المحاكمة الرهيبة أهاجت سعد باشا وأثارت غضبه الشديد، فإنه لم يتزحزح عن موقفه فى الوقت الذى مال بالكثيرين إلى قبول المشروع».

(١٥)

ولا يمل إبراهيم عبد الهادى من تكرار التعبير عن فكرته القائلة بأن الإنجليز انتبهوا إلى دور عبد الرحمن فهمى الجبار فدبروا هذه القضية للخلاص منه ومن أعوانه، لكن سعد زغلول صمد فى الميدان حتى نصره الله على حد تعبير إبراهيم عبدالهادى:

«وإذا كنت قد قلت قبلاً إن عبد الرحمن فهمى كان ديدبان مصر ومحرك الثورة وحارسها الأكبر، لقوته الجبارة فى إحباط مؤامرة الإنجليز وإجهاضها بسرعة حتى لا يكون لها أثر فعال فى نفس الشعب، حين قلت ذلك لم أبالغ، بل كان هو الواقع وهو الأمر الذى تنبهت له السلطات الإنجليزية، ودبرت هذه القضية المفتعلة للقبض عليه وعلى أعوانه للخلاص منه ومنهم».

«ولكن سعداً صمد فى الميدان حتى نصره الله».

(١٦)

ونأتى إلى ثالث الموضوعات المهمة التى تتناولها هذه المذكرات، وهى حديثه عن حلقات الكفاح الوطنى التى لم يقدر له أن يشارك فيها فى الفترة التى سجن فيها على ذمة قضية المؤامرة الكبرى:

والواقع أن إبراهيم عبد الهادى يحرص على أن يشير إلى أن الكفاح المسلح استمر فى الفترة التى كان هو وزملاؤه معتقلين فيها على ذمة قضية «المؤامرة الكبرى»، وهو بهذا الحرص يؤكد على معنى مهم وهو أنه كان يرى نفسه جندياً من جنود الثورة لا تتوقف الثورة على وجوده، وهو معنى نبيل ينم عن إيمان عميق بحقيقة دوره فى الحركة الوطنية، وبأن هذا الدور يزداد قيمة إذا ما استمرت الثورة حتى فى أثناء غياب قياداتها فى السجون:

«واستمرت المظاهرات العنيفة تقمعها القوات البريطانية والبوليس بالعنف، وكان يقابلها المتظاهرون كذلك بالعنف، واستمرت كذلك حوادث قتل الجنود والضباط والموظفين البريطانيين».

«وأصدرت لجنة من الإنجليز المعتدلين نوابًا وغير نواب فى مجلس العموم البريطانى سميت «باللجنة المصرية» بيانًا للتوفيق بين مطالب إنجلترا ومطالب المصريين، وإفساح طريق للمشاورات الصمحة عاجلاً أم آجلاً، والبعد عن السياسة التى اتبعتها أخيرا بريطانيا مع المصريين».

(١٧)

يصور إبراهيم عبد الهادى حجم التضحيات التى قدمتها الأمة المصرية فى مظاهرات واضطرابات ثورة ١٩١٩، ويتراوح تقديره لعدد شهداء المصريين فى هذه المظاهرات بين ألف وثلاثة آلاف شهيد دون أن يذكر السبب فى اختلاف الأرقام التى يوردها، لكن الأهم عنده أنه كان يرى فى انتشار التضحية فى جميع أنحاد البلاد على هذا النحو الدعامة الكبرى لنهضة الأمة وحياتها!!:

«وقد شيعت ذات مرة من قصر العينى جنازة أربعة عشر شهيداً من بينهم سيدة، وسار فى الجنازة عشرات الألوف من جميع طبقات الشعب، حتى السيدات اشتركن فيها».

«ولم يحدث أن تخلفت مدينة عن المظاهرات ضد الاحتلال، ووقوع قتلى وجرحى بها، وكان أكثرها قتلى وجرحى أسيوط، والعزيزية، والواسطى، وبنى سويف، والمنيا، والفيوم، والمنصورة وميت القرشى مركز ميت غمر التى قتل منها فى يوم واحد مائة قتيل عدا الجرحى، وكانت زفتى وميت غمر مركزًا للتمرد».

«وقد بلغ عدد القتلى الوطنيين فى هذه المجازر ألف قتيل، وأذيع هذا العدد فى مجلس العموم البريطانى على لسان وكيل الخارجية البريطانية، و١٦٠٠ جريح، ومن الأجانب ٢١ قتيلاً و٢٥ جريحًا، ومن الجنود البريطانيين ٢٩ قتيلاً و١١٤ جريحًا».

«وحكم على حوالى ٤٠٠٠ وطنى بعقوبات بسيطة، وعلى نحو ٤٠ بالأشغال الشاقة المؤبدة، وقد قدر عدد القتلى من المصريين بما لا يقل عن ثلاثة آلاف شهيد».

«وكان للتضحية فى جميع أنحاء البلاد بين جميع صفوف الأمة نجاح على هذا النحو

أكبر للدعوة الوطنية ، لأن ذلك أساس كل نهضة قومية ، وطريق الفلاح لكل أمة حية مناضلة» .

(١٨)

وينتبه إبراهيم عبد الهادى فى ذكاء شديد إلى الحديث عن الدور الذى لعبه الأقباط فى إجهاض محاولات المستعمر البريطانى المستمرة من أجل إشاعة الفرقة بين المسلمين والأقباط والتى تجلت بصورة واضحة عند ترشيح يوسف وهبة لرياسة الوزارة .

وهو حريص على أن يذكر أن التخطيط لمعارضة هذا التوجه تم علانية فى الكنيسة المرقسية الكبرى نفسها .

ومن الجدير بالذكر أن مذكرات عريان سعد التى نتناولها فى الباب الرابع من هذا الكتاب تقدم تفصيلات أدق عن هذه الواقعة :

« . . . سارع الأقباط باجتماع ضخم حافل ، امتلأت بهم الكنيسة المرقسية الكبرى لآخر مكان فيها ، وقدر مَنْ كانوا بداخلها بألفين ، غير مئات كثيرة ضاق المبنى عن أن يتسع لهم فملأت الفراغ الكبير المحيط بالكنيسة والغرف الموجودة بها ، وكان ذلك فى آخر نوفمبر عام ١٩١٩ » .

«اجتمع هؤلاء جميعًا ومعهم رجال الكهنوت ، ورأس هذا الاجتماع الكبير وكيل البطريركية ، وخطب فى هذا الجمع الحاشد خطباؤهم ، منهم القمص سرجيوس ، والأستاذ لويس فالوس ، والأستاذ كامل عبد الشهيد الطالب بكلية الحقوق نائبًا عن جميع طلبة المدارس العليا ، والكل يعلن عن غضبه وعدم رضائه عن قبول يوسف وهبة باشا هذا المنصب حفاظًا على حقوق البلاد من جهة ، وصونًا لوحدتها من أن يشيع فيها الأجنبى شائعة الفرقة ، كما كان هذا شأنه فى سابق الأيام» .

« وأرسل المجتمعون برقية شديدة إلى يوسف وهبة بتوقيع نائب البطريرك بالنيابة عنهم هذا نصها :

«الطائفة القبطية المجتمع منها ما يربو على الألفين فى الكنيسة الكبرى تحتج بشدة على إشاعة قبولكم الوزارة ، إذ هو قبول للحماية ولمناقشة لجنة ملنر ، وهذا يخالف ما

أجمعت عليه الأمة المصرية فى طلب الاستقلال التام، ومقاطعة اللجنة، فنستحلفكم بالوطن المقدس وبذكرى أجدادنا العظماء أن تمتنعوا عن قبول هذا المنصب الشائن».

«ولكن وهبة باشا لم يستمع لهذا النصح وألف الوزارة فلم تعرف أيامه فى الحكم راحة، ولا هدوء، ولا هناء، وتوالت عليه وعلى زملائه الاعتداءات من شباب الأمة المتوثب الغاضب الثائر الساخط».

(١٩)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يشيد بالدور الوطنى الذى أصر زميله عريان يوسف سعد على أن يقوم به ووصل إلى حد التضحية بنفسه من أجل إرهاب وتأديب الوزير القبطى يوسف وهبة، الذى قبل أن يتولى رياسة الوزارة فى ظل الإنجليز، مما كان كفيلاً بالقضاء على الوحدة الوطنية، ونحن نرى هذا الرجل منتبهًا إلى أهمية تسليم نفسه والاعتراف حتى يثبت المعنى الذى أراد إثباته:

« . . . وكان العدوان على يوسف باشا هو البداية، ولهذا الاعتداء قصة يجب أن تسجل لتروى دائمًا، ذلك أنه عندما اجتمع الثائرون لتدبير الاعتداء على رئيس الوزارة الجديد واختيار الشخص الذى ينفذ العملية، تقدم عريان يوسف سعد الطالب بكلية الطب، ورفض رفضًا قاطعًا قرار اللجنة مصرًا على أن يقوم هو بقتل يوسف باشا وهبة باعتباره قبطيًا مصريًا، وبذلك تسد المنافذ والمسالك على اللاعبين بالنار الذين يحاولون إشعال نار التفرقة والفتنة الدينية لو أن مَنْ أقدم عليها كان مسلمًا، إذ ربما تقع القرعة على شاب مسلم».

«وأصر عريان يوسف سعد فى التحقيق على أنه المسئول وحده عن هذا الاعتداء الذى كان يبغى من ورائه قتل رئيس الوزراء».

«وقد طلب يوسف باشا وهبة أن يراه، فلما لقيه فى مكتبه سأله يوسف وهبة باشا لماذا قمت بهذا العمل الإجرامى؟».

«وأجاب فى شجاعة نادرة: لأنك خنت بلدك ولم تستجب لرأى الشعب وقبلت تشكيل الوزارة».

(٢٠)

ويستطرد إبراهيم عبد الهادى إلى رواية قصة شبه مشهورة عن اللقاء الذى شهده مكتب سعد زغلول بعد سنوات بين يوسف وهبة وبين عريان يوسف سعد الذى حاول قتله :

«كان سعد زغلول رئيسًا لمجلس النواب ، وجاء يوسف باشا وهبة (لزيارة) سعد زغلول فى مكتبه بالمجلس ، وتصادف أن دخل عريان يوسف سعد يعرض عليه بعض أمور المجلس ، فنظر سعد زغلول إلى يوسف وهبة وقال له : هل تعرف هذا الشاب الواقف أمامنا؟» .

«قال يوسف وهبة : لا أعرفه» .

«قال سعد زغلول ضاحكًا : إنه عريان يوسف سعد» .

«فصرخ يوسف وهبة : أعوذ بالله . . أعوذ بالله!!» .

(٢١)

وينتهز إبراهيم عبد الهادى الفرصة للإشادة بأخلاق عريان يوسف سعد ووطنيته ، وهو يقدم قصيدة مديح فى غاية القوة فى هذا الزميل الذى شاركه البطولة فى الحركة الوطنية ، ومن الطريف أن إبراهيم عبد الهادى يطلعنا على ما لم يطلعنا عليه غيره من اهتمام عريان يوسف سعد باليوجا ونشره لها بين المصريين ، فضلاً عما هو معروف عنه من قدرته على الترجمة . كما ينفرد إبراهيم عبد الهادى بالإشارة إلى أن عريان يوسف سعد رفض قبول منصب الوزارة عندما عرضه عليه صدقى باشا فى مطلع الثلاثينيات ، ومن العجيب أن مذكرات عريان نفسه التى نشرتها دار الشروق فى ٢٠٠٧ لم تتضمن أى إشارة إلى هذه الواقعة ، ولا إلى أى واقعة من الوقائع التى تلت سجنه!!

والحق أن نموذج عريان يوسف سعد لم يكن نادراً بين هذا الجيل المعجون بالوطنية ، وبروح الفداء والإيثار ، لكننا نعجب أن يمضى عصر ثورة يوليو ١٩٥٢ كله دون أن يفيد من وجود مثل هذه الشخصية النبيلة :

«. . . كان عريان يوسف سعد وطنيًا مفرطًا فى وطنيته، قارئًا مثابرًا واسع الثقافة، يجيد الإنجليزية إجادته العربية، لا يضن على نفسه بعلم يشتهيه، أو أدب يشتاق إليه، وله فى اليوجا مؤلف، وقد نشرها بين كثير من المصريين، كما أن له مترجمات كثيرة».

«ثم دعك من هذا كله، عريان سعد دخل وظائف الحكومة كما يدخلها أى حامل لشهادة البكالوريا القديمة، لم يطلب جزاء على ما ضحى من عمره ومستقبله من أجل مصر، كان طالبًا بكلية الطب يعرف كل مَنْ زامله أنه كان من المرموقين ومن أهل الكفاية والذكاء. استمر فى وظائف الحكومة كأى موظف حامل للبكالوريا، ثم نقل إلى جامعة الدول العربية وهى غير مقيدة بكادر الموظفين، فاكتشف القائمون عليها كفايته وقدره العلمى فرقى حتى وصل إلى درجة وزير مفوض، ثم أحيل إلى المعاش وخرج ولم يزد معاشه على ثمانية وثلاثين جنيهًا».

«ذلك عريان يوسف سعد، وهذا مقامه العالى من التضحية فى خدمة مصر، مات فى السبعينيات بمعاش ٣٨ جنيهًا، فى حين أن صدقى باشا رحمه الله، يوم أن ولى الوزارة عام ١٩٣٠ المعروفة، أراد أن يطعمها ببعض شباب الحركة الوطنية المرموقين ذوى الماضى المعروف، فعرض الوزارة على اثنين من شباب سنة ١٩١٩ هما الدكتور سيد باشا، أمد الله فى عمره، وزميله عريان يوسف سعد الموظف البسيط بالبرلمان يومئذ، وكان سيد باشا خريج المعلمين العليا هو المتخصص فى الكيمياء، وهو الذى كان يصنع القنابل ليضرب بها الإنجليز وعملاءهم، ومنها القنبلتان اللتان ضرب بهما عريان يوسف سعد يوسف وهبة باشا أمام قهوة «ريش» بشارع سليمان باشا».

«أقول طلب صدقى باشا سيد باشا وعريان يوسف سعد ليكونا وزيرين فى وزارته فرفضا بعزة المؤمنين، ولايزال سيد باشا حيًا يمكن الرجوع إليه فى هذا الشأن ليعطى مزيدًا من البيان إن كان بعد ذلك مزيد».

«ولمن شاء أن يرجع إلى ملف خدمة عريان يوسف سعد، وأنا واثق أنه لن يجد فيه ضراعة بطلب زيادة مرتب أو معاش استثنائى، وله الماضى المجيد الذى يبرر مثل هذا

الطلب ليستكمل حاجات حياته الضرورية التى يحتاجها مَنْ كان فى مثل سنه، ولكنه آثر العمل والجهد المتواصل حتى لا يمد يده لأحد أو يرجو خدمة من إنسان، واشتغل فى عمل بسيط بشركة مصر للدخان لا يتكافأ مع سنه ومركزه، ولكنه رضى به وقنع وعاش ومات بين أقرانه وزملائه ممن وصلوا إلى الوزارة، عزيز الجانب، مرفوع الرأس، يجمع الكل على أنه الزميل والصديق، ويلقونه بما يليق بهذا المعنى، ولا يزالون يذكرونه بالخير والكرامة، ويترحمون عليه وعلى صدق وفائه لبلده وأصدقائه».

«وكان دائم الزيارة لى وأنا فى عزلتى بمنزلى فى المعادى، وهو يقيم بمصر الجديدة، وكثيراً ما حاولت أن يوصله السائق بسيارتى فيرفض رفضا قاطعا، وأحيانا عندما لا يكون عندى زوار أصحبه فى السيارة بحجة شراء بعض لوازمى من العاصمة، وأوصله إلى منزله».

«رحم الله عريان يوسف سعد رحمة واسعة».

(٢٢)

وعلى الصعيد نفسه يتحدث إبراهيم عبد الهادى بكل ما يملك من الإعزاز والتقدير عن زميله الآخر الدكتور سيد محمد باشا الذى عرض عليه صدقى باشا دخول الوزارة فى الثلاثينيات فاعتذر عن دخولها، ويظهر من رواية إبراهيم عبد الهادى عن نشاط الدكتور سيد باشا فى التنظيم السرى لثورة ١٩١٩ أنه كان على وعى كامل بنشاط ذلك الزميل، وهو وعى لا يتأتى من خلال الزمالة وحدها، وإنما يبدو أنه نتيجة للمشاركة، ويبدو لى أن إبراهيم عبد الهادى أراد أن يتحدث عن نشاطه هو فى هذا التنظيم من خلال حديثه عن نشاط زميله بهذا الإعزاز الواضح:

«كان سيد محمد باشا طالبًا بمدرسة المعلمين، وعضواً باللجنة التنفيذية العليا، واللجنة المستعجلة. كان أسطورة تروى، كما كان يصفه ـ بحق ـ المرحوم عريان يوسف سعد، وكان الاثنان يلتقيان بمنزلى فى الصباح، وأحيانًا فى المساء أكثر من مرة كل أسبوع».

«لقد قام سيد محمد باشا بالكثير من الخوارق والتضحيات التى لا يذكرها أحد من شباب هذا الجيل، فقد تعارفنا وتصادقنا فى اللجنة المستعجلة للثورة، وكانت مهمتنا مقصورة على كتابة المنشورات والبيانات الثورية وطبعها، وطبع مجلة صغيرة - بالبالوظة - على نفقتنا الخاصة أشبه ما تكون بمجلات الحائط التى يحررها الطلبة فى مدارسهم الآن، وكنت أزيد عليهم بالخطابة فى الأزهر والمساجد والكنائس».

«وفجأة ترك سيد باشا العمل باللجنة المستعجلة واللجنة التنفيذية العليا وانخرط فى سلك العمل الفدائى السرى، ونفذ أعمالاً خارقة، وأدى دوراً خطيراً فى العمل الفدائى بقوة وحيطة وسعة حيلة».

«وكان الخبير الأول فى تعبئة القنابل بالمواد الناسفة بحكم دراسته وتخصصه فى الكيمياء بمدرسة المعلمين العليا».

(٢٣)

ويقدم إبراهيم عبد الهادى حديثًا تفصيليًا عن نشاط زميله الدكتور سيد محمد باشا فى أثناء عهد وزارة محمد سعيد باشا، وهى فترة من فترات ازدهار النشاط السرى الذى نظمه الوفد، بل موله وأشرف عليه عن قرب:

«... عندما فوجئ الجهاز السرى بقبول محمد سيد باشا للحكم (أى لتشكيل الوزارة) مخالفًا لقرار سعد باشا بأنه لا يجوز لمصرى أن يتولى الحكم فى ظل الحماية البريطانية، كان معه ستة وزراء آخرين هم: محمد توفيق نسيم باشا، وإسماعيل سرى باشا، ويوسف وهبة باشا، وأحمد ذو الفقار باشا، وأحمد زيور باشا، وعبد الرحيم صبرى باشا».

«وقوبلت الوزارة بغضب شديد من الشعب، وتوعد الجهاز السرى أعضاء الوزارة بسبب غدرهم بالحركة الوطنية من ٢١ أبريل وحتى ٢١ مايو عام ١٩١٩».

«وابتدع محمد سعيد باشا فكرة أن وزارته إدارية وليست سياسية حتى يتجنب غضب الشعب وينجو من الجهاز السرى للثورة هو وزملاؤه، ولكن الجهاز تحرك بأوامر من عبد الرحمن فهمى وبدأ يمارس نشاطه بعنف».

«وهنا تظهر فدائية طالب المعلمين العليا سعيد محمد وعبقريته فى التخفى، فقد قام بجمع ما تيسر له جمعه من مسدسات وقنابل وتوزيعها على الفدائيين».

«والعجيب أن الذى كان يبيعهم المسدسات والقنابل شاويش بالقوات البريطانية تعرف عليه فى أحد المقاهى، وكان يشتريها منه بأثمان زهيدة، ولكن هذا الشاويش فطن للأمر وأراد أن يستغل حاجته فابتعد سيد باشا عنه واتجه اتجاها آخر، وبحث عن بعض الحدادين ليصنعوا له أغلفة القنابل ثم يملؤها بمعرفته بالمواد الناسفة، ولكنه تحير وخشى أن مَنْ يأتمنه على هذا يبلغ السلطات البريطانية، بعد أن وعدت بمكافأة سخية لمن يرشدها عن الجناة».

«وأخيرًا سمع أن بالتنظيم السرى جهازًا للعمال يشرف عليه محمد عثمان الطوبجى صانع الأحذية، فاتصل به وسأله: هل يستطيع أن يدله على عامل من العنابر يثق به ليصنع له أجسام قنابل؟ فأحضر له فى اليوم التالى الشيخ أحمد جاد الله، وإبراهيم موسى، والأخير أعدم فى حادث قتل السردار بعد ذلك بخمس سنوات وسبعة أشهر، فوضع لهما تصميم جسم القنبلة المطلوب فصنعاها وسلماها له، فقام هو وعبد الحى كيرة الطالب بكلية الطب بتعبئتها وقاما بتجربتها بمزارع حامد العبد ببلدة الأخير (شبرا النملة) تحت إشرافهم».

(٢٤)

ثم ينتقل إبراهيم عبد الهادى قافزًا إلى رواية حديث دار بين النقراشى وبين سيد باشا، ونفهم من الحديث أن إبراهيم عبد الهادى كان ميالاً إلى القول بأن النقراشى كان صاحب فضل فى توجيه نشاط سيد باشا وزملائه، وهو ما لا نجده بالوضوح نفسه فى مذكرات سيد باشا التى نتدارسها فى الباب الثانى من هذا الكتاب حيث نجد سيد باشا يميل إلى التقليل من جهد النقراشى وفضله فى نشاطهم السرى:

«... ونجحت التجربة وانتحى بهما النقراشى بعيدًا عن عمال المحل وسألهما:

«لو أردنا أن نقوم بعمليات اغتيال هل نجد من بينكم مَنْ يقوم بها؟»».

«فقال سيد باشا على الفور: أنا وحامد العبد جاهزين، وقصا عليه التجربة التى قاما بها مع عبد الحى كيرة فى مزارع العبد بشبرا النملة، فقام النقراشى وقدم لهما أحمد ماهر وحسن الشيشينى، وقد أخرج الشيشينى من جيبه مصحفًا وأقسموا عليه جميعًا بأن هذه المسائل سرية ولا يبوح بها أحد منهم، وأن مَنْ يكشف أمره لا يعترف إلا على نفسه فقط!».

«ولما سألهم النقراشى عن المبالغ التى صرفوها فى عملياتهم السابقة ليدفعها لهم اعتذر قائلاً بأنه أخذها من شخص لا يستطيع أن يذكر اسمه إلا بعد أن يستأذنه».

«وسأل النقراشى بدوره: هل لديه مانع أن يذكر لهذا الشخص أسماءهم؟ فقال النقراشى: قل له اسمى فقط، وابتداء من اليوم سنتولى عنكم التمويل فلا تتعبوا أنفسكم وتشغلوها فى هذه المسائل بعد الآن!».

«وذهب سيد باشا وحامد العبد إلى عبد اللطيف الصوفانى وأبلغاه بما قال النقراشى، فقال لهم الصوفانى: لا عليكم سأتصل بنفسى مباشرة به، ولم يكن عبد اللطيف الصوفانى وفديًا، وإنما من البارزين فى الحزب الوطنى، ومع ذلك كان من أعضاء الجهاز السرى ومموليه، وطلب سيد باشا وحامد العبد من الحاج أحمد جاد الله أن يصنع لهما عشر قنابل، فأتم صنعها بالاشتراك مع إبراهيم موسى، وأحضر لهما نجارًا من نفس الخلية صنع لهما مخبأ بالغرفة التى استأجروها فى بركة الفيل لوضع القنابل بها».

(٢٥)

ولا نزال مع إبراهيم عبد الهادى فيما يرويه عن نشاط مجموعة الفدائيين من شباب ثورة ١٩١٩، ونحن نراه حريصًا كل الحرص على أن يتحدث عن دور النقراشى باشا فى توجيه هذا النشاط وإصدار الأوامر لرجاله، وهو ما لا نجده بالدرجة نفسها من الوضوح فى مذكرات سيد باشا نفسه، ولا فى مذكرات رجال الحزب الوطنى، ويصل الأمر فى التفاوت فى الحديث عن دور النقراشى إلى حد أن إبراهيم عبد الهادى يروى أنه هو [أى النقراشى] الذى بارك الأمر بقتل محمد سعيد باشا رئيس الوزراء:

«. . وجاءهم الأمر بقتل محمد سعيد باشا رئيس الوزراء بعد أن باركهم النقراشى قائلا: على بركة الله».

«وبدأ الجهاز السرى يدرس تنقلات محمد سعيد باشا والشوارع التى يمر بها موكبه الرسمى ومواعيده، واختار منعطف ميدان قصر النيل ـ التحرير حاليًا ـ أمام قهوة تحتل مكانها الآن «أجزاخانة ونكرسور»، واختار الجهاز سيد باشا لقتله، وحامد العبد ليعطى الإشارة المتفق عليها عند وصول موكبه إلى المكان».

«وقبل موعد التنفيذ بأربع وعشرين ساعة أبلغ عبد الحى كيرة سيد باشا بأن الخطة تغيرت وأن الذى يقوم بالتنفيذ عبد الحميد المنسورى بدلا منه».

«وذهب فى نفس الليلة وقابل عبد الحميد المنسورى فى بيته ومعه القنبلة، وعلمه كيف يستعملها، وبإشارة خاصة منه اتفق عليها فيما بينهما يضرب بها رئيس الوزارة، ولكن المحاولة فشلت وقبض على المنسورى [المنصورى] الذى اعترف تحت وطأة تعذيب الموظفين الإنجليز بوزارة الداخلية على سيد باشا، وعبد الحى كيرة، وتمكن البوليس من القبض على عبد الحى كيرة».

«أما سيد باشا فقد تنكر فى زى أولاد البلد، وغادر القاهرة مسرعًا إلى قرية شرباص بعيدًا عن قريته كفر الشناوى مركز كفر صقر (كذا فى الأصل، والمقصود مركز فارسكور، ومن الطريف أن هذا الخطأ وقع من كاتب المذكرات، أو من الذين صفوا حروفها فى المطبعة، ذلك أن إبراهيم عبد الهادى نفسه كان من قرية الزرقا فى مركز فارسكور نفسه، ولهذا يستحيل أن يقع فى هذا الخطأ، وربما كان من الطريف أن نشير إلى أن كاتب هذه السطور قد نشأ فى عاصمة هذا المركز فى مدينة فارسكور، أما كاتب مذكرات إبراهيم عبد الهادى وهو محمد على أبو طالب فلم يكن من ذلك المركز)».

«وبعد بضعة أيام عاد إلى القاهرة وأمضى ليلة فى الغرفة التى استأجرها فى بركة الفيل مع قنابله، ثم استأجر غرفة قريبة منها وتنكر فى زى شيخ معمم وغير معالم وجهه واتصل بالجهاز السرى واستأنف عمله الفدائى، وتكررت الاعتداءات على وزراء سعيد باشا فاعتدى على توفيق نسيم ونجا، وكذلك على إسماعيل سرى».

«وطلب الحاج أحمد جاد الله من سيد باشا أن يشترك العمال فى عمليات الاغتيال، لأن قيام العمال بصنع القنابل فقط لا يرضيهم، وأنه يجب أن تكون عمليات الاغتيال قسمة بينهم، الطلاب يقتلون الوزراء الخونة، والعمال يقتلون الكفرة، يقصد الإنجليز، فقبل بعد أن أخذ موافقة عبد الرحمن بك فهمى رئيس الجهاز، وسلم الحاج جاد الله مسدسين للتنفيذ».

«ووزعت السلطات البريطانية صورة سيد باشا على جميع البلاد وأحياء القاهرة والإسكندرية، ورصدوا مكافأة سخية لمن يقبض عليه، فاتخذ لنفسه كل وسائل الحيطة والحذر لا يخرج من مخبئه إلا بعد الغروب، ويجتمع بحامد العبد فى جامع مصطفى فاضل بعد صلاة العشاء بجوار مدرسة المعلمين، ويتصل حامد العبد بالنقراشى بالقرب من مدرسة الهيائم، ويجتمع حامد بالطوبجى صانع الأحذية فى جامع صغير بميدان باب الخلق، ويجتمع بعبد الحى كيرة (بعد أن أفرج عنه لعدم ثبوت التهمة عليه) فى جامع عابدين لأن المنسورى [المنصورى] عدل عن اعترافاته فى أثناء المحاكمة وذكر للمحكمة أن ما قاله كان تحت وطأة التعذيب».

(٢٦)

ويشير إبراهيم عبد الهادى إلى حقيقة مهمة أغفل غيره الإشارة إليها، وهى أن الجهاز السرى لثورة ١٩١٩ تمكن من الحصول على صور جميع المخبرين السريين الذين يعملون مع الحكومة البريطانية فى مصر، ونجح فى تجنبهم تمامًا، مما كان له أثره فى نجاح نشاطهم الدائب فى عمليات الاغتيال.

ونرى إبراهيم عبد الهادى يشارك غيره ممن كتبوا مذكراتهم عن هذه الفترة فى الثناء العميق على دور الحاج أحمد جاد الله ودقته فى تنظيم العمل الفدائى، وهو ما نرى له مثيلاً فى مذكرات عبد العزيز على، وعبد الفتاح عنايت وغيرهما:

«. . . وتمكن الجهاز السرى بواسطة أحد ضباط البوليس بوزارة الداخلية أن يحصل على صور جميع المخبرين السريين الذين يعملون مع المخابرات البريطانية فى مصر، فراقبهم الجهاز مراقبة دقيقة، وتحاشوا الأماكن التى يرابطون بها، وبذلك نجحت عمليات الاغتيال جميعها».

«ونجح فريق العمال الفدائى نجاحًا فائقًا بفضل أسلوب الحاج أحمد جاد الله ودقته، وكانت وسيلته أن يضع المسدس للمكلف بالقتل وسط «مشنة فجل» تحملها سيدة ترتدى خلقا بالية وحافية القدمين حتى إذا ما اقتربت من العامل المكلف بالاغتيال وأعطاها كلمة السر تقدم له «المشنة» ليتظاهر بالشراء ويأخذ المسدس وسط حزمتين من الكرات والفجل، وتسير السيدة خلفه تنادى على بضاعتها، حتى إذا ما انتهى من مهمته التفت نحوها مسرعًا وألقى بمسدسه داخل «المشنة» فى الظلام وانصرف، وانصرفت هى فى طريق مضاد».

«وفى أوائل عام ١٩٢٠ أبلغه حامد العبد بأن الجهاز السرى لديه معلومات أكيدة بأن المخابرات البريطانية على وشك القبض عليه، وأن الجهاز وضع خطة لهروبه خارج القطر، وعليه أن يستعد من الآن للسفر إلى إيطاليا، وقد تم الاتفاق مع رئيس الباخرة سردينيا «ألبرتو نسترومو» وأنه طلب مائة جنيه ذهبا لهذه العملية».

(٢٧)

ولا تخلو مذكرات إبراهيم عبد الهادى من إشارات ذات قيمة إلى دور الطوائف المختلفة فى ثورة ١٩١٩، ومن هذه الإشارات إشاراته التفصيلية إلى دور «عقيلات كبار رجال مصر» على حد تعبيره فى حث أزواجهن على التصدى لمحاولات الإنجليز شق صف الوحدة الوطنية، وذلك بتحذير هؤلاء من قبول تشكيل الوزارة، ومن الطريف أنه يذكر أن زوجتى إسماعيل صدقى وتوفيق نسيم شاركتا فى لقاء السيدات الحاث لزوجيهما على هذا السلوك الوطنى، وإن كنا نتحفظ على ما يرويه بالإشارة إلى أن زوجة محمد توفيق نسيم قد توفيت قبل وصوله إلى مثل هذا الموقع المتقدم ولعله يقصد شخصا آخر من طبقته!!

«ولما ظهر فى الأفق أن عبد الخالق ثروت باشا عزم على تأليف الوزارة، قابله وفد من عشرين سيدة من عقيلات كبار رجال مصر مستنكرين (مستنكرات) ما يشاع، فأكد لهن أن وطنيته تأبى عليه تشكيل وزارة فى الظروف الحاضرة ونفى تلك الإشاعة نفيًا باتًا قائلا: إنه ليس فى حاجة إلى الوزارة، وإنه يرفضها كما سبق أن رفضها عام ١٩١٩».

«ثم قابل نفس الوفد إسماعيل صدقى باشا، وكانت من بينهن حرمه، فأكد لهن بدوره بأنه لا يقبل أبدًا تشكيل وزارة فى الظروف الحاضرة».

«وكذلك قابلن توفيق نسيم باشا، وكانت حرمه من بينهن كذلك، فصرح لهن بأنه لم يُخاطب فى أمر تشكيل الوزارة، ولا ينتظر أن يُخاطب فيه».

(٢٨)

ونأتى إلى رابع الموضوعات المهمة التى يتناولها إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته، وهو رأيه فى بعض أحداث النشاط السرى التى واكبت ثورة ١٩١٩ والفترة التالية لها، ومن المهم أن نشير إلى حقيقة أن بعض حوادث الاغتيال والنشاط السرى (مقتل قطبى الأحرار الدستوريين) تمت من خلال جماعات مرتبطة بالحزب الوطنى، ونسبت خطأ إلى التنظيمات الوفدية مع عدم علم الوفد بها ولا بمن وراءها، وإلى أن بعض حوادث الاغتيال والنشاط السرى (مقتل السردار) قد تمت فيما يبدو على مستويات قاعدية مشتركة من تنظيمات الحزب الوطنى، وتنظيمات الوفد، لكنها لم تحظ بموافقة القيادات المسئولة فى هذه التنظيمات المرتبطة بالوفد أو الحزب الوطنى. كما أن بعض الحوادث (محاولة اغتيال سعد زغلول نفسه) قد تمت على يد بعض المنتمين للحزب الوطنى وضد إرادة الوفد بالطبع، وإن لم يمنع هذا من تورط السراى أو الإنجليز، وهو ما ينسحب أيضًا على الحوادث الأخرى على نحو ما يوحى إبراهيم عبد الهادى فيما يرويه.

بيد أن مذكرات إبراهيم عبد الهادى لا تصل فى توجيه الاتهامات إلى الدرجة التى يصل إليها سيد باشا فى مذكراته، حيث يضع كما سنرى فى الباب الثانى من هذا الكتاب سيناريوهات كاملة لكل حادثة.

ومن المهم أن نتدارس آراء عبد الهادى فى بعض الحوادث التى تمثل هذه الأنماط الثلاثة من النشاط السرى.

يعلق إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته على حادث مقتل قطبى الأحرار الدستوريين، فيقدم أحكامًا قاطعة بأن رجال العمل السرى الوطنى كانوا واضحين فى رؤيتهم للهدف

من عملياتهم السرية، فعلى حين كانوا يستهدفون قتل رجال الاحتلال فإنهم لم يكونوا يقصدون أكثر من إرهاب المصريين المتعاونين مع الاحتلال، ومع أنى لا أستسيغ إمكانية وجود مثل هذا الفارق فى العمل الفدائى الذى لا يمكن له أن يحسب حساب الهدف من العملية الفدائية على هذا النحو، إلا أنى أرى فيما يورده إبراهيم عبد الهادى دلالة واضحة على وعى مبكر بآليات العمل الفدائى ومخاطره، كما أننا نرى أسف إبراهيم عبد الهادى واضحًا لنتيجة هذه العملية الفدائية التى لم يكن له سيطرة عليها لا هو ولا زملاؤه من قادة التنظيم السرى المرتبط بالوفد، وهو ما أثبتته الأيام فيما بعد ذلك:

« . . . ووقع قبل استقالة الوزارة الثروتية وتولى الوزارة النسيمية الحكم حادث محزن مؤلم، يؤسف له كل الأسف، وهو قتل حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل بك زهدى عضوى حزب الأحرار الدستوريين، وقد أخطأ الفدائيون أكبر الخطأ بارتكاب هذا الحادث المشين، فبعد أن كان الرصاص يصوب إلى صدور الإنجليز أعداء الوطن، بدأ يصوب ضد الوطنيين من أبنائه».

«لقد كانت عمليات الفدائيين ضد رجال الحكم المصريين السابقة - كما أعلم يقينا - للإرهاب وليست للقتل، فقد كانت القنابل التى يجرى صنعها للاعتداء عليهم تصنع بطريقة تحدث فرقعة ودويًا هائلاً، لكنها لا تصيب مقتلاً، وذلك بقصد الإرهاب فقط، حتى لا يسيروا فى ركاب السياسة الإنجليزية».

«كان هذا حرص الفدائيين المصريين دائمًا بالنسبة لرجال مصر، ولم يكن يعلم هذا صانعو القنابل أنفسهم وقيادتهم».

«أما بالنسبة للإنجليز فلم يخطئ الهدف ضدهم مرة واحدة، سواء كان ضد الضباط والجنود الإنجليز، أم ضد كبار الموظفين الإنجليز أنفسهم، وقد قتل من الأخيرين فى شهرين ٢٧ موظفًا إنجليزيًا كبيرًا».

(٢٩)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يكرر نفى علمه بحادث مقتل قطبى الأحرار الدستوريين، وهو يصل فى هذا الأمر إلى نفى علمه حتى تاريخ كتابة مذكراته، وذلك

على الرغم من أن عبد الفتاح عنايت قد أشار فى مذكراته إلى مسئولية تنظيمه عن هذا الحادث على نحو ما أوردناه بالتفصيل فى كتابنا «فى ضوء القمر»، كذلك فإن عبد العزيز على وغيره أيدوا ما أشار إليه عبد الفتاح عنايت:

«ولا أدرى مَنْ الذى أوحى بهذا الحادث ونفذه!!»

«لقد كنت سجينًا فى ذلك الوقت ولا أعرف مَنْ أوحى به ونفذه حتى هذا التاريخ، ولقد فر الجناة ولم يقف لهم أحد على أثر».

(٣٠)

وعلى الرغم من نفى إبراهيم عبد الهادى لمعرفته بالذين خططوا لقتل قطبى الأحرار الدستوريين، فإنه يحاول تلمس الطريق إلى تحديد هوية هؤلاء ودوافعهم أو مَنْ كان وراءهم، وهو يتبنى رأى الدكتور هيكل القائل بأن السراى هى التى قامت بالعملية من أجل تعديل الدستور، ومع هذا فإنه يستعيد من ذاكرته ما كتبه توفيق دياب فى مقاله «أنتم قتلة الوطن»:

«... غير أن توفيق دياب كتب مقالة بعنوان« أنتم قتلة الوطن» حمل فيها حملة شعواء على الكتاب والسياسيين الذين يصفون بنى وطنهم كذبًا بالخيانة، ويحرضون الشباب الأغرار بذلك على ارتكاب الجرائم، ويحرمون الوطن رجالهم عماد الوطن ومصدر قوته».

«لقد كانت كلمة الدكتور هيكل توحى بأن السراى هى التى قامت بالعملية لتعديل الدستور بما يتفق ورغبات صاحب العظمة السلطانية، وهذا فيما أرجحه هو الرأى السليم».

(٣١)

يعبر إبراهيم عبد الهادى عن حيرته فيما يتعلق بحادث السردار، وهو يصل بالحيرة إلى حد أن يفكر فى أن المؤامرة التى دبرت هذا الحادث كانت ماهرة وخبيثة، وهو لا ينظر إلى الحادث إلا من زاوية ما ترتب عليه من إكراه سعد زغلول على ترك الحكم،

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يشير إلى أنه لم يشارك فى مقتل السردار، على الرغم من إيمانه بأن هذا شرف كبير يتمناه كل وطنى، وهو يستطرد إلى الحديث عن طبيعة دوره مشيراً إلى أن عبد الرحمن فهمى نفسه كان حريصًا على إبعاد مجموعة الخطباء وكتاب المنشورات عن العمل السرى:

«وكان هذا الحادث خطيراً على ما يبدو مدبراً بمهارة وخبث لإكراه سعد باشا على ترك الحكم، وفرض السيطرة الإنجليزية على البلاد».

. . . .

. . . .

«وأنا الآن وقد تجاوزت الثمانين من عمرى أعترف بأننى لم أشترك فى قتل السير لى ستاك ولا غيره، وإن كان هذا شرفًا كبيراً يود كل وطنى متحمس أن ينسب إليه مثل هذا العمل، لأنه قمة التضحية والفداء فى سبيل عزة الوطن ومجده».

«لقد اشتركت فى الخطابة والإثارة ضد الإنجليز، وفى تحرير المنشورات الثورية وتوزيعها مع الطلبة، وكان الإنجليز يعتبرون هذه المجموعة (مجموعة الخطباء وكتاب المنشورات) أشد خطراً عليهم من الفدائيين أنفسهم، لأننا المحرضون الفعليون للفدائيين».

«وكان عبد الرحمن بك فهمى حريصًا أن يبعدنا عن هذا الميدان كل البعد، وكان الجميع يطيع أوامره بدون مناقشة».

(٣٢)

يروى إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته التى بين أيدينا موقفه من قصة اغتيال السردار وكيف قرر الاختفاء حتى تنجلى الأمور، ومع أنه ظل مختفيا لمدة شهرين فإنه اندفع إلى تسليم نفسه للنائب العمومى بعدما أعلن أن المحاكمة ستكون أمام محكمة مصرية لا أمام محكمة عسكرية إنجليزية، وهو حريص على الإشارة إلى أن أيامه فى هذه القضية كانت أسوأ أيام حياته بسبب ما لقيه من معاملة فى السجن على أيدى الكونستابلات الإنجليز:

«. . . بالاختصار لما قتل السردار وبدأوا يقبضون على بعضنا اختفيت حتى يقضى الله ما يريد، لأننى أخذت درسًا قاسيًا فى قضية المؤامرة الكبرى عام ١٩٢٠، فالذى اختفى منا نجا من الكارثة، والذين قبض عليهم بعضهم حكم عليه بالإعدام، والبعض الآخر حكم عليه بالسجن المؤبد، فقلت بينى وبين نفسى: استفد من الدرس السابق فى القضية الأولى».

«وبعد حوالى شهرين تقريبًا أعلن فى الصحف أن المحاكمة ستكون أمام محكمة الجنايات المصرية وليست أمام المحكمة العسكرية الإنجليزية كما حدث فى القضية الأولى، فذهبت بنفسى إلى النائب العمومى طاهر بك نور وقدمت نفسى فسجنت بالتخشيبة ٧٥ يومًا فى زنزانة منفردة كانت أسوأ أيام حياتى كلها».

«وكان السجانون كونستبلات إنجليز، وهم أصحاب الحول والطول فى السجن، وليس لمأمور السجن المصرى ولا لضباط مصر أية قيمة إلى جانب الكونستبلات الإنجليز».

«لقد قضيت بالسجن فى القضية الأولى أربع سنوات حتى أفرج سعد زغلول عن المسجونين السياسيين عام ١٩٢٤، وكان المفتشون الإنجليز يعرفوننى معرفة تامة وأنا فى سجن طنطا، وأشهد أنهم كانوا ينظرون إلىّ نظرة تقدير واحترام، ويعاملوننى معاملة حسنة، وكان عمى قد خصص لى طباخًا يطهو لى الطعام ويحضره بنفسه إلى السجن كل يوم».

«أما فى سجن التخشيبة فقد عشت خمسة وسبعين يومًا أسوأ عيشة».

«وكان مسموحًا لى بساعة يوميًا أتجول فيها فى فناء السجن برفقة كونستابل وعسكرى».

(٣٣)

ويورد إبراهيم عبد الهادى قصة موقفين صادفاه فى أثناء سجنه على ذمة قضية اغتيال السردار، فى الموقف الأول يروى أن عبد الحميد عنايت نبهه إلى أنه بعيد عن التحقيق، وهو يستطرد إلى الثناء المستطاب على شخصية عبد الحميد عنايت، أما الموقف الثانى

فيروى فيه حوارات دارت بينه وبين كل من وكيل النائب العام وحكمدار العاصمة، وفى الحوارين ما يدل على ثقة إبراهيم عبد الهادى بنفسه، وعلى شخصيته القوية:

«. . . وذات يوم سمعت هاتفا يهمس اسمى فنظرت إلى مصدر الهمس فوجدت المرحوم عبد الحميد عنايت، كان شابًا صغير السن لم يطر شاربه، ولكنه كان ولدًا يوزن بالذهب، الله يرحمه، إنه ولاشك من الشهداء، كان عنده ١٦ سنة فقط، وكان يضرب ضحيته بالمسدس وهو راكب «البسكليت» مسرعًا ولا يخطئ الرماية إطلاقا. ضم عبد الحميد يديه على بعضهما وقال: لا تخف، أنت بعيد عن التحقيق، قالها همسًا ولم ينتبه الكونستبل ولا العسكرى لهذه الحركة الخاطفة».

«وقبل القبض علىّ كنت أديت امتحان الليسانس، وظهرت النتيجة ونجحت، وأصبح من حقى أن أقيد اسمى فى جدول المحامين، ولكن تم القبض (علىْ) ودخلت السجن وإذا بى أفاجأ بسيد مصطفى وكيل النائب العام قد حضر ومعه انجرام بك حكمدار العاصمة، ومعه شخص ثالث هو شاهد الإثبات الوحيد فى القضية لأعرض عليه، فوجهت كلامى إلى الأستاذ سيد مصطفى:

«يا أخى تعرض محامى فى قلب الزنزانة، أهذا هو القانون الذى تعلمناه؟ إنك لو أحضرت أبرأ الأبرياء وعرضته منفردا داخل الزنزانة سيقول الشاهد إنه هو».

«لكن الرجل كان صيدليًا صاحب ذمة قال: لا مش هو دا أبدا، القاتل كان طويلاً أسمر اللون وجهًا وبدين، لا ليس هو بكل تأكيد».

«وأصر على رأيه وكرره أكثر من مرة على مسمع من انجرام وسيد مصطفى».

«وكان الصيدلى يقصد إبراهيم موسى العامل بالعنابر، الذى حكم عليه بالإعدام ونفذ فيه بسبب خيانة محمد نجيب الهلباوى «شاهد الملك» فى هذه القضية».

«وقلت لانجرام: هل التصرف بهذا الشكل تصرف عادل؟».

«فرد علىّ انجرام بغير حياء: هل قتل السردار كان تصرفا عادلاً. . إحنا لازم نأخذ مجموعة ظلم، مقابل قتله ظلم!».

(٣٤)

ويلقى إبراهيم عبد الهادى بعض الأضواء المهمة على حادث مقتل السردار، ومن هذه الأضواء ما يعتقده هو من أن سعد زغلول كان قد عين الخائن نجيب الهلباوى فى وظيفة تتناسب مع مؤهلاته، لكن المخابرات البريطانية كانت أسبق إلى تحويله إلى خائن، كما أنه يشير إلى أن عبد الفتاح عنايت كان هو الوحيد الذى اعترف على زملائه الذين شنقوا، وهو يقارن بينه وبين الدكتور نظير الذى اتهم فى جريمة قتل وأعدم وتقبل الإعدام الظالم مع أنه كان يعرف القاتل الحقيقى، وقد أشرنا فى كتابنا «فى ضوء القمر» إلى الروايات الأخرى المتاحة عن اتهام نظير وإعدامه.

كذلك ينتهز إبراهيم عبد الهادى فرصة الحديث عن حادث السردار ليثنى على كل من إبراهيم موسى ومحمود راشد ببعض ما يستحقانه من الثناء:

«. . . وكان محمد نجيب الهلباوى قد ألقى قنبلة على عربة السلطان حسين بالإسكندرية، وحكمت عليه المحكمة العسكرية الإنجليزية بالإعدام، ثم خفف الحكم إلى السجن المؤبد برجاء من السلطان حسين نفسه، وأفرج عنه سعد زغلول مع المسجونين السياسيين الآخرين عام ١٩٢٤، وعين فى وظيفة تتناسب مع مؤهلاته».

«واستطاعت المخابرات البريطانية أن تؤثر عليه، واستثارته وحولته إلى خائن بعد أن كان شابًا وطنيًا، قالوا له ماذا فعل لك سعد باشا؟ انظر إلى ما فعله للآخرين أمثال النقراشى وأحمد ماهر، لقد عين الأول وكيلاً للداخلية، وعين الثانى وزيرًا للمعارف، أما أنت فموظف بسيط، لا هنا ولا هناك».

«كانت عملية دنيئة قذرة راح ضحيتها مجموعة من أخلص الشباب الوطنى: إبراهيم موسى العامل بالعنابر الذى ضرب السردار بالرصاص، ولما حاول عسكرى البوليس القريب من الحادث تتبعه ضربه بالرصاص، وشفيق منصور، ومحمود راشد، الأخير هذا . . هذا الرجل أعطى لمصر حياته فداءً لها أكثر من مرة، أعطاها كما أعلم عشرين مرة، وكان هذا الشاب عاملاً من جماعة المظاهرات التى تهتف «يحيا الوطن».

«جرت حوادث قتل كثيرة لم تجد فيها واحدا اتهم بالقتل واعترف على شريكه أبدا، إلا فى حالة وحيدة هى قتل السردار ، فقد اعترف عبد الفتاح عنايت على جميع المتهمين الذين شنقوا ومنهم شقيقه عبد الحميد، وأنا لا أحب أن أقسو على هذا الرجل وقد نالت منه الأيام كثيرًا جدًا، فلا أكون أنا والأيام ضده».

«ليس لى أن أقول: لقد اعترف تحت ظروف قاسية الله يسامحه ويعفو عنه ويرحمه فى الدنيا والآخرة».

«بهذه المناسبة أذكر أنه كان فى الحركة الوطنية شابًا من خلاصة المتحمسين لمصر ضد الإنجليز، هذا الشاب اسمه الدكتور نظير أتُهم فى جريمة قتل أحد الإنجليز وكان بريئا، وحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم، وكان يعرف القاتل شخصيًا، كان عاملاً اسمه على محمد على، ولم يعترف عليه رغم معرفته التامة بأنه القاتل».

(٣٥)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على الإشارة إلى ما أحسه فى تحقيقات النيابة من دأب الإنجليز فى محاولة الوصول إلى خيط يمكنهم من الربط بين حادث مقتل السردار وبين أى توجيه به يكون قد صدر عن الزعيم سعد زغلول نفسه:

«لقد حاول الإنجليز جهدهم أن يلصقوا تهم التحريض بالقتل على سعد زغلول، فلم يجدوا واحدًا أبدًا يعترف بهذا».

«وفى التحقيق معى سألتنى النيابة:

«أنت حقيقة بتشوف سعد باشا؟».

«قلت: أجل».

«وأنت صحيح بتتغدى معاه؟».

«إذا جاء وقت الغداء ودعانى للغداء معه، أتغدى معه».

«طيب ألم يتحدث معك أبدًا عن السردار؟».

«سردار إيه؟ لم يتحدث إطلاقًا».

«وهذا صحيح، لم يحدث أن تناول سعد سيرة السردار أمامى بخير أو شر، إنما كانوا يريدون أن يصلوا إلى شىء يربط سعد باشا بالتحريض على قتل السردار».

«لكنهم لم ينجحوا وباءوا بالفشل».

(٣٦)

وتتضمن مذكرات إبراهيم عبد الهادى تفصيلات مهمة عن جريمة أخرى سبقت قتل السردار، وهى محاولة اغتيال الزعيم سعد زغلول نفسه قبل سفره لإجراء المفاوضات مع الإنجليز، وهو يصف هذا الحادث بأنه كان نموذجًا للتلفيق على الطريقة الإنجليزية!! ويقول:

«اعتدى شاب قال فى التحقيق بعد القبض عليه إنه من أعداء المفاوضات، وأن سعدا صرح بأن الإنجليز شرفاء معقولون، ولذلك فإنه يستحق القتل».

«لقد أصابت الرصاصة سعداً فى ساعده الأيمن ثم فى صدره، وحاول الجانى أن يطلق غيرها فلم تمكنه الجماهير المحتشدة لوداع سعد، وهموا بتمزيقه، لولا بعض مَنْ أحاطوا به من رجال البوليس».

«وقد اختفى المسدس المستخدم فى الجريمة عقب القبض على الجانى ولم يعثر له على أثر، وشهد محام كان على مقربة من الجانى بأنه رأى ضابطًا بريطانيًا من ضباط الشرطة يخفيه فى جيبه، وأنكر الضابط ذلك وقال: إن الذى أخفاه فى جيبه كان مقبض «منشته» التى كان يحملها وانكسرت فى الزحام».

«وأشرف على التحقيق مع الجانى بعض الوزراء، كما أشرف عليه حسن نشأت باشا وكيل وزارة الأوقاف وقتئذ، وهذا من الغرائب!!».

(٣٧)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على تحقيق مسألة مهمة هى الزج بصديقه الدكتور سيد محمد باشا فى الاتهام بقتل سعد زغلول. ومع أن إبراهيم عبد الهادى يستند فيما يورده

فى هذه المذكرات إلى ما رواه له الدكتور سيد باشا، فإنه فى بعض ما يرويه يختلف معه فى تفصيلات بعض الجزئيات التى أوردها سيد باشا نفسه فى مذكراته التى نشرها بعد وفاة إبراهيم عبد الهادى، وهى اختلافات مقبولة فى مثل هذه الروايات، و إن كانت رواية إبراهيم عبد الهادى لا تقل حبكة وفنية عن رواية سيد باشا نفسه، بل ربما فاقتها فى التركيز على مناطق الدراما فى الحدث.

لكن العجيب فيما يرويه إبراهيم عبد الهادى إذا صح أنه كان على هذا النحو أن نرى تورط حسن نشأت فى بناء مجده على ادعاء أنه هو الذى تمكن من طرد الخديو عباس من إيطاليا، بينما هو يلفق تهمة لصاحب الفضل فى هذا الطرد وهو الدكتور سيد باشا حتى لا ينال ما سرقه هو من مجد، ومع هذا فإن التلفيق ينطلى بل تتورط فيه أجهزة الدولة والإنجليز أيضًا.

ومع أن ما يرويه كل من إبراهيم عبد الهادى وسيد باشا عن هذه الوقائع قد يبدو صعب التصديق، فإن أجواء الدسائس كفيلة بما هو أكثر من ذلك من مفارقات وأكاذيب يلفقها أصحاب المصلحة، ويتعرض الوطنيون الشرفاء بسببها إلى المتاعب:

«.... والأغرب من هذا أنهم قبضوا بعد ذلك على الدكتور سيد محمد باشا أحد قادة الفدائيين فى ثورة ١٩١٩ بتهمة الاشتراك مع الجانى فى الاعتداء على سعد باشا لاغتياله، وتألمت كثيراً وقلت أنتظر حتى ينتهى التحقيق وتعرف الحقيقة».

«كانت الخلايا السرية فى ثورة ١٩١٩ لا يعرف بعضها البعض، ولكننى كنت أعرف الدكتور سيد محمد باشا معرفة وثيقة، وأعرف شدة حبه لسعد باشا وإخلاصه التام له ولمبادئه، وتفانيه فى ذلك إلى حد التضحية بحياته».

«وانتهى التحقيق وأفرج عن الدكتور سيد محمد باشا فحمدت الله كثيراً وقصدت إلى بيت الأمة وهنأت سعد باشا على هذا الإفراج، فابتسم ابتسامة هادئة، ولم يقل شيئًا».

«وعرفت بعدها أن الدكتور سيد محمد باشا عندما كان فى إيطاليا كان يرأس إحدى الجماعات السرية المؤلفة من الطلبة المصريين فى أوروبا، وأنه عندما ذهب للاشتراك فى مؤتمر جنوة، وكان على اتصال بالخديو عباس حلمى المخلوع، فعلم منه الخديو أنه

سيتقدم بمذكرة للمؤتمر عن مصر، فطلب منه الخديو أن يضمنها بأنه هو الحاكم الشرعى لمصر فرفض، فغضب عليه، فانصرف غير عابئ بغضبه».

«وبعد أيام اتصل به وزير المستعمرات الإيطالية ورئيس جمعية الشرق فى إيطاليا، وكان الدكتور سيد باشا أحد أعضائها البارزين، وتوطدت الصداقة بينه وبين رئيسها وزير المستعمرات فجاء الوزير وأبلغه أنه تلقى بلاغًا سريًا بأنه على اتصال وثيق بالثوار الليبيين، وأنه يكلف بتحقيق هذه التهمة فبدأ كلامه مع دكتور سيد باشا قائلا: «أنا أعلم أن ما جاء فى هذا البلاغ كله غير صحيح، فمن تشك فيمن أرسله فقال له:

«إنه ولاشك خديو مصر السابق، أوعز إلى أحد رجاله، وهو على ما أعتقد محمود لطفى، والخديو يقيم - كما تعلم - فى مدينة سالد ريمو على الحدود الإيطالية - السويسرية».

«فكلف وزير المستعمرات قلم المخابرات والبوليس الإيطالى بتفتيش مسكنه، فوجد فيه وثائق ومستندات تثبت أنه يعمل بوسائل مختلفة ليكون ملكًا على إحدى دول شمال إفريقيا إذا لم ينجح فى العودة إلى مصر ملكًا عليها، فأخذت المخابرات الإيطالية الوثائق وطردت الخديو السابق من الأراضى الإيطالية».

«وتصادف فى هذه الأثناء مرور حسن نشأت باشا بإيطاليا وإقامته فيها بضعة أيام، فلما وصل إلى مصر أفهم المسئولين بأنه هو الذى طرد الخديو عباس من إيطاليا بمساعيه الحميدة».

«ولما اعتدى على سعد زغلول أراد أن يثبت أن الدكتور سيد محمد باشا مشترك فى الحادث لأنه كان متعاونًا مع الخديو عباس لقلب نظام الحكم فى مصر، وقد وعده الخديو بأن أملاكه فى مصر (توضع) تحت تصرفه إذا قام بقتل الملك فؤاد، وأن قتل سعد باشا ما هو إلا مقدمة لقتل الملك فؤاد، وأنه شريك بالتأكيد مع المقبوض عليه فى محاولة اغتيال سعد باشا، فقبضوا عليه ووضعوه فى نيابة مصر لهذه التهمة، وقبل أن يبدأ التحقيق معه أمسك بالتليفون واتصل بالنقراشى وكان وكيل المحافظة وقال له:

«مش عيب يقبض علىّ بالاشتراك فى محاولة اغتيال الرئيس وأنت تعلم مدى حبى له وتعلقى به».

«فأجابه النقراشى بما يطمئنه بكلمة قصيرة وقفل التليفون لأن تليفون النقراشى كان تحت الرقابة».

«وجاء النائب العمومى محمد باشا إبراهيم وبعد الأسئلة التقليدية قال له:

«أنت تعرف سعد باشا؟».

«نعم أعرفه».

«هل أنت موافق على سياسته؟».

«نعم ومن كل قلبى».

«متى عرفته؟!».

«من أيام بدء الثورة».

«هل لك صلة بالاشتراك فى حادث الاعتداء عليه؟»

«طبعا لا».

«الأفضل أن تعترف».

«لا كلام عندى أكثر مما قلت».

«فقال خذوه إلى السجن».

«وبعد أسبوع استدعوه مرة ثانية للتحقيق».

«فقال محمد باشا إبراهيم:

«أنت متهم بتدبير مؤامرة لاغتيال الملك فؤاد فما هو ردك على هذا؟».

«غير صحيح».

«وأنت كنت على صلة وثيقة بالخديو السابق عباس حلمى».

«كنا تقابلنا فى الخارج ذات مرة وانقطعت كل صلة معه».

«ولاحظ الدكتور سيد أن النائب العمومى ينظر قبل أن يوجه له السؤال فى ورقة تحت الوراقة الموجودة أمامه على المكتب، والمفروض أن يلقى بالسؤال فيدونه الكاتب كما يدون الإجابة».

«فقال للنائب العمومى:

«المفروض أن تلقى السؤال فيدونه الكاتب، وكذلك الجواب».

«فرد عليه:

«مش شغلك!».

«فقال له: لا.. هذا شىء يخصنى.. وحياتى مرتبطة به، دول كاتبين لك الأسئلة وأنت ترددها».

«فقال لا: بلاش وقاحة، وبحركة لا إرادية وضع يديه بقوة على الوراقة!».

«فرد عليه: اسمع.. كلام كثير مش عاوز، أنت رجل ليس عندك ضمير ولن أرد على أى سؤال لك بعد هذا».

«فقال: ودوه السجن».

«وذهب إلى السجن ومكث به خمسة عشر يومًا».

«وبعدها طلبوه للتحقيق مرة أخرى، وكان الوقت ليلاً، فلما دخل غرفة التحقيق وجد بها عاطف بك بركات، والمستشار على بك سالم، ومحمد زكى الإبراشى، وحسن نشأت، فتوقع الشر من وجود الأخيرين، وإذا بعلى بك سالم يقول له: اتفضل اقعد يادكتور سيد.. ياعسكرى هات له فنجان قهوة».

«وسأل على بك سالم الدكتور سيد: لماذا رفضت التحقيق مع النائب العمومى؟ وأضاف: سعد باشا عرف الموضوع وأن هذه قضية لا يحققها إلا النائب العمومى بنفسه أو مَنْ فى درجته (لذا) ندبنى للتحقيق وأرجو أن تساعدنى وتقول لى الحقيقة، واصدقنى فى كل كلمة».

«قال له: أنا لا أقول إلا الصدق والله المستعان!».

«فقال الكاتب: اقرأ التهمة، وقرأها، لقد تقابل سيد محمد باشا مع الخديو السابق فى روما واتفق معه على قلب نظام الحكم وقتل الملك فؤاد، وأنه يضع أمواله ورجاله تحت تصرفه».

«وكانوا قد أحضروا سكرتير الخديو السابق من الآستانة ليكون «شاهد ملك» على أنه كان موجودًا فى أثناء مقابلاتى للخديو واتفاقى معه».

«قال : المسألة مسألة منطق . . إذا كان الخديو قال هذا الكلام يبقى مالوش قيمة . . لأنه إذا كان راجل بيفكر تفكير سليم، والخديو رجل معروف بالدهاء والذكاء، فلا يقول مثل هذا الكلام أمام سكرتيره ده اللى يتباع بعشرة قروش» .

«لم يكد ينطق سيد باشا بهذه الكلمة حتى انفجر السكرتير وكأنه أصيب بلوثة : أنا ما قلتش الكلام ده أبدًا» .

«فقال له على بك سالم : «أمال مين اللى كتب الكلام ده بخطه، دانت كاتبه بإيدك؟» .

«قال : أبدًا أنا لم أكتبه، دول هما اللى كتبونى غصب عنى، يقصد حسن نشأت ورجال القصر» .

«قال على بك سالم : يعنى الكلام اللى أنت كاتبه مش صحيح» .

«قال : أبدًا مش صحيح ياسعادة البيه» .

«فقال له على بك سالم : طيب . . يا ابنى قوم روح، دى أرواح ناس ومش سهلة للدرجة دى!» .

«فاتنى أن أذكر مما رواه لى د. سيد محمد باشا أن النائب العام عندما طلبه مرة ثانية للتحقيق أرسله إليه ضابط بوليس اسمه عبد المحسن الشاذلى، أراد أن يضع الحديد فى يده، فصفعه على وجهه بكل قوته، فبهت الضابط ولم ينطق بكلمة واحدة أو يحاول رد الاعتداء وسحبه فى هدوء إلى مكان التحقيق!» .

«فلما وقف أمام النائب العام قال له : إن شاء الله مزاجك النهارده يكون كويس وتجاوب على أسئلتى» .

«فقال له : أيوه، بدليل إنك أمرت الضابط بوضع الكلابشات فى يدى» .

«فقال الضابط : أبدا . . أبدا . . كفاية القلم اللى أخذته! وقبل أن يحضر النائب العام للتحقيق بوقت قصير قال كاتب التحقيق لسيد باشا : أنت قرأت الجرايد النهارده» .

فقال له : ها أقرأها فين؟!» .

«قال الكاتب : دا فيه جريدة أهية كتبت تقول إن جمعية من الفدائيين اتفقت على تهريبك واللى حيقاومها حتموته!» .

«ومن هنا فهم سيد باشا اضطراب الضابط بعد أن صفعه بالقلم وسكوته عليه» .

«استمر على سالم يحقق معه ثلاثة أشهر ، مرة كل أسبوعين» .

«وأخيرًا . . انتهى التحقيق بالحفظ وأصدر سعد باشا قرارًا بتعيين سيد محمد باشا بوزارة المعارف مشرفًا على المدارس الأجنبية» .

(٣٨)

ويشير إبراهيم عبد الهادى إلى ما لم يشر إليه الدكتور سيد باشا نفسه من أنه ، أى سيد باشا ، استقال عقب اغتيال سردار الجيش المصرى فى السودان ، وبعد أيام تلقى كتابًا من وزارة المعارف بفصله ، فبحث عن عمل بالمدارس الحرة وعين وكيلاً لمدرسة الإعدادية الثانوية لمؤسسها المرحوم السيد فهمى الذى كان متهمًا مع المرحوم إبراهيم الوردانى بقتل بطرس باشا غالى ، ثم ترك مدرسة الإعدادية الثانوية وافتتح مدرسة لحسابه هى «مدرسة النيل الثانوية» بشبرا بحارة «الدرمللى» .

(٣٩)

ونأتى إلى خامس الموضوعات المهمة التى تتناولها هذه المذكرات ، وهى بداية علاقة إبراهيم عبد الهادى بممارسة السياسة فى مستواها العالى من خلال علاقته اللصيقة بالزعيم سعد زغلول ، واختياره زعيمًا لشباب الوفد ، ثم من خلال آرائه فى أداء الوزارة الزيورية عقب حادث مقتل السردار :

يروى إبراهيم عبد الهادى كيف تنامت علاقته بالزعيم سعد زغلول بعد خروجه من السجن فى أثناء تولى سعد زغلول رياسة الوزارة ، ونحن نفهم مما يرويه إبراهيم عبد الهادى أن هذا التنامى كان تعبيرًا عن إعجاب سعد زغلول بما سمعه من قبل عن نشاط إبراهيم عبد الهادى وقدراته الخاصة ، وهو ما جعله يقربه إليه بالتدريج حتى جعله مدعوًا على مائدة غدائه باستمرار .

ونفهم أيضا مما يرويه إبراهيم عبد الهادى كيف قدر له أن يحل محل الزعيم الطلابى الوفدى الشهير حسن يس فى رياسة لجنة الطلبة، وهو ما لم يقابل من حسن يس بكثير من الارتياح، ومن الطريف أن حسن يس ظل زعيمًا لشباب الوفد حتى الوقت الذى وصل فيه إبراهيم عبد الهادى إلى رياسة الوزارة بعد أن ولى الوزارة ومسئوليات أخرى كثيرة، وهو ما يمثل الفارق بين نمطين من الزعامة، نمط يحافظ على موقع متقدم ومتميز كحسن يس، ونمط تتنامى به زعامته من موقع إلى آخر أعلى منه كإبراهيم عبد الهادى:

«تولى سعد باشا الحكم وأفرج عن جميع المسجونين السياسيين وكنت أحدهم، وقد توجهت رأسًا من السجن إلى بيت الأمة لمقابلة سعد زغلول، وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء، والسبب فى تأخيرى إلى هذا الوقت أن عمى رحمة الله عليه أصر على أن يشترى لى بدلة جديدة من محل «شيكوريل»!».

«لم أكن رأيت سعد زغلول قبل ذلك وجهًا لوجه إلا مرة واحدة عام ١٩١٩، صحيح أننى كنت أذهب إلى بيت الأمة باستمرار مع زملائى طلبة مدرسة الحقوق لنستمع إلى سعد زغلول وهو يخطب، فلما التقينا معه بعد خروجنا من السجن لم يعرفنا، ولكنه كان يتذكر أسماءنا لكثرة ما نشر عنها بالصحف فى أثناء المحاكمة».

«وبعد خروجنا من السجن بأيام احتفى بنا إخواننا واتفقنا على أن نذهب للقاء سعد زغلول مرة أخرى ونشكره شكراً خاصًا على قراره بالإفراج عنا».

«ونحن فى حضرته التفت إلى إخوانى وقالوا: اتكلم يا إبراهيم. فشكرته ورددت قول الشاعر:

«وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا».

«وإذا به بالصدفة يقولها فى نفس اللحظة».

«ثم أقام لنا إخواننا وزملاؤنا الذين تخرجوا ونحن فى السجن حفلاً كريمًا بفندق الكونتننتال، حضره سعد زغلول رحمة الله عليه، وجميع الوزراء وشيوخ الأمة ونوابها، ووضع شوقى بك قصيدة طويلة اختصنى فيها ـ الله يستره ـ بخمسة أبيات، وقد نشرت هذه القصيدة كاملة فى جريدة «الأهرام» فى اليوم التالى».

«وبعدها بعدة أيام أقام لنا طلبة المدارس العليا حفلة فى تياترو الأزبكية بعد أن أديت الامتحان ونقلت من السنة الثالثة إلى الرابعة، وحضرها أيضًا سعد زغلول».

«وفى هذه الحفلة اتفق الطلبة فيما بينهم أن أكون رئيسًا للجنة العليا للطلبة، وكان المرحوم حسن يس هو رئيس اللجنة وقتئذ فأبدى عدم رضائه عن ذلك، وتكلم سعد عنى كثيرًا، بعدها حرص سعد على أن أكون على مائدته كل يوم إلى أن جاء حادث قتل السردار، وهو الحادث الذى هز مصر هزة عنيفة وأطاح بوزارة الشعب الأولى».

(٤٠)

ويبدى إبراهيم عبد الهادى أسفه لغيوم الجو السياسى الذى سيطر على مصر فى أعقاب مقتل السردار، واضطرار سعد زغلول إلى الاستقالة، وتولى زيور الحكم لتنفيذ تعليمات الإنجليز.

وينتقد إبراهيم عبد الهادى حكومة زيور فى سلوكها تجاه اللورد جورج لويد، بدءًا من استقباله استقبالا لا يكون إلا لصاحب السلطان فى البلاد.

وهو يعبر عن اعتقاده بأن وزارة زيور ساعدت جورج لويد على أن يؤدى فى نجاح بالغ دورين متناقضين فى مصر: دور الحاكم المطلق، ودور المتظاهر بصداقة الشعب:

« . . . وسئمت إنجلترا وجه مندوبها السامى فى مصر اللورد اللنبى، فقررت تغييره بوجه جديد، هو جورج لويد الذى قام بدورين متناقضين فى أثناء وجوده فى مصر، دور الحاكم المطلق، ودور المتظاهر بصداقة الشعب، وكانت الوزارة الزيورية تقدم له ما يعينه على القيام بالدورين على أحسن وجه، وسبب جورج لويد المزيد من المتاعب لسعد زغلول».

«كان جورج لويد قبل أن يعين مندوبًا ساميًا فى مصر، حاكمًا للهند، وشخصية درست الشرق وطباع الشرقيين دراسة عميقة، ولهذا السبب طلب الإنعام عليه بلقب لورد قبل أن يصل إلى مصر فى أواخر عام ١٩٢٥، لما يعلمه من تأثير الألقاب والمظاهر على الشعوب الشرقية».

«وعند وصوله أعدت له وزارة زيور استقبالا لا يكون لممثل دولة أجنبية، وإنما يكون لشخص ينظر إليه مستقبلوه على أنه صاحب السلطان فى البلاد».

«أعدت له قطاراً خاصاً، وفرشت له محطة السكة الحديد بالبسط الفاخرة، وفتحت له الباب الملكى، وفرشت الشوارع بالورود والرمل، واستقبله فى المحطة يحيى إبراهيم باشا رئيس الوزراء بالنيابة، والوزراء، وكبار الموظفين وممثلو الدول الأجنبية».

«وبذلك خالفت الوزارة الزيورية التقاليد المرعية، كما كانت القواعد الدولية، وأخلت بواجبات وظيفتها وداست كرامتها فى مقابل استرضاء «العميد» الجديد حتى يطمئن على التربع فى كراسى الحكم الزائلة قريباً أو بعيداً، وهكذا أذل الحرص أعناق الرجال!!».

(٤١)

ويمضى إبراهيم عبد الهادى فى انتقاد سياسة الوزارة الزيورية تجاه اللورد جورج لويد، منبهًا إلى أن الشعب لم ينخدع بهذه السياسة، ولم يشارك فيها، بل ندد بها رجال الوفد والحزب الوطنى، وهو يندد أيضًا بسلوك بعض المتنفعين من أمثال محمد باشا الشريعى، وصالح باشا لملوم على حسب روايته:

«... وخرج اللورد المندوب السامى الجديد عن التقاليد الدبلوماسية فلم يقدم أوراق اعتماده للملك، وبعد أن استراح بضعة أيام طاف بالأقاليم بدعوى الوقوف على أحوال الأهالى، ودراسة شئونهم بنفسه كأنهم رعيته، (وقد) هيأت له الوزارة كل أسباب الراحة والمتعة فى سفره».

«وأقام له محمد باشا الشريعى، وصالح باشا لملوم حفل شاى بالكونتيننتال، دعى إليه عدد كبير من المصريين، ولكن المصريين اتخذوا من هذه المظاهر موقفًا طبيعيًا، هو موقف الرفض والتحدى».

«وأهاجت هذه التصرفات من جانب الوزارة وبعض المتنفعين نفوس الشعب، وعادت إلى الأذهان صورة الحماية البريطانية، ونددد بها رجال الوفد، والحزب الوطنى، وشددوا على انتقادها فى صحفهم، لأن مثل هذا السلوك يهدر كرامة البلاد وسمعتها، ومع ذلك لم تر فيه الحكومة الزيورية حرجًا، بل شجعت عليه اعتقاداً من

رجالها بأن ذلك هو الطريق للبقاء فى الحكم، فتركته يمشى فى أرض مصر مرحًا لا يهمه أمر المصريين، وتساءلت الصحف عن سبب تأخير المندوب السامى فى تقديم أوراق اعتماده بعد هذه الرحلة، وعن السلطة التى تخول له التجول فى أنحاء مصر، وطوافه بالأقاليم على الصورة التى تمت بها».

(٤٢)

ويضيف إبراهيم عبد الهادى عنصرًا جديدًا من انتقاداته لسلوك اللورد جورج لويد، وأثرها السلبى على سعد زغلول والإجماع السياسى، وهو موقف القاضى الإنجليزى الذى أعلن أسرار المداولة فى قضية السردار، حيث أصر على أن يفصح عن معارضته فى تبرئة الدكتور أحمد ماهر وبعض زملائه، وإن كان صرح بأنه وافق على براءة اثنين آخرين هما النقراشى، وعبد الحليم البيلى لعدم كفاية الأدلة:

«. . . وتلقى سعد مفاجأة أخرى غير سارة بعد عدة أشهر من وصول اللورد جورج لويد، وكانت تراجع القاضى الإنجليزى عن الموقف المعلن من أحكام قضية السردار، وكان الحكم يقضى ببراءة الدكتور أحمد ماهر وزير المعارف فى وزارة سعد باشا، ومحمود النقراشى وكيل الداخلية، والأستاذ حسن كامل الشيشينى، وعبد الحليم بك البيلى، والحاج أحمد جاد الله، ومحمود أفندى عثمان مصطفى من التهمة التى نسبت إليهم والإفراج عنهم فورًا، إلا إذا كانوا محبوسين رهن قضايا أخرى، ولكن المستشار الإنجليزى كرشو أحد القضاة الثلاثة الذين أصدروا الحكم قدم استقالته إلى وزير الحقانية وذكر فى هذه الاستقالة أسرار المداولة فى القضية، فكان عمله غير كريم قوبل باستياء شديد فى جميع الأوساط القضائية والسياسية.

ومما جاء فى كتاب استقالته قوله:

«آسف لاضطرارى إلى إبلاغ معاليكم أننى بعد مداولة مع زميلى خمسة أيام، أجدنى لا أستطيع الموافقة على الحكم الصادر فى قضية محمد فهمى على وآخرين إلا فيما يتعلق بمحمد فهمى على المحكوم بإعدامه، ومحمود فهمى النقراشى المحكوم ببراءته، وعبد الحليم البيلى المحكوم ببراءته فإن الأدلة على الاثنين الآخرين كانت غير كافية، أما باقى الحكم فهو لزميلى، وعندى أن حكم البراءة فى تهمة محمود عثمان

مصطفى والحاج أحمد جاد الله وأحمد ماهر وحسن كامل الشيشينى يناقض وزن الأدلة إلى حد الإخلال بتنفيذ العدالة، وقد بلغت خطورة هذا الإخلال فى رأيى، وخطورة النتائج التى تنجم عنه، حداً جعلنى أعتبر أن من واجبى الخروج فى هذه الحالة على مبدأ المحافظة على سر المداولة، وتوجهت بعد إصدار الحكم إلى دار المندوب السامى فأطلعت فخامته على رأيى باعتباره حامياً للأجانب».

«كان هذا التراجع من جانب كرشو موجهًا بالدرجة الأولى ضد الموقف الحازم الذى وقفه سعد فى مواجهة اللورد لويد، ويتعلق بنتائج الانتخابات القادمة».

(٤٣)

ونصل إلى سابع الموضوعات المهمة التى يتناولها إبراهيم عبد الهادى فى هذه المذكرات، وهو رأيه فى معاهدة ١٩٣٦ وما أعقبها من إلغاء الامتيازات الأجنبية.

يحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يلخص موقف الزعماء السياسيين من معاهدة ١٩٣٦، وهو حريص على أن يفعل هذا على الرغم من أنه كان ممثل الوفد فى الدفاع عن هذه المعاهدة فى مجلس النواب، لكنه مع هذا يعبر عما لابد من التعبير عنه من إحباطه المتكرر من رفض المفاوضين التالين لما توصل إليه مشروع معاهدة صدقى- بيفين من إنجازات، هذا فضلاً عن إحباطه فى مفاوضاته هو نفسه وهو رئيس للوزراء مع الإنجليز:

«. . . ولما عرضت المعاهدة على مجلس النواب اختارنى الوفد للدفاع عن المعاهدة، وقد عارضها عدد قليل فى المجلس فى مقدمتهم الدكتور بهى الدين بركات باشا، وقد فتح الله علىّ بما قلته عن مزاياها وأبرزها وأهمها إلغاء الامتيازات الأجنبية، وافق الأعضاء بأغلبية مطلقة عليها وكان النحاس باشا ومكرم باشا قد وصفاها بأنها معاهدة الشرف والاستقلال، وأدلى محمد محمود باشا برأيه بكل وضوح بأنها ليست استقلالاً تامًا، وعارضها فى مجلس الشيوخ حافظ باشا رمضان رئيس الحزب الوطنى كذلك، وحسن صبرى باشا الشيخ المستقل وآخرون فوصفوها بأنها لا تحقق الاستقلال التام، وإنما هى خطوة لا بأس بها نحو الاستقلال».

«وقال عنها الدكتور هيكل عضو المجلس بعد أن حلل جميع موادها إنها صورة محورة من مشروع ملنر، وأنها لا تحقق الاستقلال، وأنه يجب على كل عضو فى الشيوخ أن يصوت عليها عن علم بحقيقة مداها، فمن أراد الاستقلال أو نظامًا كنظام الدومنيون فليرفضها، ومن أرادها خطوة فى سبيل الاستقلال فليقبلها».

«ووافق مجلس الشيوخ فى النهاية على المعاهدة».

«وأشد من نقد المعاهدة كان الأستاذ عباس العقاد يكتب سلسلة مقالات كشفت ما فيها من عيوب كثيرة، وهاجم النحاس باشا ومكرم عبيد هجومًا قاسيًا لوصفها بأنها معاهدة الشرف والاستقلال».

(٤٤)

يعطى إبراهيم عبد الهادى أهمية كبيرة للخطوة التى تمت عقب معاهدة ١٩٣٦ بإلغاء الامتيازات الأجنبية من خلال معاهدة مونتريه، وهو حريص على الإشادة القصوى بزعيمه أحمد ماهر وبأدائه فى هذه المفاوضات، وهو أداء لقى إعجاب الجميع وتقديرهم، كما أنه يشيد أيضًا بعبد الحميد بدوى وجهده فى المفاوضات:

«واستطاع الوفد المصرى فى مؤتمر مونتريه أن يدير المناقشات إدارة موفقة بفضل الدكتور أحمد ماهر وعبد الحميد باشا بدوى، فقد كان الاثنان قوة هائلة فى أثناء المناقشات. كان أحمد ماهر بسرعة بديهته وقوة حجته فى دفع كل اعتراض يبدو من أحد الأعضاء الأجانب، سواء من الناحية التاريخية أو سواها».

«وقد اعترف بذلك أعضاء المؤتمر أنفسهم والمعلقون السياسيون ورجال الصحافة، حتى إنهم وصفوا الدكتور أحمد ماهر بردوده السريعة القوية المدعمة بالحجة الناصعة والدليل الواضح بالقذيفة التى تصيب الهدف ولا تخطئه أبدًا، وعبد الحميد باشا بدوى بقوة بحثه الفقهى، واستعداده المسبق للرد على كل أمر قانونى يثار، ونجح الوفد المصرى نجاحًا فاق كل تقدير».

«وألغيت الامتيازات الأجنبية بموافقة جميع الدول الأجنبية ورضاها، واتفق على موعد إلغاء المحاكم المختلطة، وبذلك يصبح القضاء مصريًا خالصًا، وزالت هذه

الوصمة التى أصابت مصر زمنًا طويلاً عانت منها ما عانت، وكلفت المصريين ثمنًا ضخمًا من أموالها الخاصة، واقتصادها القومى، وأصبحت مصر حرة فى سن القوانين وفرض الضرائب، يتساوى فيها المصريون والأجانب».

(٤٥)

وفيما بين إلغاء الامتيازات الأجنبية والمفاوضات التى توصلت إلى مشروع معاهدة صدقى - بيفن تأتى محاولات بعض زعماء الأحزاب فى مصر للوصول إلى الثلاثة الكبار حين اجتمعوا فى القاهرة قرب نهاية الحرب العالمية الثانية.

ويتحدث إبراهيم عبد الهادى عن دوره فى المشاركة فى صياغة العريضة التى قدمتها الأحزاب المعارضة إلى مؤتمر الثلاثة الكبار الذى عقد مع وضع الحرب العالمية لأوزارها وتعطى المذكرات التى بين أيدينا دورًا بارزًا لمحررها محمد على أبو طالب فى هذه الواقعة:

«. . . عندئذ رأت المعارضة أن الفرصة سانحة لأن تتقدم بمذكرة إلى الثلاثة الكبار تتضمن وجوب جلاء القوات المتحالفة جميعها من مصر بعد أن ساهمت مساهمة فعالة فى كسب المعركة الحربية بين قوات الحلفاء وقوات المحور بوضعها الموانى والسكك الحديدية والطرق تحت تصرف القوات المتحالفة، وكذلك مواد التموين، وقد تنازلت عن جزء كبير منها لهذه القوات، كما تنازلت عن حريتها، وكان هذا توجيهًا من الملك لرجال المعارضة الذين أعدوا المذكرة بطريقة سرية، واشترك فى وضعها أحمد ماهر، ومكرم عبيد، والدكتور هيكل، وإسماعيل صدقى، وحافظ رمضان، وعبد الملك حمزة، وعهدوا بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية إلى عبد الملك حمزة، وكتبها إسماعيل صدقى باللغة الفرنسية، وأوصلها عبد الملك بك حمزة ومعه الصحفى محمد على أبو طالب إلى مكرم باشا فى مكتبه بميدان مصطفى كامل للاطلاع عليها والاطمئنان على صحة الترجمة».

«ثم تولى محمد على أبو طالب طبع الأصل العربى بمطبعة جريدة الدستور التى يعمل بها، وطبع منها كمية كبيرة، وكان الأستاذ مصطفى المليجى الموظف ببنك مصر

هو الذى كتبها على الآلة الكاتبة، وأرسلوها إلى المجتمعين فى فندق مينا هاوس، وقد ضايق هذا التصرف الحكومة، وعاقبت بعض رجال البوليس السياسى لأنهم لم ينتبهوا إلى هذا العمل ويمنعوه».

(٤٦)

ويظهر إبراهيم عبد الهادى اعتزازاً كبيراً بما تم إنجازه من مشروع معاهدة صدقى - بيفن، وهو يفخر بأنه كان وزير الخارجية الذى اشترك مع صدقى باشا فى إتمام مشروع هذه المعاهدة، وهو يلقى التبعة فى فشل مصر فى عقد هذه المعاهدة على عاتق مكرم عبيد الذى بدأ الهجوم على هذه المعاهدة واندفع فيه على عادته فى النظرة الحزبية الضيقة التى لا تراعى مصلحة كبرى، ويظهر إبراهيم عبد الهادى أسفه لأن ينضم رجال من وزن لطفى السيد إلى مكرم فى معارضته للمعاهدة، ثم يتعجب لموقف على ماهر وشريف صبرى وعلى الشمسى الذين عارضوا مشروع المعاهدة دون سبب جوهرى، وينتهى إلى أن حديث صدقى باشا لروز اليوسف عن المعاهدة كان خاتمة المطاف فى الإجهاز على مشروعها وضياع فائدته على مصر:

« . . . سافرت مع صدقى باشا رحمه الله، وفى اليوم التالى التقينا بمستر بيفن وزير الخارجية، ولاشك أنه كان عنصراً نافعاً مقتنعاً بأن المصلحة فى إنهاء النزاع مع مصر بما يرضيها، ولذلك بذل جهوداً كبيرة لإنهاء الاتفاق، ولقى معارضة عنيفة فى مجلس الوزارة اضطرته أن يهدد بالاستقالة».

«كان أمامنا نقطتان هما الأساس:

«الأولى: الجلاء عن مصر جلاء تاما كاملا».

«الثانية: موضوع السودان».

«النقطة الأولى انتهينا منها وحددنا الجلاء كاملا نهائيا فى سبتمبر سنة ١٩٤٩».

. . . .

«هذه هى اتفاقية صدقى - بيفن التى لو تمت لأفادت مصر فوائد عظمى».

«ولكن المزايدات الوطنية والألاعيب البريطانية هى التى أجهضتها، فقد قمت بنفسى بعرض مشروع المعاهدة على أعضاء هيئة المفاوضات الأساسية وافق عليها لطفى السيد باشا، وشريف صبرى باشا، وحسين سرى باشا، وحتى عندما عرضتها على على الشمسى باشا قال لى: «والله لو أن غيرك الذى عرضها علىّ لما صدقته».

«إذن ما الذى جرى؟».

. . . .

«ما حدث أن مكرم عبيد باشا هاجم المعاهدة هجومًا عنيفًا فى جريدة «الكتلة» من ناحية الدفاع المشترك، والمعاهدات كلها تبرم على أساس التعاون فى الدفاع لو دخلت دولة فى حرب ضد دولة أخرى، ولست أدرى معنى الاعتراض من جانب مكرم باشا على الدفاع المشترك؟».

«دليلى على هذا أيضًا فى اتفاقية ١٩٥٤ التى تحدد فيها الجلاء فى يونيو سنة ١٩٥٦، وفيها أيضًا نفس النص».

«وقف مكرم باشا وقال ما شاء فى الدفاع المشترك، وأنا لا أنكر على مكرم باشا أنه اشتغل بالقضية الوطنية زمنًا طويلاً، ولكنه افتتن بحماية الوفد صاحب الغالبية الكبرى فى البلد قبل ذلك، وكان مما يؤخذ عليه أنه إذا خاصم لا يعرف فى الاتهام لخصمه حدودًا، وحسبى أن أذكر أنه عاش مع النحاس باشا باعتباره الصديق الأقرب طول مدة العمل فى السياسة حتى إذا اختلف معه لم يرع شيئًا من المجاملة حتى مع زوجته، وأخرج الكتاب الأسود طافحًا بما سجله فى العريضة التى قدم بها الكتاب إلى الملك».

«فعلى طريقته أخذ يهاجم الاتفاق كعادته من مصلحته الحزبية، التى هى كل شىء عنده، أن يطيح بالمشروع وبالهيئات التى تسنده أيضًا».

«ولطفى باشا الرجل المتقدم فى السن أستاذ الجيل صاحب التجارب والخبرة الطويلة انضم إلى جبهة الرفض فى آخر لحظة».

«على ماهر عندما أراد الأستاذ حسن يوسف وكيل الديوان الملكى أن يأخذ رأيه فكان جوابه غريبًا من رجل مثله قال: أنا مستعد للموافقة إذا طلب إليه الملك ذلك!».

«وكان على باشا ماهر منذ خرج من القصر والملك معه فى شبه قطيعة وإعراض،

وكان يحاول بكل وسيلة أن يستعيد علاقته بالملك، ولكنه لم ينجح والملك يرفض على طريقته فى العناد».

«شريف صبرى وعلى الشمسى كانا موافقين لما عرضت عليهما المشروع على انفراد، وحافظ باشا رمضان كان موافقًا، وفى النهاية ظهر أن غير الموافقين على المشروع يزيدون واحدًا، وأخذوا يدلون بأحاديث للصحفيين ضد المشروع، وكانت النهاية بالتصريحات التى نشرتها روز اليوسف ونسبتها إلى إسماعيل صدقى، وكان الاتفاق بين صدقى باشا وبينى وبين مستر بيفين ألا ندلى بأى تصريحات طول مدة غيابه فى الولايات المتحدة ممثلا لبلاده فى هيئة الأمم المتحدة».

«وكان صدقى باشا مريضًا بمرض خطير فأصيب بخيبة أمل كبيرة بعد أن أدلى مستر اتلى بتصريح سيىء اتهم فيه صدقى باشا بالتضليل».

(٤٧)

ويكرر إبراهيم عبد الهادى فى مواضع مختلفة التعبير عن فكرة التحسر على معاهدة ١٩٤٦ ، ولهذه الحسرة مبرر قوى ذلك أنه هو نفسه كان بمثابة صاحب الفضل الثانى فى إتمامها (بعد إسماعيل صدقى باشا)، وهو ينسب إلى الأحزاب وبخاصة الوفد السبب فى عدم استفادة مصر من الفرصة التى أتاحتها هذه المعاهدة:

«لو أن رجال مصر المشتغلين بالسياسة وقفوا إلى جوار المفاوض المصرى فى مشروع صدقى - بيفن وأيدوه لتم الجلاء فى ١٩ سبتمبر من عام ١٩٤٩، ولربحت البلاد من وراء ذلك وكانت فى غنى عن التضحيات الكبيرة من الشباب والمال بعد ذلك، خصوصًا بعد أن أعلن النحاس باشا إلغاء المعاهدة فى عام ١٩٥١ من جانب واحد، ووقف الإنجليز من مصر ذلك الموقف الجائر الظالم، موقف القوى المغرور».

«وأنا أقرر وأسجل أن شباب مصر ورجالها قاموا بواجباتهم تمامًا بالرغم من عدم تكافؤ القوى بينهم وبين الإنجليز، ولكنهم على أية حال أزعجوا القوات البريطانية المعسكرة فى منطقة القناة، مما أهاج قائدهم «أرسكين» فارتكب بحماقته جرائم لا يغتفرها التاريخ الإنسانى».

«لقد وقفت الأحزاب المصرية من مشروع صدقى - بيفن موقف العناد لا لشيء إلا العناد، ورغبة الوفد بالذات أو قل رغبة النحاس باشا، رحمة الله عليه، الذى كان يرى أن أى اتفاق لا يعقده هو بالذات لا يرضى عنه مهما كانت الفوائد التى تحصل عليها مصر، ثم كيف يرضى عن اتفاق يعقده صدقى باشا الذى يرى أنه لا يمثل إلا نفسه، وإذن أين زعيم الأمة وممثلها؟».

«أليس إسماعيل صدقى مصريا صميما؟ لقد أحسست وأنا وزير خارجيته ومشاركه فى وضع الاتفاق أن الرجل كان يريد أن يختم حياته بعقد اتفاق مع بريطانيا يحقق الكثير من أمانى بنى وطنه، ويكفر فى الوقت نفسه عما فعله بالشعب أيام حكمه عام ١٩٣٠ من إلغاء الدستور، وتنكيل وتعذيب بعض المواطنين».

(٤٨)

ويعاود إبراهيم عبد الهادى الحديث عن ندمه الشديد على فقدان مصر تحقيق الاستفادة المرجوة من مشروع معاهدة ١٩٤٦ فيقول:

«. . . أقول إننا أضعنا بالعناد الكثير وأضعنا فرصا على مصر، وقد ضاعت علينا فرصة الخلاص من البريطانيين من ١٩٤٦ إلى ما بعد الثورة حتى عام ١٩٥٦ لو لم تتم المعارضة بالصورة التى قامت بها لكانت المعاهدة انتهت».

«لو رجع الناس إلى الأوراق الرسمية وإلى نصوص معاهدة ١٩٣٦ لوجدوا أن الإنجليز حددوا عشرين سنة للجلاء، فإذا جئنا للاتفاقية التى تمت عام ١٩٥٦ لوجدنا المدة ٢٠ سنة كاملة بعد أن ضاعت على مصر كل الجهود التى بذلت حتى انتهى الأمر بالحرب فى أكتوبر عام ١٩٥٦ وضاع ما ضاع فيها من أرواح ومن أرض».

(٤٩)

وفى موضع آخر يؤكد إبراهيم عبد الهادى على هذا المعنى مستنداً إلى عجز وزارة الوفد فى مفاوضاتها عن أن تصل إلى مثل ما وصلت إليه مصر فى معاهدة صدقى - بيفن:

«وها هى حكومة الأغلبية المطلقة التى أجرت مع الإنجليز المفاوضات، فماذا كانت النتيجة؟».

«الإخفاق التام مع الأسف!!».

«وأعدت حكومة الوفد الكتاب الأبيض عن سير المفاوضات، وفى هذا الكتاب يعرف الناس، إن أرادوا، كيف أن حكومة الأغلبية المطلقة انتهى بها الأمر أن طلبت من المفاوضين البريطانيين أن يوافقوا على مشروع صدقى - بيفن فلم يقبلوا».

(٥٠)

ونمضى مع مذكرات إبراهيم عبد الهادى إلى ما يرويه من تفصيلات مفاوضاته هو نفسه مع الجنرال البريطانى «سلم» فى أثناء رياسته للوزارة، وهى المفاوضات التى لم ينشر عنها الكثير، والسبب فى هذا تكتم إبراهيم عبد الهادى نفسه، ونحن نرى مما يرويه إبراهيم عبد الهادى أن الإنجليز كانوا لا يزالون حريصين على استبقاء قواتهم أو بعضها فى منطقة القناة، كما أنهم كانوا منذ البداية حريصين على اللجوء إلى السراى قبل الوزارة، وإلى إشراك الخبرات العسكرية بدلاً من السياسيين... إلخ، لكن إبراهيم عبد الهادى كان من الذكاء بحيث قفز على هذه التفصيلات ودخل إلى جوهر المفاوضة بأسرع ما يمكن، وسجل المواقف وانتهى إلى فهم استراتيجية البريطانيين على حقيقتها، وإن لم يوفق فى تحقيق أمله فى استخلاص حقوق بلاده:

«... فى هذه الفترة القاسية، حرب على الحدود، وحرب داخل الوطن من دعاة الفتنة المتربصين بالوطن، والحوادث تمسك برقبتى من كل ناحية، يجيئنى الأستاذ حسن يوسف وكيل الديوان الملكى إذ ذاك رسولاً من الملك يبلغنى أن المارشال «سلم» حضر إلى مصر للمفاوضة معى، فعجبت وسألت نفسى: وهل هذا هو الطريق السليم للمفاوضة؟ الحكومة البريطانية تتصل بالسراى أى بالملك والملك يتصل بى؟ أين إذن رئيس الوزراء؟».

«فى العادة يجرى هذا الاتصال عن طريق السفراء أولا، ثم الحكومة، فلا سفيرى

أبلغنى، ولا الخارجية المصرية تلقت رسالة منه ولا شيء من هذا، وجاءنى البلاغ من السراى».

«ومع ذلك قبلت لعلنى أستطيع أن أعمل عملا يفيد البلاد، وقلت لحسن يوسف يتفضل المارشال، وعملت عشاء بسيطًا فى سراى الزعفران لستة أشخاص فقط على قدر المدعوين مارشال سلم، والوزير المفوض بالسفارة، ووزير الخارجية، وحسن باشا يوسف، وحيدر باشا، وأنا».

«تقابلنا وتعارفنا، وبعد العشاء أبدى المارشال رغبته فى أن يجلس معى على انفراد، فدخلنا إحدى الحجرات وقال لى إنه جاء ليتفاهم معى على إنهاء الخلاف القائم بين إنجلترا ومصر ونتفق على وضع يؤمن علاقة بلدينا وسلامتهما».

«فقلت: كل تفاهم يحقق مصلحة مصر خير وبركة، ونبهته إذا لم يكن يذكر بأنى كنت وزيرا للخارجية عام ١٩٤٦ وسافرت إلى إنجلترا مع إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزارة المصرية للمفاوضة مع الحكومة البريطانية فى شأن القضية المصرية، وكان يتولى المفاوضة معنا مستر بيفن وزير الخارجية الذى مازال متوليا منصبه».

«قال: أعلم!».

«قلت: وقد انتهينا إلى مشروع وقع بالإمضاءات الأولى!».

«قال: أعلم».

«قلت: من هنا نبدأ!!».

«قال: لقد تغيرت الظروف، ثم ناولنى مذكرة من صفحة ونصف..».

(٥١)

ونأتى إلى الفقرة التى يصور بها إبراهيم عبد الهادى نجاحه فى إجهاض محاولة الإنجليز، فى أثناء المفاوضات، العمل على إرهاب حكومة مصر بالروس والمد الشيوعى، وهى الدعوى التى كانت قد أخذت ترفع فى وجه مصر وغيرها منذ ذلك الوقت، ويظهر مما يرويه إبراهيم عبد الهادى أن الإنجليز لم يكونوا يملكون قدرة على

نقض تقدير الموقف الواقعى الذى كانت تتبناه مصر والذى عبر عنه إبراهيم عبد الهادى نفسه بوضوح :

«قلت له : المذكرة ليست طويلة من الممكن الانتظار دقائق حتى أقرأها ، فلما قرأتها وجدت بها أن الروس قد يهاجمون المنطقة ، وأن هذا الوضع لابد أن يدخل فى تفكير المصريين وفى تقديم الاحتياطات التى نترتب عليها وفقا لهذه الخطة» .

«فقلت : الروس هم الروس من سنة ١٩٤٦ وما قبل ١٩٤٦ وإلى الآن ، وفى المستقبل ، وخطرهم هو هو ، وأسأل جناب المارشال بوصفه من كبار العسكريين كم تقدر للروس من الوقت للوصول إلينا إذا زحفوا ، مع ملاحظة أن تركيا حليفة وفى طريقهم والالتحام مع قواتهم لابد واقع ، وقواتكم ، وقواعدكم منتشرة فى حوض البحر المتوسط؟» .

«فقال : ستة أشهر» .

«فقلت : ألا ترى أنه من الأفضل لكم ولنا أن تسحب الجيوش البريطانية من مصر كلية كما كان متفقا عليه فى عام ١٩٤٦ حتى إذا وجد خطر حقيقى من جانب الروس كما تقررون أمكن أن تعودوا إلى مصر لمساعدتها فى الموقف الطارئ ، وحيث يطمئن المصريون إلى أنكم جئتم لتساعدوا ضد الغزو الروسى ثم ترجعون؟ ولكن إذا بقيتم باستمرار فلا يمكن أن يطمئن مصرى إلى أن الاحتلال قد انتهى؟» .

«قال : أهذا رأيك؟» .

«قلت : نعم ، وهو رأى المصريين جميعًا وليس رأيى وحدى ، ولا عجب!» .

(٥٢)

ثم ننتقل مع المذكرات إلى محاورة إبراهيم عبد الهادى والمارشال سليم حول فكرة إشراك العسكريين فى تقدير الوقت اللازم للانسحاب ومحاولة البريطانيين إعطاء دور أكبر للعسكريين فى المفاوضات ، وانتباه إبراهيم عبد الهادى إلى خطورة الإقرار بمثل هذا الوضع :

«قال: لعلك لا تدرى حجم القوات البريطانية الموجودة فى مصر؟».

«قلت: نسأل المختصين؟».

«قال: لا أحد من رجال الجيش عندكم على الإطلاق يعرف ما هى ولا حجمها، ومن أجل أن يكون الحكم سليمًا لعلك لا ترى مانعًا من انتداب مندوبين من طرفكم يعاينونها حتى إذا تكلمنا عن الزمن اللازم لنقلها من مصر أو إعادتها إليه يكون على علم».

«قلت: لا مانع لدى، بل إنى أرحب به مادام الأمر كذلك».

«وعلى هذا اتفقنا على أن يكون من جانبه مندوبون إنجليز ومن جانبى مندوبون مصريون للاطلاع على مخازن الجيش البريطانى كلها السرية والعلنية، وتقدير الزمن الكافى لنقلها».

«فقال: ولم لا نعهد ضمنًا إلى العسكريين أن يفصلوا فى هذه النقطة المعلقة بيننا؟».

«فقلت له: من الخير ألا يدخل العسكريون فى السياسة، أو على الأقل من ناحيتنا، فلهم مهامهم ومسئولياتهم، أما المسئولية السياسية فعلى الوزارة، ومن هنا فكل طرف منا يعتمد على بيانات مندوبيه».

«فأصر على وجود مندوبين عسكريين لأن أغلب المهمات عسكرية».

فقلت: اتفقنا على أن يكون الرأى النهائى للسياسيين فوافق واختار الجنرال الذى كان يرافقه رئيسًا للمجموعة التى اختارها ضابط يمثل القوات الأرضية، وضابط يمثل سلاح الطيران، وضابط يمثل سلاح البحرية».

«واخترنا من جانبنا ثلاثة: القائمقام حمدى هيبة، وكان من أفاضل رجال الجيش، وإبراهيم جزارين رحمة الله عليه وكان من أفاضل رجال الجيش خبرة.. أمينا.. ذكيا.. يستحق كل ثقة وكل تقدير، والصاغ البحرى عز الدين عاطف وكان الياور البحرى لجلالة الملك فاروق».

(٥٣)

ويلخص إبراهيم عبد الهادى ما انتهى إليه تقدير خبرائنا العسكريين الثلاثة للقوات

والمخازن، وللمناقشات التى دارت حول هذه المعدات والأسلحة وفكرة ائتمان المصريين عليها أو استبقائها فى أيدى خبراء بريطانيين يلبسون ملابس مدنية:

«. . . واجتمعت اللجنة المشتركة وقامت بزيارات ميدانية لمخازن القوات البريطانية فى الإسماعيلية وفايد والتل الكبير، فإذا هى مدائن تحت الأرض تحوى معدات خيالية مدنية وعسكرية من إبرة الخياطة والدبابات والسيارات المصفحة والصواريخ ومعدات حربية إلكترونية لا تخطر على البال وقتها، ومن المواد الغذائية المحفوظة كميات ضخمة من اللحوم والسمك والمربى والجبن، كل شىء يمكن أن يمر على خيال المتخيل، وقد انكشفت هذه المعدات الهائلة عندما استولى عليها المصريون بعد حرب ١٩٥٦ واعتبروها غنيمة حرب».

«وحقيقة كانت معدات ومهمات عسكرية ومدنية تأخذ وقتًا غير قليل لتشوينها ونقلها».

«فعاطف قال: إن الجماعة بتوع البحرية يحتاجوا لأسبوعين فقط!».

«وجزارين قال: إن جماعة الطيران يحتاجون لمدة أقل أظنه قال عشرة أيام!».

«وأما هيبة قال: إن المعدات والمهمات الأخرى فإنها تحتاج إلى ستة أشهر».

«أما الجنرال البريطانى فإنه وضع برنامجًا زمنيًا وقال كلامًا مخالفًا لكل ما قاله خبراؤنا، كلام مَنْ يريد أن يماطل ومَنْ لا ينوى التحرك من مكانه!».

«وضع خبراؤنا تقريرهم وحددوا المدة التى أشرت إليها، ووضع الخبراء الإنجليز تقريرهم وهو يخالف تمام المخالفة تقرير خبرائنا».

«واجتمعت مع المارشال سليم للمناقشة لعلنا نصل إلى حل معقول، فأصر المارشال على رأى خبرائه».

«فقلت له: إحنا مش حنكون حلفاء؟».

«قال: نعم!!».

«قلت: طيب مادام الأمر كذلك ألا نؤتمن كحلفاء على هذه المعدات والمهمات؟».

«فقال: لا . . لابد من أن تكون فى أيدى خبرائنا العسكريين، لأن بها معدات إلكترونية معقدة وتحتاج إلى صيانة دائمة، ورجالكم لا يعرفون شيئًا عنها، ولا مانع لدينا أن يبقى هؤلاء العسكريون بملابس مدنية، كما أنه توجد أسلحة سرية لا يجب أن يطلع عليها أحد غيرنا حتى لا تعرف أسرارنا حتى لا تتسرب إلى الأعداء، وعاد وكرر قوله بأن يبقى خبراؤهم العسكريون فى مصر بالملابس المدنية».

«فقلت: هذا كلام فرغنا منه فى معاهدة ١٩٤٦ عندما وضعنا مشروع المعاهدة الجديد فى لندن ووقعه مستر بيفن وزير خارجيتكم، وأنا كنت مع رئيس الوزراء حينئذ».

«فعاد وقال: فيه أسلحة لا نأتمن عليها غير رجالنا».

«قلت: كيف نكون حلفاء ولا نؤتمن على هذه الأسلحة (التى) ستستخدم لصالحنا عند الخطر؟».

«ولما أصر على رأيه قلت: طيب انقلوا هذه الأسلحة وخلوا (اتركوا) الأسلحة والمعدات الأخرى».

«وفى هذه المحاورة والمناورة أيقنت تمامًا أنهم ينتهزون الفرصة، وقد جاءت الساعة المناسبة، اعتقدوا أننى رئيس وزراء متورط فى حرب فلسطين، وخايف على نفسى من القتل لأن الإخوان المسلمين يتربصون لى».

«فقالوا هذه هى الفرصة التى يمكن أن يوقع فيها المعاهدة التى نريدها ويسلم البضاعة».

«فكان ردى الوحيد بعد أن أحسست ذلك منهم ليس عندى حركة ولا كلام إلا ما ذكرت، أى على الأساس الذى قلته لكم، لا داعى لتضييع الوقت».

(٥٤)

ثم يلخص إبراهيم عبد الهادى وجهة نظره فى هذه المفاوضات مبديًا أسفه الشديد أنه لم يترك الصحف تتحدث بما فعل فى ذلك الحين، وذلك لأنه اكتشف الحقيقة بعد سنوات وهى أن أحدًا لم يعرف حقيقة الدور الذى قام به فى ذلك الوقت، وذلك

بسبب قسوته على نفسه فى إنكار الجهد الكبير الذى تولاه والذى لم يتحدث عنه، بل منع الحديث عنه من أجل الأمل فى الوصول إلى حل مشرف لمصر متأثرًا فى هذا بما تسببت عنه أحاديث الصحافة من فشل معاهدة صدقى - بيفن:

« . . . لقد جرى هذا الكلام ولم يظهر له أى أثر فى الصحافة، ولم يكتب صحفى واحد كلمة!».

«لقد كنا أشداء على أنفسنا، حرصنا على أموال البلد، كان فيه تجاوز كثير، أعترف بهذا الآن. كنت أكره الرشوة، الصحافة كانت مع الأسف لا تكتب شيئًا لله أبدًا».

«قسوتنا على أنفسنا من ناحية الخلق كان صوابا، ولكن من الناحية السياسية كان خطأ، وخطأ فادحًا فادحًا!».

(٥٥)

ونصل إلى ثامن الموضوعات المهمة فى هذه المذكرات، وهو انشقاق السعديين على الوفد، ولا تتضمن مذكرات إبراهيم عبد الهادى كثيرًا من التفصيلات حول خلافات الوفد مع السعديين، ويبدو أنه لم يكن يؤمن بأن خصومة الفريقين تستحق ما استدعته من خلافات، وقد كان إبراهيم عبد الهادى أحد أقطاب هذا الانشقاق.

ومن العجيب أن إبراهيم عبد الهادى ينجو بنفسه عن أن يحصر نفسه ومكانته فى الحزب السعدى من خلال هذا الانشقاق، وإنما هو يتناوله تناولاً غير مباشر مركزًا على سياسات السعديين وتوجهاتهم فيما بعد هذا الانشقاق.

ويحرص إبراهيم عبد الهادى، وهذا من حقه بالطبع، على أن يصور أن انشقاق السعديين عن الوفد كان له أثر كبير على حزب الوفد نفسه وعلى شعبيته فى الشارع السياسى، وهو يدلل على وجهة نظره هذه بالحديث عن انفضاض فرق القمصان الزرقاء، وعن نجاح مرشح غير وفدى لمنصب نقيب المحامين فى أول استثناء للقاعدة التى جرت منذ ١٩٢١:

« . . . وفى صبيحة اليوم التالى الذى تألفت فيه الوزارة لم يبق أثر لفرق القمصان الزرقاء التى ألفها الوفد استعدادًا ليوم الكريهة، وكأنها فص ملح وداب كما يقول المثل

العامى، وأصبحت الأماكن التى كانت تعسكر فيها وتتدرب قد زالت نهائيًا ولم يبق لهم أثر».

«وفى يوم الجمعة عقب تأليف الوزارة الجديدة مباشرة كان موعد اجتماع الجمعية العمومية لنقابة المحامين بدار محكمة الاستئناف بباب الخلق (ميدان أحمد ماهر حاليًا) لانتخاب أعضاء يحلون محل مَنْ انتهت مدتهم، ولانتخاب نقيب المحامين أيضًا».

«وحرص جميع المحامين بالقاهرة، وأنا من بينهم، على الذهاب إلى مقر الانتخاب، كما حرص أكثر محامى الأقاليم على الحضور كذلك فكانت معركة عنيفة، وتم الانتخاب ونجح محمد على علوبة باشا نقيبًا للمحامين».

«وكانت أول مرة فى تاريخ مصر، منذ نشب الخلاف بين سعد زغلول وعدلى يكن عام ١٩٢١، ينجح مرشح للنقيب غير وفدى، فكان لهذه النتيجة أثر كبير إن دل على شىء فإنما يدل على انصراف الرأى العام عن الوفد إلى حد كبير، خصوصًا الطبقة المتعلمة والمثقفة، وقد جرت انتخابات المحامين فى نزاهة دون تدخل من أحد المسئولين فيها».

(٥٦)

ويتصل برأى إبراهيم عبد الهادى فى انشقاق السعديين رأيه فى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، ولا يخرج رأى إبراهيم عبد الهادى فى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ عن مجمل رأى المنصفين من الساسة المصريين، فهو يرى أن النحاس لم يصدر قراره إلا عن مشاورة لكبار الوفديين، كما أنه يسند التصرفات المتعددة التى قامت بها بعض الجماهير الوفدية إلى مسئولى اللجان الوفدية، ويجزم بأن النحاس كان مستاء لهذه التصرفات، لكن الأمر كان قد خرج من يده:

«. . . . أنا لم أشك أبدًا فى وطنية مصطفى النحاس باشا فى يوم من الأيام، ولكن الرجل قد أحاطت به مجموعة أثرت عليه وكان قد تجاوز السبعين من عمره، فأصبح سهل الانقياد، ومع ذلك جمع كبار الوفديين الذين سيختارهم وزراء معه وأبلغهم كل ما حدث وأنه على استعداد أن ينزل على رأيهم إذا رأوا اتجاهًا جديدًا غير ذلك يواجهون به الموقف».

«فرأى المتجمعون أن يتبادلوا مع السفارة البريطانية كتبًا (أى رسائل . . والمذكرات تستخدم اللفظ الصائب الذى لم يعد يحظى بالتكرار فى ظل طغيان اللفظ الذى يستخدم من باب التجاوز وهو الخطابات) يصرحون فيها بأن الإنجليز لا يتدخلون فى شئون مصر الداخلية، فاجتمع مكرم باشا بالسفير ووضعا صيغة خطابين اتفقا عليهما، وانتهى الأمر وتشكلت الوزارة من ثمانية وزراء».

«وذهب النحاس باشا إلى مكتبه برياسة الوزراء بلاظوغلى فاستقبلته المظاهرات أعظم استقبال، وكأن شيئًا مما حدث فى عابدين لم يحدث!!».

«وذهب السفير البريطانى ليهنئ رئيس الوزراء بمنصبه فحمله نفر من المتظاهرين الأشداء على أكتافهم، وكان السفير البريطانى ضخم الجثة، طويل القامة، ودخلوا به مجلس الوزراء على هذه الصورة المخزية».

«وتصادف أن كان النحاس باشا يخطب المظاهرات التى جاءت تحييه من شرفة مكتبه بالدور العلوى، فشاهد ما حدث، وقد علمت ممن لا أشك فى صدق قوله أنه استاء كثيراً ولكنه ماذا يفعل مع الجماهير الغوغائية والهتافة المرتزقة المدفوعة بترتيب مسبق من لجان الوفد؟!».

«ولم يكتف المنظمون لهذه المظاهرات بتحيتهم للرئيس وحمل السفير على أكتافهم، بل وجهتهم إلى مناطق السفارات يهتفون بحياة النحاس باشا والسفير البريطانى، مما أثار دهشتهم وعجبهم من أن تنقلب المأساة عيدًا».

«وقد استاءت الجماهير الواعية وضباط الجيش من هذا التصرف الأحمق، حتى إن الضابط محمد نجيب الذى رأس أول جمهورية مصرية بعد حركة الجيش قدم استقالته احتجاجًا على تصرف الإنجليز».

(٥٧)

ومع ما أشرنا إليه من عدم اهتمام إبراهيم عبد الهادى بالحديث عن الخلافات بين الوفد والسعديين، فإننا نراه يروى باهتمام كبير قصة الخلاف الحاد الذى وقع حول

استقالة رئيس ديوان المحاسبة وما أدى إليه تتابع الأحداث بعد ذلك من إقالته هو نفسه من مجلس الشيوخ :

« . . . وتوقع بعض رجال المعارضة أن حكومة الوفد لن تبر بوعودها التى جاءت على لسانها فى خطاب العرش ، وكنت واحداً منهم ، وفعلا صدق ما توقعناه فوضع مجلس الوزراء مشروع قانون بإلغاء المرسوم بقانون الذى أصدرته حكومة الدكتور أحمد ماهر باشا فى سنة ١٩٤٥ وألغت به الاستثناءات التى أجراها النحاس باشا فى حكومة ٤ فبراير » .

«وعندما عرض هذا المشروع وقدم إلى اللجنة المالية بمجلس الشيوخ اعترضت عليه لأن الاستثناء من حق مجلس الوزراء وليس من الناحية القانونية عرضه على البرلمان فاعتبرت الحكومة موقف اللجنة المالية تحديًا لها وبدأت الحكومة والمعارضة تقف كل منهما على حذر من الأخرى إلى أن استقال محمود محمد محمود من رئاسة ديوان المحاسبة ، وعلى إثرها قدم الأستاذ مصطفى بك مرعى عضو الشيوخ سؤالاً إلى رئيس مجلس الوزراء يسأله عن سبب استقالة الأستاذ محمود محمد محمود رئيس ديوان المحاسبة ، وأجاب رئيس الوزراء إجابة لم ترض هذه الإجابة مصطفى بك مرعى ، فحول سؤاله إلى استجواب» .

«ولما عرض الاستجواب تكلم مصطفى بك مرعى طويلاً بعرضه السليم ومنطقه الواضح ، ولم يخل كلامه من العنف والشدة» .

«وفى الجلسة التالية رد على الاستجواب فؤاد باشا سراج الدين نائبًا عن رئيس الوزراء بعنف وقسوة ، ودافع دفاعًا حاراً عن كريم ثابت وغيره من رجال السراى الذين تناولهم الاستجواب ، وكان موقفًا سيئًا جداً من فؤاد سراج الدين» .

«ولم يحضر مصطفى بك مرعى هذه الجلسة لأنه سافر إلى الإسكندرية ليبحر إلى أوروبا فى يوم السبت ، وقد تبنى الاستجواب الدكتور إبراهيم بيومى مدكور رئيس المجمع اللغوى فيما بعد» .

(٥٨)

ويلخص إبراهيم عبد الهادى بعض الآراء التى أبداها مصطفى مرعى فى استجوابه

وحذر فيها الحكومة من تجاوز ما أشار إليه تقرير ديوان المحاسبة ومن تجاوز الدور المهم الذى يقوم به ديوان المحاسبة من أجل الوطن، ومن أجل الحكومة نفسها:

« . . . وكلام الأستاذ مصطفى مرعى عن المخالفات التى جرت كان واضحًا كشف فيه النقاب عن فضائح يندى لها الجبين كاستيلاء كريم ثابت مستشار الملك الصحفى على خمسة آلاف جنيه عمولة من أموال جمعية المواساة بالإسكندرية، وتوريد أسلحة فاسدة للجيش عن طريق «رودى أبو رجيلة»، وصلته المشبوهة برجال السراى وادمون جهلان وغيرهما».

«وعلى الرغم من تأليف لجنة للتحقيق بناء على رغبة وكيل وزارة الحربية فى ذلك الحين لتحديد المسئولية فى المخالفات التى وقعت وأساءت إلى رجال القوات المسلحة أبلغ الإساءة، وتعقيب وكيل الوزارة على قرار مجلس التحقيق بأن المبررات التى استند إليها المجلس لا تعفى المسئولين من المؤاخذة».

«فقد أبلغ ديوان المحاسبة وزير الدفاع فى حكومة النحاس باشا فى أول حكمها بكتاب قال فيه: «ولعل معاليكم توافقوننا مبدئيًا على أن إجراءات تشكيل مجلس التحقيق لم تتم على الوجه الذى يلائم طبيعة مهمته، وكان محتملاً أن يمتد عمله إلى بحث موقف قائد عام السلاح نفسه فى الموضوع، وهو الاحتمال الذى ووجه به المجلس بالفعل، حيث جاء على لسان كبير مهندسى السلاح أنه لفت شفويًا، وفى الوقت المناسب، نظر القائد العام إلى تجاوز السلاح للاعتماد المخصص للإصلاحات دون الرجوع للوزارة أو لجنة الاحتياجات، كما أن الكثيرين ممن سمعوا فى التحقيق عزوا إلى القائد العام إصدار الأوامر المتعلقة بالمخالفات التى حققها المجلس».

«وقال مصطفى مرعى فى استجوابه: إن رئيس الديوان فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٩ ثم فى ١٩ يناير سنة ١٩٥١ ثم فى ٤ مارس سنة ١٩٥١ يقول: «مكنونى من أن أرى التحقيق لأنهم قالوا إن هناك تحقيقًا أجرته الوزارة. إن رئيس الديوان يريد أن يطلع على التحقيق، ويهمه أن يطلع ليطمئن على الأقل، ولكن لا أثر لهذا التحقيق، فيرسل خطاب استعجال ويتبعه بآخر ثم ثالث إلى أن يستقيل الرجل ولا يُرسل إليه رد».

«إن أردتم يا حضرات الشيوخ أن يكون ديوان المحاسبة عينكم الساهرة على ميزانية الدولة دخلاً وصرفًا، فظاهروه وعضدوه وساندوه ولا تتركوا رؤساء هذا الديوان يتساقطون كما تتساقط أوراق الخريف واحدة تلو أخرى».

«قلت: إن مصطفى مرعى بعد أن عرض استجوابه سافر إلى الإسكندرية ليبحر منها إلى الخارج، والواقع أنه حدث كلام كثير ولغط أكثر حول سفر مصطفى مرعى قبل أن يباشر استجوابه والرد عليه، وقد كان لديه فسحة من الوقت للسفر الذى حدده يوم السبت».

«قيل إنه نما إليه بأنه قد يتعرض للاعتداء على حياته فى هذه الفترة من الحرس الحديدى أو غيره لهذا عجل بالسفر».

(٥٩)

كذلك يلخص إبراهيم عبد الهادى ما يصفه بأنه مغالطات ودفاع مرتب قام به فؤاد سراج الدين بالنيابة عن وزارة الوفد، وكان دافعه، فى ذلك، الحرص على بقاء وزارة الوفد فى الحكم بعدم إغضاب الملك والحاشية:

«. . . وفى اليوم التالى لسفر مصطفى بك مرعى رد فؤاد سراج الدين على الاستجواب بالنيابة عن رئيس الحكومة فدافع دفاعا حارا عن موضوع مستشفى المواساة خارجا عن الموضوع، وأن ما جرى حدث فى غير وزارة الوفد، بل جرى فى عهد الحكومات السابقة، وأن حكومة الوفد لم تكن هى المسئولة عن هذه التصرفات، وأنه توجد آلاف المكاتبات من ديوان المحاسبة لم يرد عليها رد من سنوات طويلة».

«وللأسف كان الرد كله مجموعة من المغالطات والدفاع المرتب عن أسلحة الجيش الفاسدة، وعن كريم ثابت المستشار الصحفى للملك السابق فاروق، لأن المسئولية تبدأ حين العلم بها».

«وليسأل سائل عن الأسباب التى أدت إلى أن تقوم الحكومة بهذا الدفاع ولا تقدم المرتكبين لها للتحقيق، فإن ظهرت براءتهم فيها ونعمت، وإن ثبتت الإدانة قدموا للمحاكمة، وتكون الحكومة قد أدت واجبها وكفى الله المؤمنين القتال».

«ولكن حكومة الوفد رأت أن هذا هو السبيل الوحيد لاستمرارها وتتجنب السوابق السابقة فى الإقالة من الحكم».

ويصل إبراهيم عبد الهادى إلى تلخيص رد الدكتور إبراهيم مدكور وإلى بلورة ما انتهت إليه مناقشات الشيوخ من رفض فكرة الانتقال إلى جدول الأعمال والتفكير فى تشكيل لجنة للتحقيق، وهو ما صرح فؤاد سراج الدين برفضه، وتحول المناقشة إلى البحث فى دستورية تشكيل لجنة للتحقيق فى الموضوع.

ويبدو إبراهيم عبد الهادى فى كل ما يرويه أقرب إلى الحياد بحكم ثقته فى صواب حكمه هو والذين أبدوا ضجرهم من تصرفات كريم ثابت والحاشية:

«. . . وكان رد الدكتور إبراهيم مدكور على فؤاد باشا سراج الدين فى غاية السلامة والوضوح من أن الحكومة لو أنها أرادت أن تؤدى واجبها المفروض لأعلنت صراحة بأنها سوف تحقق هذه المخالفات الخطيرة وتقدم المسئولين، إن وجدت مسئولية، إلى المحاكمة، وبذلك تقطع الطريق على الدعايات الضارة التى تبلبل الأفكار، وتسمم الجو بما يترك أسوأ الآثار فى النفوس».

«وانتهى رأى مجلس الشيوخ بعد مناقشات طويلة أدلت المعارضة فيها برأيها وأدلت الحكومة وشيوخها المؤيدون لها برأيهم إلى تقديم اقتراحين أحدهما وهو الأول بتأليف لجنة من بعض الشيوخ للتحقيق، والثانى بالانتقال إلى جدول الأعمال وأخذ الرأى بالنداء بالاسم على الاقتراح الثانى، فوافق عليه ٢٨ عضواً ورفضه ٥٦ عضواً وامتنع اثنان عن إبداء رأيهما».

«ولكن فؤاد سراج الدين باشا عارض الرأى القائل بتأليف لجنة التحقيق وأبدى أسفه لأن العوامل الشخصية هى المسيطرة على سير المناقشات، وبذلك فقد الاستجواب عنصره الأساسى».

«وتساءل عن الغرض الذى يراد من هذه اللجنة؟ أهو التحقيق فى كيفية صرف مستشفى المواساة هذا المبلغ؟ وهل قدمت خدمات مقابل هذا المبلغ؟ وهل هذه الخدمات تعادل هذا المبلغ أو تزيد عليه أو تقل عنه؟؟».

«وكذلك البحث فى نفقات حملة فلسطين بصفة عامة لمعرفة مدى احترام القائمين عليها للوائح الحكومة وقوانينها، و أصول الصرف، وأفاض فؤاد باشا فى شرح

وجهة نظره هذه، وهى لا تخرج عن أن تأليف لجنة للتحقيق تصرف غير دستورى وغير لائق بالعرف والتقاليد، وأن القصد منها أنها مناورة مكشوفة مفضوحة من المعارضة».

«وجرى حديث طويل حول إحالة الاقتراح بتأليف لجنة للتحقيق إلى لجنة الشئون الدستورية لتنظره على وجه الاستعجال، فوافق مَنْ وافق وعارض مَنْ عارض، وقد كنت من الذين وافقوا على إحالة هذا الاقتراح إلى لجنة الشئون الدستورية».

(٦١)

ويلقى إبراهيم عبد الهادى بعض الضوء على ما تنامى إلى سمعه عن الترتيب للانقلاب الدستورى الذى حدث عقب هذه الأزمة ؟ واقتضى تعديل نسب الأحزاب فى مجلس الشيوخ عن طريق إخراج الشيوخ الذين عينوا بمرسوم يناير ١٩٤٥ وتعيين شيوخ آخرين مكانهم، وقد كانت هذه الحلقة هى آخر ملفات المعركة التى دارت سجالا حول هذا التعيين، وأشرنا إليها أكثر من موضع من كتبنا والمذكرات التى تدارسناها :

«. . . . ولم تمض أيام قلائل حتى فوجئت البلاد بأخطر انقلاب دستورى يواجه حياتها ويهز كيانها، فقد استصدرت الحكومة مرسومًا بإخراج الشيوخ الذين عينوا بمرسوم يناير سنة ١٩٤٥، ومرسومًا آخر بتعيين على زكى العرابى باشا رئيسًا للشيوخ، ومرسومًا ثالثًا بتعيين شيوخ جدد مكان الذين أخرجوا».

«وقد علمت بأن اجتماعًا عقد بالمعادى حضره ادجار جلاد وكريم ثابت وآخرون وتحدثوا فيه عن المراسيم الثلاثة قبل صدورها، وأنها ستصدر بعد أيام قلائل بإخراج إبراهيم عبد الهادى والدكتور محمد حسين هيكل باشا وآخرين من المجلس والقضاء على مستقبلهم السياسى».

«وبدأت مع مجموعة من زملائى نفكر فيما ينبغى أن نقوم به إزاء هذا العمل، فالسكوت عليه يعد جريمة وطنية، بل أكثر من هذا فهو خيانة للوطن».

(٦٢)

ويشير إبراهيم عبد الهادى باعتزاز إلى الدور الذى لعبه هو ورئيسا الحزبين الدستورى والوطنى: هيكل باشا وحافظ رمضان باشا من أجل محاولة إبطال هذه المراسيم، وكيف باءت محاولتهم هذه بالفشل بسبب أداء وكيل مجلس الشيوخ حسين الجندى بصوته الجهورى وحرصه على مقاطعة المتحدثين:

«. . . تداولت مع هيكل باشا رئيس الأحرار الدستوريين والتقينا بعدد من رجال المعارضة واستعرضنا الكثير من الحلول التى ينبغى علينا عملها، واستقر الرأى على أن نقدم مشروع قرار بعدم دستورية المراسيم الثلاثة، وأن نطلب مناقشته فوراً فى الجلسة التى يقدم فيها».

«ونزولاً على نصوص اللائحة الداخلية للمجلس قدم حافظ رمضان باشا مشروع القرار، وتقدم عشرة من الأعضاء بمناقشته فوراً فى الجلسة، وأرسل مشروع القرار زكى العزبى باشا رئيس المجلس بحكم المراسيم الثلاثة، واستعد حافظ رمضان باشا ليشرح فكرتنا فى بطلان المراسيم الثلاثة مستمداً حجيته من الدستور ومن رأى زكى العرابى باشا السابق بأن مثل هذه المراسيم مهزلة».

«وجاءت الجلسة ودخلنا قاعتها فإذا الذى يتولى رياسة الجلسة الأستاذ حسين الجندى وكيل المجلس وصاحب الفتوى الشهيرة بأن الملكة نازلى والدة الملك فاروق من نسل النبى صلى الله عليه وسلم، وهو رجل لا يمكن وصفه إلا بما يتفق مع هذه الفتوى الشاذة».

«ووجدنا على زكى العرابى باشا يجلس مع الوزراء حتى يتحاشى ما يثار حول هذه المسألة الدستورية الخطيرة التى سبق أن وصفها برأى مسجل، وهو رجل قانونى، بأنها مهزلة دستورية».

«واستطاع الأستاذ حسين الجندى بصوته الجهورى أن يصيح ولا يسمح لأحد بأن يقول كلمة واحدة، وشاركه فى هذه الجريمة الأعضاء الوفديون الذين كانوا بالمجلس، مما استحال على حافظ باشا رمضان أو أى أحد من رجال المعارضة أن يقول كلمة يمكن إثباتها فى مضبطة المجلس».

«وأرسلنا خطابًا إلى رئيس الجلسة أثبتنا فيه تصرفه وتصرف أعضاء الحكومة والشيوخ الوفديين الحاضرين، وطلبنا إثباته فى المضبطة فرفض بحجة أنه لا يثبت بالمضبطة إلا ما قيل فى الجلسة، ولكن الصحف جميعها نشرت خطابنا وعلقت عليه».

(٦٣)

ونأتى إلى الموضوع التاسع من الموضوعات التى تتناولها هذه المذكرات بتجويد وتعمق، وهو أداء الزعامات الحزبية فى الحقبة الليبرالية، وطبيعة ممارسة السياسيين الكبار لأدوارهم فى الحقبة الليبرالية قبل الثورة، وكيف كان الزعماء السياسيون ملتزمين بدرجات عليا من الأخلاق المتينة، وعزة النفس:

وعلى سبيل المثال فإن إبراهيم عبد الهادى يحرص على أن يقدم تفصيلات دقيقة عن الخلاف الذى نشب فى أثناء وزارة محمد محمود بين أحمد ماهر باشا رئيس الحزب السعدى، وبين سابا حبشى باشا الوزير السعدى، وكيف كان أحمد ماهر حريصًا على الديمقراطية الحقة فى إدارته لهذا الخلاف، وذلك على الرغم من استهجان محمد محمود رئيس الوزراء لسلوك سابا حبشى، والخلاف مشهور فى الأدبيات التى تتحدث عن تاريخ هذه الفترة، ويعود سببه إلى رغبة أحمد ماهر فى دعم شركة «البوستة الخديوية» من موازنة الدولة، على حين كان سابا حبشى يعارض فى هذا الدعم، ويبدو إبراهيم عبد الهادى حريصًا على أن ينقل تفصيلات هذا الخلاف مما رواه الدكتور هيكل باشا فى مذكراته، ومعه حق كبير فى هذا، فقد كان الدكتور هيكل أحد شهود هذه الوقائع، وقد صاغ روايتها بطريقة دقيقة وجذابة:

«... وعرض الدكتور أحمد ماهر وزير المالية منح شركة البوستة الخديوية إعانة مالية قدرها ١٠٠ ألف جنيه باعتبارها شركة مصرية، فاعترض بعض الوزراء بأنها شركة ليست مصرية، وإنما هى شركة إنجليزية بالفعل تتستر وراء اسم عبود باشا، وإن كانت مصرية قانونًا، فدافع أحمد ماهر على هذا الاعتراض بأن هذه الشركة تمصرت بالفعل، كما أنها مصرية بالقانون».

«وحتى تظهر الحقيقة كاملة عهد مجلس الوزراء إلى الأستاذ سابا حبشى بك وزير التجارة والصناعة أن يبحث الموضوع ويعرض النتيجة على المجلس، فنفذ ما طلب منه وعرض النتيجة على المجلس، وفيها أن الشركة ليست مصرية وإن اتسمت بظاهر مصريتها وأنها لذلك لا تستحق المعاونة، فرد عليه الدكتور أحمد ماهر يفند حججه ويؤيد مصرية الشركة».

«واشترك بعض الوزراء فى المناقشة، ثم طرح رئيس مجلس الوزراء الموضوع للتصويت فحاز الدكتور ماهر رأى الأغلبية فقام سابا بك (وهو وزير سعدى) وقدم استقالته إلى رئيس الوزارة على ورقة صغيرة، فقال محمد محمود باشا فى دهشة واضحة: «سابا بك يقدم استقالته من الوزارة!».

«فأسرع الدكتور أحمد ماهر وطلب تأجيل الموضوع حتى يعيد سابا بك دراسته للموضوع من جديد على ضوء الحجج التى أبديت ويزنها فى هدوء».

««فأجل المجلس نظر الموضوع لأن صاحبه هو الذى طلب ذلك».

«وسافر الدكتور هيكل بعدها إلى أسوان، كما سافر سابا بك كذلك، وفى أثناء لقائهما تحدثا فى موضوع إعانة شركة البوستة الخديوية فقال الدكتور هيكل لسابا بك: «رأيتك متحمسًا لرأيك إلى حد الاستقالة، والدكتور ماهر متحمس لرأيه كذلك، فما قولك أن يقرر مجلس الوزراء إحالة الموضوع إلى لجنة القضايا لتدرسه وتشير برأيها على المجلس، فإن أيدت رأيك رفضت الإعانة، وإن أيدت رأى الدكتور ماهر منحناها ثم لا يكون عليك ولا عليه غضاضة، ولا يتعرض مجلس الوزراء لمقالة المتقولين عند الرأى العام؟» فوافق».

«فلما عاد هيكل باشا إلى مصر ذهب إلى رياسة مجلس الوزراء وتحدث إلى محمد محمود باشا فيما اتفق عليه مع سابا بك، فإذا كانت مسألة الإعانة ستنظر غدا أمام مجلس الوزراء طلب إلى المجلس إحالة الموضوع إلى رئيس لجنة القضايا عبد الحميد باشا بدوى، فأجاب محمد باشا متجهمًا كما ذكر هيكل باشا وقال: «كلا لابد من الفصل فى الموضوع، وليفعل سابا بك ما يشاء، إننى لا أقر طريقته فى الجلسة الماضية بحال».

«فقال الدكتور هيكل : ولكن الأمر هذا بينه وبين رئيس حزبه الدكتور أحمد ماهر باشا» .

«قال : «ولو . . إذ ما كان له أن يواجه ماهر باشا بمثل ما واجهه به ، فالدكتور ماهر ليس رئيس حزبه وكفى ، بل هو رجل تفاخر به أية أمة يكون وزيراً فيها ، وعلى أية حال لابد من الفصل فى الموضوع غداً» .

«وفى أثناء هذا الحديث حضر الدكتور أحمد ماهر ، فقال محمد محمود باشا : قل له ياهيكل باشا ما جئت تعرضه علىّ . . فقال هيكل : إنه اتفق مع وزير التجارة على إحالة إعانة البوستة الخديوية على بدوى باشا ، ورد أحمد ماهر باشا : «هذا أحسن حل للموضوع ، وأنا موافق عليه تمام الموافقة» .

«وقال محمد باشا : «مادام الأمر كذلك فسنحيل الموضوع غداً إلى رئيس قلم القضايا» .

«وأحيل الموضوع إلى بدوى باشا وبقى عنده إلى أن استقالت الوزارة» .

. . . .

ثم يعقب إبراهيم عبد الهادى على هذه القصة تعقيبًا طبيعيًا وذا مغزى ، وهو يقول :

« . . . من هنا تبين للقارئ أن مجلس الوزراء فى الماضى لم يكن مجلس «طراطير» ، وإنما كانوا رجالاً مخلصين فى خدمة بلادهم ، ينظرون إلى المصلحة العامة ولا يتقيدون برأى فيه مجاملة لأحد منهم على أساس أن يجامل أحدهم مرة فيرد الآخر له لجميل فى مناسبة أخرى . . . . . وهكذا» .

(٦٤)

ويقدم إبراهيم عبد الهادى فى هذه المذكرات نموذجًا فريدًا يبين عن مدى قدرة الوزير السياسى ورئيس الوزراء على مواجهة المشكلات المفتعلة التى يدبرها بعض رجال الأعمال ويلوون بها ذراع الحكومات المتعاقبة ، ونحن نرى فيما يرويه إبراهيم

عبدالهادى مثلاً حيًا على الدور الحاكم والذكى الذى يمكن للوزراء الأذكياء أن يلعبوه بالحسم والوضوح واستغلال سلطاتهم من أجل مصلحة الجماهير :

« . . . سألنى الكثيرون عن موقف عبود باشا منى وسعيه للإطاحة بحكمى ، وأنه دفع مبلغ مليون جنيه بمعاونة إلياس أندراوس باشا وكريم ثابت باشا للملك فاروق للإطاحة بى» .

«ورددت على ذلك أنه لم تكن لدى بيانات رسمية ولكن لا يوجد دخان بغير نار كما يقول المثل ، وقد قيل كلام كثير فى هذا الموضوع يؤكد هذا المعنى ، المهم أنه فى أيامى لا كان يوجد عبود أو غير عبود يستطيع أن يحقق شيئًا لحسابه على حساب الوطن ، ولو كان عبد الحميد عبد الحق حيًا لروى لكم ما حدث عندما أراد عبود باشا أن يحقق أغراضه» .

«وقد حدث أن شح السكر فى البلاد وفى القاهرة بالذات ، ورتب الوفديون مظاهرة ضد عبد الحميد عبد الحق وزير التموين عندما ذهب لمشاهدة أحد الأفلام المصرية فى سينما ستوديو مصر وأعلن عن ذهاب الوزير قبلها بيوم أو يومين ، فلما ذهب عبد الحميد باشا رحمة الله عليه إلى السينما واجهه المتظاهرون بالهتاف : أين السكر ياوزير التموين؟» .

«واستمر الهتاف العدائى داخل السينما وخارجها ، فخرج عبد الحميد باشا من السينما وذهب إلى وزارة التموين واستدعى محمود زكى وكيل الوزارة ومدير مكتبه وكبار الموظفين من منازلهم ، وطلب منهم استدعاء عبود باشا فوراً فوجدوه فى كلوب محمد على بالإسكندرية ، فلما طالبوه بالحضور فوراً اعتذر لعدم وجود طائرة فى ذلك الوقت ، فاتفق معه على أن يكون بالقاهرة فى مكتب الوزير الساعة الثامنة صباحًا على الأكثر» .

«حضر عبود الساعة التاسعة صباحًا وقابل عبد الحميد باشا الذى سأله : إزاى دا يحصل ، إنه لا يوجد سكر فى القاهرة وفى غيرها؟ هو ما فيش سكر؟!» .

«قال عبود : السكر موجود كثيراً ، لكن أعمل إيه؟ فقال له عبد الحميد : إذا لم

ينزل السكر فى القاهرة وفى جميع أنحاء البلاد حالاً فسأسجنك. . . أنت فاهم، ولا مناقشة، امشى اخرج بره وإلا أمرت بالقبض عليك».

«جاءنى عبود باشا فى الحال ودخل مكتبى والدموع فى عينيه، قلت له: خيراً».

«قال: يرضيك أن عبد الحميد عبد الحق يطردنى من مكتبه ويهددنى بالقبض علىّ ويسجنى؟!».

«وما السبب الذى من أجله قال لك هذا؟!».

«بسبب عدم وجود سكر بالقاهرة والأقاليم، وما ذنبى فى هذا والسكر مشون بالأطنان فى المصانع ولا نجد قطارات تنقله، والسبب فى ذلك مصلحة السكك الحديدية ؟!».

«فاتصلت فى الحال بعبد الحميد باشا بدر الله يرحمه ورويت له ما سمعت من عبود، فدهش وقال: ليس عندى خبر بهذا، وسأصدر الأمر فى الحال بتدبير أكبر عدد من القطارات بحيث ينقل السكر ويغمر الأسواق فى خلال ٢٤ ساعة، وسوف أحقق مع المتسببين فى هذا، فشكرته».

«واتصلت بعبد الحميد باشا (عبد الحق) وسألته عما جرى بينه وبين عبود باشا فقال لى: هو عندك شوف ياباشا إذا لم تنفذ الإجراءات التى وضعتها فسأستقيل فى الحال وأصدر بيانا بذلك للناس أوضح فيه الموقف!! لقد وضعت مشروع قرار بالاستيلاء على شركة السكر!!».

«قلت له: وأنا سأستقيلُ معك، لكن أحب أن تسمعنى، لقد قال عبود (إن) سبب عدم وجود السكر بالأسواق هو السكك الحديدية، وقد اتفقت مع عبد المجيد بدر على تدبير القطارات ووعد بأن يتم غمر الأسواق بالسكر فى مدى ٢٤ ساعة على الأكثر، والتحقيق مع المتسببين فى ذلك».

«فقال: إذن المسألة مدبرة لإحراج الوزارة. . . طيب خلاص».

«وفى اليوم التالى كانت الأسواق مغمورة بالسكر، حتى إنه كان يباع على عربات الكارو فى الشوارع».

وفى موضع ثالث من المذكرات يحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يذكر حقيقة قصة خروج عبد المجيد بدر من منصب وزير المالية فى وزارة النقراشى باشا الثانية وتعيينه مديراً للسكك الحديدية، وهو يحمل نفسه المسئولية عن هذه الخطوة/ الحل، ونحن نعرف أن مذكرات كريم ثابت، وهو كما نعرف رجل مشبوه، أشارت إلى هذه الواقعة فى إطار أن الملك فاروق كان قد فوجئ فى أثناء دخوله أحد الملاهى الليلية بعبد المجيد بدر وأحمد عطية (وزير الدفاع)، لما لم ينصرفا صمم الملك فاروق على إقالتهما، لكن إبراهيم عبد الهادى يقدم رواية غير هذه الرواية الشائعة فيذكر أن هذه الاستقالة حدثت لسبب مشرف جداً لعبد المجيد بدر، وهو أنه لم يستجب لرغبة الملك فى الحصول على دولارات مقابل قطن الخاصة الملكية، والواقع أن رواية إبراهيم عبد الهادى تنسب هذا الرفض إلى النقراشى (رئيس الوزراء)، وإليه هو نفسه (وقد كان رئيساً للديوان)، ولعلنا نعلق على ما يرويه إبراهيم عبد الهادى بما لم يذكره هو مما أشار إليه كريم ثابت من أن وجود عبد المجيد بدر فى الحلمية بالاس نفسه كان بمثابة صفعة للملك، فقد ظل فى جلسته دون أن يأبه لوجود الملك:

«. . . عبد المجيد بدر زميل قديم من ثورة ١٩١٩ إلى اليوم، عين وزيراً للمالية فى وزارة النقراشى باشا ورفض تنفيذ رغبة الملك فى طلبه بيع قطن الخاصة الملكية بالعملة الصعبة وحفظها للملك بالبنوك الأجنبية خارج مصر، وقد اتصل بى نجيب باشا سالم ناظر الخاصة وأنا رئيس الديوان وقال لى: إنه يريد بيع قطن الخاصة بالدولارات».

«فقلت له: أنا ليس عندى دولارات، فدهش لإجابتى، وقال: كل ما نريده أن ترجو النقراشى باشا وأنتم من حزب واحد ليأمر عبد المجيد بدر وزير المالية بتلبية هذا الطلب».

«فقلت له: أولا أنا خلعت رداء الحزبية من يوم أن توليت هذا المنصب مع كل الأحزاب المصرية، وثانيا أن هذا الطلب صعب علىّ أن أحادث فيه النقراشى باشا، ولكم أن تتصلوا به شخصيا، فانصرف واتصلت فورا بالنقراشى باشا وعرضت عليه الموضوع وأنا أعرف سلفا أن النقراشى لا يمكن أن يستجيب لهذا الطلب بحال».

«غضب الملك على عبد المجيد بدر غضبًا شديدًا وأخذ يشهر به فى كل مكان، ومن هذا التشهير أنه انتهز فرصة وجود عبد المجيد بدر وأحمد باشا عطية وزير الحربية وقتئذ فى كازينو حلمية بالاس يشربان فأخذ يشهر بهما ولاسيما أنهما استمرا فى جلستهما يشربان والملك جالس بالقرب منهما».

«لاحظت ذلك وأدركت أن الملك يريد أن يظفر به بأى سبب، فلفت نظر النقراشى باشا إلى هذا فأكد لى أنه منتبه لذلك».

«فقلت له: أرى من المصلحة إبعاد عبد المجيد بدر باشا عن وزارة المالية وأن تتولاها أنت بنفسك، ففهمت منه أنه موافق».

«وجاءت الفرصة لذلك حين جاءنى المرحوم محمود شاكر باشا مدير السكك الحديدية يريد أن أبلغ للملك رغبته فى الاستقالة من منصبه، وكان مديرًا مرموقًا للسكك الحديدية والمصلحة ماشية فى أيامه بصورة عادية، ولم أسمع أن الملك غير مستريح له، وهذا ما يزال سرًا علىّ حتى الآن».

«قلت له: لا توجد مصلحة بتركك السكك الحديدية».

«فقال: أرجو أن تساعدنى فى تنفيذ رغبتى وتستأذن الملك فى هذا، فأعدت عليه قولى السابق وزدت عليه بأن السكك الحديدية جانب من جوانب الأمن فى البلاد، ولم يحدث حتى وقتنا الحاضر ما أخل بهذا الأمن! فقال: أنا مصر، وكلمت الملك، فقال ليس لدى مانع».

«كلمت النقراشى باشا وأبلغته أن شاكر باشا سيستقيل وأنه مصر على الاستقالة، وعرضت الأمر على الملك فوافق».

«وأدركت أن الفرصة مواتية لنقل عبد المجيد بدر مديرًا للسكك الحديدية، فنقلت للنقراشى باشا رغبتى وقلت له: ليس هذا أول وزير تولى أمر السكك الحديدية، وقد تولاها من قبل شفيق باشا، وعبد الحميد سليمان باشا، وليس من الخير أن يبقى عبد المجيد باشا وزيرًا للمالية، وعبد المجيد بدر على درجة عالية من الكفاية لإدارة هذا المرفق بنجاح، وتم ذلك بغير ضجة وكان موضع رضا أكثر الناس إن لم يكن جميعهم، لما عرف عن عبد المجيد بدر من دماثة الخلق، فضلا عن وطنيته».

«وتولى النقراشى باشا وزارة المالية إلى جانب منصبه كوزير للداخلية».

. . . .

ثم يصل إبراهيم عبد الهادى إلى موضوع الوزير الآخر فيشير إلى ما ينبغى الإشارة إليه دون أن يقدم تفصيلات أو تبريرات أخرى:

«أما أحمد باشا عطية، وكان يمثل الأحرار الدستوريين، فلم يجر فى شأنه كلام وضغط من الملك على النقراشى باشا ليغيره».

(٦٦)

ونأتى إلى عاشر الموضوعات المهمة التى تتناولها المذكرات وهو حرص إبراهيم عبد الهادى على الدفاع عن وجهة نظر السعديين فى ضرورة اشتراك مصر فى الحرب العالمية الثانية، وهو يحرص على أن يفيض فى الحديث عن هذا الرأى الذى ظل على الإيمان به حتى عندما كتب مذكراته عن تلك الفترة التى مضى عليها أكثر من أربعين عامًا، وهو يبرر وجهة نظره بالحديث عما كان يعتقد فيه من أن الاشتراك فى هذه الحرب كان بمثابة فرصة لمصر فى تسليح الجيش المصرى، وفرصة أخرى من أجل إشراك الجيش المصرى فى حرب حقيقية، وهو يشيد بجوهر الاتفاق الذى كان على ماهر قد وصل إليه مع الجيش البريطانى:

«. . . وكان مما اتفقنا عليه اتفاقًا قاطعًا ضرورة الاشتراك فى الحرب حين يعتدى على حدود مصر تنفيذًا للمعاهدة، معاهدة ١٩٣٦، وأولاً وأخيرًا للحفاظ على كرامة مصر وشرف مصر».

«وكان رأينا بالإجماع على هذا، وفى مقدمتنا السيد على ماهر باشا الله يرحمه، بل كان أكثرنا تحمسًا!!».

«وكانت هذه هى فرصة الجيش المصرى للتسليح، والتسليح الصحيح بمقتضى قانون الإعارة والتأجير الذى أعلنته أمريكا، وترمى بعد كده بنادق الغفر بتاع زمان».

«وفيما أذكر وأذكر جيدًا أن على ماهر قال إنه اشترط على الإنجليز عندما تحدثوا معه فى هذا الشأن أن الفرقة المصرية من الجيش المصرى أو الجيش المصرى كله إذا اشترك فى الحرب، وأنا أتكلم بألفاظه التى كنت أعرفها من قبل، يبقى فيه «بلاتون» مصرى، و«بلاتون» إنجليزى متجاورين فى نفس الخط، وإذا قلت إنجليزى يعنى إنجليزى لحمًا ودمًا، وليس من جنود المستعمرات الخليط، وهذا أولاً».

«وثانيًا: أن لا يجازف قائد من القواد الإنجليز أبدًا بمجموعة مصرية صرف فى الهجوم».

«ثالثًا: أن يندمج الجنود الإنجليز بالجنود المصريين لكى يتعودوا الاختلاط ويكونوا أصدقاء بحيث لا يشعر المصرى بشعور النقص أو التبعية للإنجليز».

«رابعًا: أن يأكلوا مثلاً مع بعض، لا تفرقة فى أنواع الطعام إلا فيما حرم الله على المسلمين».

«هذه كانت اشتراطات أو شروط على ماهر مع الإنجليز وقد قبلوها جميعًا».

«ونحن السعديين كان هذا رأينا وسرنا عليه وأيدناه فى أول الحرب وفى أثناء الحرب والإنجليز يهزمون فى كل المعارك، فإن المرحوم أحمد ماهر كان مقتنعًا بل مؤمنًا بأن الحلفاء هم الذين سيكسبون الحرب فى النهاية، وقد حسبها حساب الأستاذ والمعلم والخبير، ولم يكن ذلك منه خبط عشواء، فلما شرح لنا وجهة نظره وافقناه وأيدناه تأييدًا تامًا، هذا من الناحية العسكرية».

«ومن الناحية الوطنية والشرف والكرامة كان من المحتم علينا أن نشترك فى الحرب للدفاع عن بلادنا عندما يبدأ الاعتداء على حدودنا وتدخل القوات المعتدية أراضينا تدنس شرفها، وحتى لا تعتبر نفسها كما اعتبرت بعد الحرب العالمية الأولى بأنها صاحبة القدح المعلى فى الحرب، وفى الدبلوماسية العالمية فى حماية مصر من الغزو الأجنبى التركى والألمانى على مصر، وأنه لولاها لدخل الأتراك والألمان إلى مصر وحكموها حكمًا رجعيًا عنيفًا فى رجعيته، وأعادوا السخرة والكرباج وأشباههما التى كانت سائدة منذ دخل الأتراك مصر فى أوائل القرن السادس عشر حتى احتل الإنجليز مصر عام ١٨٨٢».

(٦٧)

ويعاود إبراهيم عبد الهادى الحديث عن وجهة النظر هذه فيقول :

«كان أحمد ماهر وجميع السعديين مقدرين كل هذه الظروف فوضعوا قرارهم بالاشتراك فى الحرب ولم يتزحزحوا عنه رغم الخسائر والكوارث التى منى بها الحلفاء فى السنوات الأولى من الحرب ، ولما تقدمت جيوش المحور فى أوروبا واستولت على دول كثيرة منها وجرى الحديث فى موضوع اشتراك مصر فى الحرب بدأ عبد الرحمن عزام رحمه الله يقول : «ياناس أنتم مستعجلين على إيه فلننتظر» .

«قلنا طيب وإلى متى نظل منتظرين؟» .

«وانتهينا جميعًا على أن ننتظر حتى تهاجم القوات الإيطالية أراضينا» .

(٦٨)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يشير إلى المراحل المختلفة التى شهدت تشبث السعديين برأيهم فى ضرورة إعلان مصر الحرب إلى جانب الحلفاء :

« . . . فهجمت جيوشه بقيادة جراتسيانى على ما أذكر ، فاجتمع مجلس الوزراء ، وقلنا : لقد حان الوقت الذى نشترك فيه فى الحرب أو نسلم بأن الذى يحمى بلادنا هم الإنجليز؟ لكن المعارضة بدأت تتطور تطورًا مخيفًا ضد هذه الفكرة ، خصوصًا بعد سقوط باريس ، وبدأ الرأى العام يتحدث بها فى كل مكان ، والراديو قلب الموازين كما قلب أدمغة الناس» .

«وفى مجلس الوزراء تكلم عزام باشا وعارض فكرة اشتراك مصر فى الحرب ، وانضم إليه مصطفى الشوربجى بك ، وصالح حرب باشا ، والفريق ياور الملك حيدر باشا» .

. . . .

ربما نتوقف هنا لنشير إلى أن الفريق حيدر لم يكن عضوًا فى مجلس الوزراء فى ذلك الوقت ! ! وإنما كان ياور الملك فحسب !

. . . .

«وليسمح لى القارئ أن أقول كلمة عن الفريق حيدر هنا: الرجل لم يكن له رأى أبدًا يضعه الإنسان فى اعتباره، ولذلك لم يكن فى العير ولا فى النفير، إنما الموجة كده وأصبحت زفة ومولاه قد تغير فلابد من أن يتغير!».

«أما عبد الرحمن عزام باشا فهو رجل له منطقه، وله ملاحة فى تكييف رأيه، فلما عارض الفكرة قال له على ماهر باشا: طيب وما العمل فى موقفنا مع الإنجليز؟»

«فرد على رئيس الوزراء بقوله: أنا كفيل بإقناع الإنجليز بوجهة نظرى، لأنه ليس من مصلحتهم أن تدخل مصر الحرب فتصبح الموانى والمطارات تحت رحمة غارات المحور».

(٦٩)

ويتحدث إبراهيم عبد الهادى عن حوار تليفونى دار بين الملك وبين على ماهر، وعقب عليه ماهر بالقول بأن الشيخ المراغى انحاز كلية للإيطاليين، وقد كان من نتائج هذا أن صمم الإنجليز على إخراج السفير الإيطالى فى مصر، فلما سوّف على ماهر فى الاستجابة لهذه الخطوة أخرجوه هو نفسه:

«.... وفى يوم ونحن فى مجلس الوزراء وإذا بالتليفون يرن، مَنْ على الخط؟ جلالة الملك والذى أعلن أنه جلالة الملك على باشا (ماهر) بنفسه، وإن كنا فهمنا ضمنا أنه الملك من رد على باشا، حاضر ياأفندم.. طيب ياأفندم.. وتكرار هذه العبارة طوال مدة المكالمة!».

«وأنا جالس إلى جواره حدث الآتى والله على ما أقول شهيد، وأنا لا أملك دليلاً على ما أقول».

«قال بعد أن وضع سماعة التليفون: «الطلاينة اشتروا الشيخ المراغى».

«وجمنا من هذا الكلام الخطير ولم يتكلم أحد، واستأنف على باشا حديثه: «أهه يبقى الكام عسكرى اللى لنا على حدودنا الغربية يتفضلوا ويتراجعوا ونبتدى نلايمها حبتين مع الطلاينة!!».

«هذا حصل حرفيًا والله».

«الإنجليز صمموا على إخراج ماتزولينى من مصر، سوّف على ماهر . . ألح الإنجليز وأخيرًا صمموا على إخراج على ماهر من الوزارة فأخرجوه وألقى على ماهر بيانًا عنيفًا فى البرلمان اتهمهم فيه بالاعتداء على مصر والتدخل فى شئونها بما لا يتفق مع استقلالها . . . إلخ».

. . . .

ويردف إبراهيم عبد الهادى بما ينفرد بالإشارة إليه من تقدير البريطانيين الشديد، فى وقت من الأوقات بالطبع، لعلى ماهر:

«وعلى فكرة . . على باشا ماهر كان عنده شهادة من الإنجليز لم يظفر بها رئيس وزارة مصرية من قبل بأنه كان أنشط مَنْ عاونهم فى تنفيذ رغباتهم الخاصة بالحرب فى مصر، وأن الجنرال هنرى ميتلاند ولسون قائد القوات البريطانية فى مصر أرسل خطابًا إلى على باشا يذكر له فيه هذه المعاونات الصادقة التى أداها لهم ويعتذر عن التصادم الذى حدث بينه وبين السفير البريطانى مايلز لامبسون».

(٧٠)

وواقع الأمر أن إبراهيم عبد الهادى ظل على اعتقاده الراسخ فى صواب الرأى الذى تبناه السعديون بضرورة دخول مصر الحرب العالمية الثانية كيما يستفيد جيشها من هذه التجربة، وهو يضرب المثل على هذا بما حدث مع الهنود حين استفادوا من دخولهم الحرب العالمية الثانية:

«. . . وللناس أن تتصور كيف كان موقف الهنود فى الحرب العالمية الأولى، وكيف كان موقفهم فى الحرب العالمية الثانية؟».

«كان الإنجليز فى الحرب الأولى يزجون بالقوات الهندية بالملايين أمام مدافع العدو تحصدهم كالذباب، ولما تسلحوا فى هذه الحرب وأصبحوا خبراء فى القتال تغير موقفهم وأصبحوا أندادًا يقفون إلى جوار القوات البريطانية والنيوزيلندية والأسترالية والكندية جنبًا إلى جنب، ويعاملونهم معاملة إخوان السلاح لا معاملة العبيد».

«وهذا ما كان يريده أحمد ماهر لوطنه».

(٧١)

ويقدم إبراهيم عبد الهادى تلخيصًا للآراء المعارضة لرأى السعديين الداعى إلى إعلان مصر الحرب، وقد كان فى مقدمة هذه الآراء رأى رئيس الوزراء حسن صبرى نفسه، ويشير إبراهيم عبد الهادى إلى ما هو معروف من أن الإنجليز أنفسهم قد تغير رأيهم ولم يعودوا يطلبون أن تشترك مصر فى الحرب معهم، وهو يقدم ما يعتقد أنه كان بمثابة مبررات لهذا التبدل فى الموقف الإنجليزى، وبعضها مبررات غير مقنعة فى نظرنا، فلم يكن الإنجليز ليحسبوا حساب وفائهم بالعهد، ولا مجرد التفكير فى هذا الوفاء إذا كان فى وسعهم أن يفيدوا من إمكانات غيرهم إلى أقصى حد ممكن:

«. . . . . . كان رأينا نحن السعديين واضحًا فى أن مصر يجب أن تعلن الحرب دفاعًا عن أراضيها بعد أن تقدم الطليان فيها بحوالى مائتى كيلومتر، فقال حسن صبرى باشا: ولكننى لا أرى أن تعلن مصر الحرب حتى لو أن الإيطاليين بلغوا القاهرة، فموقفنا فى هذه الحرب موقف معاونة لحليفتنا إنجلترا فى حدود المعاهدة المعقودة بين البلدين، وإيطاليا تحارب إنجلترا ولم تعلن الحرب على مصر، وقد تحدثت إلى السياسيين وإلى العسكريين البريطانيين واتفقنا على أن بقاء مصر دولة غير محاربة أنفع لإنجلترا من إعلانها الحرب على إيطاليا وألمانيا، ومادام الأمر كذلك فيجب أن تكون سياستنا تجنيب مصر ويلات الحرب ما استطعنا، وكل اعتبار لا يمكن أن يكون له تقدير أو وزن إلى جانب هذا الاعتبار».

«والواقع أن الإنجليز قد تغير موقفهم فعلاً وأصبحوا يرون ألا تشترك مصر فى الحرب معهم لأنهم أصبحوا فى مركز القوة بعد أن تلقوا إمدادات هائلة من الرجال والعتاد الحربى والطائرات المقاتلة، وأن أسطولهم فى البحر الأبيض المتوسط أصبح سيسيطر على أكثر مياهه، وأن دخول مصر الحرب إلى جانبها سيرتب لها حقوقًا والتزامات بعد الحرب لابد أن تفى بها، وهى تنوى عدم تنفيذها كما ثبت بعد ذلك».

«ومع هذا الرأى الذى أعلنه حسن صبرى فى اجتماع مجلس الوزراء فإن هذا الرجل لم يفقد احترامه ولا تقديره ولا وطنيته عندى لأنى مؤمن بأنه كان مطمئنًا له إلى أنه يتصرف لصالح مصر».

(٧٢)

ويشير إبراهيم عبد الهادى بعد هذا إلى تشبث السعديين بموقفهم إلى حد أنهم قدموا استقالاتهم من وزارة حسن صبرى .

وفى لفظ عفيف يصف إبراهيم عبد الهادى بيان حسن صبرى فى الهجوم على السعديين نتيجة استقالاتهم بأنه كان بيانًا ظريفًا :

« . . . تشبثنا بموقفنا ودافعنا عنه بحرارة وعن إيمان بأن كرامة مصر تأبى عليها أن تطأ أرضها قوات أجنبية ولا تدافع عن نفسها» .

«ثم عرض رئيس الوزراء الأمر للتصويت فأصررنا على موقفنا وانسحبنا من المجلس وقدمنا استقالاتنا بعد قليل فقبلها حسن صبرى باشا واستصدر مرسومًا ملكيًا بإحلال وزراء آخرين محل الوزراء السعديين ، وأصدر بيانًا ظريفًا قال فيه : ما كانت أمور الدولة العليا تؤخذ بمثل هذه الخفة والتطير» .

(٧٣)

ويواصل إبراهيم عبد الهادى دفاعه عن منطق السعديين فيما يتعلق بدخول الحرب إلى جانب الإنجليز وإعلان الحرب على المحور ، وهو فى هذا الإطار يفخر بموقف السعديين حين رفضوا الاشتراك فى وزارة حسين سرى عقب وفاة حسن صبرى ، ويقرن هذا الفخر بالحديث عما ينبغى التحلى به من شعور الكرامة ، لكنه سرعان ما يجد نفسه أمام موقف السعديين أنفسهم وقد تغير بقبول الدخول فى وزارة حسين سرى الثانية ، وعندئذ يقدم تبريراته لقبول السعديين الاشتراك فى الوزارة ، وهى تبريرات تتراوح ما بين الضعف الغالب والقوة البسيطة :

«ولكن السعديين تشبثوا بموقفهم ورفضوا الاشتراك مع سرى باشا فى الوزارة ودافعوا عن موقفهم دفاعًا عنيفًا لأن كرامة مصر تنزل إلى الحضيض وتمرغ فى الوحل إذا وطئت أرضها قوات أجنبية ولا تدافع عن نفسها ، وعلى هذا الأساس لم يشترك السعديون فى الحكم مع سرى باشا عندما عرضه عليهم فى بدء تشكيل الوزارة ، وربما يسأل سائل ولماذا رضى السعديون بالاشتراك مع سرى باشا فيما بعد؟» .

«وردى على ذلك أن الرأى العـام آمن بنظرية تجنيب البـلاد ويلات الحـرب كل الإيمان، وكان ينظر بعين الشك إلى الدعوة لإعلان مصـر الحرب على المحور، فإن دفعناه إلى الحرب وحالته المعنوية كما وصفت تكون الطامة الكبرى، لأنه قد ألف الوقوف من الحرب موقف المتفرج وليست له أهداف قومية ولا وطنية سامية يسعى إلى تحقيقها».

. . . .

«ولهذه الأسباب مجتمعة اشتركنا فى الوزارة على أمل أن تكون لنا يد فى تهيئة الجو المناسب لتسير دفة الحكم فى طريقها السوى، خصوصًا بعد حادث فرار عزيز المصرى بطائرة ومعه ضابطان من سلاح الطيران إلى جهة غير معلومة خوفًا من أن يدفع هذا الأمر وغيره الإنجليز إلى ارتكاب حماقات تضر بالبلاد وتصيبها بنكبات لا يعلم مداها إلا علام الغيوب».

«اشتركنا فى الحكم مع سرى باشا ونحن على حذر نراقبه فى كل تصرفاته، وكان يخشى السعديين بصفة خاصة لكثرتهم البرلمانية وشدة تأثيرهم فى البرلمان، ورئيسه أحمد ماهر وله ما له من المكانة فى نفوس أعضائه جميعًا، خصوصًا الأحرار الدستوريين».

(٧٤)

ونأتى إلى الموضوع الحادى عشر من الموضوعات المهمة التى تتناولها هذه المذكرات، وهو ما تتضمنه المذكرات من حديث عن علاقة إبراهيم عبد الهادى بالإخوان المسلمين، وهى علاقة شائكة إلى أبعد الحدود، ونبدأ بأن نورد بعض ما يلخص به إبراهيم عبد الهادى فى وسط مذكراته رأيه فى الإخوان المسلمين، ومن العجيب أننا نراه ينتصر لفكرة أن الإخوان طائفتان، طائفة أخيار مخلصون لله وللدين، وطائفة أخرى قتلة هم أعضاء التنظيم السرى:

. . . .

«أشهد الله على أنى ما حملت لهذه الجماعة المسماة «الإخوان المسلمون» غلاً أو حقدًا، أو سعيت للانتقام من أحد منهم، وأقول إن فيهم أناسًا أطهارًا دخلوا الدعوة مخلصين لله ولدينهم، وقد عرفت بعضهم واحترمتهم وكانوا يزوروننى من وقت لآخر، ولكن المجموعة الأخرى مجموعة الجهاز السرى، مجموعة القتلة، فهؤلاء ليسوا أعدائى وحدى، وإنما أعداء الملة الإسلامية، وأعداء الوطن».

«مَنْ الذى يقول فى الدنيا إن الإنجليز ظلوا يجرون وراء أحمد ماهر والنقراشى ليظفروا برأسيهما فلم ينجحوا، وبعدئذ تأتى مجموعة تدعى نصرة الإسلام وتقتلهم غيلة؟».

«هل هذا هو الإسلام؟».

«هل هذه هى الوطنية؟».

«هل هذا هو المثل الأعلى الذى يضرب للناشئة؟».

«. . . . . يقتل أمام منزله وزوجته وأولاده . . وأى قاض».

«القاضى العف النزيه الذى لم يعرف عنه سيئة فى سلوكه العام، أو سلوكه الشخصى، يقتل لأنه أصدر حكمًا لم يعجب الجماعة».

«لما أكون رئيس وزارة وأرى أمامى قاضيًا يقتل ورجلين من أفضل (مَنْ) أنجبت مصر استقامة ووطنية وخلقًا يغتالان وأمسى وأصبح وأنزل من بيتى أجد كتف عسكرى دورية لازق فى الحيط وجثته ملقاة على الأرض».

«أرى رجل الأمن الساهر لصيانة الأرواح والأموال وقد مزق جسده شر تمزيق وأسكت».

«سيارة جيب مليئة بمفرقعات وديناميت وأسلحة يقودها واحد منهم ومعه واحد آخر قصدوا إلى محكمة الاستئناف بباب الخلق، محكمة كبيرة جدًا وراءها سجن الاستئناف وإلى جوارها محافظة مصر وأمامها الكتبخانة ودار الأوبرا العربية، وكل هذه الأماكن تضم أعدادًا هائلة حصرها صعب، من خلق الله سكان باب الخلق،

حركة مرور ضخمة رايحة وجاية، منهم صاحب العربة الكارو، وعربة الكشرى. المنطقة التى يتمثل فيها المجتمع المصرى بشحمه ولحمه، أيام الجلسات بمحكمة مصر التى مثل يوم القيامة من جمهور المتقاضين والمحامين ووكلائهم والقضاة ورؤساء النيابة ووكلائهم والموظفين بها من الدرجة الثامنة حتى الدرجة الأولى».

«أمن أجل مستندات قضية لهم فى هذه المحكمة يحل لهم أن ينسفوا المحكمة بمن فيها من مستشارين وقضاة ورؤساء نيابة ووكلائهم ومتقاضين، وامرأة مسكينة «ساحبة» ابنها أو ابنتها تجرى وراء حقها، وعابر سبيل ومنشآت مهمة تجاور المحكمة بمن فيها من موظفين وسعاة وفراشين؟!».

«هل هذا يحدث؟».

«هل هذه هى رحمة الإسلام؟».

«هل هذا شرف الرجال؟».

«ماذا أعمل ؟»

. . . .

«ومَنْ الذى قبض على هذه السيارة وسائقها، ومَنْ كان معه حين حاول الهرب؟».

«المارة. . المارة وليس البوليس ورجل الأمن؟!».

«شفيق أنس الطالب بكلية الحقوق وقتئذ كان يقودها، هو الآن بالكويت مع والده ووالدته وإخوته الذين هاجروا من مصر بعد الحادث، وربنا فتح عليهم وأصبحوا عال العال، وقد علمت أن أباه ووالدته كانا من الناس الطيبين، لم يحتمل أبوه الصدمة ولم يجد له وجها يرى الناس أو يراه الناس فترك وطنه وهاجر».

«يقول شفيق أنس: خدعونى. . كذبوا علىّ. . كان الشيخ سيد سابق يجتمع معنا فى زاوية بالناصرية حتى مطلع الفجر، ويملأ آذاننا بالشهادة فى سبيل الله بقتل الكفرة، آدى الدعوة. . هل هذه هى الدعوة الإسلامية؟».

«عندما أقاوم هذا الضلال أبقى كفرت يا أيها الناس».

(٧٥)

وهذا نموذج لحديث إبراهيم عبد الهادى عن بعض الإخوان المسلمين الذين يثنى عليهم:

«. . . وبمناسبة ذكر الأستاذ كمال عبد النبى أذكر أنه كان سفيرًا لمصر فى عام ١٩٥٦، ورفض استلام الإنذار الفرنسى من الحكومة الفرنسية يومئذ، وأسجل أن هذا الرجل كان والده ـ رحمه الله ـ عضوًا بالوفد المصرى، وأضاع نصف ثروته فى سبيل القضية الوطنية، هكذا كان شأن المجاهدين الأبرار، وبعد ذلك يفاجئنا مَنْ يسخر من أعمال الوطنيين، ويقول: إيه يعنى جماعة «يحيا الوطن».

(٧٦)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يسرد كثيرًا من الوقائع التى يرى أنها أوحت إليه بالشك المبكر فى سلوك الإخوان وتوجهاتهم، وهو يسرد واقعة التحقيق مع عبد الحكيم عابدين فى تجاوز خلقى وما أسفرت عنه تلك التحقيقات من استقالة وكيلى الجماعة:

«. . . كان هذا خيالى وفكرى عنهم، ولم أتصل بأحد من قياداتهم إلى أن جاءنى فى يوم ثلاثة منهم هم الدكتور إبراهيم حسن رحمة الله عليه، وأحمد السكرى، والسفير السابق فى فرنسا كمال عبد النبى، ومعهم ملف كبير يقولون إنه ملف خاص بتحقيق مع واحد من قادة الإخوان المسلمين اسمه عبد الحكيم عابدين، وقد أدانه التحقيق فيما حقق معه ولكن لم يتخذ إجراء معه فى المخالفات التى نسبت إليه وهى خطيرة وذكروها لى لأنه صهر الشيخ حسن البنا، وقد استقال الدكتور إبراهيم حسن وأحمد السكرى وهما الوكيلان للجماعة لهذا السبب».

«هذا ما عرفنى به الأستاذ كمال عبد النبى لمعرفتى به ومعرفتى بوالده رحمة الله عليه، لأنه كان عضوًا بارزًا فى الوفد، وقد لاحظت حالاً من الرعب قد استولى على الدكتور إبراهيم حسن والأستاذ أحمد السكرى فطمأنتهما».

(٧٧)

وفى موضع تال من مذكراته يشن إبراهيم عبد الهادى كثيراً من الهجوم الشخصى الذى يرد به على الهجوم الذى تعرض له من قبل بعض قيادات جماعة الإخوان المسلمين، وعلى سبيل المثال فإنه يتصدى لعبد الحكيم عابدين مذكراً بما حدث منه من جرم خلقى استتبع محاكمته فى مكتب الإرشاد، فلما ثبت عليه الخطأ وصدر الحكم مخففًا استقال بعض أعضاء مكتب الإرشاد وذهبوا إلى إبراهيم عبد الهادى يطلبون تأمين أرواحهم:

«. . . . . وعندما جرت المقادير وجاءت ثورة ٢٣ يوليو كتب أحد قادة الإخوان المسلمين فى الصحف كلامًا تكذبه الطبيعة، والواقع، اتهمنى فيه ظلما بأننى جبان، قال: إننى أسكن فى المعادى، وطريقى إلى القاهرة طريق واحد هو الطريق الزراعى، لأن طريق الكورنيش لم يكن أنشئ، ولكى أؤمن حياتى أمرت بتقطيع الشجر الضخم القائم على جانبى الطريق. . لماذا أقطعه؟!!».

«قال عبد الحكيم عابدين إننى أمرت بذلك لأنى خائف على حياتى من الإخوان المسلمين حتى لا يركبوا الشجر ويختبئوا فى أعجازه الضخمة ويضربونى بالقنابل أو الطبنجات».

«وللسيد عبد الحكيم عابدين وكيل جماعة الإخوان قصة أرويها وأنا حزين، أرويها ليكتشف الشباب المضلل من أى المصادر يستقون معلوماتهم، كان عبد الحكيم عابدين وكيلاً لإحدى الأخوات المسلمات فى زواجها، وزوجها أيضًا كان من الإخوان، وبحكم هذه الصلة كان عبد الحكيم عابدين يتردد عليها كثيراً فى منزل الزوجية وعندما تحين الصلاة يتوضأ ليصلى».

«وفى إحدى المرات أمسك بالسيدة الطاهرة وأراد أن يضمها ويقبلها، فصفعته على وجهه، ولما جاء زوجها أبلغته بما حدث فتقدم الزوج بشكوى إلى مكتب الإرشاد الذى يرأسه الشيخ حسن البنا، وكان من بين أعضائه الذين عرفتهم الدكتور عبد الرحمن حسن، وحسين عبد الرازق، وكمال عبد النبى، وأحمد السكرى».

«وقدم مكتب الإرشاد السيد عبد الحكيم عابدين للمحاكمة، وظل المكتب يجرى المحاكمة ثلاثة أيام بلياليها، وفى النهاية انتهى إلى الإدانة، ولكنه اعتبر الجرم الذى

ارتكبه السيد عبد الحكيم عابدين صهر الشيخ حسن البنا من اللمم «أى الذنب البسيط»، فاستقال بعض أعضاء مكتب الإرشاد، وفى مقدمتهم الدكتور عبد الرحمن حسن، والأستاذ كمال عبد النبى، وكان ذلك قبل قرار حل جماعة الإخوان المسلمين ربما بأكثر من سنة ونصف (السنة)».

«وجاءنى الدكتور عبد الرحمن حسن، والأستاذ كمال عبد النبى، والشيخ أحمد السكرى، ولم أكن قد توليت رئاسة الوزارة، وتكلم الأستاذ كمال عبد النبى وذكر لى تفاصيل الموضوع، وأنهم يخشون على حياتهم».

«قلت لهم: وماذا تريدون منى؟».

«وقال الدكتور عبد الرحمن حسن: نريد حراسة على منازلنا، فأجبتهم بما أراحهم وشربوا القهوة وانصرفوا».

«أما ما ادعاه علىّ عبد الحكيم عابدين من تقطيع أشجار طريق المعادى، فليذهب أى مواطن ويسير فى هذا الطريق الذى يمر منه الألوف يوميًا ويجدون الشجر الضخم مازال قائمًا، شجر عمره أكثر من ستين سنة ليس مزروعًا من عام أو عامين».

(٧٨)

ويروى إبراهيم عبد الهادى موقف الجماعة وصحفها من أحمد عبد الغفار باشا، وكيف شنت عليه حملة ابتزاز على الرغم من أنه كان قد قدم للجماعة خدمات كثيرة، وكيف تمكن هذا الرجل من إجهاض محاولة الإضراب التى دعمتها الجماعة فى تفتيش سخا بشمال الدلتا:

«...... وكانت هذه الجماعة قد أصدرت صحيفة يومية وأخرى أسبوعية وابتدأت أسمع أن كثيرين من أهل الرأى ومن الوزراء السابقين وغيرهم قد انضموا إلى هذه الجماعة، ومن بينهم بعض إخواننا الأقباط وفى مقدمتهم وهيب بك دوس».

«وفى يوم من الأيام جاءنى المرحوم أحمد باشا عبد الغفار وهو فى أشد حالات الضيق، وحدثنى أن الشيخ حسن البنا الله يرحمه كثيراً ما سعى لديه فى شأن تعيين

رجل مستحق ونقل موظف من مكان إلى مكان، وأنه يجاريه ما استطاع إرضاء له لأنه رجل طيب قريب من الله».

«وفى يوم تأخر فى تنفيذ بعض ما طلبه فضيلة الشيخ وإذا بحملة عنيفة يتعرض لها فى صحيفة الإخوان اليومية، فلما عتب على الشيخ أنكر اطلاعه عليها وأبدى أسفه».

«وفى اليوم التالى تكرر ما اعتذر عنه وزاد عليه، ثم بعد أيام أضرب عمال الزراعة بتفتيش سخا بشمال الدلتا وهو يتبع وزارة الزراعة، كانت الحكومة قد خصصته لاستخلاص البذور النقية لزراعة القطن».

«وعلم أحمد باشا عبد الغفار بأن الداعى إلى هذا الإضراب هم جماعة الإخوان المسلمين، وقد عرفت أنه منع الإدارة من اتخاذ أى إجراء ضدهم وذهب بنفسه إلى هناك وكل ما صنع أنه نادى العمال الزراعيين بأنهم إذا هم رفضوا العمل فالوزارة فى حل بإعطاء «البرسيم» الذى يحصلون عليه من التفتيش لمن تشاء، ولهم أن يفتشوا لمواشيهم عن برسيم فى جهة أخرى، وكان هذا كافيا بأن يعرفوا أن العملية ستكلفهم تضحيات، وأن التفاهم مع الوزارة خير، وبذلك انتهت المسألة إلى تفاهم وود ولم تتكرر بعدها أبدًا، ولكن بدا أن الجماعة، وقد استشعرت قوتها، (رأت) أن تضغط على المجاميع العمالية ما أمكنها».

(٧٩)

كذلك يروى إبراهيم عبد الهادى قصة لقاء له بالشيخ حسن البنا حين كان هو رئيسًا للديوان الملكى، وكيف أنه حاول فى هذا اللقاء تعديل فكر حسن البنا بما يتفق مع الواقع ومع طبائع الأشياء فى السياسة، لكنه أدرك من مناقشته معه أنه متعجل للوصول إلى الحكم:

«. . . جاءنى الشيخ حسن البنا مرشد الجماعة وأنا رئيس ديوان وكنت قد تعرفت به فى المملكة العربية السعودية وأنا أمير الحج وأعجبتنى فصاحته، وزلاقة لسانه، وقوة حجته فى الإقناع عندما كان يخطب الجماهير».

«جاءنى الشيخ حسن ومعه عريضة مرفوعة إلى الملك، فى حديثى معه أراد أن يشكرنى أولاً على حسن لقائى، ثم قال: إن لديه علما بحرج وزارة النقراشى وأنها فى طريقها إلى الاستقالة، فأكدت له أن الخبر غير صحيح».

«وأراد إفهامى بأن الدنيا قد تغيرت وأن مَنْ كانوا أهلاً للاستشارة عند تغيير الوزارات قد زاد عليهم جديد، وهو يشير بهذا إلى نفسه وإلى جماعته، فعدت وأكدت له مرة أخرى أن الوزارة ثابتة، وبالتالى لا محل لبحث ما سيترتب على ذلك».

«وطلب إلىّ أن أقرأ العريضة فقرأتها ووجدت كلماتها غير عادية، وغير مألوفة، ولما ناقشته فى بعض ما جاء بها ألح علىّ أن أرفعها إلى الملك».

«وكانت القاعدة عندى أن أرسل إلى الملك يوميًا كل ما يصلنى من شكاوى أو عرائض مهما كانت وعلى أية صورة، فأرسلتها مع بقية الأوراق».

«وتحدثنا قليلاً وقلت له فيما أذكره أن ما تشير به على ما أعتقد سابق لأوانه، وأننا لما بدأنا العمل فى الحركة الوطنية والسير فى طريقها الخطير لم يفكر واحد فى أن يكون وزيرًا أو يسند إليه عمل رسمى بحكم الظروف. عمر ما فكر شاب فى التعليم العالى أو فى غيره فى هذا مطلقًا، فالعجلة ليست السبيل إلى الحكم، وإنما السبيل إليه الخدمة والوقت بطبعه يحقق آمال الناس الذين صارت لهم تجربة وممارسة وصار قدرهم ووضعهم إلى هذا، وشأنك وشأن كل وطنى هو هذا، ولم أر الشيخ بعد هذه المقابلة ولا تحدثت معه بعد أن أكدت له أننى سأرفع العريضة إلى الملك ورفعتها فعلا».

(٨٠)

وينفرد إبراهيم عبد الهادى فى روايته لقصة حل جماعة الإخوان المسلمين على يد النقراشى بالإشارة إلى أن عبد الرحمن عمار وكيل الداخلية حذر النقراشى من إصدار هذا القرار، وذلك خلافًا للشائع فى الأدبيات التاريخية من أن عبد الرحمن عمار هو الذى كتب مذكرة حل الجماعة.

ويذكر إبراهيم عبد الهادى تفصيلات مهمة لا تختلف عن الرواية المتواترة بأن النقراشى هو الذى شطب بنفسه اسم قاتله من قائمة المعتقلين.

كما يذكر تفصيلات مهمة عن قتل الشرطة للضابط الذى تولى تدبير تفصيل وارتداء زى الشرطة لقاتل النقراشى، وهى تفصيلات غير شائعة فى الأدبيات المتاحة.

كما يورد تفصيلات أخرى عن دور الشيخ سيد سابق فى عملية الاغتيال، ويصل إبراهيم عبد الهادى إلى أن يورد فى روايته أن رئيس المحكمة قال للشيخ سابق إنه لم يبرأ إلا لعدم كفاية الأدلة.

ويصف صاحب المذكرات هذا الموقف بأنه ذروة من ذرى العدالة:

«...... لما تأكد النقراشى باشا رحمة الله عليه أن هذه العمليات عمليات جماعة وليست عملية أفراد، وأنها من تدبير الإخوان قرر حلها، وقد اتخذ هذا القرار بنفسه رغم تحذير وكيل الداخلية له المرحوم عبد الرحمن عمار، فقد رجا النقراشى باشا رجاء حارًا بأن يؤجل هذا القرار أو يمتنع عنه نهائيًا، مؤكدا له أنه سيدفع ثمنه حياته، فرفض رفضًا قاطعًا وقال له: هذا واجبى والحياة والموت بيد الله».

«وكان ما توقعه عبد الرحمن عمار عرض على النقراشى باشا قبل موته بأيام كشف الشبان الخطرين من الإخوان المسلمين، وكان الذى أعد الكشف اللواء أحمد طلعت وكيل حكمدارية القاهرة قبلها بأسبوعين، وفى صدر الكشف محمود عبد المجيد قاتل النقراشى، وكان طالبا بالسنة النهائية فى كلية الطب البيطرى وألح بضرورة التحفظ على هؤلاء».

«وبالقلم الأحمر شطب النقراشى بيده اسم قاتله، ولما ألح عليه أحمد طلعت قال: حرام أن أؤخر دخوله امتحان الدبلوم، هذا كابنى تمامًا، وشاءت المقادير القاسية وقتل النقراشى بيد هذا الابن العاق».

«وهذا القاتل هو الذى أرشد عن زملائه ومحرضيه والمفتى الشرعى للجماعة الذى كان يسهر معه الليالى ومع غيره من الشباب الساذج لإقناعهم بأن قتل المسلم الخارج على الدعوة حلال، وسبق فى الإسلام أن قتل النبى عليه الصلاة والسلام بيده، وجاءه المفتى الشيخ سيد سابق بكتاب مخطوط... وفيه ما يؤكد أن النبى قتل بيده الطاهرة الشريفة».

«كما دل القاتل على الضابط من الإخوان المسلمين الذى أخذه إلى ترزى فى السيدة زينب وفصل له بدلة ضابط ليدخل بها وزارة الداخلية حتى لا يشتبه فيه أحد ويتمكن من ضرب النقراشى بالرصاص».

«اعترف الترزى وأرسل البوليس فى استحضار الضابط من بنها، فلما قُبض عليه، رجا الضابط رئيس القوة أن (يمهله) حتى يغير ملابسه فلما تركه قفز مسرعًا وركب سيارة بوليس حاول الفرار بها فتتبعه الضابط رئيس القوة بسيارته، وجرى خلفه ولحق به فقفز مسرعًا وألقى بنفسه فى ترعة مجاورة للسكة الحديد ودخل المزارع فتعقبه أحد الجنود وضربه بالرصاص فأصابه ومات».

«وقدم القاتل إلى المحاكمة مع بقية الشركاء المتهمين ورأس المحكمة قاض من خيرة قضاة مصر نزاهة واستقامة هو المرحوم مختار عبد الله، فحكم على القاتل بالإعدام، وعلى شركائه الذين كانوا واقفين يراقبون العملية بالسجن، وبرأ الشيخ سيد سابق معلنا: يا أستاذ أنت برئت لعدم كفاية الأدلة فقط!».

«للناس أن تتصور من هذا الحكم كيف كانت العدالة فى أرفع ذراها».

«القاضى يعلن: يا أستاذ برئت لعدم كفاية الأدلة».

«والقرائن كلها تشير بأنه المفتى الذى أفتى بقتل النقراشى».

(٨١)

ولا يفوّت إبراهيم عبد الهادى الفرصة فى مذكراته ليحدد من وجهة نظره موقف الإنجليز من الإخوان المسلمين، وهو يمضى فى طريق اتهام الإخوان بالعلاقة بالبريطانيين:

«. . . . . قالوا السفير البريطانى اجتمع مع النقراشى وأحمد ماهر واتفقوا على حل الإخوان المسلمين، وفاتهم أن أحمد ماهر قتل من ثلاث سنوات!!».

«سفير مين الذى يريد حل الإخوان المسلمين؟ إن أسعد أيام الإنجليز أن تخرب مصر بيد أبنائها، وكانت أسعد أيامهم وأمانيهم أن توجد هيئة مثل هذه تقتل النقراشى، وأحمد ماهر وغيرهما وتشيع الإرهاب».

«لقد ثبت أن الجاسوسة الإنجليزية الخطيرة فريا ستارك التى خلفت لورانس الإنجليزى فى عمله بالشرق، وكانت رئيسة جماعة «أنصار الحرية» فى مصر ومركزها حى السيدة زينب بالقاهرة، ثبت أنها كانت على صلة بالإخوان المسلمين، وأنها أعطتهم معونات بلغت ٥٠٠٠٠ (خمسون ألف جنيه)».

«هل يقتل أحمد ماهر والنقراشي ياناس.. الرجلان اللذان خدما مصر بأقصى ما يستطيعان خدمتها.. بحياتهما.. لقد لفق لهما الإنجليز القضايا ليقتلا ويخلصوا منهما فينجيهما الله، فنأتى نحن المصريين أبناء البلد نقتلهما ونقدم للإنجليز رأسيهما هدية!!».

(٨٢)

ويستطرد إبراهيم عبد الهادى فى حديثه عن علاقته بالإخوان المسلمين إلى المقارنة بين موقفه منهم وموقف مَنْ تلوه فيقول بكل صراحة:

«... طلقة واحدة لم تصب أحدًا بسوء إلا رجلاً واحدًا فى ساقه [هو يلمح إلى عهد الثورة] فيحشد الآلاف بسببها فى السجون والمعتقلات، ويحكم على أعداد منهم بالإعدام وينفذ الحكم وبدون تحقيق ولا شيء من هذا».

«أنا لا أعرض بحكم أحد أبدا، وإنما أروى للتاريخ وللعبرة، وأسجل معنى المسئولية فى الحكم».

«أنا لم أشنق أحدًا أبدا، وأنا لم أحفر فى الأرض وأقتل معتقلاً حيًا وأئد وأدا جاهليًا، لم أعمل والحمد لله شيئًا من هذا مدة حكمى».

«توجد صحيفة الآن بدأ يكتب فيها رجل مثقف قارئ رأى الدنيا تمامًا كما يجب أن ترى بين الصفوة من الأدباء، إنه يكتب صفحة بإمضاء مجهول».

(٨٣)

ويتساءل إبراهيم عبد الهادى عما كان مطلوبًا منه بعدما تم الوصول إلى الكشف الذى يضم أعضاء الجهاز السرى للإخوان فى أثناء ضبط السيارة الجيب؟

وهو يضمن مذكراته مونولوجًا طويلاً من أسئلة التعجب عما كان مطلوبًا منه فى مواجهة ما تم اكتشافه من تورط التنظيم السرى للإخوان فيما يهدد أمن مصر ومستقبلها:

«. . . . لقد ضبط البوليس فى سيارة الجيب كشفًا يتضمن أسماء أعضاء الجهاز السرى القتلة، وثبت فى محاضر تحقيق النيابة كل أعضاء الجهاز السرى، كنت أسيبهم مطلقى السراح».

«أنا رئيس حكومة ومسئول عن أمن الناس وحياتهم، سياسى، ابن مصر مسئول عن مصر، إحنا لسنا مرتزقة ولا دلاديل لحد، دا أنا رئيس وزراء مصر، مسئول عن أمن مصر، يجب أن أتعرض لقدرى بما ينبغى لرجل ورجل مسئول بحق، الكشف قدمناه للنيابة، حققت النيابة والتحقيق موجود فى النيابة يمكن الاطلاع عليه لم نأت بأحد من برة».

«وفى التحقيق كان يتعرف الواحد منهم على عشرة وعشرين، (كان) عندهم اليقين بأنه كلما كثر عدد المتهمين كلما خفت العقوبة. . لماذا؟».

«كان عندهم الإيمان القاطع بأنهم سائرون إلى الحكم، أو على حد تعبيرهم هم فالحكم هو الذى يسعى إليهم ويقدم لهم على صينية من فضة فى ظرف خمس سنوات على الأكثر».

«اعترافات. . مفرقعات. . ديناميت. . جلجانيت، ملو شنط، وملو عربة جيب. . البوليس ضبط شنطتين مليانين مفرقعات فى حى شبرا بملتقى شارع شبرا بشارع روض الفرج على محطة الترام، لو انفجرت الشنطتان بما فيهما من مواد ناسفة كم يكون عدد الضحايا فى هذا الحى المزدحم بالسكان وأكثرهم من إخواننا الأقباط؟!».

«لو انفجرت الشنط دى كان حيجرى إيه، يتعقب البوليس واحدًا من الحائزين لهذه الشنط وحين يقترب منه ويصبح وشيكا من القبض عليه يقوم مفرغ الرصاص من طبنجتين كانتا معه».

«وبعد هذا يقولوا بيقبض على الإخوان المسلمين، أيوه ياسيدى قبضت على

الإخوان المسلمين بس مش بالآلاف، لا هما بالآلاف ولا حتى ألفين، كل اللى قبضنا عليهم كانوا ستمائة فقط».

«ويقولوا بعد هذا إننى بألفق التهم، أنا لا يمكن أن ألفق لمواطن ولا لغير مواطن لأنى ذقت مرارة التلفيق وطعم الظلم بما لم يذوقوه أبدًا، أنا أظلم. . أنا أجيب شنط وأملاها جلجانيت لألفق التهم!».

«أنا الذى جبت الولد اللى مسكه البوليس واديته الطبنجتين وقلت له اضرب البوليس لما ييجى يقبض عليك؟ كلالا يصدقه عقل إنسان!!».

«هل كنت أترك أعضاء الجهاز السرى هذا يعيث فى البلاد فسادًا يقتل وينسف وقد جمع من المتفجرات ما ينسف به أحياء كاملة بمدينة القاهرة؟».

«هل كنت لا أفتش منازلهم وأتركهم بمتفجراتهم وأسلحتهم، أو أؤدى واجبى كرئيس حكومة؟».

«لقد أمرت بمسح محافظة البحيرة، والناس تعلم مدى اتساع هذه المحافظة، فى ليلة واحدة، وكذلك الجزر المنتشرة بالنيل من أسوان حتى إسكندرية للقبض على أحد أعضاء الجهاز السرى الخطرين هو محمد مالك، وقد علمت أخيرًا أن هذا الشاب تاب وأناب وابتعد عن الجماعة وربنا هداه، وهو الآن موظف ومتزوج وعنده أولاد».

(٨٤)

وفى وسط كل هذا الحديث يورد إبراهيم عبد الهادى تفصيلات حوار دار بينه وبين أحد أبرز علماء الدين وهو العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى، وقد حاول الرجل أن يثنى إبراهيم عبد الهادى عما شاع من تعقبه للإخوان المسلمين وأسرهم، وهو يصل فيما يرويه إلى أنه استطاع إقناع الشيخ عبد الجليل عيسى بوجهة نظره، وأنه نزع الغطاء عن كثير من الأكاذيب التى نسبت إليه.

وربما يجعلنا هذا نتساءل عن شعور إبراهيم عبد الهادى فى مواجهة سوء الفهم الذى كان يفرض نفسه على الروايات المتواترة عن موقفه من الإخوان المسلمين ومن عدائه

السافر لهم، وربما يجعلنا هذا أيضًا ندرك حقيقة أن إبراهيم عبد الهادى تصدى وهو رئيس للوزراء لمهمة هى من صميم اختصاصات رئيس الدولة، ولهذا فإنه لم يلق التقدير على ما بذل من جهد فيها، بل إن رئيس الدولة نفسه [الذى هو الملك] سرعان ما تخلص منه بعد شهور معدودة، وتظاهر بأن هذا التخلص عنصر من عناصر إرضاء الإخوان، وهكذا تحمل إبراهيم عبد الهادى وحده المسئولية، ونسبت كل الأخطاء إليه، بينما كان الأمر مختلفًا فى العهد التالى، أى عهد الثورة، حين تولى رئيس الدولة الأمر بنفسه فنال مزاياه وتجنب كل ما تعرض له إبراهيم عبد الهادى من نقد وهجوم.

وربما كان هذا الموقف أحد دروس التاريخ فى مثل هذه القضية الشائكة:

«...... جاءنى صاحب الفضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى، وهو رجل عالم فاضل أعتبره خليفة الأستاذ الإمام محمد عبده أدعو الله أن يشفيه من مرضه ويمد فى عمره، جاءنى هذا العالم الجليل وقابلنى فى رياسة مجلس الوزراء وهو غاضب وقال لى: ما هذا الذى تعمله يا رجل فى الإخوان المسلمين؟».

«قلت له: أعمل ماذا؟!».

«قال: عمال تقبض عليهم بالجملة وترميهم فى السجون وتقطع عن أهلهم مرتباتهم!!».

«قلت: وإيه تانى يا شيخ عبد الجليل؟».

«قال: أظن كفاية كده.. هو دا شوية».

«قلت: طيب اهدأ قليلا يا شيخ عبد الجليل وستعرف الحقيقة.. اشرب القهوة أولاً وبعدين نتكلم!».

«قلت: إن ما بلغك على هذه الصورة غير صحيح، أنا لم أقبض إلا على أعضاء الجهاز السرى، القتلة.. المجرمين.. واعتقلت بعض الإخوان المشتبه فيهم للتحفظ فقط، وهم يعيشون فى المعتقل مرتاحين ٢٤ قيراطًا، رفضوا الأكل الذى عيناه لهم قلت طيب شوفوهم عاوزين إيه!».

«قالوا عاوزين ناكل من «الكانتين» فأمرت بصرف ١٥ قرشًا لكل واحد منهم، وهم مرتاحين وبيلعبوا «بنج بونج وكوتشينة وشطرنج وطاولة»، وشكلت لجنة من الأساتذة مصطفى بك مرعى وزكى باشا على ومصطفى أمين لبحث حالة كل منهم، ومَنْ يثبت أنه ليس من الجهاز السرى يفرج عنهم فوراً، وأما أعضاء الجهاز السرى فيقدمون للمحاكمة العلنية ومَنْ تثبت براءته يفرج عنه، وعدد المقبوض عليهم ستمائة وليسوا آلافًا كما يذيع المغرضون».

«أحب أطمئنك أكثر يا شيخ عبد الجليل».

«أنا لى أخ ربنا فتح عليه ويملك أرضًا زراعية واسعة فى الفيوم وفى الزرقا، وبيربى ماشية وبيبيعها، حالته عال العال، وزوجته من الإخوان المسلمين، وله بنت وحيدة، ولك أن تتصور مدى حبه وتعلقه بهذه البنت».

«جاءنى صديق وقال لى يا أخى هل أنت عارف إن زوجة أخيك تمد الإخوان المسلمين بالأموال والملابس والطعام؟».

«قلت: عارف كل حاجة، دى أرسلت لهم فى الشهر الماضى ٥٠٠ حذاء جديد من مختلف المقاسات، وملابس كثيرة، وأطعمة محفوظة بكميات كبيرة».

«أنا أفهم يا شيخ عبد الجليل أنها تبعث لهم أكل، إنما أحذية وملابس دا شىء كثير، يا خويا لحقوا يتعروا وتبلى ملابسهم وأحذيتهم.. لكن أعمل لها إيه!».

«فقال الشيخ عبد الجليل: دا حصل».

«قلت: والله العظيم دا حصل كله يا شيخ عبد الجليل!».

«فقال الشيخ عبد الجليل: الآن أرحت نفسى».

(٨٥)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى فى موضع سابق من مذكراته على أن يشير إلى حجم التأييد الذى حصل عليه فى البرلمان عندما حاول البعض إثارة الحديث عن تجاوزاته فى التعامل مع الإخوان المسلمين، وهو يشير إلى أن من حقه أن يفخر بأنه كان قادراً

بصرامته وجديته على إعادة الأمن إلى ربوع البلاد، وأن واحدًا من أبرز رجال الوفد هو صلاح بك الشواربى شهد بذلك فى وجه وزير الداخلية فؤاد سراج الدين فى عهد سطوة سراج الدين نفسه:

«. . . الذين أيدونى بما يشبه الإجماع فى كل إجراءاتى كانوا أعضاء فى مجلس الشيوخ، منهم مَنْ كان رئيسًا سابقًا للوزارة، ومنهم مَنْ كان وزيرًا، ومنهم رؤساء محاكم ومستشارون، ومنهم عيان سادات فى قومهم وبين أهلهم أهل كبرياء «مش كبر»، لا كبرياء ناس يعيروا إذا أثبتوا الباطل وعملوا الدنية».

«أريد أن أقول (إن) مجلس الشيوخ هذا كان مجموعة رجال من أصحاب أهل الفكر والرأى فى مصر ومجلس النواب مثله، ومضابط المجلسين تحت أيدى مَنْ يريد الاطلاع عليها فى مجلس الشعب الحالى وفيه الحقائق كاملة. . أيدونى فى كل خطوتى».

. . . .

. . . .

«فيه راجل من أعز رجال الوفد وقف فى مجلس الشيوخ فى وجه فؤاد باشا سراج الدين، وقد كان فؤاد سراج الدين هو الوفد وقتئذ عندما عارض مد الأحكام العرفية لمدة عام، وقف فى وجهه يصرخ: حرام عليك يا راجل، إحنا كنا بنخاف نمشى فى الشوارع، إحنا قعدنا فى بيوتنا مثل الحريم، الآن كذا وكذا وكذا ثابت فى مضبطة مجلس الشيوخ».

«هذا الرجل الذى وقف صارخًا فى وجه فؤاد باشا سراج الدين اسمه صلاح بك الشواربى، راجل كبير عظيم من الأعيان الطيبين، قال لهم: اختشوا حرام عليكم، إحنا كنا بنتدارى فى بيوتنا خوفًا وهلعًا على حياتنا من القتل، وييجى راجل يحكمنا ويعرض صدره للقتل فى أية لحظة نيجى نقف فى طريقه ونحاسبه ونقول له أنت بتعمل كده ليه؟ أمال عاوزينه يعمل إيه؟ يسيب المخربين يخربوا البلد!!».

«هذا الرجل لم يكن من حزبى وإنما كان من حزب الوفد الذى يعارضنى، بل يخاصمنى بعبارة أصح، كل الذى أريده من هذا الكلام أن يتعظ الناس بالماضى

ويبعدوا عنهم وعن الناس وعن الشباب، بخاصة أهل السوء الذين يريدون مذابح لأبناء الوطن كل يوم».

(٨٦)

وفى موضع آخر يستطرد إبراهيم عبد الهادى إلى تأكيد حرصه على صورته فى مواجهة ما أذاعه الإخوان عنه فيما يتعلق بمقتل الشيخ حسن البنا فيقول:

«لقد قالوا وأذاعوا بكل وسائلهم أنى قتلت حسن البنا.. أنا أقتل حسن البنا، هو أنا رئيس دولة والا رئيس عصابة، أنا ذمتى وشرفى يرضيان أن أقتل مواطنًا دمه فى رقبتى وفى حراستى، يساوى إيه عندى حسن البنا أو غير حسن البنا حتى أقتله، دا أنا رئيس وزارة قاعد خمسة أشهر.. سنة.. سنتين وماشى.. حاعمل مثل الفلاحين الجهلة الأغبياء لما واحد يقتل واحد منهم يروح أهل القتيل ويقتلوا قاتل ابنهم أو أخيهم لكى يقولوا دول رجاله أخذوا تارهم».

«أحمد ماهر قتل لم نأخذ تاره.. لكن تقول إيه!! الزفة ماشية.. النقراشى قتل وقدم القاتل والذين اشتركوا معه إلى المحاكمة.. أقوم أقتل حسن البنا».

«وأنا الذى قتلت عبد القادر طه؟».

(٨٧)

ثم يقدم إبراهيم عبد الهادى بعض الأدلة القاطعة على عدم تورطه فيما اتهمته به هذه الأقوال المرسلة التى لم تثبت صحتها رغم تحقيقها قضائيًا مرة بعد أخرى:

«حسين سرى جاء الحكم بعدى.. وأظن حسين سرى لو وجد أى شبهة نحوى لما تركها تمر، وجاء الوفد والعلاقة السياسية بين السعديين والوفد سيئة جدا، وفُتح ملف القضية وحقق فى الأمر ولم يظهر ما يمسنى من قريب أو بعيد».

«وجاءت الثورة وفتح ملف قضية حسن البنا من جديد واختير أحد القضاة لبحث القضية ونظرها، استبعدوه بحجة أنه كان طالبًا معى فى كلية الحقوق.. جابوا قاضى تانى وحقق القضية لم يجد شيئًا».

«أكثر من هذا استدعى الأستاذ مرسى فرحات المستشار وأصدر قراراً بأن لا صلة لإبراهيم عبد الهادى بحادث قتل المرحوم حسن البنا، وأعطى مهلة ثمانية عشر يومًا لمن لديه أدلة أو اعتراض فليتقدم به فى خلال تلك المدة وإلا أصبح حكمًا نهائيًا، فلم يتقدم أحد لا من الإخوان المسلمين ولا حتى من أقرباء الشيخ حسن».

(٨٨)

وفى أثناء حديثه المطول عن محاكمته أمام محكمة الثورة يعطى إبراهيم عبد الهادى أهمية خاصة لحرصه على تبرئة نفسه مما أشيع فى حقه من أنه كان المسئول عن اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا، وهو يقدم أسانيده التاريخية والقضائية فى هذه القضية على نحو مسلسل ويقول:

«. . . . ثبت من جميع التحقيقات التى أجريت فى عهد ما قبل الثورة وفى عهد الثورة أن لا صلة لى بمقتل حسن البنا».

«لقد قُدمت القضية أمام المستشار حسين طنطاوى فى عهد الثورة فلم يعجبهم حسين طنطاوى فحولت إلى القاضى الأستاذ كامل أحمد ثابت فحقق القضية وكذلك قضية مقتل عبد القادر طه».

«وقبل الحكم فى القضية بأيام قليلة رفعت القضية من كامل أحمد ثابت دون أن يعرف لذلك سببا، وقيل بعدها إن كامل أحمد ثابت كان طالبا بمدرسة الحقوق أيام أن كنت طالبا بها».

«وبعدين جاءوا بقاض آخر هو الأستاذ محمود عبد الرازق، لا هو كان من زملائى ولا من أصدقائى، ولا فيه حتى معرفة شخصية بينه وبينى، وحكم بأن لا شىء يمسنى فيها أبدًا، وقد اختاروا بعض المستشارين لكى يعملوا تحقيقًا جانبيًا فعملوا التحقيق، وقدم التحقيق إلى محكمة الاستئناف برياسة المستشار مرسى فرحات الذى كان وزيراً وفديًا، ولما ترك الوزارة عينوه رئيسا لمحكة الاستئناف، وهذا لم يكن معى ولا من أصدقائى، ولا كان زميلى فى الدراسة».

«ووالله ما كنت أعلم شيئًا، وإنما فى يوم من الأيام دعانى المستشار محمد على جمال الدين فى دار القضاء العالى وسألنى عدة أسئلة فى موضوع قتل حسن البنا».

«سأل: هل أنت ذهبت إلى قصر العينى لتتأكد أنه مات».

«قلت: لا يا سيدى هذا غير معقول، والذى أبلغنى الخبر وكنت بمنزلى الأستاذ صابر طنطاوى الموظف بوزارة الخارجية بإدارة الأمن العام».

«قلت له: يا صابر استميت فى القبض على القاتل! كيف أذهب إلى قصر العينى لأتأكد من أن الشيخ حسن البنا مات أم لايزال على قيد الحياة، هل جننت حتى أفعل هذا؟!».

«لم يحصل أبدًا والله!».

«ثبت أن الذى قتل الشيخ حسن البنا الضابط محمد وصفى، وكان له صلة وثيقة بالسراى، وفى يوم من الأيام بالإسكندرية فى الصيف وإذا بصحيفة «أخبار اليوم» تنشر أن الدائرة التى يرأسها المستشار مرسى فرحات أصدرت حكما بأن لا صلة لى ولا لعبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية بقتل الشيخ حسن البنا، وأنه إذا لم يطعن أحد فى هذا الحكم أمام محكمة النقض فى خلال ١٨ يومًا يعتبر حكما نهائيًا».

«ومضت الثمانية عشر يومًا ولم يطعن فى الحكم أحد، وإذا بشىء جديد وتشريع جديد اسمه تشريع محكمة الثورة، وقانون محكمة الثورة، وإجراءات محكمة الثورة لتحكم بغير قانون ولا نظام، وتنطق بأحكامها ولا تكتب لها أسبابًا، ولا تعلن لها أسبابًا».

(٨٩)

بقى أن نشير إلى ما ذكره إبراهيم عبد الهادى (ولا نقول اعترف به) من أنه هو وليس النقراشى باشا هو الذى تولى التحقيق فى وقائع تدريب الإخوان للشبان على السلاح، فقد بدأ هذا التدريب يأخذ صورة شبه علنية عند قيام حرب فلسطين، ورأى النقراشى أن يتغاضى عنه باعتباره من الأعمال الوطنية، لكن إبراهيم عبد الهادى حسب روايته

هو نفسه أمر ببعث الملفات من مرقدها حين بدأت الاعتداءات تترى على رجال البوليس ورجال الحراسة الليلية .

وهو حريص على أن يلفت النظر إلى حقيقة أن الاعتداءات استهدفت مصريين بسطاء لأن اليهود الذين قيل إن الاعتداءات تستهدفهم فى مؤسساتهم كانوا يعملون فى الصباح بينما كانت الاعتداءات تتم فى المساء والمؤسسات خالية من موظفيها :

« . . . ووجد الإخوان المسلمين هذه الفرصة لتدريب الشبان على السلاح ، وضبطت وقائع كثيرة لذلك فى حلوان وفى الجبل بالقرب من القلعة ، ولكن النقراشى رحمة الله عليه ، بعد أن ضبطها البوليس وبدأت النيابة التحقيق ، أمر بتجاوزها وغلق ملفات التحقيق فيها باعتبار أن ذلك من الأعمال الوطنية ، وبقيت دوسيهات هذه التحقيقات مكمورة إلى أن قتل النقراشى وعهد إلىّ بالحكم ، والحوادث على أشدها عدوانًا على بعض الشركات والمؤسسات ، وفتكا بجنود البوليس فى دورياتهم الليلية كما حدث فى شركة الإعلانات الشرقية على اعتبار أنها مؤسسة يهودية ويديرها موظفون يهود ، مع أن الاعتداء كان يجرى ليلاً أو فى الفجر ولا يوجد موظف يهودى واحد فيها أو فى غيرها من المحلات التجارية اليهودية فى ذلك الوقت كشكوريل وأركو مثلاً ، وكان الضحايا كلهم من جنود الحراسة ، أو من صغار العاملين بتلك المؤسسات» .

«أمرت ببعث هذه الدوسيهات من مرقدها ووفقنى الله فى ضبط كشوف الجهاز السرى فى حادث سيارة الجيب بميدان باب الخلق وقد أعدها ذلك الجهاز السرى لنسف محكمة استئناف القاهرة» .

(٩٠)

ونأتى إلى الموضوع الثانى عشر من الموضوعات المهمة التى تتناولها هذه المذكرات ، وهو ما يتعلق بمصر وجيشها فى حرب ١٩٤٨ بدءًا من قرار دخول الحرب ، ثم سير المعارك ، ثم عقد الهدنة ، ثم الاحتكاكات بالأردنيين وباعتراضات العراقيين ، ودوره فى دعم مجهودات الكفاح الوطنى فى هذه الحرب .

والواقع أن مذكرات إبراهيم عبد الهادى لا تخلو من بعض أسرار حرب فلسطين، وهو على سبيل المثال يشير إلى امتعاضه الشديد من أن يكون حيدر باشا هو العسكرى الأول على رأس الجيش فى حرب فلسطين، وهو الذى كان ملازم أول يطارد شباب ثورة ١٩١٩ (!!) كما أنه يجزم بأن النقراشى لم يكن موافقًا على دخول الحرب:

«... وقد يسأل سائل: هل كان يصح أن يدخل الجيش الحرب وهو غير مستعد لها كما حدث فى تلك الحرب، وليست لديه ذخيرة، ومناوراته وضباطه لم يكونوا على مستوى المسئولية؟».

«وجوابى أنه من غير المعقول أن يكون رئيس الجيش وقتها ملازم أول كانت مؤهلاته مطاردة ثوار سنة ١٩١٩، وأنه لما أراد الإنجليز إبعاده من سلك البوليس عينوه وكيل محافظة وبعد هذا يجعلوه رئيس الجيش ويلبسوه بدلة قائد الجيش، أنا من جانبى لا أدرى، بل كنت فى حيرة من أمرى».

«ويفاجأ الناس بدخول الجيش والرأى العام مشبع بهذه العملية فهلل وكبر مطمئنا إلى أن الجيش قادر على محو العصابات الصهيونية».

«فهل يجوز أن يكون الجيش فى الميدان وأتركه وأقوم بأى حركة تهزه وتضيع معنوياته؟!».

«إذا كان العسكرى الأول وزير الحربية المسئول أكد فى مجلس الشيوخ أن الجيش قادر تمامًا على أداء مهمته، أنا شخصيًا (فوجئت) فى الصباح بأن الجيش دخل فلسطين وعلى رأسه القائد الأعلى (أى الملك) ومحمد حيدر باشا وزير الدفاع (و) أن رئيس الوزراء ما كان يملك أبدًا أن يعارض الرأى العام وقتئذ».

(٩١)

ويلخص إبراهيم عبد الهادى نتيجة حرب ١٩٤٨ من وجهة نظره هو، بما فى ذلك الوصول إلى اتفاقات الهدنة على يديه، وهو يجاهر بالقول بأن الجيش المصرى لم ينهزم فى هذه الحرب حتى لو أنه لم ينتصر، وهو يرى فى القول بانهزام الجيش نوعًا من أنواع التجنى، ويكفى، فى نظره، أن الجيش المصرى رغم ظروفه تمكن من أن يحرم إسرائيل

من الوصول إلى السويس، وهو يلفت النظر إلى أن بسالة الضباط والجنود المصريين عوضت جزئيًا ضعف التسلح الذى يصفه بأنه كان من بنادق الغفر، وهو يستشهد بالفريق محمد نجيب الذى خاض المعركة بنفسه، مع أن قواعد الجيش تحظر هذا كما يلفت النظر إلى ما أحرزته مصر من خلال محكمة الغنائم عن طريق القانون الدولى.

والواقع أن فقرة إبراهيم عبد الهادى تحفل بكثير من الأفكار الاستراتيجية المهمة والقابلة للنقاش:

«وأنا أعتبر هذه الهدنة التى اتهمنا بسببها بالخيانة أنها كانت عملاً موفقًا كل التوفيق، لم نفرط فى شىء من حق مصر، مصر فى موقفها وحالة الحرب قائمة، إسرائيل محرومة من المرور فى قناة السويس، محرومة من المرور فى خليج العقبة، ومصر تتحكم فى مدخله».

«هنا موقف قانونى عالمى لم تستطع دولة الاعتراض عليه طبقا للقانون الدولى، بل أقامت مصر محكمة للغنائم رأسها أحمد صفوت باشا ومن بعده رأسها المرحوم محمد عبد الخبير».

«وللناس أن تسأل كم صادرت الحكومة المصرية بحكم القانون الدولى عن طريق محكمة الغنائم من متعلقات إسرائيل العسكرية والمدنية، وهى تقدر بعشرات الملايين من الجنيهات، وأنا لا أملك إلا أن أسأل نفسى وأسأل مواطنى أى عيب فى موقف مصر إلى هذا اليوم؟».

«هل ضيع قطعة من أرض الوطن؟».

«هل وقف موقفًا مخزيًا فى حرب ١٩٤٨ وما بعدها وسلاحه كما يعلم الجميع من الضعف؟ لماذا يقال إن الجيش المصرى هزم فى تلك الحرب وكان الجيش يسد عجز الأسلحة بقوة الإيمان والشجاعة؟».

«لماذا يقال هزمنا؟ أى هزيمة فى هذا بعد قيام الجيش بواجبه فى تلك الظروف القاسية؟».

«قد يقال إننا لم ننتصر أو ما يشبه هذا المعنى، ولا ضير فى هذا، لكن يقال إننا هزمنا هذا ظلم بل هو بهتان أيضًا!!».

«ليقولوا إن الجيش دخل المعركة بغير استعداد مثلاً، وهذا صحيح، كان معه بنادق الغفر، نعم!!».

«ولكن لا يقال إنه انهزم. . . أبدًا لم ينهزم».

«وها هو اللواء محمد نجيب أول رئيس جمهورية لمصر كان ضابطًا كبيرًا فى موقعة «التبة ٨٦»، ترك مركزه وحمل بندقيته وتقدم مع جنوده مع أن لوائح الجيش على مدى علمى المحدود فى هذا الشأن لا تطالبه بذلك، بل تمنعه، ولكن الإيمان والشجاعة والحرص الشديد على وطنه، كل ذلك دفعه للخروج على كل القواعد واللوائح والقوانين وقاتل مع جنوده ببسالة، وكم قدمنا فى معارك فلسطين من ضحايا ضباطًا وجنودًا؟!».

«أنا لا أسمح لنفسى أن أقول ولا أقبل أن يقال إن الجيش المصرى هزم فى عام ١٩٤٨، وأقل ما فيها أنه حرم إسرائيل من الوصول إلى قناة السويس».

(٩٢)

وينفرد إبراهيم عبد الهادى بالإشارة السريعة إلى بعض التفصيلات العسكرية فى حرب ١٩٤٨، ومن الطريف (وربما المذهل فى نظر البعض) أن نرى الإسرائيليين قد سبقونا فى ١٩٤٨ إلى إبرام ما يناظر صفقة الأسلحة التشيكية الشهيرة، وذلك حين حصلوا على بعض الطائرات من تشيكوسلوفاكيا عن طريق السوفييت على حد تعبير إبراهيم عبد الهادى، وربما يقصد أن يقول من السوفييت عن طريق تشيكوسلوفاكيا، ومن الطريف أن الشائع فى وصف صفقة الأسلحة التشيكية فى عهد الثورة أنها جاءت من السوفييت عن طريق تشيكوسلوفاكيا.

وهو يرى أن هذه الأسلحة هى التى رجحت كفتهم ومكنتهم من فتح ثغرة فى الخط الشمالى لجيشنا، ويبدو إبراهيم عبد الهادى وكأنه متأثر بما شاع فى أدبيات حرب أكتوبر ١٩٧٣ من حديث عن الثغرة التى لم تتحقق إلا بعد وصول أسلحة متطورة للعدو:

«. . . . . وكان الجيش المصرى فى ذلك الوقت مشتبكًا مع اليهود فى هذه الأيام الذين أمكنهم أن يحصلوا على بعض طائرات علمت أنها جاءتهم من تشيكوسلوفاكيا

عن طريق السوفييت، وبعض دبابات قليلة رجحت كفتهم، واستطاعوا أن يصيبوا بعض الطائرات المصرية القليلة التى كنا نملكها، وأن يفتحوا ثغرة فى الخط الشمالى لجيشنا فيما فهمت وقتها من القيادة، واندفع من خلال هذه الثغرة بعض مصفحاتهم التى حصلوا عليها من الروس فى اتجاههم إلى العريش».

(٩٣)

ونأتى إلى أخطر فقرة فى حديث إبراهيم عبد الهادى عن حرب فلسطين وهو حديثه عن الهدنة، وهو يدلى بمعلومتين تبدوان متناقضتين إلى درجة كبيرة، لكنهما فى الحقيقة تصدران عن نفس المنطق، إذ يقول ما نفهم منه أن النقراشى كان يتحرق شوقًا إلى فرصة للهدنة وهذا صحيح، كما يقول فيما يرويه على لسان النقراشى ردا على سؤال منه إن الإنجليز والأمريكيين هددوا النقراشى بقطع السولار عن مصر إذا لم يستجب لقرار الهدنة! وهكذا اجتمع الأمران اللذان يبدوان متناقضين حتى جعلا النقراشى يقبل الهدنة الأولى:

«. . . والذى أعرفه أن النقراشى كان فى منتهى الضيق، ولذلك فقد قبل النقراشى أول فرصة أمامه للهدنة . . . قبلها فورًا».

«وقد قبلت أنا الهدنة التى قررها مجلس الأمن وبدأت مفاوضات فى «رودس» لخروج الجيش المحاصر فى الفالوجة برجاله وأسلحته سليمة».

«كنت أود أن أستشهد بوزراء النقراشى باشا عن موقفه من هذه الحرب، ولكنهم جميعًا انتقلوا إلى رحمة الله، ولما سألته لماذا قبلت الهدنة؟ قال: يا إبراهيم الإنجليز هددونى بقطع السولار عن البلد وهم يملكون مصادره، ويستطيعون وقفه فى الحال، وتصور أننى أصبح ألاقى مافيش فرن شغال فى البلد، لقد هددت من الإنجليز والإمريكان كذلك».

(٩٤)

ويشير إبراهيم عبد الهادى فى فقرات متعددة بكل وضوح إلى أن الرجل العسكرى

الأول(!!) الفريق محمد حيدر وزير الدفاع كان يلح عليه فى الوصول إلى حل سياسى بأسرع وقت، وتمثل هذه الفقرات أهمية بالغة لأنها تصدر عن رئيس الوزراء الذى تولى بنفسه العمل من أجل عقد وتوقيع اتفاقية رودس، ومع أنه من السهل أن نلقى بصفة التبرير على ما يتحدث به إبراهيم عبد الهادى من مقدمات الهدنة، إلا أننا لابد أن نعترف للرجل بشجاعته فى تحمل المسئولية والحديث عنها بهذا الصدق بعيداً عن الشعارات أو عن إلقاء التبعة على الآخرين، وبخاصة ونحن نراه يردف حديثه عن رأى وزير الدفاع بالاعتراف بأنه هو نفسه كان مؤمنًا بفكرة وزير الدفاع فى ضرورة الحل السياسى.

والواقع أن إبراهيم عبد الهادى كان، كما يروى، يحرص على اقتناص لحظة تساعده فى المفاوضات من موقف أقوى، وهو فى هذا الصدد يعترف بالفضل للواء فؤاد صادق الذى كان قمة فى الإيمان وعدم الحرص على الحياة والدفع إلى الصمود:

« . . . فى هذه الفترة وأنا أستقبل هذه الأيام وهذه الحوادث الجسيمة الخطيرة فى الداخل وفى جبهة القتال، والتى يمكن أن تقضى على كيان البلاد ومستقبلها لعشرات السنين، أقول فى هذه الأيام العصيبة القاسية كان يصحبنى كل يوم بمكتبى فى الوزارة الفريق محمد حيدر باشا وزير الدفاع طالبًا إلىّ بإلحاح شديد أن أعمل على وجود حل سياسى بأسرع وقت حفاظًا على سلامة الجيش والبلاد».

«وكانت حامية الفالوجا بكامل أسلحتها محاصرة، وكان المعروف يومئذ أن سلاح الفالوجا هو خير أسلحة الجيش، وكنت مؤمنًا بفكرة وزير الدفاع فى ضرورة الحل السياسى، ولكنى كنت أطمئنه وأقول له شيئًا من الصبر لعل الله يرسل نصره فى لحظة اليأس ويوفقنى فيما نريده جميعًا، ولكنه لم يكن يرحمنى من تكرار هذا الطلب صباحًا ومساء، ولو كان الصاغ إبراهيم جزارين حيا لأمكن سؤاله، فقد كان إبراهيم جزارين مدير مكتب حيدر يومئذ ورسوله فى أغلب الأحوال لى، وأشهد أنه كان ضابطًا كفئا خبرته فى مفاوضاتى مع المارشال سلم».

«وكان حيدر باشا يحتج ببعض برقيات تصله من وقت لآخر من قائد الفالوجا توحى بقرب نفاد الذخيرة والمؤن، وأن الموقف يدعو للتفكير فى التسليم، وأشهد الله أن اللواء فؤاد صادق (كان) بإيمانه وعسكريته وعدم حرصه على الحياة أكبر عون على

الثبات والصمود، وبرقياته التى كان يوجهها إلى قائد الفالوجا، وأعتقد أنها موجودة فى ملفات الجيش، تؤكد الصفات التى كان يتحلى بها اللواء فؤاد صادق».

«كان (الضمير يعود على اللواء فؤاد صادق) ينادى قائد الفالوجا المسمى ضبع الفالوجا توسلا: «اثبت يا ابن الخال» إشارة إلى أن الاثنين سودانيان، ثم برقياته إلى حيدر باشا التى يطلب إليه فيها أن يستجيب له باعتباره قائد الجيش وصاحب الموقع والمسئول عنه، وكان اللواء الرحمانى الذى عينته الثورة سفيراً فيما بعد كان رئيس الأركان للواء فؤاد صادق وصديقه والملازم له دائما، وكان الرحمانى معروفًا فى الجيش بكفايته وخبرته وخلقه أيضًا، فرجال الجيش يعرفونه تمامًا وليس فى حاجة إلى تزكية منى».

(٩٥)

ويشير إبراهيم عبد الهادى إلى أن الله سبحانه وتعالى هيأ له اللحظة التى كان يتمناها حين أسقطت القوات الإسرائيلية، عن طريق الخطأ، بعض الطائرات البريطانية التى جاءت للاستطلاع وظنها الإسرائيليون قد جاءت لمساعدة المصريين، مما أصاب الإنجليز بالجنون وجعلهم يهاجمون الإسرائيليين.

هكذا انتهز إبراهيم عبد الهادى الفرصة بأسرع ما يمكن وحدد موعدا للقاء الوزير البريطانى فى منزله على الرغم من أن هذا الرجل كان قد تجاهل البروتوكول ولم يقم بزيارته، ونحن نراه حاسمًا فى ردوده على الوزير البريطانى الذى أراد أن يحصل منه على اعتراف بجميل لم يقصد إليه البريطانيون:

«..... فى هذا الحال والموقف كما وصفت أراد الإنجليز أن يعرفوا حقيقة الموقعة وموقف الجيش المصرى منها، فبعثوا ببعض طائراتهم الاستطلاعية وحلق طياروهم فوق الموقع ولكن اليهود ظنوا أن الطائرات البريطانية إنما جاءت لمعاونتنا فاندفعوا بطائراتهم نحوها وأسقطوا منها ثلاثًا أو خمسًا لا أذكر عددها بالتحديد، فكانت فرصة التقط فيها قادة الجيش أنفاسهم، فقد كانت ساعة من ساعات الصبر والنجدة التى يرسلها القدر للمؤمنين على غير انتظار!».

«. . . جن جنون الإنجليز وقامت طائراتهم المقاتلة بحملة انتقام على الطائرات اليهودية وأسقطوا عدداً منها لا يقل عما أسقط اليهود من طائراتهم، وربما زيادة، ولما وصلنى الخبر هدأت نفسى، وارتاح بالى كثيرا».

«ونحن على هذا الحال طلب تشابمان اندروز الوزير المفوض بالسفارة البريطانية مقابلتى، فحددت له الموعد فى منزلى وقابلته بعد الظهر علمًا بأنه لم يكن زارنى كرئيس للوزارة حتى ذلك الوقت كما يقضى البروتوكول».

«بدأ الوزير البريطانى بالسؤال عن حالة الجيوش فى الميدان فقلت له: جيشنا مازال فى المعركة ولم تفصل الحوادث بعد بيننا وبين اليهود! فأشار إلى ما صنعه الطيران البريطانى بالطيران اليهودى لأفهم بصورة ما أن ما وقع أعطى الفرصة للجيش المصرى أن يحفظ توازنه، وأن الإنجليز فعلوا هذا قصدا لمعونتنا بناء على طلب منى حمله إليهم حيدر باشا، فأجبته فوراً أننى لم أكلف حيدر باشا بشىء من هذا أبداً، ولا يمكن أن أتصور أن الطيران البريطانى فعل هذا قاصداً به معونتنا، وإلا فقد كانت الفرصة قبل ذلك واسعة ومتاحة فلم يفعل، وأنا أفهم أنه انتقم من اليهود على جرأة طيرانهم ولا أنكر أننا استفدنا من هذا».

(٩٦)

وينتقل إبراهيم عبد الهادى إلى الحديث عن تفصيلات حوار استراتيجى دقيق دار بينه وبين الوزير المفوض البريطانى، ويظهر من هذا الحديث قيمة وجدوى وجود رجال دولة من طبقة إبراهيم عبد الهادى يتمتعون بالقدرة على الإلمام بالتاريخ، وتفصيلات العلاقات الخارجية، وحقوق وطنهم فى مقابل حقوق الآخرين.

كما نرى حرص إبراهيم عبد الهادى على ألا ينتقص من المواقف التى أحرزها أسلافه من السياسيين المصريين من حزبه أو من غير حزبه، وهو يقول:

«وعلى كل حال فإذا كان الجيش الإنجليزى مستعداً لإعطائنا حقنا فقط أكون شاكراً».

«فسأل بشيء من العجب: أى حق لكم تطلبونه قبله؟ فقلت: كمية السلاح الصغيرة التى كنتم قدمتموها للجيش المصرى قبل الحرب العالمية الأخيرة بقليل وقبضتم ثمنها ثم استوليتم عليها سلفة يوم لم تكن معداتكم الثقيلة قد وصلت إليكم فى هذا الميدان. لقد حصل هذا فى وزارة على ماهر الأخيرة، هذا السلاح ينفعنا الآن ولا يكلفكم شيئا».

«فاعتذر بأن الأمم المتحدة يمنع ميثاقها مساعدة أحد الطرفين المتقاتلين بسلاح!».

«قلت له: هذا سلاحنا أخذتموه أمانة فى أيديكم يجب رده، لا مساعدة منكم ولامؤاخذة من هيئة الأمم المتحدة فى رده، بل هو حق وواجب».

«فكرر الاعتذار وبادر فقال: أنا تحت أمرك أعطيك من السلاح ما تشاء بمقتضى معاهدة ١٩٣٦».

«قلت له: أنت تعلم أن مصر اعتبرت معاهدة ١٩٣٦ قد استنفدت أغراضها ولم يعد لها وجود بمقتضى ميثاق هيئة الأمم نفسه».

«وأضفت بأن كل الجهد الآن قائم على الاعتراف من جانبكم بهذا! وليس من المستحسن انتهاز مثل هذه الفرصة لانتزاع اعتراف منى لا فائدة من الحصول عليه أصلا، ويجب أن يسود الوفاق العلاقات بين الدولتين لأن هذا أفضل لكم ولنا».

«وإلى هنا انتهى الحديث وفشلت محاولته، ولكن الموضوع كله، موضوع القتال مع إسرائيل كان مطروحًا أمام مجلس الأمن وبفارغ الصبر كنا ننتظر قراره».

(٩٧)

هكذا انتهى إبراهيم عبد الهادى إلى بناء موقف صلب فى مواجهة ألاعيب البريطانيين ومحاولتهم المن على مصر بموقف من مواقف حرب ١٩٤٨، بينما هم يقيدون أيديها حتى عن أن تنتفع بما تملك من سلاح أعارته للبريطانيين، وقد كان هذا الموقف وطبيعة العلاقات الدولية فى ذلك الوقت مشجعًا للأمريكيين على أن يأخذوا دورهم الذى كانوا يتطلعون إليه على نحو ما نراه من رواية إبراهيم عبد الهادى.

ومن الجدير بالنظر أن نرى إبراهيم عبد الهادى رجل دولة قادراً على أن يأخذ قراره وأن يحصل لهذا القرار على موافقة مجلس الوزراء قبل أن ينهى تفصيلات كل هذا إلى الملك فاروق، ومن الجدير بالنظر أن نرى أيضًا أن إبراهيم عبد الهادى ينص على أنه أبلغ القرار إلى الملك بوصفه القائد الأعلى للجيش لا بوصفه الملك:

« . . . . . وكان القائم بأعمال السفارة الأمريكية يومئذ كثير التردد علىّ بسبب وبغير سبب فى البيت وفى الوزارة».

«وفى آخر لقاء معه فهم منى أنه يستطيع مقابلة وزير الخارجية فيما يريده مادام لا يحمل إلىّ رسالة من حكومته».

«وفى حوار بسيط فهمت منه أنهم يلقون علينا ببعض اللوم فى عدم الاستجابة لأى اقتراح من جانبهم».

«مضى على هذا الحديث يوم واحد، ومن حسن الحظ كان مجلس الأمن قد انتهى فى اليوم التالى إلى قرار بوقف القتال، فجاءنى القائم بالأعمال الأمريكى بتلغراف من حكومته يقرؤه علىّ ويسألنى إذا كانت الحكومة المصرية تقبل وقف القتال، فلم أتردد لحظة وأجبته فوراً أن يبلغ حكومته بأن الحكومة المصرية تراعى دائمًا المحافظة على قرارات هيئة الأمم وتنفيذ ميثاقها، وأن الحكومة المصرية بمقتضى ذلك تقبل وقف القتال».

«ولما انتهيت من عملى دعوت مجلس الوزراء للاجتماع فى منزلى واجتمع المجلس فى الساعة الرابعة بعد الظهر وأحطته علمًا بما تم فوافق عليه راضيًا بالإجماع، ثم أبلغت الملك بوصفه القائد الأعلى للجيش بذلك فوافق».

(٩٨)

ويورد إبراهيم عبد الهادى بعض تفصيلات مهمة عن اتفاقيات الهدنة التى تمت بين مصر وإسرائيل فى عهده، وهو يعترف بأن الجزء الأكبر فى الفضل فى إتمام هذه الاتفاقيات يعود إلى مسئول الأمم المتحدة، كما يعترف بأن طريقة الانتقال بين أطراف النزاع تجنبًا لالتقائهم مع بعض كانت شيئًا مضحكًا.

ومن الطريف أن نلاحظ أن كاتب مذكرات إبراهيم عبد الهادى كان حريصًا على التقليل من قدر محمود رياض حين يذكر أنه كان يوصف بحامل الحقيبة، وإنى أستبعد أن يكون إبراهيم عبد الهادى يقصد المعنى الظاهر لهذه العبارة التى أوردها كاتب المذكرات، ذلك أن إبراهيم عبد الهادى كان وزيرًا للخارجية من قبل ويعرف أن اصطلاح «حامل الحقيبة» اصطلاح يطلق على مهمة يقوم بها دبلوماسى وليس اللفظ دليلاً على وظيفة دائمة أو صفة دائمة:

«. . . . . وبدأ العمل على ترتيب الأمور التى تنشأ عن هذا وانتدبت الأمم المتحدة مستر رالف بانش ليكون وسيطًا فى التفاهم بيننا وبين اليهود، لأن الجانب المصرى يصر على ألا يلتقى اليهود لقاء مباشرا فى غرفة واحدة، فاخترنا وفدنا برياسة ضابط كفء ومتواضع وحسن السمعة والتقدير بين رجال الجيش وهو اللواء سيف الدين، واللواء الرحمانى، وإسماعيل شيرين، وكلا الاثنين له قدرة وكفايته العقلية، كما أن إسماعيل شيرين يجيد عدة لغات إجادة تامة، وكان وأخذ معاه محمود رياض الذى صار وزيراً للخارجية وأميناً عامًا للجامعة العربية فيما بعد، وكانوا يصفونه بحامل الحقيبة، وكان الوفد المصرى يقيم فى دور بالفندق والوفد الإسرائيلى يقيم فى دور آخر، وينتقل رالف بانش بين الوفدين حاملا مقترحات كل منهما والرد عليها، والواقع أنه كان موقفًا مضحكا لأنه كثيرا ما كان يلتقى الوفدان على غداء أو عشاء بينهما، وقد بذل بانش جهودا عظيمة للوصول إلى الاتفاق».

«وفقت جهود المتفاوضين إلى فك الحصار عن قوات جيشنا فى الفالوجا، ولكن اليهود اشترطوا أن يسلم جيشنا كل أسحتنا لهم ويخرج الجيش المصرى بدون سلاح، فرفض وفدنا وأصر اليهود على رأيهم، وجاءنى الرحمانى بك وإسماعيل شيرين وعرضا علىّ سير المفاوضات، ولما جاء ذكر خروج الجيش من الفالوجا بغير سلاح قلت لهم: هذه مسألة لا مناقشة فيها إطلاقا، إما أن يخرج جيشنا بسلاحه كاملاً، أو يجرى ما يجرى ولو كان أسوأ الشرور، فهو عار سيبقى أبد الدهر لا يمكن أن يحتمله وطنى مدنى أو عسكرى بحال!!».

«فقال: وهذا رأينا جميعا قد سجلناه».

«وفعلا نجح الوفد وكان لبانش أثر كبير فى هذا النجاح، وقد بذل فيه جهدًا كبيرًا أذكره له بالخير».

«وخرج الجيش من الفالوجا بأسلحته ومعداته كاملة، وعاد إلى مصر واستقبل بكل تكريم استقبالاً رسميًا اشترك فيه الملك السابق فاروق، وطاف بنفسه على سيارة جيب مع قائد الفالوجا المسمى ضبع الفالوجا».

(٩٩)

ويشير إبراهيم عبد الهادى إلى الحل الذكى الذى استطاع أن ينتهجه للقضاء على مشكلة طارئة نشأت عن الاحتكاك بين الجنود المصريين والأردنيين فى منطقة الخليل، ويبدو فيما يرويه إبراهيم عبد الهادى مدى قدرة رجال الدولة المتميزين من أمثاله على إجهاض كثير من المشكلات الطارئة، ووضع الإطار القانونى والقانون الدولى الذى يتصدى للأقاويل والافتراءات مبكرًا:

«. . . فى هذه الأثناء كان موقع الخليل فى يد الجيش المصرى، وجاءنى حيدر باشا يشكو كعادته من أن جنود شرق الأردن بدءوا يحتكون فى الخليل بالجنود المصريين احتكاكا فيه شىء من معنى الإهمال والتحدى وعدم الاكتراث».

«فكرت فى الأمر واهتديت إلى استدعاء توفيق باشا «أبو الهدى» رئيس وزراء الأردن للحديث معه فى هذا الموضوع، وكان رجلاً عاقلاً، واسع الفكر والثقافة، وصاحب تجربة، فلم يضيع وقتا وجاءنى مسرعًا، وتكلمنا كالعادة عمومًا فى الوضع وما تم فيه وقلت له: مادامت الهدنة أصبحت مقررة فمن حق الجيش المصرى أن يعطى فرصة للراحة بعد أن قام بواجبه كما تعلم، وأن يقوم مقامهم فى واجباته الجيش الأردنى مؤقتا، فتقبل الرجل الفكر مرحبًا وتبادلنا فى هذا الشأن خطابين هو من جانبه يشكر للجيش المصرى جهده وعمله وما نهض به من مهام، وأنا من جانبى رددت عليه شاكرًا وأننا جميعًا والجيوش العربية كلها تعمل لغاية واحدة، وحين يخرج الجيش المصرى من الخليل فإنه يترك مواقعه أمانة لأصحابها أهل فلسطين».

«وعلى ذلك أنجينا الجيش المصرى من احتمال احتكاكه مع الأردنيين ومحاولة مس

كرامته أو معاملته بعدم الاكتراث والإهمال، وفى الوقت نفسه حفظنا للفلسطينيين حقهم».

«ولما خرجت من الحكم أراد بعض الخبثاء الذين يحبون الصيد فى الماء العكر دائما أن ينسبوا إلىّ أننى سلمت للملك عبد الله منطقة الخليل والضفة الغربية، ولكن الله سلم ونشر الخطاب المتضمن الاحتفاظ بحق الفلسطينيين فى أرضهم، وأن القائم عليها إنما يقوم عليها مؤقتًا لحساب أهلها!!».

(١٠٠)

وفى موضع آخر يبدى إبراهيم عبد الهادى تحفظه علنًا على سياسة الملك عبد الله فى أثناء حرب ١٩٤٨، مشيدًا كل الإشادة بالجيش المصرى الذى جاهد بأعز ما يملك دون أن تؤثر فيه المؤامرات والمناورات:

«... لقد سئلت من لجنة التاريخ أن الجيش الأردنى احتك بالجيش المصرى احتكاكًا سيئًا، بل مهينًا فى بيت لحم، وما كان من موقف إزاء ذلك؟!».

«فأجبت ماذا كنت أعمله يا إخوانى؟ هل أروح أحاكم الملك عبد الله وقد ترك جيشه يفتح الطريق لليهود ليستولوا على اللد والرملة؟».

«كان الواجب أن يقف معنا فوقف مع اليهود، أعمل إيه.. ارحمونا يرحمكم الله».

لقد استبسل الجيش المصرى على طول الجبهة المصرية فى أرض فلسطين، ربنا كان معه لأنه راح فلسطين لا يتاجر ولا يخطف، دا جيش رايح ينصف مظلوم ويدفع عنه الظالم، لذلك ربنا أكرمه».

(١٠١)

وتتضمن مذكرات إبراهيم عبد الهادى ما يشبه الإدانة لسياسات الحكومة العراقية فى أثناء حرب ١٩٤٨، وهو يؤكد على ما شاع فى التاريخ العربى المعاصر أن القادة

العراقيين الميدانيين كانوا يتقاعسون عن الاشتراك بقواتهم فى الحرب معلنين أنه لم تصل إليهم الأوامر بالاشتراك.

ويروى إبراهيم عبد الهادى بكل وضوح أنه صارح بهذا المعنى ومدلوله سفير العراق عندما جاءه حاملاً عتابًا من رئيس الوزراء العراقى لإبراهيم عبد الهادى لأنه لم يأخذ رأيه قبل توقيع الهدنة.

ومن الواضح أن الحق كان فى جانب مصر وإبراهيم عبد الهادى:

«... وأذكر أن نورى السعيد باشا رئيس الوزراء العراقى عين فاضل الجمالى، وهو تلميذه وأحد مريديه فى الوقت نفسه، سفيرًا للعراق فى مصر، وطلب إليه مقابلتى برسالة خاصة، فلما جاءنى قلت له خيرًا».

«قال السفير العراقى: إن نورى باشا يعتب على دولتكم ويسأل ويقول: كيف يفوت إبراهيم عبد الهادى الذى نعرفه وطنيا مناضلاً طول حياته (أن) يأخذ رأى شركائه فى الحرب وفى الجهاد قبل توقيعه الهدنة مع اليهود؟».

«ثم قال: لقد كنا نعد للموقعة طابورًا مصفحًا للمعركة، وأنا أنقل عبارته حرفيًا، فسألته عن أى طريق كنتم سترسلون الطابور المصفح؟ ولماذا أخرتموه حتى توقيع الهدنة؟! قل لنورى باشا إن إبراهيم عبد الهادى كان وحده فى الحرب، أى الجيش المصرى كان وحده فى الحرب، ولو كان إلى جانبه واحد آخر لما غفل عن دعوته، أما الطابور المصفح الذى لا نعرف شيئا عنه إلا بعد الهدنة لا يكون له عتابًا ولا فى وزن الأمور!».

«ثم قلت: ألم يبلغك يا سيادة السفير رد قادة الجيش العراقى كلما سألوا لماذا لا تتقدموا وتحاربوا؟!».

«قال: لا».

«قلت له: أنا لا أعرف اللهجة العراقية لكن هذه الكلمة ترددت على سمعى فى حينها وهى قولهم: «ماكو أوامر»، وظلت هذه الكلمة الرد الوحيد لرجال جيشكم كلما سئلوا هذا السؤال، فأى عتاب لنورى باشا علىّ بعد هذا؟».

«فلم يرد بكلمة واحدة وانصرف».

(١٠٢)

ويزيد إبراهيم عبد الهادى هذه اللقطة إيضاحًا راويًا ما يعرفه بحق عن تاريخ العراق الحديث، وطموحات نورى السعيد فى فكرة الهلال الخصيب، ومنازعة مصر على زعامة العرب.

ويستطرد إبراهيم عبد الهادى بذكر حقيقة أن الباجهجى الذى خلف نورى السعيد فى رياسة وزارة العراق لم يكن قادرًا على إمضاء سياسته العربية القوية لأن الجيش لم يكن ليقبل بغير سياسة نورى السعيد والأمير عبد الإله الوصى على العرش:

«. . . . وكان هناك راجل طيب مخلص للقضية العربية هو الباجهجى، وكان سفيرا للعراق فى روما، وأنا التقيت به هنا فى مصر وفى خارج مصر، وقد علمت أنه غير راض عن سياسة نورى باشا، وفجأة استقال نورى باشا وجاء الباجهجى رئيسًا للوزارة فتفاءلنا خيرًا، وقد كان الرجل فعلاً مخلصًا للقضية العربية والقضية الفلسطينية، وكلما أصدر أمرا للجيش لا يعير أوامره التفاتا ولم يعبأ به كرئيس للوزارة لأن الجيش العراقى كان يسير على سياسة نورى السعيد والأمير عبد الإله الوصى على العرش، وكانت سياسة الاثنين معاكسة تمامًا لسياسة مصر على طول الخط، وهى أقرب إلى المنافسة والزعامة على الأمة العربية منها إلى أى شىء آخر، لكن مصر هى مصر مهما تغيرت الأحوال والظروف».

«ثم اسأل فيم المنافسة لا شىء من جانب مصر بطبيعة الحال، غاية ما فى الأمر أنه طالع فى دماغ نورى باشا حاجة اسمها «الهلال الخصيب» الذى يضم سوريا ولبنان وشرق الأردن وفلسطين، وهو حلم قديم من أيام الملك فيصل الأول، وربما قبل ذلك التاريخ».

«وتوفى الملك فيصل الأول إلى رحمة الله وترك ملكه لولده الملك غازى، وقتل غازى رحمه الله فى حادث سيارة قيل وقتها إن الإنجليز هم الذين دبروا الحادث للخلاص منه بسبب نزعته الوطنية المتطرفة».

«وتولى بعده ابنه فيصل الثانى ملك العراق، وعين الأمير عبد الإله وصيًا عليه، ولم يكن أمام عبد الإله إلا موضوع الهلال الخصيب يوافقه ويعاونه فى ذلك نورى السعيد واعتمادهم فى تنفيذ ذلك على الإنجليز بطبيعة الحال».

«لم يكن لعتاب نورى السعيد عندى أى أثر ، وما كان يصح أن أواجه به . لقد كان الجيش المصرى المحارب الوحيد فى المعركة ، وكان رائعًا ألقى جنوده أنفسهم فى أتون المعركة إلى أن نجاهم الله ونصرهم ورفع كرامتهم وأعلى شأنهم بين الأمم» .

(١٠٣)

بقى فى مدارستنا لحديث هذه المذكرات عن حرب ١٩٤٨ أن نشير إلى ما ذكره إبراهيم عبد الهادى من أنه ساعد بكل قوته وهو رئيس للديوان الملكى على نقل الأسلحة التى تمكن الوطنيون فى الإسماعيلية بقيادة عبد الحميد صادق من الحصول عليها من الجيش الإنجليزى :

« . . . حينما كنت رئيسًا للديوان الملكى زارنى الأستاذ على أيوب المحامى ، رحمة الله عليه ، ومعه الأستاذ عبد الحميد صادق المحامى بالإسماعيلية ، وعلى بك أيوب (زميل) معى فى الوزارة وفى مجلس النواب وفى الهيئة السعدية من يوم أن قامت ، وفى المحاماة عمل طوال السنين» .

«سألنى على أيوب أن ألبى رغبة عبد الحميد صادق فيما جاء من أجله بخصوص الحرب فى فلسطين ومعاونته بكل الوسائل» .

«قلت : طبعًا دا الجيش بتاعنا ويجب عمل أقصى ما يمكن لمساعدته لينتصر فى هذه الحرب» .

«فقال عبد الحميد صادق إن باستطاعته أخذ كميات كبيرة من مخازن الجيش البريطانى بمنطقة فايد بواسطة رجاله وأعوانه ، وأن ما ينقصه وجود القطارات التى تحمل هذه الأسلحة ، والمطلوب الاتصال بعبد المجيد باشا بدر مدير السكك الحديدية ، فاتصلت بعبد المجيد بدر فورًا وطلبت إليه تقديم أقصى ما يطلبه عبد الحميد صادق مهما تكن النتائج وهو عندى الآن وسوف يجيئك حالا ويعرض عليك طلباته ، فنفذ عبد المجيد بدر كل ما طلبه عبد الحميد صادق وكان خير معاون للحصول على كثير من الأسلحة التى كانت تعوز الجيش المصرى» .

(١٠٤)

ونأتى إلى الموضوع الثالث عشر من الموضوعات المهمة التى تتعرض لها هذه المذكرات، وهو ما يتحدث به إبراهيم عبد الهادى عن رأيه فى الملك فاروق وعن علاقته به فى أثناء رياسته للوزارة، ومن قبل ذلك فى أثناء رياسته للديوان، وربما كان من الأفضل أن نبدأ هذا الاستعراض بأن نتحدث عن الأزمات التى شهدتها فترة رياسته للوزارة باعتبارها أدلة كاشفة عن طبيعة هذه العلاقة، ثم نستعرض طبيعة علاقته به حين عمل معه رئيسًا للديوان، ثم نورد أهم آرائه فى شخصية الملك فاروق وأدائه.

يورد إبراهيم عبد الهادى تفصيلات مهمة لكنها مجملة عن أزمة حقيقية ارتبطت باختيار عثمان المهدى رئيسًا للأركان خلفًا لإبراهيم عطا الله، ويشير إبراهيم عبدالهادى إلى أنه هو نفسه كان يفضل تعيين اللواء أحمد فؤاد صادق لبطولته فى حرب فلسطين وكفاءته التامة، وأن إسماعيل شيرين كان أيضًا من هذا الرأى، لكن حيدر نجح فى تخويف الملك من أحمد فؤاد صادق مصوراً له على أنه «عرابى جديد»، ومن طرائف التاريخ أن أحمد فؤاد صادق كان المرشح الأول عند ثوار ٢٣ يوليو ليكون قائدًا للثورة لكنه اعتذر عن قبول عرضهم التزامًا منه بالقسم الذى أقسمه بالولاء للملك وهكذا كان المظنون أن يكون «صادق» مرشحًا بالفعل لأن يكون «عرابى» لكنه فى حقيقة الأمر لم يشأ أن يكون «عرابي».

«. . . وواجهت حكاية جديدة مع الملك نفسه، وهى تعيين رئيس أركان حرب الجيش خلفا للفريق إبراهيم عطا الله، طبعا الجيش لا يمكن أن يبقى بغير أركان حرب، أنا لا أعرف إبراهيم عطا الله ولكن المعلومات التى وصلتنى عنه أنه كان ضابطًا كفئًا جنديا من رأسه إلى إخمصيه، وربما تكون فيه حاجة عنده لا أعرفها، ولكن حيدر باشا ياور الملك ووزير الحربية تقفاه (أى لاحقه بالمضايقات) حتى أخرجه من الجيش».

«ورشحوا رجلاً معروفًا فى الجيش باستقامته هو عثمان المهدى باشا، وكان فى حرس الملك وموضع ثقة البيت المالك من أيام الملك فؤاد وحتى من أيام السلطان حسين، وعرضت أمامى حكاية خاصة به فهمت منها أنه رجل مهذب وكل الناس تحبه

لدماثة خلقه، وعرفت أنه كان الأول فى أيام تخرجه بالمدرسة الحربية وفؤاد صادق الثانى، ولم يكن عندى اعتراض أبدًا على تعيينه رئيسا للأركان، وإن كنت أعرف على وجه اليقين أن فؤاد باشا صادق كان قائد ميدان فى الجيش مشهودًا له بالكفاءة التامة، والضباط يعرفون قدره».

«وإذا أدخلنا فى الاعتبار أن فؤاد صادق كان بالمعاش فى أثناء حرب فلسطين، وأنهم استدعوه وغيره فى منصبه، وأنا أعلم أن له ضلعين مكسورين فى الحرب. رجل بهذه الصفات كلها مجمع على تقديره من رجال الجيش كنت أفضل أن يكون رئيسًا للجيش، وجاءنى إسماعيل شيرين وقال لى: إنه يرى وكل رجال الجيش يرون أن فؤاد صادق خير مَنْ يتولى منصب رئاسة الأركان».

«قلت له: هذا رأيى وإن كنت أكن لعثمان باشا المهدى كل تقدير ومحبة، ولكن السيد حيدر يكره فؤاد صادق ولا يطيق حتى ذكر اسمه، وأن فؤاد صادق لا يكن للسيد حيدر أى احترام لدرجة أن حيدر عندما كان يبعث إليه بعض الأوامر لا يرد على كثير منها، وأركان حرب فؤاد صادق يعلمون ذلك يقينا وفى مقدمتهم الرحمانى بك».

«وأنا أقول والحزن يمزق قلبى إن الرسائل استخدمها حيدر مع الملك لصرفه عن تعيين فؤاد صادق، لقد تردد اسم أحمد عرابى كثيرًا فى هذا الوقت، وللناس أن تفهم معنى هذا، وهو أن ترديد اسم عرابى وثورته على الملك يعنى ماذا؟!».

«يعنى بصراحة أن فؤاد صادق مثله مثل عرابى تمامًا لا يتردد أبدًا فى القيام بثورة فى الجيش فى أى فرصة تتاح له ليقصى بها الملك، فوجدت أن لا فائدة من إصرارى على تعيين فؤاد صادق».

«ووجدت من الخير الموافقة على تعيين عثمان المهدى خصوصًا وهو رجل طيب مشهود له بالكفاءة، ورأيت من باب الإنصاف أن أقترح تعيين فؤاد صادق باشا مفتشا عاما للجيش، فقال حيدر: لا مانع نعمل كده قريبا».

(١٠٥)

ونأتى إلى الأزمة الثانية التى ارتبطت برغبة الملك فى تعيين عثمان المهدى بأمر ملكى

بدلاً مما تم بالفعل وهو تعيينه بمرسوم ملكى، ومن الحق أن نشير إلى أن إبراهيم عبد الهادى وقف فى هذه القصة موقفًا متميزًا، وقد أشار حسن يوسف نفسه إلى هذه الوقائع فى مذكراته ونقلناها عنه وعقبنا عليها فى كتابنا «فى كواليس الملكية»، ومن العجيب أن الملك فاروق ظل يلح هذا الإلحاح الغريب من أجل سحب المرسوم ليصدر أمرًا ملكيًا بدلاً منه حتى دفع إبراهيم عبد الهادى نفسه إلى الخطأ فى حقه بقوله: أنا لم أسرق لنفسى فكيف أسرق لغيرى؟ ويبدو إبراهيم عبد الهادى نفسه شاعرًا باندفاعه إلى هذا الخطأ نتيجة للإلحاح الثقيل والمتكرر الذى ووجه به:

«. . . . . تم تعيين عثمان باشا بمرسوم ملكى، وإذا بى أفاجأ بعد مدة ويجىء كريم ثابت مستشار الملك الصحفى وأثيره كما يعرف الناس، جاءنى كريم يطلب المرسوم ليطلع الملك عليه».

«قلت له: إن بمكتبة السراى نسخة منه ومحفوظات السراى منظمة على نسق أفضل من محفوظات مجلس الوزراء، فألح فى طلبه، فرفضت».

«جاءنى بعدها بقليل الأستاذ حسن يوسف وكيل الديوان وطلب نفس الطلب».

«قلت لحسن باشا يوسف: إيه الحكاية ياحسن باشا؟».

«قال: الملك عاوز كده».

«قلت: يا حسن باشا المرسوم صورته موجودة فى خزائن السراى».

«صارحنى حسن باشا بأن الملك يريد إعادة تعيين عثمان باشا بأمر ملكى بدلا من تعيينه بمرسوم».

«فقلت له: يا حسن يا خويا هذا عمل غير دستورى التعيين بمرسوم لطائفة كبار الموظفين بمرسوم تعده الوزارة ويوقعه الملك، هذا هو الدستور كما تعلم، وأنا لا أستطيع مخالفة الدستور فى هذا ولا فى غيره».

«ثم ماذا يقول الناس؟».

«ضربت كفًا بكف وقلت: أهذا يحدث بعد شهرين من قبول الرياسة (أى رياسة الوزارة) فى هذه الظروف الملعونة. . ألا يكفى ما أنا فيه».

«عثمـان باشـا المهدى لم يعمل شيئًـا ومن حقه أن يبقى فى منصبه هـذا حتى سن الخامسة والستين، ولكن الملك كان يريد أن يسطو على حكم من أحكام الدستور فى شأن خطير من شئون الجيش حتى يبقى الجيش من أوله لآخره فى يده».

«أصررت على طلبى بعد أن تكرر الطلب أكثر من مرة من كريم ثابت ومن حسن يوسف، وكنت ضيق الصدر فبدرت منى عبارة ثقيلة حيث قلت لكريم ثابت: «يا كريم إذا لم أسرق لنفسى فكيف أسرق لغيرى» فانصرف».

«ولا أدرى إن كان قد بلغ الملك عبارتى التى كان ينبغى أن أقول غيرها أو لم يبلغه، فقد كلمنى الملك فى هذا الموضوع تليفونيًا فى نفس اليوم قلت له: «إنه ليس من المصلحة أن يتبع هذا»، فلم يصغ إلىّ وجاءنى كريم ثابت وبكى وقال لى: «فى عرضك الملك بيضربنى . . ارحمنى».

«وكريم كان ماهرًا فى عرض ما يريد الحصول عليه، خصوصًا إذا كان خاصًا بالملك!!».

«قلت له: إن أنا رحمتك فمن يرحمنى غدا؟!».

«فاتنى أذكر بأن كامل بك سليم سكرتير عام مجلس الوزراء كان قد جاءنى من أيام قلائل وقال لى إن حسن باشا يوسف طلب منى أن أعطيه مرسوم تعيين عثمان المهدى تنفيذًا لرغبة الملك فلم أسلمه له وأريد أن أعرف رأيك».

«قلت له: لا تسلم هذا المرسوم لأحد واحفظه فى مكان أمين، وجاءنى حسن يوسف مرة أخرى فقلت له نفس الجملة التى سبق أن قلتها».

«فقال: وهل أبلغه ذلك؟».

«قلت: لا مانع عندى، انصرف وانتهت هذه المسألة».

(١٠٦)

ونأتى إلى ثالث أزمات إبراهيم عبد الهادى مع الملك فاروق فى أثناء رياسته للوزارة، وهى أزمة التصديق على الحكم على مصطفى كمال صدقى، وكان الملك يريد

من رئيس الوزراء ألا يصدق على الحكم على حين كان رئيس الوزراء يرى أن من واجبه أن يصدق على الحكم كى لا يكون أقل حرصًا على تطبيق القانون من القاضى المدنى الذى أصدر الحكم، وقد وصل إلحاح الملك إلى أن الرسل كانت تذهب إلى إبراهيم عبد الهادى صباحًا وظهرًا ومساء:

«. . . وبعد مدة قصيرة صدر حكم على مصطفى كمال صدقى الضابط المعروف وضابط آخر معه بالسجن خمس سنوات لضبطهما بأسلحة لا يجوز حملها خارج الثكنات بمقتضى قانون أصدرناه بمناسبة حوادث الاغتيالات والنسف التى جرت فى الأيام السابقة».

«لا أذكر اسم الضابط الآخر زميل مصطفى صدقى ولكنى كنت أعرف أنه من المشهورين بالاشتراك فى كل جريمة قتل يطلب المساهمة فيها، بل كان يسعى للاشتراك فيها!».

«ولما حكم على الضابطين بالحكم المشار إليه جاءنى بعدها كريم ثابت وقال: إن جلالة الملك يرجو ألا تصدق على الحكم».

«قلت: كيف يا كريم لا أصدق على الحكم وقد حوكم مصطفى كمال صدقى أمام قاضى نادر المثال وهو مختار بك عبد الله (وحكم عليه هو و) شريكه بخمس سنوات، وكان أول حكم يصدر بعد صدور القانون؟».

«والمعروف عن مصطفى كمال صدقى صلته المشبوهة بإحدى سيدات القصر».

«ولكن كل يوم صباحا وظهرا ومساء يحضر إلىّ واحد من السراى يرجونى ألا أصدق على الحكم، وقلت ذات مرة للأستاذ حسن يوسف: يا حسن القاضى المدنى يحكم حرصًا على تطبيق القانون ومصلحة الوطن، وأنا رئيس الوزراء أكون أقل من القاضى محافظة على تنفيذ القانون وحرصًا على أمن البلاد، يرضى مين ياحسن!!».

«كان يعاوننى فى تطبيق الأحكام العسكرية والشئون القانونية عمومًا مصطفى بك مرعى وزير الدولة، طلبته ورويت له ما حدث، وأن الواجب أن تسرع فى عرض الأحكام العرفية للتصديق عليها وفى مقدمتها الحكم الذى صدر على مصطفى كمال صدقى وزميله، فكان رأيه من رأيى وأشر على الحكم بالتصديق، وبعدها قدمت

استقالتى، وتولى حسين سرى باشا رياسة الوزارة وكان الأستاذ مصطفى بك مرعى أحد أعضائها وزير دولة للشئون القانونية كما كان فى وزارتى».

(١٠٧)

ومن الإنصاف لإبراهيم عبد الهادى أن نتأمل فيما يرويه عن الأزمة الرابعة بينه وبين الملك فاروق، وهى التى تعلقت بالخلاف الذى وقع بسبب مصروفات إصلاح يخت المحروسة، وهو الخلاف الذى يروى بعض المعاصرين أنه كان السبب فى إخراج إبراهيم عبد الهادى من رياسة الوزارة، ويظهر مما يرويه إبراهيم عبد الهادى أنه تحمل وحده مسئولية التوفيق بين الرغبات الفجائية للملك وبين القانون، كما وضع من القواعد ما يكفل سلامة الإجراءات دون أن يخلق مشكلة تصادم حادة، ومع هذا فإن مشاعر التربص والعداء فى القصر كانت كفيلة بأن تصور الأمور للملك فاروق على نحو آخر:

«. . . وما أن انتهيت من مشكلة مصطفى كمال صدقى حتى واجهتنى مشكلة يخت المحروسة».

«فلم أكد أفرغ من الميزانية حتى فاجأنى اثنان من الوزراء حسين بك فهمى وزير المالية والسيد حيدر وزير الدفاع، يقولان فى نفس واحد: عن إذنك يا سيادة الرئيس.. قلت: خير! قالا: فيه طلب جديد، يبقى ايه الطلب الجديد؟».

«قال: عاوزين اعتماد نصلح به اليخت الملكى «المحروسة»، فقلت: حسين فهمى يتكلم فى هذه المسألة ياسى حيدر».

«وتكلم حسين فهمى فقال: إننا نطلب اعتماداً خاصًا لإصلاح اليخت المحروسة».

«فقلت له: ولماذا لم تطلب هذا من البداية؟».

«فقال وزير المالية: لقد فوجئت بهذا الطلب من السراى أبلغنى به حيدر باشا الآن فقط».

«قلت: وتقدرون كم جنيهًا لإصلاح اليخت؟».

«فقال: لا أعرف!».

«قلت: لا تعرف، طيب اتكلم أنت يا حيدر، فلم يتكلم، وأنا أعرف أخلاقه، ومدى تقديرى له، الملك طلب منه هذا الطلب وهو يريد أن يضعها فى كتف رجل غيره».

«قلت لوزير المالية: دى مسألتك أنت يا حسين بك».

«فقال: السراى جبت خبراء وقدروا مبلغ مليون جنيه لإصلاح اليخت!».

«قلت: مليون جنيه، طيب حولوا الموضوع بحذافيره إلى اللجنة المالية فى مجلس النواب، دا مبلغ كبير».

«ومن الطبيعى أن يوجد وزير يحضر اللجنة المالية يدافع عن الطلب ومبرراته، وطلبت من حيدر باشا أن يكون هو الوزير الذى يقوم بهذه العملية».

«وكان رئيس اللجنة المالية بالمجلس الأستاذ سامح موسى، وهو نائب فى البرلمان من الحزب السعدى الذى أتشرف برياسته، فكلمته فى الموضوع وأبلغته بما يجب عمله».

«وذهب حيدر باشا ولم يتمكن من إقناع اللجنة باعتماد المليون جنيه، وجاءنى وطلب منى أن أذهب بنفسى إلى اللجنة حتى أتمكن من إقناعها باعتماد المبلغ، وذهبت إلى اللجنة قلت للزملاء أعضائها: أنتم خايفين من إيه؟ ضعوا ما شئتم من الشروط التى تضمن لمال الدولة السلام والأمان».

«أولاً: استدعوا خبراء يقررون هل من المصلحة استبقاء هذا اليخت القديم المصنوع من عهد إسماعيل باشا أو بعده، أم شراء يخت جديد حديث الصنع؟ وكم يكلف، فقد يكون ثمن اليخت الجديد أقل من المليون جنيه المطلوبة للإصلاح؟».

«فقالوا: إن أدوات اليخت القديم لا يوجد بديل لها لأنه قديم».

«قلت: ثانيًا: يطرح شراء اليخت الجديد فى مناقصة عالمية إن صح أن فى شراء الجديد مصلحة للدولة».

«ثالثًا: يوضع الاعتماد المطلوب تحت مسئولية رئيس الوزراء مباشرة، ويكون هو المسئول شخصياً عنه».

«وأعتقد أن الشعور فى هذه القواعد التى قلتها واضح، وعلى هذا استراحت اللجنة لأنى جنبتها المسئولية فى هذا الموضوع ووضعتها فى عنق رئيس الوزراء».

«ضاق صدر الملك بهذا التصرف وشهد حسن باشا يوسف وكيل الديوان الملكى بأن أشد ما أغضب الملك على إبراهيم عبد الهادى موقفه من إصلاح يخت المحروسة».

(١٠٨)

ثم يفاجئنا إبراهيم عبد الهادى بأن الملك فاروق نجح فى أن يخفى مشاعره تجاهه، وأنه على النقيض من ذلك أظهر له توددًا لم يظهره من قبل لغيره، وذلك على الرغم من ضيقه منه، وذلك على الرغم من أن بعض الوزراء المقربين من إبراهيم عبد الهادى كانوا قد علموا نية الملك فى إقالة الوزارة، وربما يدفعنا هذا إلى التفكير فى أن الملك لم يكن فى واقع الأمر صاحب قرار إقالة إبراهيم عبد الهادى وإن كان طرفًا فى اتفاق على هذا، وأنه لهذا السبب حاول أن يظهر له من الود ما يتكفل بتخفيف وقع الإقالة عليه! ونحن نعرف من مذكرات كريم ثابت وحسن يوسف وغيرهما أن الاتفاق بين الملك والبريطانيين كان قد تم على إعادة الوفد إلى الحكم:

«. . . ودعانا الملك إلى غداء فى قصر المنتزه، وعلى مائدة الغداء كانت الموسيقى تصدح بأنغامها الجميلة، وإذا حضرة صاحب الجلالة يتفضل من باب التذكرة ويقول: المزيكة دى بتاعة المحروسة، بيفكرنى بالجريمة التى ارتكبتها وأنا ما خدتش بالى».

«ولكن الملك كان فى غاية اللطف معى، فقد استدعى بناته الثلاث الموجودات بالقصر وقدمهن إلىّ، ولعلها أول مرة يقدم الملك بناته للوزراء، على مدى علمى».

«وكان الملك فى غاية الرقة واللطف معى فى ذلك اليوم، كان يقدم لى السيجارة ويشعلها بنفسه، فخرج الوزراء يتعجبون على أن ما فعله الملك معى كان من آيات رضائه التام على الوزارة والوزراء ورئيسهم، وخرج الوزراء يتعجبون ولكن اثنين من الوزراء «الأنتيم» قوى معايا قالا لى: إحنا سمعنا إن هذه آخر أيام الوزارة؟!».

«قلت: ما فيش كلام من دا إطلاقًا، ولقد رأيتم بأنفسكم مدى عطف الملك ورضاه علينا».

«وكان تعليق أحمد عبد الغفار باشا أن قال: عجيبة يا إبراهيم؟».

«قلت: ولا عجيبة ولا حاجة يا أخى».

«وبعدها أقام الملك مأدبة لأعيان الإسكندرية يحضرها رئيس الوزراء ضرورى».

«حضرت المأدبة وفى أثنائها مال علىّ وقال: «أنت رايح تعمل إيه فى الإخوان المسلمين بعد كده؟»».

«وكان جلالته طول مدة حكمى لم يتكلم معى فى شأن الإخوان المسلمين أبدًا».

«قلت: لا شىء أكثر مما فعلت لأحافظ على أمن البلاد وسلامة أهلها، وأحسست أن فى الأمر شيئا!!».

(١٠٩)

وفى موضع آخر من المذكرات يلخص إبراهيم عبد الهادى الأسباب التى أدت إلى اتخاذ قرار إقالة وزارته والاتفاق على هذه الإقالة من جانب الملك، ومن جانب الإنجليز على حد سواء فيقول:

«. . . أصبح الملك فى الشهرين الأخيرين من وزارتى لا يطيق ذكر اسمى، لكثرة ما عارضت طلباته المتكررة، كعدم التصديق على الحكم الذى صدر ضد مصطفى كمال صدقى، والقيود التى وضعتها بشأن اليخت الملكى «المحروسة»، وعدم الاستجابة فى تعيين عثمان باشا المهدى رئيسًا لأركان حرب الجيش بأمر ملكى بدلاً من مرسوم تتقدم به الوزارة إلى آخر تلك التصرفات غير المسئولة».

«كما أن الإنجليز ضاقوا ذرعًا بتشددى معهم فى مفاوضاتى مع المارشال سليم قائد القوات البريطانية، وإصرارى على مشروع صدقى - بيفن الذى يحدد جلاء القوات البريطانية نهائيًا فى سبتمبر من عام ١٩٤٩ مع الحفاظ على وحدة مصر والسودان، وهجوم المرحوم مصطفى النحاس باشا علىّ والتنديد فى خطبه بمسلكى مع الإخوان

المسلمين . . . كل هذه العوامل مجتمعة دفعت الملك إلى طلبه أن أقدم استقالتى فقدمتها» .

(١١٠)

ونعود مع مذكرات إبراهيم عبد الهادى إلى الفترة التى عمل فيها بالقرب من الملك رئيسًا للديوان الملكى (طيلة عام ونصف العام) لنتأمل فى انطباعاته عن الملك فى هذه الفترة، وهى الفترة التى لم تتطور علاقة الرجلين فيها إلى ما هو أكثر من علاقات الوظيفة .

ومن المهم أن نذكر أن إبراهيم عبد الهادى يتحدث فى أكثر من موضع من المذكرات عن عدم مشاركته للملك فى سهراته، ولا حتى فى سهره فيقول :

« . . . . . . وقد سألنى بعض الأصدقاء على استحياء : ألم تكن تسهر معه فى بعض الليالى وشاهدت بنفسك ما يجرى؟ » .

«فكان جوابى : أنا لم أدخل فى هذه المساخر أبدا، و لم أشهد معه حفلاً إلا ليلة واحدة فى نادى الضباط ولم أسهر معه بعدها إطلاقا لأننى رأيت حاجات لم تعجبنى من بعض ضباط الجيش و . . . ولعل ذلك من الأسباب التى عجلت بقيام ثورة ٢٣ يوليو» .

«وقد أعلمته أننى لا أحب السهر ، وكان أحيانا يرسل إلىّ البوستة إلى المنزل فى الساعة العاشرة مساء» .

. . . .

«ومرة اتصل بى تليفونيا فى الساعة الثانية عشرة وسألنى عما تم فى البوستة التى أرسلها فى تلك الليلة ، فأجبته بأن الصحة لا تساعدنى على السهر أكثر من التاسعة أو العاشرة مساء» .

. . . .

وفى موضع آخر يقول إبراهيم عبد الهادى :

« . . . وللحقيقة والتاريخ أننى لم أكن أحضر حفلات الملك أو سهراته الليلية سوى

الحفلات الرئيسية التقليدية التى كانت تستوجب حضورى، وبعضها إذا لم يكن مدعوا فيها رجال السلك السياسى كنت أعتذر فى الانصراف بعد الساعة التاسعة مباشرة، أو بعد التاسعة بقليل».

. . . .

ويؤكد إبراهيم عبد الهادى على ما أصبحنا متأكدين منه الآن من أن الملك لم يكن يعاقر الخمر، لكن الطريف أنه فى زمن نشر إبراهيم عبد الهادى لمذكراته كانت لاتزال هناك عقيدة فى أن الملك يشرب الخمر:

«وسألنى بعض الناس: هل كان يشرب الخمر؟».

«وأنا أؤكد أنه كان لا يشرب الخمر أبدًا».

(١١١)

ويؤكد إبراهيم عبد الهادى على أنه فى علاقته بالملك عندما كان رئيسًا لديوانه استطاع أن يرسم لنفسه حدودًا كرئيس ديوان قانونى فقط دون أن يتدخل فى أمور التشريفات أو البروتوكول:

«وقد سألتنى اللجنة التى شرفتنى بحضورها إلى منزلى برياسة اللواء غنيم (يقصد لجنة كتابة التاريخ التى تشكلت فى عهد الرئيس السادات) نفس السؤال الذى سأله بعض الأصدقاء عن علاقتى بالملك وأنا رئيس ديوانه، فأجبتهم تقريبا بنفس ما قلته، ومما قلت: إننى عندما ذهبت إلى السراى كرئيس للديوان الملكى عندما جلسنا إلى مائدة الغداء قال لهم هذا هو رئيس الديوان معفى من كل البروتوكول، وأنا فى الحقيقة لم يكن عندى استعداد أبدًا لهذا! أنا اشتغلت رئيس ديوان قانونى، لم أحاول أن أقف فى يوم من الأيام أزاحم تشريفاتى أو كبير أمناء أو . . أو . . إلخ، حسنين باشا الله يرحمه كان يحب كده، وكان تابعا وكل ميسر لما خلق له».

«أذكر مسألة حدثت فى سهرة وكان الملك عبد العزيز آل سعود سيحضر هذه السهرة، وحضر الوزراء والحشد الكبير من الكبراء وجلس كل واحد فى مكانه

المخصص له، بصيت فلم أجد لى مكانا، المفروض أن يكون إلى يساره، فناديت أحد التشريفاتية بصوت عال، ولما حضر قلت له بصوت سمعه كل الحاضرين: «أنا رئيس ديوان الملك ولست خدامًا عند الملك»، فوضع لى الكرسى إلى جوار كرسى الملك، وهذا أمر طبيعى، وأنا إذ أقول هذا أمام الحاضرين ليفهم الجميع أننى رئيس ديوان الملك ولا أحب أحدًا ينتقص من مقامى».

«ليت أحمد عبد الغفار باشا كان على قيد الحياة وسألتموه عن هذه الواقعة لذكرها بتفاصيلها لأنه كان حاضرا!».

(١١٢)

يروى إبراهيم عبد الهادى كيف أنه حاول إصلاح بعض عيوب الملك من دون جدوى، وهو يلخص صفات الملك البارزة فى أربع صفات: ذكاء حاد، حرص على الثأر، اعتقاد فى الفهم الكامل، حرص شديد على جمع المال.

ومع أنه لا يضرب أمثلة كثيرة على الصفات الثلاث الأولى فإنه يفيض فى الحديث عن الصفة الرابعة، وهو يستعرض قصة مهمة حول حرص فاروق على المال راويًا موقف الملك من المقارنة التى عقدها له (الضمير يعود على إبراهيم عبد الهادى نفسه) بين سلوك ملكى اليمن والسعودية بما يتعلق بجمع المال والحرص عليه، وقد لمس أن الملك فاروق كان يؤثر أسلوب ملك اليمن فى اكتناز المال والإكثار منه!!

ويشير إبراهيم عبد الهادى بصراحة إلى شح الملك بالمعونة فى إنشاء معمل لقاح لمواجهة الأوبئة، على حين أنه أعلن عن رفض تبرع البدراوى باشا بعشرة آلاف جنيه للمشروع، وذلك على الرغم من محاولة إبراهيم عبد الهادى الحصول على دعمه المادى للمشروع دون جدوى:

«.. لقد تعاملت مع الملك فى وظيفتى كرئيس ديوان ثمانية عشر شهرا فعرفته عن قرب، كانت فيه صفات بارزة يتميز بها: حرصه الشديد على جمع المال، ادعاؤه بأنه يفهم كل حاجة حتى قبل أن يتم عرضها عليه بالكامل، لا ينسى الثار، ذكاؤه الحاد».

«حاولت أن أعالج فيه الصفات الثلاث الأول بطريق غير مباشر بالتلميح دون التصريح فلم أوفق، لأنها أصبحت جزءاً منه».

«جمعتنى الظروف الطيبة بالملك عبد العزيز آل سعود وأنا أمير للحج عام ١٩٤٥، وكان على البداوة الكاملة، ونشأت بينه وبينى مودة لسبب ما حتى إنه طلب منى أن أكون بمجلسه يوميًا ما استطعت طالما أنا موجود بالأراضى السعودية، وكان الرجل ممتعا فى حديثه وتصرفاته ولمحاته الذكية».

«وأذكر وأنا جالس معه ذات يوم أن جاءه ولد من أولاده وقال له: عاوز فلوس، فنادى على أحد الخدم وقال له: وديه لعبد الله السليمان وزير المالية، فابتسمت ابتسامة خفيفة سرعان ما فهم مغزاها فقال لى: أنت بتضحك ليه علشان أنا ما معى فلوس شايلها، اسمع يا ابنى طالما كنت ملكا على هذه البلاد فلا يعنينى أن يكون فى جيبى قرش واحد، لأن كل ما فيها لا يعز علىّ، لكن يا ابنى إذا كان من عمل الملوك أن يكنزوا الذهب والفضة فيوم يأتيهم عدوهم بغتة سيشغلهم الذهب والفضة عن إنقاذ أنفسهم وأولادهم وبلادهم، لأن حرصهم متعلق بهذا وحده. لقد أشار علىّ بعض رجالى أن أحتفظ ببعض الأموال فى الخارج للظروف فلم أستمع لمشورتهم، فلما ألحوا زجرتهم».

«هذا كلام الملك البدوى على الفطرة».

«جرت مرة الرغبة فى إنشاء معمل لقاح لمواجهة الأوبئة كالكوليرا وغيرها حتى لا نعتمد على الخارج عندما يدهمنا الوباء.. أى وباء، ودعى الناس إلى الاكتتاب فتقدم سيد باشا البدراوى بعشرة آلاف جنيه، أنا اعتبرت هذا ولاشك عملاً طيبًا، وإذا بى أسمع أن الملك أبلغه عن طريق أحد التشريفاتية بأن هذا المبلغ مرفوض وعلق بأن المبلغ تافه بالنسبة لثروة البدراوى باشا».

«كثير من الناس الذين لم يكونوا يسيئون الظن بالملك تبادر إلى أذهانهم أنه سينهض وحده بالمشروع، من ماله الخاص، انتظرنا فلم يخرج من الجيب الخاص قرش واحد، كان دائما يدعونا للغداء معه ويدور الحديث ويرفع الكلفة ويتبسط فى حديثه».

«وجاءت سيرة الإمام يحيى حميد الدين وكيف تمتلئ خزانته بالمال فامتدح هذا التصرف. شغلتنا هذه المسألة، قلت: يا مولانا.. هذا رجل متفقه فى الدين وعلى

شيء من العلم، والملك عبد العزيز ملك صحراوى عايش على الفطرة وانظر الفرق بين الاثنين، وقصصت عليه ما جرى من حديثى السابق معه بمناسبة حضور ولد من أولاده يطلب بعض الفلوس فأحاله على وزير المالية لأنه لا يحمل مالاً فى جيبه، وسكت أنتصر رده وظننت أنه سيتحرك ويؤيد وجهة نظرى ولكنه تحرك فى جانب معاكس، مضاد، قال: لا . . أتذكر يوم وليت الملك وقد زين لى على باشا ماهر أن أتخلى عن بعض مخصصاتى، قلت: نعم أذكر ذلك جيدا ولا أنساه».

«قال: هل يذكر الشعب هذا؟».

«قلت: لاشك أنه يذكره جيدا ولكنه ينتظر من مولانا المزيد، وأن تتوالى المكرمات، ولاشك عندى فى أنك حين رفضت جلالتك تبرع بدراوى باشا لمعمل اللقاح اعتقد كل إنسان فى مصر أن جلالة الملك سيتولى المشروع من ماله الخاص، فسكت».

(١١٣)

ويعزو إبراهيم عبد الهادى كثيراً من تصرفات الملك فاروق إلى ضعف تعليمه، نافيًا عنه فى الوقت نفسه الجهل:

« . . . يسمع الناس عن سهراته الماجنة (أى سهرات الملك فاروق)، وعن مغامراته وعن جلساء هذه السهرات حول موائد القمار، وأنهم جميعا من رجال المال الكبار والسماسرة الذين يريدون أن يحققوا لأنفسهم أرباحًا ضخمة من صلاتهم به، وأنهم كانوا يخسرون متعمدين لترضيته وهم واثقون بأنهم سيحققون أضعاف ما خسروا فى صفقاتهم وأعمالهم المالية. إلياس أندراوس وأمثاله كثيرون والبلد هى الخاسرة فى النهاية!! كل ذلك نتيجة ضعف التعليم ولا أقول الجهل، فلو كان على شيء من المعرفة التى تليق بالملوك. . . ما كان يشتهى لقاء أهل العلم والأدب، ولم أره يقرأ كتابًا مفيداً، أو يطلع على ميزانيات الدول الأخرى، وأمثال هذه الموضوعات التى تفيده فى حكمه».

«لاشيء من هذا أبداً، أضف إلى ذلك العناد المرذول إلى أبعد الحدود حتى لو كان هذا العناد يسيء إلى نفسه وإلى عائلته، ذلك ما جعل أيام حكمه متعبة لمن معه، ومرهقة للشعب، ولم تتحقق فيها كثير من الآمال المرجوة».

(١١٤)

ومع كل هذا فإن إبراهيم عبد الهادى يحرص على أن يبرئ الملك فاروق من تهمة التساهل فى حقوق البلد، وهو يقول إنه كان وطنيًا وكان هذا يكفيه، لكنه كان يريد أن يظهر كل شىء على أنه تم بتوجيهه وبمشورته، وهو ما يعتبره إبراهيم عبد الهادى رغبة فى التسلط وضعفا فى التعليم:

«واعتقادى الشخصى فيه أنه لم يكن تبدو منه رغبة أبدًا فى أن يتساهل فى حق من حقوق البلد للإنجليز، أبدًا. . أبدًا، كل ما كان يهمه فى هذه الشئون أن تتم على يديه أو يقال إنها تمت على يديه وبمشورته حتى يبقى صاحب التصرف فى البلد وحده، وهذه كانت مصيبته».

«قبل أن أسافر للمفاوضات مع صدقى باشا قابلنى على انفراد بناء على طلبه، وقال لى: يا فلان أنت عارف كل حاجة ولست فى حاجة إلى توصية».

«يبدو لى أنه قد ورث عن أبيه رغبته فى التسلط مع جهل وعدم تعليم، فأراد أن يوسع سلطاته وساعده على ذلك بعض المحيطين به وفى مقدمتهم على ماهر وأحمد حسنين إلى أن انتهى به الأمر أنه كان لا يعبأ برجال الدولة، وكثيرًا ما كان يصرح بأن كل واحد منهم رهن إشارته فيلبى ما يأمر طائعًا شاكرًا، ولكنه صدم عندما أراد أن يجرب هذا مع أحمد ماهر، أحمد ماهر كان ضخمًا، كان عملاقًا، كان جبلاً قل فيه من هذه الصفات الكريمة ما تشاء».

(١١٥)

ونأتى إلى جوهر آراء إبراهيم عبد الهادى فى انتقاد الملك فاروق وأدائه، ونحن نراه يلخص رأيه فى الملك فاروق فيقول: إنه كان يعيش وسط الخدم ولا يطيق معارضة أحد من الرجال المحترمين، وأن هؤلاء الذين كانوا يكونون حاشيته كانوا سعداء بوجودهم إلى جوار الملك فاروق دون أن يظهروا ضيقًا بأى تصرف منه، وهو يضرب بحيدر ومرتضى المراغى المثل على المسئولين الذين كانوا يخضعون للخدم:

«. . . من أجل هذا كان يضيق بالنقراشي لأن الملك كان يعيش في وسط الخدم، محمد حسن . . أنطون بوللى . . إلياس أندراوس . . كريم ثابت، والأخير هذا كان في غاية الذكاء والخبث، ماذا يهمه إلا أن يكون الملك راضيًا عنه مهما ارتكب في حقه».

«وجميع هؤلاء كانوا عندما يضربهم الملك بحذائه يقولون له: «أحسنت يا مولاى».

«وأعجب العجب أنه كان في غاية الذكاء، أنا ما رأيت إنسانا يقابل ضيفا ويسترضيه ويحسن لقاءه مثله، ولكن للأسف لم يكن يطيق أن يسمع نصيحة أحد من مسئول . . مذكرة تعرض عليه . . بعد ثلاثة سطور من تلاوتها يقول: أنا عارف . . أنا عارف الباقي . . غيره وهو لا يعرف، ولسان حاله يقول هم رايحين يعلموني».

«ولذلك بسط الخدم نفوذهم على كثير من المسئولين أهل الخبرة، أنا عيناى لم تر ولكنى كنت بحيث أستطيع أن أميز الصدق من الكذب».

«والذين كانوا يعملون في مكتب السيد حيدر يعلمون كم كان يستمر النور الأحمر مضاء على باب مكتبه إذا دخل عليه أحد من خدم الملك، وعند الأستاذ مرتضى باشا المراغى أيضا لما كان محمد حسن الشماشرجى يقابله في وزارة الداخلية يضاء النور الأحمر ساعة وربما أكثر، وذلك كان من عدم تقديره للمسئولية».

(١١٦)

وينسب إبراهيم عبد الهادى المسئولية عن فساد الملك إلى على ماهر وأحمد حسنين، وهو يحرص على أن ينقل بعض ما رواه مراد محسن عن سلوك أحمد حسنين الشائن:

«تولى الملك صغير السن، لم يكتمل تعليمه، قليل الخبرة، بل لا خبرة إطلاقًا، وقع في أيدى على ماهر ومن قبل ومن بعد في يد حسنين . . وكان حسنين باشا دائمًا يقول له: ما تقابلشى حد، حتى يبقى في حوزته».

«وحكايات عزيز باشا المصرى عن حسنين وعن الملك يوم كان معهما في إنجلترا يدرس . . كثيرة ومثيرة وسيئة».

«لقد فتح على ماهر وحسنين باشا شهيته للحكم المطلق، كان الاثنان يشجعانه على ذلك، أمرك يا مولاى. . توجيهاتك يا مولاى. . نصائحك يا مولاى. . إرشاداتك يا مولاى».

«شاب لم يبلغ العشرين من عمره لم يكمل تعليمه، أحاط به اثنان كلاهما يريد أن يستأثر به ليكون هو الملك من وراء الستار، يسارعان فى إرضاء نزواته، يبالغان فى إحاطته بهالة كاذبة باطلة أشعلت فى قلبه الغرور، أفهموه أنه وحده الذى يستطيع أن ينهض بالبلاد، وما هؤلاء الساسة القدامى قد تجمدت أفكارهم وأكثرهم مصاب بالنقرس وأصبح تفكيره غير سليم، وعليك ألا تنزل عن تبعاتك وتتخلى عن مسئولياتك فأنت المسئول الأول والعامل الأول، وأنت الذى تأمر بتشكيل الوزارات وفقًا للتوجيهات التى رسمتها لا التوجيهات التى يرسمها هؤلاء الوزراء».

«وللأسف فإن الكثيرين جروا على إرضاء هذه النزعات فيه حتى يحققوا مآربهم وأغراضهم الذاتية، أو حتى لا يشمتوا أعداءهم فيهم، من هنا جاءت النكبات».

«ولو أنه توافرت فيه حكمة الخبرة والتجارب والمشورة الصادقة من حاشيته ومستشاريه والمحيطين به، لما انتهت البلاد إلى ما انتهت إليه، ولما انتهى هو إلى تلك النتيجة السيئة بفقدان ملكه، ونفيه شريدًا طريدًا لا هدف ولا غاية له إلا أن يعيش فى الكباريهات، ويضيع وقته وسط الغوانى، ومَنْ هن أسوأ من الغوانى».

«حسنين باشا أول مَنْ قاده إلى هذا الطريق البطال، وهو مازال ولدًا غريرًا يدرس بإنجلترا، [مستغلاً] وجوده بالقصر قريبا منه ومن أمه الملكة صاحبة النفوذ والاحترام يومئذ عند ابنها الملك».

«ولمراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية أحاديث طويلة عن حسنين باشا وأدواره، بل قل ألعابه فى السراى، وتأثيره على الملكة الأم، وقد ذكر لمن يثق فيهم بأن حسنين باشا كان ممثلاً بارعًا، وأن مراد باشا تجاوز فى أحاديثه إلى حد غير مألوف، فقد قال إن الملكة جاءته وصارحته بأن حياتها أصبحت تعسة لأنها تحب حسنين وراودته عن نفسها فأبى وكأنه يوسف عليه السلام».

«ومضى حسنين فى تمثيله وتصنعه والملكة الأم تزداد هيامًا حتى حقق غرضه وتزوجها زواجًا عرفيًا بعد أن طلق أم أولاده، وكان أحد شهود العقد على ما علمت الأستاذ سليمان نجيب الممثل المعروف، وكان صديقا شخصيًا لحسنين ويأتمنه على كثير من أسراره».

«وهكذا نال حسنين ما تمنى وسيطر على السراى إلى أن انتهى الأمر بالملك وبالملكة الأم وابنتها فتحية إلى تلك النهاية المحزنة».

(١١٧)

ويتصل بحديث إبراهيم عبد الهادى عن علاقته بالملك ورأيه فيه ما يرويه عن دوره هو نفسه فى تأجيل طلاق الملكة فريدة وإلحاحه على الملك ألا يمضى فى هذا السبيل، ومحاولته أو تفكيره فى محاولة الاتصال بالملكة فريدة عند مرض الملك، وما انتهى إليه الأمر فى قضية الطلاق حين دعا الملك الشيخ «أبو العينين» وأكرهه على إجراء الطلاق:

«. . . . . . . لما دخلت الديوان الملكى جاءنى مراد محسن باشا رحمه الله ومعه دوسيه وضعه أمامى على المكتب، وبعد أن هنأنى بمنصبى وشرب القهوة سألته عما فى هذا الدوسيه فقال: الدوسيه ده خاص بطلاق الملكة فريدة، فانزعجت وقلت له: أيكون فاتحة عملى بديوان جلالة الملك طلاق الملكة فريدة؟ فقال لى: أنا خلصت من هذا الدوسيه، وأنا أقدرك وأرجو لك النجاح، وقد أمرنى الملك بعرضه عليك وأوصيك بأمرين تتجنبهما، الطمع فى إصلاح ما بين الملك والملكة فريدة، أو ما بينه وبين أمه، وانصرف».

«أنا ماذا أصنع بهذه البلوى التى انحطت علىّ؟».

«وضعت الدوسيه مهملاً فى أحد أدراج مكتبى بعد أن اطلعت عليه وقلت ما بينى وبين نفسى لا أبدأ الحديث فيه مع الملك لعل النسيان أو الظروف تتحسن ولا يقع شىء من هذا. مرت شهور فعلاً لا أنا تكلمت ولا أحد كلمنى فى الموضوع، وفى أحد الأيام بعد الغداء بدأ يسألنى فى موضوع فريدة، قلت: يا جلالة الملك إنه أمر خطير جدًا».

«قال: ألست ككل الناس وأقل الناس لى الحق فى الزواج ولى الحق فى الطلاق».

«قلت: الملك ليس ككل الناس، ولذلك فالحرص من جانبك على رضا الناس واجب، ولا تنس أن نصف الشعب من النساء وسيغبضهن هذا التصرف، وسيعطف هؤلاء بالفطرة على جنسهن، وكل طفل وكل ولد سيتأثر بأمه ويتبعها فى العطف على الملكة، ذلك إلى أن الرجال كثير منهم لا يرضى عن هذا».

«فكرر التساؤل: ألست الملك ولى شئونى الخاصة؟».

«قلت: نعم، وفى هذا نعم! ولكنك يا مولاى لا تملك ما يملك آحاد الناس، فسكت قليلاً ثم حاول بعد ذلك أن يشعرنى بأن له ما يبرر تصرفه، فاعتذرت عن الاستمرار فى الحديث».

«ولما مرض ودخل مستشفى المواساة بالإسكندرية ذهبت لزيارته فأراد أن يؤثر علىّ فى الموضوع وقال: كل الناس جاءت وزارتنى إلا فريدة، ففرحت وقلت إن الرجل يعز عليه أن أكثر الناس تسأل عنه إلا الملكة، فقلت له فى الحال: إننى سأتصل بالملكة فريدة، وعندما تسمع أن جلالتك سألت عنها ستكون أسعد الناس بهذا».

«فقال: لا.. لا.. لا».

«وبعد أن خرج من المستشفى وأبلّ من مرضه جاءنى الشيخ «أبو العينين» قاضى محكمة الإسكندرية الشرعية بقصر رأس التين وأخبرنى بما دار بينه وبين الملك».

«قال له الملك: أنا جايبك لنطلق الملكة فريدة، فحاول الشيخ أن ينصحه وقال له: إن أبغض الحلال عند الله الطلاق، وكلامًا آخر».

«ولكن الملك قال له: اسمع أنا جايبك مش عشان تدينى نصايح فى عدم الطلاق، أنا جايبك علشان نطلق».

«وثبت ممن حضر مع الشيخ «أبو العينين» أن ما قاله للملك هو ما رواه لى.. ولكن الملك أمره أن يجرى مراسيم الطلاق فأجراها مكرها!».

«هذه صورة من صور العناد المقيت وعدم قبوله النصح ولو كان لصالحه، عناده مع أمه.. عناده مع أخوته الذى جره إلى مساوئ كثيرة جداً شرب مرارتها وآلامها حتى انتهى».

(١١٨)

ونأتى إلى الموضوع الرابع عشر من الموضوعات المهمة التى تتناولها هذه المذكرات، وهو قصة اللقاء المحورى بين جمال عبد الناصر وبين صاحب هذه المذكرات، وقد كان اللقاء غير تقليدى على نحو من الأنحاء، فهو لقاء بين رئيس وزراء يحقق بنفسه فى تورط بعض الضباط الشبان فى حمل السلاح، وبين ضابط تورط فى هذا الجرم ثم أصبح بعد أقل من ٣ سنوات من كبار رجال عهد جديد فرضته ثورة شارك هو نفسه فى صنعها.

والواقع أن إبراهيم عبد الهادى قد حرص فى مذكراته على أن يجلو حقيقة موقفه من التحقيق مع جمال عبد الناصر حين قبض عليه بتهمة حيازة السلاح، وهى تهمة كانت عقوبتها تصل إلى السجن خمس سنوات، ويبدو إبراهيم عبد الهادى غاضبًا من روايتين متناقضتين شاعتا فى عهد الثورة، ولم يكن لهما فى رأيه نصيب من الصحة، الأولى وردت فى كتاب للدكتور الحوفى عن البطولة والأبطال وفيها صور إبراهيم عبد الهادى وهو رئيس الوزراء خائفًا من جمال عبد الناصر المقبوض عليه وهو صاغ(!!) أما الثانية فهى مناقضة للأولى تمامًا وقد أريد بها إظهار تعسف إبراهيم عبد الهادى فقيل إنه أوقف جمال عبد الناصر تسع ساعات أمامه.

أما رواية إبراهيم عبد الهادى عن هذه الواقعة فتتضمن ما يسجل به أنه لم يخف إعجابه بجمال عبد الناصر لأنه اعترف بأنه كان من الإخوان المسلمين، وبأن الأسلحة تخصه وقد جمعها فى أثناء اشتراكه فى حرب فلسطين وحصاره فى الفالوجا:

«. . . جاءنى جمال عبد الناصر مقبوضًا عليه بنفس تهمة الضابط مصطفى كمال صدقى، وهى إحراز أسلحة غير مرخصة، وكنا قد أصدرنا قانونًا بمحاكمة أى فرد يحمل سلاحًا غير مرخص أمام محكمة عسكرية، حتى ولو كان ضابطًا خارج وحدته».

«والذى جاءنى به مقبوضا عليه المرحوم الفريق عثمان باشا المهدى رئيس هيئة أركان الجيش وقد أوثق اثنان يديه وكان الحكم يعطى خمس سنوات سجن، فلما جاءنى على هذه الصورة استنكرتها وقلت: ضابط كبير زى ده لا يصح. . فكوا وثاقه».

«جلس عثمان باشا وتصادف وجود عبد الحميد باشا عبد الحق وزير التموين عندى فى ذلك الوقت، وجلس عثمان المهدى وعبد الحميد عبد الحق ووقف أمامى جمال عبد الناصر ولم يجلس، وطبيعى لو كنت طلبت منه أن يجلس لما جلس، فسألته:

«هل صحيح يا ابنى أنهم ضبطوا عندك سلاحًا؟».

«فقال: أيوه حصل، وأنا من يوم ما كنت فى حرب فلسطين وكنت من بين المحاصرين فى الفالوجا ولم أعد إلى القاهرة إلا بعد الهدنة وفك الحصار».

«قلت له: أنت من الإخوان المسلمين وقبضوا عليك على هذا الأساس؟».

«قال: نعم كنت من الإخوان.. ولكن أنا لم أشترك فى قتل النقراشى ولا صلة لى بالحادث، ولا فى تدريب الإخوان على السلاح».

«وطبيعى أنه مادام كان موجودًا فى فلسطين طول هذه المدة فلا يمكن أن يكون شريكا فى قتل النقراشى. الواقع أننى تأثرت جدًا باعترافه الصريح أنه كان من الإخوان المسلمين، وقلت هذا عسكرى صادق، وكان باستطاعته أن ينكر، ثم ذكر أن السلاح المضبوط جمعه وهو فى الفالوجا محاصر ومحتفظ به للذكرى».

«وأيامها كان قد حكم على الضابط مصطفى كمال صدقى بخمس سنوات، ومعه ضابط آخر من النوع الدموى الذى يسعى لارتكاب أى جريمة دون هدف إلا إشباع غريزته الدموية، والحكم عندى للتصديق عليه، والملك واجع دماغى يبعث إلىّ رسله مرة الأستاذ حسن باشا يوسف، ومرة الأستاذ كريم ثابت يطلب منه عدم التصديق على الحكم بوصفى الحاكم العسكرى، وهذا ضابط جاءنى ولا وراءه حد ولا قدامه حد فى السرايا ولا فى غيرها برجولة أو بشىء شبيه بهذا».

«فقلت له: اسمع يا ابنى.. أنت ضابط بتحمل السلاح علنًا وليس لك عمل آخر غير حمل السلاح علنا، وأنا رئيس حكومة ومن حقى حمل السلاح علنًا، أنا أعتبر السلاح المضبوط عندك سلاحًا من حقك ولاسيما أنك تحفظه للذكرى وللتاريخ!!».

«لكن تحب تشتغل بالسياسة.. استقيل من الجيش وأنت حر وعليك أن تتحمل المسئولية، أما الآن فأنت تحمل أمانة العسكرى المكلف بحماية الوطن».

«وهنا قال الضابط مصطفى ماهر عضو اللجنة: لقد كتب ذلك عثمان باشا المهدى فى مذكراته؟».

«فقلت له: هل ذكر عثمان باشا أنى ضربته أو أهنته كما ذكر بعد ذلك؟».

«المهم عثمان باشا كان «فريق» فقلت له اجلس، والسيد جمال كان «صاغ» حتى لو قلت له اقعد ما يقعدش».

«فى هذا اليوم وفى تلك الساعة بالذات جاء وقت تشييع جنازة المرحوم حسن باشا صادق من جامع عمر مكرم، وكان حسن باشا جارى فى المعادى وصديقى فى الوقت نفسه، فاستأذنت الحاضرين فى الذهاب للمشاركة فى العزاء لمدة نصف ساعة على الأكثر، وقلت للسيد جمال (أى جمال عبد الناصر): انتظرنى يا ابنى فى غرفة مجلس الوزراء حتى أعود ويكون اللواء طلعت وكيل الحكمدار قد حضر ومنه أتأكد أنك لست من الإخوان المسلمين».

«وخرجت وعدت بعد تشييع الجنازة، وكان اللواء طلعت قد حضر فأبلغنى أنه كان من الإخوان المسلمين وأنه لا صلة له بهم الآن».

«دخلت قاعة مجلس الوزراء وكنت قد طلبت بعض السندوتشات من «جروبى» لأن عندى سكر والوقت تأخر، فلما نهض حييته وأمرته بالجلوس فامتنع فقلت: يا حبيبى اقعد وكل ساندوتش معايا، فقال: متشكر.. متشكر ياباشا.. وكررها أكثر من مرة».

«كنت قد تأكدت من طلعت أنه ليس من الإخوان المسلمين فقلت له يكاد يكون حرفيًا: طيب يا ابنى روح، وخرج ولم أوقفه أمامى تسع ساعات ولا سبع ساعات كما ذكرت بعض الصحف، هو أنا رئيس الوزراء والا شيخ خفراء حتى أوقف أمامى ضابطًا سبع ساعات أحقق معه!».

«وهل هى وظيفتى؟».

«كما ذكر أيضًا فى كتاب أنى كنت أرتجف أمامه وقد وقف أمامى كالأسد أو كالبطل

الضرغام، شيء لا يصدقه عقل، مَنْ الذى يخاف فينا أنا أم هو؟ وما موجب الخوف وقتئذ؟».

«فلا أنا خفت ولا هو خاف، وما حدث رويته، ومادام الفريق عثمان باشا المهدى قد كتب مذكراته فأنا موقن أنه كتبها بصدق وأمانة لأنه كان رجلاً يخاف الله».

«والذى كتب هذا الكتاب رجل فاضل جدًا هو الدكتور أحمد محمد الحوفى، وقد أقسم هذا الرجل الفاضل لأصدقائه ومعارفه أنه لم يكتب هذا الكلام لأنه كلام رخيص لا يصدقه عاقل بالنسبة لرجل مثلى، وقال كلاما عنى أكثر من هذا، وأنه لم يطبع الكتاب وإنما طبعته الحكومة، وهو كتاب تقدم به بعنوان «البطولة والأبطال» ونال جائزة من أجله فأقحم فيه هذا الكلام ربما بغير علم من الرئيس جمال عبد الناصر نفسه، ولا يسعنى فى هذه المذكرات إن قدر لها الظهور إلا أن أقدم له خالص شكرى، ويقينى أنه صادق فيما قال».

(١١٩)

ونأتى إلى الموضوع الخامس عشر من الموضوعات الكبرى التى تتناولها هذه المذكرات، وهو ذكريات إبراهيم عبد الهادى عن الفترة الأولى من عهد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وهى الفترة التى شهدت محنته الشهيرة حين حوكم أمام محكمة استثنائية وحكم عليه بالإعدام:

يروى إبراهيم عبد الهادى قصة اللقاء الذى تم بين مجموعة من رموز الأحزاب المعارضة كان هو منهم، وبين بعض قادة الثورة، وهو لقاء فاتر، حيا فيه الزعماء قادة الثورة فرد هؤلاء التحية عليهم دون أن يدعوهم للجلوس وأبقوهم واقفين كالتلامذة على حد تعبير إبراهيم عبد الهادى:

«. . . . . بعد أن قامت ثورة ٢٣ يوليو اتفقنا لطفى السيد باشا، والدكتور محمد حسين هيكل باشا، وأحمد عبد الغفار باشا، وبهى الدين بركات باشا، ودسوقى أباظة باشا، وعبد السلام الشاذلى باشا وأنا، اتفقنا على أن نزور ثكنات مصطفى باشا ونهنئ اللواء محمد نجيب ورجال الثورة بنجاح ثورتهم، ونتمنى لهم التوفيق فى مهمتهم».

«وذهبنا واستقبلنا استقبالاً لا بأس به، وحييناهم وردوا التحية ونحن واقفون أمامهم كالتلامذة، وحضر واحد منهم دار حولنا تبين لى فيما بعد أنه جمال عبد الناصر، الذى جاءنى مقبوضًا عليه وأنا رئيس وزارة وكلمته كلمتين وانتهى أمره معى».

«تكلم لطفى باشا كلمتين طيبتين وطلب منى أن أقول كلمة فقلت له لقد قلت ما فيه الكفاية، وسلمنا وخرجنا».

(١٢٠)

يروى إبراهيم عبد الهادى كذلك أن اللواء أحمد فؤاد صادق زاره فى منزله وأنهى إليه أن الرجل المسيطر على الجماعة وهو جمال عبد الناصر يعتبر رجله هو، أى رجل إبراهيم عبد الهادى، لأنه هو الذى أنقذه من قبل من الاعتقال:

«كان اللواء فؤاد صادق باشا صديقى، وفى ثانى يوم من هذه المقابلة زارنى فى منزلى صباحًا وسألنى: ما هو إحساسك وتقديرك لما حدث؟».

«قلت: لا أعرف بكرة يكون فيه إيه، وعلى الله تدبير الأمور».

«فقال فؤاد باشا: إن الرجل الموجه للجماعة يعتبر رجلك!!».

فقلت: مَنْ هو؟».

«قال: الرجل الذى أفرجت عنه حين جاءك مقبوضًا عليه سنة ١٩٤٩ وعاملته معاملة حسنة».

«قلت: افتكرته الآن، ولعله الشخص الذى دار حولنا ولم أعرفه وقتئذ!!».

(١٢١)

ثم ينتقل إبراهيم عبد الهادى إلى رواية ذكرياته عن تشكيل محكمة الثورة وتقديمه

هو نفسه ليكون أول المتهمين الثلاثين أمام هذه المحكمة، وهو يعود بذاكرته إلى ما سمعه بأذنيه حين ذهب لتهنئة رجال الثورة، ولم يعره التفاتًا فى وقتها:

«وأذكر ونحن داخلون إلى ثكنات مصطفى باشا سمعت من رجل لا أعرفه أهو دا إبراهيم عبد الهادى الذى سيحاكم أمام محكمة الشعب قريبًا!!».

«لم أعر كلماته أهمية إلى أن جاء يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٢ وعقد رجال الثورة مؤتمرا شعبيا فى ميدان عابدين حشدوا فيه آلاف المواطنين، تكلم فيه الرئيس اللواء محمد نجيب، والبكباشى جمال عبد الناصر، وقائد الجناح جمال سالم، والصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد القومى».

«وقد كتبوا يقولون إن صلاح سالم كشف عن وثيقة خطيرة تثبت التحالف بين الاستعمار وطبقة الخونة والرجعيين، ثم أعلن تشكيل محكمة الثورة لمحاكمة المتهمين بالعمل ضد مصلحة البلاد، وكنت أنا أول مَنْ قدموا للمحاكمة بتهمة الخيانة، وكتبت الصحف اليومية كلها بإملاء منهم بعنوان ضخم كبير ملأ الصفحات الأولى:

«محاكمة الخائن الأول الذى هو أنا!!».

«وصدر قرار تشكيل محكمة الثورة من قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى رئيسًا، وعضوية البكباشى محمد أنور السادات، وقائد الأسراب حسن إبراهيم، والبكباشى زكريا محيى الدين رئيسًا لمكتب التحقيق والادعاء بالمحكمة».

«وقدم للمحاكمة أمام هذه المحكمة ثلاثون متهمًا من بينهم السيدة زينب عبد الواحد الوكيل حرم الرئيس السابق مصطفى النحاس».

«وكنت أنا أول المتهمين أمام المحكمة، وكانت المحاكمة ذات شقين:

«الشق الأول: محاكمة علنية».

«والشق الثانى: محاكمة سرية».

«وقد نشرت الصحف المحاكمة العلنية وسأذكر أهم ما جاء فيها، أما المحاكمة السرية فسأرويها بمنتهى الأمانة والصدق والله على ما أقول شهيد».

(١٢٢)

وفى موضع ثان يروى إبراهيم عبد الهادى بمرارة ملحوظة كيف نما إلى علمه مبكراً ما سوف يحدث له على يد محكمة الثورة، وهو حريص على أن يشير إلى أنه كان يثق فى الله وفى نفسه، ولم يجزع لما أدرك أنه مقبل عليه:

«لقد سمعت الحكم علىّ قبل أن أقدم إلى المحاكمة بشهور، سمعته وأنا ذاهب مع إخوانى لطفى السيد، وهيكل، وبهى الدين بركات وآخرين إلى ثكنات مصطفى باشا نهنئ الرئيس محمد نجيب وإخوانه على نجاح ثورتهم».

«وجاءنى الدكتور محمد أبو الليل فى الصباح الباكر بالإسكندرية قبل تقديمى إلى المحاكمة بيومين وقال لى: إنهم سيحاكمونك ويحكمون عليك بالإعدام، قلت له: ماذا تريده منى؟».

«قال: تعمل كونسلتو من الأطباء يقررون أن صحتك تعبانة جداً وتعتكف فى منزلك بالقاهرة أو فى الزرقا لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا».

«قلت له: والله لا أرتضى لنفسى الدنية أبداً، وسأسافر إلى القاهرة غدا ليقبضوا علىّ فى أى وقت».

(١٢٣)

وفى موضع ثالث يتحدث إبراهيم عبد الهادى عن معرفته المبكرة بما كان مبيتاً له من أمر هذه المحاكمة فيقول:

«. . . . . لقد عقد مؤتمر بميدان الجمهورية فى سبتمبر عام ١٩٥٣ وخطب فيه الصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد خطبة طويلة وعريضة ليس فيها كلمة واحدة عن إبراهيم عبد الهادى وعن حكمه أو استقامته، لا شىء من هذا، ولكن تناول أشخاصاً بأسمائهم وأيامهم وتواريخهم».

«ومر علىّ رجل «ابن حلال» غير الدكتور أبو الليل وقال لى: حا يحاكموك ويشنقوك».

«قلت له: العمر بيد الله».

«وسافرت إلى القاهرة وفى ثالث يوم بعد وصولى جاءنى زائر الفجر ضابط اسمه جمال القاضى ومن أقرباء المرحوم عبد اللطيف محمود الذى كان وزيراً فى وزارة الوفد، وله حاجات تمس الذمة وطهارة اليد، ومع هذا الضابط قومندان بسجن الأجانب القريب من ميدان رمسيس دخلوا المنزل، اعتقدت أنهم سيقومون بالتفتيش ولكنهم قالوا: ما فيش تفتيش اتفضل معانا، كانت طريقة الضابط جمال القاضى وأسلوبه غير طيبة، قلت: معلهش دى ثورة».

«نزلنا وذهبت إلى سجن الأجانب، أنزل فناء السجن الكل يبتعد عنى، لا سلام عليكم ولا صباح الخير، وأنا شفت المناظر دى فى السجن من قبل مرات وتعودت عليها، المحكوم عليه بالإعدام مافيش حد يقرب منه».

«وبعد ذلك وصل زملائى الوزراء السابقون الذين قبض عليهم، حالتهم سيئة، ظاهر عليهم الحزن والنكد بشكل واضح، لأن البيان الذى تناولهم فيه صلاح سالم كان بالإسم، وقال عنهم كلاماً لا يليق».

«ونحن جالسون فى فناء السجن قلت لهم: «زعلانين ليه.. لا تحزنوا.. ما تزعلوش قوى كده، هما ما جبوش اسمى ولا سيرتى فى بيانهم ولكنى أنا اللى رايح فى العملية دى قبل ما جى هنا، وأنتم كلكم غطاء فلا يكون عندكم بال ولا تهتموا، ولا تزعلوا ولا حاجة أبداً، والقضاء قضاء الله».

«الشخص اللى كان منهار تماماً الأستاذ محمود سليمان غنام».

(١٢٤)

يلخص إبراهيم عبد الهادى فى هدوء شديد وقائع الجلسة الأولى لمحاكمته مظهراً تعسف عبد اللطيف البغدادى رئيس المحكمه معه (وقد ظل إبراهيم عبد الهادى يسخر من البغدادى كلما جاء ذكره فى مواضع من مذكراته مكرراً ما وصف البغدادى نفسه به مرة أنه ولد قاضياً)، وعلى الرغم من أن إبراهيم عبد الهادى فهم أن عليه أن يكتفى

بكلمة مذنب أم غير مذنب فإنه حرص على أن ينفى الاتهام فى كل مرة، وأن يردف بذكر رأيه فى اختصار بليغ على نحو ما نرى:

«بدأت الجلسة الأولى للمحكمة بمقر قيادة الثورة فى الجزيرة يوم ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٥٢».

«افتتحها قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى بقوله:

«باسم الله وباسم الثورة نفتتح أول جلسة من جلسات محكمة الثورة، هل المتهم موجود؟ إبراهيم عبد الهادى، أيوه يا أفندم موجود».

«هل الشهود موجودون؟».

«البكباشى محمد التابعى المدعى العام: الشهود موجودون ما عدا السيد رجب والسيد جرجس عبد الله والسيد حسين فهمى، والأخير كان وزيراً للمالية ضمن وزرائى».

«وقال رئيس المحكمة: يجب أن نتبع الإجراءات الواردة بقرار تشكيل المحكمة، وذلك بأن نعلن عن الادعاءات المقامة على المتهم ثم بعد ذلك يمكن لحضراتكم أن تتكلموا كما تشاءون».

«الادعاءات»

«١ ـ أتى أفعالاً تعتبر خيانة للوطن وضد سلامته والأسس التى قامت عليها الثورة، وذلك أنه فى غضون عام ١٩٥٢ عمد إلى الاتصال بجهات أجنبية تهدف إلى الإضرار بالنظام الحاضر، ومصلحة البلاد العليا».

«قلت: فهل أنت مذنب أم غير مذنب».

«أقسم بالله أن كل هذا غير صحيح».

«بغدادى: هل أنت مذنب أو غير مذنب؟».

«قلت: غير مذنب والادعاء غير صحيح من أصله، وما كان إبراهيم عبد الهادى أن يرتكبه والله على ما أقول شهيد».

«٢ ـ أتى أفعالاً تعتبر خيانة للوطن وضد سلامته فى الداخل والخارج، وساعدت على تمكين الاستعمار بالبلاد، وذلك أنه فى خلال سنة ١٩٤٨ أثناء توليه رئاسة ديوان الملك السابق فاروق عمل على تنفيذ أهوائه بالزج بجيش مصر فى معركة فلسطين قبل أن يتخذ الجيش أهبته لخوض غمارها».

«قلت: غير مذنب، والاتهام غير صحيح ولم أكن يومئذ».

«قال بغدادى: على المتهم أن يرد على الادعاء بعبارة واحدة هى مذنب أو غير مذنب».

«قلت: غير مذنب، ومش أنا اللى زجيت بالجيش فى حرب فلسطين، ولا أعرف عن هذا شيئا، بل أنا الذى عملت وساعدنى الله على إنقاذ الجيش فى حملة فلسطين فى آخر مراحلها».

«٣ ـ أتى أفعالاً من شأنها إفساد أداة الحكم، وذلك أنه فى خلال الفترة ما بين ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ و٢٥ يوليو سنة ١٩٤٩ بوصفه رئيسًا للوزارة ووزيرا للداخلية، أشاع حكم الإرهاب بأن اعتدى على الحريات العامة وتزعم حملة اعتقالات واسعة النطاق للتنكيل بالمواطنين، بأن أمر أعوانه بتعذيب طائفة كبيرة منهم، وأشرف بنفسه على تنفيذ أوامره وكلها إجراءات لم يكن يقتضيها أمن أو سلامة البلاد، اللهم إلا دافع الانتقام والتشفى، مخالفًا بذلك أحكام الدستور الذى كان قائمًا وقتذاك».

«بغدادى: هل أنت مذنب أو غير مذنب؟».

«غير مذنب، ما أشعت الإرهاب، وإنما أديت واجبى كرئيس الحكومة فى مقاومة الإرهاب بقدر ما يحقق سلامة البلاد وأمنها».

«٤ ـ أتى أفعالاً من شأنها إفساد أداة الحكم، وذلك أنه فى خلال عام ١٩٤٩ هيأ لأعوانه الأسباب التى يسرت لهم قتل المرحوم الشيخ حسن البنا، وعمل على تضليل التحقيق بقصد إفلات الجناة من العقاب».

«غير مذنب، وإلى جانب تحقيقات القضاء وقرار غرفة الاتهام إلى آخر مراحله، بعد أن سمح رجال الثورة وأعلنوا ترك هذه القضية للقضاء يفصل فيها بنعته ـ وإلى الآن

ـ أنا بحكم القضاء بعيد عن هذا وفى الحق أننى برىء من هذا تمامًا والاتهام غير صحيح وفى غير محله» .

«٥ ـ أتى أفعالاً من شأنها إفساد أداة الحكم ، وذلك أنه فى غضون سنتى ١٩٤٨ و١٩٤٩ وقت أن كان رئيسًا للديوان ورئيسًا للوزارة ساهم مساهمة فعالة فى تنفيذ مشروع يخت «المحروسة» رغم إقراره بعدم جدوى هذا الإصلاح ، ولم يكن هدفه سوى تحقيق رغبات الملك السابق والفوز برضائه ، فساعد على تقويض دعائم الحكم الصالح ، والجنوح به إلى ناحية الفساد» .

«فهل أنت مذنب أو غير مذنب؟» .

«غير مذنب ، وهذا الاعتماد بالذات ، اعتماد إصلاح «المحروسة : أنا الذى أحطته بكل الضمانات حتى لا يصرف منه قرش واحد فى غير موضعه دفعا لكل مظنة وكل شبهة ، وإنما قلت دائمًا فى هذا الموضوع بالذات إنه لما احتدم الخلاف بينى وبين الملك على هل ينفذ هذا الاعتماد أو لا ينفذ ، قيدته بالقيود والشروط التى لا يمكن معها بحال من الأحوال ألا يصرف منه قرش إلا فى محله ، فقلت : يجب أن يكون ذلك بمزاد علنى ، واتفقت مع اللجنة المالية على هذا» .

«المدعى : ده مش وقت مرافعة ! !» .

«٦ ـ استغل نفوذه دون مراعاة الصالح العام ، وذلك أنه فى خلال السنوات ١٩٤٥ و١٩٤٧ و١٩٤٨ و١٩٤٩ أثناء توليه سلطات عامة (وزيرًا ورئيسًا للديوان ورئيسًا للوزارة) استغل نفوذه فى إنشاء ورصف :

(أ) الطريق رقم ١٥٧ فى جزئه المار بأرضه بناحية بنى عبيد لغير ما مقتضى سوى صالحه الشخصى» .

(ب) الطريق رقم ١٣٢ فى جزئه الموصل من شربين إلى دمياط مارًا ببلدته الزرقا ، مراعيًا صالحه وصالح ذويه ، معطلاً تنفيذ المشروع الأصلى الذى نفذ بعد إتمام ما هدف إليه ، فهل أنت مذنب أو غير مذنب؟» .

«غير مذنب ! !» .

«غير مذنب، بس لى رجاء واحد بسيط جدًا».

«بغدادى: إن هذا الادعاء ينقسم إلى شطرين، فهل أنت مذنب أو غير مذنب فى أحدهما أو كليهما؟».

«غير مذنب فى الشطرين وأحب أن أقول لحضراتكم علشان تعرفوا..».

«بغدادى: لقد اتفقنا أن نترك هذا الوقت للدفاع».

«قلت: إن المحكمة هى صاحبة الإشراف المطلق على الإجراءات، وأعتقد أنى لن أحرم سعة صدر المحكمة».

«فقال بغدادى: وفى نفس الوقت المحكمة مقيدة بنظام معين».

«ثم قال: هل للمتهم أى طلبات بالنسبة للادعاءات المقامة عليه، وبالنسبة لطلب التأجيل؟».

«فقلت: يعنى إيه؟».

«فقال البكباشى محمد التابعى: هل أنت بتترافع عن نفسك والا حيكون لك محامى؟».

«عين المحامى بتاعك لأن فيه اثنين محامين، إن أمر تشكيل المحكمة ينص على وجود محامى واحد ولابد من التقيد بهذا الأمر».

«فقلت: أنا اخترت الأستاذ مصطفى مرعى، وكان يسرنى جدًا أو على الأقل يبعث فى شيئًا من الطمأنينة أن يشترك معه أو أن يكون بجانبه الأستاذ على أيوب، وحاول الأستاذ على أيوب أن يبرر وجوده إلى جانب الأستاذ مصطفى مرعى فلم يمكنه رئيس المحكمة».

(١٢٥)

ويروى إبراهيم عبد الهادى بعضًا من المناقشات التى دارت بين كل من الأستاذ مصطفى مرعى وبين المدعى العام وهيئة المحكمة، وفيها تظهر قدرات مصطفى مرعى

وسرعة بديهته التى تتجلى على سبيل المثال فى قوله «المريض حد يروح يسأله»، وفى قوله للمدعى: «لا تشاور عليها أنا عاوز أحط إيدى أنا عليها»:

«. . . وتحدث الأستاذ مصطفى مرعى حديثًا قانونيًا عن حقوق المتهم وقال: بخصوص الادعاء الأول لم نتبين وجهه إلى الآن واقعته المادية إيه؟ دليله إيه؟ لا شيء، لذلك ما عنديش ما أطلبه الآن فى شأنه، وأحفظ حقى فى أية طلبات قد أحتاج إليها عند تبين وقائع هذا الادعاء».

«وفيما يتعلق بالادعاء الثانى وهو أن إبراهيم عبد الهادى زج بجيش مصر فى الحرب، فعندى فى ذلك أن تتفضلوا فتأمروا بضم محاضر الجلسة السرية بمجلس النواب وتلك الجلسة التى انتهت بإعلان الحرب».

«فأكد البكباشى محمد التابعى أن هذه المحاضر كلها موجودة».

«وطلب الأستاذ مصطفى مرعى شهودًا ذكر أسماءهم قائلاً: إنهم بحكم مراكزهم يعلمون أن إبراهيم عبد الهادى كان رئيسا للديوان ولم يكن له علم بحرب فلسطين، ولا مشيرًا ولا ناصحًا، وأنه من باب أولى لم يكن ليزج بجيش مصر فى معركة فلسطين، وهؤلاء الشهود اللواء أحمد فؤاد صادق، واللواء أحمد المواوى، والفريق عثمان المهدى».

«ولكن البكباشى التابعى قال: إن اللواء المواوى اعتذر عن الحضور لمرضه».

«فقلت: بلاش هوه».

«ولكن الأستاذ مصطفى مرعى قال: بلاش هوه ازاى، اسكت أنت يا إبراهيم، المريض حد يروح يسأله».

«فقال رئيس المحكمة: على المدعى أن يسأل الشهود، فقال مصطفى مرعى إن هذا أدعى إلى تطويل المحاكمة وأنه يوجد وزيران كانا يضطلعان بالمسئولية وقتذاك وهما الدكتور عبد الرزاق السنهورى، والدكتور نجيب إسكندر، لأنهما كانا وزيرين فى حكومته التى أعلنت الحرب، وكذلك عبد الرحمن عزام، وحسين حسنى سكرتير خاص الملك، وهؤلاء جميعا يعرفون كيف أعلنت الحرب، ويعرفون كذلك أن إبراهيم

عبد الهادى لم يكن له أية يد فى الزج بجيش مصر فى حرب فلسطين، ويبقى ناقص بعد كده المضبطة السرية بتاعت مجلس النواب».

«فقال البكباشى محمد التابعى: موجودة هنا، وأشار أنها تحت يده».

«فقال مصطفى مرعى: لا تشاور لى عليها أنا عاوزك تحدد لى المحاضر وأحط إيدى أنا عليها».

«أما بخصوص الادعاء الثالث فقد طلب مصطفى مرعى أمر حل جماعة الإخوان المسلمين ومذكرته التفسيرية وحكم محكمة الجنايات فى قضية المرحوم النقراشى باشا وقانون الأحكام العرفية والقانون الذى مدت به الأحكام العرفية، وإلى ذلك التحقيق الذى تم فيما أسموه تعذيبا».

«ثم قال: إبراهيم عبد الهادى عندما تولى الحكم وجد الأحكام العرفية، وحينما جاء الوقت لمدها مدها، وقيد نفسه وأقام سلطة قضائية جعل من حقها أن تعقب على أحكامه، ومن حسن المصادفات أن السلطة القضائية كان من بين مَنْ تولاها الأستاذ حسن داود المستشار، حين فكر إبراهيم عبد الهادى فى تجديد الأحكام العرفية رأى أن ينص القانون على إنشاء هذه اللجنة القضائية وأعطاها حق التعقيب على أوامره كحاكم عسكرى، فكان الأمر يصدر ويعرض على اللجنة القضائية، وفى استطاعة حضراتكم أن تتبينوا من ممثلى النيابة أنه كثيراً ما كان يفرج عن أناس نتيجة هذا التعقيب».

«أما بخصوص الادعاء الرابع فإننا نرجو من عدالتكم ضم تقرير المستشار المحقق فى قضية المرحوم حسن البنا، وكذلك ضم قرار غرفة الاتهام».

«أما فيما يتعلق بالادعاء الخامس فإننا نرجو أن تتكرموا بإعلان الأستاذ طه السباعى والأستاذ محمد سامح موسى للشهادة، وكذلك ضم تقرير اللجنة المالية ومحضر جلسة اللجنة المالية بمجلس النواب التى نوقش فيها هذا الاعتماد أو محاضر الجلسات إذا كانت أكثر من محضر واحد، وخصوصاً محضر جلسة اللجنة المالية بمجلس النواب التى دار فيها البحث حول اعتماد المحروسة».

«فقال الأستاذ مصطفى الهلباوى: إن هذا المحضر غير موجود».

«فرد مصطفى مرعى قائلاً: إزاى الكلام ده . . أنا عاهدتكم على أن أكون سريعا فمكنونى من ذلك» .

فقال السيد بغدادى: يحضر هذا المحضر» .

«واستأنف مصطفى مرعى مرافعته قائلاً: إننا نطلب محضر الجلسة وجميع الأوراق المتصلة بالاعتماد الخاص بالمحروسة، ومنها سنتبين إذا كان قد اعتمد مبلغ ٣٥٠ ألف جنيه فى عهد إبراهيم عبد الهادى، ولو أن هذا غير صحيح من الآن، لأن قانون الميزانية لم يربط فى عهده فيبقى من المقطوع به أنه لما غادر إبراهيم عبد الهادى الحكم لم يكن مليم واحد قد صرف ولا حتى اعتمد» .

«أما فيما يتعلق بالادعاء السادس فيلزمنا فيه ملف موجود فى نيابة الغدر ممكن ييجى بعد خمس دقائق» .

«وذكر مصطفى مرعى أنه يطلب ذلك لأن فيه تقارير من فنيين يتبين منها على طول إن كان هذا الرجل تدخل أو ما تدخلش، واستغل أو ما استغلش، وهل هذه الأعمال عملت خدمة له؟» .

«إن السبب فى هذا الادعاء كلمة قالها سامى مازن فى محكمة الغدر وهو يترافع عن عثمان محرم، لقد قال إن عثمان محرم لم يفعل ذلك وحده، بل أيضًا إبراهيم عبدالهادى وعلى ماهر فرئى أن يؤخذ بهذه الكلمة اتهام إبراهيم عبد الهادى! إنما معلهش فنحن نلتمس الحقيقة من أى مصدر» .

«واستمرت الجلسة فى مناقشات بين هيئة المحكمة والأستاذ مصطفى مرعى» .

(١٢٦)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يستعرض ما حدث فى الجلسة الثانية من جلسات محاكمته حيث تقدم أحد أشقاء الشيخ حسن البنا بمذكرة تستهدف منع مصطفى مرعى من الدفاع عن إبراهيم عبد الهادى باعتباره كان وسيطًا بين الحكومة (إبراهيم عبد الهادى) من ناحية، وبين الإخوان من ناحية أخرى .

ويشير إبراهيم عبد الهادى إلى أن مجلس نقابة المحامين نفسه قرر أنه لا يجوز أن يتخلى مصطفى مرعى عن دفاعه عن إبراهيم عبد الهادى :

« . . . وفى الجلسة الثانية حدثت مفاجأة ، قال المدعى العام بأن السيد النائب العام حول إليهم مذكرة مرفوعة إليه من اليوزباشى عبد الباسط البنا شقيق الشيخ حسن البنا» .

«وجاء فى هذه المذكرة :

«١ - من المسلم به قانونًا أنه لا يجوز لأحد المحامين الحضور مع طرف الخصومة إذا كان الطرف الثانى قد اتصل به من قبل وعرض عليه موضوع النزاع وأطلعه على مستنداته فأبدى المحامى رأيه فى هذا النزاع» .

«٢ - واليوم يقف الأستاذ مصطفى مرعى مدافعًا عن المتهم إبراهيم عبد الهادى فى الادعاءات الستة المقامة عليه ، ومنها الادعاءات الثالث والرابع الخاصات بالاعتقالات والإرهاب والتعذيب وتيسير اغتيال الشهيد حسن البنا» .

«٣ - وحيث إن موضوع هذين الادعاءين قد عرضا على الأستاذ مصطفى مرعى من الإمام الشهيد حسن البنا فى عدة مناسبات وجلسات فى منزل مصطفى مرعى ، وفى منزل اللواء صالح حرب ، وكان الأستاذ مصطفى مرعى يتوسط للصلح بين هيئة الإخوان وحكومة ذلك العهد ، وقد بسط له الإمام الشهيد موضوع المعتقلين ومسائل الإرهاب وكل أساليبه والإجراءات الشاذة التى اتخذت فى حل الإخوان واعتقال الأعضاء وغير الأعضاء ، وتجريده من سلاحه واعتقال أشقائه وغيره ، ومن ذلك ما هو واضح من أقوال الأستاذ مصطفى مرعى ذاته فى التحقيقات الأولى من قضية الإمام الشهيد» .

«فإنه لا يجوز لحضرته قانونًا الدفاع عن المتهم ، وتعد مرافعته فعلاً مشينًا يعاقب عليه قانون المحاماة» .

«وقد بين الأستاذ مصطفى مرعى بطلان هذه المذكرة من الناحية القانونية ومن الناحية الخلقية كذلك ، وكشف أيضًا عن موقفه من الشيخ حسن البنا وشهادة الشيخ حسن فى خطاب بخطه إلى مصطفى مرعى بأنه كان مثال الرجل الأمين ، وكتاب

الشيخ حسن البنا يرجونى فى أن يتصل مصطفى مرعى به للتفاهم فى موضوع حل الإخوان المسلمين، فقبلت وانتهى الاتصال بالتفاهم والوصول إلى مرحلة طيبة، وأن الوساطة كانت للخير طبعا، وما كنت أرفض الوساطة أبدًا فى عمل ينتهى إلى الخير لمصلحة البلد، ولكن هكذا شاءوا أن يعكروا حتى العمل الطيب الذى أخذنا أنفسنا له والتزمنا طول حياتنا به فى حياتنا العامة نحو مواطنينا».

«كما أن نقابة المحامين عندما وصلت إليها هذه المذكرة جمع النقيب مجلس إدارة النقابة وبحثها وانتهى منها بأنه لا يجوز قانونًا أن يتخلى مصطفى مرعى عن دفاعه عنى، وأبلغه أن يسير فى طريقه على بركة الله، ومع كل ذلك جاء شقيق حسن البنا إلى المحكمة بهذه المذكرة التى إن دلت على شيء فإنما تدل على نفوس مريضة أكلها الحقد، وأعماها الشر، وقد عرفوا وتأكدوا أن لا يد لى إطلاقًا فى قتل حسن البنا شهيدهم هذا لا من قريب أو بعيد، وحاشا أن أرتكب هذا الجرم الفظيع الذى ينهى عنه الدين والخلق والمروءة والرجولة وكل المعانى الإنسانية التى ورثناها وتربينا عليها، وما كنت أنا إبراهيم عبد الهادى الذى يلجأ إلى هذا الأسلوب الخسيس الذى يلجأ إليه قطاع الطرق والجهلة من الناس».

(١٢٧)

ثم يتحدث إبراهيم عبد الهادى عن موقفه المبدئى مما اتهم به من الخيانة العظمى وحرصه على أن تكون مناقشة هذه التهمة مناقشة علنية كى يبرأ منها ولا تظل مرتبطة باسمه، وكيف تعنتت المحكمة فى معاملتها له مما أدى بمحاميه الأستاذ مصطفى مرعى إلى أن ينسحب من الدفاع:

«وقد أصررت (على طلب) أن تكون الجلسة علنية لأننى اتهمت بالخيانة العظمى تهمة علنية عرفت فى الدنيا كلها، وأنا واثق من براءتى مائة فى المائة، لأنه لم يكن لمثلى وقد أعطيت حياتى لبلادى شابًا فأنهى حياتى بالخيانة، هذا لا يمكن، وأكرر أنه ما كان لى أنا إبراهيم عبد الهادى الذى أعطى حياته وهو شاب يدافع عن إيمان وعن يقين لمصلحة بلاده، لا بدافع طمع فى مال أو جاه أو منصب، ولا لأى شيء، لينتهى وهو فى السادسة والخمسين بعد طول هذه الحياة التى يعتقد أنه أداها لبلده خالصة لوجه

الله، وشريفة لم تلوث بجرم ولا بذنب لا فى التهمة الأولى، ولا فى التهمة الثانية، ولا فى الثالثة، ولا فى كل التهم الأخرى كما تثبت الحوادث والأيام والوقائع الثابتة التى لا يرقى إليها شك».

«وعندما وجد الأستاذ مصطفى مرعى نفسه أنه أمام موقف رئيس المحكمة والادعاء لن يستطيع أن يكشف الحقائق ويؤدى واجبه نحو مَنْ ائتمنه على نفسه، وأعلن فى ساحة المحكمة أنه عاجز تمامًا عن تأدية واجبه وعمله تنحى عن مهمته قائلاً: «وإننى أصارح هذا الرجل والأسى يمزق قلبى أننى عاجز عن تأدية واجبى نحوه، وأستأذنكم فى أن أتنحى وكلى أسف عن الدفاع عنه».

(١٢٨)

ويروى إبراهيم عبد الهادى أنه كان حريصًا على أن يتهم الفريق محمد حيدر أمام محكمة الثورة، وذلك بعد أن وجد قيادة الثورة قد جعلت منه شاهد إثبات ضده فى المسئولية عن حرب فلسطين:

«وتكلمت بعد أن تنحى الأستاذ مصطفى مرعى فأبنت لهم بأننى أتحمل مسئولية وغيرى يشهد على، وهذا الغير، أنا وهو وكل الناس كانوا فى الحكم تحت أحكام وقوانين ودستور ولكل واحد منا تبعات، وعلى كل واحد منا مسئوليات، ولكل واحد منا حقوق، وتخلع المسئولية عن صاحبها خلعًا ليلبسها إبراهيم عبد الهادى ظلمًا وعدوانًا، وما كان إبراهيم عبد الهادى أقرب إلى الملك من محمد حيدر باشا، شاهد الإثبات، بل لعلكم تذكرون أنه هو الذى جاءنى لأرفع استقالتى لما استفحل الأمر بينى وبين الملك لمواقف ضد رغباته».

«إن أشقى ما يواجه به الإنسان على وجه الأرض فى البلد أن تنسب إليه الخيانة ولا يستطيع الدفاع عن نفسه، ويحرم من تقديم المستندات الدالة على براءته، كما يحرم من شهود النفى وكلهم من ذوى المكانة ليقولوا كلمة الحق أن رجلاً أعطى حياته كلها لخدمة بلده يقدم بتهمة الخيانة ولا يسمح له بالدفاع عن نفسه، هذا شىء مؤلم جدا!!».

(١٢٩)

ولايزال إبراهيم عبد الهادى رغم مرور السنوات يعجب من هذا المصير الذى قدر عليه أن يلقاه أمام محكمة الثورة، ويبدو حديثه فى المذكرات وكأنه لايزال يعانى من الذهول من فقدان المنطق فيما وجه إليه من اتهام، وما تعرض له من محاكمة:

«وأنا أقول على ذمتى ويقينى وأقسم بالله وبشرفى أننى ما كنت أجزع أبدًا من أن يكون أمرى وشرفى وسمعتى بين يدى مصريين، ولكن وقد نشر هذا على الملأ وعلى الدنيا كلها فى شأن رجل أعطى لبلاده حياته، وخدمها بصدق وأمانة، فهذا أمر لا يحتمله إنسان، فضيحة الخيانة تنتشر على هذه الصورة الواسعة ولا يعلن على الملأ شىء من كلامى!!».

«بماذا أدافع عن نفسى وهم يضعون العقبات فى طريقى، والدفاع الناقص أشر من عدم الدفاع، لذلك ألزمت نفسى بأن لا أدافع إطلاقا عن نفسى وتركت أمرى إلى الله العلى القدير؟!».

«رجل يُتهم بالخيانة ضد وطنه ثم يُحكم عليه بالإعدام ثم يخفف الحكم من الإعدام إلى السجن المؤبد ثم يفرج عنه بعد شهور، ويعلن رئيس الدولة وقتئذ أن الإفراج تم عنه لأنه ثبت لديهم أنه لم يتصل بدولة جنبية، وأن ما اتهم به غير صحيح، وأن أمواله المصادرة ستعود إليه. . ثم ماذا؟!».

«ثم لا تعود هذه الأموال التى صودرت ظلمًا، وقد ثبت أنه لم يدخل فيها قرش حرام».

(١٣٠)

ويتحدث إبراهيم عبد الهادى عن السبب الذى جعله يقرر أن يكف عن الدفاع عن نفسه لأنه وجد الهدف من المحاكمة يتمثل فى تعذيبه وإهانته، لا فى البحث عن حقيقة، وهو لا يكف عن إظهار ضيقه بتصرفات عبد اللطيف البغدادى رئيس المحكمة، ولا يكف كما ذكرنا عن وصفه بقوله: «القاضى الذى ولد قاضيًا» فى تعريض ظاهر بما تحدث به البغدادى عن نفسه:

«. . . . . . لقد تأكدت وأنا أحاكم أن المقصود إهانتى أمام الشعب، والتحقير من شأنى، لذلك قلت لمصطفى مرعى: مصطفى!! اقعد ولا تترافع، ولما حاولوا استدراجى فى أكثر من موضع أن أدافع عن نفسى رفضت رفضا قاطعا».

«ما هو السر الذى من أجله رفضت الدفاع عن نفسى فى التهم التى وجهت إلىّ؟».

«هل عن عجز. . أحمد الله أنه أجرى اللغة العربية على لسانى سهلة طائعة، الوقائع نفسها ثابتة واضحة لا تحتاج إلى البلاغة والكلام المنمق الرشيق».

«لقد وجدت أن الغرض الحقيقى هو بهدلتى أو مرمطتى أمام الرأى العام ولم أقل السبب».

«ليكن يا أيها الناس أن رئيس المحكمة ولد قاضيًا، ليكن هذا، ولكن حدث فى خلال الكلام عن دخول الجيش فلسطين أن سألنى الذى ولد قاضيًا:

«ما هى وظيفتك الحكومية التى كنت تؤديها أثناء قيام حرب فلسطين؟».

«قلت: كنت رئيس الديوان».

«فقال: كنت بطبيعة الحال تعرف دخول مصر الحرب؟».

«قلت: لا. . ما كنتش أعرف كل الأسرار ولا بعضها».

«قال: إيه اللى تعلمه؟».

«قلت: المسألة كانت مسبوقة بدعاية طويلة عريضة لدخول الحرب، وكان فيه الجامعة العربية منعقدة، وكل المسائل المتعلقة بتقرير هذا الموضوع كانت بين الملك وبين الجامعة العربية، وأنا لم أعلم مطلقًا عن دخول الحرب شيئاً إلا حين علم كل الناس».

«والمعروف أن مستشار الملك هو رئيس الوزارة، وأن منصب رئيس الديوان وظيفة ليست لها حدود، لا لها لائحة ولا قانون يحدد اختصاصاتها، وإنما الموضوع متعلق باستشارته هو، فإن طلب الملك الاستشارة كتبتها له فى مذكرة وقدمتها، وإنما هذا الموضوع بالذات لم يطلب رأيى فيه، وأنا لا أقدم المشورة متبرعا، والكل يعلم أن الجيش دخل فلسطين بأمر الملك بوصفه القائد الأعلى، ومعه وزير الحربية حيدر باشا

الذى جاءوا به شاهدا علىّ بأنى الذى دفعت بالجيش فى حرب فلسطين . . ياسبحان الله» .

(١٣١)

ويصل إبراهيم عبد الهادى فى حواره مع البغدادى إلى أن يثبت على عبداللطيف البغدادى، بطريقة غير مباشرة، خطأه المتجاوز فى حقه :

«ويسألنى رئيس المحكمة : ألم تحتج على دخول الجيش فلسطين؟» .

«قلت : أحتج على مين؟!» .

«وبعد كلام وأسئلة كثيرة قال رئيس المحكمة : أفهم من هذا أن رئيس الديوان كان «ميس»؟!» .

«قلت : لا أبدا، «ميس» تقال لما ييجى واحد يتصرف تصرف وحش باسمه» .

«فقال : أنا أقصد طرطور» .

«وأردت أن أبين له اختصاصات رئيس الديوان ولما بدأت كلماتى بعد هذا وجدت القاضى الذى ولد قاضيًا يقول : هل كنت «طرطور»؟ وكررها عدة مرات، وأنا عندى أولاد وأنا فى (هذه) السن قريبين من سنه فى غاية الأدب يقول لى : أنت كنت «طرطور» .

(١٣٢)

ويروى إبراهيم عبد الهادى على طريقته جوهر الاتهام له بالخيانة، وهو، أى الاتهام، كما نرى فى حديثه اتهام متهرئ، وربما يعجب المرء أن تكون هذه هى الطريقة التى لجأت إليها الثورة فى مثل هذه المحاكمات، والواقع أن الأمر ليس بمستغرب فيما يسمى بالمحاكمات السياسية :

«فى الجلسة بدأنا حكاية الخيانة العظمى قال زكريا : إنى كنت على اتصال بدولة أجنبية» .

«قلت: ما هى الدولة الأجنبية دى؟».

«قال زكريا محيى الدين مدير المخابرات العامة ووزير الداخلية: الدولة الإنجليزية».

«قلت: إيه دليلكم؟».

«قال: سيارة الوزير الإنجليزى المفوض كانت واقفة بجوار بيتك يوم كذا، ويوم كذا، وبعدين يوم...».

«قلت: أنا كنت أسكن فى لوران فى شارع ضيق صغير طوله لا يزيد على خمسين ستين مترا، يجاورنى من ناحية قصر الملك أحمد زوغو ملك ألبانيا السابق، ومن الناحية الأخرى فيلا صغيرة جميلة يسكنها وزير كندا ووزير دولة أجنبية أخرى، وكان من عادته أن يقيم حفل استقبال للوزراء الأوروبيين كل يوم أحد، وأعتقد أن الشارع ضيق فكانت سيارات السفراء والوزراء الأجانب تقف على الجانبين، ولعلها صدفة ووقفت سيارة الوزير البريطانى أمام منزلى.. دى فيها إيه؟!».

«وبحث السيد زكريا فى أوراق المذكرة فوجد كلامى صحيحًا، كل الزيطة دى بتحصل كل يوم أحد فقط من كل أسبوع فسكت، ثم قال: تعرف الحاج سيد عامل تليفون السفارة؟».

«قلت: عامل التليفون بالسفارة.. أنا لا شفته ولا أعرفه ولا أعرف اسمه كمان!».

«قال لى: لا... سأل عليك فى البيت».

«قلت له: طيب قال لى إيه وقلت له إيه؟!».

«قال: لا... محدش رد عليه فى البيت».

«هذه مرة وسأل عليك مرة ثانية».

«قلت لهم: وما هو الحديث الذى تم بينى وبينهم؟!».

«قال: محدش رد عليه فى البيت».

«فقلت له: لا كان امتى؟».

«فقال لى عن تواريخها، فى شهور مايو ويونيو ويوليو، قلت له: يا أخى دانا فى هذه الشهور بصيف فى إسكندرية».

«قال: طيب ما احنا ما قلناش حاجة!».

«فقلت: لا دانت لازم تقولى حاجة.. أنا لما أكون على صلة بالإنجليز يبقوا أكثر الناس يعرفوا تحركاتى، فلما سألوا عنى فى البيت فى القاهرة ولم يجدونى يبقى إن كان هذا صحيحا يسألوا عنى فى إسكندرية!».

«قال السيد زكريا: شوهدت سيارة السفير البريطانى تمر فى الشارع الذى تسكن فيه بالإسكندرية فما قولك؟».

«قلت: آه!!».

«الشارع اللى أنا ساكن فيه أحكم فيه على بيتى، هو أنا واقف عسكرى مرور! ثم منزلى محكوم بالحرس بتاعكم من يوم أن قامت الثورة أو بعدها بكام يوم، وحرسى كامل قال لكم إنه دخل بيتى أنا خرجت وكلمته، إن كان قال لكم كده يبقى دا كلام له قيمة؟!».

«هل أنا أستطيع أن أمنع سيارة السفير البريطانى أو أى سيارة تمر من الشارع الذى أسكنه.. هذا شىء لا يخطر على بال عاقل أبدًا، إنما أعمل إيه!!».

«قائد الأسراب أو قائد الجناح حسن إبراهيم سألنى: أنت كنت رحت السفارة البريطانية بالقاهرة فى الاحتفال الذى أقيم بها ابتهاجًا بعيد ملك بريطانيا».

«قلت: أيوه، بس أحب أقول لكم وهذا ليس سرًا: لقد دعينا رؤساء الوزراء والوزراء السابقين: على ماهر، وحسين سرى، والدكتور محمد حسين هيكل، وبهى الدين بركات، وعبد السلام الشاذلى، وأنا وكثير غيرنا، وقد رأيت أنا شخصيًا أن أسأل حضرات السادة المتولين شئون الحكم: هل لديهم مانع من ذهابى إلى السفارة البريطانية فى ذلك اليوم؟ كلفت عبد السلام الشاذلى بهذه المهمة لأنه كان على صلة وثيقة بكم فقالوا ليس لديهم مانع، فذهبت كما ذهبت بقية خلق الله المدعوين، ومنهم عدد كبير من رجال الثورة ووزرائهم».

«وبعد السلام والتحية واحنا واقفين، أردت أن أخرج فعلى ماهر قال لى: تعال نستريح وندردش شوية».

«وعلى كنبة فى حديقة السفارة جلسنا وحضر واحد من السفارة وأخذ يتجاذب معنا الحديث فقال كلمة ضحكتنا وضحك على ماهر ومَنْ كان قريبًا منا ثم خرجنا».

«قال القاضى حسن إبراهيم قائد الأسراب: يعنى أنت كنت بتضحك؟!».

«قلت له: وماله؟».

«قال: يعنى كنت مبسوط!»

«قلت: والباقون الذين ضحكوا كانوا زعلانين».

«يا أخى أنا ضحكت وكنت مبسوط فيها إيه؟! هو أنا كنت رايح علشان أعيط».

«قال: أنت رحت الكنيسة الإنجليزية على النيل لتحتفل بالجنازة على روح ملك إنجلترا».

«قلت له: دعينا وكان موجود شريف صبرى، وهيكل، وحسين سرى، ودى مسائل شكلية رسمية، وكان فيها أيضًا بعد رجال الثورة وغيرهم!».

«هذه هى صلتى بحكومة أجنبية للتآمر ضد بلدى والتى خنت مصر وقدمت للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى وحكم علىّ بالإعدام».

«هذه هى الأدلة ولا شىء غيرها».

(١٣٣)

ولا يفوت إبراهيم عبد الهادى أن يتحدث عن عبرة التاريخ فى دوران الأيام على الإخوان المسلمين الذين سعوا لإعدامه بتهمة الخيانة العظمى، ثم لم تمض شهور حتى وجهت لهم نفس التهمة:

«...... حكم علىّ بالإعدام وخفف الحكم إلى السجن المؤبد بعد أن رفض اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية وقتئذ التصديق على الحكم، وقد بعث الأستاذ

حلمى بهجت بدوى رحمة الله عليه وحامد سلطان برقية إلى رئيس الجمهورية يصفان فيها حال الرأى العام الدولى وكيف تلقى الحكم باستياء ووجوم».

«ونزلت فى سجن مصر وبعد عدة شهور، وأنا جالس أمام زنزانتى أقرأ الجرائد إذا بى أقرأ الآتى:

«القبض على حسن الهضيبى رئيس جماعة الإخوان المسلمين وخليل سالم وآخرين، ليه ياساتر يارب!».

«لأنهم كانوا يتفاوضون مع الإنجليز والأمريكان، ما هذا الكلام، دول كانوا حماة الثورة، وطلبوا تقديم رأسى ثمنًا لرضائهم على الثورة».

«وأنا لما سألت القاضى الذى ولد قاضيًا يا إخوانى ويا أبنائى ليه تُعقد الجلسة سرية ولا يذاع اسم الدولة التى اتصلت بها؟!».

«قالوا: لأننا لا نريد أن نزعل الدولة التى كنت متصلاً بها، والمصلحة تقضى بذلك».

«ويشاء الله كشف مبلغ هذا من الصدق فيكتب بلسانهم أن الهضيبى وزملاءه يقبض عليهم لأنهم يتفاوضون مع الإنجليز والأمريكان».

(١٣٤)

ونأتى إلى حديث إبراهيم عبد الهادى عن بعض شخصيات عصره.

ونبدأ بحديث إبراهيم عبد الهادى عن الزعماء الأربعة الذين دان لهم بالزعامة وهم: سعد زغلول، وعبد الرحمن فهمى، وأحمد ماهر، والنقراشى.

ويظهر إبراهيم عبد الهادى فى الحلقات الأولى من مذكراته اعتزازًا لا نهاية له بشخصية سعد زغلول وقدراته وتاريخه الوطنى، وهو يخصص فقرات كثيرة من المذكرات للحديث عن طبيعة مواقف سعد وماضيه الوطنى وإجماع الأمة عليه، وهو ينقل رأى الحزب الوطنى المبكر فى عظمة سعد زغلول ووطنيته.

ومن الجدير بالالتفات أن حديث صحافة الحزب الوطنى عن تعيين سعد زغلول وزيرًا للمعارف فى زمن الاحتلال البريطانى كان حديثًا حافلاً بالتقدير للرجل، والحديث عن الأمل فى أداء مميز للوزير الجديد، وقد تطرق ذلك الحديث إلى تقييم موقف الوزراء والساسة والوزير بتفصيل دقيق مما لا يتاح فى صحفنا فى القرن الحادى والعشرين:

« . . . لقد كتبت الصحف تشيد بهذا التعيين الذى صادف رجلاً ليس ككل الرجال، وكتبت صحيفة «اللواء» لسان حال الحزب الوطنى تقول عن هذا التعيين: «إن ما يعرفه الناس من أخلاق وصفات سعد زغلول وهو فى المحاماة أولاً وفى القضاء ثانيا، يحملهم جميعًا على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصريًا مشهورًا بالكفاءة والدراية والعلم الغزير وحب الإنصاف والعدل».

«ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم منصبًا لا عمل فيه، وكان المستشارون الإنجليز أصحاب السيطرة الثابتة فى النظارات، حق للناس أن يتساءلوا عما يعمله سعادة سعد بك زغلول فى نظارة المعارف: هل سيكون كبقية الوزراء أمره وأمر المعارف بيد دانلوب؟ أم يكون وزيرًا« اسمًا وعملاً ويحيى سلطة الوزراء المصريين؟!».

«اللهم إننا عرفنا سعد بك زغلول فى ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكًا باستقلاله وحقوقه، وأكثرهم انتقادًا على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم، وسمعناه يقرع بلهجة حادة الكسالى والمقصرين كبارًا كانوا أو صغارًا، فإذا بقى سعد زغلول كما هو وكما كان، وهو ما نعتقد، أملنا خيرًا كثيرًا للمعارف، ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة الحياة المصرية إلى الوزارة».

«على أنه إذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيرًا للمعارف تقديرًا لعلمه، وإعلانًا لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية الماضية واتباع بسياسة جديدة قاضية بإعطاء المناصب لمستحقيها وتشريف الكفاءة، فإن هذه السياسة تقضى قبل كل شىء بأن يكون الوزير وزيرًا حقيقة، بأن يكون العامل عاملاً مؤديًا لوظيفته، متمتعًا بكل حقوقه، لا أن يكون آلة فى يد الموظف الإنجليزى، والواجب أن يكون سعد زغلول بك المدير الفعال لدفة المعارف المصرية والمصلح لخللها الكثير، والمحقق لآمال الأمة فى نظارة خابت فيها مع المستر دنلوب كل الآمال».

«فنحن لا نبتهج اليوم بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيراً للمعارف إلا بأمل أن يكون كما كان على باشا مبارك، والفلكى باشا وأمثالهما ممن خدموا العلم فى هذا القطر خدمات خالدة، وكانت لهم فى مناصبهم الكلمة النافذة، والرأى المتبع، ونطالبه قبل مطالبتنا للاحتلال بأن يكون كذلك، وأن يكون فى مستقبله كما هو فى حاضره، وكما كان فى ماضيه، الرجل المستقل الذى لا يخدعه منصب ولا مال».

(١٣٥)

وللتدليل على قدرات سعد زغلول الفائقة يروى إبراهيم عبد الهادى مجموعة من الحوادث التى شهدها عهده فى وزارة المعارف، ومما يرويه موقف سعد زغلول من نبوية موسى حين كانت لاتزال طالبة فى المدرسة السنية، ومن الطريف أن إبراهيم عبد الهادى يروى القصة بأفضل مما روتها نبوية موسى نفسها:

«... حدث أن ناظرة مدرسة السنية للبنات كانت إنجليزية، وكانت معتدة بنفسها وبصلتها القوية بدار المعتمد البريطانى، أرادت أن تتحدى الوزير وأن توقفه عند حده، ففصلت تلميذة لسبب تافه لم ير الوزير بعد بحث شكوى ولى أمرها أنها تستوجب هذه العقوبة فأمر بإعادتها إلى المدرسة، لكن الناظرة رفضت تنفيذ الأمر ثم أعادتها مرغمة، لكنها حرمتها من دخول الفصول مع التلميذات وأمرت بحجزها فى غرفة منفردة تتناول فيها طعامها، وتقرأ فيها دروسها، ولا تخرج منها إلا بإذنها».

«واتصل الخبر بإحدى الصحف فكتبت الصحيفة تندد بالتصرف وتحمل الوزير خيبة أمل الأمة فى سعد زغلول الوزير الوطنى الشجاع، العالم الفاضل النزيه إلى آخر هذه الأوصاف التى ذكرتها من باب التهكم، فذهب سعد إلى المدرسة، وهى على مسافة قصيرة من ديوان الوزارة، ورأى بنفسه أن ما كتبته الصحيفة صحيح فى جميع تفصيلاته، فأمر بوقف الناظرة وإحالتها إلى مجلس التأديب».

«وكانت هذه التلميذة هى السيدة نبوية موسى المدرسة والناظرة والمفتشة بوزارة المعارف فيما بعد، وصاحبة مدارس بنات الأشراف فى القاهرة والإسكندرية، وكانت لها مواقف معروفة فى الصحف وأمام القضاء مع محمد العشماوى باشا وكيل وزارة المعارف، وعلى ماهر باشا وزيرها فيما بعد».

(١٣٦)

كذلك يروى إبراهيم عبد الهادى موقف سعد زغلول من توجيه ناظرة المدرسة السنية التى حولها سعد زغلول وهو وزير إلى المجلس للتأديب، ثم رأى أن المجلس لم يوقع عليها ما تستحقه من عقاب فنقلها غير عابئ بسلطة المستعمر البريطانى ورجاله:

« . . . أعلن موعد المحاكمة وصدر حكم مجلس التأديب وأغلب أعضائه من الإنجليز بجزاء خفيف جداً هو لفت نظرها وتحذيرها من العودة إلى مثله فى المستقبل».

«فلم يسكت سعد على هذا القرار وأمر بنقل الناظرة من مدرسة السنية إلى مدرسة المعلمات الأولية فى بولاق، وهذا حقه، فانتقل الغضب من مصر إلى لندن، وكان موضع سؤال عنه فى مجلس العموم البريطانى، لكن ذلك لم يفد شيئًا ونفذ أمر النقل وصدعت له الناظرة والجالية البريطانية فى مصر».

(١٣٧)

أما عبد الرحمن فهمى فيحظى بكثير من ثناء إبراهيم عبد الهادى وإعجابه الذى لا حدود له، وهو يسميه ديدبان مصر، وهو يتحدث عن دور هذا الرجل فى ثورة ١٩١٩ بكل ما يملك من اعتزاز بهذا الدور وصاحبه، ويرى فيه مثلاً أعلى وأبًا روحيًا، وهو يروى بكل وضوح أن الفضل فى قيام ثورة ١٩١٩ يعود إلى هذا الرجل ودوره العظيم فيها:

«فى هذا الجو المرهق بقى ديدبان مصر، وإذا قلت ديدبان مصر فإنما أقصد الرجل العظيم عبد الرحمن فهمى. لقد بقى هذا البطل مكبًا على عمله، صامداً فى موقفه لا يتزعزع ولا تلين قناته، يخطط ويدبر وكله ثقة وإيمان بالله والوطن».

وفى موضع آخر يقول إبراهيم عبد الهادى:

« . . . . . . وأجد لزامًا على ذمتى وضميرى أن أذكر بالتكريم والعرفان ذلك الوطنى العظيم عبد الرحمن بك فهمى الذى تولى حراسة الحركة الوطنية بإيمانه وصلابته ومثابرته النادرة، وعزمه الحديدى الذى ترك المرارة والحنق فى نفوس

الإنجليز، ولكنى أعترف بأننى لم أعمل مع عبد الرحمن بك فهمى فى جهازه السرى فى عمليات الاغتيالات ضد الإنجليز أو السياسيين المصريين الذين اعتقد الجهاز أنهم حادوا عن طريق الخط الوطنى، وكان عملى مقصوراً على كتابة المنشورات السرية بأمر اللجنة التنفيذية العليا للثورة، واللجنة المستعجلة، وأوامر عبد الرحمن بك فهمى وتوزيعها مع زملائى أعضاء اللجنتين».

«كان عبد الرحمن بك فهمى بالنسبة لى الأب الروحى، وكان ولائى وحبى وإخلاصى له لم يتزحزح قيد أنملة، وإيمانى أنه لولا هذا الرجل لضاعت ثورة ١٩١٩ التى فجرها سعد زغلول بعد نفيه وصحبه محمد محمود باشا، وإسماعيل صدقى باشا، وحمد الباسل باشا إلى مالطة وجبل طارق».

(١٣٨)

يعبر إبراهيم عبد الهادى عن أسفه وأساه للمصير الذى انتهت إليه العلاقة بين الزعيم سعد زغلول وبين ديدبان مصر عبد الرحمن فهمى، ونلمح فى حديث إبراهيم عبد الهادى انحيازاً إلى زعامة سعد زغلول على الرغم من إيمانه العميق بعبد الرحمن فهمى ودوره وانتمائه إليه، ويلجأ إبراهيم عبد الهادى فى تفسير وقوع الخلاف بين الرجلين إلى تفسير ذكى يحفظ لكلا الرجلين قدرهما فى الحركة الوطنية، لكن العجيب أن تفسير سعد زغلول نفسه لوقوع الخلاف بينه وبين عبد الرحمن فهمى يلصق بعبد الرحمن فهمى سبباً شبيهاً بالانحياز إلى القصر نفسه لا إلى أتباعه على نحو ما يصور إبراهيم عبد الهادى رأى عبد الرحمن فهمى فى سلوك سعد زغلول.

ومع انحياز إبراهيم عبد الهادى إلى زعامة سعد زغلول فإنه يصل إلى القول بأن سعد زغلول نفسه لم يكن يرتاح إلى الحديث فى موضوع عبد الرحمن فهمى لأنه كان يحس بخطئه(!!!)

ومن الجدير بالذكر أن إبراهيم عبد الهادى يلجأ إلى نقل نص لمصطفى أمين يحاول تفسير الأمور بما لا يحرج سعد زغلول(!!) وذلك على الرغم من تصريح إبراهيم عبد الهادى باعتقاده فى خطأ سعد(!!):

«ما كنت أحب أبدًا أن يصل الأمر بين سعد وعبد الرحمن فهمى إلى ما وصل إليه».

«لا أدعى العصمة، ولا أستطيع أن أدعى السمو فوق خلجات نفسى، وإن حاولت ما استطعت لأنى بشر، وكل ما يمكن أن أقوله إن سعد باشا لم يكن محقًا فى موقفه!».

«لقد كان سعد زغلول يحب عبد الرحمن من قلبه، ويعرف قدره».

«وكاد سعد أن يقطع مفاوضاته مع لورد ملنر فى إنجلترا عام ١٩٢٠ بعد أن قبض الإنجليز عليه وعلى زملائه».

«إن سبب الاصطدام بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى والخصام هو أن عبد الرحمن فهمى كان ساخطًا على الدوام من تقريب سعد لبعض رؤساء الوزراء السابقين وإشراكهم معه فى الحكم، خصوصًا توفيق نسيم، فجميعهم لم يحاكموا ولم يدخلوا السجون فى الحركة الوطنية، بل إن توفيق نسيم كان يفخر دائمًا بأنه لم يصب يومًا بداء الوطنية، وأنهم كانوا دائمًا عونا للإنجليز والسراى فى سياستهم لغير مصلحة مصر، وكان سعد باشا يقر كل هذا ولكنه كان يرى أنه من الخير أن يهادنهم ولو أدى ذلك إلى التعاون معهم فى الحكم اتقاء لدسائسهم وشرورهم، ولكن عبد الرحمن فهمى هو الذى كان على حق، وسعد لم يكن فى حاجة إليهم، لأن الشعب كله كان معه ما عدا فئة قليلة، وكان بوسعه أن يقضى عليهم بكلمة أو إشارة قضاء تامًا لو أراد».

«ولذلك فإن سعد لم يكن يرتاح إلى الحديث فى موضوع عبد الرحمن فهمى والقطيعة بينهما والأسباب التى أدت إليها من قريب أو بعيد، لأنه كان يحس بخطئه».

«وقد قرأت لمصطفى أمين فى الجزء الأول من «الكتاب الممنوع» عن هذا الموضوع ما يلى:

«فى يوم الخميس ١٨ مارس سنة ١٩٢٦ كان سعد زغلول منتصرًا، وكانت الدنيا بدأت تركع أمامه من جديد، وكان يكفى أن يرشح رجلاً من أنصاره ليكتسح جميع المرشحين».

«وهذا صحيح لا مبالغة فيه».

«ثم يقول مصطفى أمين بعد ذلك نقلاً عن مذكرات سعد زغلول :

«رجانى اليوم سلامة ميخائيل عضو الوفد المصرى ترشيح عبد الرحمن فهمى بك لعضوية مجلس النواب فنهرته عن هذا الرجاء وبينت له سوء عمله ، وكان ذلك بأشد عبارة» .

«وبعدها لم يتحدث سعد باشا فى هذا الموضوع فى مذكراته إلا مرة واحدة» .

«لقد كان سعد باشا بعد حادث قتل السردار فى حالة نفسية سيئة ، فقد ترك بيته بعد مدة ونزل فى فندق مينا هاوس وكتب فى مذكراته يقول :

«كل يوم تردنى خطابات تحمل استقالات من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب من الهيئة الوفدية فى البرلمان ، وأولها كان من موسى فؤاد باشا ، ومحمد فهمى باشا ، والأول شيخ (أى عضو فى مجلس الشيوخ) كان الوفد رشحه ونجح فى الانتخابات بتأييده ، وكان بعض العارفين يلومون الوفد لتأييده لعدم حسن سيرته ، وشهرته بالميل إلى الإنجليز ، ولكننا رشحناه وفضلناه على غيره من المعارضين» .

«خرج عبد الرحمن بك فهمى من السجن بعد أن لبث فيه زهاء شهرين ، بسبب قضية السردار ، وتوجه توًا إلى سراى عابدين حيث كتب اسمه فى دفتر التشريفات ولم يمر ببيت الأمة ، فتساءل الناس عن سر هذا الإقبال والإدبار ! وزعم بعضهم أنه يريد الاستقالة وذلك مقدمة لها ، وقد حضر عندى بعد أربعة أيام من إطلاق سراحه ولم يتكلم عن تأخر زيارته ، ثم أخذت الإشاعة عن استقالته تتأكد وحتى نشرتها بعض الجرائد فطلب منه تكذيبها غير مرة فوعد ولم يفعل ، وقال ابن أخيه أحمد ماهر إنه يظن أن سبب تأخره عن التكذيب أنه فى انتظار ما تقرره الوزارة فى شأن ترشيحه ، والظاهر أنه انخلع نهائيا ، مع السلامة» .

(١٣٩)

وأما أحمد ماهر فإن المذكرات تحفل بالثناء عليه فى مواضع عديدة ، وعلى سبيل المثال فإن إبراهيم عبد الهادى يثنى على بعد نظره وسعة أفقه حين تنبأ بأن الجيش الألمانى

لن يستطيع أن يكسب الحرب إلى النهاية، ومع أن حججه كانت قوية واضحة فإن الأمة لم تستمع له !! (على حد تعبير إبراهيم عبد الهادى):

«هذا الرجل هو الدكتور أحمد ماهر الرجل الشجاع، الواسع الأفق، المطلع، الدارس، وقد ألقى الدرس البليغ على الأمة فلم تستمع له. لقد كانت شجاعة هذا الرجل كما بينت من قبل كوقائع خطيرة ثابتة مضرب الأمثال».

«أحمد ماهر حسبها حسابًا اقتصاديًا على طولها وأيامها وتصميماتها، وقدرة كل واحد من الطرفين على الاستمرار فى الحرب فى الأنفس، فى الأمول، فى الإنتاج الحربى والإنتاج الداخلى الذى يقف خلف الجيوش يمدها بالذخيرة والعتاد، والطعام، بالمدافع الجديدة التى تستبدل بدا المستهلك، بالدبابات، بالطائرات، بالقوى الجديدة التى تنضم إلى أيهما، بثورات الأمم التى احتلت أراضيها».

«لم يكن سوى أحمد ماهر (الذى) قال: ليكسبوا ما شاءوا وليفتحوا ما شاءوا، وسينتهى الجيش الألمانى العظيم فى النهاية إلى العجز الكامل عن مواجهة القوى الكبرى المتدفقة عليه من كل جانب، ومن الإنتاج الأمريكى غير المحدود».

(١٤٠)

ويضرب إبراهيم عبد الهادى أمثلة على شجاعة أحمد ماهر فى مواجهة خصومه من عامة الوفديين وخاصتهم، وهو يروى قصة مظاهرة مرتبة فى أثناء حكم الوفد، كما ينفرد برواية قصة ضرب أحمد ماهر للهلالى باشا بالقلم على وجهه (وكلاهما من رؤساء الوزارة)، وإن كان الهلالى لم يصل إلى الرئاسة إلا بعد وفاة مَنْ ضربه بالقلم على حد رواية إبراهيم عبد الهادى:

«... وأذكر مرة وقد ذهبنا معه إلى سينما ستوديو مصر لمشاهدة فيلم وطنى دعينا لمشاهدته، وكان ذلك فى حكم النحاس باشا عام ١٩٤٢، وعلم الوفد بأمر هذه الزيارة فرتبت لجنة الوفد مظاهرة تلقانا فى السينما وخارجها بالهتاف ضدنا».

«ولما كنا على علم بترتيبات لجان الوفد فقد احتطنا للأمر، على غير علم من ماهر باشا، وصحبنا بعض شباب الهيئة السعدية، وما إن بدأ عرض الفيلم حتى فوجئنا

بالشباب الوفدى يهتف بسقوط أحمد ماهر ، فرد عليهم الشباب السعدى بهتاف مضاد ضد النحاس باشا ، فهاجم الشباب الوفدى شبابنا ، وقامت معركة بين الطرفين وكانوا كثرة وتسلل بعضهم إلى الدور العلوى حيث كنا جالسين وهجم علينا بعضهم أذكر واحداً منهم كان ضخم الجسم اسمه حسن حصان ، فضربته بالقلم وأعقبته بضربة قوية بقدمى ألقته بعيداً على الأرض ، فكانت هذه الضربة القوية نصف المعركة كما يقولون ، وصعد بعض الشباب السعدى واشتبك مع الشبان الوفديين وبدأنا نخرج من دار السينما فواجهنا بعض الشباب الوفدى ولكننى استطعت أن أركب سيارتى دون أن يلحقنى أذى» .

«وقد علمت فيما بعد أن أحمد ماهر سار بقدميه نحو سيارته التى وقفت بشارع عماد الدين يحيط به الأستاذ حسن بك النحاس ، وبعض الشبان السعديين ، ويهتف الشبان الوفديون : يسقط أحمد ماهر الخائن ، فوقف إلى جانب سيارته وتحداهم قائلاً : أحمد ماهر لم يكن خائنًا ، ولكن الخائن هو مصطفى النحاس الذى تولى الحكم بإرادة الإنجليز ، ثم ركب سيارته وانصرف» .

«ومرة أخرى التحم مع الأستاذ أحمد نجيب الهلالى فى نقاش حاد فى مطعم سان جيمس ، فلما هاجم نجيب باشا سعد زغلول واتهمه بألفاظ غير كريمة ، وقف أحمد ماهر وضربه بالقلم على وجهه وقال له : ليس مثلك يا (. . .) هو الذى يسب سعد زغلول بهذه الألفاظ الوقحة» .

(١٤١)

فى موضع آخر من مذكراته يثنى إبراهيم عبد الهادى على أحمد ماهر وسعة أفقه فيقول :

«. . . . . . أحمد ماهر كان رجلاً واسع الأفق ، ولو عاش لأعاد لمصر وحدتها . لقد رفض أحمد ماهر محاكمة النحاس باشا رغم إلحاح الملك ومكرم عبيد وزير المالية فى وزارته ، ورئيس أحد الأحزاب المشاركين معه فى الحكم عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥» .

(١٤٢)

ويروى إبراهيم عبد الهادى قصة الأزمة الكبيرة التى حدثت بين الملك فاروق وبين أحمد ماهر فى بداية عهد الأخير برياسة الوزارة، ونرى فيما يرويه إبراهيم عبد الهادى انحيازًا تامًا إلى أحمد ماهر، ورفعًا من قدره، وشهادات أخرى بقدره وقيمته على لسان زملائه من أمثال أحمد عبد الغفار وغيره، ونرى إبراهيم عبد الهادى يصور الملك فاروق نفسه وقد اضطر للاعتذار بنفسه لأحمد ماهر قولاً وفعلاً، حيث حضر إلى بيته بنفسه، ويدلنا ما يرويه إبراهيم عبد الهادى فى هذه الواقعة على أن الملك فارق كان حتى ذلك الحين لايزال قابلاً للمناقشة والمراجعة والعدول عن رأيه بل الاعتذار أيضًا:

«. . . ودعا الملك رؤساء الأحزاب الأربعة الذين تتألف منهم الوزارة: أحمد ماهر باشا رئيس الهيئة السعدية، والدكتور محمد حسين هيكل باشا رئيس الأحرار الدستوريين، ومكرم عبيد باشا رئيس الكتلة الوفدية، وحافظ رمضان باشا، وتم الاجتماع فى مكتبه بقصر عابدين، واقترح الملك أن يتساوى عدد المرشحين لمجلس النواب لكل حزب من الأحزاب الأربعة، ثم طلب رأى المجتمعين فيما يقترح فسكت الدكتور ماهر ولم يبد رأيه الذى وافق عليه الباقون، فلما سأله الملك عن سبب سكوته قال: أنا على كل حال خادم مصر، سواء كنت فى الحكم أم كنت خارج الحكم».

«امتقع وجه الملك، كما سمعت من هيكل باشا ومن حافظ باشا رمضان، وأذن للمجتمعين فى الانصراف فخرجوا وتوجهوا إلى قاعة مجلس البلاط فاجتمعوا بها، وقد انضم إليهم الوزراء الذين حضروا».

«ولم يكد ينتظم عقد الاجتماع حتى بدأ الدكتور أحمد ماهر حديثه فى غضب واضح قائلاً: لقد صممت تصميمًا قاطعًا لا رجعة فيه على استقالتى من رياسة مجلس الوزراء».

«وحاول بعض الحاضرين تهدئته وتسكين غضبه، ولكنه جمع أوراقه وهبط السلم مسرعًا دون انتظار الأسانسير، وقد فهم منه الحاضرون أنه ذاهب إلى نادى محمد على «نادى التحرير» حاليًا فوافاه الحاضرون جميعًا إلى نادى محمد على وانضم إليهم بعض السعديين أذكر منهم الأستاذ شوكت التونى، فوجده قد كتب استقالته من الحكم».

«وقد حدث قبل خروج الوزراء من قاعة مجلس البلاط أن جاء أحمد حسنين باشا يسأل عما حدث فأجابه أحمد باشا عبد الغفار بصراحته المعروفة وصوته الجهورى: «أهه ياخويا الراجل مشى وحيستقيل، دا مش الرجل اللى تنفع معه الألاعيب دى؟ دا أحمد ماهر يا عم حسنين!!».

«وفى أثناء خروج أحمد ماهر من باب نادى محمد على فوجئ بأحمد باشا حسنين وجهًا لوجه، فقال أحمد حسنين: إيه ياباشا اللى حصل؟».

«فقال له الدكتور: «اسمع يا حسنين، بلغ الملك بتاعك إن الألاعيب الصغيرة دى ما تنفعش مع أحمد ماهر، ودى الاستقالة بتاعتى أهيه، شوفولكم واحد غير أحمد ماهر».

«طيب يا باشا».

«لا طيب ولا غيره.. وتركه ماهر باشا وركب سيارته التى كانت قد أحضرت له أمام النادى وانصرف إلى منزله بحدائق القبة».

«وفى الساعة الخامسة من مساء نفس اليوم اتصل الملك شخصيًا بالدكتور أحمد ماهر باشا فى منزله بالتليفون وأبلغه أنه يحب أن يتناول العشاء بمنزله، فكان رد أحمد ماهر عليه: البيت بيتك».

«وأردف الملك قائلاً: وأريد أن يكون معنا فى العشاء مصطفى أمين وكامل الشناوى، ولك أن تدعو مَنْ تشاء».

«وكنت أحد المدعوين، واعتذر النقراشى باشا عن الحضور، وفى أثناء العشاء قام الأستاذ كامل الشناوى بتقليد زعماء مصر وقادتها فى خطبهم وأحاديثهم، وكانت لديه القدرة على ذلك بصورة تثير الدهشة والعجب والمرح، وأضفت على المكان جوًا من البهجة والسرور، وكان الحفل الوحيد الذى شاهدت فيه الأستاذ كامل الشناوى الله يرحمه يقوم بهذا الدور».

....

....

«وبعد العشاء اختلى الملك بالدكتور ماهر باشا بإحدى الغرف ، علمت بعدها من ماهر باشا نفسه أن الملك قدم له اعتذاره عما قاله ظهر ذلك اليوم فى السراى، وأنه الوحيد صاحب الحق فى إدارة المعركة الانتخابية».

«واجتمع أحمد ماهر بالمديرين والمحافظين فى اليوم التالى ونبه عليهم بألا يتلقوا أوامر خاصة بالانتخابات أو بغيرها إلا منه شخصيًا، حتى ولو كانت السراى الملكية نفسها، وصرح لهم فى حزم (بأن) المخالف لهذا سيكون خارجًا (على) تعليماته بوصفه الرئيس المباشر لهم، وقد استجابوا جميعًا لطلبه».

«وعلى أية حال لم تكن استقالة أحمد ماهر باشا من هذه الوزارة أول مرة (ربما أنه يقصد أنها لم تكن آخر مرة)، ولكنها تكررت أكثر من مرة فى المدة التى أمضاها فى الحكم، وهى لم تتجاوز خمسة أشهر!».

(١٤٣)

ويثنى إبراهيم عبد الهادى على دور أحمد ماهر فى وضع قانون الضرائب الذى أتاح أموالاً ضخمة للموازنة:

«وكان من نتائج معاهدة مونتريه هذه إلغاء الامتيازات الأجنبية، وبمقتضى هذا الإلغاء أصبح فرض الضرائب على الأجانب والوطنيين واحدا (يقصد: موحدًا) بعد أن كان الأجانب معفين منها، ومن حسن الحظ أن الذى تولى وضع قوانين الضرائب هو المرحوم أحمد ماهر، فقد كان وزيرًا للمالية فى عهد وزارة محمد محمود باشا».

«وامتلأت خزائن مصر بالمال، وتمت مشروعات ضخمة ما كانت تتم بغير فرض الضرائب على الأجانب والوطنيين (على حد) سواء».

(١٤٤)

ويمضى إبراهيم عبد الهادى فى الثناء على أحمد ماهر فيذكر ما تواتر عن أن الوزير البريطانى إيدن كان قد أشار إلى أحمد ماهر من طرف خفى بأنه ليس من المصلحة

تقديم النحاس للمحاكمة، لكن أحمد ماهر رد عليه بأن هذا شأن من شئون مصر الداخلية:

«. . . وتصادف أن المستر إيدن وزير خارجية بريطانيا ومستر تشرشل رئيس وزرائها زارا مصر فى ذلك الحين واجتمعا بالدكتور ماهر فى رئاسة الوزارة وقتًا غير قصير، وقد تبادر إلى الذهن وتناول بعض السياسيين القول بأن مستر إيدن أشار من طرف خفى بأنه ليس من المصلحة تقديم النحاس باشا إلى المحاكمة».

«والذى أعلمه أن ذلك حدث بالفعل ولكن الذى أعلمه يقينًا أن أحمد ماهر رد عليه بأن ذلك من شئون مصر الداخلية، فلم يقل بعدها إيدن كلمة واحدة».

«وإننى إذ أزيح الستار لأول مرة عن هذا الموضوع أشهد الله على أن ما أقوله هو الصحيح».

(١٤٥)

ويشير إبراهيم عبد الهادى إلى مدى قدرة أحمد ماهر على إقناع زملائه من الزعماء السياسيين بسياساته التى انتهجها وهو رئيس للوزراء، ومنها دعوته إلى إعلان الحرب على اليابان:

«والحقيقة أن أحمد ماهر لم يقرر وحده إعلان الحرب على اليابان، بل اشترك معه ذوو الرأى والمسئولية فى هذا العمل، فقد اجتمع أحمد ماهر والدكتور عبد الحميد بدوى باشا، والدكتور محمد حسين هيكل».

«فوافق الاثنان على وجوب الاشتراك فى المنظمة الدولية المرتقبة، وقال هيكل باشا بكل وضوح: إذا كنا قد خالفنا وجهة النظر فى الماضى وجنبنا مصر خطر الحرب، فإنه لا ضرر اليوم لإعلان الحرب، بل إن فيها مصلحة مؤكدة لمصر».

(١٤٦)

كما يثنى إبراهيم عبد الهادى على أحمد ماهر فإنه يثنى أيضًا على خلفه النقراشى

باشا ثناء متكررا فى كل ما يتعرض له من تاريخه وكفاحه ومواقفه السياسية، وهو على سبيل المثال يقول:

«إن النقراشى باشا بلا جدال كان من سادة رجال مصر فى الوطنية، وعلمًا من أعلامها الخفاقة ظل يرفرف على مصر حتى لقى ربه على يد شاب أثيم كان للنقراشى عليه سابقة من الفضل لا ينساها إلا كافر بالمعروف، ناكر للجميل».

«لقد ظل النقراشى باشا طول حياته أمينًا لعقيدته، مؤمنًا بعظمة مصر وحقها فى الحرية والاستقلال إلى أن صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى».

«كان صلب العود، مستقيمًا فى حياته، لم نسمع عنه قالة سوء، اشتهر بالنزاهة المطلقة فى كل عمل تولاه».

(١٤٧)

ويصل إبراهيم عبد الهادى فى ثنائه على النقراشى إلى حدود كبيرة لكنها لا تصل بحال من الأحوال إلى جوهر ثنائه على أحمد ماهر، وهو يشير فى موضع آخر من مذكراته إشارات واضحة إلى دور النقراشى فى محاولة توجيه الملك فاروق دون جدوى:

«. . . ودعى النقراشى للحكم فألف وزارته من السعديين والأحرار الدستوريين فقط، ولتأليف هذه الوزارة قصة لا بأس من ذكرها».

«كنت أسير مع النقراشى نتريض على كورنيش الإسكندرية عصرًا ذات يوم، فإذا بعربة جيب يقودها الملك بنفسه تقف إلى جوارنا، وقال الملك للنقراشى: حضر نفسك لتأليف الوزارة».

«والملك لم يكن يكره النقراشى، بل على العكس كان على صفاء معه، ولكنه كان يضيق من نصائحه له أحيانًا، فالمعروف أن الملك كان يرتاد المحلات العامة، ونبهه النقراشى برفق أكثر من مرة أن ذلك لا يليق به، وحدث أن ذهب الملك إلى أحد الملاهى بالإسكندرية ووقف يغنى أمام الميكروفون، فلما علم النقراشى بذلك ذهب إليه فى

الحال وقال له : هذا مسلك لا يليق بجلالة الملك ، أنت تعلم أننى لا أكرهك ولكن من واجبى أن أنصحك» .

«الملك لم يكن يكره النقراشي ولكنه كان ضيق الصدر ، ضعيف الخبرة ، لا ينسى لحظة أنه ملك فكيف لإنسان أن تواتيه الجرأة ليقول له هذا خطأ وهذا صواب ويتجاوز الحد ويقول له عملك غير لائق» .

(١٤٨)

ويكرر إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته تكذيبه لما شاع عن أن وزارة النقراشى فتحت كوبرى عباس عام ١٩٤٦ مما أدى إلى سقوط الطلاب فى النيل ، وهو يعجب من أن تستمر رواية الأكاذيب فيما يتعلق بهذا الحادث :

« . . . وليرجع أى شاب إلى مضابط مجلس النواب عام ١٩٥٠ و١٩٥١ وقد قدم المرحوم عبد المنعم حشيش سؤالاً إلى وزير الداخلية فؤاد باشا سراج الدين يسأله عن عدد القتلى والجرحى فى حادث كوبرى عباس عام ١٩٤٨ ، فيجدون إجابته وهو الوزير المختص بأنه لم يحدث قتيل أو غريق فى هذا الحادث ، وإنما هى حوادث خفيفة من تصادم رجال البوليس بالمتظاهرين ، لا أحد مات ولا أحد غرق ولا البوليس قتل أحدًا فى كوبرى عباس ولا حاجةمن دى حصلت أبدًا ! ! » .

(١٤٩)

ونأتى إلى الآراء العابرة التى أبداها إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته عن بعض الزعماء ورجال السياسة فى مصر ، ومع أن المذكرات خلت من الهجوم على النحاس أو التعريض به ، فإن إبراهيم عبد الهادى يحرص على أن يعلن بوضوح أنه أيد سياسة النحاس فى إعلان إلغاء معاهدة سنة ١٩٥١ ، وأنه لم يكن من سبيل غير تأييد النحاس فى هذا العمل ، وهو مع ذلك يكرر إبداء ندمه على أن مصر لم تنجح فى الحصول على ما يوازى ما كان متاحًا فى مشروع صدقى - بيفين :

«. . . جاء الوفد ودخل المفاوضات ولم ينجح حتى فى الحصول على مشروع كمشروع صدقى - بيفن، وانتهت المسألة بإعلان إلغاء المعاهدة من جانب واحد وجرى ما جرى فيها من ضحايا وحوادث ثقيلة، وقد أيدت البلد جميعها هذا الإلغاء من بينها الحزب السعدى، ولم يكن هناك من سبيل غير تأييد النحاس باشا فى هذا العمل».

(١٥٠)

وينفرد إبراهيم عبد الهادى بالحديث عن دور قدر له أن يقوم به فى محاولة الإصلاح بين النحاس باشا والأستاذ العقاد، ومن الطريف أن محاولة الصلح التى نجح إبراهيم عبد الهادى فى أن يعقدها لم تصمد دقيقة واحدة وسرعان ما ذابت تمامًا ليبدأ جليد جديد بين هذين الرجلين العظيمين المعتدين بنفسيهما:

«وقبل أن يشتد الخصام بين النحاس ومكرم عبيد وبين الأستاذ العقاد ليعدل عن هجومه على وزارة توفيق نسيم ورئيسها، رأيت من جانبى أن أصفى الجو بين النحاس باشا والأستاذ العقاد لعلاقتى الطيبة بالنحاس باشا وحبى الشديد له، ولصداقتى الوطيدة بالأستاذ العقاد وتقديرى الكبير لقلمه وفكره وثقافته غير المحدودة، وأنه الكاتب الجبار، كما وصفه سعد باشا، وأن خروجه من الوفد يعد خسارة كبيرة ليس من السهل تعويضها، فضلاً عن جهاده المرير مع الوفد سنوات طويلة، واضطهاد خصوم الوفد له حتى أدخلوه السجن ولم يتحول عن عقيدته ومبدئه كما فعل غيره من الكتاب والصحفيين».

«كل ذلك دفعنى دفعًا أن أسوى الخلاف الذى نشأ بين النحاس وبينه قبل أن ينقلب الخلاف إلى خصومة صبح الاتفاق بعدها عسيرًا، والعقاد رجل معتد بنفسه، والنحاس عنيد بطبعه، فاتفقنا واجتمعنا بفندق سان استفانو فى أحد الأركان بعيدًا عن رواد الفندق، وتمت المصالحة واستأذن العقاد للسفر إلى القاهرة، ولم يكد يخطو خطوة واحدة حتى ناداه النحاس باشا قائلا: «اسمع يا أستاذ عباس لا تنس أنى زعيم الأمة»، فرد عليه العقاد والغضب يملأ وجهه: «ولا تنس أننى كاتب الشرق».

(١٥١)

وتحفل مذكرات إبراهيم عبد الهادى بما يعبر عن اعتزازه بالدكتور محمد حسين هيكل سياسيا، وكاتبا، وهو ينقل كثيراً من رواياته دون أدنى حرج، ويبدو اعتزاز إبراهيم عبد الهادى بجريدة «السياسة» واضحًا، وذلك على الرغم من أنه لم ينتم أبداً إلى حزب الأحرار الدستوريين الذى كانت «السياسة» لسان حاله، وهو يشير إلى كثير من مقالات «السياسة» وحملاتها، كما أنه ينقل عنها بعض نصوص رئيس تحريرها الدكتور هيكل، وبعض ما كتبه بعض كبار محرريها، من طبقة الأستاذ توفيق دياب.

وهو يشيد بدور هذه الصحيفة فى كشف تجاوزات إبراهيم كريم باشا وزير الأشغال:

«وبدأت جريدة «السياسة» حملة عنيفة على إبراهيم كريم باشا وزير الأشغال لأنه اتخذ الحكم أداة لتحقيق منافع له بأن عهد بمقاولات كبيرة إلى أحمد باشا عبود بدون أن يحترم أحكام القوانين المالية واللوائح المتبعة فى مثل هذه المقاولات، فطلب رئيس الوزراء إلى النائب العمومى التحقيق مع رجال جريدة «السياسة» المسئولين لإذاعتهم هذه التهم التى تمس نزاهة الحكم، ثم حكمت المحكمة على كل من الدكتور هيكل وحفنى بك محمود بغرامة قدرها سبعون جنيهًا، واتخذت النيابة إجراء تعسفيًا مخالفًا للقانون فى تحصيل المبلغ الذى حكمت به المحكمة!».

(١٥٢)

ويعترف إبراهيم عبد الهادى بأن الفضل فى توليه رياسة الوزارة يعود إلى الدكتور محمد حسين هيكل الذى أشار على الملك بذلك فور اغتيال النقراشى باشا:

«. . . . . . أسندت إلىّ رئاسة الوزارة فى آخر عام ١٩٤٨ بعد مقتل النقراشى باشا مباشرة، حتى قبل تشييع جنازته، تلبية لرغبة الدكتور محمد حسين هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ وقتئذ، وقد أشار على الملك أن يشكل إبراهيم عبد الهادى الوزارة الآن بنفس الوزراء حتى لا تأخذ الفوضى والاضطراب والجرائم طريقها السريع فى البلاد، فاستجاب الملك لهذه الرغبة بغير مناقشة، وتوليت الوزارة».

(١٥٣)

ويحظى حسين رشدى باشا بكثير من ثناء إبراهيم عبد الهادى، وهو يصوره صديقًا صدوقًا للحركة الوطنية ولسعد زغلول، وهو يستطرد من الحديث عن موقفه من لجنة ملنر إلى مواقفه السابقة عند إعلان الحماية وعند جمع توكيلات الوفد:

«وتحضرنى فى هذه المناسبة عبارة قالها رشدى باشا فى ذلك الوقت، وهى أن اللجنة لن تجد ثلاث قطط تشير عليهم بغير التوجه إلى الوفد».

«وليس هذا هو الموقف العظيم الوحيد لرشدى باشا، فقد كان رئيسًا للوزارة المصرية فى صدر الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ يوم أعلنت بريطانيا الحماية على مصر، فكان ممن عملوا وجاهدوا على أن يتضمن إعلانها التصريح بأن الحماية ضرورة حرب تنتهى بزوالها».

«فلما انتهت الحرب حاول جاهدًا أن يبر الإنجليز بهذا الوعد ولكنهم ماطلوا».

«وكان رشدى باشا صديقًا صدوقًا لسعد زغلول باشا منذ أن اجتمعا معًا فى إحدى دوائر محكمة الاستئناف التى كان يرأسها رشدى باشا وعرف مدى علمه وثقافته الواسعة، فتوثقت الصداقة والعلاقات بينهما بعد ذلك إلى حد كبير».

«ولما نهض سعد زغلول فى أعقاب الحرب للمطالبة باستقلال البلاد، وبدا من الإنجليز أنهم ينكرون عليه صفة الكلام باسم الأمة، وتقدم إلى الأمة بطلب توكيلها، وطبعت آلاف التوكيلات وسعى شباب مصرى لدى أهلها فى المدن والريف تحت عين الحكومة التى كان يرأسها يومئذ رشدى باشا».

«وعن يقين بارك رشدى باشا الحركة ولم يقف فى طريقها، بل كان يحث عليها، وليس أدل على ذلك من أنه اعترض على محاولة مستشار وزارة الداخلية الإنجليزى مصادرة تلك التوكيلات».

(١٥٤)

ويحظى على ماهر بكثير من تعاطف إبراهيم عبد الهادى وتقديره له، وإن كان

حريصًا على أن يقرن هذا التقدير بانتقاده لبعض سلوكيات على ماهر، ولاعتقاداته فى نفسه، وعلى سبيل المثال فقد رأينا أن إبراهيم عبد الهادى يثبت لعلى ماهر الفضل فى إقناع سعد زغلول نفسه بعدم التفاوض مع ملنر ولجنته حول قضية المؤامرة الكبرى التى كان أول المتهمين فيها هو عبد الرحمن فهمى عم على ماهر نفسه.

ونحن نراه أيضًا يتحدث عن دور على ماهر فى المفاوضات التى سبقت إقرار معاهدة ١٩٣٦، وفى حكم البلاد بكفاءة فى تلك الفترة الانتقالية التى شهدت وفاة الملك فؤاد وتولى الملك فاروق الحكم:

«. . . وقام على ماهر فى خلال (الأشهر) الثلاثة التى تولى فيها الحكم بإصلاحات داخلية سريعة، كما قام بجهد كبير فى التمهيد للمفاوضات والعمل على نجاحها متعاونًا مع الجبهة الوطنية أصدق التعاون، ومهد لمفاوضات تمهيدًا عظيمًا يحفظ لمصر حقوقها بالمكاتبات الرسمية التى كانت تجرى بينه وبين الحكومة البريطانية عن طريق ممثلها فى مصر السير مايلز لامبسون، وإزالة كل ما يشوب تلك المكاتبات من غموض يفيد الإنجليز ويضر المصريين».

«وسار المفاوضون فى طريق مأمون وعلى أرض صلبة فاحتفظوا لأنفسهم بقبول ما يمكن قبوله ورفض ما يرونه لا يحقق للبلاد أهدافها، ودعوا الأمة إلى التزام الهدوء والسكينة حتى يتمكن الوفد الرسمى للمفاوضات من أداء مهمته على الوجه الذى تحبه الأمة وترضاه، فهدأ الطلبة وانتظموا فى دراستهم مطمئنين إلى أن الزعماء المصريين يؤدون واجبهم».

«وفى هذه الأثناء استطاع على ماهر باشا أن يعيد العلاقات بين المملكة العربية السعودية ومصر بعد أن ظلت مقطوعة وقتًا طويلاً بسبب موقف المملكة العربية من سفر المحمل واعتباره بالنسبة لهم عملاً يخالف مذهبهم الدينى الوهابى، وكانت الحكومة المصرية تحمل مع المحمل حصيلة أوقاف الحرمين الشريفين ترافقه قوة (مسلحة) من الجيش المصرى بقيادة ضابط كبير لحراسة الحجاج المصريين».

(١٥٥)

وهذه فقرة طريفة، من موضع آخر من المذكرات، يتحدث فيها إبراهيم عبد الهادى

عن أسلوب على ماهر فى إدارة جلسات مجلس الوزراء فى وزارته الثانية (١٩٣٩) التى دخلها صاحب المذكرات وزيراً لأول مرة فى حياته :

«كنت وزيراً للشئون البرلمانية فى وزارة على ماهر باشا عام ١٩٣٩ ، وكانت لعلى ماهر طريقة فريدة يتميز بها على سائر رؤساء الوزارات . كان يعقد المجلس ثلاث جلسات أو أربع على ما أذكر كل أسبوع ، وكأن مصر هى التى تدير الحرب العالمية الثانية» .

«وكان من عادته أيضاً ألا يجلس على رأس مائدة الاجتماع ، وإنما يتوسطها ، وأقدم وزير على يمينه ويسير الترتيب على هذا الأساس حتى يجىء أحدث وزير ويجلس على يساره ، وكان من حسن حظى أن كنت أحدث وزير وقتئذ ، مسألة شكلية ولكنها كانت مهمة جداً بالنسبة لى فى معرفة كل كلمة وكل حركة تصدر من رئيس الوزراء» .

«ويبدأ على ماهر الحديث فى الشئون العامة ، ما يقوله الناس . . ما تتحدث به الصحافة . . ما يذيعه الراديو من أخبار الحرب ، ثم ينتقل إلى بعض المسائل الواردة بجدول الأعمال ، وكانت هذه لا تأخذ من وقتنا إلا القليل جدا!» .

(١٥٦)

وعلى الرغم من أن إبراهيم عبد الهادى يدافع عن وطنية على ماهر وكفايته ومهارته وإنجازاته فإنه يراه قصير النظر ، أقرب إلى الغرور :

«لقد اعتقد على ماهر أنه حين يقدم للملك خدمة كبيرة ويعمله ملكا وهو فى سن ١٦ سنة بأنه سيبقى فى السراى على طول يحرك الملك من وراء الستار ، ويسيطر على البلد ورجال السياسة سيطرة كاملة . كان رحمه الله قصير النظر ، وإن كان يعد نفسه أنه لا يوجد فى البلد «أسيس» منه ، ولا يفهم فى السياسة مثله ، حقيقة يعرفها كل مَنْ اشتغل مع على ماهر أو اقترب منه» .

(١٥٧)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على تبرئة عبد الرحمن عزام وعلى ماهر باشا مما أشيع فى نطاق محدود حول موقف غير كريم لهما من قضية فلسطين :

«. . . . وسئلت عن قصة نشرت عن فلسطين بأن اليهود اتصلوا بعلى ماهر وعبدالرحمن عزام وأنهم استطاعوا أن يؤثروا فى الرجلين أو عليهما حتى سلكا طريقًا غير كريم نحو قضية فلسطين».

«وإنى أشهد بأنى عشت وعرفت واتصلت بعد الرحمن عزام فما لمست فيه يوما ضعفا فى وطنيته، ولا تهاونًا فى مصالح بلاده والأمة العربية أبدًا، هذه كانت أقاويل المضللين وإشاعات المغرضين، وحرام علىّ وعلى أى إنسان أن يقول عن عبد الرحمن عزام مثل هذا».

«وعلى ماهر، وأنا من الناس الذين اشتغلوا معه، وكثيراً ما سخرت من بعض تصرفاته ولم تكن تعجبنى تصرفاته وهو من أكبر عوامل فساد الملك، لكنه لا يمكن أن يعمل عملاً غير وطنى. كان يعتقد أنه لا يوجد فى مصر مَنْ يفهم فى السياسة إلا هو، وما كان يطيق أن يعمل مع رجل كبير الرأس فى السياسة أو يعتد بنفسه، وكان دائما يختار وزراءه أقرب إلى السكرتيريين منهم إلى الوزراء، وإذا دخل وزارته أحد من غير هذا الطراز سرعان ما يضيق به ولا يحتمله، لكن على ماهر رجل وطنى».

(١٥٨)

ويحظى إسماعيل صدقى بكثير من ثناء إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته، ونحن نراه حريصًا على الإشادة بالنجاحات المدنية التى حققها صدقى باشا فى أثناء فترة حكمه فى الثلاثينيات، وهو يورد هذه الإشادة ضمن حديثه عن التتابع التاريخى للأحداث السياسية فى تلك الفترة المبكرة التى شهدت صدام صدقى مع الوفد حين كان إبراهيم عبد الهادى لايزال فى الوفد، ومن الحق أن نشير إلى أن مبعث إشادة إبراهيم عبد الهادى بصدقى وإصلاحاته المدنية لم يكن انفعالاً وقتيًا بهذه الإصلاحات عند إتمامها، وإنما جاءت هذه الإشادة بعدما عرف الرجل عن قرب فى وزارته الأخيرة، وبدأت صورته الحقيقية ترتسم أمامه، فضلاً عن أن صدقى نفسه كان فى هذه الفترة الأخيرة حريصًا على ما لم يكن حريصًا عليه فى تصويره لنفسه قبل ١٥ عامًا:

«. . . واتهم صدقى باشا فى نزاهته واستقامته فى مشروع كورنيش الإسكندرية

الذى أقامه تنفيذاً لرغبة الملك فأتمه على أحسن وجه وفى أقصر مدة، وشكلت لجنة برياسة نجيب الهلالى للتحقيق فى المخالفات الجسيمة التى ارتكبها كبار موظفى بلدية إسكندرية وعلى رأسهم أحمد صديق بك رئيس البلدية، وأن صدقى باشا كان يعلم بهذه المخالفات وتغاضى عنها لمنفعته الذاتية».

«ولقيت هذه الاتهامات ترحيبًا كبيراً من جماهير الشعب الغاضبة على صدقى باشا وما أنزله حكمه بهم من عسف، ولكن اللجنة انتهت إلى أن المشروع لا تشوبه شائبة، وأن الاتهامات باطلة من أساسها، ومن المهم أن نذكر أن هذا المشروع، بالإضافة إلى مشروع بنك التسليف الذى أنقذ الثروة العقارية من الوقوع فى أيدى الأجانب، من أعظم المشروعات التى نفذها صدقى باشا فى أثناء حكمه».

(١٥٩)

ويثنى إبراهيم عبد الهادى على السنوات الأخيرة من عمر صدقى، مشيراً إلى جهده الكبير فى معاهدة صدقى - بيفن، وإلى موقفه من تعيين كريم ثابت مستشاراً صحفيًا للملك:

«... وقبل ذلك حدث أن عين الملك كريم ثابت مستشاراً صحفيًا له بأمر ملكى دون أن يأخذ رأى صدقى باشا، ولم يشأ صدقى باشا أن يعترض على هذا التعيين غير الموفق فى حينه حتى لا يثير زوبعة أمامه، وكان حريصًا على أن ينجح فيما هو مقدم عليه مع الإنجليز ويختم حياته بعمل كبير ينسى المصريين ما عمله معهم فى سنة ١٩٣٠ حين ألغى الدستور وجاء بدستور جديد وبرلمان شكله كما يريد، ولكنه لم يترك المسألة تمر بسيطة فأبلغ الملك أن الأستاذ كريم ثابت يتقاضى من المصروفات السرية مبلغا ما، وأن كرامة منصبه تستوجب إعفاءه من الاستيلاء على هذا المبلغ، ولكن الملك تحداه، وهذه كانت طريقته وأسلوبه، فأمر بمضاعفة هذا المبلغ للسيد كريم».

(١٦٠)

ويروى إبراهيم عبد الهادى قصة اشتراكه فى وزارة صدقى باشا الثالثة (١٩٤٦)

وزيراً للخارجية، فينسب هذا الاختيار إلى النقراشى باشا الذى اشترط لمشاركة السعديين فى وزارة صدقى أن يتولى إبراهيم عبد الهادى وزارة الخارجية ليكون شريكًا أصيلاً فى المفاوضات ونتائجها، وذلك على الرغم من أن النقراشى باشا كان قد رفض اشتراك السعديين فى وزارة صدقى باشا عند تشكيلها فى فبراير ١٩٤٦ :

«وكان النقراشى باشا رحمه الله بطبعه متشدداً فى هذه الظروف، فلما عرض عليه صدقى باشا أن تشترك الهيئة السعدية معه فى تشكيل الوزارة رفض وكان جاداً فى الرفض، ولم يكن قصده من هذا الرفض أن يملى شروطه عليه».

«صدقى باشا لم يكن له حزب فى البرلمان يعتمد عليه فيمن يستعين؟».

«لجأ إلى الأحرار الدستوريين واجتمع بالدكتور محمد حسين هيكل باشا وأعاد إلى ذهنه ما كان بينه وبين الأحرار الدستوريين من صلات قديمة وطلب منه أن يعاونه الحزب فى وزارته لأن السعديين والكتلة الوفدية رفضت معاونته بحجة أن تأليفه الوزارة خروج على الدستور وتقاليده».

«وتألفت الوزارة من بين أعضائها أربعة من الأحرار الدستوريين، والباقون من المستقلين».

«واتصل صدقى باشا بالإنجليز لمفاوضتهم، وكانت وزارة العمال قائمة برئاسة كليمنت اتلى مما شجع صدقى باشا على الدخول معهم فى المفاوضات، وشجعه أكثر عندما قبلوا واختاروا لورد ستانسجيت للمفاوضة، وقد كان لورد ستانسجيت معروفًا لدى المصريين من قديم عضواً بمجلس العموم دائم الحديث عن تعاطفه مع القضية المصرية، فلما بدأت المفاوضات كنا على علم تام بمجرياتها بحكم اشتراكنا فى هيئة المفاوضات».

«استمرت المفاوضات وقتًا طويلاً، ومن غير شك أقول إن صدقى باشا بذل فى هذه المفاوضات جهدًا عجيبًا جدًا لا يتناسب مع سنه، كما ساعد من الجانب الآخر لورد ستانسجيت فى تقريب وجهات النظر حتى انتهينا من كل العقبات ولم يبق إلا اللقاء الأخير الذى سيبنى عليه صيغة الاتفاق».

«فى ذلك الوقت طلب صدقى باشا أن تشترك معه الهيئة السعدية فى الوزارة لتكون هيئة المفاوضات ممثلة لجميع قوى البرلمان، فكان الشرط الأول للنقراشى باشا مع صدقى باشا أن يكون إبراهيم عبد الهادى وزيرًا للخارجية ليكون شريكًا أصيلاً مسئولاً عن نتيجة المفاوضات، فقبل صدقى باشا وخرج لطفى السيد باشا من وزارة الخارجية وحللت مكانه».

(١٦١)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على الإشادة بحسن صبرى باشا ووطنيته، وذلك على الرغم من أن حسن صبرى كان صاحب أول إقالة(!!) خرج بها السعديون من الحكم، كما أنه أصدر بيانًا سخر فيه من السعديين بسبب استقالتهم من وزارته:

«دخلنا وزارة حسن صبرى باشا ولابد من كلمة للتاريخ عن هذا الرجل: لقد اختلفنا فيما بعد معه وتركنا الحكم، ولكنه رجل وطنى جدًا وطيب وعاقل، ورئيس وزارة بمعنى الكلمة».

. . . .

ويكرر إبراهيم عبد الهادى الحديث عن هذه الجزئية فى موضع آخر من مذكراته، مشيدًا فى الوقت نفسه بوطنية حسن صبرى:

«. . . . ولما لم يستجب لنا المرحوم حسن باشا صبرى استقلنا وأصدر بيانه المشهور الذى قال فيه: «ما كانت أمور البلاد المهمة تؤخذ بهذه الخفة وهذا التطير»، وختمه بقوله: «وفاز باللذة الجسور».

«وأنا لا أشك فى وطنية حسن صبرى باشا، وأن رأيه كان نابعًا من قلبه وليس لأحد سلطان عليه إلا الله، شهادة أعلنها أمام الله وضميرى».

(١٦٢)

وينفرد إبراهيم عبد الهادى بنسبة الفضل فى اختيار حسن صبرى لرئاسة الوزراء إلى أحمد ماهر، وهو ينفرد بالحديث عن أن الملك عرض الوزارة على أحمد ماهر فأبان له

هذا عن أن الإنجليز لن يوافقوا على مثل هذا الاختيار، ولا على اختيار محمد محمود خليل، ثم استمهل الملك وبعد قليل اتصل بالملك ورشح له حسن صبرى، ومع أن المصادر التاريخية المتاحة أمامنا لا تذكر هذه القصة، ولا تذكر أن الأحداث مضت على هذا النحو، وإنما تقدم روايات أخرى مختلفة تمامًا، فإن من حق إبراهيم عبد الهادى أن نورد روايته ونتأملها فى ضوء ما قد يتكشف فى المستقبل:

«. . . . . لما خرج على باشا ماهر فكر الإنجليز فيمن يخلفه؟ اتجه رأى الملك وغيره أن يأتوا برئيس الأغلبية البرلمانية وهو أحمد ماهر، لاسيما أن رأيه معروف بالنسبة للحرب، فاتصل به الملك فاستأذنه فى أن لا يفكر فى هذا مطلقًا الآن لأن الإنجليز أولاً لن يستجيبوا له لأنهم لا ينسون خصومتهم معه أبدًا منذ ثورة ١٩١٩، والدم الذى جرى منهم بسببه، وقال للملك: لا تتجه نحو هذا الاتجاه مطلقًا».

«واقترح الملك محمد محمود خليل بك رئيس الشيوخ فقال ماهر باشا: ولا هذا أيضًا».

«فقال له الملك: طيب فكر معى يا أحمد باشا وبسرعة لأن الإنجليز فى حالة غير طبيعية».

«وبعد قليل اتصل أحمد ماهر باشا بالملك واقترح عليه اسم حسن صبرى باشا لأنه على علاقة طيبة بالإنجليز وصديق شخصى للسفير البريطانى، حتى إن السفير كان يزوره كثيراً فى عزبته، وحسن صبرى راجل ذمته نظيفة ووطنى مخلص، والإنجليز لا يستطيعوا أن يمانعوا فى توليه الوزارة».

«واقتنع الملك بالفكرة واستدعى حسن باشا صبرى وأسند إليه الوزارة واشترك السعديون معه».

(١٦٣)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يشيد بعلى باشا عبد الرازق، وهو ينحاز إلى موقفه عندما ألف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ولقى بسببه الفصل من وظيفته، وهو

يضيف إلى هذا أمراً غير مشهور عن على عبد الرازق حين أصر على الحفاظ على الأوقاف من مطامع السراى مهما كلفه هذا من متاعب:

« . . . كما أن لعلى عبد الرازق موقفًا آخر، والرجال مواقف، فى عام ١٩٤٧، وهو وزير للأوقاف، لا يقل جلالاً وروعة عن موقفه فى عام ١٩٢٥ أمام أكبر قوة فى البلاد».

«ذلك أنه جاءنى وأنا رئيس للديوان الملكى وعلى وجهه مسحة من الألم، وقال: أنا قادم إليك فى أمر خطير».

«قلت: خير يا باشا».

«قال: إن الملك يريد أن يستولى على الأوقاف المرصودة لتعليم وتفتيش الوادى بالتل الكبير ومساحتها ٢٢ ألف فدان، وتفاتيش أخرى لأعمال البر، وأرجو أن يعاوننى النقراشى فى الحيلولة دون ذلك، وإلا سأضطر إلى الاستقالة».

«قلت له: لا تحزن يا باشا، وثق أن النقراشى سيكون معك وأنا معك من الآن».

«وخاطبت النقراشى فى الأمر فأكد لى أنه لن يسمح بذلك أبدًا، وأنه سيقابل على باشا حالاً ويطمئنه».

(١٦٤)

وتتضمن مذكرات إبراهيم عبد الهادى كثيراً من الثناء على عدد من قادة الجيش المصرى وبخاصة أولئك الذين شاركوا فى حرب فلسطين، يأتى فى مقدمتهم الفريق أحمد فؤاد صادق، واللواء محمد نجيب، وضبع الفالوجا السيد طه، والواقع أن إبراهيم عبد الهادى كرجل دولة كان يتمتع بعلاقات حسنة مع القادة العسكريين، وكان هؤلاء يقدرونه ويرتاحون إليه، ونحن نراه فى أثناء حديثه عن حرب فلسطين يقول:

« . . . وكان يقود الجيش المصرى يومئذ ضابط عظيم له كفاية الضابط القائد وخلق القائد أيضًا وإيمانه هو المرحوم اللواء أحمد فؤاد صادق ثبت فى مكانه وجنوده معه، ولم يمكنوا الجيش الإسرائيلى من تحقيق غايته فى انكماش الجيش المصرى وتطويق

الجيش، ومحاولة إبادته، والاستيلاء على العريش والاندفاع نحو القنال بعد ذلك فيما أظن».

«وكان للواء محمد نجيب نصيب ضخم فى شرق القنال ببسالة منقطعة النظير فى هذه الموقعة المعروفة بـ«تبة ٥٦» حيث حمل بندقيته واندفع بنفسه يخوض المعركة بنفسه مع جنوده، وقد أصيب إصابة شديدة كادت تقضى على حياته، وأظهر الضباط فى هذه المعركة بسالة منقطعة النظير، وهى الشجاعة التى عرف بها الجندى المصرى وتميز بها من قديم الزمن».

(١٦٥)

وهذا نموذج آخر لاستطرادات إبراهيم عبد الهادى فى الثناء على العسكريين الذين قدر لهم أن يعملوا بالقرب منه فى رياسة الوزارة وغيرها من المناصب، وهو يثنى على الصاغ بحرى عز الدين عاطف فيقول:

«. . . هذا الرجل الذى يراه يعتقد لأول وهلة من ظاهره يظن أنه قليل الاكتراث، لكنه فى واقع الأمر كان فى منتهى الأمانة مع نفسه ومع الناس، فهو من الذين يشعرون بمسئولياتهم، صريحًا فى الحق، لا يخشى فيه أحدًا مهما كان مركزه».

«عاطف هذا له علىّ حق وواجب أن أذكر له موقفه فى تقدير ثمن اليخت «فخر البحار»، وهو يخت كان الملك قد اشتراه من الأمير يوسف كمال بثمن ما وأراد أن يبيعه للدولة، وقد انتدب الصاغ البحرى ياوره عز الدين عاطف وظن الناس أنهم سيسمعون رقمًا خياليًا، فإذا بالرجل عند ذمته وضميره ولم يهتم بأحد وقدره التقدير المناسب وليس فى ذهنى هذا الرقم محددًا، لذلك كان اختيارى وائتمانى له فى اللجنة فى محله».

(١٦٦)

ومن الشخصيات العسكرية التى تحظى بثناء إبراهيم عبد الهادى بطريقة عارضة اللواء عبد المجيد فؤاد، وهو يذكر لهذا الضابط الذى كان رئيسًا لمجلس عسكرى عدالته وذكاءه وحرصه على حقوق المتهم:

«. . . لقد كنت فى المحاماة وترافعت أمام مجالس عسكرية كثيرة ما وجدت منهم إلا كل احترام وتقدير وتقديس للعدالة».

«وأذكر أننى كنت أترافع عن ضابطين أمام اللواء عبد المجيد فؤاد مازال اسمه يرن فى الجيش على أنه كان من أذكى ضباط الجيش، وما رأت عينى صدرًا أفسح من صدره، كما كان التحقيق يجرى مع الضباط المتهمين بكل احترام مهما كانت التهم المقدمين بها إلى المحكمة».

«هل يعرف القراء الحكم الذى وقعه القاضى على الضابط الذى قدمه الملك شخصيًا للمحاكمة؟ «لفت نظر!»، أى والله «لفت نظر!!»، والذى جاء بعد ذلك أغرب من المحاكمة».

«طلبنى رئيس المحكمة اللواء عبد المجيد فؤاد فى غرفته وقال لى: «يا فلان بلاش تعمل تظلم من الحكم»، وكررها مرة أخرى: «يابنى أرجوك ما تعملش تظلم من الحكم».

«لأنه خشى أن القاضى الذى سينظر التظلم أمامه ربما يتشدد فى حكمه فأسىء إلى موكلى من حيث أردت معونته، فلم أعمل التظلم!».

(١٦٧)

بقى أن نشير كذلك إلى حرص إبراهيم عبد الهادى على الثناء على أنور السادات وزكريا محيى الدين وموقفهما فى أثناء محاكمته، وذلك فى مقابل هجومه المتكرر على عبد اللطيف البغدادى:

«. . . وقبل أن أدخل فى صميم الموضوع أحب أن أذكر كلمة لوجه الله، لم يسىء إلىّ زكريا محيى الدين ولا أنور السادات بكلمة نابية واحدة، بل كان زكريا يوجه إلىّ الكلام ووجهه فى الأرض، وظل أنور السادات صامتًا طول مدة المحاكمة كما ظل صامتًا فى الجلسة العلنية».

(١٦٨)

ونأتى إلى السياسيين الذين ينتقدهم إبراهيم عبد الهادى فى مذكراته، وأبرز هؤلاء

اثنان هما حسين سرى، ومكرم عبيد، ومع أن ألفاظه فى انتقاد حسين سرى أكثر صراحة من ألفاظه فى انتقاد مكرم عبيد، فإن جوهر انتقاده لمكرم عبيد يبتعد بمكرم تماماً عن حدود الوطنية الحقة، والإنسانية المعقولة.

والواقع أن أحداً من الساسة المصريين لا يحظى فى مذكرات إبراهيم بهذا القدر من الانتقاد الذى يحظى به حسين سرى، وعلى سبيل المثال فإن إبراهيم عبد الهادى يتحدث باستخفاف عن وصول حسين سرى إلى رئاسة الوزارة لأول مرة عام ١٩٤١، وعن سرعة تغييره لموقفه الداعى إلى دخول مصر الحرب مع الإنجليز بعد أن غير الإنجليز موقفهم:

« . . . تولى حسين سرى الوزارة بعد وفاة حسن صبرى باشا وحقق أمله الكبير الذى كان يسعى إليه، لا لأنه له أغلبية فى البرلمان يعتمد عليها، أو كفاءة خاصة تؤهله لهذا المنصب الكبير، لا لشىء من هذا ولكن اعتمد على صلة النسب التى تربط زوجته بزوجة الملك الأولى فريدة (صافيناز ذو الفقار) فهى خالتها، ولذلك كان دائم الاعتزاز بذلك والفخر أمامنا فى مجلس الوزراء بأن الملك إمبارح كان وياه فى البيت وبيهزر معه وبيحط له الثلج على رأسه، رئيس وزارة يقبل هذا ويفخر به فى مجلس الوزراء شىء له العجب!».

«ومن هذا الجانب. . جانب صلته العائلية بالملك هاجم عزام باشا فى مجلس الوزراء بطريقته الساخرة، ولكن عزام رد عليه بما أخرسه».

«وكان حسين سرى من أكثر الناس تسابقاً فى إرضاء الإنجليز والدخول إلى جانبهم فى الحرب لا اقتناعاً منه بفائدتها لمصر ولكن لإرضاء سادته الإنجليز».

«وغير وجهة نظره لأن الإنجليز اقتنعوا بوجهة نظر حسن صبرى باشا بعدم إشراك مصر فى الحرب حتى لو دخل الألمان القاهرة، واتفق الرأى بينهما على أن بقاء مصر دولة غير محاربة أنفع لهم من إعلانها الحرب على دول المحور، وأنه مادام الأمر كذلك فيجب أن تكون سياسة مصر تجنيبها ويلات الحرب».

(١٦٩)

ويتصل بنقد إبراهيم عبد الهادى لحسين سرى ما نراه من حديثه المستهجن لسلوك

حسين سرى وهو وزير المالية فى إجبار طلعت حرب على الاستقالة من بنك مصر، ونحن نشارك إبراهيم عبد الهادى فى رأيه هذا، وربما نزيد عليه فى انتقادنا لحسين سرى على هذا الموقف الشائن:

«. . . . . وفى أواخر شهر أغسطس استدعى حسين سرى باشا وزير المالية محمد طلعت حرب باشا مدير بنك مصر وتحدث إليه فى مركز البنك وشركاته، وطلب إليه أن يتنحى عن إدارته، وأنذره بأنه إذا لم يستقل بعد ثلاثة أيام، وهى المدة المقررة، فستضطر الحكومة أن تقف منه ومن البنك موقف الخصم».

«والواقع أن هذا التصرف من جانب وزير المالية كان سيئًا للغاية بالنسبة لرجل خدم الاقتصاد القومى أجل خدمة، ومركزه أكبر من وزير وأكبر من رئيس الوزارة نفسه، وأنه أسس شركات كثيرة كان لها الأثر فى حياة البلاد، ولم يرتكب أمرًا يسىء إلى وطنه، وكان مثال النزاهة والاستقامة فى إدارة البنك، وفتح بيوتًا لا حصر لها، وصان ثروات مصرية ضخمة كادت تقع فى براثن الأجانب، وقضى عشرين عامًا يخدم البلاد بصدق».

(١٧٠)

وهذه واقعة قاتلة يوجه فيها إبراهيم عبد الهادى سهام نقده لحسين سرى وسلوكه المزرى فى أثناء مناقشة عابرة فى مجلس الوزراء مما جعل عبد الرحمن عزام لايجد حرجًا فى أن يقول له إنه خدام للإنجليز:

«. . . وأصرت الوزارة على عدم إعلانها الحرب على ألمانيا، وإن كان على ماهر وحسين صرى بالذات على غير هذا الرأى».

«وفى حديث جرى حول هذا الموضوع وكان أكثر المتحدثين فيه بعدم إعلان الحرب عبد الرحمن بك عزام وزير الشئون الاجتماعية، فانبرى له حسين سرى باشا قائلاً: «كيف تقول بهذا وأنت صديق الإنجليز؟»، فالتفت إليه عزام باشا ورد عليه بغضب: «نعم أنا صديق الإنجليز عندما يستشيرونى فى أمر أنا به خبير أقوله لهم بصراحة كصديق، أما أنت فخدام للإنجليز كما أن أبوك خدامهم من قبلك، اسكت ولا تتكلم!».

«فسكت حسين سرى ولم ينطق بكلمة واحدة ووجم الوزراء وكان موقف حسين سرى مزريًا للغاية!».

(١٧١)

وفى إطار انتقادات إبراهيم عبد الهادى المتعددة والمتكررة لحسين سرى فإنه يستطرد فى أحد مواضع ذكرياته إلى الحديث عما رواه فؤاد سراج الدين من أحد المواقف المشينة لحسين سرى، ونحن نفهم بالطبع مدى المرارة التى كان الرجلان، لأسباب مختلفة، يحملانها تجاه حسين سرى وسلوكياته، وها هى قصة الموقف الذى يصوره فى أدنى درجات الإحساس بالكرامة:

«... كان معى بالأمس فؤاد سراج الدين باشا، وكان وزيراً مع حسين سرى فى وزارته عام ١٩٤٩، وروى لى الآتى: كنا مرافقين للملك فى سفره إلى الإسكندرية وموجود كريم باشا ثابت، فقام الملك وجاب كوب ماء بارد وألقاه على قفا سى كريم».

«كريم مش واخد باله فنفر، وقال: مين اللى عمل العملة دى، ولم يعرف أنه الملك، قام الملك بعد قليل وأخذ قطعة تلج وحطها على دماغ صاحب الدولة حسين سرى باشا!».

«فضحك صاحب الدولة وقال: شىء كويس يا مولانا!! فنظر الملك إلى كريم ثابت وقال له: أهو دا الأدب يا ابن الـ!!».

(١٧٢)

ويبدى إبراهيم عبد الهادى ضيقه من الأسلوب الذى تعامل به خلفه فى رياسة الوزارة حسين سرى باشا، وهو حريص على أن يصفه بأنه كان ذا صلة قوية بالإنجليز، وأنه أساء معاملته على الرغم من أنه زاره فى المنزل وأنهى إليه توصية الملك له أن يأخذ مشورته فى كل شىء، وبصفة خاصة فيما يتعلق بالأمن العام:

«وتولى حسين سرى الوزارة بأمر الإنجليز، ولاشك فى هذا، وقد ثبتت صلاته القوية بالإنجليز بعد نشر مذكرات السير مايلز لامبسون أخيراً، وفيها يظهر مدى كيده للملك رغم تظاهره الشديد بالولاء».

«جاءنى حسين سرى باشا مرة أخرى فى المنزل بعد أيام من توليه الوزارة، وكنا مشتركين فى الوزارة بأربعة وزراء، وقال لى إنه مكلف من جلالة الملك ليأخذ مشورتى فى كل شيء، وفيما يتعلق بالأمن العام بصفة خاصة، وأنه لن يبت فى شيء مهم إلا برأيى!».

«قلت له: أنا شاكر للملك ولك هذا».

«وبعد ذلك بأيام ظهرت حركة تنقلات بين كبار الموظفين بوزارة الداخلية، وكان لى صديق فيها مدير مستخدمين، كان زميلى فى كلية الحقوق وزميلى فى السجن عدة سنوات، ورجل من أطهر الناس استقامة وخلقا، فنقله إلى وزارة الشئون الاجتماعية بغير سبب».

«كما نقل أيضًا صديقى وزميلى فى السجن المرحوم توفيق صليب».

«مسألة كانت شاذة فهمت منها أن الحكاية تسير فى طريق مضاد».

(١٧٣)

ويذهب إبراهيم عبد الهادى إلى ترديد ما هو شائع فى كتابات وأحاديث غيره من معاصريه، من أعداء الوفد من أن حسين سرى إنما جاء ليمهد لعودة الوفد.

ويروى إبراهيم عبد الهادى فى هذا الصدد ما كثر ترداده من أن فوز الوفد فى انتخابات ١٩٥٠ كان غالبية دوائر ولم يكن غالبية أصوات:

«جاء حسين سرى لينفذ مشورة معينة أرادها الإنجليز بعد أن ضايقنا الإنجليز كثيرًا فى حكمنا ومعنا الأحرار الدستوريون والحزب الوطنى».

«وكان مستر بيفين، وهو الذى وضع مشروع صدقى ـ بيفن ودافع عنه بحرارة فى مجلس الوزراء البريطانى حتى وقعه المجلس، وصرح: لقد كنا غلطانين عندما تفاوضنا مع حكومات الأقلية، وجاء حسين سرى ونفذ مشورة الإنجليز وأجرى الانتخابات كما يعلم الناس فى ذلك الوقت بأسلوب أوحى به للناخبين بأن الوفد هو الذى سيحكم والرأى العام أميع من الهواء، كثير التقلب، وكان يوجد عامل آخر مهم جدا وهو أن البوليس كان موتورًا من السعديين لموقف النقراشى منه يوم أن قضى على

إضرابهم بإنزال الجيش فى حديقة الأزبكية لمنع هذا الإضراب الذى لو حدث واستمر لضاعت البلد فى غمضة عين».

«أقول: لقد كان رجال البوليس موتورين فنزلوا بثقلهم فى الانتخابات لصالح الوفد فحصل على أغلبية مطلقة، وإن لم يحصل على أغلبية الأصوات، ولو كانت الانتخابات بالقائمة لحصلت الأحزاب الأخرى على الأغلبية داخل البرلمان».

«كانت الغلبة غلبة دوائر وليست مجموعة أصوات».

(١٧٤)

هكذا نجد فى مذكرات إبراهيم عبد الهادى تكراراً لهذه النغمة التى تحاول التقليل من حجم الفوز الذى أحرزه حزب الوفد فى انتخابات نهاية ١٩٤٩ التى جرت على يد حسين سرى وزوج ابنته محمد هاشم باشا حتى إننا نراه حريصًا على أن يشير إلى محاولة محمد هاشم زوج ابنة حسين سرى الاعتذار له عن الموقف الذى وقفه ضده فى هذه الانتخابات:

«. . . . . . وبعد بضع سنين زارنى الدكتور محمد هاشم فى منزلى أكثر من مرة وأبدى أسفه وألمه الشديد بسبب تصرفاته فى أثناء الانتخابات، وقال: سامحنى، وما كنت أملك إلا أن أسامحه وما فات مات والأمر يومئذ لله».

(١٧٥)

ويورد إبراهيم عبد الهادى قصة استقالة مصطفى مرعى من وزارة حسين سرى فى سياق حديثه عن التصديق على حكم مصطفى كمال صدقى، مع أننا نعرف أن هذه القصة لم تكن السبب الوحيد ولا السبب المباشر فى كتابة مصطفى مرعى لاستقالته الشهيرة، ومع هذا فإن واقعة مصطفى كمال صدقى وحدها تكفى لأن تكون سببا لهذه الاستقالة المشرفة:

«. . . . . . وكان من الأعمال التى استهل بها سرى باشا عمله أن طلب الحكم الذى صدر على مصطفى كمال صدقى وزميله من مصطفى بك مرعى لإلغائه، فدهش مصطفى بك مرعى وحاول إثناء سرى باشا عن تنفيذ ما يطلب».

«وكان قد أشر على الحكم بالتصديق فى انتظار عرضه عليه لتوقيعه، ولكنى [الضمير يعود على إبراهيم عبد الهادى راوى القصة] قدمت استقالتى، فلما نبهه مصطفى بك مرعى إلى ذلك قال: وفيها إيه نكشط عبارة التصديق، فغضب مصطفى بك مرعى وخرج ثائرًا وقدم استقالته من الوزارة، وهى استقالة لم يحدث لها مثيل فى تاريخ الوزارات المصرية إطلاقًا ونصها:

«حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء».

«تحية وبعد.. فإنك تعلم - كما يعلم غيرك - أننى إنما اشتركت فى حكومتك على أمل فيك أن لك غاية هى جمع الكلمة وضم الصفوف، وأن لك هدفًا هو الاستعانة بالقوى المؤتلفة على مواجهة الخطير من مشاكلنا الخارجية والداخلية».

«وقد تبين أنك لا تبتغى هذه الغاية، ولا تتوسل بوسائلها، بل إنك لتبدو كما لو كنت مسلطًا لتجعل من كل حزب حزبين، وكل فرقة فرقتين».

«وقد رأيتك بنفسى ترى الرأى الحق للحق، وتنقضه للباطل، وتقول الكلمة وتنكرها، ولم يقع ذلك مرة واحدة فى تافه من الأمور، بل وقع مرارًا فى الخطير من شئون الدولة».

«أما لفظك وأما عبارتك وأما أسلوبك فى إدارة مناقشات مجلس الوزراء فقد أصبح هذا كله مضرب الأمثال، وموضع التندر فى كل مكان».

«لهذا أحيطك علمًا باعتزالى العمل فى الوزارة والله المسئول أن يدفع عن بلادنا السوء، وأن يقيها غوائل الفساد».

«١٦ أكتوبر ١٩٤٩»

«مصطفى مرعى»

«والذى يطلع على الحكم المذكور يجد العبارة التى كتبها مصطفى مرعى قد كشطت، ولم يحدث فى تاريخ مصر حدث مثل هذا، ولا استقالة وزير من الوزارة بهذا الشكل».

. . . .

ربما كان من الجدير بالذكر هنا أن هناك رواية أخرى مشابهة عن سبب استقالة مصطفى مرعى وهى أن حسين سرى كان قد أشر على إحدى المذكرات بكلمة أوافق فلما ضغط عليه جاء بالمذكرة ووضع كلمة «لا» قبل أوافق وهكذا أصبحت التأشيرة بالرفض بعد أن كانت بالموافقة!

(١٧٦)

ومع كل هذا الانتقاد لحسين سرى فإن إبراهيم عبد الهادى يذكر لوزارته من الخير أنها استصدرت مرسومًا بتعيين الأستاذ محمود محمد محمود رئيسًا لديوان المحاسبة، وهو يثنى على هذه الخطوة معتبراً أنها الحسنة الوحيدة التى أحرزتها وزارة سرى باشا فيقول:

«. . . وكانت خطوة موفقة كل التوفيق من وزارة حسين سرى، ولعلها الحسنة الوحيدة التى نذكرها. فمحمود محمد محمود رجل له كفايته، فضلاً عن نزاهته واستقامته وخلقه النظيف».

(١٧٧)

ونأتى إلى مكرم عبيد وما يحظى به من نقد متكرر مباشر وغير مباشر فى مذكرات إبراهيم عبد الهادى، ولا يبدأ هذا النقد عند الفترة التى انفصلت فيها الهيئة السعدية عن الوفد بسبب سلوك مكرم عبيد المتعنت مع النقراشى وأحمد ماهر، وإنما يسبق هذا التاريخ ليعبر بوضوح عن الضيق النفسى الذى كان يعترى وطنيين من طراز إبراهيم عبد الهادى من سلوك مكرم عبيد وما يجره على الائتلافات والتوافقات الوطنية من آثار حزبية متحيزة كان مكرم حريصًا عليها.

وعلى سبيل المثال فإن إبراهيم عبد الهادى يستحضر من ذاكرته بعض المقالات التى تكشف عن حرص مكرم عبيد المبكر على الإساءة إلى الائتلاف بين الوفد والأحرار الدستوريين، وهو الائتلاف الذى كان قائما قبل وفاة سعد زغلول، واستمر قائمًا لبعض الوقت بعد هذه الوفاة، وقد استمرت وزارة عبد الخالق ثروت فى الحكم إلى أن بدأ مكرم يدفع الوفد إلى مناوأتها:

«. . . كتب الدكتور هيكل باشا مقالاً فى «السياسة» بموافقة عدلى باشا والدكتور حافظ عفيفى حول الائتلاف ومحاولة هدمه، تحدث فيه بصراحة عما وصل إليه علمه وإلى رجال الأحرار الدستوريين من أن الأستاذ مكرم عبيد كان يحرض الناس يوم عودة ثروت باشا لافتتاح الندوة البرلمانية ليسيئوا استقباله، وأن الائتلاف يأبى هذه المناورات».

«فلما صدر المقال بجريدة «السياسة» لسان حال الأحرار الدستوريين أحدث دويًا وضجة فى جميع الأوساط السياسية، وكتب محمد محمود باشا وزير المالية فى ذلك الحين، وهو فى الوقت نفسه وكيل حزب الأحرار، مقالاً يخالف الدكتور هيكل فيما كتبه، وأراد أن ينشره فى «السياسة» فأبى الدكتور هيكل نشره، فقال له محمد باشا: سأنشره إذن فى الأهرام، فرجاه ألا ينشره، وتشبث كل منهما برأيه، وقال له محمد محمود باشا: ألا تنشر كلمتى وأنا رئيس شركة السياسة، ورد هيكل باشا: أنا مستعد بشرط أن أنشر مع كلمة معاليكم استقالتى من رئاسة التحرير».

«وهنا تراجع محمد محمود باشا ونشر كلمته فى الأهرام، وجاء فيها أن مقال الدكتور هيكل فى «السياسة» لا يمثل رأى الأحرار الدستوريين».

(١٧٨)

وينسب إبراهيم عبد الهادى السبب فى الانشقاق الوفدى الذى حدث فى مطلع الثلاثينيات، وهو الانشقاق المعروف بانشقاق السبعة ونصف إلى سياسة مكرم، ولاشك أن إبراهيم عبد الهادى محق فى هذا الذى يدعيه ومع احترامنا لما يبديه إبراهيم عبد الهادى فى روايته من أسباب متقبلة فإننا لابد أن نشير إلى الحقيقة الأخرى فى هذه الحادثة، وهى أن هؤلاء (أى الزعماء الثمانية) كانوا أميل إلى الوصول إلى حل وسط مع صدقى باشا بعد إجراءاته العنيفة ضد الوفد التى صعدها طيلة عهد وزارته فى الثلاثينيات:

«. . . وحدث أن اتصل السير برسى لورين المندوب السامى البريطانى بعدلى باشا وأبلغه أن بريطانيا مستعدة أن تعقد مع مصر المعاهدة التى انتهت إليها مفاوضات النحاس - هندرسون سنة ١٩٢٠، وأن تشير بإعادة دستور الأمة إليها، فقبل الأحرار الدستوريون الفكرة واجتمعوا مع الوفد لمناقشتها، فهاجمها مكرم باشا

هجومًا عنيفًا بأنها مناورة المقصود بها إضعاف نشاط المعارضة، فناقشه الدكتور هيكل وبيّن (له أن) قبول الفكرة هو الذى يكشف حقيقة أمرها، وما إذا كانت مناورة أو لم تكن».

«وطال الحوار والجدل الذى استخلص منه الدكتور هيكل بأن النحاس باشا ومكرم باشا لا يقبلان إلا أن يجرى حكم الدستور بأن تتولى الأغلبية الحكم اقتناعًا منهما بأن الأغلبية فى جانب الوفد، فانقسم الرأى بين أعضاء الوفد فريق يرفضها وعلى رأسه النحاس باشا ومكرم عبيد، وفريق يؤيدها عددهم ثمانية على رأسهم فتح الله باشا بركات، وواصف غالى باشا».

«وعندئذ اتصل فتح الله باشا (بركات) بالأحرار الدستوريين ورجاهم أن يتريثوا فترة حتى يخرج القرار من الوفد برأى واحد فقبلوا، ولكن النحاس باشا ومكرم باشا أصرا على رأيهما».

«وفى هذه الأثناء جرت محاولات مع عدلى باشا أن يقبل رياسة الوزارة القومية إذا كان الإنجليز جادين فى عرضهم، فرفض الرجل بدعوى أن النحاس باشا لن يقبل وسيحاربه بكل قوة لأنه عنيد ولا يقبل إلا ما استقر فى ذهنه».

«وفعلاً قام النحاس من جانبه بفصل الأعضاء السبعة الذين كان من رأيهم قبول الوزارة القومية، ولم يذكر اسم فتح الله باشا بركات من بينهم لأنه توفى على إثر مرضه وأطلق عليهم مكرم باشا اسم «السبعة ونصف»، إشارة إلى أن النصف هو على باشا الشمس لقصر قامته!».

«وبعد صدور القرار أقام محمد باشا محمود مأدبة تكريمًا لأعضاء الوفد السبعة الذين فصلهم النحاس باشا واستقبلهم حمد باشا الباسل لتضامنهم مع الأحرار الدستوريين فى رأيهم».

(١٧٩)

كذلك يحظى مكرم عبيد بانتقاد إبراهيم عبد الهادى لمغالطاته فى المعالجة الصحفية لموضوع اعتراض السراى على تعيين يوسف الجندى وزيراً:

«وحدث فى أثناء تعديل الوزارة أن رفض الملك تعيين الأستاذ يوسف الجندى وزيراً، وكان نائب زعيم المعارضة بمجلس الشيوخ والوكيل البرلمانى لوزارة الداخلية فى الوزارة السابقة»

«وكان الرفض فى تعيينه وزيراً معللاً بأمور تمس نزاهته خلال توليه وكالة وزارة الداخلية وكبرلمانى».

«وكان لهذا الرفض أثر سيىء جداً لما عرف عن الأستاذ الجندى من استقامة وتفوق فى المحاماة وفى زعامته البرلمانية وجهاده فى ثورة ١٩١٩، فضلاً عن خروج على الدستور، ونزول رئيس الوزارة على اعتراض الملك».

«ولكن مكرم باشا دفع الصحف الوفدية للكتابة فى هذا الموضوع بما يفيد أن الوزارة تبحث موضوع الأستاذ يوسف الجندى من الناحية الدستورية، وهو يعلم تمامًا أن توقيع مرسوم تأليف الوزارة خال من اسم الأستاذ يوسف الجندى وقبول رئيس الوزارة يسقط الحجة فى الاعتراض على ما حدث، وأن النحاس باشا نفسه كان يعرف هذه الحقيقة الدستورية ولم تكن تغيب عن ذهنه، ولكنه خشى إذا تشبث برأيه فى تعيين يوسف الجندى أن يشير مستشار الملك، وهو على ماهر، على الملك بحل مجلس النواب وإجراء انتخابات جديدة تدور معركتها حول الخلاف بين الملك والنحاس، وكان الملك محبوبًا جداً عند الشعب فى ذلك الحين، ولم يكن من السهل أن يقاومه النحاس باشا ويتغلب عليه فآثر السكوت».

(١٨٠)

ويلقى إبراهيم عبد الهادى بعض الضوء على الخلافات التى تفاقمت بين مكرم عبيد (وزير المالية) وبين النقراشى (وكان رئيسًا للوزراء)، وهو يرى أن هذه الخلافات كانت السبب فى إنهاء حياة وزارة النقراشى فى مطلع ١٩٤٦، ذلك أنها شجعت المعارضة الوفدية على توجيه ضربات شعبية إلى الوزارة من خلال المظاهرات التى كان من نتيجتها فتح كوبرى عباس وما أشيع من غرق الطلاب فى النيل.

ويحرص إبراهيم عبد الهادى على أن يكرر الاستشهاد بما أدلى به فؤاد سراج الدين وزير الداخلية فى برلمان ١٩٥٠ من أن أحداً لم يمت فى هذه المظاهرات.

كما يستشهد إبراهيم عبد الهادى برأى الدكتور هيكل فى مسلك مكرم عبيد وأنه لم يكن ليسلك معه مسلكه مع النقراشى، ويشير إبراهيم عبد الهادى إلى السبب الذى جعل النقراشى يتحمل مضايقات مكرم عبيد وهو يقول:

« . . . كان مكرم باشا غير مرتاح لوجود النقراشى رئيسا للوزارة، ويرى أنه أولى برياسة الوزارة، ولكن الظروف السياسية والاجتماعية وغيرها، خصوصًا أن مكرم باشا يعادى الوفد ورئيسه معاداة عنيفة لا جرم فى أن أقول إنها تكاد تكون شخصية، وأنها تجاوزت كل المقاييس والحدود، ومكرم باشا كما سبق أن ذكرت عنيد فى لدده وخصومته إلى أبعد حد، كما هو مسرف فى حبه وصداقته مسرف فى الناحيتين».

«لم يكن مكرم باشا يخفى ما فى نفسه، وهذه طبيعته أيضًا، وكان كثير الحديث فى هذا لأصدقائه ومعارفه وغير أصدقائه ومعارفه».

«وكان دائمًا يهدد بالاستقالة، بل إنه استخدم هذا الأسلوب مع المرحوم ماهر باشا نفسه، ولكن ماهر باشا استطاع أن يتغلب عليه إلى أن لقى ربه».

«كان النقراشى باشا يعلم ذلك كل العلم ويخاف من نتائجه على البلاد، وهى كما وصفت، كما كان هذا الأمر يخيف أحمد باشا حسنين رئيس الديوان الملكى، وقد تحدث حسنين بهذا إلى بعض كبار السياسيين وبعض الصفحيين ومنهم مصطفى أمين، وأنطون باشا الجميل رئيس تحرير الأهرام، وطلب من بعضهم أن يتوسط لدى مكرم باشا ولكن بغير جدوى».

«كانت تهدأ الأمور قليلاً ثم يبدأ مكرم باشا من جديد حتى إن الملك نفسه توسط فى الأمر ودعاهما إلى لقائه بقصر القبة، وحرص الملك (على) أن يكون الدكتور هيكل رئيس مجلس الشيوخ موجودا».

«وخرج الاثنان من هذه المقابلة وهما على أتم ما يكونان من الاتفاق والوفاء، ولكن أيضا كان ذلك بدون جدوى فلم يستمر الوفاق والوئام طويلاً».

« . . . ويتساءل الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته قائلا: «ترى لو أن أحمد ماهر باشا كان حيًا أكان مكرم باشا يسلك معه مسلكه مع النقراشى باشا؟»».

«ولو أنه فعل أكان ماهر باشا يسلك معه مسلك النقراشى؟ لا أظن».

«فقد كان مكرم باشا يعلم أن الدكتور ماهر كان فى ذكائه حازمًا، وإلى لطفه وظرفه شديد الاعتداد بنفسه فلا يقبل هذه المعاملة من أحد».

«ولو أن مكرم باشا سلك معه مسلكه مع النقراشى باشا لما تردد فى تقديم استقالة الوزارة لأن التعاون بينه وبين مكرم باشا أصبح مستحيلاً، ولما رجع عن استقالته هذه لأى اعتبار، ولما بلغ من حرصه على الوزارة أن يقبل وساطة أو تسوية، فإما كلفه الملك بعد ذلك بإعادة تأليف الوزارة فألفها ولم يشترك فيها مكرم باشا وحزبه، وإما ألفها غيره فكان له رأيه فى اشتراك حزبه أو عدم اشتراكه فى الوزارة الجديدة».

«هذا رأى الدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ».

«وأبادر (الضمير لإبراهيم عبد الهادى) فأقول حقيقة إن النقراشى باشا كان حريصًا على بقاء الوزارة وعدم استقالته لأنه كان يخشى الخطر الذى تتعرض له البلاد فى هذا الظرف الدقيق بالذات، وقد ظهر ذلك واضحًا حين عرف الخاصة والعامة الخلاف الشديد بين رئيس الوزراء ووزير المالية، وقد شجع ذلك المعارضة على مناهضة الوزارة وإضعافها، وقد دفعت المعارضة والوفد على رأسها طلبة الجامعة للإضراب والمظاهرات التى لابد فيها من احتكاك البوليس والطلبة وتقع فيها حوادث يصاب فيها البوليس والطلبة».

«وقد بدأ فعلاً طلبة جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليًا) الإضراب والتظاهر فى كلياتهم بالجيزة، ثم ساروا نحو القاهرة يريدون التظاهر أمام الملك بقصره فى عابدين، فلما اكتمل أكثرهم على الكوبرى فتحه البوليس فحصرهم فى نطاقه فلم يستطيعوا حراكا، وخلع بعضهم من الذين يحسنون السباحة ملابسه وألقى نفسه فى النيل حتى وصل إلى الشاطئ، أذكر منهم المرحوم عبد الوهاب حسنى الطالب بكلية الحقوق، وقد انتقل إلى رحمة الله فى عام ١٩٧٩، وأصيب بعض الطلبة بجراح خفيفة من عصى البوليس، كما أصيب كذلك بعض جنود البوليس ولكن لم يمت أحد، أو لم تكن توجد إصابات عنيفة».

«وجاء الوفد بأغلبيته الكبيرة فى البرلمان إلى الحكم، وتقدم نائب سعدى فى البرلمان

بسؤال إلى رئيس الحكومة وإلى وزير الداخلية بالذات يسأله أن يدلى بعدد القتلى والغرقى الذين قتلوا فى كوبرى عباس».

«وقد أجاب فؤاد سراج الدين باشا على ذلك بأنه لم يمت أو يغرق أحد فى هذا الحادث».

«وهذه الإجابة ثابتة فى مضابط المجلس يمكن أن يطلع عليها أى إنسان يريد فى الوثائق المحفوظة بمجلس الشعب».

«لقد حدثت ضحايا فعلاً فى كوبرى عباس عام ١٩٣٥ فى ثورة الطلبة على وزارة نسيم باشا الله يرحمه».

(١٨١)

ونأتى إلى يحيى إبراهيم الذى يحرص إبراهيم عبد الهادى على إدانة دوره الذى لعبه فى رياسة حزب الاتحاد، وهو يلجأ فى هذه الإدانة إلى أسلوب ذكى حيث ينقل بعض فقرات من حديث عبد العزيز فهمى الذى سخره لنقد يحيى إبراهيم وسلوكه فى حزب الاتحاد، وقد وصل فى هجومه عليه أن وصفه بأنه غير مسئول عما يفعل، وبأنه ضعيف القلب واللسان، وإن كان ذا لقب ضخم:

«. . . . . . . تلك ظروف الإقالة التى حمدت الله عليها وأرى من الواجب علىّ إنصافًا ليحيى باشا أن أدلكم على حقيقة أمره، إنه رجل غير مسئول عما يفعل، ولا مؤاخذ بما يصدر عنه من خير أو من شر، وعلة ذلك أنه رئيس حزب الاتحاد بالنيابة».

«عقب أن سمعت بفكرة تكوين هذا الحزب قلت فى نفسى لعله خير، ولعل وجوده يكون مساعداً على إيجاد التوازن وتنظيم حركة جميع الأحزاب فى سيرها نحو الغرض المشترك، وهو تحقيق آمال مصر التى جاهدت فى سبيلها طويلاً، ولذلك رحبت به أيما ترحيب، ولكن لم يمض إلا قليل من الزمن حتى وجدتنى مخطئًا، ووجدت أن فكرة تكوين هذا الحزب هى فكرة خبيثة من شر ما منيت به البلاد».

«موظف كبير فى سراى جلالة الملك، عنّ له خدمة لنفسه أن يتسلط على هذه الأمة التعيسة، فانتهز فرصة مركزه ومكانته وألف هذا الحزب تحت رياسته، ولأنه لا يستطيع

أن يشتغل إلا فى الخفاء بحث عن رجل ذى لقب ضخم يسحره برياسة هذا الحزب فى الظاهر، على شرط أن يكون ضعيف القلب واللسان، يفعل ما يؤمر بلا تردد ولا جدال، فلم يجد أمامه إلا صاحبنا يحيى إبراهيم فسخره للرياسة وألبسه ثوبها أمام الجمهور».

(١٨٢)

وبحكم انتماء إبراهيم عبد الهادى إلى مجموعة السعديين الذين خرجوا على النحاس باشا فإنه يحرص فى كثير من فقرات مذكراته على الإشارة إلى الماضى غير الوطنى أو غير المشرف لبعض مَنْ وصلوا إلى مواقع متقدمة فى الوفد فى عهد النحاس باشا، وهو ينتهز فرصة الحديث عن حادث السردار وخروج سعد زغلول من الحكم ويشير إلى موقف المغازى باشا، ثم يستطرد أيضًا إلى موقف حفنى الطرزى:

«. . . بدأ بعض رجال الوفد ضعاف النفوس يستقيلون ويبتعدون عنه».

«وكنت جالسًا معه ذات يوم وإذا به يفاجئنى يقوله: شوف يا إبراهيم، المغازى باشا عبد ربه باعت لى تلغراف يقول لى: أيها الخارج على العرش».

«وكانت هذه أول مرة أعرف اسم المغازى باشا عبد ربه بالكامل».

«وقد تذكرت هذا التلغراف يوم أخرج مصطفى باشا النحاس النقراشى باشا وأحمد ماهر من الوفد عام ١٩٣٧، وضم المغازى باشا عبد ربه عضواً بالوفد، وكذلك عندما ضم حفنى باشا الطرزى، وكان «شاهد ملك» على أبناء الوطن فى الاعتداء فى ثورة ١٩١٩ على الإنجليز فى أسيوط».

(١٨٣)

ويحرص إبراهيم عبد الهادى (أو كاتب المذكرات) على أن يضمن مذكراته قليلاً مما لم يتناوله كثيرون مما يعرف بأحاديث النميمة السياسية، ومن هذا حديث حقيقة علاقة السير لامبسون بأمين عثمان باشا، وكيف كان لهذه العلاقة جانب خفى يتمثل فى إعجاب لامبسون بزوجة أمين عثمان:

«. . . وكان معينًا فى سكرتيريتها (الحديث عن المفاوضات التى سبقت توقيع معاهدة ١٩٣٦) أمين عثمان الموظف بوزارة المالية اختاره مكرم باشا لأنه كان يجيد الإنجليزية، ومتزوجًا من سيدة أجنبية شبه إنجليزية ظريفة الحديث، عرف أن السير مايلز لامبسون كان يرتاح لها، وبذلك أصبح أمين عثمان موضع رعاية السير مايلز لامبسون، وأصبح شبه ضابط اتصال بين السير مايلز والنحاس باشا رئيس وفد المفاوضين».

(١٨٤)

وهو ينفرد بالإشارة إلى وقوع الجنرال ريتش فى غرام إحدى السيدات المصريات مما أثر على أدائه فى قيادة قوات الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية:

«بدل الإنجليز قيادتهم وجاءوا بالجنرال مونتجمرى بدلاً من الجنرال ريتش، الذى قيل إنه كانت بينه وبين إحدى السيدات المصريات علاقة غرام مشبوبة أنسته واجبه العسكرى، وقد استطاع القائد الجديد والإمدادات الأمريكية الهائلة من دبابات وطائرات ومدافع ومدرعات وعربات مصفحة، تقابلها فى الجانب الألمانى عجز واضح فى كل المعدات الحربية، وخاصة البترول، مما رجح كفة الإنجليز وحلفائهم، وتحولت المعركة تحولاً ظاهراً لمصلحة الإنجليز رغم مقاومة القوات الألمانية الضارية، وانسحب القائد الألمانى بقواته إلى الأراضى الليبية حتى التقى فى تونس بالقيادة الألمانية الموجودة هناك، وقد عد انسحاب القائد الألمانى من العلمين حتى حدود تونس معجزة عسكرية (تضاف إلى) مفاخره السابقة، ووصفه المعلقون العسكريون بأنه انتصار رغم كونه انسحابا!!».

* * *

الباب الثانى

حياتى ..
مذكرات سيد محمد باشا

(١)

يتضمن هذا الكتاب كثيراً من الأسرار الخطيرة، ووجهات النظر المتفردة، والانفرادات التى لم ترد فى غيره من المذكرات، وهو من أهم وأخطر كتب المذكرات التى نشرت فى مصر. ومن العجيب أن هذه الطبعة الكاملة التى بين أيدينا صدرت فى كتاب عام ٢٠٠٣ بعد وفاة صاحبها بسنوات تفوق العشرين، وبعد مضى أكثر من ثمانين عامًا على أهم الأحداث التى تناولتها هذه المذكرات، وبهذا يبدو الكتاب نموذجًا مثاليًا للمذكرات التى لا تخرج إلى النور إلا بعد وفاة كل مَنْ مستهم بالتعليق، أو النقد، أو حتى الثناء.

وسوف نتناول فى كتابنا هذا معظم ما ورد فى هذا الكتاب من أحداث وذكريات، واعدين القارئ أن نتناول الجزء الآخر من الكتاب فى إطار الحديث عن مذكرات المدرسين ورجال التربية والتعليم حتى تكتمل الفائدة مما احتوته هذه المذكرات الدسمة من تفصيلات عميقة فيما يتعلق بنظمنا التربوية، وبتاريخنا التربوى كذلك، وبتاريخ أجهزة ومسئولى التربية والتعليم فى مصر على مدى حقبة طويلة، وهكذا فإننا لن نتناول فى هذا الباب كل ما فى كتاب المذكرات هذا الذى بين أيدينا، وسنؤجل الحديث عن كثير من الذكريات التربوية إلى موضع آخر، وإن كانت طبيعة مدارستنا ستجعلنا نلجأ إلى مدارسة بعض الأحاديث والأحداث التربوية فى الكتاب ضمن مدارسة موضوعات أخرى أعمق منها وأعرض، ولا تستقيم مدارستها بدون التعرض إلى ما يرويه صاحب المذكرات هنا أو هناك.

(٢)

توفى سيد محمد باشا يوم ٢٧ أبريل ١٩٨٢، أى عقب عودة سيناء فى ٢٥ يناير

١٩٨٢ ، وكانت وفاته فى ذلك التاريخ تعبيراً عن الإكرام الذى شاء الله أن يكرّم به حياته حين استمرت هذه الحياة وطالت حتى رأى وطنه يتحرر ترابه تمامًا ، وهو الذى وهب حياته مرة بعد أخرى من أجل تحرير هذا التراب الوطنى ، وقد كتبت ابنته الثالثة «فضيلة» مقدمة قصيرة لمذكراته مشيرة إلى هذا المعنى ، ومشيرة إلى أن أباها قد أوصاها بنشر هذا الكتاب ، وأنها عملت من أجل الوفاء بهذه الوصية ، وإن لم تستطع نشر المذكرات إلا بعد أكثر من عشرين عامًا على وفاته .

وقد كتب سيد محمد باشا الجزء الأكبر من هذه المذكرات ، كما هو ثابت فى تقديمه لها ، قبل وفاته باثنى عشر عامًا ، وقد حدد تاريخ كتابته للمقدمة فى أول سطر منها ، وفى ذلك التاريخ ١٩٧٠ كان كثيرون ممن ورد ذكرهم فى المذكرات لايزالون على قيد الحياة ، ومن الواضح أن سيد محمد باشا قد عاد وألحق بمذكراته جزءًا أو أجزاء عبّر فيها عن بعض الأحداث التى وقعت بعد كتابته للمذكرات (فى ١٩٧٠) ، وهكذا تضمنت المذكرات بعض التعبير عن مشاعره تجاه انتصار أكتوبر ، وتجاه حكمة السادات التى مكنته من هذا الانتصار .

كان سيد باشا من أوائل المصريين الذين حصلوا على شهاداتهم العليا من إيطاليا ، وكان نظام التعليم الإيطالى فى ذلك الوقت يسمى الدرجة الجامعية الأولى بالدكتوراه ، ويجعل من ضمن مسوغاتها بحثًا شبيهًا برسالة الدكتوراه ، وهكذا يتصور بعض الناس ، ومنهم سيد باشا نفسه ، أنه أتم درجة الدكتوراه مباشرة دون أن يمر بمرحلة البكالوريوس ! !

(٣)

وينبهنا سيد محمد باشا إلى وعيه التام لما قد تجلبه المذكرات عليه من غضب ، وهو يعتذر سلفًا إذا جاء رأيه مخالفًا لرأى آخر أو عقيدة ، ولا يقطع بالصواب فيما يرويه وإنما يعترف باحتمال الخطأ . . . و هكذا يعبر سيد باشا بحب شديد عن كثير من هذه المعانى فيقول فى «تقديم» وضعه قبل المقدمة :

«إن ما أكتبه هنا أكتبه للحقيقة والتاريخ ، ولا أقصد مما أكتبه ولا أبغى من ورائه شيئًا ، وأشهد الله أنى أكتب هذا متوخيًا الصدق بكل معانيه ، وملتزمًا الأمانة

والصراحة الكاملتين، وقد يغضب بعض الناس مما كتبت ويسر آخرون، فمعذرة لمن غضب لاسيما إذا كان غضبه يرجع إلى مخالفة فى الرأى أو العقيدة، فقد أكون أنا مخطئًا فى بعض تقديراتى، وحسبى أنى حسن النية فى تقديرى واعتقادى».

«وقد يتطلب الأمر فى بعض الأحيان إبراز بعض المستندات أو الإشارة إلى مكان وجودها للتدليل على صدق ما أقول، وقد كانت لدى كل المستندات التى تؤيد كل كلمة كتبتها، ولكن لتعدد مرات تفتيش مسكنى وأخذ ما كان يوجد عندى من أوراق ومستندات واحتفاظ السلطات بها، وتمسكها بعدم رد أى شىء منها حتى بعد انتهاء التحقيق، هذا جعلنى أفقد ما كان لدى من مستندات، ولكنى كما ذكرت آنفًا أكتب للتاريخ معتمدًا على ذاكرتى، ومتوخيًا الصدق والأمانة والصراحة، والله على ما أقول شهيد».

«وأعتذر مقدمًا عما قد يحدث من خطأ فى التواريخ إذا لم تسعفنى ذاكرتى على أن أذكرها صحيحة، ولكنى مطمئن كل الاطمئنان لصحة الوقائع».

(٤)

ويتحدث سيد باشا عن قيمة امتداد العمر فى حماية صاحبه من الخوف من قول الحقيقة، كما يتحدث عن الدافع النبيل الذى سيطر على حياته كلها، وهو الجهاد من أجل الحق والفدائية فى سبيل هذا الحق، وهى فدائية العمل الجاد والتفانى فيه حتى لو أدى هذا إلى فقدان حياته هو، وهو يظهر ألمه من التزوير والادعاءات الكاذبة التى تطرقت إلى تاريخ ثورة ١٩١٩ فيقول:

«... وببلوغ (هذه) السن ليس للإنسان أن يؤمل فى إطالة عمره، بل من الطبيعى أن يفكر فى نهايته طبقًا لسنّة الطبيعة، ولا يدرى إلا الله الوقت الذى ستنتهى عنده حياتى، فقد يكون ذلك بعد ساعة من الآن، وقد يكون بعد يوم، أو بعد أسبوع، أو شهر، أو سنة، أو أكثر، فعلم ذلك كما قدمت عند الله وحده، وإلى أن يتم ما فى علم الله بشأن نهاية حياتى، فإنى سأبدأ من اليوم فى كتابة تاريخ حياتى، أسرد فيه نشأتى وتعليمى وأعمالى واتجاهاتى وميولى وعقائدى وكل ما مرّ بى من أحداث ووقائع

وأخبار ومعلومات، ومن شدة ورخاء، وتوفيق وإخفاق، ورضاء وغضب، ونحو ذلك مما يمر ويرى فى حياة كل إنسان، وأترك كل هذا للتاريخ وأولادى لعلهم يجدون فيه من حوادث وعبر قد تفيدهم فى حياتهم، والله خير مرشد ومعين».

«والواقع أنه لم يكن لدى أية نية لكتابة تاريخ حياتى أو أى شىء عنها، لأنى لست من الأبطال، ولا من العظماء حتى يكون لى تاريخ حياة، ولكن إلحاح الكثيرين من الأصدقاء والأحباب والمعارف علىّ لكتابة مذكرات عما شاهدته أو اشتركت فيه من حوادث ثورة ١٩١٩ وما بعدها خدمة للتاريخ وللحقيقة، ولاسيما بعد أن تبين أنه أدخل على تاريخ مصر فى ثورة سنة ١٩١٩ كثير من التزوير والادعاءات الكاذبة، كل ذلك قد شجعنى على الكتابة، وكان الأحرى أن أقول إنها بقلم مجاهد لأن الواقع أن أعمالى وأفكارى وميولى واتجاهاتى كانت كلها جهاداً فى سبيل إنصاف المعلمين، وفى سبيل بناء المواطن المصرى الصالح، وإبراز شخصيته، والمحافظة على كرامته، والدفاع عن أى حق سلب من صاحبه أو ضُن به عليه، وإن فدائيتى لم تكن فدائية الرغبة فى القتل وإزهاق الأرواح، ولكنها فدائية العمل الجاد، والتفانى فيه للوصول إلى الهدف ولو أدى ذلك إلى التضحية بكل ما أملك من قوة ومال، وحتى بالحياة نفسها، ولما كان عملى الفدائى فى ثورة سنة ١٩١٩ ينبئ عن هذه المعانى كلها، فقد آثرت أن يكون العنوان بقلم فدائى من فدائى سنة ١٩١٩، والله الموفق للصواب».

(٥)

يجاهر سيد باشا برأيه فى أن الفدائية وحدها هى سبب نجاح ثورة ١٩١٩، ويقدم أسانيده القوية على ما يقول:

«لا أريد بالحديث عن فدائية ثورة سنة ١٩١٩ وذكر ما أذكره عن تأسيسها وأعمالها فى قصة حياتى مع وطنى، أن أظهر لنفسى أو لأحد غيرى من زملائى فضلاً نمتن به على وطننا، أو أنسب لنفسى أو لأحد من زملائى بطولات نباهى بها أجيال المصريين، ولكنى أتحدث عن فدائية سنة ١٩١٩ لأمد تاريخ مصر بحكايات ومغامرات جرت فى مصرنا وهى تجاهد وتناضل من أجل حريتها وتمسكها بمبدأ (مصر للمصريين)، ولا أقصد بذلك شخصى فحسب، بل أقصد به أيضًا هؤلاء الزملاء الذين جاوروا ربهم

قبل أن يتيح لهم أن يحكوا قصصهم، وهى قصص لأفراد جماعة تكونت تكوينًا منظمًا غاية فى البساطة، تكونت فى هدوء وبدون دعاية أو إعلام، وقام كل فرد من أفرادها بما فرض عليه لا لغاية إلا لصالح وطنه، ولهذه البساطة وهذا الإخلاص كانت نتائج أعمالها مثمرة وقوية غاية فى القوة، وفى هذه البساطة وهذا الإخلاص كان السر الذى حيّر رجال الأمن الإنجليز والمصريين «المتأنجليزيين» وعماهم عن الوصول إلى أحد من أفراد هذه الجماعة زهاء خمس سنوات، حتى كان الغدر وكانت الكارثة».

«ويجب التنويه بأن التكوين الفدائى فى سنة ١٩١٩ لم يكن امتدادًا للتكوينات الفدائية التى سبق تكوينها فى مصر سنتى ١٩٠٩ و١٩١٩، وإنما التكوين الفدائى لثورة ١٩١٩ كون نفسه بنفسه، من: يوسف السيد العبد، وأحمد عبد الحى كيرة، وسيد محمد باشا، ومَنْ ضموهم إليهم وهم: محمد عثمان الطوبجى، وأحمد جاد الله، وإبراهيم موسى، ومحمد فهمى على، وعلى محمد، وراغب حسن، ثم مَنْ كانوا ينضمون إليهم فى كل عملية».

«وليس صحيحًا على الإطلاق ما كتبه الأستاذ مصطفى أمين عندما ورطنى بلباقته الصحفية واستكتبنى ما يفيد بأن والده المرحوم الأستاذ أمين يوسف هو الذى أدخلنى الجهاز السرى، فلم أكن، وأنا أحد مؤسسى هذه الجماعة، بحاجة إلى مَنْ يدخلنى فى جهاز سرى، فضلاً عن أنه لم يكن للأستاذ أمين يوسف أية صلة بالجهاز السرى الفدائى، وربما قصد الأستاذ مصطفى أمين الجهاز السرى الذى كان يتولاه عبد الرحمن بك فهمى للمنشورات والمخابرات، وعبد الرحمن بك فهمى لم يكن له أية صلة أو معرفة بجماعة فدائيى ثورة ١٩١٩».

(٦)

ويصل سيد باشا إلى الشكوى من أن تصور بعض الشخصيات التاريخية دورا لها فى الحركة الوطنية بينما لم يقدر لها فى الواقع أن تلعب هذا الدور:

«. . . كما أنه يجب التنويه أيضًا بأن فدائى ١٩١٩ لم يتصلوا فى مجال التعارف، وليس فى مجال العمل بفدائيى الفترات السابقة، إلا بعد أن تولى الوفد الحكم فى سنة

١٩٢٤ ، ومن المؤسف أن تكون المرة الوحيدة التى اشترك فيها بعض أفراد من فدائيى ١٩١٩ مكرهين مع بعض أفراد من فدائيى الفترات السابقة فى عمل كان اشتراكًا مبنيًا على غش وخداع لخدمة مصالح ومآرب شخصية ، فكانت نتيجة ذلك العمل وبالاً على مصر وعلى فدائيى سنة ١٩١٩» .

«وإنى أقولها عالية وبعقيدة راسخة : إن العمل الفدائى فى ثورة ١٩١٩ الذى كانوا يسمونه بالاغتيالات السياسية ، هو الذى أجبر الإنجليز لإعلان رفع حمايتهم عن مصر ، ومن ثم استقلال مصر ، وإن كان استقلالاً مشوبًا ببعض التحفظات التى تحفظت بها إنجلترا ، تلك التحفظات التى تضاءلت بالتدريج شيئًا فشيئًا إلى أن أصبحت لا شىء ، وانجلت القوات الإنجليزية عن أرض مصر فى الوقت الذى كانت حددته معاهدة سنة ١٩٣٦ أو قبله ببضعة أشهر» .

. . . .

«إنه العمل الخفى . . إنه النار التى تحت الرماد . . إنه فقد عشرات ، بل مئات الجنود وصغار الضباط الإنجليز الذين يخرجون من معسكراتهم للنزهة والسهر ولا يعودون إلى معسكراتهم ، ثم يعثر على جثثهم فى أحضان جبل المقطم قريبًا من حى الدراسة ، أو فى المنخفض المجاور الذى كان يسمى بمستشفى الحوض المرصود بجهة بركة الفيل بحى السيدة زينب . إنه قتل كبار الضباط والشخصيات الإنجليزية الذين يصرعون فى وضح النهار بشوارع القاهرة وضواحيها ، ولا يُعرف مَنْ هم القاتلون . إنه التنظيم المحكم ، والتعاون المثمر بين طلبة مصر وعمالها . إن كل هذا هو الذى أقلق راحة السلطات الإنجليزية والجالية الإنجليزية فى مصر ، واضطرت إنجلترا لأن تعلن من جانبها رفع حمايتها عن مصر حتى تخف وطأة النار المتقدة تحت الرماد . إنها نار محصورة فى رقعة ضعيفة ولكنها نار قوية فى غاية القوة ، تستمد قوتها من إيمان مَنْ يوقدونها بقداسة عملهم لخلاص وطنهم من المستعمر الغاصب» .

(٧)

ويقدم سيد باشا وصفا دقيقا لفلسفة الفدائيين فى عملهم السرى ، وهو وصف ينطق بالوعى الذى كان صاحب المذكرات يتميز به ، سواء أكان هذا الوعى سابقا على

الأعمال الفدائية، أم كان لاحقا لها، لكننا نحس من عبارات الرجل وألفاظه أن هذه كانت فلسفة حاكمة لمجموعتهم:

«وقد تعمد الفدائيون أن تكون رقعة نارهم ضيقة حتى لا تتعرض لرؤية أعين كثيرة، ومن كثرة الأعين التى تراها يكثر احتمال إصابتها بإحدى هذه الأعين، ولذا تكونت جماعة الفدائيين من أربع حلقات، حلقة رئيسة تتفرع منها حلقتان، ومن إحدى الحلقتين الفرعيتين يتفرع حلقة فرعية أخرى، وبهذا التكوين المتواضع ظلت مجموعة الفدائيين تمارس عملها من أوائل شهر مايو سنة ١٩١٩ حتى يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ حيث كانت الكارثة التى نسفتها وهى حادثة مقتل السردار سير لى ستاك».

ولست أدرى سببًا عميقًا لحرص سيد باشا على نفى علاقة مجموعته بالجهاز السرى لثورة ١٩١٩ بقيادة عبد الرحمن فهمى، لكننى ألاحظ حرصه على أن يكرر هذا النفى فى أكثر من موضع، وإن لم ينف وجود علاقات سريعة أو سطحية، لكن هذه العلاقات كانت بلاشك سندا لأى قطاع بوليسى فى إثبات انتماء سيد باشا أو غيره للجهاز السرى:

«ولم تتشرف جماعة فدائيى سنة ١٩١٩ بأن تكون ضمن ما سُمى بالجهاز السرى الذى أسندت رياسته إلى المرحوم عبد الرحمن بك فهمى، ولم يكن عبد الرحمن بك فهمى يعرف عنى أكثر من أننى المشرف على طبع المنشورات فحسب، ولم تخرج مهمة عبد الرحمن بك فهمى عن صرف المبالغ اللازمة لطبع المنشورات وتنظيم المظاهرات ثم جمع المعلومات عمن يعملون ضد الثورة، فكان يعتبر رئيس قلم مخابرات الوفد المصرى ويشغل وظيفة سكرتير لجنة الوفد المركزية».

. . . .

(٨)

يحرص سيد باشا على أن ينفى خضوع جماعته لقيادة وفدية من التى صورت مسئولة عن النشاط السرى فى ثورة ١٩١٩، وإن لم ينف أيضًا وجود بعض العلاقات السريعة:

«كما أن جماعة فدائى سنة ١٩١٩ لم تتشرف بأن يكون لها مجلس أعلى يوجهها ويصدر لها القرارات، بل إنها كانت تعمل بوحى من شعورها، وبرؤيتها لمجرى الحوادث والظروف المحيطة بالحركة الوطنية، ولم يتصل أحد من جماعة الفدائيين بالمرحومين محمود فهمى النقراشى، أو أحمد ماهر، أو عبد اللطيف الصوفانى، أو لجأ إلى أحد منهم إلا عندما كانت الجماعة تحتاج فى بعض الأحيان إلى نقود لشراء أسلحة أو ذخيرة، وكان هذا اللجوء قليلاً جدًا، والمبالغ التى كنا نحتاج إليها كانت لا تزيد على عشرين أو ثلاثين جنيهًا فى كل مرة، وقد لا يزيد مجموع ما أخذته الجماعة (على) مائة جنيه، حيث كنا ندفع ثمن كثير من احتياجاتنا من جيوبنا الخاصة، كما أنه فى المدة التى قضيتها فى إيطاليا كنت أدفع ثمن المسدسات والذخيرة التى أرسلها ليوسف العبد من مالى الخاص».

(٩)

وبعد كل هذا النفى المستغرق فإنه يحرص على الإثبات المستوعب مقرراً مسئوليته التامة عن كل القنابل التي ألقيت منذ مايو ١٩١٩ وحتى ١٩٢٣، وهو يدلل على صدق منطقه بتوقف حركة إلقاء القنابل بعد سفر أحمد عبد الحى كيرة:

«وإنى أقر للحقيقة والتاريخ، وإنصافًا لنفسى، أن القنابل التى صنعت وألقيت على الوزراء المصريين والمنشآت والمجمعات العسكرية الإنجليزية فى الفترة من مايو ١٩١٩ لغاية سنة ١٩٢٣ كانت كلها من تصميمى وصنع جماعتنا، وألقاها أفراد من جماعتنا، ومن المتصلين بنا، ومات أحدهم (أحمد توفيق) لأنه لم يحسن حمل القنبلة وهو ينقلها، وحكم على آخر (إبراهيم مسعود) بالإعدام وأعدم لأن توفيق نسيم الذى ألقيت عليه القنبلة لم يطلب فى شهادته الرأفة له للدوافع التى دفعته إلى إلقاء القنبلة».

«والذى قام بإدارة هذه العمليات، إلقاء القنابل على المصريين، وتوجيهها كلها هو الفدائى أحمد عبد الحى كيرة، مستعينا بالطلبة والشبان المصريين، والدليل القاطع على صدق ما أقول هو أن حركة إلقاء القنابل على الوزراء المصريين المتعاونين مع الإنجليز قد توقفت بعدما اختفى أحمد عبد الحى عضو الجماعة الذى كان مكلفًا بمتابعة نشاط

هذه الحركة، وقد اختفى أحمد عبد الحى لسفره إلى إيطاليا عندما تحقق من أنه سيقبض عليه لاتهامه بالاشتراك فى محاولة لإلقاء قنبلة على عبد الخالق ثروت باشا فى يناير سنة ١٩٢٢».

كذلك يقرر سيد باشا أن ثلاثتهم هم الذين قادوا كل هذه العمليات الفدائية، ومع ما فى هذا التقرير من نفى لدور جماعة التضامن الأخوى ودور الأخوين عنايت وغيرهما، وإننا لا نستطيع أن نثبت تجنى سيد باشا فى حكمه على الأدوار بمثل هذا الحكم إذا كان كل شىء قد خرج من تحت يديه:

«وما يجب أن أقرره أيضًا للحقيقة والتاريخ هو أن الذين أطلقوا الرصاص على كبار الضباط والشخصيات الإنجليزية كانوا كلهم من العمال الفدائيين المتصلين بالفدائى سيد محمد باشا وزميله من بعده يوسف السيد العبد. كان الثلاثة أحمد، ويوسف، وسيد (باشا) هم نواة الحركة الفدائية فى ثورة سنة ١٩١٩، ومديروها، ومحور نشاطها، وقد أسسوا العمل الفدائى من تلقاء أنفسهم، وبدافع من شعورهم بأن الخطب والمنشورات وغيرها من الدعايات السياسية لا تحقق لشعب مصر مطلبه، وهو رفع الحماية الإنجليزية عن مصر، وإنما الإرهاب بالقنابل والقتل بالرصاص، هما أفعل الوسائل لحمل الإنجليز على الجلاء عن مصر».

. . . .

ربما كان من المفيد هنا أن نكرر نقل عبارات سيد باشا التى يقول فيها:

«إنه العمل الخفى.. إنه النار التى تحت الرماد.. إنه فقد عشرات، بل مئات الجنود وصغار الضباط الإنجليز الذين يخرجون من معسكراتهم للنزهة والسهر ولا يعودون إلى معسكراتهم، ثم يعثر على جثثهم فى أحضان جبل المقطم قريبًا من حى الدراسة.

(١٠)

ويكون سيد باشا رأيه ذا القيمة فى أهمية العمل الفدائى فى ثورة ١٩١٩، وأنه سبب نجاح الثورة مقدمًا فهمًا تاريخيًا عميقًا يعز وجوده حتى بين كثير من المؤرخين الذين تضغط الأيديولوجية على أحكامهم:

«وأقولها صريحة وصادقة، إننا قد نجحنا فى مهمتنا، وإن مَنْ يقولون إن ثورة سنة ١٩١٩ قد فشلت، هم متجنون على الثورة، فثورة ليس وراءها سند من قوة عسكرية، وتقاوم جاه إمبراطورية لها فى مصر جيش مسلح قوامه ٨٠ ألف جندى، وتصل إلى ما وصلت إليه الثورة الشعبية التى اندلعت فى ٩ مارس ١٩١٩ ووصلت فى ١٩٣٦ إلى انحسار الجيش الإنجليزى المحتل فى منطقة قنال السويس وتوطئة لجلائه نهائيًا عن مصر فى ١٩٥٦، فثورة، هذا هو عملها ونتائجه، لا يمكن أن يقال عنها إنها ثورة فاشلة. إننا لا نقول هذا زهوًا أو غرورًا، أو انتظارًا لجزاء على ما قمنا به من أعمال، أو خضناه من مغامرات، أو قدمناه من تضحيات، أو تحملناه من أذى، أو تعرضنا له من محاربات فى أعمالنا وأرزاقنا، وإنما نقوله للحقيقة والتاريخ، وللرد على المغالطين المتجنين على الحقائق، وعلى التاريخ».

«نقوله تمسكًا بمبدأ الفدائية، وهو الصدق فى القول، والإخلاص فى العمل، وإنكار الذات، والبعد عن مواقع تسلط الأضواء».

(١١)

يتحدث سيد محمد باشا حديثًا صريحًا عن بدايات اهتماماته بالسياسة فيشير إلى الدور البارز الذى لعبه نادى المدارس العليا فى تنمية وعى الشباب المصرى بقضايا الوطن أيًا ما كانت دوافعهم الأمنية إلى الاشتباك مع هذه القضايا والتفاعل معها، وعلى سبيل المثال فإنه فى الوقت الذى بدأ وعى سيد باشا بأحاديث السياسة فى ذلك النادى كانت القضية تتمثل فى الصراع بين الجيشين التركى والبريطانى عند حدود سيناء.

وهو يتحدث عن إحساسه المتنامى بمساوئ الإنجليز ضاربًا مثلاً بأسلوبهم فى اختيار المدرسين فى مدرسة المعلمين العليا وحرصهم على «نجلزة» التعليم:

«. . . اشتركت فى نادى المدارس العليا وأخذت أتردد عليه فى الفترات التى يسمح لى وقتى، وكانت أحاديث الشبان تدور حول أمل المصريين فى أن يتغلب الجيش التركى عند حدود سيناء على الجيوش الإنجليزية التى كانت تضم إنجلترا وهنود

وأستراليين، وعند ذلك تقوم الثورة فى مصر ليقضى على الجيش الإنجليزى المحتل، وتطرد الإنجليز من مصر، وكنت أشعر بشىء من الراحة واطمئنان النفس عندما أتخيل خروج آخر جندى إنجليزى من مصر».

«... وبهذه المناسبة أقول إنى لم أكن أدرك تمامًا ضخامة مساوئ أعمال الإنجليز فى مصر، أو بالأحرى مساوئ الاستعمار قبل أن أشترك فى نادى المدارس العليا، وكل ما كنت أشعر به نحو الإنجليز هو بغضى لوجودهم فى مصر بسبب ما لمسته بنفسى: وهو أخذ العمال المصريين بالقوة للخدمة فى الجيش الإنجليزى بوصفهم متطوعين، وكذلك الاستيلاء على المحاصيل الزراعية وغذاء المواشى ثم المواشى نفسها لاستغلالها لصالح الجيوش الإنجليزية التى تحارب الجيش التركى على حدود مصر الشرقية، وذلك لأنه لم يسبق لى أن سمعت أحدًا من المدرسة أو فى القرية يتحدث عن مساوئ الاستعمار».

«ولما التحقت بمدرسة المعلمين ووجدت أن مواد الدراسة تدرس لنا كلها باللغة الإنجليزية، ويقوم بتدريسها مدرسون إنجليز، حتى مادة الرياضيات التى كانت تدرس لنا باللغة العربية كان يدرسها لنا مدرسون إنجليز، فقلت فى نفسى: «يا للهول ألهذا الحد يضيّق الإنجليز على المصريين ويقفون فى طريقهم، ألا يوجد من المصريين مَنْ يمكنه أن يدرس لنا الرياضيات؟ واتسعت أمام عينيّ الرؤيا لأضرار الاستعمار، ومظالم المستعمر».

(١٢)

ويشير سيد باشا إلى بداية علاقته بأقطاب الحزب الوطنى (القديم) دون أن يشير إلى اسم الحزب الوطنى نفسه، وكأنه يريد [أو يتعمد] أن يصور علاقته بهؤلاء فى إطار زعامتهم لمنتدياتهم لا فى إطار انتمائهم للحزب الوطنى:

«... عرفت أن هناك منتديات سياسية أخرى كمنزل المرحوم عبد اللطيف الصوفانى بالحلمية الجديدة، وعيادة الدكتور إسماعيل صدقى بميدان الأوبرا، ودور بعض الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية كجريدتى «اللواء» و«المؤيد»، وأيضًا جريدة «الجريدة»، ومجلة «السفور» ونحوها، فأخذت أتردد على هذه المنتديات فى

أوقات فراغى، وأشترك فيما يجرى فيها من أحاديث ومناقشات فزاد إدراكى وفهمى لحقيقة الاستعمار ومراميه، وارتفعت درجة حماسى لضرورة التخلص من الاستعمار، والرغبة فى أن تحصل مصرنا العزيزة على استقلالها وحريتها، وعاهدت نفسى على أن أعمل فى هذا الاتجاه بكل ما أمتلك مهما كلفنى ذلك من تضحيات من أى نوع كانت، وكان من نتيجة ترددى على المنتديات السياسة أن تعرفت بالمرحوم عبد اللطيف الصوفانى أحد أعضاء الحزب الوطنى فى ذلك الوقت، وأعجبتنى ميوله وروحه الوطنية الصادقة المخلصة، فتصادقنا وداومت على التردد عليه فى منزله، كما داومت على حضور الندوات والجلسات التى كانت تعقد عنده».

(١٣)

يتحدث سيد محمد باشا حديثًا دقيقًا عن طبيعة المعارضة التى لقيها الوفد المصرى عند بداية تكوينه، وكيف أنها كانت محدودة جدًا وهو يحقق مسألة مهمة، وهى أن المعارضة التى نسبت إلى الحزب الوطنى لم تكن صادرة عن أعضاء الحزب البارزين، وإنما عن بعض أعضاء لجنته التنفيذية فقط، بينما أن المكباتى والنحاس وحافظ عفيفى وعلى ماهر كانوا مؤيدين (وهو يستثنى أستاذه عبد اللطيف الصوفانى الذى لم يبد رأيه صراحة على حد تعبير سيد باشا).

ويشير سيد باشا إلى دوره هو نفسه ضمن مجموعة الشباب فى إيقاف حركة الحزب الذى كان يتزعمه الشريعى، وإن كان يعتقد أن اسم الحزب «حزب الأمة»، بينما هو الحزب «المستقل الحر» فى رواية إبراهيم عبد الهادى:

«اتسع نشاط الوفد السياسى حتى عم جميع أنحاء القطر، وشذ عن إجماع الشعب هيئتان هما اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى برئاسة أحمد بك لطفى، ثم جماعة كانوا يطلقون على أنفسهم اسم «حزب الأمة» بزعامة محمد الشريعى باشا، وأصدرت اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى بيانًا هاجمت فيه سعد باشا وتوكيل الأمة للوفد، وقالت اللجنة فى بيانها: إن التوكيل لا يفوض للوفد مفاوضة الإنجليز إلا بعد جلائهم عن مصر وملحقاتها، والواقع أن هذا الرأى كان شيئًا غير عملى، ولم يوافق عليه

أغلب رجال الحزب الوطنى وشبابه، وكنت من شباب الحزب الوطنى (الذين) لم يوافقوا على هذا الرأى».

«ولم يوافق عليه من رجال الحزب الوطنى الأعضاء البارزون كعبد اللطيف المكباتى بك، ومصطفى النحاس بك، وحافظ عفيفى بك، وعلى ماهر وغيرهم، بل لم يوافق عليه عبد اللطيف الصوفانى بك، ولو أنه أحد أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى، ولكنه لم يعلن رأيه إعلانًا صريحًا».

«ومن أجل ذلك فإنى أقول إن الذين (شذوا) عن إجماع الشعب هم أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى، وليس الحزب نفسه، وقد ذهبت أنا وبعض زملائى إلى عيادة الدكتور إسماعيل صدقى لمناقشة أعضاء اللجنة التنفيذية فى موقفهم هذا، ولم نقتنع بما أبدوه من مبررات لموقفهم، بل لاحظنا أنها مسألة تنافس على زعامة الحركة الوطنية».

«أما جماعة حزب الأمة [لعله يقصد: المستقل الحر] فكنا نعلم أنهم مجرد صنائع لتأييد وجهة النظر الإنجليزية، فذهبنا إليهم وهددناهم بالاعتداء عليهم بكل الوسائل إذا هم لم يتواروا ولا يعترضوا أى طريق للحركة الوطنية، فلم يظهر لهم بعد ذلك أى نشاط».

(١٤)

يقدم سيد محمد باشا رواية متميزة ومختصرة لأحداث الثورة فى ١٩١٩ ودور الطلبة فيها، ومع أن هذه الرواية قد تختلف فى بعض جزئياتها مع روايات كثيرة أخرى نقلناها عن إبراهيم عبد الهادى وعريان يوسف سعد وغيرهما، فإنها تمثل اختلافات من زوايا الرؤية التى قدر لأصحابها أن يروا الأحداث من خلالها، ومن الطريف أن سيد باشا ينسب تأليف نشيد «إحنا التلامذة» الشهير إلى الدكتور محمود الحفنى:

«... وفى صباح يوم الأحد ٩ مارس ١٩١٩ أذيع خبر القبض على سعد باشا وزملائه ونفيهم إلى جزيرة مالطة، وما كاد النبأ يذاع حتى أضرب طلبة المدارس العليا عن تلقى الدروس، وخرجوا مبتدئين من مدرسة الحقوق فى مظاهرة تطوف بالشوارع وتهتف بحياة مصر وحياة الوفد المصرى وحياة سعد باشا وسقوط الإنجليز والحماية

الإنجليزية، وكنت فى مقدمة طلبة مدرسة المعلمين العليا، وتصدى رجال البوليس بقيادة الضابط الإنجليزى آرثر بصفته وكيلاً لحكمدار بوليس القاهرة للمتظاهرين فى محاولة لإيقاف المظاهرات، ولكن لم يفلح رجال البوليس فى إيقاف المظاهرات بالرغم من أنهم قبضوا على أكثر من ٣٠٠ طالب وساقوهم إلى سجن المحافظة بباب الخلق، وفى أثناء الليل نقلوا إلى معتقلات بالقلعة، وكان الطلبة يرددون النشيد الذى ألفه الطالب محمود الحفنى والذى مطلعه:

يا عـــم حمـــزة إحنـــا التـلامـــذة   ما يهمناش فى القلعة نبات ولا المحافظة

واخدين على العيش الحاف والنوم من غير لحاف   متبعيــن نـــاس وطنيين إحنا التلامـذة

«وفى اليوم التالى ١٠ مارس، استؤنفت المظاهرات واشترك فيها طلبة المدارس العليا والأزهر وطلبة المدارس الثانوية، وانضم إلى المظاهرات بعض الأهالى، وسار الجميع بقوة وحماس يطوفون شوارع القاهرة هاتفين بحياة مصر وحريتها وحياة الوفد المصرى ممثل الأمة، وحياة سعد باشا رئيس الوفد المصرى ممثل الأمة، ومرت المظاهرات بدور السفارات الأجنبية معلنة غضبها على تصرف الإنجليز، ومحتجة على اعتقال سعد باشا وصحبه، وتصدى البوليس للمتظاهرين بقوات كبيرة، كما نزلت دوريات من الجيش الإنجليزى لحراسة دور الحكومة، واشتدت مقاومة المتظاهرين للبوليس فقذفوا رجاله بالحجارة، وضربوهم بفروع الأشجار التى كان ينتزعها المتظاهرون من أشجار الشوارع».

. . . .

وينفرد سيد باشا بالإشارة إلى محاولات المتظاهرين شق بطن خيول السلطة بأمواس الحلاقة، كما يواجه سيد باشا الواقع بصراحة ويعترف بأن أعمال شغب قد اقتحمت المظاهرات على يد بعض المندسين الذين حطموا عربات الترام:

«وفى بعض الأحيان كان المتظاهرون يقتحمون محال الحلاقين ويأتون بأمواس الحلاقة ليشقوا بها بطون الخيول التى يركبها فرسان البوليس وهم يقتحمون جموع المتظاهرين ويطلقون الرصاص عليهم، وأصابوا بعضهم، واستشهد أحد المتظاهرين فى ذلك اليوم، إلا أنه مع الأسف الشديد قد صدر من بعض الأهالى الذين انضموا إلى

مظاهرات الطلبة تصرفات لم يوافق عليها الطلبة، حيث انقض بعض هؤلاء المندسين فى المظاهرات على عربات الترام فحطموا بعضها، وتعطلت بعض خطوط الترام، كما حطم هؤلاء المندسون المأجورون واجهات بعض المحال التى يملكها الأجانب وكسروا زجاجها، وتيقنا أن حركة المندسين هذه كانت بإيعاز من البوليس تنفيذاً لتعليمات السلطات الإنجليزية».

(١٥)

ويشير سيد باشا إلى أن اليوم الثالث للمظاهرات شهد إضراب المحامين وتعطل المواصلات تمامًا، مما دعا الإنجليز إلى إصدار أوامرهم بمنع المظاهرات، بل بدءوا إطلاق النار بكثرة على المتظاهرين، وهو يشير إلى أسماء زعماء المظاهرات، وإلى الاتفاق على اجتماع يومى فى بيت الأمة أو الأزهر:

«وفى اليوم الثالث اتسعت دائرة الاضطراب بإيعاز وتحريض وتنظيم الطلبة، فأضرب عمال الترام جميعًا، كما أضرب سواقو التاكسى والأتوبيسات، وتعطلت طرق المواصلات تمامًا، وأغلقت المحال التجارية احتجاجًا على تصرف السلطات الإنجليزية، وأضرب المحامون بناء على قرار من نقابتهم، فكان يومًا مشهوداً، ومن ثم أصدرت السلطات الإنجليزية منشوراً بمنع المظاهرات، وأنذرت كل مَنْ يخالف ذلك بالعقاب الشديد ومحاكمته أمام محكمة عسكرية، ونزلت دوريات من الجنود الإنجليزية مسلحة تجوب الشوارع، مزودة بالرشاشات والعربات المصفحة، وكثر إطلاق الرصاص على المتظاهرين فاستشهد فى ذلك اليوم نحو عشرة من المواطنين، ولم يأبه المتظاهرون بالإنذارات ولا بإطلاق الرصاص».

«وفى ذلك اليوم أعلن بين زعماء الطوائف أن يكون إجماع زعماء الطوائف مساء كل يوم فى بيت الأمة، أو فى الأزهر الشريف، وذلك للتشاور فيما يجب عمله لاستمرار المظاهرات وتنظيمها ثم اتخاذ القرارات الخاصة بذلك، على أن تعلن هذه القرارات، وكيفية تنفيذها فى اجتماعات الأزهر، وكان الخطباء الدائمون فى اجتماعات الأزهر هم الشيخان مصطفى القبانى (يقصد: القاياتى، لكن خطأ مطبعيا

قد وقع فى ذكر اسم الرجل العظيم)، ومحمود أبو العيون، والقس مرقص سرجيوس، والطالبان إبراهيم عبد الهادى، ومحمد شكرى كرشة».

(١٦)

ويشير سيد باشا إلى أن تطور الثورة فى اليوم الرابع امتد بها إلى الأقاليم، وعندئذ بدأ قطع خطوط السكك الحديدية، وأسلاك التليفونات والتلغرافات، أما فى القاهرة فقد بدأت الجماهير تتحدى الجنود الإنجليز بعد أن تكاثرت أعداد عمال المصانع المضربين، وهو يشير إلى محاولات ذكية قام بها المتظاهرون لتعطيل حركة الجنود الإنجليز، وإلى قسوة الإنجليز فى إصدار الأحكام بالجلد والسجن وكلاهما معًا، فضلاً عن إطلاق الرصاص على حاملى الرايات:

«كانت المظاهرات حتى اليوم الثالث قاصرة على القاهرة، وفى اليوم الرابع امتدت إلى الأرياف، وبامتدادها إلى الأرياف بدأ قطع السكك الحديدية حتى لا يسافر الجنود الإنجليز إلى الأرياف، كما قطعت سلوك التليفونات والتلغراف فى الوجه البحرى حتى تتعطل الاتصالات الرسمية. كما شملت الإضرابات فى القاهرة عمال المصانع، صغيرها وكبيرها، حيث هجر عمال المصانع، وكانت كلها خاصة، مصانعهم وانضموا إلى المظاهرات واختاروا من بينهم زعماء لهم، وبدت جميع شوارع القاهرة فى ذلك اليوم غاصة بالمتظاهرين الذين كانوا يتحدون الجنود الإنجليز بحفر الخنادق وإقامة المتاريس فى الشوارع ليعطلوا مرورهم ومرور سياراتهم، وتضاعف عدد مَنْ استشهد لكثرة إطلاق الرصاص على المتظاهرين، وصدرت بعض أحكام عسكرية على مَنْ قبض عليهم بالسجن أو بالجلد أو بالعقوبتين معًا، باعتبار أن هؤلاء المقبوض عليهم محرضون على المظاهرات وعلى الإضراب عن العمل، حيث قبض عليهم وهم يسيرون فى المظاهرات حاملين الأعلام واللافتات».

«وقد كان الرصاص يصوب أول ما يصوب إلى حاملى الأعلام واللافتات، فإذا ما سقط حامل علم أو لافتة بادر جاره إلى حمل ما كان يحمل، فكانت الصورة الرائعة، والروح الوطنية فى أوج العلا».

«استمرت المظاهرات واتسع نطاقها يومى ١٣ و١٤ مارس فى القاهرة وغيرها من المدن والأرياف، كما اتسع نطاق قطع خطوط السكك الحديدية ووقفت تمامًا طرق النقل والمواصلات فى جميع المدن والقرى، وبين بعضها البعض، وأصبح استعمال عربات (الكارو) للتنقلات فى شوارع القاهرة شيئًا عاديًا، كما استخدمت المراكب الشراعية للتنقلات بين البلاد وبعضها».

(١٧)

ينفرد سيد محمد باشا بالحديث عن الدور المبكر لمحمد عثمان الطوبجى فى تحريك جموع العمال، وفى الاتصال بعمال العنابر والترسانة من أجل ضمهم لتيار الحركة الوطنية، وكيف ظهر مجهوده هذا فى ١٥مارس، أى قبل مضى أسبوع على بدء الثورة:

«وأثناء وجودنا مساء ذلك اليوم فى بيت الأمة لاحظت من بين زعماء العمال ومن أصحاب المحال التجارية أيضًا الرجل الذى أصنع عنده أحذيتى وهو المرحوم محمد عثمان الطوبجى، فناديته وخرجنا معًا من بيت الأمة متجهين إلى محله بشارع حسن الأكبر، وأخذنا نتحدث عن الحركة الوطنية واتساعها وانضمام كثير من الهيئات والطوائف إليها، وأشدت بموقف العمال الذين هم فى الواقع فى حاجة إلى أجورهم اليومية التى يضحون بها، وقلت يا حبذا لو أن عمال الحكومة وهم عمال العنابر والترسانة حذوا حذو عمال المصانع الخاصة، فقال محمد الطوبجى: إن شاء الله سنضمهم للحركة لأنى أعرف بعض رؤسائهم».

«وفى يوم ١٥ مارس ظهر مجهود محمد عثمان الطوبجى لدى عمال العنابر والترسانة فأضربوا وانضموا إلى المظاهرات، وانضمت إلى الدوريات الإنجليزية وحدات من الجيش المصرى، حيث كانت مقاومة المتظاهرين فى غاية العنف والجرأة، وكثر عدد القتلى والمصابين، ولم يؤثر ذلك فى حماس المتظاهرين».

(١٨)

يتحدث سيد محمد باشا فى مذكراته عن مظاهرة السيدات المصريات فى مسارها حديثًا دقيقًا يدل على ما تميزت به هذه المظاهرات من روح التنظيم، والحرص على النجاح، والواقع أن هذه المظاهرة كانت تعبيراً ذكيًا عن روح شعب قادر على الثورة، وعلى تنظيم أموره فى الوقت نفسه بعيداً عن الصورة التى كان الإنجليز يصورونه فيها:

«. . . وفى ذلك اليوم (١٥ مارس) أعلنت بعض المنظمات النسائية عن عزم السيدات بالقيام بمظاهرة احتجاجًا على قتل الشهداء، ووحشية الجنود الإنجليز».

«وفى المساء عندما اجتمع الطلبة فى بيت الأمة، قررنا اختيار عدد من الطلبة ينضمون إلينا ونشكل مجموعة خاصة للقيام بالمحافظة على سير مظاهرة السيدات وحمايتها من (أى) تدخل غريب عليها».

«سارت مظاهرات السيدات مبتدئة من ميدان الأوبرا فى وقار واحتشام، يحيط بها عدد من الطلبة، وكنت من بينهم، فطافت بشوارع القاهرة الرئيسية فحياها كل مَنْ مرت به من المواطنين، ومرت أثناء سيرها بدور السفارات الأجنبية (يقصد دور المفوضيات أو القنصليات، فقد كانت مصر فى ذلك الوقت تحت الحماية)، وقدمن لكل سفارة (يقصد مفوضية. . .) صورة من احتجاج كتبنه باللغة الفرنسية عبّرن فيه عن سخطهن على تصرفات السلطات الإنجليزية، وعلى وحشية الجنود الإنجليز وإمعانهم فى إطلاق الرصاص على المتظاهرين بدون رؤية، مما تسبب عنه قتل كثير من المواطنين العزل الأبرياء».

«وعندما اقتربت مظاهرة السيدات من بيت الأمة حاصرها الجنود الإنجليز ولم يسمحوا لها بالسير، وصوبوا أسلحتهم إلى كل مَنْ يحاول الحركة، ووقفن ونحن الطلبة نحيط بهن على هذا الحال نحو ساعة تحت حرارة الشمس، ولما نفد صبرهن تقدمت إحداهن إلى الضابط الذى صوب مسدسه إلى صدرها ففتحت (له) صدرها وقالت له: «اضرب وأرنى شجاعتك، إنا لا نهاب الموت، فرّغ رصاص مسدسك فى صدرى لتجعلوا فى مصر مس كافل ثانية»، فخجل الضابط وتنحى وأمر جنوده بالتنحى وسارت المظاهرة حتى دخلت بيت الأمة، وهناك كتبت السيدات

احتجاجًا آخر وصفن فيه هذه المعاملة الغاشمة، وقدمن صوراً منه إلى السفارات الأجنبية».

(١٩)

يقدم سيد باشا وصفًا دقيقًا لكبرى المظاهرات الوطنية، وهى مظاهرة الطوائف المختلفة التى استمرت ست ساعات كاملة، ويرينا الوصف الذى يقدمه سيد باشا مدى القدرة على التنظيم التى وصل إليها الطلاب فى خلال أسبوع واحد من بدء ثورة ١٩١٩، وهى قدرات عالية كانت أهم ما ساعد على نجاح ثورة ١٩١٩ على نحو ما نجحت، ومن الجدير بالذكر أن الوصف الذى يقدمه عريان يوسف سعد لهذا اليوم فى مذكراته لا يكاد يختلف فى تفصيلاته، وإن كان يتمتع بنفس أطول:

«وفى مساء ذلك اليوم ١٦ مارس اجتمع زعماء الطلبة وكنت منهم، وقرروا تنظيم مظاهرة مكونة من مجموعة وحدات كل وحدة منها تمثل طائفة وتشمل أكبر عدد ممكن من مواطنى الطائفة، ويتقدم كل طائفة فرد منها يحمل علمًا مكتوبًا عليه اسم الطائفة والعبارات: «لتحى مصر حركة، وليحيا الاستقلال التام، وليحيا الوفد»، ولضمان سير المظاهرة أخطرنا حكمدارية القاهرة بموعد قيامها، ومن أين ستبدأ، وكان موعد قيامها هو اليوم التالى، أى يوم ١٧ مارس ونبدأ من الأزهر، ووزعنا منشورات بهذا القرار وهذا النظام فلم تر الحكمدارية بدًا من التصريح بالمظاهرة حقنًا للدماء، وقرر رسل باشا حكمدار العاصمة، وهو إنجليزى، السير أمام المظاهرة راكبًا سيارته ليمنع الجنود من التعرض للمظاهرة».

«وبدأت المظاهرة الكبرى فى الساعة الثامنة والنصف من يوم الاثنين ١٧ مارس، وكانت مؤلفة من مواكب متلاحقة يتقدمها حكمدار العاصمة، وكل موكب منها يمثل طائفة مبتدئة بعلماء الأزهر والقساوسة ثم القضاة ثم الأطباء ثم المعلمين ثم المهندسين ثم المحامون ثم التجار ثم أرباب الأعمال ثم الصناع ثم العمال ثم طلبة الأزهر ثم طلبة المدارس العليا، كل مدرسة على حدة، ثم طلبة المدارس الثانوية كل مدرسة على حدة».

«وسارت المظاهرة من الأزهر فالتبليطية، فالغورية، فبوابة المتولى، فالمغربلين، فشارع محمد على، فالحلمية الجديدة، فميدان عابدين، فشارع البستان، فميدان الأزهار، فميدان قصر النيل (ميدان التحرير)، فقصر الدوبارة، فشارع القصر العالى (كورنيش النيل)، إلى شارع قصر العينى، فميدان قصرالنيل، فشارع سليمان باشا، فشارع البستان، فشارع مظلوم، فشارع المدابغ (شريف)، فشارع قصر النيل، فميدان الأوبرا، فشارع إبراهيم باشا (الجمهورية)، فميدان باب الحديد، حتى انتهت برجاء من رسل باشا واستغرق مسيرها نحو ست ساعات».

«وكان نظام المظاهرة موضع إعجاب كل مَنْ شاهدها من مصريين وأجانب، وأثنى الأجانب على قدرة المصريين على التنظيم والمحافظة على النظام وضبط النفس، وقد حدث ما عكر صفو النظام بعض الوقت، إذ تجرأ بعض الجنود الإنجليز أو بعض الأجانب وأطلقوا الرصاص على المتظاهرين من نوافذ بعض المنازل فسقط بعض القتلى وحدث رد فعل، فحاول بعض المتظاهرين الاعتداء على مَنْ رأوهم من الأجانب يطلقون الرصاص، ولكن سرعان ما تدخل منظمو المظاهرة وأعادوا إليها الهدوء والنظام حتى انتهت».

«وبعد انتهاء المظاهرة كتبنا احتجاجًا على ما حدث من اعتداء من الأجانب على المتظاهرين، وعهدنا إلى مَنْ ترجمه إلى اللغة الفرنسية فى بيت الأمة، ثم طبعناه ووزعناه على السفارات الأجنبية».

«ولضخامة المظاهرة وقوتها أصدرت السلطات العسكرية الإنجليزية فى اليوم التالى ١٨ مارس بلاغًا أكدت فيه مرة أخرى منع المظاهرات وإنذار كل مَنْ يتظاهر بالعقاب الشديد، ولكن الشعب لم يلق بالاً لبلاغ السلطات العسكرية الإنجليزية».

(٢٠)

وينفرد سيد باشا بالحديث عن البطولة الخارقة لإحدى المظاهرات حين تمكن المتظاهرون من الانقضاض على المدافع الكبيرة من أجل خطفها، مما ألقى الرعب فى قلوب الجنود الإنجليز:

«. . . وفى يوم ١٩ مارس بدأت مظاهرة من ميدان قصر النيل (التحرير)، واجتازت شارع كوبرى قصر النيل (التحرير)، فميدان الأزهار (الفلكى)، فشارع الساحة، وعندما وصل أولها أمام محل عمر أفندى، واجهها أربعة لوريات محملة بالجنود الإنجليز والمدافع الرشاشة، وأنزل الجنود المدافع استعداداً لإطلاق النار على المتظاهرين، لكن المتظاهرين لم يبتعدوا بل اتجهوا نحو الجنود بسرعة خاطفة محاولين خطف المدافع، فادخل هذا المنظر الرعب فى قلوب الجنود الذين أسرعوا بمدافعهم إلى اللوريات وهربوا بها من مواجهة المتظاهرين الذين أثبتوا صدق وطنيتهم وشجاعتهم، وأنه لعل كل مصرى لا يسعه إلا أن يرفع رأسه افتخاراً بما حدث، وبما شاهد».

(٢١)

وينفرد سيد باشا كذلك بالإشارة إلى دور الجامع الأزهر كمعقل من معاقل المقاومة، فضلاً عن دوره فى التوجيه والمشاركة، وهو يتحدث عن بطولة نادرة لأحد طلاب الأزهر فى إحدى المظاهرات، كما يروى موقفًا مشرفًا لشيخ الأزهر فى عدم الاستجابة لإغلاق الأزهر، ويشير إلى أن الأزهر ظل بمثابة نقطة تجمع رغم حصاره، وقد كان الطلاب يدخلونه فرادى:

«وفى يوم ٢١ مارس كنا نصلى الجمعة بالجامع الأزهر، وخرجنا بعد الصلاة فى مظاهرة، فوجدنا عدداً كبيراً من الجنود الإنجليز يحاصرون الأزهر ليمنعوا المظاهرة، فقاومناهم وكانوا مسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة، وأخذوا يطلقون الرصاص علينا، وفجأة شاهدت طالبًا أزهريًا ينقض بسرعة البرق على جندى إنجليزى ويخطف منه مدفعه ثم أدار المدفع نحو الجنود الإنجليز وأطلق الرصاص عليهم فسقط بعضهم، ولكنهم انهالوا على الطالب بمدافهم فمزقوه إربًا، وإنى لأحنى رأسى لأحيى روح هذا الطالب، وأحيى الروح العالية النبيلة التى كانت تسود مجتمع الشباب فى سنة ١٩١٩».

«وعلى أثر ذلك طلبت السلطات العسكرية الإنجليزية من شيخ الأزهر إغلاقه، ورد شيخ الأزهر بأن الأزهر بيت من بيوت الله لإقامة الصلاة ولا يمكن لأحد أن يغلق بيتًا

تؤدى فيه شعائر الدين، فزادت السلطات الإنجليزية عدد الجنود المحاصرين للأزهر، وزودتهم بالمدافع والمصفحات لمنع دخول مجموعات إليه أو خروجها منه، لكنا ندخله ونخرج منه فرادى».

(٢٢)

ثم يتحدث سيد باشا عن الدور الذى قدر له ولزملائه أن يقوموا به من أجل بدء إضراب الموظفين، ومع أن هذا الدور لم يكن منظمًا على نحو سابق، فإنه كان من الذكاء بحيث استبق الأحداث وجعل من الضمائر هاديا للتصرفات المرجوة من دون سعى إلى اتفاق أو ترتيب كتابى، وهنا تظهر مهارة عقلية عالية تمتع بها سيد باشا وزملاؤه، أو مَنْ قام منهم بهذا العمل على وجه التحديد.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الترتيب الذى أفلح فى بدء إضراب الموظفين لم ينجح من المرة الأولى، وإنما اقتضى محاولات دائبة من أجل البحث عن الأسلوب الأمثل للتأثير والنجاح، ومن الطريف أن سيد باشا نفسه يعترف أن الجزء الأكبر من النجاح الذى تحقق فى إضراب الموظفين يرجع إلى خطبة ألقاها رئيس مجلس اللوردات البريطانى واستثار فيها، دون أن يدرى، روح الوطنية عند الموظفين الذين لم يكن يليق بهم بعد هذه الخطبة المشبوهة إلا أن يضربوا احتجاجا:

«وحتى يوم ٢١ مارس كان موظفو الحكومة والمصالح الأميرية هم الفئة الوحيدة التى لم يشترك أفرادها فى المظاهرات والإضرابات، برغم أن كثيرًا من الموظفين وزعمائهم كانوا يحضرون الاجتماعات المسائية فى الأزهر، وفى بيت الأمة، ويتحمسون لما يلقى فى تلك الاجتماعات من خطب وبيانات، وبرغم أننا نحن الطلبة كنا وزعنا أنفسنا على دور الوزارات والمصالح الحكومية بحيث يدخل كل ثلاثة أو أربعة من الطلبة مقر الوزارة أو المصلحة ويمرون بمكاتب الموظفين محرضين إياهم على الإضراب، لشل حركة أعمال الحكومة، ولكننا لم ننجح فى حملهم على الإضراب، وكان عدم إضراب الموظفين يرجع إلى خوفهم من الفصل الذى كانت السلطات الإنجليزية تهدد به مَنْ يضرب عن العمل من الموظفين».

«عندئذ اضطررنا إلى إذاعة منشور يوم ٢١ مارس ادعينا فيه أن اللجنة العليا للموظفين قررت أن يضرب الموظفون عن العمل يومى ٢٢ و٢٣ مارس احتجاجًا على أعمال السلطات العسكرية الإنجليزية فى مصر، ولكن قلة من الموظفين هم الذين لم يذهبوا إلى مكاتبهم يوم ٢٢، أما يوم ٢٣ فلم يتخلف منهم أحد ولم يأت المنشور بنتيجة، وأصدرت السلطات الإنجليزية منشورًا ينذر كل مَنْ يضبط حاملاً منشورًا بالعقاب الشديد، وكلفت جنود الدوريات الإنجليزية بتفتيش المواطنين الجالسين فى المقاهى، أو المارين فى الشوارع بحثًا عن المنشورات الثورية، والواقع أن الجنود كانوا يفتشون المواطنين بحثًا عن الأسلحة اعتقادًا من السلطات بأنه ربما يلجأ الطلبة إلى تهديد الموظفين وحملهم على الإضراب بإطلاق الرصاص عليهم».

(٢٣)

ويقدم سيد باشا تفسيرًا معقولاً لما يسميه التحول الذى أصاب إضراب الموظفين:

«ثم كان يوم ٢٤ مارس هو مؤشر التحول فى موقف الموظفين، وحدث هذا التحول بجهد اللورد كيرزون زعيم مجلس اللوردات الإنجليز فى ذلك الوقت، وليس الطلبة، ذلك لأن اللورد كيرزون ألقى خطابًا فى مجلس اللوردات فى ذلك اليوم وصف فيه الثورة المصرية بأنها حركة سلب ونهب وليست حركة سياسية، وأن سعد باشا وأعوانه هم الذين دبروا هذه الحركة بصفتهم (أناسا) غير مسئولين، وأشاد بموقف الحكومة المصرية وموظفيها، وبموقف رجال الجيش والبوليس المصرى، وقال: إن هؤلاء وعقلاء الأمة لم يشاركوا فى الثورة، فلما رأى الموظفون أن الإنجليز يشوهون الحركة الوطنية ويصفونها بأنها حركة سلب ونهب ويقولون إن الموظفين المصريين منحازون إلى الإنجليز وراضون عن الحماية، عندئذ قاموا ليبعدوا عن أنفسهم هذه التهم وكتبوا عرائض احتجاج على خطاب كيرزون، وعلى الاعتداء على المظاهرات، وقعها الموظفون فى جميع الوزارات والمصالح ورفعوها إلى السلطان فؤاد، وقدموا صورًا منها مترجمة إلى الفرنسية إلى سفراء (يقصد ممثلى) الدول الأجنبية، وفى نفس الوقت أعلنوا عزمهم على الإضراب ثلاثة أيام إظهارًا لمشاركة الشعب مطالبه، ولكنهم لم يحددوا أيام الإضراب».

«ولم نمهلهم نحن الطلبة حتى يحددوا أيام الإضراب فأصدرنا منشوراً على أنه صادر من هيئة تنظيم إضراب الموظفين، وقلنا فيه إن إضراب الموظفين يبدأ يوم ٢ أبريل وينتهى يوم ٥ أبريل، وبدأ إضراب الموظفين فعلاً يوم ٢ أبريل، لكنه لم يكن شاملاً فى ذلك اليوم، أما يوم ٣ أبريل فكان شاملاً، وخلت جميع الوزارات والمصالح من الموظفين، واجتمع فى مسجد ابن طولون (لصعوبة الاجتماع فى الأزهر) جمهور كبير من الموظفين انتخبوا من بينهم هيئة مثلت فيها الوزارات والمصالح لتنظيم حركة الموظفين وصلتهم بالحركة الوطنية، وقررت الهيئة المنتخبة استمرار إضراب الموظفين حتى يتم الإفراج عن سعد باشا وزملائه، ثم توالى اجتماع الموظفين فى مسجد ابن طولون».

(٢٤)

ويستعيد سيد باشا من ذاكرته أحاسيسه القوية فى يوم إضراب الموظفين، أى يوم ٣ أبريل ١٩١٩، وهو يشير إلى أن هذا اليوم كان يومًا مميزًا فى تاريخ مصر، لأنه شهد إضراب الموظفين الذى لم يحدث فى تاريخ مصر إلا فى ذلك اليوم، ويتذكر مع هذا ما هو بمثابة ذكرى خاصة به وحده، حيث استطاع فى ذلك اليوم أن يقتل إنجليزيًا، وأن يتم هذه العملية فى حذر وهدوء ونجاح، محققًا رغبته فى الانتقام لإخوانه فى الوطن الذين قتلتهم السلطات البريطانية بعسفها وجورها.

«كان يوم ٣ أبريل سنة ١٩١٩ يومًا عظيمًا بالنسبة لمصر ولحركة الاستقلال، لأن إضراب موظفى الحكومة الذى لم يحدث قبل ذلك فى تاريخ مصر، قد ألهب حماس الشعب، وأقنع الأجانب بأن المصريين جادون فى طلب استقلالهم، وبدت القاهرة فى ذلك اليوم وكأن البيوت والمتاجر والمصانع ودور الحكومة ومصالحها خالية من الناس، وكلهم فى الشوارع يتظاهرون ويحتجون ويهتفون، فكان مظهر حركة المطالبة بالاستقلال رائعًا قويًا عنيفًا أشد العنف».

«أما بالنسبة لى فكان يوم ٣ أبريل سنة ١٩١٩ يومًا مريحًا لنفسى التى كان يؤرقها القلق، والتى كانت تتألم من ثورة فى داخلها من يوم ١٠ مارس سنة ١٩١٩ حتى يوم ٣ أبريل سنة ١٩١٩، وكان مبعث تلك الثورة التى تؤلم نفسى هو رغبتى فى الانتقام

لمئات الشهداء المصريين الذين كان يقتلهم الإنجليز فى شوارع القاهرة ابتداء من يوم ١٠ مارس لا لشىء إلا لأنهم يطالبون بحرية بلادهم. كان يحز فى نفسى أن هؤلاء الذين يطالبون بحرية بلادهم يُقتلون بوحشية غاشمة، ولا يحاكم القاتل حتى، ولا يحاسب على ما فعله، ثم لا يثأر للمقتول، ولا يفدى ولو بكلمة مواساة ممَنْ حكموا بقتله. إن فى ذلك ذلاً للإنسانية، وإهداراً فاضحًا لحقوق الإنسان، وهذا الحال بعث فى نفسى الرغبة فى الانتقام لمواطنىّ، ولو انتقامًا رمزيًا، ولو بقتل عدد يسير من الإنجليز مقابل مَنْ يقتلون بالمئات من المصريين».

«فى يوم ٢ أبريل وصل إلى القاهرة أخى محمد قادمًا من بلدتنا كفر الشناوى على ظهر مركب شراعى، وقد جاء ليأخذنا أنا وأخى عبد المحسن وابن اختنا محمد رشاد على ظهر المركب الشراعى ويعود بنا إلى البلد، بناء على أمر والدنا عندما علم بإضراب طلبة المدارس وقطع السكك الحديدية، وتضايقت لهذه المفاجأة التى ستحرمنى من الاشتراك فى الثورة مع إخوانى لأنى لا أستطيع مخالفة أمر والدى، وعلى كره منى قلت لأخى محمد إننا سنعود معه إن شاء الله بعد ثلاثة أيام ريثما يستريح من عناء سفر أربعة أيام بالمركب الشراعى، وفى المساء عندما شرع أخى فى خلع ملابسه استعداداً للنوم، لاحظت أنه يحمل معه طبنجة (مسدس كبير الحجم) وأخبرنى أن والدنا نصحه بأن يحملها معه فى السفر للطوارئ، حيث كان السفر بالمركب الشراعى يستدعى المبيت ثلاث أو أربع ليالى على ظهر المركب فى العراء، وفى جهات لا يعرفها».

«ورقص قلبى فرحًا برؤية الطبنجة، وعولت على أخذها معى أثناء مظاهرات الغد ٣ أبريل، وكنت كما سبق أن ذكرت قد تمرنت على إجادة الرماية بها، وفى الصباح استأذنت أخى لأخذ الطبنجة معى وكانت فى جراب جلد مثبت فى حزام جلد، وشددت الحزام على وسطى تحت الجاكتة وخرجت لأشترك فى المظاهرات وفى عزمى أن أقتل ضابطًا إنجليزيًا من الضباط الذين يطاردون المظاهرات، ولو كلفنى ذلك حياتى».

(٢٥)

هكذا يروى سيد باشا الصدفة التى جاءت إليه بالطبنجة مع أخيه محمد، وكيف أنه

فكر فى استغلالها، وانضم إلى إحدى المظاهرات حتى وصلت إلى ميدان عابدين، وهناك قابل ديكسون رئيس مفتشى السكة الحديد وهو يتذمر من المظاهرات فما كان منه إلا أن قتله، وقد نجح المتظاهرون فى أن يغطوا على تصرفه، حيث رفعوه وكأنه هو الذى يهتف بالمظاهرة، ثم تحركوا به إلى حيث يمكنه الهرب.

وهو يروى أنه استحلف زميله فى اللجنة العليا ألا يبوح بسره على الإطلاق:

«وخرجت من بيتى ببركة الفيل متجهًا إلى ميدان لاظوغلى حيث كنت أعلم أن إحدى المظاهرات فى ذلك اليوم ستبدأ من أمام وزارة المالية، وسارت المظاهرة من ميدان لاظوغلى مخترقة شارع الدواوين، فشارع الشيخ ريحان، فميدان عابدين حيث كانت الساعة حوالى العاشرة، وهناك وجدنا الميدان غاصًا بالمتظاهرين وأطلقت نظرى باحثًا عن مكان وجود الجنود الإنجليز وضباطهم، وأثناء ذلك وقع نظرى على رجل أجنبى وسمعت عددًا من المتظاهرين حولى يشيرون إليه ويقولون إن هذا الرجل الإنجليزى هو ديكسون رئيس المفتشين بالسكة الحديد، وفهمت من حديثهم أنهم من عمال السكة الحديد، وكان ديكسون هذا متبرمًا ومستاء من المتظاهرين، فقلت فى نفسى إن هذا الرجل مثل الضابط، فاقتربت من مكانه وبسرعة خاطفة أخرجت الطبنجة وأطلقت عليه رصاصة أصابته فى رأسه فخر صريعًا».

«وبنفس السرعة أعدت الطبنجة إلى مكانها، وعندئذ علا هتاف مَنْ كانوا حولى من المتظاهرين بحياة مصر، وحملونى على أكتافهم على اعتبار أنى أنا الذى أقود هتافاتهم وذلك ليبعدوا عنى الأنظار ويبعدونى عن مكان الحادث، وساروا بى بضع خطوات ثم أنزلونى وأفسحوا لى الطريق لأهرب، فتسللت إلى الميدان الواقع أمام جامع عابدين، ومنه دلفت إلى حارة ضيقة تؤدى إلى حارة السقايين، وعندما وصلت إلى حارة السقايين ولم أجد أحدًا يتبعنى اطمأننت وسرت هادئًا حتى وصلت بيتى، ولم يكن أحد من المتظاهرين حولى يعرفنى سوى زميل لى فى مدرسة المعلمين هو أحمد محمد النجار، وكنت قد أشرت إليه خلسة بأن يبتعد عنى ولا يتبعنى».

«وفى المساء ذهبت إلى بيت الأمة كالمعتاد، ووجدت هناك أحمد النجار فاختليت به برهة واستحلفته على المصحف الشريف (أحمل فى جيبى دائمًا مصحفًا) ألا يبوح باسمى لأحد إذا ما ذكرت تلك الحادثة، أى حادثة قتل ديكسون».

ويروى سيد باشا أنه كان واحدًا من الوفد الذى شكله الوطنيون لإتمام الصلح مع الأرمن بعدما صادفوا هجومًا بالرصاص من بيت واحد من الأرمن على المظاهرات، مما اضطر الوطنيين إلى قتل الأرمنى الذى وجدوه فى المنزل الذى انطلق الرصاص منه:

«. . . بعد وقوع ذلك الحادث واجتياز المظاهرات ميدان عابدين ودخولها شارع عبد العزيز، وقع حادث آخر، إذ أطلق أحد الأجانب الرصاص على المتظاهرين من نافذة منزله فأصاب بعض المواطنين فهاج المتظاهرون ضده، وهذا طبيعى بخلاف ما حدث عند إطلاق الرصاص على الإنجليزى، واقتحم المتظاهرون المنزل الذى أطلق منه الرصاص، ثم الشقة التى أطلق الرصاص من نافذتها، فوجدوا فيها رجلاً أرمينيًا فألقوا به من النافذة التى أطلق منها الرصاص فمات على الفور، وخشينا أن يستغل الإنجليز تلك الحادثة وأمثالها ليعلنوا للعالم أن حركتنا حركة تعصب ضد الأجانب، وليست حركة وطنية ضد السلطات الإنجليزية».

«فاجتمع زعماء الطوائف وقرروا تكوين وفد تمثل فيه جميع الطوائف ليقابل بطريرك الأرمن ويعبر له عن أسف المصريين لقتل الرجل الأرمنى ويعتذرون عن حادث قتله».

«وتكون الوفد من :

«١ - محمود أفندى فهمى النقراشى عن الموظفين.

«٢ - الشيخ مصطفى القاياتى عن العلماء.

«٣ - القس مرقص سرجيوس عن القبط.

«٤ - الشيخ عبد اللطيف الصوفانى عن الأعيان.

«٥ - محمد كامل حسين أفندى عن المحامين.

«٦ - عبد المجيد الرمالى أفندى عن التجار.

«٧ - محمد عثمان الطوبجى عن العمال.

«٨ - سيد محمد باشا أفندى عن الطلبة».

«وفى اليوم التالى تقابل أعضاء الوفد المذكورون آنفًا على قهوة النيوبار بميدان الأوبرا، ثم سرنا راجلين إلى مقر البطريركية الأرمنية الذى كان يقع فى شارع بولاق أمام جمعية الإسعاف، وأدينا المهمة التى قد كلفنا بها».

«وهذه المناسبة كانت بداية معرفتى بمحمود فهمى النقراشى أفندى، ثم تكررت مقابلاتى معه وصرنا أصدقاء».

(٢٧)

ويشير سيد باشا إلى تفصيلات هروبه إلى موطنه الأصلى بعيدًا عن القاهرة:

«وفى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الأحد الموافق ٦ أبريل سنة ١٩١٩ كنت فى شدة الألم النفسى لمغادرتى القاهرة وحرمانى من الاشتراك فى معقل الثورة ومكان تنظيم حركتها، حيث أقلعت بنا المركب الشراعية من ساحل روض الفرج متجهة إلى كفر الشناوى».

كما يشير إلى أنه كان يتمنى على الله جل وعلا أن يغير رأى والدى ويجعله يسمح له بالعودة إلى القاهرة.

ويذكر أنه لم يضيع وقت إقامته فى بلده من دون مشاركة فى الثورة، وإنما استغل صلاة الجمعة وخطب فى المجتمعين مبينًا لهم مساوئ الاستعمار، ومظالم الإنجليز المستعمرين».

وقد مكث فى البلد نحو عشرة أيام قام خلالها بجولة فى القرى المجاورة لقريتنا، وكان يدعو أهل القرية التى حل بها إلى الاجتماع فى مسجدها ثم يخطب فيهم مبينًا لهم الأعمال الضارة التى يرتكبها الإنجليز فى حق المصريين.

وهو يشير إلى أن نشاطه هذا لفت أنظار السلطات إليه، مما جعل والده يفضل له العودة إلى القاهرة بعيدًا عن الأنظار المركزة عليه وحده!!:

«ووصلت أخبار هذه الاجتماعات إلى القيادة الإنجليزية المرابطة فى بندر المركز (فارسكور)، وجاءت الأخبار لوالدى من رجال الإدارة بالمركز، أن القيادة الإنجليزية

تعتزم القبض عليّ لنشاطى السياسى، ووصلتنى أيضًا هذه الأخبار فلم أنزعج لها، بل سررت عند سماعها لأنى توقعت أنها ستجعل والدى يغير رأيه من حيث وجودى بالبلد، وبالفعل عندما التقيت به بعد سماع هذا الخبر قال لى والدى إنه يرى أن أعود إلى القاهرة مادمت مصممًا على الاشتغال بالسياسة، لأن نشاطى فى القاهرة سيكون مختلطًا بعمل زملائى فلا أظهر، أما هنا فإن نشاطى ظاهر والعيون مسلطة علىّ، فقلت له: كما ترى، سأعد نفسى للسفر بعد باكر على الأكثر.

«وفى الحال قررت بيع كل ما أمتلك من مواشى، وعاهدت نفسى على أن أتبرع بكل المبلغ الذى أحصل عليه للحركة الوطنية، ووفيت بعهدى ولم أخبر والدى أو والدتى ببيعى لكل المواشى التى تخصنى، ولم يعلما بشىء من هذا الحدث إلا بعد سفرى للخارج بنحو عام».

«وفى ١٨ أبريل وفى الصباح الباكر من ذلك اليوم، استقليت ومعى رأس مالى كله بالإضافة إلى ما أعطانى والدى لمصروفى عربة (كارو) نقلتنى من البلد إلى المنصورة (٤٥ كيلومتر) لأن بعض السكك الحديدية كانت مازالت معطلة، ومنها الخط الذى بين البلد والمنصورة، ثم قطعت المسافة بين المنصورة والقاهرة بعضها بالسكة الحديد، وبعضها بعربات الكارو فوصلت القاهرة بعد قيامى من البلد بنحو ١٢ ساعة».

(٢٨)

وتتضمن المذكرات تفصيلات دقيقة عن تكوين لجنة طلبة المدارس العليا ومندوبى المدارس فى هذه اللجنة، وهى معلومات تتفق فى مجملها مع ما رواه الدكتور مهدى علام فى ذكرياته التى نشرها أبو بكر عبد الرازق:

«وفى صباح اليوم التالى (١٩ أبريل) استأنفت اتصالاتى بتجمعات الطلبة وبيت الأمة، وبعد بضعة أيام من الاتصالات والمحادثات قرر طلبة المدارس العليا أن يكون دورهم فى الثورة هو توعية الجماهير وقيادتهم وتنظيم حركات المقاومة الشعبية، واتفقوا على تكوين لجنة من طلبة المدارس العليا تقوم بعمل كل الترتيبات اللازمة لتنفيذ ذلك، يطلق عليها اسم «لجنة طلبة المدارس العليا»، وتتكون من مندوبين اثنين عن كل

مدرسة، على أن ينتخب طلبة كل مدرسة ممثليها من طلبتها، وانتخبت أنا وزميلى محمود عوضين طه عن مدرسة المعلمين العليا لنمثلها فى تلك اللجنة».

«وكانت اللجنة مكونة من: محمود عوضين طه وسيد محمد باشا عن مدرسة المعلمين العليا، وعبد العزيز عز العرب وهربرت أخنوخ فانوس عن مدرسة المهندسخانة، وعبد الهادى خليل ومحمد حلمى الجيار عن مدرسة الطب، وحسين إدريس وحسين النادى عاشور عن مدرسة الحقوق، وحسن الخطيم ومحمود سكر عن مدرسة التجارة العليا، ويوسف العبد وعبد السلام الهلالى من الجامعة المصرية الأهلية، ومحمد على ثابت ومحمد الغمراوى عن مدرسة الزراعة العليا، وعبد الوهاب عزام ومحمد عبد الرحمن الجديلى عن مدرسة القضاء الشرعى، ومهدى علام وآخر لا أذكره عن دار العلوم، وعبد الباقى سرور نعيم وآخر لا أذكره عن الأزهر الشريف، وكانت مهمة هذه اللجنة تتركز أساسًا على العمل على تنفيذ القرارات التى تصدرها اللجنة نفسها أو غيرها من الهيئات التى تعمل للثورة».

(٢٩)

وهو يشير إلى أن هذه اللجنة تولت تنظيم حركة الإضرابات وقيادتها حيث يقوم مندوبو المدارس ومَنْ يختارونهم لمعاونتهم بالدعاية للإضراب الذى يقرر، ثم منع كل مَنْ تسول له نفسه بالذهاب إلى عمله فى أيام الإضراب، ويروى فى هذا الصدد قصة الدور الذى قدر له أن يلعبه فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية بالعباسية:

«وأذكر أنى أنا وزملائى طلبة السنة النهائية بمدرسة المعلمين العليا كان علينا أن نتمرن تمرين آخر العام بالتدريس فى مدرسة فؤاد الأول (حاليا الحسينية) الثانوية بالعباسية، وتقرر ونحن بالتمرين القيام بإضراب عام، وتوقفت المواصلات فأصبحت مبكرًا وذهبت من بركة الفيل إلى مدرسة فؤاد الأول راجلاً وأخبرت مَنْ حضر من زملائى بقرار الإضراب، لأنه قد صدر فى مساء اليوم السابق متأخرًا، فامتنعوا عن العمل إلا واحدًا منهم (محمد حسين الموصلى) دخل أحد الفصول ليدرس، وكان بالفصل عند قليل من التلاميذ، فدخلت خلف الزميل ثم حملته بين يدى وقذفت به من

شباك الفصل حيث كان الفصل بالدور الأرضى، فهلل التلاميذ وخرجوا من الفصل ثم من المدرسة ولم يجرؤ الزميل أن يستأنف العمل بعد ذلك».

(٣٠)

كذلك يشير الدكتور سيد باشا إلى دور هذه اللجنة فى طبع المنشورات التى تكتبها اللجنة وغيرها من الهيئات المشتغلة بالثورة، وهو يذكر أسماء المطابع الأهلية التى ساعدت هؤلاء الطلاب الثوار على أداء مهمتهم:

«. . . ونأخذ المال اللازم لذلك من سكرتير لجنة الوفد المركزية بالقاهرة عبد الرحمن بك فهمى عن طريق المرحومين محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر، وكُلفت أنا والزميل يوسف العبد بالإشراف على طبع المنشورات ثم توزيعها فى الأقاليم، أما توزيعها بالقاهرة فكان يقوم به مندوبو المدارس بعد أن يتسلموها منا مطبوعة، واتفقنا أنا ويوسف مع مطبعة محمود الخضرى، وكان مقرها بأحد الشوارع المتفرعة من شارع حسن الأكبر خلف سراى عابدين، على أن تطبع لنا المطبعة سرًا ما نقدمه لها من أصول منشورات أو نداءات أو بيانات، ويكون المؤتمن على السر فى المطبعة هو الأسطى أمين الخضرى شقيق صاحب المطبعة، كما اتفقنا أيضًا مع المطبعة الرحمانية بشارع الخرنفش بباب الشعرية، وكان المؤتمن على السر فى المطبعة الحاج أحمد إبراهيم رئيس قسم الجمع بالمطبعة، وهكذا كان يتم طبع أى منشور أو قرار أو بيان فى بحر ٢٤ ساعة على الأكثر من صدوره».

(٣١)

ويشير سيد باشا إلى التطور الطبيعى لفكرة شراء مطبعة خاصة بالثورة، بما يوفر على أعضاء اللجنة من إجراءات الأمن والتأمين، ويمكنهم من أداء مهمتهم على نحو أسرع، وهو يذكر تفصيلات فى غاية الدقة عن المكان الذى اختير لتوضع المطبعة فيه:

«اقترحنا على اللجنة شراء مطبعة من المطابع التى تدار باليد، وكانت أغلب المطابع فى ذلك الوقت تدار باليد لنطبع نحن الجريدة بأنفسنا ضمانًا لاستمرار صدورها،

وحرصًا على صدورها فى الأوقات المناسبة، وذلك لأن الرقابة على المطابع أصبحت شديدة ومتحمسة بالإغراء بالمكافآت التى كانت تمنح لمن يرشد عن مكان طبع أى منشور، ووافقت اللجنة على اقتراحنا، وفى جولة قصيرة قمنا بها أنا ويوسف أخذنا فكرة عن أثمان المطابع وأخبرنا اللجنة بنتيجة جولتنا وتم شراء المطبعة بعد أن كملنا أنا ويوسف من مالنا الخاص ثمن شرائها، حيث إن المبلغ الذى كان قد خصص لشرائها لم يكن كافيًا».

«جاء بعد ذلك دور البحث عن مكان للمطبعة ونقلها إليها، فأخذت أبحث عن مكان يكون بعيدًا عن أعين الرقباء، ودلنى زميل لى فى مدرسة المعلمين (على حسين) على منزل لجدته يقع فى حارة مسدودة متفرعة من شارع متفرع من شارع العقادين بين بوابة المتولى والغورية، وكان المنزل مكونًا من ثلاثة أدوار، وبالدور الأرضى منه حجرتان كبيرتان بالداخل خاليتان، فقدرت أنه مكان مناسب لعزلته التامة، فاستأجرته باسم مستعار وبحذر شديد شرعت فى نقل المطبعة إليه».

(٣٢)

ويشير الدكتور سيد باشا إلى عناصر مشوقة فى مغامرة نقل ماكينة الطباعة إلى المكان الذى اختير لوضع المطبعة فيه، وما حدث من مفاجآت كادت تفسد كل التخطيط، وتقود إلى وقوع زعماء الطلاب فى التهلكة:

«وقبيل غروب شمس اليوم الذى قررنا فيه نقل المطبعة، غيرنا أنا ويوسف ملابسنا كما كان يحدث فى كثير من الأحيان، فلبست أنا جلابية بلدى وعباءة، ولبس يوسف بدلة عامل زرقاء وذهبنا إلى مكان بائع المطبعة بشبرا وحملناها مفككة ومثبتة بحبال على ثلاث عربات كارو، واتفقنا مع أصحاب العربات على أن يأخذ كل منهم ثلاثين قرشًا أجرة توصيل حمل عربته إلى مكان قريب من بوابة المتولى، كما اتفقنا على أنى سأنتظرهم على مقهى معروف لهم فى ميدان باب الخلق (الآن ميدان أحمد ماهر) لأدلهم على المكان الذى سننزل فيه الأحمال، وتركنا العربات لننتظرها فى ميدان باب الخلق، وسرت أنا ويوسف لنأخذ الترام الذى يوصلنا إلى باب الخلق، فلاحظنا أن أحد

المخبرين السياسيين يتبعنا، وكان يوسف قد استطاع أن يحصل عن طريق أحد ضباط البوليس بقسم الموسكى على الصور الفوتوغرافية لمعظم المخبرين السياسيين فى ذلك الوقت، وكان مقرهم قسم الموسكى، وعندما مر بنا أول ترام ولم يكن يوصلنا إلى باب الخلق أسرعنا بدون اتفاق لركوبه، وبدون اتفاق أيضًا جلست أنا فى المكان المخصص لركاب الدرجة الأولى، وركب يوسف فى المكان المخصص لركاب الدرجة الثانية، وجلس المخبر بجوار يوسف، وعندما طلب الكمسارى ثمن التذاكر من يوسف قال له: «خذ من البيه فى الدرجة الأولى»، وعندما جاءنى الكمسارى أعطيته ثمن تذكرتى وثمن تذكرة التابع لى فى الدرجة الثانية، وذلك قبل أن يطالبنى بثمن تذكرة يوسف لأن الكمسارى لم يكن قد عرف بعد مَنْ هو راكب الدرجة الأولى الذى يتبعه يوسف، وكل ذلك حدث تلقائيًا بدون إشارة أو اتفاق، أما المخبر فإنه عندما طلب منه الكمسارى ثمن التذكرة قال: «بوليس»، ونزل فى المحطة الثانية للمحطة التى ركبنا منها لأنه يبدو أنه فهم أننا لسنا من الطلبة».

«وصلت العربات الثلاث ميدان باب الخلق وكان يوسف قد انصرف لقضاء بعض المهام الخاصة به، وأشرت إلى العربات أن تتبعنى وسرنا حتى وصلنا إلى المنزل الذى استأجرت فيه مكانًا للمطبعة، وما كادت العربات تقف أمام المنزل، وتبين لسيدة كانت تطل من أحد نوافذ المنزل أن العربات تحمل حديدًا، حتى صاحت تلك السيدة قائلة: «يا حوستى، دول جايبين حديد الإنجليز يخبوه هنا»، وعلى صيحتها أطل غيرها من النوافذ، وصاح بعضهم: «هاتو البوليس»، ونظرت حولى فإذا الحارة مسدودة ونحن فى نهايتها، بحيث لا يمكن إدارة العربات فيها، فانتابنى ذهول».

(٣٣)

ويتحدث الدكتور سيد باشا بفخر عن قدرته الفذة على معالجة الموقف علاجًا سريعًا وحاسمًا، وكيف رزق من قوة البدن ما مكنه من أن يؤدى عملاً شاقًا فى سرعة خاطفة وقوة، وهو يشير إلى النظريات القائلة بإمكان قيام الإنسان بعمل خارق عند تعرضه للخطر الشديد:

«واندفعت بسرعة البرق نحو العربة القريبة منى وفككت حصانها منها ورفعتها من يديها حتى صارت رأسية وأدرتها ١٨٠ درجة لتأخذ الاتجاه المضاد لاتجاه مجيئها، ثم أعدت إليها حصانها، وصاح أصحاب العربات مذهولين قائلين: «يا قوة النبى، الله يحميك لشبابك»، وبدون أن ألتفت لصياح سكان المنزل فعلت بمعاونة أصحاب العربات بالعربتين الأخريين ما فعلته بالعربة الأولى، وبعد أقل من عشر دقائق من وصول العربات أمام ذلك المنزل المشئوم كانت تلك العربات تسير عائدة نحو بوابة المتولى، حيث أمرت أصحاب العربات أن يفعلوا ذلك مسرعين، وليأخذوا طريقهم بعد وصولهم إلى بوابة المتولى شارع المغربلين وينتظرونى عند تقاطع شارع المغربلين بشارع محمد على حتى ألحق بهم، وبقيت أنا واقفًا عند مفترق ثلاثة شوارع تؤدى إلى الحارة التى بها المنزل المشئوم لأحاول تضليل رجال البوليس إذا ما وصل عن متابعة العربات».

«ولما تيقنت أن العربات قد وصلت شارع المغربلين وخرجت من المنطقة التى سيحاول البوليس البحث فيها عن العربات، تحركت بسرعة لألحق بالعربات، ولحقت بها فى منتصف شارع المغربلين تقريبًا، فاستقبلنى أصحاب العربات الثلاث بفرحة وابتهاج صادقين وموجهين إلىّ الأسئلة: «أنت يا فندى من التلاميذ؟ أنت بتشيل حديد؟ وبتشيل ٥٠٠ كيلو، دى كل عربية من دول عليها أكثر من ٥٠٠ كيلو، هى دى المطبعة اللى بتطبع المنشورات واللى بيدوروا عليها الإنجليز؟ ياسلام دا إحنا نفديك ياشيخ بأرواحنا». واستطردوا فى الأسئلة وعبارات المجاملة فتأثرت من شعورهم وشكرتهم على مجاملاتهم وأقوالهم».

«وقد أدهشنى من أقوالهم وزن أثقال العربات التى رفعتها، وعندها آمنت مرة أخرى بالقول: «إن الإنسان يمكن أن تولد فيه قوة خارقة عند تعرضه لخطر شديد، وأى خطر كان سيحل بى إذا وضعت السلطات الإنجليزية يدها على المطبعة، ثم استطرد أصحاب العربات يقولون: «إحنا نفديك بأرواحنا وحنروح معاك مطرح ما تأمر لأنك من التلاميذ الجدعان»، فقلت لهم: الحقيقة أنى لا أعرف الآن أية جهة أذهب إليها، وكنا بعد العشاء بنحو ساعتين، فقالوا: كل واحد يأخذ عربته إلى بيته ويحافظ على حمولتها حتى نجد مكانًا لها ونتقابل كل ليلة بعد العشاء على القهوة اللى تقابلنا عليها فى أول ليلة لنعرف إذا كنت وجدت مكانًا، فقلت: وكيف تتعطلون عن

أعمالكم حتى أجد مكانًا؟ فأجابوا بصوت واحد: «تغور أعمالنا فى حب الوطن»، فأكبرت شهامتهم وشكرتهم وتركتهم وذهبت إلى بيتى وجلست أفكر فى أى جهة أختار مكانًا للمطبعة».

(٣٤)

ويتحدث سيد باشا عن التحول الذى طرأ على تفكيره فيما يتعلق بتحديد مكان المطبعة، وكيف أنه انتبه إلى أفضلية وجودها فى مكان مطروق حيث لا ينمو الشك فى نفوس أجهزة البوليس:

«... فى تلك اللحظة تغيرت وجهة نظرى فى المكان الذى يحسن أن توجد فيه المطبعة، لماذا لا يكون مكان المطبعة جهة لا يظن احتمال وجودها فيه؟ لماذا لا يكون مكانها قريبًا من القلعة حيث يوجد الجيش الإنجليزى والسلطة العسكرية الإنجليزية، ويمر الداخلون والخارجون من القلعة على مكان المطبعة أو قريبًا منه ولا يتصورون أن تبلغ بنا الجرأة إلى أن نضع المطبعة التى يبحثون عنها تحت أنوفهم؟!».

«وفى الصباح ذهبت لأبحث عن مكان بجهة القلعة، ووقع نظرى على لافتة «للإيجار» معلقة على منزل صغير خلف المسجد الصغير الواقع بين مسجد الرفاعى والقلعة، وكان منزلاً مكونًا من دورين فقط، وبكل دور ثلاث حجرات، فاستأجرته باسم «على على بكر» من الأعيان، والأجرة ١٥٠ قرشًا فى الشهر، ودفعت أجرة شهرين مقدمًا، وفى المساء جاء أصحاب العربات الثلاث وكنت فى انتظارهم على المقهى، وبعد أن شربنا القهوة وتسامرنا قليلاً أخبرتهم بأنى قد وجدت مكانًا للمطبعة، وأننا سننقلها فى الصباح وقت الفجر فى ذلك المكان الجديد، وتواعدنا على اللقاء أمام مسجد الرفاعى ومعهم العربات عند أذان الفجر، وعند أذان الفجر بالضبط كنت أنا ويوسف أمام مسجد الرفاعى فدخلنا المسجد وصلينا الفجر مع الجماعة، وفى اللحظة التى خرجنا فيها من المسجد كانت العربات قد وصلت فتبعتنا إلى المنزل الذى أعددته للمطبعة وأنزلناها فى هدوء وسلام، وشكرت أصحاب العربات على جميلهم ومعاونتهم لنا، ثم أخرجت من جيبى ثلاثة جنيهات لأعطى لكل منهم جنيهًا، وإذا بى

أقابل بثورة غضب شديدة من جانبهم ويصيحون: «إحنا مانخدش أجرة على شغل الوطن، دى شتيمة لنا، أنت بتخاطر بشبابك للوطن وإحنا ناخد أجرة»، وقمت أنا ويوسف بمحاولات ورجاءات لإقناعهم بأخذ شيء ولو بأخذ الأجرة المتفق عليها، ولكنهم رفضوا رفضًا باتًا أن يأخذوا قرشًا واحدًا، يا لها من وطنية سامية لا يسعنى إلا أن أحنى رأسى إجلالاً وتعظيمًا لها».

«وقد أشار إلى هذه الحادثة المرحوم الدكتور أحمد ماهر فى حديث نشرته له مجلة «نهضة الشبيبة» فى عددها رقم ١١٧ بتاريخ ١٤/ ٢/ ١٩٣٤ بمناسبة ما كان يرويه عن أعمال الشباب فى ثورة سنة ١٩١٩».

(٣٥)

ويروى الدكتور سيد باشا تفصيلات طريفة عن الطريقة التى تمكن بها هو وزملاؤه من طباعة جريدة «المصرى الحر» السرية، ويظهر لنا ذكاء هؤلاء الثوار الذين انتبهوا إلى أهمية الفصل بين مكان جمع الحروف، وبين مكان الطبع، ويدلنا ترتيب الخطوات التنفيذية التى كان هؤلاء الطلاب يتبعونها فى أدائهم لمهمتهم السرية هذه على مدى ما كانوا يتمتعون به من نضج وقدرة على التخطيط الجيد، والتنفيذ الدقيق، وهى الصفات التى مكنت من تعاظم دورهم فى ثورة ١٩١٩، ونجاح هذه الثورة:

« . . . وأخذنا نرسم خطة تنفيذ طبع «المصرى الحر» وما يلزم لذلك من إعداد، فعلينا أن نشترى الحروف اللازمة للطبع، ونشترى لها الصناديق والحوامل ونحو ذلك، كما علينا أن نتعرف على عامل موثوق به لجمع الحروف، وعامل آخر موثوق به أيضًا للقيام بعملية الطباعة، وفى هذه الجلسة استقر رأينا على أن توضع الحروف وتجرى عملية جمعها فى مكان غير المكان الموجود فيه المطبعة، وذلك زيادة فى الاحتياط، وفضلنا أن يكون مكان الحروف قريبًا من سكنى».

. . . .

«أتسلم أنا من لجنة الطلبة أو من سكرتارية الوفد مخطوط ما يراد طبعه، ثم أسلمها

إلى محمد أفندى إسماعيل أصيل، وكان زميلى بالمدرسة الإلهامية الثانوية، وتوفى والده وهو بالسنة الرابعة الثانوية فآثر أن يحل محل والده فى التجارة على أن يتابع الدراسة، وكان والده صاحب محل بقالة كبير بشارع المغربلين، وكان محمد أصيل ناجحًا فى عمله التجارى».

«وبعد وصول الأصول إلى محل أصيل أخطر الحاج أحمد إبراهيم فيمر على محل أصيل ويأخذ المخطوطات ويذهب بها إلى مكان وجود الحروف ويصفّها (المخطوطات) فى حروف، ثم يضعها فى صحائف ويعدها للطبع».

«ثم يأتى أحد أصدقائى المعلمين العربجية فى الوقت المناسب وتُحمل الصحائف المعدة للطبع على عربته إلى مكان المطبعة، ثم أذهب أنا والحاج أحمد فى الوقت المناسب إلى مكان المطبعة ونذير المطبعة معًا، لأن الحاج أحمد كان رجلاً مسنًا، ونطبع العدد اللازم من الجريدة أو المنشور، وبعد ذلك أبدأ أنا ويوسف لجمع العدد المطبوع فى حزم، وكل حزمة تضم العدد الخاص لكل مديرية أو محافظة، ثم يأتى أحد المعلمين ويحمل الحزم التى سترسل إلى الأقاليم إلى محل أصيل، ومنه نقل إلى «أبو غاطس»، وهو مكان تجميع قطارات السكة الحديد بمحطة القاهرة، ومن هناك تسلم إلى المراسلين، أما الحزمة الخاصة بمحافظة القاهرة فتحمل إلى محل محمد توفيق الترزى بسكة المناخ خلف عمارة ترغيب بميدان الأوبرا، وكان محمد توفيق هو الترزى الذى أحيك بدلى عنده، ومن سكة المناخ إلى موزعى المنشورات يوزعونه فى القاهرة، وظل الحال كذلك إلى أن سافرت إلى إيطاليا فى يناير سنة ١٩٢٠».

(٣٦)

ويشير الدكتور سيد باشا آسفًا إلى المصير المجهول الذى لقيته هذه المطبعة على يد قيادات التنظيم السرى لثورة ١٩١٩، وذلك على الرغم من أنه هو وزميله كانا يملكان آلاتها:

«وعندما عدت من إيطاليا فى أغسطس ١٩٢٣ سألت يوسف عن المطبعة وإدارتها، فأخبرنى أنه بعد بضعة شهور من سفرى طلب منه الدكتور أحمد ماهر نقل المطبعة وإدارتها إلى مكان عينه له فنقلها إلى هذا المكان، ولم يعلم يوسف العبد عنها شيئًا بعد

ذلك، رغم أننا أنا ويوسف كنا قد دفعنا من مالنا الخاص أكثر من نصف ثمن المطبعة ومعداتها».

(٣٧)

ويورد الدكتور سيد باشا فى مذكراته تفصيلات متعددة عن الوسائل التى لجأ إليها الطلاب فى ثورة ١٩١٩ من أجل تسليح أنفسهم، ومن الطريف أنهم حصلوا على الأسلحة من الضباط الإنجليز غير الملتزمين(!!) وهى فكرة طبيعية فى مثل هذه الظروف، على أن الأهم من الحصول على السلاح كان هو الحصول على القنابل:

«. . . ولم يدم النقاش طويلا، حيث اتفقنا على أن نحاول الاتصال بالضباط والجنود الإنجليز الذين يرتادون المقاهى والبارات للسكر والعربدة، ونحتال على شراء ما يمكن أن يكون معهم من أسلحة، وتم ذلك واشترينا ثلاثة مسدسات فى أول اتصال بهم، وكلفنا ذلك خمسة جنيهات بما فيها ٧ طلقات لكل مسدس، وتوالى شراؤنا للمسدسات حتى اقتنينا ١٥ مسدسًا، ومع كل مسدس ٧ طلقات، دفعت ثمنها كلها من مالى الخاص، واستقر رأينا على أن نستعمل هذه المسدسات لقتل الإنجليز، أما المتعاونون معهم من المصريين فلا نقصد قتلهم وإنما نقصد إرهابهم، وذلك بإلقاء قنابل عليهم تنفجر ولا تصيب إصابات قاتلة، اللهم إلا مَنْ لا يحسن حملها فقد تحدث به إصابات».

«وفى مقابلة مع أحد الضباط استطعنا أن نحصل على قنبلتين من القنابل اليدوية، وكذلك على ٣٠ طلقة رصاص، ولكنى عندما فحصت طريقة استعمال هذه القنابل وجدت أنها لا يمكن أن تتمشى مع عملنا، ففكرت باعتبارى قد درست قدرًا لا بأس به من الكيمياء، أن أصمم قنبلة، وذهبت إلى دار الكتب المصرية بباب الخلق واستعرضت قائمة كتب الكيمياء بالدار، واخترت من بين كتب الكيمياء التى تبحث فى المفرقعات كتابًا إنجليزيًا كتبت اسمه وخرجت قاصدًا منزل زميل لى فى مدرسة المعلمين هو المرحوم محمد على، ورجوته أن يستعير لى ذلك الكتاب استعارة خارجية باسمه، وذلك احتياطًا للعواقب، وأحضر لى محمد على الكتاب، فتصفحته واستخلصت منه تصميمًا لقنبلة، ثم أعدته لزميلى ليعيده بدوره إلى دار الكتب».

(٣٨)

وقد وظف سيد باشا علمه من أجل وضع خطة إنتاج القنبلة التى تمكن الثوار من تصنيعها فى بعض الورش الميكانيكية، بمعاونة عمال ورش عنابر السكك الحديدية:

«. . . كان هذا هو التصميم الذى وضعته للطريقة التى سنستخدمها لإرهاب المصريين الذين يتعاونون مع الإنجليز، وكان لابد لى أن ألجأ إلى ورشة ميكانيكية لتصنع لى الأسطوانة بهذا الشكل الخاص، وكان من اللازم أيضًا أن تكون صناعة هذه الأسطوانة فى غاية السرية والكتمان، وفى مكان أمين، فاتجه تفكيرى إلى ورش عنابر السكك الحديدية، وكان عمال العنابر من أكثر العمال حماسًا للحركة الوطنية، فطلبت من المرحوم محمد عثمان الطوبجى، باعتباره متصلاً بالعمال وزعمائهم، أن يرشدنى إلى عامل موثوق به من عمال ورش السكة الحديد، فجاءنى بالوطنى المخلص الشجاع الحاج أحمد جاد الله، وليس فى وسعى أن أجد العبارات التى يمكن أن أصف بها شجاعة هذا الرجل، وقوة إيمانه بالله، ورغبته فى التضحية بكل ما يملك من مال وحياة لإخراج الإنجليز (الكفار) على حد تعبيره، من مصر. وصفت بدقة للحاج أحمد الغلاف الذى أريده وأريد منه أن يصنعه فى مكان لا يراه فيه أحد ولا يعلم به أحد، وأخبرته بأنى سأدفع له ثمن كل ما يصنعه حسبما يطلب، فاستجاب لكل ما طلبته منه، ثم سأل لأى شىء تلزمكم هذه المواسير، فصارحته بالأمر بعد أن أقسم هو ومحمد الطوبجى على المصحف بألا يبوحا لأحد ما بشىء من هذا الموضوع، ثم سأل: «ومَنْ سيقوم بهذا العمل الوطنى الكبير؟»، فقلت له: «الطلبة»، فقال: «ولماذا لا نشترك نحن العمال مع الطلبة؟»، فقلت: «لا مانع إذا كان العمال مستعدين لذلك»، فقال: «إن العمال يشرفهم أن يشتركوا معكم فى هذا العمل الطيب (ليتخلصوا) من الإنجليز الكفار، واتركا لنا نحن العمال قتل الكفار الإنجليز، وأنتم يا طلبة عليكم المصريون اللئام»، فقلت: «وهل تعرف من العمال أشخاصًا يوثق بهم ويقبلون الاشتراك معنا؟» فقال: «بكل تأكيد»، وانتهى حديثنا على أن الحاج أحمد جاد الله سيختار من زملائه العمال اثنين أو ثلاثة ليعرفهم بمحمد الطوبجى، ثم نعلمهم استعمال المسدسات وضرب النار وإلقاء القنابل، ويكون معهم الحاج أحمد ليتعلم هو

أيضًا إطلاق النار، وبعد ثلاثة أيام من هذا اللقاء كان فى محل محمد الطوبجى «لفة» بها ١٥ غلافًا مطابقًا تمامًا لأصل التصميم، مع رسالة مذكور فيها أن العمال لا يقبلون أن يبيعوا شيئًا لأعمال الوطن، وبعد يومين آخرين كان بمحل محمد الطوبجى لفة بها كمية من حصى الحديد (كبير ومتوسط وصغير) أتى بها الحاج أحمد جاد الله».

(٣٩)

ويأتى إلى دور البطل أحمد عبد الحى كيرة فى حديث صديقه وزميله الدكتور سيد باشا، وقد رحب هذا البطل بالمشاركة فى تحضير القنابل، وتولى استحضار بعض المواد الكيميائية الخاصة بها:

«. . . وكان لى صديق وبلديات طالب بمدرسة الطب وهو المرحوم أحمد عبد الحى كيرة، وكنا نتقابل كثيرًا، وسمعت منه أن معامل مدرسة الطب ليس عليها رقابة تذكر، وأنه من السهل على أى طالب طب أن يحصل على ما يحتاجه من المواد الكيميائية من هذه المعامل، فذهبت إلى صديقى هذا فى منزله وأفضيت إليه بعزمى على عمل قنابل لإلقائها على المتعاونين مع الإنجليز من المصريين لإرهابهم، وسألته إن كان يرغب فى الاشتراك معى فى هذا العمل، فرحب متحمسًا وتعاهدنا معًا على العمل، وأخبرته بأن لنا شريكا ثالثًا هو الأخ يوسف السيد العبد، ثم طلبت منه أن يحضر لنا من معامل مدرسته المواد الكيميائية اللازمة، وهى زجاجة نصف لتر أو أكثر من حامض الكبريتيك، وكمية كبيرة من كلورات البوتاسيوم وحامض البكريك، فأحضر حامض الكبريتيك وكلورات البوتاسيوم، ولم يجد حامض البكريك».

«وكنت أعرف من دراستى أن المصابغ البلدية تستعمل حامض البكريك كعامل لتثبيت بعض الصبغات، ففضلت أن أشترى ما أحتاجه من تلك المصابغ وذلك لأن شراءها من مخازن الأدوية أو الصيدليات قد يعرضنى للشبهات، وفعلاً قصدت حى الجمالية حيث كانت تكثر تلك المصابغ هناك فى ذلك الوقت، واشتريت ما كنت أحتاجه، وبذلك تمت لى كل المواد لصناعة القنبلة، فعبأت ثلاث قنابل وأطلعت يوسف وأحمد على كل ما تم».

ويشير الدكتور سيد باشا إلى وعيه بأهمية تجريب القنابل قبل استخدامها، وإلى قيامه بهذا التجريب بنفسه، وإلى وعيه أيضًا بضرورة تأمين تخزين القنابل حتى الحاجة إليها فى النشاط الفدائى:

«واتفقت أنا ويوسف على أن نأخذ القنابل الثلاث المعبأة ونخرج إلى منطقة الغابة المتحجرة بصحراء المقطم شرقى القلعة على بعد حوالى خمسة كيلومترات منها، وذلك لنقوم بتجربة على القنابل، وذهبنا وتحققنا من فاعلية القنبلة وعدنا مسرورين من نجاح التجربة، وكان الحاج أحمد قد أحضر إلينا ١٥ غلافًا غير الأغلفة التى كان جاء بها من قبل، فعبأت كل ما كان لدينا بدون وضع حامض الكبريتيك حيث لا يجب وضعه إلا عند أخذ القنبلة، كما وضعت فى عشر منها حصوات حديد كبيرة جدًا لإلقائها على المنشآت العسكرية الخاصة بالجيش الإنجليزى، وأصبح فى حوزتنا ٢٧ قنبلة و٢١ مسدسًا معدة للاستعمال، ورأيت من الواجب أن تحفظ هذه الذخيرة فى مكان أمين بعيد عن الأنظار، فطلبت من الحاج أحمد أن يرسل لى نجارًا أمينًا، فأرسل لى المرحوم محمد فهمى على من عمال البناء ومن الذين اشتركوا معنا فى العمل، ووصفت له عمل مخبأ تحت أرضية إحدى حجرات المنزل الذى به حروف مطبعة «المصرى الحر»، ووضعت القنابل والمسدسات كلها فى المخبأ، ثم وضعت بالحجرة بعض الأثاث».

«وبعد أن تم إعداد السلاح وتجربة القنابل ثم حفظ كل شىء فى مكان أمين، جاء دور التدريب على استعمال المسدسات وإصابة الهدف، فذهبنا مرة أخرى إلى منطقة الغابة المتحجرة أنا ويوسف ومحمد عثمان الطوبجى وأخذنا معنا ثلاثة مسدسات وعدد من الطلقات ودربتهما على استعمال المسدسات وإصابة الهدف، ثم كررنا عملية التدريب هذه أربعة أيام متتالية، وفى نفس المكان دربت أنا ومحمد الطوبجى الزملاء الحاج أحمد جاد الله وإبراهيم موسى ومحمد فهمى على وراغب حسن وعلى محمد على استعمال المسدسات وإصابة الهدف حتى أتقنوا إصابة الأهداف إتقانًا جيدًا، ثم اشترينا من الضباط الإنجليز كمية أخرى من الطلقات تعويضًا لما استهلك منها فى التدريب».

«ولم تكن هناك حاجة للتدريب على استعمال القنابل، وكان يكفى أن نصف لمن سيلقى القنبلة كيفية إلقائها، ولم يبق بعد ذلك إلا التنفيذ، لكن قبل السير فى التنفيذ هناك اعتبارات يجب مراعاتها، أهمها أن عدد أفراد الجماعة التى تؤمن بفكرة العمل على قتل ما يمكن قتله من الإنجليز وإرهاب المصريين هم ثلاثة فقط: يوسف العبد، وأحمد كيرة، وسيد محمد باشا، صحيح أتى معنا ستة آخرون وهم جماعة العمال: محمد الطوبجى، وأحمد جاد الله، وإبراهيم موسى، وراغب حسن، وعلى محمد، ومحمد فهمى على، ولكن جماعة العمال جهاز تنفيذ فحسب، وهذا العدد كاف للتنفيذ فى الناحية التى اختاروها لأنفسهم، وهى ناحية قتل الإنجليز».

«أما الفريق الآخر، وهو فريق إرهاب المصريين المتعاونين مع الإنجليز بإلقاء القنابل عليهم، فعدد أفراده قليل، لاسيما أننا كنا اتفقنا على أنه يجب أن يشترك فى أى عملية ثلاثة أفراد أحدهم المنفذ، والتالى يعطى الإشارة للاستعداد، والثالث لحماية المنفذ بإطلاق الرصاص على مَنْ يحاول تتبع المنفذ أو إمساكه، وفى هذه الحالة نكون عرضة للضياع فى أول خطوة من التحرك إذا قبض علينا أو بعضنا، فقد نعدم نحن الثلاثة أو بعضنا، وعندئذ تموت الفكرة فى مهدها، ويقف العمل من بدايته، إذًا من اللازم أن تتسع قاعدة هذا الفريق، لكن حذار أن يتسع كثيرًا أو أن تتسع القاعدة فى دائرة واحدة، بل يجب تكوين دوائر أخرى تمس كل منها الدائرة الأصلية فى نقطة واحدة (شخص واحد)».

(٤١)

ويشير الدكتور سيد باشا إلى محاولة تكوين تنظيمات عنقودية، وإن لم يستخدم المصطلح، وكيف تم تنظيم العمل من خلال هذه العناقيد، ونحن نلاحظ مما يرويه سيد باشا أنه يعترف اعترافًا واضحًا، وإن لم يكن صريحا، بالفضل الأكبر (لحلقة) العمال، وإن كان يشير بشعور يتوسط ما بين الحياء والفخر إلى أنه كان بمثابة الموجه أو المنسق لهذه الجماعة الفدائية التى تولت كل العبء فى إنجازات العمل الفدائى فى ثورة ١٩١٩:

«وتحدثت إلى أحمد ويوسف فى هذه النقطة واتفقنا على أن يحاول كل منا الاتصال بثلاثة من معارفه وأصدقائه الذين يأنس فيهم الاستعداد للعمل معنا، ويقبل أن يشترك فيه، ثم يكون هو والثلاثة حلقة مستعدة للعمل، مع مراعاة أن جميع المتصلين بهم بعضوى الحلقة الأصلية الآخرين ولا عن باقى أعمال الجماعة، وفى اجتماعنا هذا أقسمنا نحن الثلاثة على المصحف الشريف على أننا قد وهبنا أنفسنا لمصر وطننا العزيز علينا، وأن يتعهد كل منا بألا يبوح للغير بأسرار عملنا إلا إذا كان واثقًا وثوقًا تامًا من أن الإباحة بسرنا تفيدنا ولا تضر أحدًا منا، أو بمن يعملون معنا، ونظمنا العمل فيما بيننا على النحو الآتى:

«يعهد إلى سيد باشا بنشاط الجماعة الخاصة بقتل الإنجليز، أى يكون هو المتصل بحلقة العمال وموجهًا إياها، ويعهد إلى أحمد عبد الحى كيرة بنشاط الجماعة الخاص بإرهاب المصريين الذين يتعاونون مع الإنجليز، أى يكون هو المتصل بحلقات الطلبة وموجهًا إياها، ويعهد إلى يوسف العبد بالمعاونة فى كلا النشاطين، هذا فضلاً عن تعاون الكل فى أى عمل تقوم به الجماعة أو حلقاتها، وكونت حلقتى من محمد خليفة التاجر بكفر الزيات، وكان مندوبنا فى توزيع المنشورات فى كفر الزيات، وآنست فيه الاستعداد للاشتراك معنا وفاتحته فى الأمر فقبل الاشتراك معنا، ومن أحمد النجار، وكان طالبًا معى فى مدرسة المعلمين، وقبل الاشتراك معنا محمد عثمان الطوبجى باعتباره الصلة بينى وبين حلقة العمال التى كانت مكونة ممن سبق ذكرهم، وكون أحمد عبد الحى كيرة حلقة من عريان يوسف سعد، ومحمد الحفنى، وحسن توفيق، ولم يكوّن يوسف العبد حلقة، وبقى معاونًا فى كل العمليات».

(٤٢)

ويشير الدكتور سيد باشا إلى ما يصفه بأنه ثلاث خطط متوازية، ونحن نفهم بالطبع أن مثل هذه الخطط لم ترد على هذا النحو فى الاتفاقات المبدئية، وإنما طورتها التجربة والنجاح فى النشاط السرى على هذا النحو:

«ثم اتفقت أنا والحاج أحمد ومحمد الطوبجى على تنفيذ حركة قتل الإنجليز وتدمير ما يمكن تدميره من المنشآت العسكرية بثلاث خطط:

«الخطة الأولى والعاجلة: هى أن يقوم بعض العمال بارتياد شوارع وجه البركة وكلوت بك وما يتفرع منها، حيث كان يرتادها الإنجليز وصغار الضباط للسكر والعربدة، ويستدرجون مَنْ يمكن استدراجه من هؤلاء وهم سكارى إلى بعض أحياء القاهرة المظلمة والمهجورة كحى الدراسة بالحسين، ومنطقة مستشفى الحوض المرصود بالسيدة زينب، وهناك يقتلونهم».

«والخطة الثانية: تتبع مَنْ نتفق على قتله من كبار الضباط الإنجليز فى الجيش أو البوليس، أو من الشخصيات المهمة من الموظفين الإنجليز، ثم انتهاز أية فرصة مناسبة وإطلاق الرصاص عليه، وغالبًا ما يكون ذلك فى وضح النهار، مع ملاحظة أن تنفيذ هذه الخطة يحتاج إلى تدبير متأن ومحكم».

«والخطة الثالثة: وهى تدمير المنشآت العسكرية الإنجليزية، وتجمعات الجنود الإنجليز، وذلك بانتهاز أى مناسبة وإلقاء القنابل القوية عليها».

«أما من حيث إرهاب المصريين المتعاونين مع الإنجليز فنقوم بتتبع ومراقبة سير مَنْ يتقرر إرهابه ثم يحدد يوم لإلقاء قنبلة أو أكثر عليه من القنابل الخفيفة المحشوة بحصى حديد صغير، وعلى هذه الأسس سار عملنا نحن فدائى سنة ١٩١٩».

(٤٣)

وفى خضم هذا الحديث كله لا يغفل الدكتور سيد باشا عن التنفيس عن شعوره بالضيق ممن سموا أنفسهم «جماعة اليد السوداء»، وعن إدانة تصرف المنتمين إلى هذه الجماعة التى استغلت العمل الوطنى من أجل النصب:

«... ظهر فى تلك الآونة جماعة أطلقوا على أنفسهم اسم «جماعة اليد السوداء»، وهم من الطلبة، وغرضها قتل الخونة من المصريين، وكان أفرادها يذهبون ملثمين إلى الأعيان والتجار ويطلبون منهم التبرع لجمعيتهمْ ويهددون مَنْ لا يدفع لهم، ثم انكشفت للجنة الطلبة أمر هؤلاء النصابين فأصدرت اللجنة منشورًا حذرت فيه المواطنين من هؤلاء النصابين حيث لا وجود لمثل هذه الجماعة بين الطلبة».

(٤٤)

ويتحدث سيد باشا أيضًا عما اعتراه هو وأصحابه من التفكير فى تدبير التمويل من خلال التنظيمات المرتبطة بالوفد، وذلك فى ظل غياب سعد باشا زغلول عن مصر، وهو يشير إلى رأى ينفرد به، وهو أن عبد الرحمن فهمى كان معارضًا للعمل السرى على الرغم من شهرته الذائعة بالمسئولية عن مثل هذا العمل!!:

«هل نطلب من هيئة الوفد المصرى أن يمولنا من التبرعات التى كان يجمعها من المواطنين للحركة الوطنية؟ وممن نطلب؟ إن سعد باشا الذى يعرفنى جيدًا موجود الآن فى باريس، هل نطلع عبد الرحمن بك فهمى على سرنا ونطلب منه أن يمدنا بجزء من المال الذى خصصه الوفد لطبع المنشورات السرية ونحوها؟ ولكن هل يصدقنا ويوافق على عملنا ويمدنا بالمال اللازم؟ إنه يعرفنى جيدًا باعتبارى مساهمًا فى الحركة الوطنية، ومشرفًا على طبع المنشورات، فقررت أن أجس نبضه من بعيد فترددت عليه يومين متتاليين، وفى كل مرة كنت أوجه الحديث معه إلى ضرورة التفكير فى الانتقام من الإنجليز الذين يحصدون أرواح المتظاهرين بلا رحمة، وكنت أجد منه نفورًا شديدًا مصحوبًا بالفزع من استعمال العنف والاتجاه إلى قتل الإنجليز قائلاً: إنه لا يجب أن تخرج عن خطة الوفد التى تنص على أنه يسعى إلى الاستقلال بالطرق السلمية، فتيقنت أنه لا فائدة ترجى منه، ولا من الحديث معه فى مجال عملنا».

«وعندئذ فكرت فى الرجل الطيب الذى أحبه ويعجبنى شعوره نحو وطنه، وحماسه لكل عمل يراه فى صالح مصر، وهو فى نفس الوقت يثق بى ويتوسم دائمًا الجد فيما أقول، ولا ضرر علىّ إذا فاتحته فى الموضوع، وسيكون صريحًا معى صراحة تامة، ولا خوف علينا منه إذا عرف أمرنا ولم يوافق عليه، وذهبت إلى المرحوم عبد اللطيف الصوفانى بك وأفضيت إليه بكل شىء ونحن وحيدان، فابتهج الرجل وقال لى: «بارك الله فيك وفى أمثالك من شباب الوطن، وفقكم الله لما فيه صالح البلاد»، وأخرج من جيبه عشرين جنيهًا وناولنى إياها قائلا: «هل هذا يكفيك»، قلت: «نعم هذا يكفينى الآن»، فقال: «وأنا مستعد لأن أمدكم بكل ما تحتاجونه»، فشكرته وانصرفت وأخبرت يوسف وأحمد بكل ما حدث بينى وبين الصوفانى بك».

(٤٥)

ونصل مع الدكتور سيد باشا إلى ما يرويه عن التخطيط للاعتداء على رئيس الوزارة محمد سعيد باشا، وهو أول مَنْ قبل رياسة الوزارة الإدارية بعد استقالة وزارة رشدى باشا، وهو يتحدث بالتفصيل عن الدور الذى قدر له أن يقوم به فى هذه المحاولة الفدائية:

« . . أن قبول محمد سعيد باشا لتأليف الوزارة يعتبر تحديًا للحركة، وتعاونًا مع الإنجليز، وردًا على هذا التحدى قررنا الاعتداء عليه، وتطوعت أنا لإلقاء القنبلة على محمد سعيد باشا، لكن أحمد اعترض وقال: ليكن دورك إعطاء الإشارة وسيختار أحد من حلقة الطلبة لإلقاء القنبلة وترك لى اختيار أحد من جهتى للحماية، وراقبنا أنا ويوسف خط سير محمد سعيد باشا فى ذهابه فى الصباح إلى وزارة الداخلية، كان منزله يقع فى شارع المدابغ (شارع شريف الآن) بين وزارة الأوقاف وجريدة «الأهرام» (شيد مكان منزله الآن جملة عمارات)، وكان يخرج من منزله فيسير فى شارع جامع جركس (صبرى أبو علم)، فميدان سليمان باشا (ميدان طلعت حرب)، فشارع سليمان باشا (طلعت حرب)، فميدان قصر النيل، فشارع (قصر العينى)، فشارع السلطان حسين إلى وزارة الداخلية، وقررنا أن يجلس مَنْ سيلقى القنبلة عليه على قهوة كانت موجودة على ناصية شارع كوبرى قصر النيل (التحرير) وميدان قصر النيل، وأقف أنا لأعطى الإشارة على ناصية شارع سليمان باشا وميدان قصر النيل، ويقف مَنْ سيحمى مَنْ سيلقى القنبلة فى شارع كوبرى قصر النيل على مقربة من ناصية ميدان قصر النيل (التحرير)».

(٤٦)

ويحرص سيد باشا على أن يورد رواية عن لقائه بالمصادفة بالنقراشى، الذى كان يعرفه من قبل، وحديثهما عن النشاط الفدائى، وإعجاب النقراشى بالخطوات التى مضى فيها سيد باشا، وحرصه على تعريف زميليه أحمد ماهر والشيشينى بسيد باشا، ومع أن سياق القصة كلها يأتى فى موضعه الطبيعى، فإننا نعجب أن يضحى

سيد باشا بكل احتياطاته، التى عودنا الحديث عنها، ويندفع فى الحديث عن كل التفصيلات للنقراشى على هذا النحو:

«. . . وقبل موعد التنفيذ بنحو أسبوع كنت ماراً على محل محمد توفيق شاكوش الترزى لأتحقق إذا كان وصله المنشور الذى كان قد تم طبعه فى اليوم السابق، فوجدت محمود أفندى النقراشى جالسًا وعنده اثنان آخران لم أكن أعرفهما من قبل، أما النقراشى فقد كنت تعرفت به بمناسبة ذهابنا معًا، للاعتذار لبطريرك الأرمن عن قتل أحد الأرمن أثناء المظاهرات، فلما رآنى النقراشى دعانى لأجلس معه بعيدًا عن الموجودين، وبعد حديث قصير دار بيننا سألنى إذا كان يمكن أن نجد من بين الطلبة شبانًا موثوقًا بهم يقبلون أن يقوموا بالاعتداء على الخونة من المصريين، ولو أدى الأمر لقتلهم، فقلت له: طبعًا يوجد مصريون يؤمنون بالله وبوطنهم حرا، يرحبون بالتضحية فى سبيل الاستقلال».

«فقال: «أتعرف أحدا منهم؟».

«قلت: «نعم أعرف نفسى، وأعرف إخوانى الذين يشاركوننى الرغبة فى التضحية بأرواحهم».

«فنظر إلىّ مندهشًا قائلاً: «أأنت مستعد للقيام بهذه الأعمال؟».

«قلت: «ستسمع قريبًا جدًا ما سيحدث فى هذا الشأن».

«فسألنى: «وعندك سلاح؟».

«قلت: «نعم»».

«قال: «ومن أين حصلت عليه؟».

«قلت: «بعضه اشتريته، وبعضه صنعته».

«قال: «يعنى إيه؟».

«قلت: «اشتريت مسدسات وصنعت قنابل».

«فقال على الفور: «هل يمكننى أن أساعدك على ما اشتريت».

«فقلت: «أشكرك لست فى حاجة الآن إلى مال».

«فقال: «إنه ليس من عندى، إنه من مال الأمة».

«ثم سألنى: «ومَنْ هم هؤلاء الزملاء؟»».

«فأجبته: «لست فى حل من أن أبوح بأسمائهم لأحد».

«عندئذ نادى مَنْ كانا معه ليجلسا معنا ثم عرفنا ببعضنا، فعرفت أنهما الدكتور أحمد ماهر، والأستاذ حسن كامل الشيشينى، ثم قال النقراشى: «هاتوا أيديكم»».

«فمددنا أيدينا ثم قال: «ولنتعاهد ونقسم بالله على ألا يبوح أحد منا بالسر الذى ستعرفونه الآن».

«فأقسموا وأقسمت معهم».

«وعندئذ قال النقراشى: «إن سيد باشا وزملاء له قد سبقونا إلى ما كنا نفكر فيه، وسينفذون قريبًا ما كنا نتمنى تحقيقه».

« فقالا: «الحمد لله والله يوفقهم لعمل الصالح للوطن».

«ثم عقب أحمد ماهر قائلاً: «ألم أقل لكم إن شباب مصر شباب واع وجاد فى العمل لصالح الوطن؟»».

(٤٧)

ويزداد عجبنا من حرص سيد باشا على إلقاء كثير من الظلال على علاقته بالنقراشى عندما نقرأ ما يرويه عن لقائه بالصوفانى، وما يرويه كذلك عن لقائه التالى بالنقراشى:

«كان فى عزمى أن أمر على الصوفانى بك لأخبره أننا سنقوم بالتنفيذ فى محمد سعيد باشا خلال الأسبوع، وقوى هذا العزم عندى ما سمعته من قول النقراشى إنه يمكن أن يساعدنا من مال الأمة، فذهبت توًا إلى الصوفانى وأخبرته بموعد تنفيذنا فى محمد سعيد باشا فقام وشد على يدى وقبلنى، ثم قصصت عليه ما جرى بينى وبين النقراشى من حديث، فقال: «عندما تقابل النقراشى مرة أخرى عرفه بأنى على اتصال بكم، وأنى سأطلب من مال الوفد ما تحتاجون إليه من مصاريف»، وبعد يومين قابلت

النقراشي ببيت الأمة، وكان معى يوسف العبد، وأحمد كيرة فعرفتهم ببعض، وأخبرت النقراشي بأننى على صلة بعبد اللطيف الصوفانى، كما أخبرته بما قاله الصوفانى بشأن المساعدات المالية فقال: «على بركة الله، ولكم أن تتصلوا بى بدلاً من الصوفانى عند احتياجكم لأى شىء»».

«وفى هذه المقابلة طلب منى النقراشي رسمًا لتصميم القنبلة، مع بيان المواد التى تحتويها، فأعطيته كل ما طلب، ولعل النقراشي كان يريد أن يكلف غيرنا بعمل القنابل ليوسع الدائرة، لكنى لم أر أثرًا لذلك».

(٤٨)

ثم هو يصل إلى الحديث عن الواقعة نفسها حين شارك فى محاولة اغتيال محمد سعيد باشا، وكيف فشلت هذه المحاولة، وتنفرد مذكرات سيد باشا بالإشارة إلى اسم الزميل الذى تسبب فى فشل هذه المحاولة، على حين لم يشأ الآخرون ممن رووا ذكرياتهم تحديد شخصيته (وهو عبد الحميد المنصورى):

«. . . كان موعد التنفيذ على ما أذكر يوم ٣١ يونيو سنة ١٩١٩، واجتمعنا أنا وأحمد ويوسف قبل ذلك بيومين وأخبرنا أحمد أن الشخص الذى اختاره ليلقى القنبلة هو عبد الحميد المنصورى، وقد قبل العمل بارتياح وحماس، وأعطانى عنوانه وكان فى حارة تتفرع من شارع كلوت بك».

«وفى مساء اليوم التالى، أى قبل يوم إلقاء القنبلة بيوم، ذهبت إلى المنصورى فى بيته وعرفته بأنى موفد من قبل أحمد عبد الحى لتسليمه الأمانة، وهى القنبلة، وشرحت له كيفية حملها وإلقائها، كما عرفته المكان الذى سينتظر منه الإشارة، وهى منديل أبيض يرفع من جيب السترة إلى أعلى ليحاذى الرأس تقريبا».

«ثم ذهبت إلى محمد الطوبجى وسلمته مسدسًا، وأخبرته بأنه مكلف بحماية مَنْ سيلقى القنبلة غدًا على محمد سعيد باشا، وعرفته المكان الذى سيقف فيه، وبوقت تواجده فيه، وفى الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم المحدد كنت واقفًا فى ميدان

قصر النيل عند ناصية شارع سليمان باشا وفى جيبى مسدس، ووجدت زميلى كل فى مكانه، وبعد عشر دقائق من وصولى لاحظت أن عبد الحميد المنصورى يسير بين رجلين والقنبلة فى يده، ودخلوا الثلاثة شارع كوبرى قصر النيل متجهين نحو ميدان الأزهر، فأشرت إلى محمد الطوبجى، وكان لا يعرفه المنصورى، بالابتعاد فوراً، وأسرعت أنا بالصعود إلى عربة حنطور كانت مارة أمامى وطلبت من السائق أن يوصلنى إلى الكوبرى الأعمى (الجلاء)، ومن هناك أخذت الترام إلى الجيزة، ثم إلى كوبرى الملك الصالح، ومن عند كوبرى الملك الصالح أخذت عربة حنطور إلى ميدان زين العابدين حيث كان هناك منزل خالى الشيخ إبراهيم بيومى، وفى منزل خالى إبراهيم استبدلت بدلتى بجلابية بلدى صوف كانت لمحمد ابن خالى، ثم خرجت وأخذت الترام إلى الجيزة، ثم إلى الأهرام، وفى مكان غير مطروق قريبًا من الهرم الثانى جلست أفكر فيما حدث».

(٤٩)

ويستطرد سيد باشا راويًا تفصيلات ما اعتراه من شكوك بسبب موقف عبد الحميد المنصورى:

«. . . هل المنصورى خاننا أو خانته قواه لرهبة الموقف فاضطر إلى تسليم نفسه إلى البوليس؟ ولكن الذين معه ليسوا ضباطًا أو جنودًا! ربما كانوا مخبرين، هل اشتبه فيه المخبرون الذين كانوا ينتشرون فى طريق مرور رئيس الوزراء، ومن ثم اكتشفوا أمره وكانوا يقودونه إلى قسم البوليس؟ هل خاننا المنصورى وأخطر البوليس قبل مجيئه إلى مكان التنفيذ واتفق مع البوليس على أن يحضر ليقبض عليه وعلىّ متلبسين بالجريمة كما كانوا يسمونها؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يدلهم على وأنا واقف لأعطى الإشارة؟ مهما يكن من أمر لابد من الاحتياط لكل هذه الاحتمالات، وأول احتياط هو أنى لا أعود إلى منزلى، ولا أذهب إلى منزل أى أحد من أقاربى أو بلدياتى، لأنه إذا كان المنصورى قد اعترف علىّ فإن جميع هذه المنازل ستبحث وتقتحم للقبض علىّ، كما سيقتحم منزلنا بالبلد، وعندما مر بخاطرى اقتحام منزلنا فى البلد انتابتنى رعدة

شديدة، لأنى تخيلت حال والدىّ عندما يحدث هذا الاقتحام، لاشك أنهما سيصدمان صدمة شديدة، إشفاقًا علىّ وأنا الذى أحرص على راحتهما، وهنائهما، أكون سببًا لحزنهما».

«وانطلق لسانى مناجيًا عفوًا يا والدى، فقد دفعنى لما فعلت إيمانى بالله، وحبى لوطنى الذى أحبه كما أحبكما، عفوًا يا إلهى إذا كنت أنا قد تسببت فى إزعاج والدى وأنت أمرتنى بألا أقول لهما أف لأنك وضعت الوالدين بالنسبة للناس فى الدرجة الثانية لدرجتك حيث قلت فى كتابك العزيز: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا»، وقضيت بقية اليوم حتى غروب الشمس بمنطقة الأهرام متجولاً ومتجنبًا الناس بقدر الإمكان، وبعد الغروب بقليل أخذت الترام إلى محطة الإسعاف بشارع بولاق، ومن هناك أخذت عربة حنطور مخترقًا شارع عباس (رمسيس) إلى منزل صديقى وزميل صبانا التاجر حامد يوسف عاشور، وكان بشارع عباس أمام كنيسة البطرسية، وأخبرته أنى فى أزمة وأحتاج إلى المبيت عنده تلك الليلة، فرحب بى، وقضيت عنده الليل».

«وفى الصباح شكرته وودعته وذهبت فى عربة إلى منزل صديقى وزميلى فى مدرسة المعلمين المرحوم الدكتور محمد حسنى عباس، وكان يقطن بحى الظاهر، وكنت أتردد على منزله من قبل بحكم أننا كنا الاثنين من هواة الموسيقى. كان يعزف على الكمان، وأنا أعزف على العود، وكنا نعزف سويًا، فلما رآنى أدخل عليه بالجلابية بادرنى بقوله: «وفين العود يابلدى؟»، فقلت له: «إن اليوم ليس يوم تزمير، إنه يوم تفكير وتدبير»، ثم أخبرته بحالى، فظن أنى جئت لأختبئ عنده فى منزله وقال: إن كثيرًا من زملائنا الطلبة يعرفون أنك تتردد علىّ، وربما تصل النذالة بأحد منهم أن يخبر البوليس باحتمال وجودك هنا، ومن رأيى أن تسافر فورًا إلى عزبتنا وتبقى هناك فى أمان، كان قد سبق لى أن ذهبت إلى تلك العزبة التى يملكها والد الدكتور محمد حسنى عباس بجهة مشتول السوق، وبالعزبة منزل أنيق بمعزل عن القرية، وتحيط به حديقة كبيرة جميلة، فقلت: أنا لا أريد أن أختفى فى مكان بعيد عن القاهرة لأنى سأتابع عملى مع إخوانى مختفيًا، وقد أعددت المكان الذى سأختفى فيه،

وكنت أقصد المنزل الذى استأجرته لحروف المطبعة والذى أخفى فيه بعض الأسلحة. أما المهم عندى الآن فهو سفرى إلى إحدى القرى المجاورة لقريتنا لأتمكن من إعلام والدى أنى فى أمان وأطمئنه ثم أعود إلى القاهرة، واستقر الرأى على أن أسافر فى نفس ذلك اليوم إلى البلد على أن أركب القطار من محطة شبرا البلد، لا من محطة مصر التى ستكون به رقابة شديدة».

(٥٠)

ويورد سيد باشا تفصيلات طريفة عن هربه بالسكة الحديد إلى قريته مدعيًا أنه كفيف:

«وطلبت من حسنى أن يذهب ويشترى لى نظارة سوداء لأنى سأدعى أنى كفيف فى بعض الأحيان أثناء السفر، وفى الساعة الواحدة بعد الظهر ركبنا أنا ومحمد حسنى عرب إلى شارع شبرا ونزلنا أمام محل صيد الحمام (التيرو) بشارع شبرا، ثم أخذنا عربة أخرى أوصلتنا إلى محطة شبرا البلد، وكنت أضع النظارة السوداء على عينى وتظاهرت بأنى لا أرى، واشتريت تذكرة إلى محطة السوالم، وهى محطة قبل محطة فارسكور مباشرة، وأجلسنى حسنى على أحد مقاعد الدرجة الثالثة بجانب مسافر إلى المحلة الكبرى، وأوصاه بأن يقودنى فى محطة طنطا عند تغيير القطار لكى أركب القطار الذاهب إلى المنصورة، واهتم بى جارى فى القطار مدة وجوده معى حتى محطة المحلة الكبرى،».

«وعندما غادر القطار محطة المحلة عدت بصيراً بإذن الله، وعندما وصلت محطة السوالم كان الليل قد أرخى سدوله، فاستأجرت حماراً إلى ميت أبو غالب، وهى قرية والدتى، وكان بها مَنْ يعرفوننى فتحاشيت بقدر الإمكان أن أظهر نفسى لأحد، وعند ميت أبو غالب عبرت النيل فى معدية وذهبت إلى شرباص التى تقع على الضفة الشرقية من فرع دمياط تجاه ميت أبو غالب. شرباص تبعد عن بلدتنا كفر الشناوى بحوالى ثلاثة كيلومترات، وكان لى أختان متزوجتان ومقيمتان مع زوجيهما وأولادهما بشرباص، وكان منزل إحداهما يقع فى وسط البلد بينما منزل الأخرى يقع فى طرف البلد، ففضلت أن أذهب إلى منزل أختى الذى يقع فى طرف البلد، وعند

دخولى المنزل أشرت إلى الموجودين بالصمت وعدم التهليل لاستقبالى فاستجابوا، لاسيما وأنهم قد علموا بأن منزلنا بالبلد قد اقتحم فى صباح ذلك اليوم لتفتيشه والبحث عنى».

(٥١)

ويحرص سيد باشا على أن يبدى سعادته بنجاة بيت عائلته من اكتشاف ما كان فيه من أدلة كانت كافية لإدانته، ويشير سيد باشا إلى نصيحة والده له إذا ما كان يرغب فى البقاء بعيدًا عن القاهرة لمدة أسبوع، بأن يقيم عند صديق له اسمه الشيخ أحمد طرابية من أعيان كفر حميدة الواقع على مسافة كيلومترين جنوبى عزبة البرج المواجهة لرأس البر، وهو يروى أنه قد أخذ بنصيحة والده هذه:

«. . . وسألت إذا كان تفتيش البوليس لمنزلنا قد أسفر عن أخذ شيء؟ فقالت أختى: لم يأخذوا شيئًا أبدًا من منزلنا، وكان مبعث سؤالى هو أنه بمنزلنا المسدس الذى استعملته فى إطلاق الرصاص على المفتش الإنجليزى ديكسون، وسيف من الصلب كنت أقتنيته، وقد علمت فيما بعد أنه كان من بين رجال البوليس المصرى والجنود الإنجليز الذين حضروا لمحاصرة المنزل وتفتيشه كونستابل مصرى، وهو الذى عثر على (الطبنجة) المسدس والسيف، وعندما عثر عليهما دسهما فى رماد محمى فرن المنزل، وعرفت بعد عشر سنوات من ذلك الكونستابل نفسه أنه المرحوم حامد الأرناؤوطى صديقى وزميلى فى مدرسة دمياط الابتدائية، ولشد ما كان تأثرى عندما أخبرتنى أختى أنه أثناء تفتيش المنزل كان والدايّ فى حالة يستحقان الإشفاق عليهما، وهذا ما كنت أتوقعه، وحزّ ذلك فى نفسى وآلمنى ألمًا شديدًا».

(٥٢)

وفى وسط حديث ذكرياته عن تلك الأيام التى ظل هاربًا فيها، والتى امتدت نحو خمسة أشهر، يروى لنا الدكتور سيد باشا كيف أنه بدأ يحس بالقلق وأن هذا القلق جعله يبدأ فى البحث عن صدى هربه عند الناس، وأنه غامر بالخروج من المنزل المختبئ فيه كى يرى الدنيا ويلتقى أهلها، وهو يجد ما توقعه من ملاحقة السلطات لأهله

ومعارفه، فينفجر، لكنه سرعان ما يتذكر فضل الله عليه فى هذه الناحية فيشير إلى أن عمله كان خالصًا لوجه الله، ومن الطريف أن نجد سيد باشا حين كتب مذكراته فى شيخوخته لايزال ملمًا بكل هذه التفاصيل:

«استأنفت نشاطى فى العمل مع يوسف وتجرأت على الخروج من المنزل فى النهار، وفى مرة ذهبت إلى منزل خالى إبراهيم وعلمت أن منزله ومنزل خالى السيد قد اقتحما للتفتيش علىّ، كما اقتحم مكتب ومنزل الشيخ مصطفى نوفل تاجر الفحم بشارع المناخ (ثروت باشا) كان يمت إلينا بصلة نسب، واعتقل ثلاثتهم بعض الزمن ليعترفوا بمكان وجودى، ولما لم يُستفد منهم بأية معلومات أخلى سبيلهم».

«وفى يوم آخر ذهبت إلى صديقى محمد حسنى عباس وعلمت منه أن منزله قد اقتحم للتفتيش علىّ و(عثروا) على صورة فوتوغرافية لى ومحمد حسنى معًا، وقد أخذ البوليس تلك الصورة، وقال محمد حسنى: «إن من المؤلم أنه كان مع البوليس أثناء التفتيش زميلنا فى مدرسة المعلمين وصديقك العزيز!!! حسين الزيات، الذى كنت تأويه ليلاً ونهاراً فى منزلك وتذاكر له دروس الرياضة التى ما كان يفهم منها شيئًا، وهو الذى دلهم على وجود هذه الصورة عندى لأنه كان رآها من قبل».

«وهكذا بُذلت كل هذه الجهود للقبض علىّ، ولكن الله حمانى وذهبت الجهود هباء، لأن الله يعلم أنى لم أكن أبغى من وراء عملى شهرة أو تظاهراً أو ثوابًا إلا من الله، وكان عملى خالصًا لله، ولصالح وطنى بغير مقابل».

«مكثت مختبئًا بالمنزل الكائن بسكة بركة الفيل نحو خمسة أشهر، وكنت خلال هذه المدة دائم الاتصال بزملائى يوسف العبد ومحمد الطوبجى والحاج أحمد وإبراهيم موسى وأحمد عبد الحى بعد خروجه من الاعتقال لعدم وجود أدلة ضده، كما خرج المنصورى، وكنت أتابع وأشترك معهم فى الاستمرار فى عملنا لطبع جريدة «المصرى الحر»، والمنشورات، وعمليات قتل الإنجليز».

(٥٣)

ويتحدث الدكتور سيد باشا عن المحاولة الثانية للاعتداء على رئيس الوزراء محمد

سعيد باشا، وهى المحاولة المعروفة التى قام ببطولتها الطالب الأزهرى سيد على، ونحن لا نجد فى المصادر الأخرى المتاحة ما يدلنا على اكتشاف علاقة سيد باشا بهذه المحاولة:

«. . . وأثناء هذه الفترة أيضًا قررنا إعادة الاعتداء على محمد سعيد باشا لإرهابه، لاستمراره فى التعاون مع الإنجليز، وكان قد سافر مع أعضاء وزارته لقضاء الصيف فى الإسكندرية».

«وفى ليلة من ليالى شهر أغسطس كنت فى محل محمد إسماعيل أصيل، وجاء محمد خليفة أحد أفراد حلقتى ومندوبنا فى توزيع المنشورات بكفر الزيات، وكان قد جاء ليأخذ نصيب منطقته من عدد جريدة «المصرى الحر» الذى كان قد طبع أخيرًا، ولم يكن قد رآنى متخفيًا من قبل، فانتحيت معه جانبًا وأظهرت له شخصيتى وقلت له: إن عليه أن يلقى قنبلة على محمد سعيد باشا فى الإسكندرية، فوافق وقال: «سأعمل ترتيبى على أن نتقابل فى نفس المكان بعد أربعة أيام لأطلعك على ما يتم بشأن هذا الموضوع، وجاءنى فى الميعاد المحدد وقال: إنه قد تم ترتيب كل شىء، وأنه لن يكون المنفذ وإنما اختار غيره لإلقاء القنبلة، وسيكون هو معاونًا لمن اختاره لإلقاء القنبلة، ثم قال: إنه سيعود بعد أسبوع ليأخذ القنبلة، وأخذ محمد خليفة قنبلتين وألقاهما سيد على الطالب الأزهرى على سعيد باشا فى الإسكندرية فانفجرتا ولم يُصب محمد سعيد باشا، وكان هذا هو المقصود، وقبض على سيد على وحكم عليه بالسجن ١٥ عاما، وخرج بالعفو السياسى فى فبراير سنة ١٩٢٤».

(٥٤)

وعندما يصل سيد باشا إلى الحديث عن محاولة اغتيال رئيس الوزراء يوسف وهبة باشا، فإنه ينهى إلينا قرار اغتياله على يد قبطى، وكأن هذا القرار كان من البديهيات ولم يسبقه تفكير ذكى، وهو ينسب علاقة عريان يوسف سعد بهم إلى زميلهما أحمد عبد الحى كيرة، وهو ما لا يتعارض مع ما تضمنته مذكرات عريان يوسف نفسه التى لم تنشر أيضًا فى كتاب إلا بعد سنوات من وقوع هذه الحوادث.

ونقرأ فى حديث سيد باشا عن محاولة اغتيال يوسف وهبة تفصيلات أخرى عن قيام العمال والطلبة وخلاياهم المشتركة بمحاولات ناجحة لقتل الشخصيات الإنجليزية البارزة:

«وشكل الوزارة بعده يوسف وهبة باشا فقررنا الاعتداء عليه مع مراعاة أن يكون المعتدى (قبطى) ويسلم نفسه بعد الاعتداء للسلطات ليعرف أن المعتدى (قبطيًا)، وذلك خشية أن تنتهز السلطات الإنجليزية عدم ظهور المعتدى وتقول إنه مسلم وأن الاعتداء حدث نتيجة دوافع دينية، ولم نجد فى تنفيذ القرار أية صعوبة، إذ جاء أحمد عبد الحى بعد مرور يومين على اليوم الذى اتخذنا فيه ذلك القرار وأخبرنا أن عريان يوسف سعد القبطى والطالب بمدرسة الطب قدم نفسه متحمسًا ليقوم بالاعتداء على يوسف وهبة، فأخذنا نعمل الترتيبات والمراقبات اللازمة للتنفيذ، وأثناء ذلك وصلت لجنة استطلاع الرأى الإنجليزية وعلى رأسها اللورد ملنر، فقررنا اغتياله، وأحطنا الحاج أحمد جاد الله علمًا بقرارنا ليقوم فريق العمال بالتنفيذ ليكون ذلك بدءًا بتنفيذ الخطة الثانية من حركة العمال الخاصة باغتيال الشخصيات الإنجليزية، وبعد أسبوع من حديثى مع الحاج أحمد بهذا الشأن جاءنى الحاج أحمد ليقول لى إنهم بدأوا خطتهم الثانية بقتل الضابط الإنجليزى الكابتن صمويل كوهين، وكان ذلك فى أواخر شهر نوفمبر ١٩١٩، كما قال إنهم مستمرون فى تتبع اللورد ملنر، وأن الحراسة على (ملنر) قوية جدًا، وبعد نحو عشرة أيام من قتل الكابتن كوهين جاءنى الحاج أحمد أيضًا ليخبرنى أنه تم قتل الضابط الإنجليزى درنك».

(٥٥)

ويصل الدكتور سيد باشا إلى المرحلة التى تقرر فيها تهريبه للخارج، معللاً هذا القرار بما وصل إليهم من قرار محمد بدر الدين مدير الأمن العام بتكثيف الجهود للقبض عليه باعتباره المدبر الأساسى لجرائم الاغتيالات السياسية:

«وسرنا فى الإجراءات والعمليات الخاصة بالاعتداء على يوسف باشا وهبة، وأثناء سيرنا فى هذه العمليات أخبرنى يوسف أنه قد علم من المخبرين السريين الذين

قابلهم بأن محمد بدر الدين مدير الأمن العام قد وجه نداء إلى المخبرين يحثهم فيه على العمل للقبض على الطالب سيد محمد باشا بصفته متهمًا فى محاولة إلقاء قنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا، وبصفته القائد والمدبر الأساسى لجرائم الاغتيالات السياسية، ويخبرهم بمضاعفة المكافأة التى سبق الإعلان عنها لمن يرشد عن مكان وجود سيد باشا، وعلم يوسف من المخبرين أيضًا أنه يدور الآن بينهم همس بأنه قد حددت المنطقة التى فيها المكان الذى يختبئ فيه، وأنه سيقبض عليه عما قريب».

«عندئذ استقر رأينا على ضرورة سفرى للخارج، وإلى أن تتم الإجراءات اللازمة لمغادرتى البلاد يجب أن أنتقل من المنزل الذى أختبئ فيه إلى مكان آخر».

. . . .

«. . . وبعد ثلاثة أيام انتقلت إلى شقة صغيرة استأجرها يوسف باسم مستعار فى منزل بدرب البندق بشارع خيرت».

. . . .

«. . . وكان لى زميل بمدرسة المعلمين من سكان الإسكندرية، وكنت أثق به، وهو المرحوم أحمد زكى فهمى، فأوفدنا له أحمد محمد النجار لتكليف أحمد زكى بالسفر إلى الإسكندرية لبحث الموضوع، وعاد أحمد زكى من الإسكندرية ليخبرنا بأنه قد تم الاتفاق مع ربان سفينة إيطالية لأسافر معه خفية، على أن يأخذ الربان مقابل ذلك مائة جنيه (ذهب)، وكان الجنيه الذهب يشترى وقتئذ بأربعة جنيهات (ورق)، فأرسلت إلى والدى أخبره بجميع الظروف المحيطة بى وبرغبتى فى السفر إلى الخارج لإتمام تعليمى، وللتخلص من الحال الذى أعيش عليه، كما أخبرته أنى سأكون متخفيًا أثناء السفر، وأن ربان السفينة الذى سيأخذنى معه طلب مائة جنيه (ذهب) مقابل سفرى معه، ورد والدى بالموافقة على السفر والمصاريف».

(٥٦)

ويحرص سيد باشا على أن يرينا أن الثقة بالنفس قد دفعته هو وزملاءه إلى أن يقيموا

له حفل وداع قبل سفره للخارج، وإلى أنه قام أيضًا بوداع أهله واستأذنهم فى السفر، ولا يستطيع أحد أن ينكر مدى نجاح سيد باشا فى التصوير المؤثر للخطوات التى سبقت سفره للخارج، وربما يمكننا القول بأنه لم يكن يؤدى هذه الخطوات بهذا القدر من الثقة فى ذلك الوقت، لكننا لا نستطيع على أية حال أن نمنع أنفسنا من الإعجاب بشجاعته وجسارته:

«وفى يوم ٢٠ ديسمبر ١٩١٩ يوم أن قتل الضابط اديجون، أقيمت لى حفلة وداع بشقة منزل درب البندق حضرها يوسف العبد، وأحمد كيرة، ومحمد النجار، ومحمد عثمان الطوبجى، والحاج أحمد جاد الله، وإبراهيم موسى، ومحمد فهمى على، وعلى محمد راغب حسن، وفى هذا اللقاء أخبرت الحاج أحمد بأنى عهدت للأخ يوسف العبد بمتابعة نشاط فريق العمال وتزويدهم بجميع طلباتهم، فقال الحاج أحمد: «سافر وأنت مطمئن على نشاطنا، وكما ترى قد نفذنا ثلاث عمليات فى أقل من شهر».

«وفى يوم ٢١ ديسمبر ١٩١٩ سافرت إلى كفر الشناوى لأودع أهلى، ثم فى فجر يوم ٢٢ ديسمبر قبلت يدى والدى ووالدتى واستأذنتهما فى سفرى، وقال لى والدى وهو يناولنى كيسًا به مائة جنيه (ذهب) وخمسون جنيهًا (ورقًا): «لقد قلت يوم نجاحك فى البكالوريا إن نفسك تتمم تعليمك فى أوروبا، وها هى رغبتك تتحقق بإرادة الله، فسافر على بركة الله».

«وركبت قطار الصباح من محطة السوالم إلى الإسكندرية، ورافقنى فى سفرى ابن عمتى وزوج شقيقتى المرحوم عبد المنعم إبراهيم، وعند وصولنا إلى الإسكندرية، وكنت مازلت متنكرًا فى زى شيخ وعلى عينى نظارة سوداء، كان فى انتظارى بالمحطة زميلى فى الدراسة المرحوم أحمد زكى فهمى، فلم يعرفنى إلا بعد أن سلمت عليه، ثم رافقنا أنا والمرحوم عبد المنعم إبراهيم إلى شقة لأحد أقاربه الذى كان متغيبًا فى ذلك الوقت مع عائلته فى القاهرة، أمضيت بقية اليوم والليلة مع المرحوم عبد المنعم فى الشقة وحدنا، وأحضر لنا أحمد زكى ما احتجناه من طعام، وفى الصباح جاء أحمد زكى ليوصل عبد المنعم إلى محطة الإسكندرية ليأخذ القطار عائدًا إلى محطة السوالم، وبقيت وحدى فى الشقة حتى قبل الغروب حيث جاءنى أحمد زكى ومعه بدلة ربان

(قبطان) بحرى لأرتديها عند خروجى مساء تلك الليلة من المنزل، ثم طلب المائة جنيه الذهب فأعطيته إياها، كما أعطيته عشرة جنيهات ورق ليستبدلها بنقود إيطالية».

(٥٧)

ونصل مع سيد باشا إلى الباخرة التى ستنقله إلى الجانب الآخر من المتوسط، حيث يبدأ حياة جديدة، وتحفل رواية صاحب المذكرات بما يدل على سرعة تصرفه، وعلى قدرته على انتهاز اللحظات المناسبة لإتمام خططه، كما تحفل أيضًا بقدرته على الاحتياط والاحتراز، وإن لم يخل الأمر بالقطع من عنصر الحظ المواتى:

«فى الساعة التاسعة من مساء يوم ٢٣ ديسمبر ١٩١٩ كنت أصعد سلم الباخرة «سردينيا» بلباس ربان بحرى، ويتبعنى رئيس بحارة السفينة واسمه (البرتونو سترومو) يحمل حقيبتى، وقادنى رئيس البحارة إلى غرفة ربان السفينة الحقيقى، وبت تلك الليلة فى غرفة الربان، وكانت السفينة خالية من الركاب إلا أنا والبحارة، وفى الساعة التاسعة من صباح يوم ٢٤ ديسمبر أقلعت «سردينيا» من ميناء الإسكندرية وأنا على ظهرها فى غرفة الربان، وعند الظهر جاء الربان وعرفنى بنفسه وباسمه (لويجى برسكير)، وبلغة عربية مكسرة طلب منى أن أرتدى بدلتى العادية وأتبعه ومعى حقيبتى، حيث قادنى إلى غرفة من غرف الدرجة الأولى الممتازة وقال لى: «دى كمرتك وسيب الشنطة وروح مانجريا»، وأشار إلى فمه ففهمت أن أذهب إلى صالة الطعام، وسارت السفينة فى طريقها إلى نابولى، وكنت أتفاهم مع الربان بصعوبة أو بواسطة مَنْ كان يترجم بيننا من الركاب، لأنى لم أكن أعرف كلمة واحدة من اللغة الإيطالية، وبمرور الأربعة أيام التى قضيتها على ظهر السفينة، أصبحنا أنا وألبرتو أصدقاء، وأخذت منه عنوانه حيث كان لى من وراء ذلك غرض سيظهر فيما بعد، وصلت السفينة ميناء «نابولى» فى الساعة العاشرة من مساء يوم ٢٧ ديسمبر، ورست خارج الميناء حتى الساعة السابعة والنصف من صباح يوم ٢٨، وقبل أن تتحرك السفينة للدخول فى الميناء جاءنى الربان ليقول لى: «خلاص أنا ما أعرفش، إنت، إنزل وحدك مافيش تذكرة مافيش باسبورت»، فكانت مفاجأة أرهبتنى جدًا، حيث وجدت نفسى فى موقف حرج للغاية، لكن الله هو المسلم».

(٥٨)

وليس من الشذوذ فى شىء أن نرى صاحب المذكرات غير ملم بنظام السفر، ولا بقواعده، وربما كان هذا من حسن حظه، إذ لو عرف الحقيقة لانتابه القلق الكفيل بضياع نتائج جسارته واندفاعه إلى هدفه، وربما يدلنا هذا على ما فى هذه المذكرات من صدق فنى أتاح لها قدرة على التأثير، وعلى فهم قارئها لحقائق التاريخ :

« . . . لم أكن أعرف شيئًا عن نظام السفر للخارج، ولا عن كيفية الحصول على تذكرة السفر، كما كنت لا أعرف متى تطلب التذكرة أو جواز السفر، كل ما كنت أعرفه أن على المسافر للخارج أن يستخرج جواز سفر من وزارة الداخلية، ولا أدرى ما هو استعمال جواز السفر، وأنا ركبت السفينة ودفعت ثمن التذكرة للربان، ولكن ليس معى جواز سفر، فما هى الإجراءات للنزول من المركب؟؟ أنا لا أدرى شيئًا، ولم يرشدنى أحد بشىء».

«رست السفينة وأنزل سلمها وأخذ الركاب ينزلون، فحملت حقيبتى فى يدى ووقفت أراقب نزول الركاب وماذا يفعلون، فلاحظت أنه عند رأس سلم السفينة يقف على جانبى السلم ضابطان بينهما مسافة تبلغ نحو مترين، ولاحظت أن النازل من السفينة يتقدم من أحد الضابطين ويناوله دفتر صغير وبعض أوراق يتصفحها الضابط ويؤشر عليها ثم يعيدها إلى الراكب، فقلت فى نفسى : هذه هى المستندات التى ليست عندى، إذًا الأمر يتطلب اندفاعًا سريعًا وحسن تصرف للخروج وسط الزحام، وانتهزت فرصة انشغال الضابطين بفحص أوراق راكبين أمامهما وتقدمت مارًا بالضابط الأول ويدى فى جيب جاكتتى الداخلى متظاهرًا بأنى أخرج أوراقى لأقدمها للضابط الثانى، وعندما وصلت إلى مكان الضابط الثانى كانت يدى نحو جيبى متظاهرًا بأنى أعيد أوراقى إلى جيبى بعد أن فحصها الضابط الأول، وبعد نصف دقيقة من هذه الحركة بعون الله كانت قدماى على أرض إيطاليا ولا سبيل إلى إعادتى إلى مصر عندئذ إلا بعد مراسلات وقرارات يطول وقتها، وهذا كل ما كنت أعرفه بالنسبة لمن يهرب من بلده إلى بلد آخر، وتطلب بلده من البلد الهارب إليها تسليمه».

«حملت حقيبتى ومشيت فى ركب الركاب إلى الجمرك، وانتهت إجراءات الجمرك بسهولة بفضل الله».

(٥٩)

ثم نأتى إلى خطوات لا يبدو أن سيد باشا قد شرع فيها من وحى اللحظة، وإنما كان قد دبر أمرها وهو لايزال فى بلاده، وقد استوحاها من قصص مماثلة قرأها أو سمعها، أو طورها على نحو كان كفيلاً له بالنجاح على نحو ما نرى:

«. . . والآن؟! وقد اجتزت هذه العقبة بسلام والحمد لله، فماذا أنا صانع للإقامة بإيطاليا؟ ليس عندى جواز سفر، ولا أى ورقة تثبت شخصيتى، وجاءنى الحل بسرعة، لقد نُشلت!! فقدت كل أوراقى ونقودى، وبسرعة دخلت تاكسى وقلت للسائق: «البوليس»، فاندهش السائق عند سماع كلمة «بوليس» ولم يفهم ما أقصد، وبعد عدة إشارات وحركات فهم السائق أنى أريد الذهاب لمركز بوليس، وأمام ضابط البوليس قلت بالإنجليزية إن كل أوراقى وحافظة نقودى قد نشلت منى فى ميناء نابولى، فلم يفهم الضابط شيئًا (مما) أقول، وبعد خمس دقائق حضر مترجم وترجم أقوالى وحرر محضراً وأعطانى صورة منه لأقدمها للفندق الذى سأنزل فيه حتى لا يطالبنى بجواز السفر، وكان اسمى بالمحضر: يوسف عيسى، وهو اسم الراعى الذى كان يرعى الغنم فى حقولنا فى كفر الشناوى فى ذلك الوقت، ولا أدرى لماذا لم يحضرنى إلا هذا الاسم عندما سألنى الضابط عن اسمى، ثم طلبت من المترجم أن يدلنى على فندق أنزل فيه، فقال إنه يعرف «بنسيونا» اسمه «بنسيون سانتا لوتشيا»، وهو جميل ويسهل عليك التفاهم فيه باللغة الإنجليزية، ونادى سائق التاكسى الذى كان ينتظرنى وأخبره ليوصلنى إلى «بنسيون سانتا لوتشيا»، ووصلت إلى البنسيون ورجوت صاحبته أن تدفع لسائق التاكسى أجرته وأدفعها من الحساب إن شاء الله».

«وجدت بنسيون سانتا لوتشيا مكانًا جميلاً يطل على خليج نابولى، وكان من حظى حجرة فسيحة تطل على الخليج ومؤثثة جيدًا، وبعد أن غسلت وجهى وغيرت ملابسى نزلت وأبرقت لأحمد زكى بوصولى سالمًا والحمد لله، ورجوته أن يبلغ ذلك لوالدى».

. . . .

(٦٠)

يبدأ سيد باشا سلسلة من مداعباته الثقيلة للسلطات الإنجليزية:

«بت ليلة هادئة وفى الصباح بدت لى فكرة، وهى أن أذهب لقنصل إنجلترا فى نابولى على سبيل المداعبة التهكمية من جهة، ومن جهة أخرى أعزز محضر البوليس بخطاب من قنصل إنجلترا بنابولى، فذهبت إلى القنصلية وطلبت مقابلة القنصل فاستقبلنى وأخبرته بأنى مصرى وتاجر أجهزة علمية وحضرت إلى إيطاليا لأعمال تخص تجارتى ولكنى نشلت فى ميناء نابولى وفقدت جواز سفرى وجميع أوراقى بما فيها أموالى، وبصفتك مسئول عن مصالح المصريين فإنى أطلب مساعدتك لى وذلك بأن تعطينى جواز سفر بعد أن تستوفى التعليمات الخاصة بذلك من مصر ثم تعطينى تصريحًا بالإقامة فى إيطاليا مؤقتًا حتى يأتى جواز سفرى من مصر، وأخيرًا تعطينى مبلغًا من المال أصرف منه حتى تأتينى نقود من مصر فأرد لك ما أخذته منك، وكنت جادًا وحاسمًا فى حديثى مع القنصل، فصدقنى واستكتبنى جميع البيانات الخاصة باستخراج جواز السفر كاسمى، وعائلتى، وتاريخ ومكان ميلادى ونحو ذلك، فكتبت له بيانات ليس فيها بيانًا واحدًا صحيحًا (يقصد: بيان واحد صحيح)، ثم قال: إنه سيكتب لمصر فورًا وسألنى عما يكفينى من النقود فقلت يكفينى (ثلاثون) جنيهًا فأعطانى إياها وكتبت له إيصالاً باستلام المبلغ على أنه سلفة، ولم ير وجهى حتى الآن».

(٦١)

وينتقل سيد باشا بعد فترة قصيرة إلى العاصمة الإيطالية قاصدًا الالتحاق بجامعتها، ويكرر ما بدأه من قبل من مغامرات محسوبة تكفل له تأمينًا لخططه، وإمتاعًا لشخصيته المغامرة التى بدأت تعيش حرية كانت محرومة منها طيلة شهور، ونحن نراه قادرًا فى ذكاء شديد على توظيف معلوماته عن الصراعات الدولية من أجل تحقيق مكاسب تكفل له العيش الآمن، وربما الرغد، بيد أننا بحاسة التمحيص لا نستطيع أن نستبعد نوعًا من العلاقة بينه وبين الأتراك كانت قد بدأت، مما مكنه من مثل هذه الحظوة، وليس لنا أن نلومه على مثل هذه العلاقة:

«مكثت بنابولى حتى آخر شهر يناير ١٩٢٠ ثم تركتها قاصداً روما لألتحق بجامعتها وأسير فى تنفيذ البرنامج الذى وضعته لنفسى، وفى روما نزلت فى فندق «النيشو» بميدان «باربيرا»، وكان ذلك بإرشاد «بورجونجينو»، وفى اليوم التالى لوصولى روما ذهبت إلى السفارة التركية بروما وقابلت السفير وأخبرته بأنى مصرى وأنى خرجت من مصر بدون جواز سفر هروبًا من السلطات الإنجليزية فى مصر التى كانت تريد القبض علىّ بحجة أنى أتزعم الطلبة فى المظاهرات، وطلبت منه أن يصدر أمرًا للقنصلية التركية بروما لتعطينى جواز سفر لأثبت شخصيتى، فوافق السفير مع اشتراط أن تكون جنسيتى فى الجواز تركية، فوافقت وأعطانى خطابًا لقنصل تركيا بروما وحصلت على جواز سفر تركى باسمى الحقيقى (سيد باشا)، وهكذا أصبح لى وجود قانونى، ثم قدمت أوراقى التى كانت وصلتنى منذ أيام قليلة من مصر للالتحاق بكلية العلوم بجامعة روما، وشرحت فى الطلب الذى قدمته ظروفى، والتحقت بكلية العلوم بجنسيتى المصرية لا بالجنسية التركية، وحسبت لى مدة الثلاث سنوات التى قضيتها فى مدرسة المعلمين العليا فى مصر فى أقدمية قيدى بجامعة روما، أى اعتبر تاريخ التحاقى بكلية العلوم بروما من أكتوبر ١٩١٦، وبناء على ذلك يكون لى الحق فى التقدم لامتحان البكالوريوس فى يوليو ١٩٢٠ حسب نظام الجامعة».

(٦٢)

وسرعان ما يستأنف سيد باشا نشاطه البارز فى الحركة الوطنية، فهو يسعى إلى لقاء عبد اللطيف المكباتى عضو الوفد، والتعاون معه من أجل خدمة القضية الوطنية:

« . . . كنت أعرف قبل سفرى من مصر أنه سمح للوفد المصرى بالسفر إلى باريس للسعى فى عرض قضية مصر على مؤتمر الصلح وإيضاح القضية أمام الرأى العام الدولى، وعمل الدعاية اللازمة لذلك كان الوفد قد اختار المرحوم عبد اللطيف المكباتى بك عضو الوفد وقتئذ ليمثله فى إيطاليا ويكون مركز الدعاية لقضية مصر العادلة فى روما، فسعيت حتى قابلت المكباتى بك فى أواخر فبراير ١٩٢٠، وكان يقيم فى فندق «الاكسلسيور» بشارع «فنيتو»، وهو من أفخم فنادق روما، وكان قريبًا من فندق

«النيشو» الذى نزلت فيه عندما وصلت روما، وعرفت المكباتى بك بنفسى وبقصتى، وكان يعلم موضوع اتهامى فى محاولة الاعتداء على محمد سعيد باشا مما نشرته الجرائد المصرية حينذاك، وقلت له: إنى على أتم استعداد للقيام بما يكلفنى به فى خدمة مصر والقضية المصرية».

(٦٣)

وعلى الرغم من كل هذه السعادة بالنجاحات الفدائية المتوالية، فإن سيد باشا يحرص على مزج هذا الشعور الجميل بالألم من تصرفات أحد المصريين الذين زعموا لأنفسهم دورًا لم يحدث، متجنين بذلك على الأبطال الحقيقيين على حد إيحاء سيد باشا فى مذكراته:

«... ولم يقتصر اتصالى بزميلى يوسف العبد على مجرد تبادل المراسلات واستلام المسدسات والذخيرة، بل تعداه إلى تيسير عمليات أخرى، منها على سبيل المثال أن أحد الذين كانوا قد اتهموا فى القضية السياسية المعروفة باسم قضية عبد الرحمن فهمى بك الطالب بالحقوق، كامل أحمد ثابت، والذى تمكن من الإفلات من القبض عليه، فأرسل لى يوسف أن أعمل على تيسير سفر (كامل) إلى إيطاليا، فطلبت من يوسف أن يرسل لى جواز السفر الخاص بيوسف وصورتين لكامل أحمد ثابت، وعند وصول جواز سفر يوسف وصورتى كامل ذهبت إلى أحد محلات الزنكوغراف وعملت أختامًا كالأختام التى كانت موجودة على جواز سفر يوسف العبد، ثم نزعت صورة يوسف من جواز سفره ووضعت بدلها صورة كامل أحمد ثابت وختمت الجواز بالأختام التى صنعها محل الزنكوغراف وأعدت الجواز إلى يوسف، وحضر كامل أحمد ثابت إلى روما والتحق بجامعتها وأتم دراسته بها وعاد إلى مصر عندما أمكنه العودة، وعين بالقضاء فى مصر وتدرج فيه حتى وصل إلى مركز رئيس محكمة، وكانت مكافأته لنا أن ادعى أنه كان رئيس جماعة فدائية فى ثورة ١٩١٩ تدعى «جماعة اليد السوداء» ونسب لنفسه ولجماعته أعمالاً خيالية، إذ لا يمكن إجراؤها، ولا صحة لأى شىء منها.

(٦٤)

ويبدى سيد باشا ألمه العميق من أن زميله وصديقه أحمد عبد الحى كيرة لم يقم معه فى إيطاليا وانتقل إلى ألمانيا، ثم تركيا، حيث اغتالته المخابرات الإنجليزية:

« . . . وكما فعلت لكامل ثابت فعلته أيضًا لزميلنا أحمد عبد الحى كيرة عندما اتهم بالاشتراك فى مؤامرة لإلقاء قنبلة على رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت باشا فى يناير ١٩٢٢، وكلف البوليس بالقبض عليه واختفى فى مصر وظهر فى روما التى وصلها بجواز سفر مزور».

«وكان المفروض أن يبقى أحمد عبد الحى كيرة معى فى إيطاليا ليتم دراسة الطب بها بجامعة روما، وأعددت كل شىء لإلحاقه بجامعة روما لكنه عدل وفضل أن يتم دراسته فى جامعة برلين بألمانيا، وبعد أن مكث معى فى إيطاليا نحو شهرين سافر إلى ألمانيا وكان يراسلنى من آن لآخر، وبعد شهرين من إقامته فى برلين أرسل إلىّ ليقول إنه سيسافر إلى تركيا ويتم دراسته فى (إسطنبول) وسافر إلى تركيا وأخذ يراسلنى مدة ثم انقطعت أخباره عنى حتى عدت إلى مصر فأرسل إلىّ خطابًا عرفنى بمكان وجوده وظل اتصاله بى إلى أن اغتالته المخابرات الإنجليزية فى (إسطنبول)».

(٦٥)

ويصل اعتداد الدكتور سيد باشا بنفسه وبنشاطه فى خدمة الحركة الوطنية إلى أن يروى أنه سافر من روما إلى باريس كيما يطمئن زعيم الأمة على أن جهود الفدائيين ستتكفل له بموقف أقوى مما قد يسفر عنه مؤتمر الصلح، ونحن نرى سعد زغلول فى رواية سيد باشا زعيمًا حقيقيًا قادرًا على المتابعة والنقد والتحليل، ملمًا بالخيوط، وقادرًا على استيعاب العلاقات، وعلى السؤال الجيد:

« . . . قررت أن أسافر إلى باريس لأقابل سعد باشا وأهون عليه باطلاعه على برنامجنا نحن الفدائيين، وأوضح له أن برنامجنا هذا الذى رسمناه ونسير فى تنفيذه سيكون خيرًا لنا مما كنا نرجوه من مؤتمر الصلح، فضلاً عن أنه مظهر من مظاهر اعتمادنا

على أنفسنا، وفى أواخر أبريل سنة ١٩٢٠ سافرت إلى باريس دون أن أعلم عبد اللطيف المكباتى بك بسفرى».

«وفى باريس قابلت سعد باشا مع كل مَنْ كان يقابلهم من الطلبة المصريين الذين كانوا يدرسون فى فرنسا، وعندما رآنى سعد باشا قال: «أهلا بالمناكف»، كان هذا هو لقبى عنده، «أنت جاى تدرس هنا؟»، قلت: «لا يا سعادة الباشا، أنا أدرس فى إيطاليا، وإنما جئت لزيارة معاليك»، وجلسنا جميعًا نتحدث معتزمًا أن أحاول البقاء معه وحدنا وشعرت بأن لديه نفس الاتجاه، وانصرف مَنْ كانوا معى من الطلبة واحدًا بعد الآخر وبقيت أنا بحجة أنى أريد أن أسعد بالحديث مع الباشا بعض الوقت لأنى سأعود غدًا إلى إيطاليا».

«وعندما أصبحنا وحدنا قال لى سعد باشا: «إيه اللى جابك إيطاليا؟»، قلت: «جئت هاربًا من القبض علىّ لاتهامى بالاشتراك فى محاولة لإلقاء قنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا فى شهر يونيو الماضى»، فقال سعد باشا: «لقد سمعت هذا وأذكر أنى قرأت فى إحدى الجرائد المصرية إعلانًا بمكافأة لمن يرشد عن مكان وجودك والقبض عليك»، فقلت: «نعم هذا حصل»، فقال سعد باشا: «وما هى حكاية القنابل التى يتهمونك بها؟»، قلت: «الواقع أن الحكاية لها أصل، وقد جئت لأطلع سعادتك على أصلها وفصلها لأهون على سعادتك خيبة الأمل التى صدمنا بها مؤتمر الصلح يقفل بابه فى وجوهنا، ولأؤكد لمعاليكم أن نتيجة عملنا سيكون أثرها أفعل مما كنا ننتظره من مؤتمر الصلح، والحكاية هى أنى واثنين من زملائى الطلبة هما يوسف السيد العبد، وأحمد عبد الحى كيرة اتفقنا على أن نكون نواة تعمل بهدف إرهاب الإنجليز المقيمين بمصر وإشعارهم بعدم الأمن على حياتهم، وذلك بإطلاق الرصاص على الشخصيات الإنجليزية المقيمين بمصر وقتلهم، وكذلك قتل (مَنْ) يمكن قتله من الجنود وصغار الضباط الإنجليز، ويهدف عملنا أيضًا إلى إرهاب مَنْ يتعاون من المصرين مع الإنجليز وذلك بإلقاء القنابل عليهم للإرهاب وليس للقتل».

«وبدأنا بتكوين فريق من الطلبة بقيادة أحمد عبد الحى كيرة لإلقاء القنابل على المصريين المتعاونين مع الإنجليز، وقد صنعت أنا هذه القنابل وفريق آخر من العمال

بقيادتى لقتل الإنجليز بوسيلتين، الوسيلة الأولى هى استدراج (مَنْ) يمكن استدراجه من الجنود وصغار الضباط الإنجليز من الأماكن التى يرتادونها للسكر والعربدة وأخذهم إلى الأماكن المظلمة فى أحياء القاهرة كحى الدراسة بالحسين، وحى الحوض المرصود بالسيدة زينب ثم قتلهم».

«أما الوسيلة الثانية لقتل الشخصيات الإنجليزية فهى تعقب مَنْ نرى تعقبه من كبار الضباط الإنجليز أو كبار الموظفين الإنجليز ثم يطلق عليه الرصاص بقصد قتله».

«وقد قمنا حتى الآن بإلقاء القنابل على خمسة من رؤساء الوزارة والوزراء المصريين، كما قمنا بقتل أربعة من الشخصيات الإنجليزية، أما قتل صغار الضباط والجنود الإنجليز فيسير بمعدل ثلاثة أو أربعة أشخاص فى الأسبوع».

«فقال سعد باشا: «وهل أنت على صلة بزملائك الآن؟»، فقلت: «أنا دائم الاتصال بهم وأراسلهم أسبوعيًا وأرسل لهم ما يطلبونه لحاجتهم إليه من المسدسات والذخيرة عن طريق رئيس بحارة السفينة الإيطالية التى هربت عليها من مصر»، فقال سعد باشا: «الحقيقة أنى كنت أتوسم فيك من مناقشاتك ومناكفتك معى أنك عندك استعداد وقادر على أن تقوم بأعمال جدية»، ثم ابتسم سعد باشا وقال: «وأنا أنفع فى فريق الطلبة ولا فريق العمال؟»، فقلت: «سعادتك رئيس الكل ياباشا»، فقال: «وأنا أعتز بهذه الرئاسة التى يجب ألا يعلمها إلا أنا وأنتم»، ثم قال: «الحقيقة أنى كنت أفكر فى تنظيم مثل هذا العمل، وأنا مسرور جدًا لأنكم تنفذونه لأن هذا العمل هو الذى سيسندنى فى نضالى ضد الإنجليز»، ثم قال: «ومَنْ يمولكم؟»، قلت: «للآن نحن تقريبًا نمول أنفسنا بأنفسنا، وقد أخذت بعض التمويل من عبد اللطيف الصوفانى بك، وهو يقول إن ما نأخذه منه هو من مال الوفد، كما أننا نأخذ أيضًا بعض تمويل على حساب أنه لطبع المنشورات من الأستاذ محمود فهمى النقراشى»، فقال سعد باشا: «يجب أن تكون أموال الوفد كلها تحت تصرفكم لأن عملكم هذا هو عماد الثورة، وأنا أعتبر عملكم هذا هو عكازى الذى أستند عليه فى نضالى مع الإنجليز، وهو الحائط الذى يقوى ظهرى وأنا أواجه مَنْ يقولون بأن روح الحماس الوطنى قد فترت لشدة ضغط الإنجليز وكثرة تنكيلهم بالوطنيين».

وبعد أن يفرغ سيد باشا من رواية هذا اللقاء والحوار الكاشف بينه وبين زعيم الأمة، نراه يضطر نفسه كي يقدم بعض التفسيرات المباشرة، وكأنما لم يكفه الإيحاء البارع الذى تمكن منه، وليس من شك فى أن هذا السلوك يعبر عن شخص مخلص لفكرته، لكنه لا يؤمن بالفن وأثره فى توصيلها، فإذا هو يلجأ إلى التصريح الفج بعد أن نجح بالفعل فى توظيف التلميح الذكى، وربما أنقص التصريح الفج من قيمة ما كونه بالتلميح الذكى.

ونحن نرى سيد باشا يؤكد على هذا المعنى من خلال إثباته أو نقله لفقرة فى مذكرات سعد باشا توحى بوضوح بعلاقته المباشرة بالفدائيين:

«. . . أى أن حرص سعد باشا على بقاء صلته بالفدائيين سراً لم يكن جبنًا منه وعدم رضاه عن حركتهم، وإنما كان ردًا طبيعيًا على المحاولات الدائبة التى كانت تحاولها السلطات الإنجليزية فى مصر لإقناع الرأى العام الإنجليزى والحكومة الإنجليزية بأن سعد باشا رجل إرهابى وليس بسياسى، وسأذكر فيما بعد واقعة حال لذلك».

«على أنه بالرغم من حرص سعد باشا على تكتم صلته بالفدائيين لم يتمالك إلا أن يشير إلى هذه العلاقة ولو من طرف خفى، وقد جاء ذلك عندما دون فى مذكراته مناجاته للعامل الفدائى محمد فهمى على عندما بلغه (سعد باشا) نبأ الحكم على محمد على فهمى بالإعدام فى القضية التى سموها بقضية الاغتيالات السياسية، تلك المناجاة التى تدل على أن سعد باشا كان يعرف مَنْ هو محمد فهمى على، وما كان عمله، وأن عمله كان موضع تقدير سعد باشا ورضاه، بل واعتزازه، وسيأتى ذكر ما قاله سعد باشا مناجيًا محمد فهمى على».

. . . .

«عدت إلى روما فى اليوم التالى لمقابلتى لسعد باشا، وبمجرد عودتى أرسلت إلى الأخ يوسف العبد خطابًا مع «نوسترومو» أخبرته فيه بمقابلتى لسعد باشا وباهتمامه بحركتنا، ورجوته أن يبلغ تحياتى للحاج أحمد جاد الله، ورجائى له بتنشيط العمل».

(٦٧)

وفى موضع آخر من مذكراته يشير سيد محمد باشا إلى لقائه بسعد زغلول فى باريس فيقول:

«وسافرت إلى باريس وقابلت سعد باشا مع التحفظ بألا تثير مقابلتى له اهتمام أى أحد، وأخبرته بما كان من أمر الخديو وأحاديثى معه وسألته عن رأيه فيما يعرضه الخديو، فقال: أريد أن أعرف رأيك أولاً، فقلت له: إنى أعتقد أنه منافق ويريد أن يسخرنا لمصلحته، فقال: وأنا أؤمن على هذا الرأى، وعلى العموم فقد استفدنا من أحاديثه معك تفسيرًا لتردد الأمير عمر طوسون ومَنْ معه من الأمراء فى التجاوب معنا ونحن لا يهمنا هؤلاء جميعًا، والمهم عندنا هى مصر، ومصر فقط، ثم سألنى عما إذا كنت لازلت متصلاً بزملائى فى مصر؟ فقلت له: إن كل شىء يسير وفق الخطة ونشاطنا يتزايد، فقال: عفارم، قواكم الله، إن مقابلاتك لى تريح أعصابى كثيرًا، ثم عدت إلى روما».

(٦٨)

وقد لا يدهشنا فى مذكرات سيد محمد باشا حرصه الشديد على الولاء لسعد زغلول وزعامته، وهو يدافع عن سعد دفاعًا حارًا ضد الاتهامات التى كالها له مَنْ خرجوا عليه:

«. . . لأرد بما عندى من معلومات على ما قالوا إن هؤلاء الخارجين على الوفد إنما خرجوا احتجاجًا على أنانية سعد باشا وحرصه على الرئاسة، وأن ينسب أى فخر أو خير تناله مصر إلى شخصه، وأن سلوك سعد باشا هذا كان مسببًا فى انشقاق الشعب وتعدد الأحزاب فيه، ويعلم الله أن سعد باشا برىء من كل هذه التهم، وأنه كان شديد الحرص على وحدة الوفد ووحدة الشعب واستقلاله وانتزاع هذا الاستقلال من أيدى الإنجليز، وبقدر حرصه على كل ذلك كان يدرك ويقدر الصعاب التى سيلاقيها فى سبيل تحقيق ذلك، والنضال والجهد (اللازمين) للوصول إلى هذه الغاية والأناة والصبر الذى يجب أن يتذرع به حتى النهاية، كما كان يدرك فى الوقت نفسه أن كثيرًا من

أعضاء الوفد الذين يعملون معه لا يقوون على النضال ولا يحتملون الصبر ولا يثقون بقوة روح الشعب، بل إن منهم مَنْ اشترك فى الوفد أملاً فى الوصول إلى مراكز الحكم، حيث كانوا يعتقدون أن النضال لن يطول وأن الإنجليز قد يتكرمون بإعطاء شيء ما، وأى شيء فهو مقبول منهم، وينصحون الشعب بقبوله لأن إنجلترا قوية ولا قبل لأحد بمعاداتها، لكن سعد باشا كان يحايلهم ويحتال عليهم للبقاء معه كمظهر لوحدة الأمة حتى تنال مطالبها، وقد كلف ذلك سعد باشا جهداً كبيراً».

«ومن ثم فإنه عندما أعد اللورد ملنر فى أغسطس ١٩٢٠ كحل لقضية مصر، هذا المشروع الذى لم يكن إلا تقنينا لحماية إنجلترا على مصر، وقدمه لوفد مصر المفاوض، قبلته أغلبية كبيرة من وفد مصر المفاوض ورفضه بشدة سعد باشا وعدد قليل جداً من الأعضاء معه».

(٦٩)

وتنطق مذكرات سيد محمد باشا بحب سعد زغلول وتقديره، والتماس المعاذير له فيما كان جيل الشباب الفدائيين يأخذه عليه، وعلى سبيل المثال فإنه يحكى قصة لقائه هو وزميله يوسف العبد مع سعد باشا وتعجبهما من أن يثنى سعد على توفيق نسيم الذى لم يطلب الرأفة لزميلهما إبراهيم مسعود مع أن مثل هذا الطلب كان فى وسعه:

«. . . وفى (أحد) الاجتماعات، وكان بنادى (سيروس)، خطب سعد باشا وقال فى خطبته: إن توفيق نسيم باشا يستحق تقدير الوطن. كان نسيم باشا فى ذلك الوقت رئيساً للوزارة، كما كان رئيساً لها فيما سبق، واعتدى عليه الفدائى إبراهيم مسعود وحوكم وحكم عليه بالإعدام لأن نسيم باشا لما سمعت شهادته أثناء المحاكمة باعتباره مجنيا عليه لم يطلب الرأفة بإبراهيم مسعود مراعاة لأنه فعل هذا بعامل الحماس الوطنى كما طلب غيره ممن اعتدى عليهم، وضايقنى كما ضايق يوسف ما قاله سعد باشا بالنسبة لنسيم باشا، وفى اليوم التالى قابلنا أنا ويوسف سعد باشا فى منزله وقلنا له إن تقديره لنسيم باشا يعنى التنديد بالفدائيين واستنكار أعمالهم، بل وتنصلاً منهم، فقال: يا أولادى أنتم فدائيون ولستم سياسيين، وأعترف لكم بأنكم وأعمالكم موضع

تقديرى، بل إنى فى نضالى لا أعتمد بعد الله إلا على أعمالكم، وما قلته هو تعبير بلغة السياسة وليس بلغة الحقيقة».

(٧٠)

ويتحدث سيد باشا بزهو معقول عما استطاع تحقيقه من مكانة فى إيطاليا، وكيف وظف هذه المكانة المتميزة من أجل قضية مصر الوطنية، وهو يصل إلى الاعتراف الصريح بأنه كانت تربطه علاقة مباشرة بموسولينى رئيس تحرير جريدة «البوبو دى إيطاليا» وقبل أن يصبح زعيم حزب الفاشيست، ثم رئيس الحكومة الإيطالية:

«. . . لست مبالغًا إذا قلت إنه بعد عشرة شهور من إقامتى فى إيطاليا كانت الصحف الإيطالية تنشر لى ما أقدمه لها من مقالات حتى بغير توقيع، للدلالة على أن المكتوب هو من تحرير الجريدة نفسه».

«وبهذه الحيلة حصلت على ما أريده بنجاح منقطع النظير، وإنصافًا لنفسى يمكننى أن أقول إنى تبرعت لخدمة وطنى وقضية وطنى بمبالغ كبيرة لمدة ثلاث سنوات كان من حقى الحصول على هذه المبالغ مقابل الوقت والجهد الذى أبذله فى الترجمة، ولكنى تنازلت عنها، وبتنازلى عنها تحولت إلى معنى أدبى ذى قيمة كبيرة جدًا أخذت مقابلاً لها تيسيرًا وتنشيطًا وتقوية للدعاية لمصرنا العزيزة، ويتمثل ذلك فى أنى ما كنت أقدم لأية صحيفة من الصحف التى أترجم لها شيئًا عن مصر وتتردد فى نشره، وأكثر من هذا كما ذكرت سابقًا، فإنى كنت أنشر ما أريد نشره عن مصر بدون توقيع منى، وهذا كان يعنى أن المكتوب هو رأى الجريدة، وما أحسب أحدًا يجهل ثقل هذا العبء على الجريدة الناشرة. أما وقع ذلك على القارئ فيكون أفعل، والاقتناع به مضمون، إذ الملاحظ أن القارئ إذا ما شعر أن الكاتب إنما يكتب ليدافع عن شىء يهمه يتحفظ فى صدق ما يقرأ ولا يقتنع بسهولة، ولما كان غرضى الدعاية لمصر وليس إظهار نفسى والسعى إلى الشهرة، فقد اتبعت هذا الأسلوب النافع، وبهذا الأسلوب وبتلك السياسة نلت مكانة حسنة، وتقديرًا كبيرًا فى الوسط الصحفى الإيطالى، وقبلت عضوًا فى نقابة الصحفيين الإيطالية، وعضوًا فى جمعية الشرق الحديث التى كانت تصدر

مجلة باسمها تروى فيها أخبار الشرق، ودراسات مستفيضة عنه، كما تعرفت وصادفت شخصيات بارزة فى مختلف المجالات».

(٧١)

وبعد هذه الأضواء المضيئة لطبيعة نشاطه فى المنفى، وبخاصة فى إيطاليا، نراه يقدم ما يشبه كشف حساب عن إنجازاته فى فترة المنفى ودراسته:

«... بفضل جهودى قد سمع صوت مصر ونجحت الدعاية لقضيتها فى إيطاليا وفى بعض الأحيان خارجها نجاحًا مثمرًا، كانت له نتائج إيجابية فى الأوساط السياسية، ويستدل على ذلك من الحقائق والقصص الآتية:

«١ - أثناء الحروب وأعمال المقاومة التى كانت دائرة بين إيطاليا وطرابلس ١٩١٢ كان قد فرّ إلى ليبيا بعض ضباط السواحل المصريين لمعاونة الطرابلسيين، وكان من بين هؤلاء الضباط الضابطان: أحمد منصور، ومحمد محمدى، وأقام هذان الضابطان مدة فى طرابلس ثم اعتقلا ونقلا إلى إيطاليا، ثم أفرج عنهما وتركا أحرارًا فى إيطاليا».

«وفى سنة ١٩٢٠ طلبت الحكومة المصرية من الحكومة الإيطالية تسليمهما لمحاكمتهما بتهمة الهروب من عملهما العسكرى، ووافقت الحكومة الإيطالية وأُركبا السفينة من «برنديزى» وكانا فى طريقهما إلى مصر، وعلمت أنا بالخبر بعد أن أقلعت السفينة من «برنديزى» بقليل، فاتصلت فورًا ببعض النواب الذين كنت أعرفهم واستعنت بهم على إقناع رئيس الحكومة الإيطالية وقتئذ السينيور جولتى ليعدل عن قرار تسليمهما، وتم ذلك، وأبرق للسفينة بالعودة بهما وإنزالهما فى «برنديزى» ونجا الضابطان من المحاكمة وعادا إلى مصر بعد أن تقرر العفو عنهما».

«٢ - عندما سافر الوفد المصرى إلى لندن لمفاوضة لجنة لورد ملنر فى يونيو ١٩٢٠، استدعى الوفد عبد اللطيف المكباتى مندوبه فى روما إلى لندن، وترك المكباتى لنا أنا وديكو لالتو مهمة القيام بعمله فى إيطاليا أثناء غيابه، وكان يراسلنى بكل ما يجرى من أمر المفاوضة فى لندن، وأثناء غياب المكباتى عرضت معاهدة الصلح التى تمت فى مؤتمر

فرساى على البرلمان الإيطالى لإقرارها، وكان معلومًا لنا أن بتلك المعاهدة بند ينص على أن تقر الدول المشتركة فى مؤتمر فرساى، ومن بينها إيطاليا، حماية إنجلترا على مصر، فأرسلت إلى المكباتى أخبره بأنى سأوجه للبرلمان الإيطالى نداء باسم الوفد المصرى أناشد البرلمان فيه بألا يوافق على هذا البند الذى لا ترضاه مصر ولم يؤخذ رأيها فيه، وقلت للمكباتى: إن عندى أملا كبيرا فى أن يستجيب البرلمان لندائنا، وجاءنى رد المكباتى يقول: إن سعد باشا يعرفك جيداً ويثق فيك، لكنه لا يرى داعيًا لتوجيه هذا النداء فى الوقت الحاضر الذى نتفاوض فيه مع الإنجليز ونريد أن نهيئ جو مسالمة بيننا وبينهم، فضلاً عن أن سعد باشا ليس عنده أى أمل فى أن يعير البرلمان الإيطالى نداءنا أى اهتمام، ولم أقتنع بوجهة نظر سعد باشا، إذ كان رأيى أن الشوشرة على الإنجليز أثناء المفاوضات أجدى من مسالمتهم، ولذلك وجهت النداء باسمى وبصفتى رئيس جمعية الطلبة المصريين فى إيطاليا، وعملت دعاية قوية بين أعضاء مجلس النواب الإيطالى للاهتمام بندائى، وكان من نتيجة هذه الدعاية أن أقر البرلمان الإيطالى معاهدة فرساى مع التحفظ بعدم الموافقة على البند الخاص بإقرار حماية إنجلترا على مصر، وأرسلت نسخة من مضبطة جلسة مجلس النواب الإيطالى التى نظرت بها المعاهدة إلى المكباتى بك بلندن، فجاءتنى برقية من سعد باشا نفسه يثنى فيها علىّ وعلى جهودى ويقول فيها: «لقد كان الشاب أبعد نظراً من الشيخ».

(٧٢)

ويقطع سيد باشا تسلسل الرواية ليتحدث عن أسفه لحرمانه مما كان يستحقه من إشادة بجهوده الناجحة إذا ما قورنت بجهود محمد محمود باشا (فى أمريكا) التى لقيت كثيراً من التقدير:

«وهنا أقف قليلاً لأعبر بشعورى بالأسف الذى يؤلمنى لعدم التقدير وعدم الاهتمام بالأعمال التى يقوم بها أشخاص (ذوو) مراكز صغيرة مثلى، فعندما نجحت دعاية المرحوم محمد محمود باشا فى أمريكا ولم يوافق الكونجرس الأمريكى على حماية إنجلترا على مصر، كتبت الجرائد عن هذا النجاح وهللت له كثيراً، ولما نجحت دعاية

سيد باشا فى إيطاليا ولم يوافق البرلمان الإيطالى على حماية إنجلترا على مصر لم يشر أحد إلى هذا النجاح بكلمة صغيرة، ولو من قبيل اهتمام الناس فى مصر بالأمر نفسه».

«أما مَنْ اهتم بهذا النجاح وانزعج منه فهى السفارة الإنجليزية فى روما، وتجلى انزعاجها فى البحث عمن يكون وراء الدعاية التى جعلت البرلمان الإيطالى لا يوافق على حماية إنجلترا على مصر، ولما عرفت أنه الطالب سيد باشا أرسلت إلىّ القنصلية الإنجليزية فى روما وهى فى ثورة الغضب عليه خطابًا مسجلاً تقول فيه إن السلطات العسكرية فى مصر (وهى طبعًا فى ذلك الوقت إنجليزية) أصدرت قرارًا بإبعادى عن مصر وعدم السماح لى بدخول مصر أو إنجلترا، وقد أفادنى هذا القرار، إذ أنه يعنى أنى قد أصبحت فى حكم القانون مبعدًا لا هاربًا، ولذلك لما صدر القرار بعودة المبعدين السياسيين إلى مصر، عدت معهم باعتبارى كنت مبعدًا، فشكرًا لسفارة إنجلترا فى روما».

. . . .

« . . . وفى مرة تحدث مستر لويد جورج رئيس الوزارة الإنجليزية فى ذلك الوقت أمام البرلمان الإنجليزى عن مسألة مطالبة أيرلندا باستقلالها، وقال رئيس الوزراء فى حديثه: إنه كيف تطلب أيرلندا الانفصال عن إنجلترا بعد مائة سنة من الاتصال؟ فعلقت على حديث رئيس الوزراء الإنجليزى فى مقال أرسلته لجريدة «شيكاجو تريبون» وبينت فى تعليقى ما يصيبنا من وجود الإنجليز فى مصر، وناشدت المصريين بأن ينشطوا بكل ما يستطيعون من قوة لمقاومة الإنجليز وطردهم من مصر قبل أن يسرى علينا قانون التقادم، ونشرت الجريدة مقالى وتعليقى على حديث لويد جورج فى صفحتها الأولى تحت «مانشيت يتوج جميع أعمدة صفحتها الأولى» تقول فيه: «مصرى يعلق على حديث لويد جورج تعليقًا مفحمًا»، وكان لهذا المقال اهتمام كبير فى الدوائر السياسية».

(٧٣)

ويذكر سيد باشا بالامتنان لقاءه بعلى الشمسى حين زار روما فى صيف عام ١٩٢٢

للدعاية للقضية المصرية وكيف أبدى على الشمسى تقديره لجهد صاحب المذكرات وعجبه من أن يقوم عدد قليل جدًا بكل هذا النشاط :

« . . . جاء على الشمسى إلى روما فى صيف ١٩٢٢ ليقوم بعمل دعاية سياسية لقضية مصر فى إيطاليا ، واتصل ببعض رجال الصحافة الإيطاليين عن طريق صديق له بروما يدعى الكونت لوشدى ، حيث لم يكن الشمسى يعرفنى أو يعلم بوجودى فى روما ، وفى سبيل مهمته أقام مأدبة فى فندق «اكسلسيور» لرجال الصحافة الإيطاليين ، ومن الأحاديث التى جرت بين الشمسى والصحفيين أثناء المأدبة سمع الشمسى اسمى ونشاطى السياسى فى إيطاليا يتردد على ألسنة الضيوف بالثناء والتقدير والاحترام ، وعرف عنوانى من أحد المدعووين وزارنى فى منزلى المتواضع وعرفنى بنفسه ومهمته ، فرحبت به وأبديت له استعدادنا أنا وإخوانى الطلبة لمعاونته والقيام بأى عمل يكلفنا به لخدمة بلادنا ، وأخبرته بأنى وإخوانى نعمل لنفس الغرض الذى أتى هو إلى إيطاليا من أجله ، وأن سعد باشا يعرفنى شخصيًا ويعرف عملى أنا وإخوانى هنا ، فقال : لقد عرفت عملكم وشعرت به من أحاديثى مع الإيطاليين الذين قابلتهم ، ولكن ما عددكم هنا؟ قلت : نحن ثلاثة لأن رابعنا عاد إلى مصر ، فقال : لكن هذا العدد قليل جدًا ، فرددت على الفور :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

«فقال : لا أقصد أن أعيركم ، ولكنى شعرت بأن عملكم كبير فقلت : هذا من فضل الله علينا ، فقال : على كل حال إنى قد اطمأنيت على الدعاية لقضيتنا فى إيطاليا ، وسأخبر إخوانى فى مصر بذلك ، ثم قال : وإنى باسم الوفد سأعتبرك ممثلاً لنشاط الوفد فى إيطاليا ، فقلت له : أما عن الدعاية لمصر وقضيتها فنحن نعمل لذلك بقدر استطاعتنا والله ولى التوفيق ، وأما فيما يتعلق باعتبارى ممثلاً لنشاط الوفد هنا فأرجو أن تعفينى من التشرف بهذا التكليف ، وحسبى أن أكون مصريًا أعمل لمصر ، وسعد باشا نفسه يعلم ذلك ، وسافر على الشمسى وتابعت عملى وبرنامجى» .

(٧٤)

ونأتى إلى إحدى الوقائع المهمة فى تاريخ صاحب المذكرات ، وهى واقعة اتصاله

بالخديو السابق عباس حلمى، وما جره هذا الاتصال عليه من مشكلات وما سببه له من متاعب، وذلك على الرغم من حرصه على أن يظهر مدى سطحية هذه العلاقة كما سنرى فيما يرويه، والواقع أن أى علاقة لأى أحد بالخديو عباس كانت بمثابة خميرة عكننة للملك فؤاد، وبخاصة فى ظل وجود عدد لا يستهان به من العملاء المزدوجين الذين كانوا يفيدون من تأجيج الأزمة من حين لآخر، وترينا رواية سيد باشا بعدا مهما فيما يتعلق بأدوار رجال السياسة الذين لعبوا على أوتار هذه القصة:

«كان الخديو عباس حلمى الثانى يقيم فى إيطاليا أثناء وجودى بها، ولم أكن أعرف مكانه، كما لم يكن لى حاجة أو رغبة فى مقابلته، إلا أنه فى أحد الأيام وأذكر أن ذلك فى أواخر ديسمبر ١٩٢٠، جاءنى فى منزلى رجل عرفنى بنفسه قائلا: إنه محمد توفيق فاضل سكرتير خاص سمو الخديو عباس حلمى الثانى خديو مصر سابقًا، وأنه موفد من قبل الخديو ليقول لى إن الخديو يرغب فى مقابلتى له، وهو يقيم بفندق «بالاس» بشارع «فينتو»، فحددت له موعدًا أذهب فيه لمقابلة سمو الخديو، وذهبت فى الموعد المحدد واستقبلنى الخديو استقبالاً حسنًا، وقال: إنه يسره أن يرى شابًا مصريًا مثلى حيث سمع من بعض رجال السياسة والصحافة الإيطاليين ثناء طيبًا عنى وعن نشاطى فى الدعاية لمصر، وتحدثنا أنا والخديو نحو ساعة عن مصر وما يجرى فيها، وعن أعمال الإنجليز فى مصر وما ناله منها، وفى نهاية الجلسة طلب منى الخديو أن أزوره بعد أسبوع، وذهبت إليه بعد مرور الأسبوع وأثناء وجودى معه حضر رجلان عرفنى الخديو أنهما أحمد بك لطفى رئيس الحزب الوطنى فى ذلك الوقت، والأمير عزيز حسن، وسلما على الخديو بالانحناء وتقبيل يده، لكننى ما فعلت ذلك أبدًا، بل كان سلامى للخديو دائمًا عاديًا، وأبقانى الخديو معه أكثر من ساعة وعند قيامى أعطانى ٣٠٠٠ ليرة إيطالية (تعادل فى ذلك الوقت ٣٠ جنيهًا مصريًا تقريبًا)، وقال: إن هذا المبلغ مساعدة منه لجمعيتنا لإصدار نشرتها، فأخذتها وشكرته، ثم دعانى للتردد عليه فى الأوقات التى تناسبنى، ولعله ظن أنه قد اشترانى بهذه المنحة، ولكن خاب ظنه».

«ثم زرت الخديو بعد ذلك فى روما عدة مرات وكانت أحاديثه معى فى المرات التى قابلته فيها تدور حول أنه يحب مصر حبًا شديدًا، وأنه كان يعمل بإخلاص لصالحها،

ولكن بعض المصريين، ومنهم بعض الأمراء وعلى رأسهم الأمير عمر طوسون، كانوا يعاونون الإنجليز على مضايقته وإحباط الخطط التى كان يرسمها لصالح مصر، وقال: إنه علم أن الأمير عمر طوسون ومَنْ معه من الأمراء يؤيدون رجال الحزب الوطنى ويمدونهم بالأموال لمناهضة سعد باشا والوفد بأمل أن يستفيدوا (الأمراء) من ثورة مصر ليتولى أحدهم الحكم فيها، لأن هؤلاء الأمراء يقولون إنهم أحق منى (الخديو) بحكم مصر لأنهم من سلالة محمد على، أما أنا (الخديو) فمن سلالة إبراهيم باشا الذى هو ابن زوجة محمد على وليس ابن محمد على، وقال: إن على كامل فهمى شقيق الزعيم مصطفى كامل قد زاره من بضعة أيام وأكد له ذلك، ثم طلب منه مبلغ ١٠ آلاف جنيه ليقوم رجال الحزب الوطنى فى مصر وخارجها بالدعاية لصالح الخديو، فاستكثر الخديو هذا المبلغ وقال له: إنه بهذا المبلغ يمكنه أن يشترى أى بلد عربى».

«ثم قال الخديو: إنه لا يثق برجال الحزب الوطنى، ولا يعتقد أنهم مخلصون فى العمل لصالح مصر، وأنهم يحبون المال بدليل أنه عقب وفاة مصطفى كامل قد حصل من أخيه على كامل على كل ما لدى مصطفى كامل من أوراق مقابل وعده بدفع ٣٥ جنيهًا لعلى كامل، وأخذ الأوراق ولم يعطه شيئًا، ثم قال: إنه يثق كثيرًا بوطنية سعد باشا وإخلاصه لمصر، وأنه مستعد لأن يكون وفديًا ويمد الوفد بكل ما يحتاجه من المال، وأنه يسره جدًا أن أنقل هذا إلى سعد باشا، وقال: إنه يعرف سعد باشا من مواقفه فى الوزارة وفى الجمعية التشريعية، وقال: إنه كان يسمى الجمعية التشريعية بأنها جمعية «تهجيصية» بدون سعد باشا، ومن إطراء الخديو لسعد باشا واستعداده لمعاونة الوفد ماليًا، أدركت أن الخديو يتملق سعد باشا ليكون فى صفه، وقررت فى نفسى أن أطلع سعد باشا على هذا التملق لأعرف رأيه فى الخديو».

«وفى إحدى المرات التى زرت الخديو فيها وجدت عنده رجلاً عرفنى الخديو به قائلا: إنه سامى بكير وزير خارجية تركيا فى ذلك الوقت، وجرى بيننا حديثًا عامًا، وبعد خروج سامى بكير قال الخديو: إن وزير خارجية تركيا جاءه ليطلب منه معونة مالية للجيش التركى الذى كان وقتها فى حرب مع الجيش اليونانى، وأن الوزير التركى لوح للخديو بأنه إذا لم يدفع شيئًا فإن مصطفى كمال (أتاتورك) سيصادر جميع أملاك الخديو فى تركيا، ثم استطرد الخديو قائلا: إنه لن يدفع شيئًا للأتراك ولا يخاف من

تهديدهم له، لأن تركيا لم تساعده على العودة إلى مصر، ولم تعترض على الإنجليز عندما طردوه من مصر».

(٧٥)

ونستأنف مع سيد باشا ما يرويه عن تطور علاقته بالخديو عباس حلمى، وبداية التوتر فى هذه العلاقة حين تصدى لرغبة الخديو فى احتواء الحركة الوطنية واستغلالها لمصلحة عودته إلى عرشه:

«فى ربيع ١٩٢٢ عقد بمدينة «جنوا» الإيطالية مؤتمرًا دوليًا لمناقشة بعض المشاكل الدولية المهمة فى ذلك الوقت، وانتهزت هذه الفرصة لأتقدم للمؤتمر بمذكرة باسم جمعيتنا أشرح فيها للمؤتمر القضية المصرية وأحقية مصر فى الاستقلال، وعلم الخديو بذلك وكان يقيم فى ذلك الوقت بمدينة «سان ريمو» على السواحل الإيطالية، فأرسل إلىّ مع سكرتيره الخاص محمد توفيق فاضل كتابًا رقيقًا يرجو فيه أن أضمن المذكرة التى سأتقدم بها لمؤتمر «جنوا» موضوع حقه الشرعى فى حكم مصر، وأن الإنجليز قد طردوه من مصر بدون وجه حق، كما سألنى فى خطابه هذا إذا كنت قد بلغت سعد باشا عن رغبة الخديو ليكون عضواً غير ظاهر فى الوفد على أن يمد الوفد بجميع ما يلزمه من المال، فكان ردى على الخديو بخطاب أيضًا حمله إليه سكرتيره الخاص وقلت فى خطابى: إنى شديد الأسف لعدم إمكانى تحقيق أى من رغبتى سمو أفندينا للأسباب الآتية:

«١ - من (جهة أن) تتضمن مذكرة جمعيتنا القول بأحقية سموكم الشرعية فى حكم مصر فإنى أخشى أن نتهم بأننا مأجورون لمسائل شخصية وليس هدفنا خدمة بلادنا، وعندئذ لا ينظر لعملنا بأى تقدير، ولا يهتم أحد بنا، فلن تستفيد سموكم شيئًا ونخسر نحن حسن سمعتنا، والأفضل أن تترك إثارة مثل هذه المسائل إلى ما بعد أن تحصل مصر على استقلالها، فعندئذ يقرر الشعب حكامه الشرعيين».

«٢ - ومن حيث نقل رغبة سموكم فى انضمام سموكم إلى الوفد المصرى إلى سعد

باشا فأرجو أن تعفيني سموكم من هذه المهمة لأنى غير متأكد من نوايا سموكم الحقيقية بشأن مستقبل مصر».

. . . .

«وغضب الخديو من ردى هذا ولم أعبأ بغضبه، وأعددت المذكرة دون أن تتضمن أى شىء خاص بالخديو، ووزعتها على الصحف وعلى أعضاء المؤتمر، ونشرتها الصحف الإيطالية وعلقت عليها تعليقات مسهبة لصالح مصر، وتبناها أحد أعضاء وفد إيطاليا فى المؤتمر فاساللو، وتحدث بشأنها أمام المؤتمر مؤيداً ما فيها، ومن ثم سمع صوت مصر عاليًا فى مؤتمر دولى، ولم يشعر بعملى هذا أحد فى مصر لأنه عمل قام به سيد أفندى باشا».

(٧٦)

ونأتى إلى مشاركة الدكتور سيد باشا فى مؤتمر لوزان ١٩٢٢، وهو يشير إلى أن على الشمسى باشا هو الذى ألحقه بهذا الوفد، وما يرويه عما شهده هذا المؤتمر من محاولة محكوم عليها بالفشل من أجل التوحيد بين جهود الحزب الوطنى والوفد فى ظل سعى الخديو عباس حلمى إلى استغلال المؤتمر لصالحه، وهو ما لم يكن الوفديون ليوافقوا عليه:

«. . . تقرر عقد مؤتمر دولى فى لوزان فى شتاء ١٩٢٢ لبحث المشاكل التى كانت بين تركيا ودول البلقان، لاسيما اليونان فى ذلك الوقت، وقرر الوفد المصرى أن يوفد وفداً منه إلى لوزان للسعى فى عرض القضية المصرية على المؤتمر، وتشكل وفد مصر لدى مؤتمر لوزان برئاسة حسن حسيب باشا، وكان من بين أعضائه على الشمسى بك، وفى طريقه إلى لوزان مر الوفد بروما وجاءنى على الشمسى وأخبرنى بأنه قد تقرر أن أرافق الوفد إلى لوزان ملحقًا به بصفتى صحفيا، كما طلب منى الشمسى بك أن أحضر اجتماعًا سيعقد مساء اليوم الذى زارنى فيه بفندق «الاكسلسيور»، وقال: إن هذا الاجتماع سيعقد بين الجماعة الذين اختارهم الحزب الوطنى ليمثلوا مصر لدى المؤتمر، وبين الجماعة الذين اختارهم الوفد ليمثلوا مصر لدى المؤتمر، وذلك بقصد

الاتفاق على اندماج الجماعتين ليكونوا وفداً واحداً يمثل مصر لدى المؤتمر فى لوزان، حتى لا تظهر مصر أمام العالم بأنها منقسمة على بعضها».

«وعندما سمعت ذلك من الشمسى بك جال بخاطرى فوراً أن الخديو عباس الثانى لابد أن يكون وراء السعى لهذا الائتلاف، ذلك لأنى كنت أعرف أثناء وجودى فى مصر أن رجال الحزب الوطنى، باستثناء عبد اللطيف بك الصوفانى ومَنْ انضم منهم إلى الوفد، كحافظ عفيفى، ومصطفى النحاس، وعبد اللطيف المكباتى، لا يطيقون حتى الحديث مع أعضاء الوفد، فكيف يقبلون هذا الاندماج الآن؟ لابد أن يكون الخديو قد ساومهم على قبوله على أن يحاول فريق الحزب الوطنى فى وفد مصر لدى مؤتمر لوزان أن يضمن الوفد إحدى مذكراته موضوع أحقية الخديو بعرش مصر، لذلك قلت لعلى الشمسى على الفور: إنى أعتقد أنكم لن تجدوا أية صعوبة فى إتمام هذا الاندماج، لكنه لن يدوم، ثم سألت الشمسى عمن سعى لهذا الاندماج، أهو الوفد المصرى أم الحزب الوطنى؟ قال: نحن الذين اقترحنا الاندماج عندما علمنا بأن الحزب الوطنى سيوفد وفداً لمؤتمر لوزان حتى لا تظهر مصر منقسمة على بعضها أمام العالم، وشعرنا بميل الحزب الوطنى لهذا الاندماج، لذلك فإنى أعجب لقولك إن هذا الائتلاف لن يدوم، فقلت: إن السبب الذى يدعوك للاعتقاد بدوام الائتلاف وهو ميل الحزب الوطنى له، هو نفسه السبب الذى يدعونى للاعتقاد بعدم دوامه، لأنه ائتلاف لحاجة فى نفس يعقوب، و اكتفيت بهذه الإشارة».

(٧٧)

كذلك يورد سيد باشا تفصيلات مهمة عن مؤتمر لوزان وممثلى مصر فيه:

«وحضرت الاجتماع فى فندق «الاكسلسيور»، وتم الائتلاف وسافرنا إلى لوزان وكان ذلك على ما أذكر فى أواخر شهر نوفمبر ١٩٢٢».

«... كان وفد مصر لدى مؤتمر لوزان مكوناً من: حسن حسيب باشا رئيساً، ثم على الشمسى بك، وسلامة ميخائيل بك، وحسين هلال بك، وعبد الحليم البيلى أفندى، وإبراهيم راتب أفندى، وعطا عفيفى أفندى أعضاء من هيئة الوفد

المصرى، وأحمد لطفى بك، وحافظ رمضان بك، وأحمد وجدى أفندى، وسعيد حليمات أفندى أعضاء من هيئة الحزب الوطنى، ورأس الوفد المندمج حسن حسيب باشا، ومكتب صحافة الوفد كان مكونًا من محمد فهمى بك، الذى كان مقيمًا بجنيف ويعمل أستاذًا للتاريخ الإسلامى بجامعتها، وسيد باشا أفندى، كما كانت سكرتارية الوفد مكونة من جورج رومانى أفندى، وعزيز أنطون أفندى، وأخذ وفد مصر لدى مؤتمر لوزان يمارس نشاطه، فأعد مذكرة ضافية شرح فيها الأدوار التى مرت بالقضية المصرية وكيف احتلت إنجلترا مصر، ثم وعود إنجلترا بالجلاء عن مصر، ثم فرض حمايتها على مصر بدون موافقتها، ومن ثم عدالة مطالبة مصر برفع تلك الحماية، ثم طبعت المذكرة ووزعت على أعضاء المؤتمر، وعلى مندوبى الصحف فى المؤتمرات، وسارت الأمور سيرًا حسنًا، كما تلقى وفد مصر لدى المؤتمر كتابًا من مصطفى كمال (أتاتورك) رئيس تركيا فى ذلك الوقت ردًا على تهنئة وفد مصر له بمناسبة انتصار تركيا على اليونان، وأعرب مصطفى كمال فى رده عن تمنياته الطيبة لمصر، وأمله فى أن تنال استقلالها التام بفضل اتحاد شعبها وجهادها وتضحياتها».

(٧٨)

ومن الجدير بالذكر أن سيد محمد باشا أورد فى مذكراته نص خطاب الزعيم التركى مصطفى كمال أتاتورك إلى حسن حسيب باشا رئيس وفد مصر لدى مؤتمر لوزان.

«. . . وفى نفس الوقت تكلم عصمت إنينو رئيس الوفد التركى لدى المؤتمر مظهرًا شعورًا طيبًا نحو مصر وشعبها، وشرح كيف سارت علاقة تركيا بمصر، وكيف تعطلت هذه العلاقة منذ سنة ١٩١٤ عند قيام الحرب العالمية الأولى، ثم قال: إن تركيا قد تنازلت عن حقوقها فى مصر لمصر منذ ذلك التاريخ، كما قال: إنه بناء على ذلك فإن الشعب المصرى له الحق والحرية فى أن يقرر مصيره بنفسه».

«وعلقت الجرائد السويسرية والإيطالية على مذكرة وفد مصر، وعلى حديث عصمت إنينو لصالح مصر».

ونصل مع سيد باشا إلى اللحظة التى شهدت تفجر الخلافات بين ممثلى مصر فى مؤتمر لوزان، ونحن نجد سيد باشا يصور نفسه فى حواره مع على الشمسى أكثر وعيًا من الشمسى باشا بالحقائق الحاكمة لتصرفات السياسيين وقصور نظرهم:

« . . . وعندما أخذ وفد مصر لدى المؤتمر يعد المذكرات الإضافية لمذكرته التى قدمها للمؤتمر، هو ما كان فى نفس يعقوب، حيث عرض اقتراح من جانب ممثلى الحزب الوطنى فى الوفد بأن تتضمن إحدى المذكرات الإضافية موضوع أحقية الخديو عباس فى تولى حكم مصر، فعارضت هذا الاقتراح بشدة بصفتى أحد المصريين الذين يتكلم وفد مصر لدى مؤتمر المؤتمر باسمهم، وبصفتى رئيس جمعية الطلبة المصريين فى إيطاليا، واستندت فى معارضتى على أن مهمة الوفد هى أن يوضح للرأى العام الدولى قضية مصر وليس قضية شخص بعينه مهما كان مركزه، ثم قلت: إن هذا ليس رأيى وحدى، وإنما هو رأى الشباب المصرى، وسأبرهن لكم على ذلك، ثم غادرت المكان وأنا أقول للشمسى بك: هذا هو ما كان فى نفس يعقوب الذى أشرت إليك به، ثم أرسلت إلى جميع جمعيات الطلبة المصريين فى أوروبا وفى إنجلترا طلبت من كل منهم إيفاد مندوب أو أكثر عنها لحضور اجتماع سيعقد بلوزان لبحث أمر مهم خاص بالقضية المصرية».

«وانعقد الاجتماع وحضره مندوبون عن ٢٣ جمعية من جمعيات الطلبة المصريين التى كانت موجودة أن ذلك فى مختلف عواصم البلاد الأوروبية ومدنها الكبيرة، وشرحت لهم وجهة نظرى فى الاقتراح الذى اقترحه ممثلو الحزب الوطنى فى وفد مصر لدى مؤتمر لوزان، فأقر المجتمعون بالإجماع وجهة نظرى فى معارضة الاقتراح، واتخذ المجتمعون قرارًا ينص على أنه إذا تضمنت أية مذكرة لوفد مصر لدى مؤتمر لوزان بشأن قضية مصر ذكر أشخاص أو قضايا أشخاص لهم علاقة بمصر فى الماضى أو الحاضر أو فى المستقبل، فإن جميع الجمعيات المصرية الموجودة فى أوروبا وإنجلترا تسحب ثقتها من الوفد المصرى وتعلن ذلك للأمة المصرية، ثم سلمت حسن حسيب باشا صورة من محضر الاجتماع وقراراته، كما وزعت نسخًا منها على مندوبى

الصحف السويسرية والإيطالية لدى مؤتمر لوزان، وتسببت هذه الحملة فى رفض اقتراح ممثلى الحزب الوطنى فى الوفد، وتابع الوفد أعماله».

(٨٠)

وتنفرد مذكرات سيد باشا دون غيرها من أدبيات تاريخنا المتاحة بالحديث التفصيلى عن محاولات الخديو عباس حلمى للإفادة من مؤتمر لوزان:

«وكان الخديو عباس موجودًا فى لوزان أثناء انعقاد المؤتمر يتابع نشاط وفد مصر، ويترقب نتيجة جهود ممثلى الحزب الوطنى فى الوفد فى تحقيق ما كلفهم به، فلما علم بما حدث أرسل إلىّ لمقابلته فذهبت إليه، فقال لى: لماذا تحاربنى وأنا لم أقدم إليك أية إساءة؟ فقلت: عفوا ياسمو أفندينا، كما كانوا يخاطبونه وقتئذ، أنا لا أعمل شيئًا ضد سموكم، ولا أفكر فى ذلك مطلقًا، وهذا هو الواقع، ولكنى أعمل لصالح مصر، وأعتقد أن أى عمل يخرج عن دائرة العمل لمصر لا يفيدها، فقال: إنى لست فى حاجة إلى معاونة أحد من المصريين، فهم ينكرون جمائلى عليهم، فقلت: أعتقد ياسمو أفندينا أن المصريين أصدق الناس فى الاعتراف بالجميل، ثم انصرفت».

«عندئذ رأى الخديو أنه لا فائدة له من وجود ممثلى الحزب الوطنى فى وفد مصر لدى مؤتمر لوزان، فصدرت التعليمات لهم بعدم حضور اجتماعات الوفد فانسحبوا منه وانتهى الائتلاف».

«ثم اختار الخديو اثنين من أعضاء الحزب الوطنى للسفر إلى أنقرة للسعى لدى مصطفى كمال أتاتورك للحصول منه على توصية إلى عصمت إنينو رئيس وفد تركيا فى المؤتمر ليثير أمام المؤتمر موضوع عزل الخديو عباس عن عرش مصر وعدم شرعية هذا العزل».

«وسافر فعلاً إلى أنقرة حافظ رمضان بك، وأحمد وجدى أفندى، ثم سافرت أيضًا إلى أنقرة معهما الأميرة شويكار لمعاونتهما، كما أخبرتنى هى بنفسها بذلك، ونجحوا فى الحصول على توصية من مصطفى كمال إلى عصمت إنينو ليقابل الخديو ويسمع شكواه، وحدد عصمت إنينو موعدًا للقاء الخديو، وعلمت بموعد اللقاء من الأميرة شويكار».

«وقبل موعد المقابلة بيوم واحد نشرت جريدة «البوبولو دى إيطاليا» لسان حال حزب «الفاشيستى» فى إيطاليا حديثًا لى مع موسولينى رئيس الحكومة الإيطالية فى ذلك الوقت ورئيس وفدها لدى المؤتمر، وأعلن موسولينى فى حديثه معى أن مهمة مؤتمر لوزان هى بحث مسائل الشعوب ومشاكلها، وليست النظر فى قضية أو مشكلة أى شخص من أية دولة مهما كان مركزه، وكان نشر هذا الحديث سببًا فى اعتذار عصمت إينينو عن استقبال الخديو عباس».

«وإزاء تصرف ممثلى الحزب الوطنى فى وفد مصر لدى المؤتمر، أصدر ممثلو الوفد فى وفد مصر لدى المؤتمر بيانًا للأمة المصرية أعلنوا فيه انتهاء الائتلاف لمناورات ممثلى الحزب الوطنى فى الوفد وتصرفاتهم، وكتبت هذا البيان بخطى وطبع فى لوزان على ما يسمى مطبعة الحجر لعدم وجود آلة كاتبة أو مطابع عربية بسويسرا، وأرسل البيان لمصر فى حينه، ومن المستندات القليلة جدًا التى بقيت عندى صورة من هذا البيان وجدتها عند المرحوم محمد بك فهمى عندما زرته فى جنيف سنة ١٩٣٨، والبيان مكتوب بخطى ومطبوع على مطبعة حجر بلوزان».

(٨١)

ولا تقف جسارة سيد باشا فى حديثه عن سلوكيات كبار رجال الدولة عند حد، ونحن نراه يعلن أنه اكتشف من بين أعضاء الوفد المصرى فى مؤتمر لوزان مَنْ يتجسس لحساب الملك فؤاد، وهو يقدم أدلته على أن اللذين قاما بهذا الدور هما عبد الحليم البيلى، وإبراهيم راتب اللذان كانا عضوين فى وفد مصر إلى لوزان، كما كانا منتميين للوفد:

«. . . كنت أجلس فى إحدى الليالى خلال أيام انعقاد المؤتمر فى إحدى حجرات مكتب وفد مصر فى فندق «بالاس» أكتب مقالاً لجريدة «الايبوكا» الإيطالية عن مصر، وكان يجلس فى الحجرة المجاورة للحجرة التى أجلس فيها عبد الحليم البيلى، وإبراهيم راتب يتحدثان فى هدوء بصوت خافت، ثم خرجا من الحجرة، وبعد انتهائى من كتابة المقال دخلت الحجرة التى كانا يجلسان فيها فوجدت ورقة ملقاة على أرض الحجرة فتناولتها فإذا هى خطاب من أحد كبار رجال السراى فى مصر فى ذلك الوقت إلى عبد الحليم البيلى يبلغه فيها أن جلالة الملك فؤاد قد أمر بمنح كل منهما، عبد الحليم البيلى

وإبراهيم راتب خمسة وسبعين جنيهًا فى الشهر مقابل أن يمدا السراى بكل المعلومات عن تحركات الوفد المصرى واتجاهاته داخل مصر وخارجها، فقلت فى نفسى: وهذا ميدان آخر يحتاج إلى معركة».

«وبعد يومين كان وفد مصر مجتمعا يتابع نشاطه، وإذا باقتراح يقدمه عبد الحليم البيلى يقترح فيه إيفاد اثنين من أعضاء الوفد إلى تركيا لمقابلة مصطفى كمال ليأتيا منه بتوصية لعصمت إنينو ليولى مذكرات الوفد شيئًا من الاهتمام ويتحدث بشأنها فى المؤتمر، لاسيما من حيث شرعية الحكم فى مصر، ورشح عبد الحليم البيلى إبراهيم راتب ليكون أحد الاثنين اللذين سيوفدا على أساس أن إبراهيم راتب يجيد اللغة التركية، كما رشح عبد الحليم البيلى نفسه ليرافق إبراهيم راتب، لكن الاقتراح رفض على أساس أن عصمت إنينو قال كل ما كان يمكنه أن يقوله لصالح مصر، وأن مصطفى كمال أرسل للوفد خطابًا رقيقًا مشجعًا ردًا على الخطاب الذى كان قد أرسله له الوفد».

(٨٢)

وتنفرد مذكرات سيد باشا بالتأكيد على أهمية النتائج التى حصلت عليها مصر فى مؤتمر لوزان، وربما لا يوافق القارئ على مثل هذه الأهمية، إذ أن القراء يدركون الآن أن كل هذه المعاهدات الدولية لا تقيم حقًا من تلقاء نفسها، وأن قيمتها تكمن فى أنها قد تصلح كأسانيد:

«واستمر وفد مصر يمارس نشاطه بدون ممثلى الحزب الوطنى، وبوجود عيون الملك فؤاد حتى انتهى المؤتمر من أعماله، وقد أفادت مصر من نشاط وفدها لدى مؤتمر لوزان، وحصلت على نتائج سياسية دولية مهمة، حيث نصت معاهدة لوزان فيما يختص بمصر على ما يأتى:

«مادة ١٧: يسرى مفعول تنازل تركيا عن كل حقوقها فى مصر والسودان من ٥ نوفمبر ١٩١٤».

«مادة ١٨ : صارت تركيا محررة من كل تعداتها الخاصة بالقروض العثمانية المضمونة بالجزية على مصر، وهى المعقودة فى سنوات ١٨٠٠ و١٨٩١ و١٨٩٤، وصارت المدفوعات السنوية التى تدفعها مصر لوفاء هذه القروض الثلاثة جزءاً من مدفوعات الدين المصرى العام، وصارت مصر محررة من كافة العهدات الأخرى المتعلقة بالديون العثمانية».

«مادة ١٩ : إن المسائل الناتجة من الاعتراف بالدولة المصرية التى لا تسرى عليها الأحكام الخاصة بالأملاك المنسلخة من تركيا بمقتضى هذه المعاهدة ستسرى فيما بعد باتفاقات بين الدول صاحبات الشأن فى الظروف التى تعنيها».

«مادة ٩٩ : ابتداء من نفاذ هذه المعاهدة وبدون مساس بالنصوص الواردة فيها، تنفذ معاهدة الآستانة المعقودة فى ٢٩ أكتوبر ١٨٨٨ الخاصة بوضع نظام الملاحة فى قناة السويس مع التحفظ الوارد فى المادة ١٩من المعاهدة الحالية».

«وفضلاً عن ذلك فإن جميع الصحف الإيطالية قد نشرت بيانات وفد مصر لدى المؤتمر، ومذكراته، وعلقت عليها لصالح مصر، وكذلك فعلت بعض الصحف السويسرية، أما الصحف الفرنسية والإنجليزية فلم تنشر شيئًا منها بكل أسف».

(٨٣)

ويصل سيد باشا فى التعبير عن عداوته للخديو عباس إلى حد أن يذكر أنه أقنع وزير المستعمرات الإيطالية بتآمر الخديو، مما جعل إيطاليا تقرر إبعاد الخديو عن إيطاليا وعدم السماح له بدخولها، وهو الأمر الذى استمر حتى وفاته، ونحن لا نستطيع أن نؤكد رواية سيد باشا ولا أن ندعمها . . . لكننا نعجب من أن تظل مثل هذه النقطة غامضة إلى مثل هذا الحد.

« . . . وفى أوائل شهر إبريل ١٩٢٣ على ما أذكر، دعانى الماركيز كولونا دى شيزارو وزير مستعمرات إيطاليا فى ذلك الوقت، لمقابلته، وكنت أعرفه، بل كنت صديقه، حيث كان هو رئيس جمعية الشرق الحديث، وكنت أنا عضواً فيها وسكرتيرها الشرفى، وعندما ذهبت إليه أطلعنى على مكتوب وصله من مجهول وفحواه أن (سيد

باشا) على صلة قوية بالطرابلسيين المقيمين فى إيطاليا، والثائرين ضد إيطاليا فى طرابلس، وأنه يشترك فى تزويد الثائرين بالسلاح، وقال لى الوزير: إنه على يقين بأن البلاغ بلاغ كيدى لأنه (الوزير) أدرى الناس بنشاطى فى إيطاليا».

«ثم سألنى عمن أظن أن يكون مرسل هذا البلاغ؟ فقلت له: ربما يكون الخديو عباس حلمى قد أوحى إلى أحد أتباعه بإرساله لأنه غاضب منى، فقال: لابد أن يكون ذلك صحيحًا لأننا نشتبه فى نشاطه، ويظهر أنه شعر بذلك ويريد أن يضلل مخابراتنا ويصرفها عن مراقبته على حساب اتهامك، وبهذا البلاغ أكد لنا الخديو ما لدينا من شبهات فى نشاطه، وانتهى حديثنا».

«وبعد بضعة أيام علمت من الماركيز دى شيزارو أن الحكومة الإيطالية قد أبعدت الخديو عباس حلمى من إيطاليا، وقررت عدم السماح له بدخول إيطاليا طول حياته، وذلك بعد أن قامت سلطات الأمن الإيطالية بتفتيش مقر إقامته بسان ريمو بإيطاليا ووجدت عنده أوراق (يقصد: أوراقًا) تثبت أنه كان يعمل على أن يتولى الحكم فى أى قطر من أقطار شمال إفريقيا، ومن بينها طرابلس، وذلك بتجميع أعوان له فى تلك الأقطار ومدهم بالمال لقلب نظام الحكم فيها، ولم يدخل الخديو بعد ذلك إيطاليا إلى أن توفاه الله».

(٨٤)

ويتحدث سيد باشا بفخر شديد عن حصوله على الدرجات النهائية على يد أحد عشر ممتحنًا هم لجنة الدكتوراه، ولا يعجبن القارئ من أن يحصل سيد باشا على هذه الشهادة بهذه السرعة، فقد كان النظام الإيطالى فى ذلك الوقت قائمًا على هذا النحو، وهكذا كانت الدكتوراه التى يتحدث عنها سيد باشا أقرب إلى درجة البكالوريوس البريطانية والفرنسية، حيث كان النظام الجامعى الإيطالى يتيح هذه الدرجة عقب المرحلة الجامعية الأولى مباشرة:

« . . . منحت بعدها الدكتوراه، وكانت الدرجة التى نلتها ١١٠/ ١١٠، أى أن كل أستاذ أعطانى ١٠/ ١٠، وبحصولى على الدرجة النهائية ومرتبة الشرف استرديت

(يقصد: استرددت) جميع المصروفات الجامعية التى دفعتها من يوم التحاقى بالجامعة حتى مناقشة الدكتوراه، حيث كانت تنص بذلك لوائح الجامعة».

«بعد الانتهاء من مناقشة الرسالة استدعانى رئيس لجنة المناقشة الأستاذ فيتو فولترا العالم فى الطبيعة الرياضية وعضو مجلس الشيوخ الإيطالى ورئيس الأكاديمية الإيطالية فى ذلك الوقت، وكان هو أستاذى فى هذه المادة، والمشرف علىّ فى بحث رسالتى، وهنأنى بحرارة ثم سألنى: هل أنت مصرى من مصر؟ قلت له: أنا مصرى من ريف مصر، ، ثم قال: وأين تعلمت؟ قلت: تعلمت فى المدارس المصرية، ثم قال بالحرف ما يلى: «أنت تعلم أنى أشغل الآن كرسى أستاذ الطبيعة الرياضية فى أربع جامعات هى روما وباريس ولندن ومدريد»، وهذا صحيح، إذ كنا نعلم أنه يلقى كل عام ٢٠ محاضرة فى كل من جامعات باريس ولندن ومدريد، ويدرس لنا الطبيعة الرياضية فى جامعة روما، ثم قال: «ولى الآن خمس سنوات وأنا أحاول اختيار مساعد لى»، لأن النظام فى جامعات إيطاليا فى ذلك الوقت كان يقضى بأن الأستاذ هو الذى يختار مساعده بصرف النظر عما إذا كان هذا المساعد من هيئة التدريس بالجامعة أو من خارجها، أو كانت له مدة خدمة أو حديث التخرج، «ولم أوفق بعد، وقد وقع اختيارى اليوم عليك لتكون مساعدى، فما رأيك؟»، فقلت: إن هذا شرف كبير وتقدير عظيم لى، ولكن ألا ترى سيادتك أن وطنى أحق بى من أى بلد آخر؟ فقال: يابنى إن العلم ليس له وطن خاص به، وعلمك سينفع بلدك وغير بلدك، فقلت: على أى حال إذا عملت فى بلدى سيكون علمى أقرب إليه من غيره، واعتذرت له وانصرفت».

«ولم أندم فى حياتى على رفض عرض عُرض علىّ غير هذا العرض، فلو أنى قبلت أن أكون مساعداً للأستاذ فولترا لكنت أصبحت الآن من بين علماء الذرة المرموقين فى العالم، ولكن هذا ما أراده الله لى».

(٨٥)

وتظهر ثقة سيد باشا الفائقة بنفسه فيما يرويه عن لقائه هو وزميله عريان يوسف سعد بالزعيم سعد زغلول قبيل توليه رئاسة الوزارة، واقتراحهما عليه ألا يقبل بهذا المنصب، مكتفيا بزعامة الأمة:

«. . . ذهبنا أنا ويوسف لمقابلة سعد باشا فى منزله، وبعد أن هنأناه بحصول الوفد على الأغلبية فى البرلمان، قلنا له: إننا جئنا لنتقدم باسم الفدائيين إلى دولتك برجاء، ثم جرى بيننا الحديث التالى بالنص:

«أنا: هل تعتقد دولتك بأننا قد حصلنا على الاستقلال الذى قامت الثورة من أجله؟».

«سعد باشا: لا أعتقد ذلك، ولازال بيننا وبين الإنجليز (مشوار طويل) لاستخلاص استقلالها الصحيح».

«أنا: ألست دولتك هو قائد الثورة؟».

«سعد باشا: بيقولوا كده».

«أنا: نعم هو كذلك، وفى صالح الثورة ألا يكون قائدها فى مركز يضطره للتورط أو المجامعلة فى معاملة خصوم الثورة».

«سعد باشا: بلاش لف، عايز تقول إيه؟ وضحك».

«أنا: باسم الفدائيين جئنا لنرجوك ألا تقبل رئاسة الوزارة وتبقى دولتك مع الأغلبية فى المعارضة للرقابة والتوجيه، لأن قبول دولتك لرئاسة الوزارة يعنى انتهاء الثورة بيننا وبين الإنجليز، لأنه بحكم وجود دولتك فى رئاسة الحكومة ستضطر لمهادنة الإنجليز ليتيسر سير الحكم، ثم لا يخلو الأمر من حصول بعض مجاملات أو تساهلات مرة للإنجليز، ومرة للسراى، وكل هذا يأتى على حساب الثورة فيضعفها بدلاً من أن يقويها، هذا فضلاً عن أن دولتك بحكم مركزك ستكون مسئولاً عن الأمن فى البلاد، وهذا يضطرنا لأن نوقف عملنا لأننا لا نرضى بإحراج دولتك».

«سعد باشا: هذا كلام له قدر كبير من الوجاهة بالنسبة لأناس لا يمارسون السياسة ولا يعرفون النظم البرلمانية. هل سمعتم فى نظام فى دولة من دول العالم أن الأغلبية البرلمانية تراقب ولا تحكم؟!».

«أنا: إن حالنا يختلف عن أحوال البلاد الأخرى، فنحن لانزال فى ثورة من أجل استقلالنا، أما البلاد الأخرى فهى مستقلة تمامًا».

«سعد باشا: آسف لئلا أقبل منكم هذا الرجاء لأنى لا أوافق على رأيكم».

«أنا: نشكركم ونحن متمسكون برأينا ونرجو لكم التوفيق، وفى الوقت نفسه نقول لدولتكم: إن قبولكم الوزارة يعنى الحكم بالإعدام على حركة الفدائيين مع العلم بأن الإنجليز لن يطيقوا وجود دولتكم فى الحكم طويلا».

(٨٦)

وهكذا انتهى لقاء سيد باشا وزميله بسعد باشا إلى حرصهما على إثبات وجهة نظرهما فى أن الإنجليز لن يطيقوا بقاء سعد فى الوزارة، وهما لا يقفان عند حد فى تشخصيهما للموقف على هذا النحو، وإنما يندفعان بمعونة صديق ثالث إلى كتابة منشور يحرض على عدم التعاون مع الإنجليز، ويؤكد على أن الكفاح المسلح لايزال ضروريا!!

ومن الطريف أن سعد زغلول نفسه كان لا يجد حرجًا فى أن يظل مثل هذا الرأى سائدًا بين أوساط مؤيديه، فها هو يبتسم لهذين الشابين ويقول «لكم دينكم ولى دين»:

«... وفى أثناء ذلك وفد علينا صديق لنا من طلبة الأزهر ومن الشبان المتحمسين للثورة وهو المرحوم عبد الله حبيب، وسألنا عما كنا نتكلم فيه فأخبرناه بما كان من أمرنا، فوافقنا على رأينا واشترك معنا فى كتابة المنشور الذى وقعناه بكلمة «هم»، وكان المنشور يتضمن المعانى الآتية:

«١ ـ إن ثورتنا ضد الإنجليز لم تنته بعد، لأننا لم نحصل على استقلالنا كاملاً».

«٢ ـ إن النواب والشيوخ الذين انتخبوا ويمثلون الثورة وما هم إلا فئة الهتافين والانتهازيين ولا يمكن أن تعتمد عليهم البلاد لتحريرها».

«٣ ـ إن الفدائيين هم الذين يمثلون الثورة تمثيلاً عمليًا، وهم الفئة العاملة بالفعل لتحرير البلاد من المستعمرين».

«٤ ـ إن الإنجليز لم يسلموا برفع الحماية عن مصر والاعتراف باستقلالها المبتور إلا بضغط الحركة الفدائية».

«٥ - إن قبول سعد باشا زعيم الثورة وقائدها تولى الحكم يعنى انتهاء الثورة، مع أن الثورة لم تنته بعد».

«٦ - إن الفدائيين لا يعترفون بانتهاء الثورة ويعارضون تولى سعد باشا الحكم على أساس أنه زعيم الأغلبية الثائرة».

«٧ - إن الفدائيين يطالبون سعد باشا بأن يبقى هو وأغلبيته فى المعارضة للمراقبة».

«وطبع المنشور فى المطبعة الرحمانية، ووزعناه بطريقتنا السرية على الجرائد، والتجار، والأعيان، وكبار الموظفين، وأعضاء البرلمان الذين انتخبوا، وجمعيات الطلبة، واتحادات العمال، وكان لهذا المنشور رد فعل وانزعاج شديد لدى سلطات الأمن، حيث فهموا من صدوره أن الحركة الفدائية ما زالت مستمرة، وأن الفدائيين ليسوا وفديين أو على الأقل خرجوا على الوفد».

«ويؤكد ذلك الانزعاج الذى أصاب سلطات الأمن ما جاء على لسان النائب العام خاصا بهذا المنشور وهو يترافع فى قضية الاغتيالات السياسية، إذ قرأ بعض فقرات من المنشور وقال: إن مثل هذا المنشور لا يمكن أن يصدر إلا من جماعة إرهابية عنيفة تهز الأمن فى البلاد هزًا عنيفًا».

«كما كان المنشور أيضًا بمثابة ناقوس ينبه الشعب إلى حقيقة واقع لم يكن قد تنبه إليه من قبل، وهذا الواقع هو أن هناك وراء العمليات والحوادث التى شاهدها على مدى الأربع سنوات الماضية هيئة قوية مستقلة ومنظمة تعمل لدعم الثورة فى سيرتها نحو غايتها، وهى استقلال مصر استقلالاً تامًا، وود كثير من المواطنين لو ينتسبون لهذه الهيئة».

. . . .

. . . .

«بعد مرور بضعة أيام على قرار الإفراج عن المعتقلين والمسجونين السياسيين، ذهبت أنا ويوسف لنشهد جلسة من جلسات مجلس النواب وتعمدنا أن نعترض طريق سعد باشا وهو ذاهب من قاعة المجلس إلى حجرة رئيس الوزراء بالمجلس، وعندما

لمحنا نادانا فذهبنا إليه فاستقبلنا ضاحكًا وقائلاً: عملتموها ياخنازير، وبعد أن سلمنا عليه قلنا: لقد أعلنا رأينا يادولة الباشا، فقال: لا بأس، لكم دينكم ولى دين، بس أوعوا تبعدوا عنى، فقلت: نحن تحت أمرك دائمًا ياباشا».

(٨٧)

ونصل مع رواية سيد باشا للأحداث التى أعقبت الانتصار الشعبى والبرلمان للوفد وسعد زغلول، واختلاف وجهات النظر والتوجهات الوطنية الوفدية والتصرفات الصادرة عن هذه التوجهات إلى مفترق الأحداث فى العلاقة بين سيد باشا وبين النقراشى، وهو المفترق الذى جاء سريعًا عندما أصدر سيد باشا وأصدقاؤه منشورهم المندد بالتعاون مع الإنجليز من خلال الوزارة والبرلمان، ونرى سيد باشا لا يجد حرجًا فى أن يغمز النقراشى بقوله: إن شعوره بالهزيمة لا يغضبه فحسب، وإنما يجننه:

« . . . كان من الطبيعى أن تتناول أحاديث أعضاء مجلس البرلمان فيما بينهم مسألة المنشور الذى أذعناه، وكان من الطبيعى أن يسأل محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر بصفتهما المتصلين بقطاع منشورات الثورة عمن كتبوا ذلك المنشور وأذاعوه، وكان من الطبيعى كذلك أن يشعر النقراشى وماهر بالهزيمة، ذلك لأنه قد تبين للوفديين أن قيادة قطاع العنف فى الثورة ليست للنقراشى وماهر كما كان الوفديون يعتقدون ذلك، وشعور النقراشى بالهزيمة لا يغضبه فحسب، بل يجننه، وقد لمسنا ذلك عندما وفد علينا النقراشى ونحن جالسون أنا ويوسف وعريان تلك الليلة فى محل «صولت» حيث كان النقراشى وأصدقاؤه متعودين أن يقضوا سهرتهم كل ليلة فى ذلك المكان، فما كاد يرانا، وكانت أول مرة يرانا فيها بعد صدور المنشور، حتى اندفع نحونا بسرعة وبدون سلام وبغضب شديد انفجر قائلا وملوحا بيده: إزاى تكتبوا المنشور ده، وإزاى تكتبوه بدون ما تقولوا لى، وإزاى تهاجموا سعد باشا بهذه اللهجة؟ وطبعا سعد باشا هو الذى أخبره بأننا نحن الذين كتبناه».

«وبنفس الاندفاع وبنفس الغضب رددت عليه قائلاً: إننا لا نسمح لك أن تخاطبنا بهذه اللهجة، فمَنْ أنت بالنسبة لنا؟ وما هو سلطانك علينا؟ إنّا لنا رأينا الخاص بنا، ولنا أن نعلنه كما نشاء، ووقت أن نشاء، فليس لأحد علينا سلطان إلا مصلحة بلدنا، وقد

عرف سعد باشا رأينا قبل أن نعلنه ولم يغضب منا، فتركنا النقراشى ممتعضا وذهب ليجلس مع أصدقائه».

(٨٨)

ويروى سيد باشا تطور ترقيته الوظيفية من بعد عودته من إيطاليا فى أساليب شيقة، وهو حريص على أن يوحى إلينا أن انتماءه إلى الحركة الوطنية كان بمثابة عبء على مستقبله السياسى:

«... وأثناء انتظار إتمام الإجراءات الخاصة لتعيينى بإدارة البلديات كنت فى مقابلة مع عبد اللطيف المكباتى بفندق «الكونتننتال» وقدمنى للمرحوم عبد المجيد بك عمر، الذى كان يجلس معه وقت لقائنا، وكان عمر بك ناظر مدرسة المهندسخانة (كلية الهندسة) فى ذلك الوقت، فلما عرف أنى حاصل على الدكتوراه فى الطبيعة الرياضية من جامعة روما قال: إنى أعمل الآن على تدعيم هيئة التدريس بالمدرسة بتعيين ذوى المؤهلات العليا الأجنبية، ويسرنى أن تنضم إلى هيئة التدريس بمدرسة الهندسة، وسأعرض أمر تعيينك عندنا على مجلس إدارة المدرسة الذى كان من سلطته تعيين أفراد هيئة التدريس بالمدرسة وتقدير مرتباتهم، ووافق مجلس إدارة مدرسة الهندسة على تعيينى مدرسًا مساعدًا بالمدرسة بمرتب ٣٥ جنيهًا شهريًا فى الدرجة الخامسة، وقمت بالعمل بالمدرسة من أول يناير ١٩٢٤».

(٨٩)

وبعد صفحات يفاجئنا سيد باشا بأن النقراشى، وهو أحد زملائه فى الكفاح المسلح، هو الذى خفض مرتبه!! ووقف أمام نواله ما كان يعتبره بمثابة حقه الطبيعى:

«... كان شهر فبراير قد اقترب من نهايته ولم أحصل بعد على مرتبى، حيث إنه لم يعتمد وزير المعارف قرار مجلس إدارة المدرسة الخاص بتعيينى، وبناء على ذلك لم تصرف لى المدرسة مرتبى، فذهبت إلى وزارة المعارف لأستعجل اعتماد الوزير لقرار مجلس الإدارة إلى المدرسة، وهناك فوجئت بما صدمنى، فالقرار اعتمد، ولكن المرتب

عدل من ٣٥ جنيهًا إلى ٢٠ جنيهًا بناء على تأشيرة من مساعد السكرتير العام للوزارة، وكان هذا المساعد هو محمود فهمى النقراشى، فذهبت إليه لأعرف سبب تدخله وتعديله قرار مجلس الإدارة المختص فنيًا وتقديراً للمؤهل، فوجدت عنده الأخ عريان سعد ليستوضح من النقراشى عن سبب تعيينه (عريان) فى سكرتارية مجلس الشيوخ فى حرف «ب» وليس فى حرف «أ» كأقرانه، ورد النقراشى على استيضاحنا فى موضوعينا بقوله: إننا لا نريد أن يقول الناس إن الوفد يحابى أنصاره، فقلت له: إن الذى حدد مرتبى هو مجلس إدارة المدرسة ولا علاقة له بالسياسة ولا بالوفد، فهو هيئة فنية محايدة»، ورد عريان قائلاً أيضًا: إنه قد عين معه فى سكرتارية مجلس الشيوخ مَنْ لا يحملون أى مؤهل بمرتب يعادل ضعف مرتبه لأنهم كانوا يعملون فى الصحف المؤيدة للوفد، أو كانوا يعملون بمكاتب المحامين الوفديين، ونحن لا ننتمى لأى حزب ولن ننتمى لأى حزب، ولم نعلن فى أى وقت أننا وفديون أو غير وفديين».

«ثم قلت للنقراشى: إننا غير مقتنعين بما قاله خاصًا بنا، ونرى أن هناك تناقضًا بين ما يقوله وبين الواقع، وعلى ذلك تكون المسألة شخصية بيننا وبينه، وتركناه وقمنا لنذهب إلى مقهى «النيو بار» لنقابل يوسف العبد، وقابلنا يوسف وجلسنا نتحدث ونتذكر بعض ماضينا وقضينا سهرتنا مع بعض ولم نفترق بعد ذلك عن بعضنا إلا لأعمالنا ولأوقات راحتنا، وخلال سهرتنا أخبرنا يوسف بما حدث بيننا وبين النقراشى، وكان يوسف أيضًا قد عين فى وزارة الزراعة بمرتب يعادل المرتب الذى عين به عريان، وهو مرتب يجعله أيضا أقل من أقرانه، وكان ذلك كله بتدخل النقراشى، وبنفى تدخل النقراشى فى موضوع مرتباتنا علمنا أن سعد باشا عندما تولى الوزارة عهد إلى النقراشى الاهتمام بأمور الشبان الذين ساهموا فى الحركة الوطنية وكانوا قريبين من الوفد وتتبع أوضاعهم فى الجهات التى سيعينون بها، وكان ذلك على أساس أن النقراشى نصب نفسه أمام سعد باشا على أنه كان على رأس حركة الشبان بوجه عام، وحركة الفدائيين بوجه خاص».

«ويعلم الله أن ذلك لم يكن صحيحًا بالمرة بالنسبة لنا نحن الفدائيين، وانتهز النقراشى فرصة قيامه بالمهمة التى أسندها إليه سعد باشا وعامل الفدائيين، دون علم سعد باشا، معاملة سيئة، بل معاملة اضطهاد انتقامًا منا لعدم قبول رياسته علينا، إذًا

هل نشكوه لسعد باشا؟ إننا لا نشك فى أن سعد باشا سينصفنا، ولكن هل نذهب لسعد باشا لنحدثه فى مسألة مادية تتعلق بأشخاصنا، لاسيما أن تلك المسألة قد تكون فيها شبهة أننا نطالب بمكافأة لأعمالنا، ونحن الذين نعمل لبلدنا دون أن ننظر إلى ما قد يصيبنا!! كلا!! لن نذهب إلى سعد باشا فى مثل هذه الأمور، ولنرض بما كان من أمرنا، ويفعل الله ما يشاء».

(٩٠)

ونصل مع سيد باشا إلى مرحلة حتمية فى كل ثورة حققت بعض نجاحاتها من خلال العمل السرى، وهى مرحلة العمل على استئصال المبرزين فى العمل السرى حتى لا يظلوا مصدر خطورة كفيل بتغيير أوضاع مَنْ وصلوا إلى السلطة، ومع أن القراء يعرفون عن ثورة يوليو ١٩٥٢ أنها اتبعت هذا الأسلوب حتى أقصاه، فإن أحدًا لا يتصور أن ثورة ١٩١٩ عانت هى الأخرى من بعض المؤامرات التى كادت تفقدها أبناءها المخلصين، وتفرض عليها الانتهازيين والنفعيين، ومن العجيب أن معاناة سيد باشا مع الحكومة فى عهد وزارة سعد زغلول بدأت عندما وقعت محاولة اغتيال سعد زغلول نفسه، واستسهلت أجهزة الأمن أن تضعه بين المشتبه فيهم :

« . . . فى يوم ١٢ يوليو - عيد ميلادى - سنة ١٩٢٤ أطلق المجرم الأثيم عبد اللطيف عبد الخالق (الدلبشانى) الرصاص على سعد باشا بقصد قتله وهو يهم بأن يستقل القطار من محطة السكة الحديد بالقاهرة ليغادر مصر إلى لندن ليفاوض الحكومة الإنجليزية فى أمر إكمال استقلال مصر، لكن لحسن الحظ لم يصب سعد باشا إلا بإصابات خفيفة ونقل فوراً إلى مستشفى رامز بالروضة».

«كان الاعتداء على سعد باشا مدبراً واشترك فى تدبيره الملك فؤاد (رجال السراى)، ودار المندوب السامى البريطانى، والدليل المادى على ذلك هو اختفاء المسدس الذى استعمله الجانى، مع أنه لم يخرج من محطة السكة الحديد إلا مقبوضًا عليه، والذين قبضوا عليه وفتشوه هم رجال الأمن الذين كانوا بالمحطة للمحافظة على سعد باشا وعلى رأسهم الضابط الإنجليزى إنجرام وكيل حكمدار القاهرة رسل باشا الإنجليزى أيضا، فأين ذهب هذا المسدس؟ ذهب إلى جيب الضابط الإنجليزى إنجرام، وشاهدا

الرؤيا هما الأستاذ محمود سليمان غنام المحامى، وأحد الشبان الوفديين الذين كانوا فى توديع سعد باشا على المحطة، حيث قررا أنهما رأيا المسدس فى يد إنجرام، كما رأياه يدسه فى جيبه (إنجرام)، كذلك قرر الضابط حسن فخرى ياور سعد باشا أمام وكيل النيابة الذى تولى تحقيق الحادث أنه (حسن فخرى) رأى المسدس عندما سقط من يد الجانى على الأرض فالتقطه انجرام ودسه فى جيبه، وكان جزاء حسن فخرى على هذه الشهادة أنه فصل من الخدمة عقب استقالة سعد باشا من رئاسة الوزارة».

(٩١)

ويروى سيد باشا العواقب المباشرة للاعتداء على سعد زغلول، وما اقتضته إجراءات الأمن من تفتيش بيته:

«وبسبب هذا الحادث فتش منزلى بحجة أنه قد تكون لى صلة بارتكابه، وأُخذت أوراقى ومذكراتى ولم أكن موجودًا بالمنزل وقت تفتيشه، ولم يقبض علىّ، ولم يبحث عنى للقبض علىّ، ولما تمت إجراءات سفرى إلى إيطاليا، وكان ذلك بعد وقوع حادث الاعتداء على سعد باشا بنحو أسبوع، أرسلت خطابًا لمدير الأمن العام أخبرته فيه بموعد سفرى حتى لا يظن أنى سافرت هاربًا بعد أن فتش منزلى».

«وفى الساعة الحادية عشرة من مساء اليوم السابق مباشرة ليوم سفرى فتش منزلى للمرة الثانية ولم أكن موجودًا وقت التفتيش أيضًا، وعندما عدت إلى منزلى وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وجدت المنزل محاطًا برجال البوليس الذين لم يسمحوا لى بدخول المنزل واقتادونى إلى قسم الأزبكية حيث قضيت تلك الليلة، وفى الصباح رُحلت إلى دار محكمة مصر بميدان باب الخلق (ميدان أحمد ماهر)، وانتهزت فرصة وجود تليفون بالحجرة التى كنت أنتظر فيها استدعائى للتحقيق وتحدثت إلى الأستاذ محمود النقراشى وكان فى ذلك الوقت وكيل محافظة القاهرة وعاتبته قائلاً: كيف تكون أنت وكيل المحافظة ولك سيطرة على رجال البوليس وتعرف مقدار حبى وصلتى لسعد باشا ويقبض علىّ بشبهة أن تكون لى صلة بالاعتداء على سعد باشا؟ فقال: إن هذه إجراءات أمن وستظهر حقيقة كل شىء فلا تهتم».

«وبعد انتهاء حديثى مع النقراشى استدعيت للتحقيق الذى أجراه معى وكيل النيابة على النحو التالى :

«س : أتعرف سعد باشا؟

جـ : نعم أعرفه وهو رئيس الوزارة» .

س : هل توافق على سياسته؟

جـ : نعم أوافق على سياسته» .

«س : هل تعرف عبد اللطيف الدلبشانى ؟

جـ : لا أعرفه ولم أره فى حياتى» .

«وعبد اللطيف الدلبشانى هو الشخص الذى اعتدى على سعد باشا كما ذكرت سابقًا ، وانتهى التحقيق فى ذلك اليوم على هذه الصورة ، وأرسلت إلى سجن مصر بميدان القلعة لأقضى فى أحد زنزاناته أسبوعًا» .

(٩٢)

ويفاجئنا سيد باشا بأن اتهامه فى قضية مقتل سعد زغلول قد تطور على يد السلطات إلى اتهام آخر بمحاولة قتل الملك فؤاد نفسه من أجل التمهيد لعودة الخديو عباس حلمى ، ومع ما يبدو فى هذا التفكير من شذوذ واضح فى تدبير الأمور ، فإن ديناميات الصراعات السياسية تدلنا على أن مثل هذه المؤامرات تمثل نمطًا طبيعيًا فى محاولات التخلص من الشخصيات المؤثرة من طراز صاحب هذه المذكرات :

«ثم استدعيت لاستئناف التحقيق ، وقادونى إلى حجرة النائب العام فى ذلك الوقت وكان يدعى محمد باشا إبراهيم ، وفوجئت بهذا النائب العام يوجه لى اتهامًا جديدًا لا علاقة له بالاعتداء على سعد باشا ، ويتلخص هذا الاتهام الجديد فى أنى أتزعم مؤامرة قلب نظام الحكم فى البلاد بالاتفاق مع خديو مصر السابق عباس حلمى الثانى ، وذلك بقتل جلالة الملك فؤاد وإعادة الخديو عباس لتولى الحكم فى البلاد! ! وعند سماعى لهذا الاتهام الجديد ارتاحت نفسى لاستبعاد تهمة الاشتراك فى الاعتداء على سعد باشا عنى ، لكنى دهشت لأن يوجه إلىّ مثل هذا الاتهام الذى يتنافى مع علاقتى بالخديو الذى

يعتقد أنى أعاديه وأقف فى طريق مساعيه، وعلى كل حال فهو اتهام ضخم يشعرنى بأن سلطات الأمن قد أخذت عنى فكرة بأنى شخص ذو قوة ونفوذ لدرجة أنى أتآمر على قلب نظام الحكم، وكيف لا أعرف أنا عن نفسى أنى بهذه القوة!!».

«وبدأ النائب العام بسؤالى إذا كنت قد قابلت الخديو بإيطاليا، وأجبت بأنى قابلته، ثم أخذ يلقى علىّ أسئلة أخرى وأجيب عليها، لكنى لاحظت أن كاتب التحقيق لا يدون كل الأسئلة التى يلقيها علىّ النائب العام وإجابتى عليها، بل إنى لاحظت أن النائب العام يشير إلى الكاتب بألا يدون كل إجابتى على الأسئلة التى يدونها الكاتب، فسألت النائب العام: لماذا لا يدون الكاتب كل الأسئلة وكل الإجابات؟ فرد النائب العام قائلاً: هذا شغلى وليس لك أن تعترض عليه، فقلت له: إن شغلك هذا يخصنى ويجب عليك أن تتبع فيه القواعد المتبعة فى التحقيقات، وهى أن كل سؤال تلقيه عليه يدون، وكل كلمة أرد على سؤالك بها تدون أيضًا».

«وكنت قد لاحظت أيضًا أنه عند إلقاء أى سؤال يرفع النائب العام غطاء المكتب (السومان) الذى أمامه وينظر إلى شىء تحته فقلت له: إنى أريد أيضًا أن أرى ما تحت هذا (السومان)، فانزعج ووضع كلتا يديه على (السومان) وصاح قائلاً: لن أريك شيئا، ففهمت من كل ذلك أن هناك تهمة ملفقة ضدى وموضوع لها أسئلة معينة وإجابات معينة، فقلت للنائب العام: إذا كنت لا ترينى ما هو موجود تحت يديك فأنا ممتنع عن الإجابة عن أى سؤال توجهه إلىّ، ولك أن تحيلنى إلى محكمة الجنايات من الآن، فهاج النائب العام وأخذ يصيح: ما هذه الأخلاق؟ وما هذا الاستهتار بكرامة النيابة؟ يجب أن تجيب على الأسئلة التى توجه إليك، فقلت: أنا لا أجيب على أسئلة يوجهها إلىّ رجل ليس له ضمير، أنت مسخر لتلفيق تهمة خطيرة ضدى وأنا برىء منها».

«وهممت بالخروج من الحجرة فنادى العسكرى الذى كان موجودًا أمام الحجرة وقال له: لا تدع هذا الأفندى يخرج من الحجرة، فجلست وقلت: سأبقى ولكنى لن أجيب بأى كلمة، ثم وجه إلىّ سؤالاً فلم أجب، وكرر السؤال ثلاث مرات وأنا لا أجيب، فنادى الضابط الذى كان قد أحضرنى من السجن وقال له: أعده إلى السجن، فعدت إلى السجن».

(٩٣)

ويروى سيد باشا كيف استطاع أن يستثمر موقفه الصعب وأن يحيله إلى ما جعل السلطات تحسن معاملته :

« . . . وفى اليوم التالى جاء ضابط برتبة ملازم أول ، عرفت فيما بعد أنه الملازم عبد المحسن الشاذلى ، ليأخذنى للتحقيق ، ولاحظت أنه يهم لأن يضع فى يدى القيد الحديدى (الكلابش) فبادرته بصفعة قوية على وجهه قائلاً له : أنا لست مجرمًا لتضع فى يدى القيد الحديدى ، فذهل الضابط ولم يقاوم وسلم القيد للعسكرى الذى كان معه وقال لى : تفضل للتحقيق ، ودهشت لاستسلامه وقلت فى نفسى لعله أدرك أنه أخطأ ، ولكن اتضح لى فيما بعد أنه خاف من أن يصيبه أذى من جماعتى حيث كانت إحدى الصحف الأجنبية التى تصدر بالقاهرة (قد) ذكرت فى اليوم السابق أنى أتزعم جماعة الفدائيين ، وأن هذه الجماعة تسعى لتهريبى من السجن وستقاوم كل مَنْ يتعرض لها بالسلاح ، وأرانى هذه الجريدة أحد موظفى النيابة وأنا منتظر بمكتب النيابة قبل استدعائى للتحقيق » .

«ثم اقتادنى الضابط الشاذلى إلى حجرة النائب العام ، ولما دخلت عليه بادرنى بقوله : أرجو أن يكون مزاجك اليوم أحسن ، فقلت : نعم ، لقد تحسن مزاجى بوضع القيد الحديدى فى يدى ، ألم تأمر الضابط بذلك؟ فقال : أبدًا لم آمره بشىء يزعلك ، ثم نادى الضابط وقال له : هل أنا قلت لك ضع القيد الحديدى فى يد الأفندى؟ فأجاب الضابط بالنفى ، وقال : إنها تعليمات البوليس أردت أن أنفذها فنالنى صفعة على وجهى ، فبدا على وجه النائب العام بعض الاضطراب ثم أخذ يلاطفنى وألقى علىّ سؤالاً فلم أجبه ، وكرر إلقاء السؤال فلم أجبه ، فقال : أنت مصمم على عدم الإجابة؟ قلت : نعم ، فقال : سأرفع الأمر إلى معالى وزير الحقانية ، قلت : افعل ما ترى ، فنادى الضابط وقال : أعده إلى السجن ، وعدت إلى السجن» .

«بقيت بالسجن أسبوعين لم أُطلب خلالهما لأى تحقيق ، ولا أعرف شيئًا عما اتخذ بشأنى ، وبعد مرور الأسبوعين وفى مساء أحد الأيام استدعيت للتحقيق وفى دار النيابة أُدخلت حجرة بها هيئة مكونة من أكثر من ثمانية أشخاص كنت أعرف منهم محمد

سعيد باشا وزير المعارف وقتئذ، الذى كنت اتهمت بالاشتراك فى إلقاء قنبلة عليه عندما كان رئيسًا للوزارة سنة ١٩١٩، ثم محمد عاطف بركات وكيل وزارة المعارف وقتئذ، أما الباقى فلم أكن أعرف منهم أحدًا، ثم عرفت فيما بعد أنه كان منهم محمد زكى الإبراشى باشا رئيس الخاصة الملكية فى ذلك الوقت، وحسن نشأت باشا وكيل وزارة الأوقاف فى ذلك الوقت أيضًا، وكان يتوسط الجالسين رجل نحيف الجسم، طويل القامة، ويرى بعين واحدة، عرفت فيما بعد أنه المستشار على بك سالم».

(٩٤)

ويقدم سيد باشا وصفًا تفصيليًا للتحقيق الذى أجرى معه فى حضور وزير المعارف، ووكيل وزارة المعارف، وشخصيتين كبيرتين من المعروفين بولائهم للقصر الملكى، وقد كان هذا التحقيق، فيما يبدو، هو الحل الذى توصل إليه سعد زغلول باعتباره رئيسا للحكومة فى مواجهة الاتهامات التى رمى بها سيد باشا، والتى لم يكن من الممكن للنيابة العامة أن تمضى فى خطواتها بعدما تأزم التحقيق الذى بدأه النائب العام بنفسه مع سيد باشا.

ونحن نرى فى وصف سيد باشا لجلسات التحقيق مدى ما يمكن للقضاء أن يحققه من عدالة، ومدى ما يمكن للسياسة أن تتورط فيه من أحكام جاهزة بناء على رغباتها وانحيازاتها:

«ولما وجدت نفسى أمام هيئة بهذا العدد من الأشخاص والشخصيات، ومن بينهم محمد سعيد باشا، أخذتنى الرهبة وقلت فى نفسى: هل أُحلت فعلاً إلى محكمة الجنايات؟ ولكن ما شأن محمد سعيد باشا ومحمد عاطف بركات بك بمحكمة الجنايات؟ فهل هى محكمة محلفين قد شكلت لمحاكمتى كما هو الحال فى أوروبا فى بعض القضايا الجنائية الكبيرة؟ لكن كيف يكون محمد سعيد باشا بين المحلفين الذين يحاكموننى وبينى وبينه خصومة؟ الواقع أنى تهيبت الموقف واضطربت فى بادئ الأمر، لكنى ما لبثت أن تجلدت وقلت فى نفسى: يفعل الله ما يشاء مادمت أنا بريئا من هذه التهمة، ويظهر أنه قد (بدت) على وجهى آثار هذه الرهبة فبادرنى المستشار على بك

سالم بقوله: «اتفضل اجلس ياسيد»، فاستأنست من ندائه لى باسمى حاف، ثم نادى العسكرى وطلب منه إحضار كوب ماء وفنجان قهوة لى، فشكرتُه وزاد استئناسى».

«وقبل أن تأتى القهوة قال لى على بك سالم: «أنت رفضت الإجابة أمام سعادة النائب العام، وهو أكبر رأس فى الدولة لمباشرة التحقيقات الجنائية، وقضية مهمة مثل قضيتك هذه لم يكن لغيره من رجال النيابة مباشرة التحقيق فيها، وأمام إصرارك على عدم الإجابة أمام النائب العام فقد أمر دولة رئيس الحكومة سعد باشا بتكليفى بمباشرة التحقيق معك لأن قضية مهمة مثل هذه القضية لا يمكن إحالتها على محكمة الجنايات بدون تحقيق بالبساطة التى تخيلتها، وأنى أرجو أن تساعدنى إلى الوصول إلى الحقيقة فى هذه القضية»، فقلت وقد استجمعت كل شجاعتى: «ثق ياسعادة الرئيس أنى سأجيب على كل ما يخصنى بصدق وصراحة».

«وبعد أن شربت القهوة أخذ رئيس التحقيق فى استجوابى، واستمر هذا الاستجواب نحو ثلاثة أشهر ظللت فيها معتقلاً، وكنت أطلب للتحقيق كل خمسة أيام أو ستة، وكان التحقيق معى يستمر نحو أربع ساعات فى كل مرة، وسأذكر فيما يلى أهم النقاط التى تحضرنى الآن من النقاط التى أثيرت فى التحقيق:

«١ ـ أطلعنى المستشار المحقق على صورة فوتوغرافية للخطاب الذى كنت أرسلته للخديو، لأقول له: إنه لا يمكن تحقيق ما يطلبه منى للأسباب التى ذكرتها فى الخطاب المذكور، وقال لى المحقق: «هل أنت كتبت هذا الخطاب؟»، قلت: نعم، فقال: «وماذا كنت تقصد بإرساله؟»، قلت: «كنت أقصد أن أرد على خطاب الخديو الذى أرسله إلىّ لأقول له بأنه لا يمكن تحقيق ما طلبه منى»، فرد الشخص الذى عرفت فيما بعد أنه الإبراشى باشا وقال: «ياسعادة الرئيس هذا الخطاب قد أرسل بقصد التمويه والتضليل، أمال أخذ من الخديو فلوس ليه؟»، فنظرت إلى الإبراشى نظرة ازدراء، ولم أقل شيئًا».

(٩٥)

ونمضى مع سيد باشا وهو يقيم للمحقق على بك سالم الأدلة على أن علاقته بالخديو عباس لم تتعد حدود التعاون اليسير من أجل دعم جمعية شبابية، وأنه على النقيض من

الاتهامات المجهزة ضده كان معاديًا للخديو، بل إنه، كما أشرنا من قبل كان يعتقد فى نفسه القدرة على طرد الخديو من إيطاليا:

«سألنى المستشار إذا كنت قابلت الخديو وأين قابلته؟ فقلت: قابلته عدة مرات فى روما وفى لوزان، وعندما ذكرت لوزان قال الإبراشى: «اسأله ياسعادة الرئيس لماذا سعى لدى الحكومة السويسرية لعرقلة سفر عبد الحليم بك البيلى وإبراهيم راتب من لوزان إلى أنقرة، وكانا ذاهبين فى مهمة لصالح مولانا جلالة الملك، فسكت على بك سالم ونظرت إلى الإبراشى نظرة ازدراء مبتسمًا، فهاج الإبراشى باشا وصاح قائلاً: «إزاى الجدع ده يحتقرنا كده.. إحنا مش ماليين عينه؟!»، فقلت بهدوء: «أنا لست جدعا ياحضرة، أنا دكتور بحكم أحد عشر عالمًا لا تجرؤ أنت على الوقوف أمامهم، ثم أنا أحتقرك لأنك بدأت باحتقار نفسك، والشاعر يقول:

إذا أنت لم تعــرف لنفـسك قدرها هــوانا بها كانــت على النـاس أهونا

فالاعتراضات والأسئلة التى توجهها لى لا تصدر إلا عن شخص لا يفهم ما يقول، فكونى أخذ من الخديو ثلاثين جنيهًا للمعاونة فى طبع النشرة التى تصدرها جمعية الطلبة المصريين فى روما لخدمة القضية المصرية، لا يعنى أن الخديو اشترانى بهذا المبلغ، ولا بمثله آلاف المرات، لاسيما وأنا أعلم أن الخديو اغتصب الكثير من أموال المصريين، فما أقل من صرف أمواله فى خدمة قضية المصريين».

«ثم إذا كان الخطاب الذى اهتممت بتقديمه للمستشار المحقق هو خطاب قصد به التمويه والتضليل، فلماذا اهتممتم بتقديمه؟ وهل لديكم غيره يؤيد ما تنسبونه إلىّ؟ إنى لا أخاف إلا الله، فلا حاجة بى للتمويه أو التضليل، والحقيقة أنى كنت دائمًا على خلاف مع الخديو وتسببت فى طرده من إيطاليا وعدم السماح له بدخولها مدة حياته، وبما لديكم من نفوذ يمكنكم أن تتحققوا من ذلك من الماركيز كولونا دى شيزارو وزير المستعمرات الإيطالية الأسبق، وهو موجود الآن فى روما».

(٩٦)

ويصل سيد باشا إلى ذروة الدراما فى التحقيق معه، حيث تحول بفضل ذكائه من متهم إلى مدع أحرج حسن نشأت نفسه:

«وعندما ذكرت هذه الجملة احمر وجه حسن نشأت وظهر عليه الارتباك، ثم قصصت للمستشار المحقق قصتى مع الخديو وقت انعقاد مؤتمر «جينوا»، ووقت انعقاد مؤتمر «لوزان»، ثم قلت: إن مَنْ كان الخلاف بينه وبين الخديو يصل إلى هذا الحد لا يمكن أن يتفق معه على أى شىء، ثم قصصت أيضًا قصة البلاغ الذى قدم ضدى لوزير المستعمرات الإيطالية وكيف انتهت نتائجه إلى طرد الخديو من إيطاليا وعدم السماح له بدخول إيطاليا طوال حياته، ولاحظت أن المستشار المحقق كان يسمع لسردى هذه الوقائع باهتمام كبير بالرغم من أنه أشار إلى الكاتب بعدم تدوينها، كما لاحظت أن حسن نشأت كان ممتقعًا ومهمومًا، ولاسيما وأنا أقص قصة طرد الخديو من إيطاليا».

«وبعد أن انتهيت من سرد الوقائع التى حدثت بينى وبين الخديو فى إيطاليا وفى سويسرا، التفت إلىّ زكى الإبراشى ووجهت إليه الكلام قائلاً: «أما قولك أنى سعيت لدى الحكومة السويسرية لعرقلة سفر اثنين من أعضاء وفد مصر لدى مؤتمر لوزان كانا ذاهبين لأنقرة فى مهمة لصالح جلالة الملك فؤاد فهو قول لا يصدر من طفل، فمن أنا فى سنة ١٩٢٣ حتى يتيسر لى أن أطلب من حكومة لها مركزها الدولى المرموق عرقلة سفر اثنين يقيمان بها، ويرغبان فى السفر إلى أى جهة يشاءان وهى بلد الحرية السياسية؟ ثم لماذا تجلس أنت هنا؟ وبأى صفة تستجوبنى وترمينى بالكذب والتضليل؟»، فانسحب زكى الإبراشى من الجلسة وتبعه حسن نشأت وبدا على وجه المحقق على بك سالم الارتياح وأخفى ابتسامة خفيفة».

وعند هذا الحد نجد سيد باشا يبدأ فى محاولة تبرير لجوء حسن نشأت إلى تلفيق الاتهام له:

«ومن احمرار وجه حسن نشأت وظهور الارتباك عليه عندما ذكرت قصة طرد الخديو من إيطاليا وخروجه مع زكى الإبراشى، أدركت أنه هو وراء تلفيق هذه التهمة ضدى وذلك لأنه كما سبق (أن) ذكرت كان فى أوروپا عندما طردت إيطاليا الخديو منها، ويبدو أنه عندما عاد إلى مصر ادعى أنه هو الذى تسبب فى طرد الخديو من إيطاليا، لذلك عمل على تلفيق هذه التهمة ضدى ليثبت أنى على وفاق مع الخديو، وعلى ذلك فلا يصدقنى أحد إذا قلت إننى الذى كنت مفتاح قرار طرد الخديو من إيطاليا».

(٩٧)

ونصل مع سيد باشا إلى نجاحه الفذ فى حمل سكرتير الخديو على الاعتراف بأنه أجبر على كتابة التقرير الذى قدم ضد سيد باشا لإثبات تواطئه مع الخديو على قلب نظام الحكم :

«عندما تلا علىّ المستشار المحقق تقريراً كتبه من يُدعى محمد توفيق فاضل السكرتير الخاص السابق للخديو عباس ، وكان التقرير يتلخص فى أن محمد توفيق فاضل حضر حديثًا جرى بينى وبين الخديو عباس حلمى الثانى عندما كنا مجتمعين فى حجرته الخاصة بفندق بالاس بشارع فينتو بروما ، وكان موضوع الحديث هو أن الخديو عباس حلمى اتفق مع سيد باشا على أن يضع تحت تصرفى جميع أمواله المودعة فى بنوك سويسرا وإيطاليا لأستعين بها فى الأعمال التى تؤدى إلى قتل الملك فؤاد وإعادة الخديو عباس لحكم مصر . كما أن الخديو سيصدر أوامر لجميع رجاله المقيمين بمصر ليكونوا رهن إشارتى» .

«وبعد أن انتهى المحقق من تلاوة التقرير سألنى عما أقوله فيما جاء بالتقرير ، فقلت : إنى لم أتحدث مع الخديو فى أى شىء من هذا القبيل قط ، وكل الأحاديث التى جرت بينى وبين الخديو لم تخرج عن قوله إنه يحب مصر ويؤيد حركة الوفد ، وأنه يرغب فى التعاون مع الوفد ، وسأل المحقق محمد توفيق فاضل عما يقول فى ردى على ما جاء بالتقرير فقال : «إنهما كانا يتقابلان كثيراً ويتحدثان فى أحقية الخديو بعرش مصر» ، ورأيت أن الموقف لن يحسم بتبادل عبارات النفى والإثبات بينى وبين محمد فاضل ، ورأيت أن أندد بأقواله لأثيره وفى ثورته قد تظهر الحقيقة ، فقلت : «ياحضرة المستشار ، إن ما يذكره السكرتير السابق للخديو فى تقريره لا يمكن أن يكون حقيقة ، بل هو مجرد خيال قد حلم به الخديو وقصه لسكرتيره ليفسره له ، لأنه لو فرض وأنى أقدمت - لا قدر الله - على قتل جلالة الملك فؤاد فما هى القوة التى أملكها لإعادة الخديو إلى حكم مصر؟ إن مثل هذه القوة لا تكون إلا عند قائد جيش تفوق قوته قوة الجيش الإنجليزى الموجود فى مصر الآن ، ولا يمكن أن يغيب ذلك عن الخديو حتى يخاطر بوضع أمواله ورجاله تحت تصرفى لإعادته لحكم مصر ، ولا تصل به الغفلة إلى هذا الحد ، وإذا وصلت به الغفلة إلى هذا الحد فما قيمة اتفاقه معى أو مع غيرى على أى شىء؟» .

«ثم هل يبلغ بالخديو عدم المبالاة لدرجة أن يتحدث فى كلام خطير مثل هذا على مسمع من سكرتير له يعرفه أكثر من غيره، ويعرف أنه يمكن أن يُشترى بدراهم معدودة ليبوح بأى سر قدر له أن يعرفه؟».

(٩٨)

ويصل سيد باشا إلى الحديث بفخر عن نجاح خطته فى الإيقاع بسكرتير الخديو السابق:

«وكانت النتيجة كما توقعت، فما كدت أن أنتهى من هذه العبارة حتى اندفع محمد توفيق صائحا: «لأ . . لأ . . أنا لم أسمع حديثًا عن قتل أو جنايات، وإنما الذى سمعته أن الخديو طلب من سيد باشا أن يعمل له (بروباجندا) فى الصحف، ليس إلا»، وعندئذ ظهر الغضب على وجه المستشار المحقق وسأل محمد توفيق فاضل: «أليس هذا التقرير بخطك؟»، فأجاب: «هم أملوه علىّ ومضونى عليه»، فسأله المستشار: «ومَنْ هم؟»، فأجاب: «اللى جابونى من (إسطنبول)»، فقال المستشار: «إذًا، أنت لا تصمم على ما جاء بهذا التقرير»، فقال: «إن كل ما جاء فيه كذب فى كذب»، وبعد أن استوقعه المستشار على التحقيق أمره بالانصراف».

. . . .

«فى اليوم التالى للإفراج عنى قرأت فى الجرائد أن محمد توفيق فاضل حاول الانتحار فى ميناء الإسكندرية لأنه منع من السفر للخارج، وأُنزل من على ظهر السفينة التى كانت ستقله إلى تركيا، وعند سؤاله عن سبب محاولته الانتحار قال: إنه يخشى على حياته إذا بقى فى مصر».

(٩٩)

وليس من العجب أن يتطرق التحقيق مع سيد باشا إلى الحديث عن عقيدته فى تفضيل النظام الجمهورى، ونحن نراه قادرا على الدفاع عن مثل هذا الاتهام دفاعًا مقنعًا جعل المستشار المحقق يسأله: هل هو دكتور فى القانون؟:

«وجه إلىّ المستشار السؤال الآتى : «ذكرت فى مذكراتك اليومية التى وجدها البوليس فى منزلك وجاء بها أنك قرأت بعض كتب «ماتسينى» الإيطالى الجمهورى المشهور، وحضرت حفل ذكرى لتكريمه، وسررت بما سمعت من الخطب والأحاديث فى تلك الذكرى لأنها تتفق مع ميولك، فما هى ميولك السياسية؟»، فأجبت : «أظن أنه واضح أن ميولى مع ميول ماتسينى»، فقال المستشار : «أفهم من ذلك أنك تحبذ نظام الحكم الجمهورى؟» فأجبت : نعم، وما كدت أقول نعم حتى علا الاصفرار أوجه بعض الحاضرين، ثم تسللوا إلى خارج الحجرة التى كان يجرى فيها التحقيق».

«ثم قال المستشار : «أليست ميولك هذه يمكن أن تكون قرينة على أنك يمكن أن تفكر فى قتل جلالة الملك؟»، فقلت : «وهل يؤاخذ الإنسان على عقيدته؟ إن الدستور المصرى الذى ينص على أن نظام الحكم فى مصر ملكى، كما ينص على أن دين الدولة الإسلام، فهل أخذتم الأقباط فى مصر على عقيدتهم الدينية لأنها غير الإسلام حتى آخذ (يقصد : أؤاخذ) أنا على عقيدتى السياسية لأنها غير الملكية، أنا لم أمارس شيئا يخالف النظام الملكى، فلم أكتب فى الصحف ولا فى الكتب، ولم أتحدث بشىء يدعو للجمهورية أو يندد بالنظام الملكى، كما أنى لم أخالف أى قانون أصدره النظام الملكى، وكل ما فى الأمر أن عقيدتى السياسية تخالف مَنْ يعتقدون فى النظام الملكى».

«فسألنى المستشار : «أأنت دكتور فى القانون؟»، قلت : «لا . . أنا دكتور فى الطبيعة والرياضة».

(١٠٠)

ويورد سيد باشا بعد هذا بعض ما تضمنته نتائج التحقيق من تبرئة له من التهم التى نسبت إليه، لكنه يأسف من أن وزارة المعارف، وكنا لانزال فى عهد وزارة سعد زغلول، كانت قد أصدرت قرارًا بفصله من العمل.

ولسنا نعرف لماذا انصرف سيد باشا عن أن ينال حقه من خلال معرفته بسعد زغلول نفسه! :

«وكما ذكرت استمر التحقيق معى ثلاثة أشهر، ثم أفرج عنى بعد أن فشل تلفيق

التهمة، وتقرر حفظ القضية لعدم وجود أدلة، وكتب المستشار المحقق فى نهاية ما كتبه عنى فى تقرير حفظ القضية ما يلى :

«ومما يذكر أن سيد محمد باشا يعمل لصالح القضية المصرية بإخلاص وبكل ما يستطيع عمله، ولا يمكن لأحد مهما بلغ مركزه أن يؤثر عليه أو يحوله عن مبادئه، ونشر تقرير الحفظ فى جريدة «البلاغ».

«خرجت من الاعتقال أوائل أكتوبر ١٩٢٤، وذهبت لاستئناف عملى بمدرسة الهندسة وإذا بى أفاجأ بتسليمى قراراً يقضى بفصلى من العمل».

«وعندما علم طلبة مدرسة المهندسخانة بفصلى قاموا بمظاهرة بقيادة الطالبين أحمد عبده الشرباصى، وعبد المجيد بدر، احتجاجًا على فصلى، وجاءنى كثير من طلبة المدرسة لإظهار أسفهم لقرار الوزارة الخاطئ، وشكرتهم على شعورهم».

(١٠١)

وتنفرد مذكرات سيد باشا، دون المذكرات والكتابات التاريخية، بتقديم تصور كامل لقضية مقتل السردار، وهو يلجأ فى إكمال الصورة التى يرسمها إلى بعض ما قد يوصف بالتعسف أو التزيد فى الاستنتاج، لكننا لا نستطيع أن ننفى أن تصوره كفيل بحل كثير من الألغاز فى هذه القضية المعقدة التى لاتزال بعض جوانبها فى حاجة إلى التأمل والدراسة.

ومن السهل على الناقد التاريخى أن يطعن فى رواية سيد باشا بذكر عداوته السابقة لعبد الحليم البيلى مثلا، أو لحسن نشأت، لكننا لا نستطيع أن نوافق على مثل هذا الطعن، فقد كان خلاف الجانبين نفسه انعكاسا لموقفهما من الحركة الوطنية، ولم يكن خلافًا شخصيًا، وهكذا فإن سياق الاختلاف والخلاف يمضى فى صالح رأى سيد باشا ولا يمكن أن يؤخذ ضده.

على أننا نلاحظ فى رواية سيد باشا عنصراً مهمًا غاب عن روايات عبد العزيز على، وعبد الفتاح عنايت وغيرهما، وهو العنصر المتعلق بشفيق منصور ومدى إسهامه فى هذه القضية، حيث يذهب عبد العزيز على وعبد الفتاح عنايت إلى أن شفيق منصور

بريء من الاشتراك فى هذه القضية ، وأنه لم يكن موافقا على إتمام عملية الاغتيال على هذا النحو .

أما سيد باشا فإنه يقدم تحليلاً وتوصيفًا أقرب إلى المعقولية حتى وإن غابت حقائقه عن المشاركين فى الاغتيال أنفسهم ، وهو يصور شفيق منصور متورطًا فى التهمة بسبب عدم وصوله إلى ما وصل إليه غيره ممن اعتبرهم أندادًا له فحسب ، وهكذا لعب القصر على هذا الوتر حتى دفعه إلى المشاركة الفاعلة فى التخطيط للاغتيال على نحو ما تم .

(١٠٢)

أما دور محمود إسماعيل فقد حظى بتحليل جيد من سيد باشا ، وهو تحليل ساعدت عليه معرفة مسبقة جيدة بالرجل وطباعه وتاريخه .

ومن العجيب فى هذا كله أن سيد باشا كان قريبًا جدًا من العملية ، لكنه حرص على أن يبتعد عنها نهائيًا ، وهذا هو ما نجاه من الاتهام :

« . . . وقد جرت أحداث هذه المؤامرة التى أطاحت بسعد باشا ، كما أطاحت بحركة فدائيى سنة ١٩١٩ على النحو الآتى :

«كان شفيق منصور لما أفرج عنه بقرار العفو عن المسجونين السياسيين وخرج من السجن ، قد انضم إلى الوفد وانتخب عضواً بمجلس النواب واتخذ لنفسه صفة أحد زعماء الفدائيين القدامى ، وبذلك اعتبر نفسه نداً لكل من أحمد ماهر ومحمود النقراشى اللذين كان يشاع عنهما أنهما على رأس فدائيى سنة ١٩١٩ ، واتصل بهما ووثق صداقته بهما ، كما أنه فتح باب مكتبه كمحام ليكون بمثابة منتدى لبعض مَنْ كانوا معه فى السجن من المسجونين السياسيين وبعض مَنْ اشتركوا فى حوادث الاعتداءات السياسية ، وكان من أكثر الناس ترددًا على هذا المنتدى محمد نجيب الهلباوى ، والطالبان عبد الفتاح عنايت ، وعبد الحميد عنايت شقيقا المرحوم محمد عنايت الذى كان متهمًا مع شفيق منصور فى حادثته ، و لكن لم تثبت عليه التهمة ، ثم محمود إسماعيل الموظف بنظارة الأوقاف فى ذلك الوقت ، وأصدق أصدقاء شفيق منصور ، وذهب إلى هذا المنتدى من جماعتنا (المرحومان) إبراهيم موسى ، ومحمد فهمى على ،

وبحسن نية وطهارة قلب من جانبهما عرف منهما محمود إسماعيل أنهما اشتركا فى حوادث قتل الإنجليز، ولما علمت بذلك نصحتهما بعدم الذهاب إلى هذا المنتدى، إذ لا حاجة لنا فى الذهاب إليه».

«وكان سعد باشا عندما عاد من لندن بعد فشل مفاوضاته مع الحكومة الإنجليزية قد عدل وزارته وعين أحمد ماهر وزيرًا للمعارف، ومحمود النقراشي وكيلاً لوزارة الداخلية، فأثار ذلك غضب شفيق منصور حيث لم يعين فى وظيفة كبيرة مثلهما وهو الذى يعتبر نفسه ندًا لهما، ومن ثم أخذ شفيق منصور يندد بسعد باشا وسياسة سعد باشا».

«وانتهز رجال السراى، وعلى رأسهم حسن نشأت، ورجال دار المندوب السامى الإنجليزى وعلى رأسهم توبين مومير مدير الأمن العام بوزارة الداخلية المصرية هذه الفرصة للعمل على تنفيذ المؤامرة».

(١٠٣)

ويتهم سيد باشا حسن نشأت اتهامات واضحة ومبررة فيما يتعلق بقضية مقتل السردار:

«كان حسن نشأت فى ذلك الوقت وكيلاً لوزارة الأوقاف، فقرب إليه محمود إسماعيل الموظف درجة ثامنة بوزارة الأوقاف، ومناه بالترقية وتحسين الحال، وعينه موظفًا بسكرتارية حزب الشعب أو حزب الملك(!!) يذهب إليه بعد الظهر بمرتب عشرين جنيهًا، مع أن مرتبه بوزارة الأوقاف لا يتجاوز ١٢ جنيهًا، كما اختاروه وهو الموظف درجة ثامنة فى لجنة استقبال الملك، فى حفل افتتاح معرض الزهور، واستقبل محمود إسماعيل جلالة الملك مرتديا (بدلة ردنجوت) مع المستقبلين».

«وسلطه على شفيق منصور ليقول له إن جلالة الملك غير راض عن عدم تعيين شفيق منصور وزيرًا، وأن جلالته يريد أن يعدل الوزارة أو حتى يغيرها كلها ليعين شفيق منصور وزيرًا، لكن الإنجليز متمسكون الآن بعدم تغيير الوزارة، ولأجل أن يجعل المندوب السامى الإنجليزى يوافق على تغيير الوزارة يجب عمل حادثة كبيرة تهم

الإنجليز، كقتل شخصية إنجليزية كبيرة، وأكبر شخصية إنجليزية فى مصر هو سردار الجيش المصرى، وقام محمود إسماعيل بدوره فى المؤامرة خير قيام، ونجح بمعاونة عبد الحليم البيلى عميل السراى وصديق وزميل شفيق منصور فى المحاماة فى إقناع شفيق منصور بتزعم تدبير قتل السردار».

«ولم ينس محمود إسماعيل أن يذكر لشفيق منصور أن جلالة الملك فؤاد قد وعد وأكد بأنه سيصدر عفواً عمن يقتلون السردار، إذا لا قدر الله عرفوا وحكم عليهم، وهكذا تراءى لشفيق منصور أن مركز الوزير قد صار قريبًا منه بسهولة، لكن مَنْ ينفذ واتفق شفيق منصور ومحمود إسماعيل على أن يكون المنفذون هم القائمون الآن بقتل الإنجليز».

«كان محمود إسماعيل، كما سبق (أن) ذكرت، (قد) عرف من إبراهيم موسى أنه يشترك فى حوادث قتل الإنجليز، فبحث عن مكانه وذهب إليه وقال له: «إن جلالة الملك سمع عنك وعن شجاعتك، وهو مسرور منك، ويريد أن تستمر فى قتل الإنجليز، ويسره أن تكون العملية القادمة هى قتل سردار الجيش المصرى وهو السير لى ستاك ليبرهن للإنجليز على أن المصريين (قادرون) على قتل أكبر رأس عسكرية إنجليزية فى مصر»، ورد إبراهيم موسى بأنه لا يشترك فى أى عملية من هذا القبيل إلا بموافقة سيد باشا».

«وجاءنى محمود إسماعيل وعرفنى بنفسه وأنه وطنى يحب بلاده، وأنه موظف بوزارة الأوقاف، وأنه موفد من قبل وكيل وزارة الأوقاف حسن نشأت باشا ليقول لى إن الباشا يرغب فى مقابلتك ليعتذر إليك عما حدث من اتهامك فى مؤامرة قلب نظام الحكم فى مصر، وأن نشأت باشا سيعمل على إصلاح الحال بينك وبين السراى، ورد اعتبارك بتعيينك فى الوظيفة التى تستحقها، واستطرد فى حديثه ليقول: إن الإنجليز يضايقون جلالة الملك ويعملون على الحد من سلطاته، وجلالته يريد أن يريهم أن بإمكان المصريين أن يقتلوا أكبر رأس فى الجيش الإنجليزى فى مصر، وأنت (سيد باشا) خير من يتزعم هذه الحركة، فقلت لمحمود إسماعيل: عُد إلى مَنْ أرسلك وقل له إن الوطنيين المصريين ليسوا بلطجية يؤجرون على القتل».

«ولما لم أستجب لرسالة محمود إسماعيل عاد للاتصال بإبراهيم موسى وحسّن له الاشتراك فى المؤامرة هو ومَنْ يختاره من زملائه، بحجة أنه استمرار لعمل الفدائيين لصالح مصر، وقال له: إن جلالة الملك وعد بأنه سيعفو عمن يشتركون فى العملية إذا لا قدر الله قبض عليهم ثم حكم عليهم بشىء».

(١٠٤)

ويصل سيد باشا إلى النص على ما يوحى به ما روى عن تأجيل عملية الاغتيال أسبوعا حتى أمكن إقناع إبراهيم موسى وغيره:

«وجاءنى إبراهيم موسى وقص علىّ ما جرى بينه وبين محمود إسماعيل من الحديث، فحذرته من الاشتراك فى العملية، وعرفته بأنها لصالح الملك والإنجليز وليس لصالح مصر، والمقصود بها إخراج سعد باشا من الحكم بصفته مسئولاً عن الأمن فى مصر، وأكدت عليه بعدم الاشتراك لا هو ولا أحد من زملائه فى العملية، لاسيما أنه كان مطلوبًا منه أن تنفذ العملية بعد أسبوع من وجوده معى، أى تنفذ يوم ١١ نوفمبر ١٩٢٤، وفى اليوم التالى عاد إلىّ إبراهيم موسى وأخبرنى أنه أبلغ محمود إسماعيل بعدم قيامه بالعملية أو الاشتراك فيها، لأنها ليست لصالح مصر كما عرفته، لكن محمود إسماعيل رد عليه بقوله: إن سيد باشا ضد الملك وكان متهمًا فى مؤامرة لقتل الملك، وخرج من الاعتقال منذ شهر فقط، لذلك فإن سيد باشا لا يحب عمل شىء لصالح جلالة الملك، فقال له: على كل أنا (إبراهيم موسى) غير موافق على الاشتراك فى هذه العملية، فاطمأننت أنا (سيد باشا) لعدم تنفيذ المؤامرة».

«ثم ذهبت ليلاً إلى منزل سعد باشا فلما رآنى قال ضاحكًا: «هل جئت لتصالحنى؟»، فقلت: «وهل دولتك زعلان منى؟»، فقال: «لا ولكن من مدة طويلة لم أرك حتى لما خرجت من اعتقالك لم تأت لزيارتى، أنا كنت متتبع سير التحقيق معك، وطمنى عليك المستشار على سالم، وقال لى إنك كنت قوى وجرىء أثناء التحقيق معك، وأنك هزأت بتوع السراى»، فقلت: «هذا هو حكم الظروف علينا يادولة الباشا»، ثم قال: «خير إن شاء الله»، فقلت: «جئت لأنبه دولتك أن الأعداء

بدأوا ينصبون لدولتك الشراك كما توقعنا، وقصصت له ما كان من أمر محمود إسماعيل ونشأت باشا، فقال: «الله يكفينا شرهم، وأنا واثق من أنك تتصرف بحكمة».

«وفى يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ قتل السردار، أى أن ميعاد تنفيذ قتله قد أجل أسبوعا لإقناع إبراهيم موسى بالاشتراك فى قتله، واشترك معه فى القتل من زملائه على محمد، وراغب حسن، كما اشترك كمراقبين عبد الفتاح عنايت، وعبد الحميد عنايت».

«وبقتل سير لى ستاك ضرب الإنجليز عصفورين بحجر واحد، فتخلصوا من حكم سعد باشا، وقضوا على حركة فدائيى ١٩١٩ قضاء مبرمًا كما سأبين ذلك، وتم ذلك بتدبير دنىء اشترك فيه رجال السراى والمخابرات الإنجليزية فى مصر، ودار المندوب السامى».

(١٠٥)

ويقدم سيد باشا مجموعة كبيرة من الأدلة والقرائن على أن قتل السردار كان بتدبير وتحريض السراى والمندوب السامى الإنجليزى فى مصر؟ وهو يقدم أدلة جيدة تدل على تفكير منطقى، وعلى قربه من مسرح العمليات، ومن مسرح الأحداث معًا، ومع احترامنا لآراء سيد باشا فإننا لن نمنع أنفسنا من أن نعلق عليها بعض تعليقات سريعة من قبيل القول بأن بعضها لا يعدو أن يكون فى إطار تقاطع المصالح، أو توافق الغايات من مساع مختلفة:

«١ ـ أفاد الإنجليز والسراى من قتل السردار بإخراج سعد باشا من الحكم، وهو الأمر الذى كانوا يسعون إليه ويعملون من أجله، لأن سعد باشا أخذ يقاوم تدخل السلطات الإنجليزية فى شئون مصر ويحد من نفوذ الملك وفرض سلطاته، وإلزامه باحترام الدستور».

«٢ ـ وصول الأسطول الإنجليزى لميناء الإسكندرية قبل مقتل السردار بساعات وقبل تقديم الإنذار لسعد باشا بدون سابق إعلان، وهذا يدل على أن هناك تدبيرا يدبره المندوب السامى ويحتاج لوجود الأسطول الإنجليزى فى الإسكندرية لتهديد مصر».

«٣ـ كان السردار قد حدد سفره للسودان يوم ١٣ نوفمبر ١٩٢٤ وأخبر المندوب السامى الإنجليزى فى مصر بموعد سفره صباح يوم ١٢ نوفمبر ١٩٢٤، ثم فوجئ فى مساء ذلك اليوم برجاء جاء من المندوب السامى ليؤجل سفره ليوم ١٩ نوفمبر لأمر مهم، وسأل السردار عن الأمر المهم الذى يستدعى تأجيل سفره فإذا به تقرير ياور جلالة الملك فؤاد وكبار ضباط الجيش المصرى إقامة حفل تكريم السردار فى نادى ضباط الجيش المصرى مساء ١٨ نوفمبر ١٩٢٤، ولم يكن ذلك صحيحًا، فالأمر المهم الحقيقى لتأجيل سفر السردار كان السعى لإقناع إبراهيم موسى وزملائه لتنفيذ عملية قتل السردار».

«٤ ـ رفضت أرملة السردار أن تأخذ من مصر الفدية التى قررها لها المندوب السامى الإنجليزى فى إنذاره، وقالت: إن إقامة حفلة التكريم لزوجها مفتعلة لتأجيل سفر زوجها حتى يتم الاستعداد لقتله، لأنه كان موجودًا بالقاهرة منذ ثلاثة أسابيع ولم يفكر الضباط المصريون فى تكريمه إلا يوم سفره، وقالت: إنها مقتنعة بأن المندوب السامى الإنجليزى كان على علم بالترتيبات التى كانت تعمل لقتل زوجها، ولذا رفضت أن يودعها المندوب السامى بمحطة مصر عند سفرها لإنجلترا بعد قتل زوجها».

«٥ ـ فى أوائل نوفمبر ١٩٢٤ وأثناء وجود السردار فى القاهرة بعث اللورد اللنبى المندوب السامى فى مصر إلى حكومته يقول فيها: إنه ينتظر الفرصة المناسبة لتحدى الحكومة المصرية، وكان الأحرى به أن يقول إنه يعمل على تهيئة الفرصة لتحدى الحكومة المصرية».

«٦ ـ فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤، أى قبل مصرع السردار بساعة ونصف (الساعة)، ذهب ممثل إنجلترا فى عصبة الأمم فى جنيف وقدم لسكرتير العصبة تحذيرًا فحواه أن إنجلترا تعتبر أى تدخل من جانب أى دولة فيما يمكن أن تتخذه إنجلترا من إجراءات فى مصر عملاً عدائيًا ضدها، وذلك تطبيقًا للتحفظات الواردة فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى أعلنت إنجلترا فيه رفع حمايتها عن مصر، وهذا يعنى أن إنجلترا كانت بصدد اتخاذ إجراء ضد مصر، وهو الإجراء الذى اتخذته بعد قتل السردار، أى أن إنجلترا كانت تعلم أنه سيقع فى مصر حادث يستوجب اتخاذ

إجـراء وهو طـرد الجـيش المصـرى من السـودان، ووصـول الأسطول الإنجليـزى إلى الإسكندرية، وتغريم مصر نصف مليون جنيه».

«٧ـ فى سنة ١٩٣٨ نشر عدد من الصحفيين الأمريكيين تحقيقًا أجروه فى عدة جهات بشأن قتل السردار لى ستاك، وانتهوا فى تحقيقاتهم إلى نتيجة مؤكدة، هى أن المخابرات الإنجليزية هى التى قتلت أو عملت على قتل سير لى ستاك».

«٨ـ مصاريف حفلة تكريم ضباط الجيش لسير لى ستاك دفعتها السراى مناولة من حسن نشأت».

«٩ـ بعد مصرع السردار بساعة واحدة ذهب محمود إسماعيل راكبًا موتوسيكلا إلى منزل عبدالحليم البيلى فلم يجده، فقال للخادمة: أخبريه عندما يعود أن العملية قد تمت».

«١٠ـ دفع حسن نشأت أتعاب المحامى الذى دافع عن محمود إسماعيل فى قضية مصرع السردار».

«١١ـ قال أحمد إسماعيل شقيق محمود إسماعيل وهو يدلى بشهادته أمام المحكمة التى نظرت قضية مصرع السردار وهو يشير إلى قفص المتهمين: إن هذا القفص ينقصه المجرم الأصلى الذى قتل السردار، وهو حسن نشأت».

«١٢ـ قال محمود إسماعيل قبل شنقه بدقيقة: «إن دمى ويُتم ابنى على رأس مَنْ غرر بى وتخلى عنى»، ومحمود إسماعيل يقصد حسن نشأت الذى كان (قد) وعده باستصدار عفو من الملك عن الفاعلين لو عرفوا وحكم عليهم بشىء».

«١٣ـ بعد صدور حكم الإعدام على شفيق منصور فى قضية مصرع السردار وقف فى الزنزانة التى كان مسجونًا بها وأخذ يصرخ ويقول بأعلى صوت: «يا محمود يا إسماعيل، اعترف بأن حسن نشأت هو الذى حرضك على قتل السردار، وأفهمك بأن ذلك يهم (رءوسا) كبيرة»، كما قال معلومات أخرى، ودوّن مأمور السجن تصريحات وصرخات شفيق منصور، كما دونها أيضًا وكتب تقريرًا عنها الضابط الإنجليزى إنجرام وكيل حكمدار القاهرة وقتئذ الذى تصادف وجوده فى السجن أثناء صياح شفيق منصور، وكان ذلك يوم ٣١ يوليو ١٩٢٥، وكان من الواجب أن يقدم إنجرام تقريره

وتقرير مأمور السجن إلى النائب العام فى ذلك اليوم أو اليوم الذى يليه لمناقشة شفيق منصور ومَنْ ذكرهم فيما صدر منه من تصريحات خطيرة، لكن إنجرام لم يقدم التقريرين إلى النائب العام إلا بعد إعدام شفيق منصور يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٥، وكان شفيق منصور قد أعدم يوم ٢٣ أغسطس ١٩٢٥».

«١٤ ـ عندما كانت تجرى الترتيبات فى إدارة الأمن العام لتلفيق التهم فى القضية التى عرفت بقضية الاغتيالات السياسية، وقيل إن عبد الحليم البيلى قد يكون ضمن المتهمين فى تلك القضية، بادرت السراى بتعيينه بسفارة مصر بتركيا ليكون خارج البلاد ولا يتسنى القبض عليه».

(١٠٦)

ونأتى إلى ما يرويه صاحب هذه المذكرات عن الوقائع التى كان هو نفسه (أى سيد باشا) طرفًا فيها:

«بعد قتل السردار بيومين جاءنى الحاج أحمد جاد الله وقال: إنه متألم لما حدث لأن إبراهيم موسى كان (قد) أخبره أنى غير موافق على هذه العملية، ولكنهم أخذوه للملك والملك قال له: «على شان خاطرى اعمل العملية دى لأنها لصالح مصر»، فتورط إبراهيم ونفذ العملية وأخذ معه من رجالنا راغب ومحمد فهمى، ولكنه الآن ندم وتأكد أنك كنت تمانع فى تنفيذ العملية لصالح الوطن بعدما رأى النتائج، وهذا هو قضاء الله وأمره، فقلت له: «نعم هذا هو أمر الله، وليس لنا فى أمر الله حيلة»، وانصرف الحاج أحمد، وبقيت أفكر فى الأسباب التى أدت إلى أمر الله فينا، ولكنى لم أهتد».

«وقُتل السردار، واستقال سعد باشا، ودفعت مصر الفدية، وطرد الجيش المصرى، والموظفون المدنيون من السودان».

(١٠٧)

ويلقى سيد باشا أضواء كاشفة على طبيعة الدور الذى لعبه نجيب الهلباوى فى الإيقاع بالمتهمين فى حادث مقتل السردار:

«كان هذا الملعون، يتردد على مكتب شفيق منصور على اعتبار أنه صديقه وزميله في السجن، وكان يعلم بالطبع من المخابرات أن في مكتب شفيق منصور بعض مَنْ يعرفون المعتدين وأولهم شفيق منصور، ولكنه تصور أن شفيق منصور يصعب استدراجه للاعتراف بالفاعلين، فاتجه لأضعف الأشخاص الذين يترددون على مكتب شفيق منصور وهما الطالبان عبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت، وتقرب إليهما وأبدى لهما ودًا كبيرًا على اعتبار أنه كان صديقًا لأخيهما المرحوم محمود عنايت، الذي كان متهمًا في قضيته، ومن ثم استدرجهما حتى عرف منهما مَنْ قاموا بقتل السردار»،

«وبعد بضعة أيام جاء ليقول لهما إن رجال الأمن قد حصلوا على معلومات تفيد بأن عبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت قد اشتركا في قتل السردار، ولهذا فإن رجال الأمن يعملون الآن الترتيبات للقبض عليهما، وحتى لا يتمكن رجال الأمن من القبض عليهما ينصحهما بمغادرة مصر بأية طريقة، وأسهل طريقة للخروج من مصر هي عبور الحدود بين مصر وليبيا والفرار إلى ليبيا، ثم هون عليهما الأمر بتطوعه لمساعدتهما ومرافقتهما لغاية الحدود المصرية ـ الليبية، لأن صداقته لأخيهما توجب عليه ذلك، ووثق الشابان بصدق نصيحة الغادر، ووصلا وهو معهما إلى حدود مصر ـ ليبيا، وهناك كان الذي أعاد الثلاثة إلى سجن مصر».

«واستمر الهلباوي في تقمص الناصح المخلص ليحمل الشابين على الاعتراف بارتكاب الحادثة وذكر أسماء زملائهما، على أساس أن يكونا شاهدين، فنجح مع عبد الفتاح ولم ينجح مع عبد الحميد، واعتقل شفيق ٠، ومحمود إسماعيل، وإبراهيم موسى، واستعمل معهم الضغط الشديد وتسليط الأضواء القوية والتيارات الكهربائية على رءوسهم، فلم يضعف منهم إلا شفيق منصور، حيث اعترف أنه هو ومحمود إسماعيل المحرضين والباقي منفذين ومراقبين، ولما آنسوا الضعف في شفيق منصور استكتبوه ما سموه بالاعترافات عن حوادث القتل السابقة، ودسوا في تلك الاعترافات معلومات القليل جدًا منها الصحيح والكثير جدًا منها ملفق».

(١٠٨)

ويتحدث سيد باشا مبكراً عن إدراك عريان يوسف سعد المبكر لتحول نجيب الهلباوى عن انتمائه الوطنى، وتحوله إلى عمالة المخابرات السياسية :

« . . . وفى أحد لقاءاتنا (الضمير يعود عليه هو ويوسف العبد وعريان يوسف سعد) وكنا نجلس بقهوة «النيو بار» بميدان الأوبرا، وفد علينا محمد نجيب الهلباوى الذى كان اتهم مع شفيق منصور ومحمد شمس الدين فى محاولة إلقاء قنبلة على السلطان حسين ١٩١٥ وحكم عليه بالسجن مدة ١٥ سنة وأفرج عنه مع المسجونين السياسيين بقرار وزارة سعد باشا، وقدمه لنا الأخ عريان باعتباره صديقا له تعرف عليه بالسجن، وجلس معنا مدة ثم انصرف، وبعد انصرافه قال لنا الأخ عريان : إن هذا الرجل قد ظهر عليه الثراء، وأعتقد أنه قد اتصل بالمخابرات السياسية وأصبح مخبراً، لأنى قد كنت علمت ونحن فى السجن أنه قد جرت معه مفاوضات فى هذا الشأن، ومظهره الآن يدل على أن تلك المفاوضات قد نجحت وقبض الأتعاب، لأنى أعلم أن حالته المالية العادية لا تسمح له بأن يكون بالمظهر الذى يظهر به لآن، وفكرنا أن نتأكد من هذا الأمر ونقتله إذا كان صحيحًا، ثم عدلنا عن ذلك حيث رأينا أنه لا يستحق اهتمامنا لدرجة أن نعمل على قتله، ويكفى أن نتجنبه».

(١٠٩)

على أن سيد باشا يواصل نهجه الفكرى والنقدى فى تعامله مع قضية مقتل السردار إلى أن يصل إلى أن يشخص أن خمسة من الذين أعدموا شهداء، وأن اثنين منهم ذهبا ضحية أطماعهما :

«وعلى أساس تلك التلفيقات اعتقل آخرون غير مَنْ اشتركوا فى الحادث من فدائيى ١٩١٩ وحوكموا وحكم بالإعدام على سبعة من المواطنين المصريين، خمسة منهم شهداء وهم : إبراهيم موسى، وعلى محمد، وراغب حسن، من جماعتنا من فريق العمال، ومحمود راشد من الموظفين، وعبد الحميد عنايت من الطلبة، واثنان ذهبا ضحية لأطماعهما وهما شفيق منصور، ومحمود إسماعيل، أما عبد الفتاح عنايت فقد

حكم عليه بالسجن المؤبد ولم يعف عنه كما وعد، وقضى مدة العقوبة وخرج، وقبض الغادر الملعون نجيب الهلباوى مبلغ العشرة آلاف جنيه، واشترى عزبة بأبى الوقف».

«وقد حزنت، بل وتألمت ألمًا شديدًا لموت إبراهيم موسى، وعلى محمد، وراغب حسن شهداء الوطن وزملائى فى المعركة، وقد شاركنى فى هذا الحزن زعيمنا المرحوم سعد باشا، حيث قابلته بعد إعدامهم بنحو ثلاثة شهور فقابلنى بالأحضان وقبلنى وقال: «أعرف أنك حزين على زملائك، وأنا أشاركك هذا الحزن»، وهكذا أسدل الستار على الحادثة التى كانت وبالاً على مصر وشعب مصر وفدائيى مصر، ونصرًا مبينًا لسياسة الإنجليز وأعوانهم فى مصر».

(١١٠)

ويميل سيد باشا إلى القول بأن الإيقاع بشفيق منصور كان بمثابة البناء الذى بنى عليه قرار الاتهام:

«وبناء على ما استكتبوه لشفيق منصور وذكروا فيها معلومات ملفقة عن أحمد ماهر ومحمود النقراشى وأحمد جاد الله وآخرين، خاصة بحوادث قتل الإنجليز، قبضوا على هؤلاء وقدموا للمحاكمة فى قضية عرفت حينئذ بقضية الاغتيالات السياسية، وكان من بين أعضاء المحكمة التى نظرت القضية قاض إنجليزى اسمه كرشو، واستمرت المحاكمة نحو ثلاثة أشهر، ثم قضت ببراءتهم رغم أنف كرشو فى يوم ٢٥ مايو ١٩٢٦ عدا محمد فهمى على، وهو من جماعتنا، فقد حكم عليه بالإعدام، وقد ناجاه سعد باشا فى مذكراته حيث قال: «حكم على محمد فهمى بالإعدام، ولم يهتم أحد بذلك لأنه عامل، ولكن هل كان محمد فهمى يقتل ليستفيد أو كان يقتل دفاعًا عن وطنه لأنه يحب وطنه؟ إن محمد فهمى يستحق التقدير والجزاء».

«أما أنا فقد كان حزنى على إعدام محمد فهمى مجددًا لحزنى على زملائى الذين أعدموا من قبل، وعلاوة على ما تحملته من أحزان على زملائى الأبطال، رأيت من واجبى أيضًا احتمال بعض الالتزامات مما كان ملتزمًا بها إبراهيم، وهو تربية أولاد أخيه عبد الحميد موسى الذى مات شابًا وترك لأخيه إبراهيم ثلاثة قصر، مفيدة وكوكب

وإبراهيم، ليتولى إبراهيم موسى تربيتهم فعاونت فى تربيتهم حتى حصلت مفيدة وكوكب على شهادة كفاءة التعليم الأولى، وعينتهما مدرستين بروضة أطفال النيل التى كنت أحد أصحابها». «كما أنه من الواجب إقرار أن إبراهيم موسى وحسن راغب وعلى محمد ومعهم الحاج أحمد جاد الله ومحمد فهمى على، كانوا أبطالاً شجعانًا، مخلصين كل الإخلاص لوطنهم، راحوا ضحية فى مؤامرة غادرة دبرها لهم خونة قذرون وسياسيون لا ضمائر لهم، سعيًا لأطماع وشهوات شخصية ومبادئ استعمارية دنيئة، ولا يسعنى إلا أن أحنى رأسى تقديرًا لأعمالهم وإجلالاً لذكراهم».

«كما لا يسعنى إلا أن أذكر بالفضل أعمال بطلة ساهمت فى حوادث الفدائيين بإخلاص وشجاعة، هى السيدة أم إسماعيل زوجة المرحوم الحاج أحمد جاد الله. كانت هذه السيدة عندما يتقرر إطلاق الرصاص على أحد الإنجليز ويتحدد مكان إطلاق الرصاص تذهب وتجلس على بعد نحو خمسين مترًا من المكان الذى سيطلق منه الرصاص، وتضع أمامها «مقطف» مملوء بالفجل والخس أو الكرّات، وتحت الفجل أو الخس أو الكرّات كانت توجد المسدسات التى سيستعملها المنفذون، فيمر كل منهم عليها ليأخذ منها مسدسًا، وبعد تنفيذ العملية يعيد المنفذون إليها المسدسات التى أخذوها منها، وذلك ليدخل المنفذون المنطقة التى يطلق منها الرصاص ويخرجون منها مجردين من أى سلاح، فإذا حدث وقبض على أحد منهم لا يكون معه أى شيء يدل على اشتراكه فى العملية، أما أم إسماعيل فتبقى بعض الوقت ثم تقوم حاملة مقطفها بشجاعة وهدوء حيث لا يشك أحد بأن لها صلة بالحادث».

(١١١)

وعلى المستوى الشخصى فقد كان حادث مقتل السردار حاسمًا فى اتخاذ سيد باشا قراره بالتقاعد والابتعاد عن مجال العمل الفدائى:

«بعد إعدام هؤلاء الأبطال وكشف الكثير من أسرار عملنا، رأيت أنه لا مجال بعد ذلك لاستئنافه، وقررت التقاعد فى هذا المجال لأجاهد فى مجال آخر».

(١١٢)

ويكرر سيد باشا أسفه لوجود طائفة الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ممن صوروا قادة للعمل الفدائى ولم يكونوا كذلك، وممن نالوا أمجاداً ومناصب نتيجة هذا التصوير دون أن يستحقوا من ذلك شيئًا.

وهو يضرب مثلاً على هذا السلوك باثنين من الفدائيين الذين نسبوا فضلاً قام به هو إلى النقراشى مع أن النقراشى لم يقم بهذا الفضل:

«وإنه ليؤسفنى ويحز فى نفسى أن أرى أناسا اتصلوا بالفدائيين من بعيد، إما لمعاونتهم بأعمال بسيطة بعيدة كل البعد عن أى خطر، وإما لصداقة بينهم وبين أحد الفدائيين يسرت لهم هذه الصداقة بطريقة عابرة معرفة شىء عن بعض أعمال الفدائيين الظاهرة أو السماع عنها، فاتخذوا من ذلك مجالات يصولون فيها ويجولون ويتحدثون عن أنفسهم وعن أعمال قاموا بها وهى منهم بريئة أو خيالية ولم يراعوا فيما يذكرونه أن المسألة مسألة تاريخ للأجيال القادمة، وليست مسألة مباهاة وسعى لقبض الثمن، وإن كان فى ذلك تجن على أناس، ونسبة أعمالهم إلى غيرهم الذين لم يأتوا منها شيئًا قليلاً أو كثيراً، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن هناك أناسًا ادعوا أنهم مطلعون على بواطن الأمور، وتطوعوا لأن ينسبوا لآخرين ممن شغلوا بعض المناصب أعمالاً لم يفعلوا شيئًا منها مطلقًا، وذلك بقصد أن يرتفع أصحاب المناصب إلى مناصب أكبر جزاء لهم على ما قيل إنهم فعلوه، ثم يؤدى ذلك بالطبع إلى تبادل المنفعة».

. . . .

«وقد رأيت وسمعت أنا وإخوانى الفدائيين من هذا الكثير، وكنا نندهش لجرأة هؤلاء المتجنين على الحقائق والتاريخ، ولكننا لا نحاول تكذيبهم خشية أن نحيد عن مبدئنا، وهو عدم التحدث عن أعمالنا، وقد بلغ من جرأة بعضهم أن نسب إلى نفسه فى حضرتى عملاً قمت أنا به».

. . . .

«وقد انساق فى هذا التيار اثنان من إخواننا الذين اشتركوا معنا فعلاً فى بعض الحوادث، ونشروا على صفحات الجرائد ما سموه بمذكراتهم، فضخموا العمل الذى قاموا به، وزادوا فى وقائعه ليبدو عظيمًا، فقد ذكر الشيخ سيد على ومحمد خليفة فى مذكراتهم، أن النقراشى هو الذى سلمها القنابل التى ألقيت على محمد سعيد باشا فى الإسكندرية، ولم يكن ذلك صحيحًا، حيث تسلمها منى محمد خليفة».

(١١٣)

ويتطرق سيد باشا إلى نقد بعض التأليفات الخيالية التى نشرتها الصحف لأناس يصفهم بأنهم لم يكونوا على مستوى المسئولية فيما نشروه، ويخص بالنقد روايات المستشار كامل أحمد ثابت، الذى صور نفسه رئيسًا لجمعية اليد السوداء، ونسب إلى نفسه أمجادًا خارج سياق ثورة ١٩١٩ :

« . . . وزاد بعض الصحف على ما نشر حكايات وتعليقات هى أقرب للخيال منها إلى الحقيقة، من ذلك نشرت جريدة الأخبار مذكرات أحد المواطنين (كامل أحمد ثابت) وهو الذى سفرناه بجواز سفر مزور، يقول فيها إنه كان رئيسًا لجمعية اليد السوداء فى سنة ١٩١٩، وأن أعمال هذه الجمعية كانت تتركز فى جمع البنادق وإرسالها للأرياف، وأن الجمعية قد حصلت على أكثر من ١٥٠٠٠ بندقية وأرسلت كلها الأرياف، ومن عجب أن ثورة ١٩١٩ لم تكن فى مواجهة ميدانية مع الإنجليز والجيش الإنجليزى حتى يتسلح المصريون المواجهون لهم بالبنادق أو المدافع، كما أن هذه المواجهة لم تكن فى الأرياف على الإطلاق، بل كانت المواجهة مع الإنجليز تتركز فى القاهرة، وكانت مواجهة خفية لا يستعمل فيه إلا السلاح الذى يمكن للسائر فى الطريق إخفاؤه، كالمسدس أو الطبنجة، ثم من أين يمكن الحصول على هذا العدد الضخم من البنادق فى مصر؟ ومَنْ الذى دفع ثمنه؟ وفى أى مكان جمع؟ وكيف وزع؟ أليس هذا مجرد خيال؟»،

«وبنفس هذا الخيال والجرأة فى التجنى على التاريخ نشر الأستاذ كامل أحمد ثابت (رئيس المحكمة السابق فى جريدة الأخبار أيضًا مرة أخرى أنه كان عضوا فى الجهاز

السرى سنة ١٩١٩، وأنه وهو فى إيطاليا كانت مهمته تهريب السلاح من إيطاليا إلى مصر عن طريق ليبيا، أليس هذا هذيانا؟ فمن كان يستقبل هذا السلاح فى مصر؟ وكيف كان التهريب من إيطاليا بالذات لليبيا؟ اتقوا الله يا متخذى الكذب على التاريخ للشهرة والتباهى».

(١١٤)

ويمتد سيد باشا بنقده إلى بعض مَنْ كتبوا التاريخ محاولين إعادة توزيع الأمجاد على طريقتهم، متخذا لذلك مثلا من محاولة فتحى رضوان الارتفاع بقامة عبد الرحمن فهمى على حساب سعد زغلول:

«وقد ساءنى أكثر ما ساءنى محاولة النيل من سمعة مَنْ عملوا بصدق وإخلاص فى ثورة ١٩١٩ كمحاولة الأستاذ فتحى رضوان النيل من زعامة سعد زغلول لثورة ١٩١٩ مدفوعًا فى ذلك بأغراض شخصية، ومآرب حزبية كان سبيله إلى ذلك إسناد زعامات أو بطولات لأناس مثل عبد الرحمن بك فهمى لا يستحقون هذه الزعامات أو البطولات، بل إنهم ليسوا فى مستوى الوصول إليها. فسعد زغلول هو مثال الوطنى الصادق، وبطل ثورة ١٩١٩، وبطل استقلال مصر بلا منازع ولا منافس، ولن يصل أحد إلى مستواه، أما عبد الرحمن بك فهمى فهو وإن كان مخلصًا صادق الوطنية، إلا نه لم يعلُ عن كونه اختير سكرتيراً للجنة الوفد المركزية بالقاهرة، أؤتمن على التصرف فى جزء من أموال الوفد التى خصصت لأعمال سرية معينة، وهى طبع المنشورات، وتنظيم المظاهرات، وجمع المعلومات، ولغير ذلك من الأعمال السرية، حتى إن النقود التى كانت تؤخذ منه للحركة الفدائية، وإن كانت قليلة، لم يكن يعرف أنها للفدائيين، بل كان يقال له إنها لطبع المنشورات فحسب».

(١١٥)

ومع تحفظ سيد باشا على أسلوب مصطفى أمين فى نشر مذكرات قادة التنظيم السرى فى ثورة ١٩١٩، فإنه يشير إلى ما صرح به الرجل من أن السلطة الحاكمة لم

تتقبل فكرة اشتراك العمال فى ثورة ١٩١٩، مفضلة أن تصف الثورة فى خانة البرجوازية فحسب:

«لكن الأستاذ مصطفى أمين لم ينشر خطابى هذا، وأوقف نشر ما كان ينشر من سلسلة أسباب فشل ثورة سنة ١٩١٩، ولما سألته عن السبب قال: إن سبب إيقاف نشر السلسلة هو ما جاء فى حديثك معى الذى نشرته، حيث قلت إن العمال بقيادة المرحوم الحاج أحمد جاد الله اشتركوا اشتراكا فعليا فى ثورة ١٩١٩، وبالذات فى الحركة الفدائية. إن هذا القول لم يرق فى نظر القائمين بالسلطة وحلفائهم لأنهم متمسكون بأن ثورة سنة ١٩١٩ كانت حركة برجوازية محضة، وليس للعمال فيها أى وضع، وعلى ذلك أمرت السلطات الحاكمة بإيقاف نشر السلسلة».

(١١٦)

ويروى سيد باشا ما يسميه كشف أعمال جماعة فدائيى سنة ١٩١٩، وقد حرصنا على وضع هذا الكشف على هيئة جدول تيسيرا على القراء والباحثين عند مقارنة هذه البيانات بغيرها مما نشره عبد العزيز على وعبد الفتاح عنايت وغيرهما:

«**أولاً:** فى مجال إلقاء القنابل على المصريين الذين يتعاونون مع الإنجليز:

١ ـ فى ١٩/ ٦/ ١٩١٩	محاولة إلقاء قنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا **المتهم سيد محمد باشا، وأحمد عبد الحى كيرة.**
٢ ـ فى ٢/ ٩/ ١٩١٩	إلقاء قنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا **ألقاها سيد على محمد، وقبض عليه وحكم عليه.**
٣ ـ فى ١٥/ ١٢/ ١٩١٩	إلقاء قنبلتين على رئيس الوزراء يوسف وهبة باشا **ألقاهما عريان يوسف سعد، وسلم نفسه وحكم عليه.**
٤ ـ فى ٢٨/ ١/ ١٩٢٠	إلقاء قنبلة على وزير الأشغال حسين سرى باشا **ألقاها حسن توفيق، ولم يقبض عليه.**

٥ ـ فى ١٩٢٠/٢/٢٢ إلقاء قنبلة على وزير الزراعة محمد شفيق باشا

ألقاها عبد القادر شحاتة، وحكم عليه.

٦ ـ فى ١٩٢٠/٥/٨ ألقيت قنبلة على وزير الأوقاف حسين درويش

ألقاها أحمد توفيق، ولم يحكم عليه.

٧ ـ فى ١٩٢٠/٦/١٢ ألقيت قنبلة على رئيس الوزراء توفيق نسيم باشا

ألقاها إبراهيم مسعود، وحكم عليه بالإعدام وأعدم.

٨ ـ فى يناير ١٩٢٢ محاولة إلقاء قنبلة على رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت باشا

ألقاها أحمد عبد الحى كيرة، ولم يقبض عليه وسافر خارج البلاد.

ثانيا: فى مجال قتل صغار الضباط والجنود الإنجليز، كان ذلك بمعدل ثلاثة أو أربعة أشخاص فى الأسبوع فى المدة من ٢٠ مايو ١٩١٩ حتى منتصف ١٩٢٣.

ثالثا: فى مجال قتل كبار الضباط والشخصيات الإنجليزية:

١ ـ ١٩١٩/٤/٣ قتل مستر ديكسون المفتش بالسكة الحديد.

٢ ـ ١٩١٩/١١/٢٢ قتل الكابتن صمويل كوهين.

٢ ـ ١٩١٩/١٢/٣ قتل الكابتن درنك.

٤ ـ قتل الكابتن أديجون.

٥ ـ ١٩٢٠/٥/٦ قتل الكابتن هونج.

٦ ـ ١٩٢٠/١١/١٣ أطلق الرصاص على الضابط ناريت لكن لم يصبه.

٧ ـ ١٩٢٠/١١/٢٠ قتل الضابط بردفول.

٨ ـ ١٩٢١/٥/٢٤ قتل البكباشى كيت مساعد الحكمدار.

٩ ـ ١٩٢١/٧/١٥ أطلق الرصاص على الكولونيل نيحوت أصيب ولم يمت.

١٠ـ ١٩٢١/٨/٣	أطلق الرصاص على مستر براون من كبار موظفى وزارة الزراعة فأصيب هو وابنه وخادمه وقتل سائقه .
١١ـ ١٩٢١/١٢/٣١	أطلق الرصاص على المهندس هاتون رئيس هندسة الوابورات بالسكة الحديد ، فأصيب ولم يمت .
١٢ـ ١٩٢٢/١/٤	أطلق الرصاص على مستر فاندرخت مدير شركة الترام ، فأصيب ولم يمت .
١٣ـ ١٩٢٢/١/١٧	أطلق الرصاص على المهندس هوبكن ، فأصابه ولم يمت .
١٤ـ ١٩٢٢/١/٢٥	قتل الصول دنكل .
١٥ـ ١٩٢٢/٢/١٥	قتل مستر أدمون .
١٦ـ ٩٢٢/٢/٢٠	قتل مستر جوردان .
١٧ـ ١٩٢٢/٢/٢١	قتل مستر براون المفتش بالمعارف ، وأعلنت مكافأة ٥٠٠٠ جنيه لمن يرشد على القاتل .
١٨ـ ١٩٢٢/٢/٢٧	أطلق الرصاص على المهندس بيتر .
١٩ـ ١٩٩٢/٣/١٤	قتل مستر مكنتوش مدير القطارات بالسكة الحديد .
٢٠ـ ١٩٢٢/٣/١٩	أطلق الرصاص على ضابطين إنجليزيين فى محطة كوبرى الليمون ، فمات أحدهما وأصيب الآخر .
٢١ـ ١٩٢٢/٧/٣	قتل مستر برت مفتش بالسكة الحديد .
٢٢ـ ١٩٢٢/١٢/٢٧	قتل مستر روبس أستاذ بمدرسة الحقوق .
٢٣ـ ١٩٢٣/١/٢٩	قتل مستر روبرنس أستاذ بالحقوق ، وأعلن عن مكافأة ١٠٠٠٠ جنيه لمن يرشد على القاتل .
٢٤ـ ١٩٢٣/٢/٧	أطلق الرصاص على مستر أملر .

(١١٧)

ويقدم سيد باشا صورة بديعة لمحاولات البوليس السياسى التأثير عليه هو ويوسف

العبد وعريان يوسف سعد من خلال ثلاثة من أقطاب البوليس السياسى حاولوا معه كل ما أمكنهم من ترغيب وتهديد :

«وفى يوم واحد من أيام شهر ديسمبر ١٩٢٥ ، وفى ساعة واحدة من ذلك اليوم، استدعينا أنا لمقابلة رسل باشا حكمدار القاهرة ، وعريان سعد لمقابلة إنجرام بك مساعد حكمدار القاهرة ، ويوسف العبد لمقابلة سليم زكى رئيس البوليس السياسى ، ودهشنا لهذا الاستدعاء المفاجئ والمحدد لنا نحن الثلاثة فى وقت واحد ، وذهبنا ليقابل كل منا مَنْ طلب لمقابلته» .

«وعندما دخلت مكتب رسل باشا بمحافظة القاهرة استقبلنى استقبالا حسنا وقدم لى فنجان قهوة ، ثم جرى بيننا حديث طويل استغرق نحو ساعة ونصف ساعة كنا فى بعض الأحيان نتكلم باللغة العربية ، وفى البعض الآخر باللغة الإنجليزية ، وأهم ما جاء بحديثنا هو ما يلى :

«رسل : هل تعرف النقراشى؟» .

«أنا : نعم أعرفه» .

«رسل : يظهر أن علاقتك به قوية» .

«أنا : هى علاقة معرفة وزمالة مهنة واحدة ، وهى مهنة التعليم» .

«رسل : أظن علاقتكما أكثر من علاقة مجرد معرفة لأنى أعرف أنه يوم أن كان مقبوضا عليك فى حادث الاعتداء على سعد باشا اتصلت بالنقراشى تليفونيًا من مكتب التحقيق وعاتبته لحصول القبض عليك وهو وكيل محافظة» .

«أنا : إن الإنسان عندما يكون فى شدة يحاول المساعدة من أى شخص له نفوذ ، ولو كانت المعرفة بينهما بسيطة» .

«رسل : أظن أنه يهمك أن تعلم أن النقراشى بصفته وكيلاً للمحافظة فى ذلك الوقت هو الذى أشار بتفتيش منزلك والقبض عليك لاشتباهه أن تكون شريكًا فى الحادث» .

«أنا : لا أعتقد ذلك» .

«رسل : لدينا معلومات بأن النقراشى هو الذى أشار بخفض المرتب الذى كان قرره لك مجلس إدارة مدرسة الهندسة» .

«أنا : نعم حصل ذلك وأخبرنى بوجهة نظره فى التخفيض» .

«رسل : هذا مرتب كان يليق بمثلك الحاصل على الدكتوراه» .

«أنا : لا أهتم كثيراً بالمادة» .

«رسل : لكن لازم تعيش مبسوط وأنت خالى شغل» .

«أنا : إن الله لا ينسى أحداً من عبيده ، وأنا الآن أشتغل حراً وعندى إيراد طيب» .

«رسل : تعرف أحمد ماهر؟» .

«أنا : نعم أعرفه» .

«رسل : هل علاقتك به مثل علاقتك بالنقراشى ؟» .

«أنا : تقريباً واحدة ، فنحن كلنا معلمون ونتقابل باعتبار أننا من مهنة واحدة» .

«رسل : لكنهما فى مراكز كويسة وأنت عندك دكتوراه ولم تأخذ وظيفة كويسة مثلهما مع أنك عملت مثلهما» .

«أنا : هما موظفان من مدة وترقوا وأنا لازلت فى أول سلم العمل» .

«رسل : أنت عملت زيهم فى الحركة الوطنية واشتركت معهم فى كل شىء» .

«أنا : أنا لم أشترك معهما فى شىء ، وإنما اشتركت مع زملائى الطلبة» .

«رسل : أنت اشتركت معهما فى تدبير حوادث الاغتيالات السياسية» .

«أنا : هذا غير صحيح ، وأنا لم أشترك فى أى حادث معهما أو مع غيرهما» .

«رسل : عاوزين ندخل فى الموضوع» .

«أنا : أى موضوع؟» .

«رسل : موضوع أبو الفرو اللى حطوه فى النار وشووه وأكلوه ، والحكومة عاوزة تكافئ أبو الفرو وبس ، تعرف منه اليد التى حطته فى النار ، وإحنا نعرف أنك أنت

أبو الفرو، وأن يد أحمد ماهر والنقراشي هي التي حطتك في النار، فأكد لنا الكلام ده ومكافأتك من الحكومة المصرية. هذا القرار الصادر من وزير الحقانية بتعيينك مساعداً للطبيب الشرعي بمرتب ٥٠ جنيهًا في الدرجة الثالثة، أما مكافأته من الحكومة الإنجليزية فهي هذا الشيك على البنك الأهلي موقعًا من المندوب السامي على بياض تكتب فيه المبلغ الذي يرضيك ابتداء من ٦٠٠٠٠ (ستين) ألف جنيه، وهو المبلغ الذي صرفناه في قضية قتل السردار، وليكن في علمك أننا مستعدون لصرف عشرة أمثال هذا المبلغ لمعرفة الحقيقة في قضية الاغتيالات السياسية. (وأكد بشدة على هذه النقطة ويظهر أنه كان يريد أن يفهمني أنهم مستعدون أن يدفعوا لكل منا أنا وعريان ويوسف العبد مبلغ مائتي ألف جنيه، ثم استطرد يقول: «ولا نريد أن تقرر الحقيقة إلا بعد أن تصرف الشيك، وإذا أردت السفر للخارج فنحن نسهل لك ذلك».

«أنا: أشكرك إن هذا حظ لا يناله إلا مَنْ تفتح له أبواب السماء في ليلة القدر، لكنه لا يأتيني لأني لست أبو الفرو».

«رسل: شيء غريب، تقول إنك لست أبو الفرو بهذه البساطة والحكومة المصرية ودار المندوب السامي البريطاني موافقين على أنك أبو الفرو، فلماذا لا توافق أنت كذلك؟».

«أنا: لأني لست أبو الفرو».

«ثم استأذنت وانصرفت تاركًا الشيك والقرار على مكتب رسل باشا، كانت المقابلة في المساء بعد الغروب بقليل، واستمرت كما قلت نحو ساعة ونصف (الساعة)، وبعدما خرجت من عند رسل ذهبت إلى مقهى «النيوبار» حيث كنا تواعدنا أنا ويوسف وعريان على أن نتقابل هناك بعد أن ننتهي من مقابلاتنا، فوجدت يوسف قد سبقني وسألني عما جرى في المقابلة فأخبرته بما حدث، فاندهش وقال: «لقد عرض عليه نفس العرض وكان ردي هو نفس ردك، كأننا على اتفاق»، وبعد قليل جاء عريان وكانت دهشتنا شديدة عندما قال لنا إنه أيضًا عُرض عليه نفس العرض، وكان رده مثل ردنا نحن الاثنين».

(١١٨)

ويتطرق سيد باشا بعد هذا إلى محاولات مستميتة بذلها البوليس السرى للإيقاع به وبزملائه دون جدوى وذلك بفضل حرصهم وذكائهم :

«ولما طاش هذا السهم الذى كان يراد به إصابة الوفد من يد رسل باشا وأعوانه، فكر رسل باشا فى تجديد العرض على أحمد عبد الحى كيرة، فاستدعانى رسل باشا مرة أخرى وقال: «لقد أبيت أن تعاون الحكومة على إظهار الحقيقة وتحقيق العدالة، ولكنى أظن أنك لا تتأخر عن معاونة الحكومة فى إنصاف زميل وصديق لك»، قلت: «ومَنْ هو ذلك الصديق؟»، قال: «أحمد عبد الحى كيرة، فهو الطالب الوحيد الذى لايزال مبعدا عن مصر بسبب الحوادث السياسية»، فقلت: «وماذا تريدون منى لإنصافه؟»، قال: «نريدأن تسافر إلى (إسطنبول) وتقنعه بالعودة إلى مصر، وتطمئنه بأن الحكومة لن تقدمه لأية محاكمة، وأنها ستعينه فى وظيفة مناسبة له»، ففهمت طبعًا أن المقصود هو المحاولة مع أحمد عبد الحى لاستخلاص شىء منه وليس المقصود الرأفة به، فتظاهرت بقبولى السفر لأنى كنت أعلم من اتصالاتى بأحمد أنه فى ضيق مالى لعدم وجود عمل يتكسب منه».

«وكنت أخشى أنه إذا عاد إلى مصر ربما يمكن التأثير عليه، ثم قال رسل: «إن مستر جريفيث مدير مكتب العمل بوزارة الداخلية سيسافر معك ليسهل لك مهمتك حيث سيأخذ معه قرارًا من الحكومة المصرية بعدم محاكمة أحمد إذا عاد»، فقلت: «لا بأس ويجب أن يسافر معنا أيضًا الشيخ عبد الحى كيرة والد أحمد، لأن أحمد عنيد ومتشكك ووجود والده معنا يسهل الأمر كثيرًا»، فقال رسل: «هذا جميل، ومتى يمكنك السفر؟»، قلت: «لقاؤنا هنا بعد أسبوع حتى أسافر إلى فارسكور وأقنع الشيخ عبد الحى، وأحضره لنسافر كلنا معا»، فقال رسل: «سأرسل إليك استمارات سفر لك وللشيخ عبد الحى»، وفى صباح اليوم التالى وصلتنى استمارة سفر ذهاب وإياب إلى فارسكور بالدرجة الأولى، واستمارة سفر من فارسكور إلى القاهرة إلى الشيخ عبد الحى بالدرجة الأولى أيضًا، ثم خمسة جنيهات للمصاريف».

«خرجت من عند رسل ولم أضيع وقتًا، فدبرت مائة جنيه وأرسلتها مع مخصوص إلى أحمد عبد الحى مع خطاب نبهت فيه على أحمد بضرورة مغادرة (إسطنبول)، بل ومغادرة تركيا كلها إن أمكن، لأن هناك محاولة لإقناع الحكومة التركية بتسليمه للحكومة المصرية، ثم سافرت إلى فارسكور، وأحطت الشيخ عبد الحى كيرة بما جرى، وأبديت له خوفى على أحمد من مجيئه إلى مصر، واتفقنا على أن يسافر الشيخ عبد الحى لمقابلة رسل باشا وشكره على عطفه على ابنه، وأنه (الشيخ عبد الحى) كان يود السفر لإحضار ابنه، ولكن صحته لا تساعده على السفر».

«وقابل الشيخ عبد الحى كيرة رسل باشا، وشكره على اهتمامه بابنه أحمد، وقال له: إنه كان يود من صميم قلبه أن يسافر إلى تركيا على الأقل ليرى ابنه الذى لم يره منذ خمس سنوات، ولكن المرض يعوقه من تحقيق هذا الأمل، ونظر إلىّ رسل باشا وقال بالإنجليزية: «أنت رجل خطر، لقد وضعتنا فى مركز حرج، ولكنى أعترف بأنك رجل على كل حال وطبعًا ستقول إنه لا يمكنك السفر بدون الشيخ عبد الحى»، فقلت: «وما فائدة سفرى بدون الشيخ عبد الحى؟»، وانصرفنا أنا والشيخ عبد الحى، وسافر مستر جريفيث مدير مكتب العمل بالداخلية وأحد رجال المخابرات الإنجليزية فى مصر وحده إلى تركيا، ولم يعثر على أحمد عبد الحى كيرة وعاد بخفىّ حنين».

(١١٩)

ويروى سيد باشا ذكرياته عن قضية الاغتيالات التى شهدت محاكمة أحمد ماهر والنقراشى وغيرهما:

«وقُدم أحمد ماهر، ومحمود النقراشى، وحسن كامل الشيشينى، وعبد الحليم البيلى، والحاج أحمد جاد الله، ومحمد فهمى على وآخرون إلى المحاكمة، وكان مفروضًا أن يحاكم معهم المرحوم عبد اللطيف الصوفانى بك ولكن عندما ذهب رجال البوليس للقبض عليه كان قد ذهب إلى جوار ربه قبل وصولهم منزله بساعات».

«حوكم هؤلاء المتهمون أمام محكمة خاصة برئاسة المستشار الإنجليزى كرشو، وعضوية المستشارين المصريين كامل إبراهيم، وعلى عزت، وكانت خيوط الاتهام

واهية ملفقة، وأصدرت المحكمة حكمها رغم أنف رئيسها كرشو فى ١٩٢٦/٥/٢٥ ببراءة المتهمين جميعًا عدا واحد فقط حكمت المحكمة بإعدامه، وهو أحد زملائى الأبطال المرحوم محمد فهمى كما ذكرت سابقًا، وربما لم يتألم أحد فى مصر لإعدام محمد فهمى كما تألمت أنا، وكما تألم سعد باشا، وقد ناجاه سعد باشا فى مذكراته مناجاة العارف بأمره، المقدر لعمله».

«لم يعلم أحمد ماهر ولا محمود النقراشى بما قد حدث بيننا أنا ويوسف العبد وعريان سعد، وبين رسل باشا وأعوانه، ولم يعلم به أى شخص آخر فى مصر سوى سعد باشا ورسل باشا وأعوانه، وظل هذا الأمر سرًا بيننا نحن الأربعة حتى كانت وفاة المرحوم يوسف العبد، وجاءت مناسبة فى الحديث عنه، فذكرنا ذلك عنه لبيان سمو نفسه وإخلاصه لبلاده، وعرف السر قلة من الناس، غير أنى ذهبت إلى النقراشى بعد الحكم ببراءته لأهنئه بالبراءة، ثم اختليت به وقلت له: إن أحمد عبد الحى كيرة فى أزمة مالية ويحتاج إلى مائة جنيه، فأرجو أن تعطينى هذا المبلغ من ثمن المطبعة التى كانت تطبع «المصرى الحر»، والتى بعتوها واستوليتم على ثمنها كله مع أننى ويوسف العبد كنا دفعنا أكثر من نصف ثمنها هى ولوازمها من مالنا الخاص، فرفض أن يعطينى شيئًا، سامحه الله».

(١٢٠)

ويتحدث سيد باشا عن محاربة السراى له فى رزقه، وعمل الحكومة على منعه من السفر، ثم على منعه من الاستفادة من إجراءات بنكية كفتح الاعتماد فى بنك مصر:

«كان من ضمن الأعمال الحرة التى فكرت فى مزاولتها إنشاء مصنع لصناعة الورق، وكانت هذه الفكرة قد راودتنى عندما كنت بأوروبا وتيسر لى زيارة بعض مصانع الورق فى إيطاليا والنمسا، ثم قويت الفكرة عندى بما شاهدته فى نزهة قضيتها على شواطئ بحيرة المنزلة القريبة من بلدنا، حيث شاهدت المساحات الشاسعة التى ينمو بها نبات البردى، وعدم الانتفاع بهذا النبات وتركه للتلف وللحريق، وكذلك الكميات الهائلة من قش الأرز التى تنتجها أطيان شمال الدلتا ولا يستفاد منها فائدة تذكر، مع أن هاتين

الخامتين من أصلح الخامات لصناعة الورق، واختمرت عندى فكرة إنشاء مصنع لصناعة الورق من هاتين الخامتين، فاتصلت بتوكيلات المصانع التى تصنع الآلات الخاصة بصناعة الورق، وكان بعضها فى مصر، وبعضها فى الخارج».

«وأعددت بيانا بالآلات والأجهزة اللازمة لإنشاء مصنع ورق صغير يوسع فيما بعد، من هاتين الخامتين، وعزمت على السفر إلى إيطاليا والنمسا لانتقاء ما أحتاجه من الآلات والأجهزة اللازمة لإقامة المصنع، وعندما ذهبت لاستخراج تأشيرة سفر للخارج أخبرت بأنه يوجد قرار من السلطات بعدم التصريح لى بالسفر للخارج، فاكتفيت بأن أرسلت بيانا بما أحتاجه من الآلات والأجهزة إلى أحد بيوت الصناعة الذى كنت عرفته فى النمسا، وشرحت له ظروفى المالية، وأنه ليس لدى رأسمال سائل، وتم الاتفاق بينى وبين ذلك المصنع على أن يرسل لى الآلات المطلوبة بمبلغ خمسة آلاف جنيه، أدفع منها ٥٠٠ جنيه والباقى يدفع على أقساط سنوية بشرط أن يكون مفتوحا لى اعتماد بأحد بنوك مصر، فذهبت إلى طلعت حرب باشا مدير بنك مصر وأحطته علمًا بالموضوع، ورجوته فى أن يفتح لى اعتمادًا بالبنك بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه بضمان أطيان والدى، وهى نحو ٤٠ فدانًا، على ألا أسحب من الاعتماد إلا ألف جنيه فقط، فوافق طلعت باشا وشجعنى على المضى فى المشروع، وتمت إجراءات فتح الاعتماد».

«وفى اليوم المحدد للتوقيع على التعاقد واستلام الألف جنيه لإرسال خمسمائة منها إلى مصنع الآلات بالنمسا، واستخدام الخمسمائة الباقية لإقامة مبانى مصنع الورق على قطعة أرض من أطياننا، ذهبت إلى بنك مصر، وقابلت الموظف المختص بإنهاء العملية، فطلب منى أن أذهب لمقابلة المستشار الصناعى للبنك عبد اللطيف بك محرم، الذى قال لى: إنه يأسف لإيقاف فتح الاعتماد الخاص بى، بحجة أن البنك بصدد تنفيذ مشروع إنشاء مصنع ورق لحساب البنك، فقلت: وماذا يمنع من وجود مصنعين؟ إن ما تستهلكه مصر من الورق يحتاج أكثر من مصنعين، فقال: إن هذا ما كلفت بإبلاغك إياه».

«فخرجت من عند المستشار الصناعى وأنا لا أكاد أرى ما أمامى من شدة الغيظ وخيبة الأمل، واتجهت لمقابلة طلعت باشا حرب، وفى طريقى إلى مكتبه قابلنى سكرتير عام البنك الأستاذ السيد طه، وأخبرنى أن طلعت باشا لا يوجد فى مكتبه، وأن

مقابلتى له لن تفيد بشىء، لأن الأمر بإيقاف فتح الاعتماد جاء من السراى، فانفجرت ألعن السراى، ومَنْ فى السراى، فأخذ يهدئنى ونصحنى بعدم الاستمرار فى الغضب، وربنا يعوض، فقلت: نعم.. الله يعوض، ولتمضى السراى فى مطاردتى فى رزقى فلن أيأس من رحمة الله».

(١٢١)

ويتعرض سيد باشا فى مذكراته لقصة شائعة فى الأوساط السياسية، وهى أن صدقى باشا فى وزارته الأولى عرض منصب الوزارة عليه وعلى عريان يوسف سعد، ولا يثبت سيد باشا الرواية على هذا النحو، لكنه يثبتها بصيغة أن صدقى عرض عليهما أن يرشحا نفسيهما لعضوية النواب، ومن ثم يوليهما الوزارة، لكنهما اعتذرا عن قبول عرضه:

«.. أرسل إلينا صدقى باشا أنا وعريان ويوسف لمقابلته، فذهبنا إليه، وبعد أن أطرانا بالمديح طلب منا أن يرشح كل منا نفسه لعضوية مجلس النواب فى الدائرة التى يختارها، وهو ضامن نجاحنا فى الانتخابات لثقة الجمهور بنا (على حد قوله)، وعندئذ نتعاون معه (صدقى باشا) ملوحًا لنا بمناصب الوزارة، وكان يقصد بذلك تطعيم وزارته بجبهة وطنية توحى إلى الشعب بشىء من الاطمئنان والثقة بالحكومة، وقال: إن تعاوننا معه كسياسى مجرب ووطنى مثلنا، ونحن كشبان وطنيين متحمسين، يفيد البلاد فائدة كبيرة، ولكننا رفضنا دعوته ولم نستجب لعرضه، لعدم تأكدنا من إخلاصه للوطن من جهة، ومن جهة أخرى لأن اشتراكنا فى الحكم يناقض مبدأنا الذى كنا طالبنا سعد باشا باتباعه، وهو أنه مادامت بلادنا لم تستقل استقلالاً تامًا، فإن المشتغلين بثورتها لا يجب أن يمارسوا الحكم فيها، هذا فضلاً عن أننا فى إجازة من الأعمال السياسية».

(١٢٢)

ومن الواضح أن سيد باشا كان متحفظًا تمامًا على معظم زعماء عصر الليبرالية، فمع انتقاده للنقراشى الذى قرأناه وسنقرؤه، نراه يتحفظ على صدقى، ونراه أيضًا يجاهر

بكل وضوح بانتقاده لكل من النحاس وأحمد ماهر ورفضه عرضيهما للترشيح لمجلس النواب :

« . . . وطلب منى مصطفى النحاس باشا أن أرشح نفسى لعضوية مجلس النواب وفديًا ، كما طلب منى أحمد ماهر أن أرشح نفسى للمجلس سعديًا ، وكلاهما كان على ثقة من نجاحى فى الانتخابات ، ولكنى رفضت كلا العرضين لعدم إيمانى بسلامة سلوك كليهما فى الحكم » .

(١٢٣)

ويقدم سيد باشا فى مذكراته ملخصًا شبه موجز لتجربته فى عالم الصحافة الوطنية حيث أقدم على نشر مجلة «المشهور» التى سرعان ما حوربت وتوقفت عن الصدور بسبب ضغط الحكومة .

وهو يورد قصة تعرضه للسجن بتهمة العيب فى الذات الملكية ، وكيف أمكن له الخلاص من الفخ ، وإن كان كل من الرسام رخا وعمر عزمى صاحب امتياز المجلة قد وقعا فى الفخ بديلاً عنه :

« . . . إلا أن لقاءنا مع صدقى باشا وعرضه علينا الاشتراك معه فى الوزارة أوحى إلينا أنا وعريان ، لأن يوسف لم يكن مقيمًا معنا فى القاهرة فى ذلك الوقت ، حيث كان قد فصل من عمله بوزارة الزراعة بإيحاء من المخابرات الإنجليزية ، فذهب ليقيم ببلدته شبرا النملة ، ويباشر زراعة أطيانه ، أوحى إلينا بفكرة إصدار مجلة نستأنف بها العمل السياسى ، فقدمت طلبًا إلى وزارة الداخلية (إدارة المطبوعات) للتصريح لى بإصدار مجلة أسبوعية باسم «آمون» ، فرفض طلبى ، فاتفقت مع الأستاذ عمر عزمى صاحب امتياز مجلة «المشهور» التى كانت تصدر فى ذلك الوقت ، على أن أعطيه مبلغ عشرين جنيهًا شهريًا وأتولى أنا تحرير المجلة وإصدارها ، كما استأجرت من عبد العزيز الصدر مطبعة الشباب لطبع المجلة وغيرها من المطبوعات ، وقمنا أنا وعريان بتحرير المجلة ، وانضم إلينا الزجال الوطنى المرحوم على شاهين الجندى ، وأسندنا إليه إدارة الإعلانات ، على أن تكون المجلة شركة بيننا ، وأقوم أنا برئاسة تحريرها دون ذكر ذلك

كتابة، كما أقوم أنا بالإنفاق على تحريرها وإصدارها إلى أن تغطى إيراداتها مصروفاتها، ثم آخذ ما أكون قد صرفته من الأرباح المنتظرة، إذا وجدت، وبعد ذلك تكون الأرباح قسمة بيننا، مع مراعاة أننا لم نكن ننتظر الحصول على أرباح من المجلة، ثم اتفقنا مع الرسام المشهور محمد رخا على أن يرسم لنا صور الغلاف ونحوها بالأجر، ثم انضم إلينا كشريك صديقنا محمد حلمى الجيار، وحرصنا أنا وعريان على ألا يوقع أحدنا على ما يكتبه باسمه، أما محمد حلمى الجيار فقد أصر على أن يوقع على ما يكتبه باسمه، وكنت أوقع أنا مرة باسم «آمون»، ومرة باسم «مصرى»، ومرة باسم «المحرر»، وغير ذلك، وأعلنا أن المجلة هى لسان حال الشبان الوطنيين».

«وصدر العدد الأول من مجلة «المشهور» فى حياتها الجديدة، ولقى رواجًا متوسطًا، وصدر العدد الثانى وكان رواجه عظيمًا شجعنا على أن يكون تحرير العدد الثالث أقوى من تحرير العددين السابقين، ولكننا فوجئنا بدش بارد ينزل على رءوسنا، إذ أتانا متعهد توزيع المجلة على الفهلوىْ ليقول: إن المخبرين السياسيين أنذروا عمال توزيع المجلة التابعين له بمطاردة رجال البوليس لهم إذا هم حملوا المجلة لتوزيعها، وكل مَنْ ينادى على مجلة «المشهور» منهم سيحجز فى القسم، وأعيدت إلينا فى نهاية الأسبوع بواقى المجلة، وكان لم يبع منها إلا (مائتا) نسخة فقط من جملة العدد الذى كان قد طبع منها وقدره خمسة آلاف نسخة! وكان العدد الرابع من المجلة قد طبع، وقبل متعهد التوزيع استلامه للتوزيع بعد جهد وترغيبه بأن جعلنا عمولته فى التوزيع ضعف العمولة التى كان قد اتفق عليها من قبل، ولم يكن حظ العدد الرابع فى التوزيع أحسن من حظ العدد الثالث، واشتدت مطاردة المخبرين السياسيين لموزعى مجلة «المشهور» لدرجة جعلتهم يمتنعون عن بيعها، وكان الجمهور يستفسر بالتليفون عما إذا كان عدد الأسبوع قد صدر أم لا، وعلمنا أن طلب الجمهور للمجلة كان كبيرًا جدًا، وكان الطالب يشترى عدد المجلة بضعف ثمنه».

(١٢٤)

ونصل مع سيد باشا إلى قراره بالتوقف عن إصدار المجلة التى شارك بها فى مسيرة الصحافة الوطنية والتى عانت الإغلاق المبكر:

«واستمر الحال كذلك حتى صدر العدد التاسع من المجلة، ووجدت أن المبلغ الذى كنت رصدته لذلك العمل وقدره (مائتا) جنيه قد نفد كله، وكانت ظروفى المالية لا تسمح لى بأن أضحى بأكثر من هذا المبلغ، كما كانت ظروف عريان وعلى شاهين لا تسمح لهما بدفع شىء، فطلبت من محمد حلمى الجيار، وكان أيسرنا حالاً من الوجهة المالية، وظروفه المالية تسمح بدفع الكثير من المال، أن يمدنا بشىء من المال لاستمرار صدور المجلة بأمل أن يتحسن حال توزيعها، ولكنه رفض أن يدفع أى مبلغ، وقال إنه اشترك معنا طمعًا فى الربح وليس استعداداً للخسارة، وأعلن انفصاله من الشركة، فلم أجد بدًا من وقف إصدار المجلة لحسابنا، وألغيت بالكتابة عقد الاتفاق الذى كان بينى وبين صاحب امتياز المجلة عمر عزمى، الذى رغب فى استمرار صدورها لحسابه، وبعد أن تم طبع العدد الأول و الثانى بعد تركنا إياها وإذا بالنيابة تأمر بمصادرته، وبالقبض عليه وتوجه لى تهمة العيب فى العائلة الملكية باعتبارى المشرف على تحرير المجلة التى نشرت ذلك العيب، وقدّمت لوكيل النيابة الذى تولى التحقيق معه، الأوراق التى تثبت إنهاء صلتى بالمجلة وتحريرها بعد صدور العدد التاسع، وبذلك نجوت من الفخ الذى كان قد نصب لى، وأخلى سبيلى، أما قصة العيب فى العائلة الملكية فأرويها فيما يلى:

«لم يكن بمطبعة الشباب التى كانت تطبع فيها مجلة «المشهور» (استعدادًا) لطبع الألوان، وكان غلاف المجلة الذى يطبع عادة بالألوان يطبع فى مطبعة أخرى هى مطبعة «بول باربيه»، وكان رسم صورة الغلاف يرسل مع أحد عمال مطبعة الشباب إلى مطبعة «بول باربيه» ليطبع فيها، وعندما كان العامل فى طريقه إلى مطبعة «بول باربيه» حاملاً صورة غلاف العدد العاشر أو الحادى عشر - لا أذكر - من المجلة، استدرجه أحد المخبرين وأخذ منه الرسم بحجة أنه يرغب فى الاطلاع عليه، وأثناء اطلاع المخبر على الرسم استغفل العامل وكتب فى إحدى زوايا الورقة المرسوم عليها صورة الغلاف عبارة نابية خاصة بالملكة نازلى والدة الملك فاروق، وطبع الغلاف دون أن ينتبه أحد إلى وجود تلك العبارة بجانب الصورة، وعلى أساس وجودها وجهت التهمة، وعندما أفلت من الوقوع فى الفخ الذى كان قد نصب لى، لم تتراجع النيابة ووجهت التهمة إلى عمر عزمى صاحب امتياز المجلة، ومحمد رخا رسام المجلة، وحكم على كل منهما بالسجن أربع سنوات، قاتل الله الظلم».

ولم تزل العلاقة بين سيد باشا والنقراشى تعانى من التوتر حتى أتى عام ١٩٣٩ وتولى النقراشى وزارة المعارف فى وزارة على ماهر الثانية، فحاول الاستعانة بسيد باشا فى وظائف الوزارة لكن سيد باشا اعتذر لعدم مواءمة الوظيفة المعروضة لما كان يعرفه فى نفسه من كفاءة وأقدمية.

ويهمنا فى هذا المجال أن نثبت ما لخص به سيد باشا موقف النقراشى منه ومن رجال الحركة الوطنية، وتفسيره لهذا الموقف على أنه تبرؤ من الفدائيين وإبعاد شبهة معرفتهم عن نفسه:

«. . . وفى أواخر سنة ١٩٣٩ كان محمود النقراشى وزيراً للمعارف فى عهد وزارة مؤلفة من حزبى السعديين والدستوريين، ويبدو أن ضميره قد استيقظ وشعر بأنه أساء إلىّ كثيراً، وأن وزارة المعارف قد حرمت من الانتفاع بكفاءتى بدون مبرر، فاستدعانى وعرض علىّ أن يعيرنى إلى وزارة المعارف بإحدى وظائف التعليم بالدرجة الرابعة بآخر مربوطها ٤٥ جنيهًا، فقلت: «وهل يكون عدلاً أن أترك وزارة المعارف سنة ١٩٢٤ وأنا بالدرجة الخامسة وبآخر مربوطها تقريبًا ٣٥ جنيهًا لولا تصرفك الذى جعل تعيينى بأول مربوطها، ثم أعود للوزارة فى سنة ١٩٣٩ فى الدرجة الرابعة بمرتب لا يزيد كثيراً (على) مرتبى فى سنة ١٩٢٤، وفى الدرجة التى تلى الدرجة التى كنت فيها؟»، فقال: «الحقيقة أن أقرانك فى الدرجة الثالثة الآن ولكنى لا أريد أن يقال إننى حابيتك»، فقلت فى نفسى ألا تزال عند عهدك تظلمنى بحجة الخوف من اتهامك بمحاباتى؟! ثم شكرته مع رفض العرض وانصرفت».

«وهنا أقف وقفة لأقول إن الحقيقة هى أن النقراشى لم يكن يخشى أن يتهم بالمحاباة، ولكنه كان يخشى أن يعرف عنه الإنجليز أنه على صلة من قريب أو بعيد بأحد من الفدائيين المقيدين عند الإنجليز فى القائمة السوداء وشأنه فى ذلك شأن جميع الساسة المصريين، ما عدا سعد باشا، الذين وصلوا أو يريدون أن يصلوا إلى مراكز القيادة السياسية فى مصر كالوزراء ومَنْ إليهم، إذ أن المحاباة للأقارب والأصحاب والموالين للأحزاب والأتباع كانت شعار هؤلاء الساسة ومجال تنافسهم، فكم من

عاطل أو شبه عاطل لا يحمل أى مؤهل وليست لديه كفاءة وله (مركز) لا يستحقه، ومنح مرتبًا يعتبر خياليًا بالنسبة لمؤهلاته وكفاءته، وكل صفاته أنه كان داعية لفلان، أو أنه كان وكيل أعمال علان، الذى أصبح مديرًا أو وزيرًا».

«وإنى أعتقد أن هذا الاتجاه، وهو الابتعاد عن شبهة الصلة بالفدائيين والتبرؤ من مساعدتهم من جانب الساسة المصريين، على الأخص مَن كان منهم من مؤيدى سعد باشا، ثم حرص هؤلاء على إفهام الإنجليز أنه لا صلة لهم بالفدائيين هو اتجاه خاطئ جعل الإنجليز يمضون فى التدخل فى شئون مصر الداخلية والخارجية دون أن يخشوا أى معارضة، ولو أن هؤلاء الساسة تشجعوا وأظهروا عنايتهم بالفدائيين لأحجم الإنجليز عن التدخل فى شئون مصر، أو تدخلوا بحذر وبقدر معقول، وعندئذ كان وجه التاريخ تغير بعض التغيير، وذلك لأن الإنجليز ظلوا يخشون الفدائيين حتى أواخر أيامهم فى مصر».

(١٢٦)

على أن علاقة سيد باشا بالنقراشى لا تجعله يغمط النقراشى حقه حتى فيما اختلفا فيه، وهو يروى قصة وقوفه ضد قرار مجلس الوزراء فى عهد النقراشى، ومناقشته للنقراشى فى خطأ القرار الصادر من المجلس، وإصراره على عدم تنفيذه مهما كلفه ذلك مما جعل النقراشى نفسه مع ما هو معروف عنه من عناد يتراجع عن قرار مجلس الوزراء بإغماض عينه عن مخالفة سيد باشا لهذا القرار:

«ومن تصرفاتى لإراحة ضميرى، ولخدمة رجال التعليم أن وقفت مرة ضد قرار لمجلس الوزراء ولم أنفذه، وذلك عندما كنت مراقبًا عامًا للتعليم الحر، فقد حدث أن اعتقلت سلطات الأمن عددًا كبيرًا من الإخوان المسلمين، وكثير منهم كانوا مدرسين بالمدارس الحرة، وأصدر مجلس الوزراء قرارًا بوقف صرف مرتبات كل الموظفين المعتقلين، فذهبت إلى وزير المعارف السنهورى باشا وقلت له: إننا نظلم أبناء المدرسين المعتقلين وأسرهم بعدم صرف مرتبات المدرسين المعتقلين، فكيف يعيش هؤلاء الأبناء وأمهاتهم وليس لديهم غير مرتبات عائليهم الذين لم تثبت إدانتهم بعد، فقال الوزير: هكذا قرر مجلس الوزراء ولا أملك التصرف فى قرار المجلس، فقلت

له: إنى لن ألتزم بهذا القرار وسأرسل للمدارس الحرة بضرورة صرف مرتبات المدرسين المعتقلين لمن يوكلونهم عنهم، فقال الوزير: عليك أن تعلن ذلك لرئيس الوزراء، فذهبت إلى رئيس الوزراء، وكان النقراشى باشا، وأعدت عليه الحديث الذى دار بينى وبين وزير المعارف فقال رئيس الوزراء: «لو نفذت ما تقول ستؤاخذ على تصرفك»، فأجبت بأنى سأتحمل مسئولية تصرفى ولدولتك أن تفعل بى ما تشاء، فلما وجدنى مصراً على موقفى قال: «تفضل اذهب لعملك، وأنا لا أعلم شيئًا عن هذا الموضوع»، فعدت إلى مكتبى وأرسلت نشرة لجميع المدارس الحرة أمرًا لنظار المدارس إلى ضرورة صرف مرتبات المدرسين المعتقلين لمن يتقدمون بتوكيلات عنهم».

«وهكذا أرضيت ضميرى، وأغمض وزير المعارف ورئيس الوزراء أعينهم عن مخالفتى لقرار مجلس الوزراء إزاء إصرارى على هذه المخالفة، ولعل رئيس الوزراء كان قد اقتنع بوجهة نظرى».

(١٢٧)

ويتصل بهذه العلاقة الشائكة بين النقراشى وسيد باشا ما يرويه سيد باشا من رفض النقراشى اقتراح السنهورى تعيين سيد باشا سكرتيرًا عامًا لوزارة المعارف، ومع هذا فإنه يحرص على إثبات قيامه بتأبين النقراشى تأبينًا شهد له الأستاذ على عبد الرازق بأنه أفضل التأبينات، هذا فضلاً عن تنظيم الحفل:

«. . . وبينما كنت بالسودان تقدم وزير المعارف الدكتور عبد الرزاق السنهورى لمجلس الوزراء بمذكرة يطلب فيها تعيينى سكرتيرًا عامًا لوزارة المعارف، لكن رئيس الوزراء محمود النقراشى لم يوافق على طلب وزير المعارف لأنه خاص لسيد باشا».

ومع ذلك فإنه لما قتل الإخوان المسلمون النقراشى فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ رأيت بصفتى رئيس جمعية المعلمين أن أكرم النقراشى باعتبار أنه أول معلم رأس الوزارة فى مصر، وذلك بأن أقامت له جمعية المعلمين حفلة تأبين برئاستى، ورثيته فى الحفلة بكلمة ذكرت فيها محاسنه، وقد قال لى على عبد الرزاق باشا وزير الأوقاف وقتئذ: إن رثائى للنقراشى كان أحسن وأمتع رثاء للنقراشى، وكان ممن رثوه معى فى تلك الحفلة السنهورى باشا وزير المعارف، ومحمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف

وقتئذ، والأستاذ سعد اللبان رئيس جماعة دار العلوم، وعلى الجارم بك من الشعراء المجيدين».

(١٢٨)

وربما كان من الضرورى أن نلقى الضوء على بعض ما يمكن للروح الفدائية أن تبثه فى نفس صاحبها من اعتزاز بالنفس والرأى، وعمل على تنفيذ أمانيها دون خوف أو حسابات مسبقة، ولعل المثل الذى نضربه على هذا من ذكريات سيد باشا يدلنا بوضوح على أنه لم يكن ممكنا لغيره مثل هذا الموقف فى ظل التحذيرات المتتالية التى تلقاها من وزير المعارف ورجال الحاشية، لكن روحه الفدائية هى التى مكنته فى النهاية من النجاح:

«وفى سبل رفع شأن المعلمين وإبراز مكانتهم رغبت أنا بصفتى رئيس جمعية المعلمين أن تتملك جمعية المعلمين هذا المكان لنهيئ فيه مقراً ونادياً لاتحاد المعلمين الذى كنت أعمل لتكوينه، أبديت رغبتى هذه لإخوانى وأصدقائى من المعلمين وغيرهم، لكنهم حذرونى من السير فى هذا الطريق على اعتبار أنه يغضب الملك، فلم أهتم بتحذيرهم، وطلبت من وزير المعارف فى ذلك الوقت الدكتور عبد الرزاق السنهورى أن يعاوننى فى هذا الأمر بأن يكلم وزير المالية ليستجيب إلى طلبى، فرفض السنهورى أن يكلم وزير المالية فى هذا الموضوع قائلاً: إننا نعرف أن هناك عداء بين السراى وبينك وسعيك لأخذ هذا المكان قد يفسر على أنه مناوأة لرغبات الملك، ومَنْ يدرى فقد يؤدى إلى طلب فصلك من الوظيفة كما سبق، وأنا لا أقبل أن أتحدث فى موضوع تكون نتيجته احتمال الإساءة إليك، فقلت للسنهورى: لن أتراجع وسأستمر فى سعيى!».

«كان وزير المالية فى ذلك الوقت هو المهندس عبد المجيد بدر، وكان هو والمهندس أحمد عبده الشرباصى على رأس المظاهرة التى قام بها طلبة مدرسة الهندسة فى سنة ١٩٢٤ احتجاجًا على فصلى من مدرسة الهندسة، فذهبت إليه وأبديت رغبتى فى حصول جمعية المعلمين على المكان الذى يطلق عليه اسم نادى المعلمين وتملكه الدولة، فقال المهندس عبد المجيد بدر: إنه بلغه همسًا أن السراى ستطلب منح المكان المذكور لجمعية شباب الشعلة التى تناصر الملك وتقوم بالدعاية له، ولكن لم يصله للآن (شىء

إيجابى خاص) بذلك، وناولنى ورقة وقال لى: اكتب لى طلبًا بما تريد وأرجو أن أنهيه قبل أن يصلنى (شىء) من جهة السراى، فكتبت الطلب وسلمته إلى وزير المالية، وقبل أن يمر أسبوع على كتابة الطلب صدر قرار الوزارة بمنح جمعية المعلمين الأرض التى تملكها الدولة والكائنة بين جسر نهر النيل وأرض النادى الأهلى للرياضة بالجزيرة، وما على تلك الأرض من مبان، وأبلغت بالقرار، وقبل أن يفيق الإخوان والأصدقاء من الدهشة ويسألونى ماذا أنا صانع لمواجهة غضب الملك الشاب، كنت قد ذهبت إلى ديوان جلالة الملك حاملاً دعوتى لجلالته ليكون ضيف الشرف فى حفل استلام المكان وافتتاح نادى المعلمين، وقَبل جلالة الملك الدعوة، وبحكم أنى كنت رئيس جمعية المعلمين العليا كنت رئيس حفَلة افتتاح نادى المعلمين (جميعًا) والداعى لحضور الحفلة باسم المعلمين جميعًا».

«وقررت لجنة افتتاح نادى المعلمين التى أرأسها، دعوة الفئات الآتية لحضور حفلة الافتتاح التى سيحضرها الملك بوصفه ضيف شرف، وكانت الفئات المدعوة هى:

«١ ـ الأمراء الذين يشير الملك بدعوتهم».

«٢ ـ رئيس الوزراء والوزراء (الحاليون)».

«٣ ـ رئيسًا مجلس الشيوخ والنواب».

«٤ ـ وزراء المعارف السابقون».

«٥ ـ أعضاء لجنتى المعارف بمجلسى الشيوخ والنواب».

«٦ ـ كبار رجال التعليم فى الوزارة والمناطق التعليمية».

«٧ ـ نظار المدارس الثانوية والابتدائية».

(١٢٩)

ونأتى إلى تفصيلات مفاوضات سيد باشا حول الترتيبات البروتوكولية المتعلقة بالمدعوين للحفل الذى نظمه:

«. . . وكانت التقاليد الرسمية تقضى بعرض أسماء الشخصيات المدعوين الذين سيحضرون الاحتفال الذى سيحضره الملك على جلالته قبل إرسال الدعوات لهم،

فكتبت أسماء الشخصيات المدعوين فى قوائم وذهبت إلى ديوان الملك وقدمتها لأحد الأمناء فى حاشية الملك وكان يدعى على بك رشيد، ليرفعها إلى جلالة الملك، فاعترض الأمين على دعوة الأسماء الآتية وكانوا مدعوين بصفتهم وزراء سابقين وهم: على ماهر باشا، وعلى الشمسى باشا، ومراد سيد أحمد باشا، وعلى زكى العرابى باشا، وحلمى عيسى باشا، وأحمد نجيب الهلالى باشا».

«واعترض الأمين على دعوتهم بحجة أنهم غير موالين لجلالة الملك، لاسيما المنتمين منهم لحزب الوفد، وكانت معارضة الأمين شديدة بالنسبة لعلى ماهر الذى كان فى ذلك الوقت منزويًا ومبتعدًا عن الحياة السياسية، و(كان) معروفًا لدى الرأى العام فى مصر أن الملك غاضب عليه لأنه تحدث فى بعض مجالسه الخاصة ممتنًا على الملك بأنه قام للملك بخدمات جليلة لم يقدرها الملك».

«وقلت للأمين: إنه لا يمكننى إهمال دعوة هؤلاء الذين تعترض على دعوتهم لأن المعلمين كطائفة لا ينتمون لأى حزب من الأحزاب، وأصررت على دعوتهم، فقال الأمين: إذًا يجب عرض الأمر على كبير الأمناء، وكان عبد اللطيف طلعت باشا».

«وذهبنا إلى كبير الأمناء الذى أيد رأى الأمين، ولكنى تمسكت برأيى فقال كبير الأمناء: افعل ما نشير عليك به وإلا كنت تغامر بوظيفتك، فقلت: إن وظيفتى لا تهمنى إزاء محافظتى على كرامة المعلمين، وأرجو عرض الأمر على جلالة الملك، فقال كبير الأمناء: عليك أن تتحمل مسئولية إصرارك على رأيك، وعد بعد ثلاثة أيام لتعرف النتيجة».

«بعد ثلاثة أيام ذهبت لأعرف النتيجة من كبير الأمناء مع تصميمى على الاستقالة من وظيفتى بالوزارة (مراقب عام التعليم الحر)، ومن رئاسة جمعية المعلمين العليا إذا لم يوافق الملك على دعوة كل من قررنا دعوتهم».

«وعندما دخلت على كبير الأمناء بادرنى بقوله: مبروك ياسيدى، جلالة الملك وافق على جميع الأسماء الواردة بالقوائم التى قدمتها بدون استثناء أحد، فقلت: إذًا لماذا تظلمون جلالة الملك وتقولون إنه يريد فلان ولا يريد فلان، والواقع أثبت أن كل رعاياه عنده سواء، فقال كبير الأمناء: لا داعى للتعليق».

«ثم قلت لكبير الأمناء: والآن أريد منكم بيانًا بأسماء الأمراء الذين يأمر الملك بدعوتهم، ثم بيانًا بمكان جلوس كل مدعو، علمًا بأن أماكن جلوس المدعوين نظمت على الوجه الآتى:

«١ ـ مكان لجلوس الملك ومَنْ يأمر بدعوتهم من الأمراء، ثم رئيس الوزراء ووزير المعارف، ورئيسى مجلسى الشيوخ والنواب».

«٢ ـ مكان لجلوس الوزراء الحاليين، ووزراء المعارف السابقين».

«٣ ـ مكان لجلوس أعضاء لجنتى المعارف بمجلسى الشيوخ والنواب، ووكلاء الوزارات، وكبار رجال التعليم».

«٤ ـ مكان لجلوس باقى المدعوين».

«فأعطانى كبير الأمناء كشفًا بأسماء الأمراء الذين يدعون للاحتفال، ثم قال: كل مدعو يجلس فى مكان فئته، ما عدا على ماهر قد أمر مولانا بأن يجلس فى المكان المعد لجلالة الملك ومَنْ معه».

«ومرت العاصفة ولم تفقدنى المغامرة وظيفتى، وكسب على ماهر رضاء الملك عنه نتيجة لتمسكى بمبدأ أن تكون الدعوة عامة لمن تنطبق عليه أسسها، ولم أخبر على ماهر بشىء مما حدث».

«وتم الاحتفال بافتتاح نادى المعلمين بحضور جلالة الملك على خير ما يرام، وألقى كلمة الترحيب بالملك وزير المعارف الدكتور عبد الرزاق السنهورى».

(١٣٠)

وفى هذه المذكرات فقرات مهمة تكشف عن طبيعة تفكير سيد باشا، وانتصاره لما يراه بعد دراسته وتمحيصه، وتتعلق الفقرات الأولى بموقفه من السد العالى، ومع أنه لم يكن فى موقع المسئولية حين تم هذا البناء فإنه يحرص على أن يذكر أن كان من المصريين القلائل الذين عارضوا فكرة السد العالى، وهو يقدم أسانيده فى هذه المعارضة على نحو مرتب:

«كنت من المصريين القلائل الذين يعدون على أصابع اليد والذين عارضوا فكرة السد العالى، وأعلنت معارضتى للمشروع على صفحات جريدة «الأساس»، وكانت معارضتى تستند إلى المبادئ الآتية:

«١ - أن بناء السد العالى سيحرم أراضى مصر الزراعية من طمى النيل، وهو البلسم الشافى للزراعة فى مصر ولا يمكن الاستعاضة عنه بأى سماد من الأسمدة مهما كانت جودته وقوته، هذا فضلاً عن أن حرمان أراضى مصر الزراعية من طمى النيل يزيد من اتساع المسام الميكانيكية لتربتها، ومن ثم تقل درجة خصوبتها إلى غير حد، فضلاً عن أن حرمان أرض مصر من طمى النيل يجعلها تحتاج إلى كميات مياه لرى أراضيها تزيد كثيراً (على) كميات المياه ذات الطمى، ويمكن القول بأن أرض مصر الزراعية هى طمى نيلها، فإذا اختفى طمى النيل اختفت الأرض الزراعية الخصبة فى مصر، وليس الأمر كذلك فى غير مصر من بلاد العالم».

«٢ - أن عدم وجود الطمى فى مياه النيل يزيد عملية نحر هذه المياه فى قاع النيل وجوانبه وجزره وجسوره دون أن يعوض هذا النحر بشىء كما كان يعوض بطمى النيل، ومن ثم يتسع مجرى النيل على حساب شواطئه وجسوره وجزره ويؤدى ذلك بالطبع إلى تداعى قواعد قناطر النيل والكبارى المقامة عليه، كما يؤدى إلى انحسار أراضى الدلتا بالتدريج بتآكل سواحلها على البحر الأبيض المتوسط، وأيضًا انحسار شريط الأراضى الزراعية بالوجه القبلى بحيث لا يكون بمصر أرض زراعية بعد فترة من الزمن قد تكون طويلة».

«٣ - إن الأراضى الرملية الصحراوية المزمع إصلاحها بمياه السد العالى لا يمكن بأى حال أن تصلح بتلك المياه الخالية من الطمى، لأن تربتها عبارة عن حبيبات رمل غير متماسكة فلا تصلح لإنبات أى نبات، ولجعلها صالحة للإنبات يجب أن تروى بمياه تحتوى على طمى النيل، فهذا الطمى وحده هو الذى يماسك حبات الرمل بعضها لبعض ويجعلها تربة صالحة للإنبات ولتثبيت جذور النبات».

«٤ - أن مستوى ارتفاع المياه خلف خزان أسوان كاف لتوليد الطاقة الكهربائية التى تحتاجها البلاد، وإذا كان من الضرورى تخزين بعض مياه النيل لاستعمالها عند الحاجة إليها، فيمكن تحقيق ذلك بإنشاء بحيرات جانبية بدلاً من بحيرة ناصر فى الأراضى

الصحراوية جنوب سد أسوان شرقًا وغربًا، وهذا ما فعله قدماء المصريين عندما حفروا بحيرة قارون، ورغم معارضة المعارضين من الفنيين وذوى الخبرة العلمية بنى السد العالى، ثم ظهرت أضراره قبل مرور خمس سنوات على بنائه، وانتشر بين الناس القول بأن السد العالى سيكون مقبرة مصر، وكارثة الكوارث على أرض مصر».

«٥ ـ أن جريان ماء النيل فى أيام الفيضان وصب جزء منها فى البحر الأبيض المتوسط يجعلها تطرد فى طريقها كل الفضلات التى ألقيت فى النيل وتقذفها فى البحر الأبيض المتوسط فتطهر مياه النيل ولا تجعلها منبعًا للتلوث».

(١٣١)

أما الفقرة الثانية فتتعلق بتأييده مساعى السادات فى قيادة مصر نحو السلام بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، ونراه على غير عادة مَنْ يكتبون فى مثل هذه المواقف يجاهر بأمرين مهمين، بأنه كان واحداً من أربعة مصريين فقط أيدوا قرار التقسيم، (هو وعريان سعد وإسماعيل صدقى ومحمد أبو سلطان). أما الأمر الثانى فهو قوله: «إنه يتمنى من صميم قلبه أن تتم مبادرة السلام بسلام حتى لو أدى هذا إلى صلح منفرد مع إسرائيل»:

«. . . وبدأت مصر مسيرة إنهاء الحرب بينها وبين إسرائيل، وفك الاشتباك الأول بين جيشى مصر وإسرائيل، ثم الاشتباك الثانى، ثم جاءت فى نوفمبر سنة ١٩٧٧ مبادرة السلام وتقضى ضمن ما تقضى أن تعترف الدول العربية بقرار التقسيم الذى قررته هيئة الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨ والذى يعطى لإسرائيل حق إقامة وطن لها على جزء من أرض فلسطين، وهو ما كنت أنا وعريان سعد وإسماعيل صدقى باشا ومحمد أبو سلطان من المصريين فقط الذين أيدوه».

«وإنى أحيى محمد أنور السادات وشجاعته لإقدامه على هذه المبادرة، وقد كانت هذه المبادرة دفعة ثانية لأمريكا لتعيد النظر فى سياستها فى الشرق الأوسط كما استنتجت من موقفها من وقف إطلاق النار فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، حيث نراها تعمل

بكل ثقلها لإحلال السلام الشامل فى منطقة الشرق الأوسط، والحد من مطامع إسرائيل وتوسعاتها، وإنى أتمنى من صميم قلبى أن تتم مبادرة السلام بسلام حتى لو أدى ذلك إلى صلح منفرد مع إسرائيل، وإنى لا أؤمن بمصر عربية وإنما هى إسلامية، هى مصرية جنسًا وعربية لسانًا، واللغة العربية لم تؤصل ولم (تقو) ولم تزدهر ولم تجمّل إلا على ألسنة المصريين، كما أن الإسلام لم تؤسس دعائمه، ويحافظ على شعائره، وتقام أركانه بدقة وفهم إلا فى مصر الإسلامية، حفظها الله من كل شر، وجعلها منارة للإسلام فى كل زمان».

(١٣٢)

ومن الشخصيات التى تحظى بأضواء كاشفة فى مذكرات سيد باشا، عبد المجيد عمر باشا، الذى كان وزيرا للأشغال، ومن قبل ناظرا لمدرسة المهندسخانة العليا، ونحن نرى سيد باشا يصوره فى صورة المسئول الكبير الذى أدرك معنى الرجولة وقيمتها:

«كنت أقوم بعملى فى مدرسة المهندسخانة باهتمام وإخلاص، وأحبنى طلبتى، وفى أحد الأيام من شهر مارس على ما أذكر، دعانا ناظر المدرسة المهندس عبد المجيد عمر نحن مدرسى المدرسة لاجتماع للنظر فى بعض أمور خاصة بسير العمل فى المدرسة وبأمور الطلبة، واجتمعنا وعرضت طائفة من الموضوعات، وأثناء عرض موضوع خاص بأعمال الطلبة وسلوكهم لّمح ناظر المدرسة بأنه يجب على كل مدرس بالمدرسة أن يبلغ ناظر المدرسة عن سلوك الطلبة الذين يزورون بيت الأمة، أى منزل سعد باشا، باعتبارهم من زعماء الطلبة، وما كاد الناظر ينتهى من قول هذه العبارة حتى اندفعت صائحًا بشدة: ألهذا جمعتنا ياحضرة الناظر؟ أجمعتنا لتكلفنا بأحط عملية يعافها الضمير، أتريدنا أن نتجسس على أبنائنا، وحاول كثير من الحاضرين مقاطعتى ولومى على مخاطبة ناظر المدرسة بهذه الحدة، ولكنى استرسلت أقول: إن مهمة المربى هى أن يعلم ويرشد ويوجه تلميذه، لا أن يسعى لإيقاع أى ضرر به، وإذا رأى من تلميذه ما لا يتفق مع الخلق والسلوك السليم عليه أن ينصحه ويقوّم إعوجاجه، دون أن يتسبب فى إيذائه، وعندئذ قال الناظر: أنا لا أقصد شيئًا مسيئًا، وأعلن سحب ما قاله».

«كان عبد المجيد بك عمر ابن عم عبد العزيز بك فهمى الذى انشق على الوفد وكوّن مع المنشقين حزب الأحرار الدستوريين برئاسة محمد محمود باشا، وكان عبد المجيد عمر بطبيعة الحال مواليًا لحزب الأحرار الدستوريين، وبعد نحو أسبوعين من اجتماع مدرسى مدرسة الهندسة السابق ذكره، نقل عبد المجيد بك عمر إلى وظيفة مدير الطبيعيات، وهى وظيفة تقل كثيراً فى مستواها الأدبى عن وظيفة ناظر مدرسة المهندسخانة، واعتقد عبد المجيد بك، كما اعتقد آخرون غيره، أنى وشيت به لدى الوفد وكانت وشايتى سببا فى نقله، وهذا غير صحيح، لأنى لم أذكر لأحد شيئا عن هذا الحادث خارج الاجتماع، بل إن ما حصل منى هو أنى ذهبت إلى سعد باشا وأظهرت له عدم رضائى عن هذا النقل، وذهب المدرسون الإنجليز بالمدرسة إلى عبد المجيد بك فى مكتبه الجديد لمواساته وكنت المدرس المصرى الوحيد من مدرسى المدرسة الذى ذهب أيضًا لمواساة عبد المجيد بك فى مكتبه الجديد، وكنت مخلصًا فى تلك المواساة، ولما دخلت عليه بادرته بقولى: لابد أنك تعتقد أنى قلت شيئًا عما حدث فى الاجتماع لسعد باشا أو لأحد الوزراء الوفديين، ولكن الواقع أنى لم أذكر شيئا لأحد عن هذا الحادث بعد خروجى من الاجتماع حتى الآن، وطبعًا لن تصدقنى، ولكنى سأترك للأيام أن تؤكد لك قولى هذا، أو ستؤكد لك الأيام أيضًا (أن) مَنْ وشوا بك هم بطانتك التى كانت تقاطعنى، وتظاهر عبد المجيد بأنه صدقنى».

«ثم حدث أن ذهبت فى إحدى الليالى إلى مسرح الأوبرا لأشاهد عرضها، وجلست فى أحد مقاعد الصالة ولم أكد أستقر فى جلوسى لمشاهدة العرض حتى تقدم إلىّ الوزير عبد المجيد عمر وسألنى: لماذا انقطعت عن زيارته؟ فقلت: لأنك أصبحت وزيرًا وأنا لست فى مقام مَنْ يزورون الوزراء؟ فقال: إن أخلاقك ورجولتك تجعلك فى مقام أعلى من مقام الوزراء، وقد جئت إليك لأدعوك لتأتى وتجلس معى فى «البنوار» الذى أجلس فيه، وألح فى دعوته بإصرار فذهبت معه وكان معه فى «البنوار» الدكتور محمد حسين هيكل، فقدمنى إليه وقص له ما كان قد حدث بينى وبينه، وقال: إنه ظلمنى بظنه الخاطئ، ثم قال: إنه قد عرف الحقيقة وأن مَنْ و شوا به هم الذين كانوا يقاطعون (سيد باشا) ويتظاهرون بالدفاع عنى (أى عن عبد المجيد عمر)، واستطرد

يقول: بل إنى عرفت أكثر من ذلك، فقد عرفت أيضًا أن سيد باشا عبر لسعد باشا عن عدم رضائه عن نقلى من مدرسة الهندسة، وقال عبد المجيد باشا: إنه يعتذر لى عن سوء ظنه، وتكفيراً عن ذلك فإنه على استعداد تام للاستجابة لأى طلب أطلبه منه فى حدود عمله بوزارة الأشغال أو وزارة المواصلات التى كان وزيرها بالنيابة، علاوة على وزارة الأشغال، وقد بر بوعده، إذ كان فى بعض الأحيان يأتينى بعض طلبتى الذين يحصلون على البكالوريوس من المدرسة ويطلبون منى أن أساعدهم على إيجاد عمل لهم لأنهم غير مستعدين لسبب من الأسباب لمواصلة الدراسة العالية، فكنت أرسل مَنْ يأتينى منهم لعبد المجيد باشا عمر بتوصية منى ليعين مَنْ يرغبون فى العمل، فكان يأمر بتعيينهم على الفور».

(١٣٣)

وبعد هذه السباحة الطويلة فى بحار مذكرات سيد باشا لا نجد ختامًا لمدارستنا لها أفضل من أن ننقل بعض فقراته المعبرة عما كان يحس به من الضيق النفسى نتيجة لانصراف تقدير الوطن فى مصر إلى الأسماء الكبيرة، والبخل به على الشبان المجتهدين من أمثاله، وهو على سبيل المثال يروى واقعة الإعجاب بمقال له وأن هذا الإعجاب بدأ يتضاءل عندما علم المجتمعون أنه هو كاتب المقال، ولم يكن دافعهم فى هذا شرفيا:

« . . . نشرت جريدة الأهرام المصرية ترجمة للمقال الذى نشرته لى جريدة «الايبوكا» الإيطالية، الذى أشرت إليه آنفًا، وكان بدون توقيع كما كانت عادتى مع الصحف الإيطالية، ليظهر المكتوب وكأنه يعبر عن سياسة الجريدة نفسها، ووصلت إلى وفد مصر فى لوزان نسخة من جريدة الأهرام التى بها ترجمة المقال، وقرأ سلامة بك ميخائيل الترجمة وأعجب بالمكتوب ولفت نظر باقى أعضاء الوفد إليه، وأخذوا يتحدثون عن جودة المقال، وعن عمق خبرة كاتبه بالقضية المصرية وما إلى ذلك، وكنت جالسًا أسمع ثناءهم على كاتب المقال، وسألنى حسيب باشا إذا كنت أعرف كاتب المقال، وكان ضمن الموجودين محمد بك فهمى فضحك وقال: طبعا إنه يعرف

نفسه لأنه هو كاتب المقال، وقام محمد بك فهمى إلى الغرفة المجاورة وكان بها مكتبنا، وأحضر مسودة المقال باللغة الإيطالية وقال: ها هو المقال، وعندئذ ظهر للمقال بعض العيوب وبعض نقط كان يجب أن توضح أكثر من ذلك، وهكذا حيث ظهر أن كاتب المقال هو سيد أفندى باشا الطالب وليس الصحفى الإيطالى الكبير فلان، أو ليس حسيب باشا الذى كان مدير مديرية، أو على الشمسى بك الذى كان عضوًا فى الجمعية التشريعية أو نحو ذلك، وما أن سمع محمد فهمى بك هذه الانتقادات التى لم يكن لها فى الواقع أى نوع من الوجاهة، انفجر قائلا بحدة وبصوت عال: لماذا لم تقدروا جهود هذا الشاب ـ مشيرًا إلىّ ـ ونشاطه فى خدمة بلاده، وتفانيه فى خدم وطنه؟ لقد وضحت أمام أعينكم ثمار جهوده، فها هى الصحف الإيطالية قد كتبت وعلقت على مصر وقضيتها أضعاف أضعاف ما كتبته الصحف السويسرية والفرنسية برغم المبالغ الطائلة التى دفعها الوفد للصحف الفرنسية والسويسرية ولم يدفع قرشًا واحدًا للصحف الإيطالية، وهأنتم قد حاولتم بكل ما أمكنكم للاتصال بوفد فرنسا لدى المؤتمر، فلم يقبل أحد من أعضاء ذلك الوفد الاتصال بكم، كما أنه لم يقبل دعوتكم له لحفلة شاى، وهكذا فعل معكم الوفد التركى بالرغم من أن رئيسه تحدث أمام المؤتمر بشعور طيب نحو مصر، أما وفد إيطاليا فقد قابلكم أهم عضو فيه بعد رئيسه وهو مستشار الوفد القانونى، وسمع منكم كل ما أردتم قوله، وفضلاً عن ذلك لبى أعضاء الوفد الإيطالى، عدا رئيسه ووزير الخارجية لأنكم لستم وفدًا رسميًا لبلدكم، دعوتكم لحفلة الشاى التى أقمتموها له، فلاشك أن سلوك الصحف الإيطالية والوفد الإيطالى ما هو إلا نتيجة لجهود هذا الشاب، وتقدير الأوساط السياسية فى إيطاليا له، وأخذت أهدئ من ثورة محمد بك فهمى وأقول له: إنى لا أنتظر تقديرًا أو ثناء من أحد، وحسبى أن أشعر برضاء الله عنى وبرضائى عن نفسى لما أقوم به من خدمة بلادى، وقال حسين هلال بك: إنى أوافق فهمى بك على كل ما قاله، وأعترف بأنه لولا وجود سيد أفندى باشا ما كان لنا أى نشاط يذكر، وانتهى الحديث على خبر».

«وقد أكد حسين بك هلال قوله بشكره لى على مساعدة الوفد بخطاب أرسله لى بعد وصوله مصر».

(١٣٤)

بقى فى نهاية مدارستنا لهذه المذكرات أن نبرئ ذمتنا بأن نشير إلى أمرين مهمين، الأول هو أننا نعجب أشد العجب من أن هذه المذكرات الحافلة بالحماسة الوطنية، كانت فى حديثها عن عواطف صاحبها الزوجية أقرب إلى الآلية والميكانيكية، حتى إننا على سبيل المثال، لا نستطيع أن ننقل للقارئ الطريقة التى صور بها زواجه الأول من زوجته الإيطالية، أما الأمر الثانى فقد أشرنا إليه عرضا، وهو أن المذكرات حافلة بتفصيلات قيمة لتاريخنا التعليمى والتربوى، ونرجو الله أن يرزقنا العمر، وأن يوفقنا إلى أن نتناولها بما تستحق من مدارسة فى كتاب ننتوى إصداره عن مذكرات رجال التعليم.

* * *

الباب الثالث

مذكرات عريان يوسف سعد

(١)

عريان يوسف سعد . . اسم نادر المثال بين رموز الوطنية، نشرت «دار الشروق» مذكراته فى ٢٠٠٧ مكتفية فيها بحديثه بدوره فى محاولة اغتيال يوسف وهبة، دون أن تتطرق المذكرات بالتفصيل إلى ما نعرفه عن نشاطه الفدائى من مذكرات زميله سيد باشا التى تناولناها فى الباب الثانى من كتابنا هذا، ولا إلى تقييم حياته على نحو متميز على نحو ما رأينا فى حديث إبراهيم عبد الهادى عنه فى الباب الأول من كتابنا هذا، ولا إلى ما أورده مصطفى أمين فى الكتاب الممنوع عن حياته السياسية بعد هذا، ودون أن تتطرق إلى رواية أنه عرضت عليه الوزارة فى عهد إسماعيل صدقى فلم يستجب للتعاون مع صدقى، ولا إلى أنه كان من نوادر السياسيين المصريين الذين طالبوا بقبول قرار تقسيم فلسطين.

ولعل القارئ إذا ما كان قد طالع البابين الأولين من هذا الكتاب يدرك مدى الظلم الذى حاق بعريان يوسف سعد بعدما نشرت مذكراته على هذا النحو الذى نشرت به المذكرات فى «دار الشروق».

(٢)

ولا بد لنا قبل أن نمضى فى مدارسة هذه المذكرات من الإشارة إلى أنه من العجيب أن دار الشروق أثبتت على غلاف المذكرات أنها تتضمن حديث عريان عن جماعة «اليد السوداء»، ومع أن عريان يوسف سعد يشير إلى علاقته بجماعة تحمل هذا الاسم، فإن

أقرب زملاء عريان يوسف سعد إلى نفسه، وإلى مشواره الفدائى، وهو سيد باشا، كان حريصًا فى مذكراته على أن ينفى وجود هذه الجماعة من الأساس.

ومع هذا فإن فى مذكرات عريان يوسف التى بين أيدينا فقرة عابرة ووحيدة عن بحثه هو نفسه عن جمعية «اليد السوداء»، واستنتاجه، غير القاطع، أن أحمد عبد الحى كيرة زميله فى الطب كان هو المسئول عنها:

«وأيقنت أن لليد السوداء وجودًا، وأنها ليست من نسج الخيال، ولكن السبيل إلى الانضمام إليها مازال مجهولاً».

«لقد أنكر كيرة كل صلة بالشاب صاحب القنبلة، مع أن الشاب قرر أنه هو الذى سلمها له، وهو الذى علمه كيفية إلقائها».

«فلو تقدمت لكيرة وطلبت إليه الانضمام إلى الجماعة لدفعه حذره وحرصه إلى سوء الظن بى، وإذاً فليست هذه بالطريق».

(٣)

لمعت شهرة عريان يوسف فى الوجدان الشعبى منذ عرفت الجماهير أنه هو ذلك الفدائى الذى ألقى على سيارة دولة رئيس الوزراء فى ذلك العهد (يوسف وهبة باشا) قنبلتين لإرهابه حتى يستقيل فتبقى البلاد بدون وزارة فى أثناء وجود لجنة ملنر فيها، لتتم بذلك مقاطعة اللجنة.

وحوكم عريان يوسف سعد أمام محكمة عسكرية إنجليزية عليا، وحكم عليه بالأشغال الشاقة عشرة أعوام، قضى منها أكثر من أربع سنوات فى ليمان طرة، حتى أفرج عنه فى عهد وزارة سعد باشا زغلول فى فبراير ١٩٢٤.

ولد عريان يوسف سعد فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٨٩٩ فى ميت محسن، كان والده يوسف سعد بك هو ناظر الوقف القبطى فى ميت غمر، وكان ترتيبه السادس بين إخوته الاثنى عشر، وقد نشأ وتربى فى عزبتهم بميت محسن بالقرب من ميت غمر، التى ظل مقيمًا فيها إلى أن جاء إلى القاهرة والتحق بكلية الطب جامعة

فؤاد الأول (جامعة القاهرة)، وفى عام ١٩١٩ كان فى السنة الثانية بمدرسة الطب عندما بدأ نشاطه الفدائى.

عند خروجه من سجن طرة فى عام ١٩٢٣ لم يتمكن من العودة إلى مدرسة الطب لاستئناف تعليمه بسبب نشاطه السياسى السابق، وهكذا عين موظفا فى مجلس الشيوخ وقد ظل يعمل به حتى الخمسينيات عندما افتتحت جامعة الدول العربية أول مكتب لمقاطعة إسرائيل فى دمشق، وحينذاك انتقل إلى مكتب دمشق، الذى عمل فيه حتى عام ١٩٥٧، ثم عاد إلى القاهرة ليستمر فى العمل فى جامعة الدول العربية.

وفى عام ١٩٥١، وقبل سفره إلى دمشق، حصل على درجة البكوية، وبعد عام ١٩٥٧ دخل فى مشروع تجارى لإنتاج الورق وتعاقدت معه الشركة الشرقية للدخان، وشركات أخرى.

(٤)

كان عريان سعد، فيما روته أسرته فى التعريف به، بطلاً رياضيًا محنكًا، وكان يحتفظ بمركب شراعى، وكان بحاراً ماهراً، وكان يمارس رياضة الكرة الطبية ويسير مسافات طويلة، حتى إنه كان يسير من مصر الجديدة إلى وسط البلد بشكل منتظم، ومن القاهرة إلى الإسكندرية كل صيف (كى يلحق بزوجته وابنته فى أثناء إجازة الصيف)، ودرس اليوجا، وهو واحد من أوائل مَنْ أدخلوا ممارستها إلى مصر، وترجم كتاب «فلسفة اليوجا»، وكتب «تمرينات اليوجا»، وفى هذا الكتاب صور له فى أوضاع مختلفة.

كان عريان سعد كذلك قارئًا نهمًا وكاتبًا، وتنوعت قراءاته فى الفلسفة، والدين والسياسة والأدب، وكتب فى العديد من المجلات، منها «مجلتى» و«مجلة السجون»، وكتب سلسلة من المقالات فى «مجلة الشئون الاجتماعية»، وقد تناول فى كتاباته موضوعات كانت له خبرة بها مثل: السجن، والفلاح، وملابس النساء، والتشريع، والتعليم، والمشروعات الحرة مقابل الوظيفة الحكومية، والرأى الشخصى مقابل الرأى العام، والشرق والغرب، والتعامل مع الأمية، والإنتاج الزراعى فى مصر، والتعمير، والأبوة، والأمومة، والزواج.

ترجم عريان يوسف سعد بعض الأعمال الأدبية، منها «كيم» لروديارد كيبلنج، و«جزيرة الكنز» لروبرت لويس ستيفنسون.

(٥)

وعلى عادة الصحافة الوطنية الحفية بتسجيل السبق إلى المجد فى تلك الحقبة الليبرالية التى عاش عريان يوسف سعد فيها شبابه، فقد نجحت مجلة «مجلتى» فى أن تدعوه إلى كتابة مذكراته عن فترة السجن وقدمت المجلة لنشر هذه الحلقات فقالت:

«. . . وقد طلبنا إليه أن يحدث قراء «مجلتى» عن مدة إقامته فى ذلك السجن، وكيف تحمل العيش فيه بعد الرخاء والنعمة، فوعدنا وبر بوعده».

«كتب تباعا حلقات عن دخوله الليمان، وطريقة معيشته فيه، وحياة المسجونين والسجانين، وهو فى كل مقالة منها يصور لنا حلقة فريدة من تلك الحلقات التى نجهلها ولم يسبق تصويرها بهذا الأسلوب الجذاب، وتمثل كل حلقة لوحة من لوحات توالى نشرها «مجلتى»، فتسجل بذلك وثائق نادرة فى حياتنا القومية».

(٦)

نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بأن نثبت ما تحدث به عريان يوسف سعد عن إيمانه بالدور الذى لعبه العمل الفدائى فى ثورة ١٩١٩، وفى النجاح الذى أحرزته هذه الثورة، وهو يجيد تبرير السبب فى هذا الكفاح المسلح الذى قامت به مجموعة من الشبان الفدائيين فيشير إلى أنه بدأ كرد فعل على الاعتداءات الوحشية التى كانت قوات الجيش البريطانى تمارسها بين المدنيين:

«. . . ليست هذه المذكرات تاريخًا شاملاً لثورة مصر سنة ١٩١٩، إنما هى خيط من خيوط بردتها، أو طريق يخترق أحد شعابها، ولعله أخطر تلك الشعاب لأنه يمر بمنعطفات العنف فيها، فإذا كان المؤرخون قد قدموا تلك الثورة على أنها ثورة سلمية قام بها شعب أعزل ضد قوات الإمبراطورية البريطانية أوسع الإمبراطوريات التى شهدها العالم رقعة».

«فقد كان لهذه الثورة جانب عنيف، رأى بعض الثوار ألا محيص عن المغامرة فيه، ليردوا على وسائل العنف التى اتبعها الاستعمار فى قمع الثورة. أطلقت قوات بريطانيا النار على المظاهرات الشعبية التى كانت تتألف من مختلف طبقات الشعب بما فيها النساء المحجبات اللائى خرجن من خدورهن يشاركن الرجال فى المطالبة بالاستقلال. أقول: المحجبات لأن الحجاب كان لايزال مضروبًا على المرأة فى مصر لا يُرى وجهها خارج دارها إلا من وراء حجاب»،

«كانت القوات البريطانية تطلق النار على المظاهرات التى تسير هاتفة للاستقلال والحرية والوطن، ليسمع الأجانب صوتهم فيبلغوه لصحفهم وشعوبهم بعد أن حيل بين مصر حكومة وشعبًا، وبين مؤتمر فرساى الذى انعقد عقب الحرب العالمية الأولى، والذى ادعى الحلفاء أنه يسير طبقا للشروط التى أعلنها ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، التى كان أهمها حق الشعب فى تقرير المصير».

«وسقط فى شوارع القاهرة عشرات من الشهداء، كلما اجتمعت الجماهير لتشييع فريق إلى مثواهم الأخير، وجدت القوات البريطانية فى تلك الجموع الحاشدة هدفًا جديدا لإطلاق النار عليه».

. . . .

ويصل عريان يوسف سعد إلى تقديم استنتاجه المنطقى الذى يجعل حركة الفدائيين فى جوهرها الحقيقى بمثابة رد فعل طبيعى:

« . . . كان ذلك الدم الطاهر المهراق فى سبيل مصر هو الذى دفع فريقًا من الثوار إلى الجنوح إلى العنف، وإلى تدبير حوادث الاغتيال بالاعتداء على الوزراء، وأعوان الاستعمار الذين يناهضون الحركة الوطنية، ويحكمون البلاد على رغم إرادتها فى ظل الحماية، ثم رأوا ألا وسيلة لإقناع بريطانيا بحجة مصر إلا بأن تُكتب تلك الحجة بدماء المستعمر نفسه على أرض مصر، حتى يستطيع المستعمر أن يقرأ بوضوح وجلاء ما لم يقرأه مكتوبا بدماء الشهداء من المصريين».

(٧)

وهو يعتز بالإشارة إلى الدور الإيجابى الذى أسهم به الشعب المصرى فى دعم هذا التوجه الفدائى، وهو يعتبر مثل هذا الحديث بمثابة المدخل الجوهرى للحديث عن مذكراته، وهو يصل إلى أحكام تكاد تتوافق مع ما وصل إليه كل من إبراهيم عبد الهادى، وسيد باشا اللذين كانا على صلة صداقة به: «ولقد كان الشعب المصرى كلما انفجرت قنبلة من قنابل الفدائيين على وزير من وزراء الاستعمار، كان الشعب يهلل ويكبر حتى لو لم يصب الوزير بسوء».

«وكان الفدائيون فى نظر الشعب فى ذلك الوقت أبطالاً توزع صورهم، خفية كالمنشورات، إذا قبض عليهم، وكانت اعتداءاتهم على المستعمرين وأذنابهم تُروى كقصص الأبطال فى المنتديات».

«وكان العمال قد اختاروا أن يكون مجال عملهم الإنجليز دون المصريين، كلما أتيحت لهم الفرصة أطلقوا النار على جندى أو ضابط أو موظف مدنى إنجليزى، فكان الإنجليز يصبحون كل يوم على قتيل من جنودهم أو أكثر من قتيل ملقى فى شارع من شوارع القاهرة، ».

«وكلما أعلنت السلطات البريطانية عن آلاف الجنيهات لمن يقدم معلومات عن المعتدى، أو المعتدين، لا يتقدم بالمعلومات أحد، لا من الجمهور الذى كان يرى الحادث وهو يُرتكب جهارا فى وضح النهار، أو فى سواد الليل، ولا من المشتركين فيه على رغم فقرهم، وعلى رغم إعلان الأمان لمن يُبلغ واعتباره شاهد ملك».

(٨)

ولا يكف عريان يوسف سعد عن التعبير عن وجهة نظر شبيهة بوجهة نظر زميله سيد باشا فى أن هذا العنف الثورى هو الذى حقق الاستقلال، وأن تلك القنابل التى كان يلقيها طلبة المدارس بغير خبرة ولا سابق تمرين، وتلك الرصاصات التى كان الطلبة والعمال يطلقونها على المستعمرين وأذنابهم، هى المطرقة التى تفتت تحتها صلف البريطانيين فخضعوا لرجال السياسة فى بريطانيا، وأخلوا لهم سبيل العمل

فتفتق ذهنهم عن ذلك المخدر الفعال، تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ من جانب بريطانيا وحدها الذى أعلنت فيه إنهاء الحماية على مصر وإعلانها دولة مستقلة ذات سيادة».

(٩)

يفتتح عريان يوسف سعد مذكراته بوصف تفصيلى دقيق للإضراب الشهير الذى قام به الطلاب ومراحل هذا الإضراب وملامحه، حتى مروا على مدرسة الطب التى كان هو أحد طلابها حيث تمكن طلابها من الهجوم على العميد الإنجليزى كيتنج:

«. . . لقد قرر طلبة الحقوق الإضراب وامتنعوا عن تلقى الدروس، وأضرب طلبة المدارس الأخرى جميعًا عن حضور المحاضرات، ولكن ما فائدة الإضراب والبقاء داخل المدارس؟! رسول أمين يأتى إلى مدرسة الطب على دراجته مسرعًا يلهث، لقد قرر طلبة الحقوق أن يخرجوا فى موكب فيمروا بالمدارس الأخرى، ثم يتوجه الجميع إلى قنصليات الدول الأجنبية ليسلموا القناصل مذكرات الاحتجاج على القبض على سعد وزملائه ليبلغوه بدورهم إلى دولهم، فلم تكن للدول فى مصر سفراء ولا سفارات لأنها كانت محمية بريطانية».

«ويصل رسول آخر على دراجة، لقد خرجت مدرسة المهندسخانة (كلية الهندسة)، وخرجت مدرسة الزراعة، وهم جميعًا فى طريقهم إلى مدرسة الطب».

«ويدوى فى الآذان صوت لا عهد للآذان به، صوت ينطلق من مئات الحناجر الفتية القوية: لتحيا مصر حرة! ليحيا الاستقلال! ليحيا الوطن! ليحا سعد!».

«ويقف شعر الرأس، ويغلى الدم فإذا هو داخل الجسم كأنه سيل من نار».

«ويقف دكتور كيتنج ناظر مستشفى قصر العينى ومدير المدارس الطبية (كما كان يلقب نفسه، والمدارس الطبية هى مدرسة الطب، ومدرسة الصيدلة، ومدرسة الحكيمات والممرضات)، يقف على شرفة المدرسة يحول بين الطلبة وفناء المدرسة الذى أوصد بابه من دون طلبة المدارس العليا، وكان لكيتنج هذا فى قلوب الطلبة والمدرسين

هيبة شديدة، فقد كان الرجل حاكما بأمره للمدرسة، يفصل مَنْ يشاء منها متى شاء، ولا معقب لأمره، ويضع للمدرسة اللوائح التى يرضاها ولا شأن لأحد بها».

«وهتف طلبة المدارس العليا لمصر، وأعقبوا هذا بالهتاف لطلبة الطب: لتحيا مصر حرة! ليحيا الاستقلال! ليحيا طلبة الطب! ولكن الوقفة تطول لا أقول: دقائق، أو ثوانى، إنما طالت الوقفة كأنها دهر».

«كيتنج يحدق النظر فى وجوه الطلبة، والطلبة يتحاشون نظرته، وهم ينصتون إلى نداء الحرية الصادر من قلوب زملائهم خارج السور».

«ويهتف هاتف فى الخارج: ليسقط طلبة الطب!!».

«ويخرج من صفوف طلبة الطب طالب يقذف فى وجه كيتنج بحافظة كتبه، ويدفعه فسقط الرجل على السلم، ويندفع الطلبة راكضين من حوله وفوقه فيفتحون الباب ويندفعون إلى زملائهم خارج السور، ويهتف الطلبة الذين فى الشارع: ليحيا طلبة الطب! ويهتف طلبة الطب ويهتف الجميع: لتحيا مصر حرة! ليحيا سعد! ليسقط الاستعمار! لتسقط الحماية!».

(١٠)

ويجيد عريان يوسف سعد وصف النجاح الذى حققه الإضراب باستمراره فى ذروته، وضمه لعناصر أخرى متتابعة من المدارس العليا المختلفة، وانضمام مدرسة التجارة العليا، ثم الوصول إلى قسم السيدة زينب ثم إلى مقر مديرية الأمن:

«ويسير الحشد الملتهب بنار الوطنية والشباب فى شارع قصر العينى قاصدين مدرسة التجارة العليا، وكانت تشغل بناء فى شارع المبتديان قريبًا من سكة حديد حلوان، وكانت على تقاطع الشوارع الرئيسية مع سكة حديد حلوان بوابات من الحديد تتحرك على عجل يسير على قضبان حديدية موازية لسكة الحديد تغلق الشارع من جانبى سكة الحديد عند مرور القطارات، وكانت قطارات بخارية تجر القاطرة من أربع عربات إلى ست حسب ضغط العمل كل نصف ساعة أو كل ساعة».

«وعند وصول الطلبة أغلق البوليس البوابات الحديدية ليغلقوا شارع المبتديان فى وجه الطلبة، ووقف أمام البوابات وخلفها جنود البوليس السوارى والبيادة، فى لغة اليوم الفرسان والمشاة».

«ولكن الطلبة اندفعوا يتسلقون البوابات، ويقفزون من فوقها إلى الجانب الآخر، فهاجمهم رجال البوليس وهم يلوحون بالعصى الغليظة التى يتسلح بها المشاة، وبالسيوف التى يتسلح بها الفرسان، ولكن لم يضرب جندى واحد طالبا، لا بالعصى، ولا بالسيوف، فقد كانت الوطنية تغلى فى صدور رجال البوليس كما كانت تغلى فى صدور الطلبة، ولكن الضباط الإنجليز، وكان بعضهم يركب الموتوسيكلات، والبعض الآخر يركب الخيل، كانوا يصدرون الأوامر إلى رجال البوليس بالهجوم على الطلبة لتفريقهم، واندفع الخيالة بخيلهم يقتحمون جموع الطلبة، فصمدوا للخيل تثب عليهم تضرب بسنابكها وحوافرها الهواء حول رءوس الطلبة، فلا يجد الطلبة وسيلة للدفاع إلا جذب أعنة الخيل فترتد على أعقابها، وقد سقط بعضها على ظهرها فأصيبت وأصيب ركابها».

«وخلال هذا الاشتباك الذى استمات فيه الطلبة فلم يتزحزحوا، لجأ قومندان قوة البوليس إلى إصدار الأمر للجنود، مشاة وركبانا، باقتياد الحشد كله إلى قسم السيدة زينب أقرب أقسام البوليس إلى مكان الصدام حتى يجدوا فرصة للاتصال برؤسائهم وتلقى أوامرهم إزاء هذا الموقف الذى لا عهد للبوليس بمثله من قبل، وكان فى نهاية شارع المبتديان والتقائه بشارع خيرت مبان أزيلت لتوسيع ميدان السيدة، وكانت بين شارع الخليج والجانب الذى تقع عليه المدرسة السنية مبان تحصر بينها وبين ذلك الجانب شارعا ضيقا اسمه شارع الكومى، كان على أحد جانبيه المحلات نفسها الموجودة الآن من مطاعم، وفطاطرى، وكشرى، وعلى الجانب الآخر الذى هدمه التنظيم محلات تجارية لمختلف السلع، واخترق الموكب شارع الكومى الضيق، وتساءل التجار: حد مات؟ تلميذ مات؟ ولا أستاذ؟».

«وإذاً فإن الناس خالو الذهن.. وهتف الطلبة:

«ليحيا الاستقلال! لتحيا مصر حرة! لتسقط الحماية! ليحيا سعد!».

«الله!! اقفل ياواد دول عايزين يطلعوا الإنجليز من مصر!».

«وأغلق التجار محلاتهم وانضموا بعمالهم إلى الطلبة، ولكن الأوامر صدرت إلى رجال البوليس من قادتهم الإنجليز بتفريق غير الطلبة لحصر العدد فى أقل عدد ممكن».

«وأقبلنا على قسم السيدة هاتفين، والشعب من خارج نطاق رجال البوليس ركبانا ومشاة يردد الهتاف، وكان قسم السيدة فى ميدان صغير جداً لا نسبة بينه وبين الميدان الفسيح الحالى، وكانت فيه نهاية عدد من خطوط الترام».

(١١)

ويروى عريان يوسف سعد تفصيلات مهمة عن حوار مأمور قسم السيدة زينب الصاغ موسى صبرى (ولا يعجبن القارئ من اسمه) مع جموع الطلاب:

«. . . ودخلنا قسم البوليس، وكنا أكثر من خمسمائة طالب فضاق القسم وردهاته بنا فأدخلونا قاعة المحكمة فملأناها كلها، منصة القضاة، وأماكن المحامين والمتقاضين، وبقى الجزء الأكبر منا أمام القسم والهتاف للاستقلال يدوى فى داخل القسم، ويردده الذين بقوا خارجه».

«ودخل مأمور القسم الصاغ موسى صبرى إلى المحكمة بعد جهد كبير وطالب بالإنصات إليه فأنصتنا».

«وكان كلامه كله نصحًا لنا بالانصراف فى هدوء، والعودة إلى مدارسنا حتى لا نتعرض للعقوبات التى يفرضها الحكم العسكرى البريطانى الذى يمنع تجمهر أكثر من خمسة أشخاص، وإلا اعتبر عملهم جريمة عسكرية عقوبتها الأشغال الشاقة طبقًا لمنشورات الحاكم العسكرى قائد القوات البريطانية فى مصر، تلك المنشورات التى كانت معلقة على الجدران فى كل مكان».

«وكان ردنا على نصائحه الهتاف لسعد وللاستقلال وسقوط الحماية».

«وخرج الرجل ليعود قائلا: إما أن ننصرف وإلا فإن قوات إضافية قد وصلت لاقتيادنا إلى المحافظة فى ميدان باب الخلق».

«وتدافعنا إلى خارج القسم، فما أن وقفنا على جانب سلمه العريض (وهو لم يتغير إلى اليوم، اللهم إلا أن الميدان الذى خرجنا لنطل عليه لم يكن عرضه يزيد على خمسين شبرًا)، حتى وجدنا نطاقًا من الجنود مشاة وركبانًا يحيطون بالميدان، ومن خلفهم الشعب يستقبلنا بالتصفيق والهتاف: ليحيا الطلبة! لتحيا الوطنية!».

«ونزلنا إلى الميدان وسرنا منه إلى شارع الخليج المصرى، وكان شارعا ضيقا لا يتسع إلا لشريطى الترام: شريط للذاهب، وشريط للعائد، وليس بين الشريط والبيوت سوى رصيف ضيق، أزيلت المبانى ووسع الشارع، وأدمج فى الحارات الموازية لشارع الخليج باسم درب الجماميز، ثم شارع جامع البنات، ثم شارع بين الصورين، وضم ذلك كله للشارع الفسيح، شارع بورسعيد، وقد حاول الأهالى من أولاد البلد لابسى اللاسات والطواقى والعمائم الانضمام للمظاهرة، ولكن أوامر المحافظ، أو الحكمدار الإنجليزى على الأصح، كانت تسوق الطلبة المتظاهرين وحدهم إلى المحافظة ومنع دخول غير الطلبة فى المظاهرة، يهدفون بذلك إلى حصر المتظاهرين فى أقل عدد ممكن حتى يمكن محاكمتهم، لأن محاكمة الشعب كله عمل مستحيل».

(١٢)

ويفيض يوسف عريان سعد فى تصوير التعاطف الشعبى الذى أحاط بمظاهرات الطلبة، وهو تعاطف ينم بوضوح عن إيمان الشعب بهذه الحركة الوطنية وبما تمثله من هدف نبيل:

«... وسرنا فى شارع الخليج الضيق تطل من نوافذه السيدات والآنسات ينظرن إلى هذا المشهد الذى لا عهد للقاهرة ولا لغيرها من مدن مصر بمثله، ويرتفع الهتاف للاستقلال والحرية وسعد بدون انقطاع، ويحيط المظاهرة من الجانبين جنود البوليس يمر بهم على طول الطريق ضباط إنجليز يركبون الموتوسيكلات، ولكن الهتاف للحرية والاستقلال لا ينقطع، وإذا أصوات جديدة تشترك فى هذا الجو الصاخب المفعم بالشعور الوطنى من شباب غير عابئ بما يجره عمله هذا من عقوبات مخالفة منشورات الحاكم العسكرى الإنجليزى».

«أصوات تصاعدت من شرفات المنازل ونوافذها التى امتلأت بوجوه الجنس الناعم، تلك الوجوه التى ما كانت تظهر لأحد غير أهلها، كان الحجاب مازال مضروبا على المرأة المصرية لا تخرج إلا وعلى وجهها نقاب، حتى طالبات المدرسة السنية كن محجبات».

«اخترقت زغاريد النساء هتاف الطلبة فعلت عليه، وكأنها أصوات الملائكة نزلت من السماء لتشارك شباب مصر فى هتافه مطالبًا بحقه، وحق بلاده فى الحرية».

«وصمت الذين يقودون الهتاف لحظة ملأت الزغاريد فيها الجو، ثم عادوا يهتفون».

«وكلما قطعنا جزءًا من الطريق، وانتقلنا من بين مجموعة من المساكن إلى مجموعة أخرى ارتفعت من المساكن التى نمر بينها على الجانبين زغاريد كأجراس الفضة تبعث فى نفوس الشباب روح المغامرة، واستصغار المخاطر، حتى وصلنا تقاطع شارع أحمد ولى بعابدين مع شارع الخليج، وكانت هناك مدارس ثانوية تدعى مدارس الرشاد اندفع تلاميذها من باب المدرسة لينضموا للمظاهرة، ولكن جنود البوليس حاولوا منعهم فاقتحموا صفوفهم، وواصلت المظاهرة السير حتى باب الخلق حيث كانت المحافظة، فإذا أمام بابها الضخم عدد كبير من جنود البوليس، ودخلت مقدمة المظاهرة إلى فناء المحافظة، ولم يدخل منها أكثر من مائة وخمسين طالبًا، وإذا الباب الخارجى يقفل ليحول دون دخول بقية المتظاهرين الذين زاد عددهم فى أثناء السير من قسم السيدة إلى باب الخلق، ولست أدرى كم كان عددهم بعد أن انضم الكثيرون إلى طلبة المدارس العليا الذين تخطوا الحواجز، وانضموا لزملائهم بعد أن حيل بينهم عند بوابة سكة حديد حلوان أولا، وعند قسم السيدة زينب ثانيًا».

(١٣)

ويروى عريان يوسف سعد تفاصيل اعتقاله هو وزملائه فى ذلك اليوم، مشيرًا بكل وضوح إلى طبيعة الممارسات التعسفية للبريطانيين فى مواجهة مثل هذه الحركات الوطنية ومحاولة قمعها بكل قسوة، وإن ظل هذا فى إطار قواعد النظام:

«. . . وقفنا فى فناء المحافظة ولم يكن فسيحًا، فامتلأ بالمائة والخمسين الذين أقفل بدخولهم الباب الكبير، وقفنا ووقف على الشرفة المطلة على الفناء الحكمدار ومساعدوه، وكلهم إنجليز، ولكن بالطرابيش، وملابس ضباط البوليس المصرى».

«ووقف أمامنا ضابط كنت أراه كثير التقدم والتأخر على موتوسيكله طوال الرحلة من السيدة زينب إلى باب الخلق، وتقدم إلى حيث يطل عليه الحكمدار من فوق الشرفة وقال له بالإنجليزية:

«أنا أعرف سبعة أوجه كانوا هم قادة المتظاهرين، وموجهى الهتافات».

«فأمره الحكمدار بالتقاطهم ووضعهم فى التخشيبة».

. . . .

«وبدأ الضابط ينتقى بعض الطلبة، ولكنه لم يكتف بسبعة وإنما قبض على أربعين كنت أنا من بينهم، وكان كلما اختار واحدًا يمسكه من كرافتته ويجذبه بعنف فيتلقفه عدد من الجنود ويحملونه إلى البدروم - التخشيبة».

«وكنا قد بدأنا السير بالمظاهرة من مدرسة الطب حوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا، فقد أخذت المشاورات من مدرسة الحقوق وقتا، وأخذ السير من الجيزة إلى قصر العينى والانتظار فى قسم السيدة زينب، والسير إلى باب الخلق وقتا أشرفنا بعده على المساء، فلما دخلنا التخشيبة كان الظلام قد أطبق».

«ووقفنا حتى إذا أخذ منا التعب مأخذه بدأنا نجلس على الإسفلت، وما باليد حيلة، وفُتح الباب نحو الثامنة مساء ودخل جاويشان أحدهما فى يده فانوس والآخر فى يده ورق وقلم وطلب أسماءنا ليكتبها».

«وصاح صائح: أسماء مزيفة! ولكن طلبة الحقوق تداولوا بسرعة وقالوا: إن هذا يكون تزويرًا فى أوراق رسمية، فليذكر كل واحد اسمه وما يطلبه منه من بيانات مطابقة للواقع، وكتبوا أسماءنا وكنا لم نذق طعامًا طوال اليوم، ومنا مَنْ لم يتناول طعام إفطاره، فطلبنا طعاما ولو على حسابنا، ولكن لم نظفر بشىء».

«بعد قليل نودى على طالب منا كان من طلبة الهندسة، وكان أبوه رئيس وزراء

سابق، فخرج ولم يعد، ونودى على اثنين آخرين ولكنهما عادا بعد قليل، فقد رفضا الإفراج عنهما إن لم يفرج عن سائر زملائهما».

(١٤)

وتحتفظ ذاكرة عريان يوسف سعد بتفصيلات عن «المعتقل المؤقت» الذى قررت السلطات إيداعهم فيه، وقد كان مسجداً أثريًا يخلو من الإضاءة، فإذا هم يستعينون بعيدان الكبريت حتى يرى بعضهم بعضًا:

«وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، فُتح الباب ونودى على كل منا والمنادى عليه يخرج، حتى جاء دورى فنوديت وخرجت، وإذا فى فناء المحافظة سيارة نقل من سيارات الجيش البريطانى وحول سورها جنود إنجليز، وأُمرت أن أقفز إلى السيارة فقفزت، وإذا جندى إنجليزى يقول لى بالإنجليزية: اجلس! ووجدت الزملاء جلوسًا على أرض السيارة فجلست، وقال جندى عندما بدأت السيارة تتحرك: إن النار ستطلق على أى واحد يصدر منه هتاف أو يحاول الوقوف».

«وانطلقت السيارة فى ظلام دامس، فقد حطم الشعب بعد دخولنا التخشيبة مركبات الترام، وفوانيس النور فى الشوارع، وهكذا باتت المدينة فى ظلام دامس».

«وبدأت السيارة تسير فى طريق مرتفع قليلاً قليلاً، وشعرنا بذلك من ميلها فأدركنا أنها تصعد بنا إلى القلعة، وكانت فى يد الجيش البريطانى».

«وأخيراً وقفت السيارة وفُتح سورها الخلفى وأُمرنا بالنزول، فقفزنا منها وإذا بنا أمام بناء ضخم فيه باب أمرنا أن ندخله، وبعد دخوله أقفل لينفتح بعد قليل ليستقبل فوجا آخر من الزملاء، ولم نجسر على الابتعاد عن الباب إلا بالقدر الذى يترك مكانًا للقادمين الجدد، وتوالى وصول الزملاء، وكنا نشعل أعواد الكبريت ليتعرف بعضنا إلى بعض حتى بدأت أضواء الفجر تظهر المكان الذى وضعنا فيه، فإذا هو مسجد أثرى خرب فسيح، وأصبحنا فإذا كل المائة والخمسين طالبًا الذين أغلق بعد دخولهم باب المحافظة قد وصلوا».

«أين كانوا؟».

«ضاقت التخشيبة بهم فأخذوهم فى لوريات إلى أقسام البوليس حتى الساعات الأخيرة من الليل فنقلوا إلى القلعة حيث بتنا فى العراء، فالمسجد كان معظم سقفه منزوعا، وأخذ الجوع والعطش بعد أربع وعشرين ساعة يتغلبان على قوة الشباب وجَلَدِه».

(١٥)

ويروى عريان يوسف سعد بعض الملامح التى فرضت نفسها على إدارة المعتقلين لشئون أنفسهم فى ظل هذه الظروف القاسية:

«وزاد عدد المعتقلين فى الجامع المهجور الخرب، فبلغ عددهم بعد بضعة أيام أربعمائة معتقل، كان حفظ النظام بينهم موكولا لطلبة المدارس العليا، فقد قامت مشاجرات بين العامة من المعتقلين، فقد اندس بينهم أنماط من الناس من جميع المستويات، وادعى بعضهم أن أشياء سرقت منهم، ولم يشأ الإنجليز أن يتدخلوا فى هذه الشئون، فاخترنا من طلبة الحقوق مَنْ يحققون وفوضناهم فى الفصل فى هذه القضايا، وأجمع المعتقلون على الرضا بحكمهم، وكان فى معظم الحالات لا يتعدى النصح بالصفح، وكان فى كل مرة يقبل ما يشيرون به على أطراف النزاع».

«وبعد عشرة أيام كانت حالتنا قد وصلت إلى درجة يرثى لها من سوء المظهر، لقذارة ملابسنا التى لم نغيرها طوال تلك المدة، وكان يعلوها التراب الذى يكسوا أرض المسجد، والذى كنا نجلس وننام عليه، وبدأت السلطات تتصرف فى أمرنا بعد أن حاول أهل المعتقلين معرفة ما آل إليه أمرهم بعد أن تغيبوا عن منازلهم، وسؤالهم فى أقسام البوليس عنهم فأحيلوا إلى المحافظة، ورأت المحافظة الإفراج عن المعتقلين، إذ أنهم لم يرتكبوا جريمة يمكن أن يحالوا بسببها إلى المحاكمة».

(١٦)

ويصل عريان يوسف سعد إلى لحظة خروجه من هذا المعتقل فيجيد تصوير المشاعر

الإنسانية والتعبير عنها بدقة شديدة، تعكس ما يعبر عن نفسية ثورى بدأ لتوه أولى خطواته فى سبيل الوطن، ومن الطريف أنه يعبر بدقة عن شعوره تجاه «منظره»، وكيف اختلف هذا الشعور بمجرد تحرره من المعتقل:

«وفى اليوم الثانى عشر جاء الضابط والمترجم، وإذا اسمى بين الذين ناداهم».

«كان أبى وأسرتى يقيمون فى ميت غمر، والطرق الحديدية قد قطعت، وعطل البريد والبرق بينها وبين القاهرة».

«ولكن، كما كان الشأن آنئذ، لابد لكل طالب لا يقيم أبوه فى القاهرة من شخص تلقبه وزارة المعارف «المراسل».

«وكان مراسلى زوج عمة لى يقيم فى شبرا، وكانت كل دفعة تخرج تعمل على الاتصال بأهل الباقين ليتوجهوا إلى المحافظة لتوقيع الضمان، والإفراج عن الطالب المعتقل».

«ودخلنا المحافظة فى ميدان باب الخلق، وأدخلنا عشرة عشرة إلى مكتب كان يدعى إليه الضامنون لنا فتقدم لهم ورقة الضمان يوقعونها، ونوقعها نحن بدورنا، وفيها أنهم يضمنون عدم الاشتراك فى أى مظاهرة، وأننا إذا قبض علينا فى أى مظاهرة حكم علينا بالإعدام رميًا بالرصاص، ووقعنا الأوراق وخرجنا».

«كنا فى المعتقل لا نخجل من منظرنا الزرى، ولا من لحانا التى طالت بعد أن بقيت اثنى عشر يومًا بغير حلاقة، ولا من الجاكتة والبنطلون (اللذين تشبعا) بالتراب، ولا من القميص الذى اسود لونه من العرق والتراب معًا».

«ولكن ما إن خرجنا من غرفة الضابط الذى وقعنا الأوراق أمامه، وعدنا إلى الجمهور، حتى بدأنا نخجل من هذا المنظر القبيح».

«ودعانى زوج عمتى للذهاب معه إلى منزله، فقلت له إن ثيابى فى الشقة التى أسكنها فى جنينة نميش (قاميش) مع زميلى فى مدرسة الطب، وهو لم يعتقل ولابد من أنه ينتظر عودتى، وتركته شاكرًا ضمانته لى، وذهبت إلى المسكن المتواضع فوجدت زميلى مكبا على كتبه، وكنا فى نفس الفرقة، فعانقنى فرحًا بعودتى وقال: إن

الشائعات عن مصير الطلبة الذين اعتقلوا يوم ٩ مارس، وكنا فى يوم ٢١ مارس يوم أفرج عنا، تؤكد أن أولئك الطلبة قد نفوا إلى مالطة هم الآخرون».

(١٧)

ويروى عريان يوسف سعد تجربته المثيرة حين حاول العودة (مستخفيا) إلى موطنه الأصلى ميت غمر بعد خروجه من هذا الاعتقال:

«... وكنت أعرف مساكن بعض طلبة ميت غمر، وكان منهم الأديب الكاتب المرحوم عبد الله حبيب، وكان فى مدرسة دار العلوم أو القضاء الشرعى، فذهبت إليه، وإذا به قد وضع قواعد خطة للهرب من القاهرة ليلاً، إذ أن السلطة العسكرية كانت قد حظرت الانتقال من القاهرة وإليها».

«وكان تنفيذ الخطة كما أعدها سيتم مساء ذلك اليوم، وكان علينا أن نلتقى فى روض الفرج بحقائبنا حيث اتفق مع صاحب سفينة شراعية من سفن النزهة على أن يحملنا على سفينته بعد منتصف الليل إلى القناطر الخيرية، وعند الفجر مقابل شىء من النقود يفتح لنا هويس الرياح التوفيقى، فإذا دخلنا أصبحنا فى مأمن من القبض علينا لأن نطاق الحظر ينتهى عند القناطر الخيرية».

«وحين أقبل الليل، وكانت القاهرة فى ظلام دامس بسبب تحطيم فوانيس الإضاءة فى الشوارع، نقل كل منا حقيبته إلى مسكن زميلنا عبد الله حبيب، ومن هناك ركبنا مع حقائبنا عربة نقل حملتنا إلى روض الفرج فى أكثر من ثلاث ساعات».

«وعند منتصف الليل أقلعت بنا السفينة، أو بالأصح القارب الشراعى، وكنا نحو عشرة تنتهى رحلة أبعدنا فى المنصورة، ورست أمام القناطر الخيرية عند منبع الرياح التوفيقى، وعند الفجر دخلنا الرياح، وبقينا بعد ذلك قليلاً فى المدينة، إذ اشترينا من سوقها بعض الطعام».

(١٨)

وينفرد عريان يوسف سعد بذكر أن ميت غمر كانت قد أعلنت استقلالها، وهو

خبر غير مشهور، فالمشهور هو أن المدينة المقابلة لها على النيل، وهى مدينة زفتى، أعلنت الجمهورية، لكن عريان يوسف سعد يحدثنا عن محاولة شبيهة قامت بها ميت غمر، وليس هناك ما يمنع من أن تكون حركة ميت غمر قد تمت على هذا النحو:

«. . . ووجدت ميت غمر قد أعلنت استقلالها، وألفت حكومة ونادت بالمرحوم أحمد بك عبده سلطانًا على ميت غمر، وكان طلبة المدارس العليا والثانوية الذين لم يعتقلوا والعمال يقومون بدور الحرس الوطنى، أما مأمور المركز وموظفوه فلزموا منازلهم».

«ولم يقع بالمدينة حادث اعتداء واحد، أو حادث سرقة خلال فترة الاستقلال التى دامت نحو أسبوعين».

«عندما وصلت السفينة فى الرياح التوفيقى إلى محطة فم الصافورية، وكان بين هذه المحطة وميت غمر نحو كيلومترين، وكانت ملتقى خطوط سكة حديد الدلتا من الزقازيق وبنها والمنصورة والسنبلاوين وميت غمر، وكانت فى ميت غمر ورش إصلاح القاطرات والمركبات، وقد تحول قسم من تلك الورش كان به مسبك لصهر الزهر والنحاس ومخرطة، تحول هذا القسم إلى الإنتاج الحربى للجيوش البريطانية فى الشرق الأوسط من أول حرب سنة ١٩١٤ (الحرب العالمية الأولى)، وكانت القنابل اليدوية تصنع فيه لكنها كانت تشحن بالمفرقعات فى مكان آخر، وكان فى هذه الورش نحو خمسمائة عامل بين براد، وخراط، وبرشمجى، وسباك، ونجار، ومنجد، أضربوا جميعًا عندما قامت الثورة، وعلى رغم تهديد المدير الإنجليزى لهم بالفصل فإنهم استمروا فى إضرابهم».

(١٩)

ويورد عريان يوسف سعد تفصيلات مهمة عن دوره فى تأجيج مظاهر الثورة ضد البريطانيين فى ميت غمر، ولا نقول فى إشعال الثورة، فقد وصل إلى ميت غمر بينما الثورة مشتعلة بالفعل، وهو يروى أنه خطب فى الكنيسة بعد شيخ الجامع وبعد راعى

الكنيسة، وأنه دعا إلى قطع السكة الحديد حتى لا يأتى البريطانيون إلى ميت غمر لتأديب أهلها، وأن دعوته لقيت قبولاً واسعًا حتى إن عمال الورش جاءوه فى منتصف الليل ودعوه إلى مشاركتهم فى تنفيذ هذه الخطوة التى دعا إليها :

« . . . وصادف يوم وصولى إلى ميت غمر أن حدد اليوم التالى للاجتماع فى الكنيسة، وخطب شيخ الجامع العمرى، وخطب القمص يوسف راعى كنيسة الأقباط بعد أن عانق شيخ الجامع».

«وما أن انتهى الخطيبان حتى رأيتنى أقفز إلى منصة الخطابة، وصفق الطلبة وهتفوا».

«وقلت للناس : إن طوافهم فى شوارع ميت غمر لا نتيجة له، وإن خطر الجنود البريطانيين واحتلالهم للبلدة غير بعيد، وإنهم إن جاءوا فسيكون مجيئهم بالقطارات، فيجب أن تتحول المظاهرات إلى عمل يحول دون قدوم الجنود الإنجليز، وذلك بقطع سكة الحديد».

«وصفق الجميع وتعالى الهتاف لمصر، ولسعد وللحرية، وانفض الاجتماع».

«وفى منتصف الليل أيقظنى أبى وكنت فى نوم عميق».

«قال : إن أمام البيت حشدًا يطلبك، وخرجت بملابس النوم، وإذا رجال يحملون على أكتافهم قطعًا من الحديد، وتقدم منى رجل من زعمائهم».

«قال : ألم تدع إلى قطع سكة الحديد فى خطبتك أمس؟».

«قلت : بلى».

«قال : نحن عمال الورش، وقد جئنا بالمفاتيح، والعُدد التى تستعمل فى تركيب القضبان ونزعها، وقد جئنا لتصحبنا فى هذا العمل الذى دعوتنا إليه!».

«قلت : بارك الله فيكم، ٥ دقائق أرتدى فيها ثيابى».

«وصعدت إلى غرفتى، وسألنى أبى : ماذا يريدون بك؟».

«قلت : إنهم عمال الورش، سأذهب معهم فى عمل لهم».

«قال : أى عمس فى هذا الليل؟!» .

«قلت : سنخرج لنقطع سكة الحديد» .

«ورأى أن لا مفر من خروجى فتركنى ودخل غرفته» .

«وخرجت إلى الناس فسرت بهم إلى خارج المدينة ، فلما قربنا من محطة سكة حديد الحكومة أرادوا أن يبدأ قطع السكة من عندها» .

«قلت لهم ليس هذا هو الموضع ، بل يجب أن نقطع السكة على بعد كبير من المدينة» .

«وسرنا بجانب سكة الحديد حتى عبرنا الكوبرى الذى يمر من تحته الرياح التوفيقى ، وواصلنا السير فى اتجاه الزقازيق ، وكلما سرنا دقائق قال قائل : نقطع هنا ، فأقول لهم : لا فإن هذا الموضع قريب» .

«وسرنا ساعتين قطعنا فيهما نحو ثمانية كيلومترات ، ولاحت من بعيد أضواء خافتة قال قائل : لقد اقتربنا من ميت القرشى» .

«قلت : إذاً فابدأوا القطع من هنا» .

«وفى دقائق كان كل مجموعة يعملون بمفاتيح فك المسامير التى تربط القضبان بالفلنكات ، فلم يمض وقت طويل حتى انتزع أول قضيب وتصايح الرجال : «هيلاهوب ! هيلاهوب !» وقذفوا بالقضيب فى الحقل المجاور» .

«واستمر العمل واستمر نزع القضبان قضيباً بعد آخر حتى بدأت خيوط الفجر وقد انتزعنا عددا من القضبان لا بأس به ، وقررنا العودة ، وقبل طلوع النهار كنا نائمين فى بيوتنا» .

«وفى الليلة التالية خرجنا فى وقت مبكر من الليل وواصلنا فك القبضان فى نفس الموقع حتى اقتربنا من محطة ميت القرشى ، وعدنا إلى ميت غمر قبل بزوغ الفجر» .

(٢٠)

ويلخص عريان يوسف سعد نتائج حركتهم هذه على نحو ما حدثت ، حيث

انقطعت السكة الحديد، وانتقم الإنجليز بإطلاق النار عشوائيًا على بعض المشاركين فى جنازة، وجاءت قوة بريطانية (من جنود نيوزيلنديين) لتسيطر على الموقف:

«. . . وعند الظهر جاء غفير من ميت القرشى ببلاغ للمركز يقول فيه إن قطارًا إنجليزيا مسلحا وقف أمام القرية بسبب قطع سكة الحديد».

«وكانت جنازة ميت فى طريقها خارج القرية إلى المقابر، ففتح عليها القطار المسلح المتراليوزات (المدافع الرشاشة) فقتل ثمانية عشر قتيلاً».

«واستقل طبيب المركز والمأمور عربة حتى ميت القرشى، فصرح الطبيب بدفن القتلى، ولم نخرج بعدها لقطع سكة الحديد».

. . . .

«وانتهى الاستقلال بوصول قوة السوارى النيوزيلنديين، فبمجرد وصولهم عاد المأمور إلى مكتبه، واختفى الحرس الوطنى، وكان على رأس القوة المستر شبرد مفتش وزارة الزراعة بالزقازيق، وكان هو الذى يوجه الكولونيل قائد الفرقة، وكان ذلك الشأن فى كل مكان احتلته القوات الإنجليزية. كان أكبر موظف إنجليزى فى المديرية أو بقربها يتولى الإشراف على قائد القوة».

(٢١)

ويشيد عريان يوسف سعد بالدور الوطنى للمأمور عمر وهبى، وهو واحد من رجال الأمن المصريين المتميزين لم يلق بعد حظه من التكريم:

«وطلب المستر شبرد من المأمور بيانًا بأسماء أعضاء الحكومة، فقد كان بعض الجواسيس من المتمصرين (قد) أبلغونا نبأ الحكومة والسلطان والحرس الوطنى».

«ولكن المأمور (عمر بك وهبى شقيق الدكتور سليمان عزمى باشا) نفى كل ما أبلغ إلى المستر شبرد وقال إنه مدين للأعيان الذين عاونوه على حفظ الأمن والنظام فى البندر».

«وأصر مستر شبرد على اعتقال محام وشاب من الطلبة بتهمة التحريض على المظاهرات، وكلف معاون البوليس بالقبض عليهما، وفعلا قبض عليهما وتم ترحيلهما

إلى معسكر الاحتلال الرئيسى بالزقازيق، وبعد نحو شهر عادا فلم يتقدم أحد بالشهادة ضدهما، ولم يحكم عليهما كما حكم على كثيرين من أهالى مديرية الشرقية بتهمة قطع سكة الحديد».

«وقد لقيت عمر بك مرة فقال لى ضاحكًا: إنه سوف يدفع ثمن رفضه تقديم السلطان وأعضاء وزارته لقوة الاحتلال، فإن مستر شبرد، بعد أن فشل فى إرغامه على تقديم تقرير باتهام الأعيان والطلبة والعمال باغتصاب السلطة منه، قال له: أنت مأمور زى الزفت!!».

(٢٢)

ويقدم عريان يوسف سعد نموذجًا لتعامل القوة الإنجليزية مع الأهالى، وحرص هذه القوة على الاحتياط لأى ثغرة يمكن للوطنيين أن يستغلوها فى إشعال الثورة مرة أخرى:

«... احتلت القوة الإنجليزية مبانى محطة سكة الحديد، وجعلتها مقرًا للكولونيل قائد القوة، ونصبت القوة مدافعها الرشاشة فوق مبنى المحطة، ونصبت خيامها فى مكان السوق بجوار المحطة».

«ومنع الخروج من المدينة أو الدخول إليها بالعربات إلا بتصريح من قائد القوة، وكان لابد لأصحاب الأراضى الذين يقيمون فى ميت غمر من الحصول على تصريح من القائد».

«وقمت مع نفر منهم بدور المترجم عندما ذهبوا للحصول على تصريح منه، ودار بينى وبينهم الحوار الآتى:

«قلت له: صباح الخير».

«قال: نعم، ماذا تريد؟».

«وأشار إلى الأعيان الذين صحبتهم، وقال: وماذا يريد هؤلاء؟».

«وكان بينهم أبى رحمه الله».

«قلت: هؤلاء مزارعون يقيمون فى المدن، وأرضهم فى القرى المجاورة، ويطلب كل منهم تصريحًا لعربته (التى تجرها الخيول، فلم يكن فى الريف سيارات)».

«فقال: يستطيعون أن يصلوا إلى أرضهم على الجمال!».

«قلت له: إنهم كما ترى رجال تقدموا فى السن، ولم يركب أحدهم جملاً فى حياته، وليس فى خروجهم إلى مزارعهم بعرباتهم أى خطر على الأمن».

«ورفض أن يصدر لهم تصاريح، وعادوا وعدت معهم، ولكن هذا الحظر لم يستمر طويلاً، فتركت الحرية لمن شاء أن يخرج بعربة».

(٢٣)

ونتنقل مع عريان يوسف سعد إلى ما يرويه عن حوادث الاغتيالات التى قدر له أن يشترك فيها، أو أن يكون قريبًا منها.

ومن الملاحظ أنه حرص فى مذكراته على أن يركز حديثه على دوره الأشهر فى الاعتداء على يوسف وهبة، إلا أنه بدأ حديثه برواية ما يذكره عن محاولة اغتيال محمد سعيد باشا رئيس الوزراء، وعلى الرغم من أن حديث عريان يوسف سعد عن تفصيلات هذه المحاولة لا يقدم الأجواء ولا التفصيلات التى يقدمها حديث زميله سيد باشا فى مذكراته التى تناولناها فى الباب الثانى من هذا الكتاب، فإن تصوير عريان يوسف سعد لبطولة أحمد عبد الحى كيرة وسيد باشا وذكائهما وحسن تصرفهما يتفوق بكثير على وصف سيد باشا نفسه.

ونحن نلاحظ أن عريان يوسف ينسب إلى ذكاء أحمد عبد الحى كيرة الفضل فى النجاة من الكمين الذى أعده البوليس السياسى الذى كان قد أوشك على الإيقاع بالفدائيين، وهو ما لم يصرح به سيد باشا على هذا النحو، وإن كان قدم رواية أخرى ذكرنا تفصيلاتها فى الباب الثانى من هذا الكتاب:

«... فى مقهى كان يشغل مكان العمارة المجاورة لفندق سمير أميس، ويطل على كوبرى الخديو إسماعيل (كوبرى قصر النيل حاليًا) جلس شاب، وقد وضع بجانبه لفافة».

«وعلى مقربة منه جلس بعض الرجال يتشاغلون بالحديث، ولكن أعينهم لا تكاد تنحرف عن ذلك الشاب إلا لتلقى نظرة سريعة على الكوبرى والشارع المتصل به».

«ومع أن الوقت كان صباحًا، وهو وقت يسير فيه الناس سراعًا إلى عملهم، فقد كان على الكوبرى وعلى جانبى الشارع رجال يسيرون قليلاً ثم يقفون لا يكاد الواحد منهم يغادر مكانه حتى يعود إليه».

«ولم يكن ذلك كله يستوقف نظر الرجل العادى الذى لا يعنيه إلا أن يصل إلى المكان الذى يقصده، أو الرجل الذى خرج للتنزه والرياضة، ولكن عين الحذر الذى يهم بأمر عظيم لابد من أن تدرك أن وجود أولئك الرجال لم يكن مصادفة، وأنهم وضعوا هناك لأمر ذى بال. إنهم من البوليس الملكى».

«وطال جلوس الشاب فى المقهى حتى انتصفت الساعة العاشرة، ومرت سيارة يحرسها موتوسيكلان، وإذا الرجال الذين جلسوا حوله يحيطون به ثم يقبضون عليه ويتناول أحدهم اللفافة فى حذر ويخرج الجميع فيستقلون السيارات فلا يكادون يغادرون المقهى حتى ينصرف أولئك الذين كانوا يحومون على جانبى الطريق».

«حدث ذلك كله، ولكن أحدًا لم يدرك سره».

«وقُبض على زميل فى كلية الطب وأودع السجن، علمنا ذلك من زملائه فى السكن، ولكن الجرائد لم تشر إلى شىء من هذه الحوادث».

«ذلك الزميل هو المرحوم أحمد عبد الحى كيرة».

(٢٤)

وبعد هذا التقديم المشوق يقدم عريان يوسف سعد القصة على نحو ما يتصورها فيقول:

«وإليك تفصيل هذه القضية التى لم تتجاوز أدوار التحقيق، والتى عرفت باسم «مؤامرة قصر النيل».

«أما الشاب الذى قُبض عليه فى المقهى فقد أبلغ البوليس السرى أنه بالاشتراك مع أحمد عبد الحى كيرة طالب الطب، والسيد محمد باشا الطالب بالمعلمين العليا، قد اتفقوا على اغتيال محمد سعيد باشا رئيس مجلس الوزراء، وأنهم اتفقوا على اللقاء فى المقهى فى الساعة الثامنة والنصف حيث يرقبون الكوبرى، فإذا مرت السيارة ألقوا عليها القنبلة التى كانت فى اللفافة بجانبه».

«واتفق الشاب مع البوليس على أن يقبض عليه وعلى (زميليه) وهم متلبسون بالجريمة، على أن يعتبر شاهد ملك، واتفق فى نفس الوقت مع (زميليه) على الموعد».

«وكان المرحوم كيرة نافذ البصر، شديد الحرص، يفحص كل ما يحيط به فى دقة ندر أن تتوافر لأحد، وأقبل نحو المقهى فارتاب فى المخبرين الذين حدثتك عنهم، وأحس أن وجودهم ليس مصادفة، وكان كلما مر بواحد منهم رآه يحدق فيه النظر ثم يتبعه بنظره حتى يصل إلى المخبر الذى يليه، وهكذا، فسار على الكوبرى وكأنه يتنزه، وأفلت إلى منزله دون أن يذهب إلى الموعد على أن يؤجل التنفيذ إلى فرصة أخرى إن لم يكن لوجود أولئك المخبرين صلة به وبأصحابه».

«ولم يكن السيد محمد باشا أقل حذراً من كيرة، فقد ساوره الشك فلم يذهب إلى المقهى، وبالغ فى الحذر فلم يذهب لا إلى المدرسة، ولا إلى المنزل».

«فلما علم بالقبض على كيرة، اختفى فلم يظهر إلا فى روما حيث تابع دراسته وتابع العمل لقضية الوطن مع الطلبة المصريين فى أوروبا».

. . . .

(٢٥)

ربما كان من المهم هنا أن نشير إلى أن رواية عريان يوسف سعد قفزت على بعض الأحداث حتى وصلت إلى هروب سيد باشا إلى إيطاليا:

«وحاول الشاب صاحب اللفافة أن يثبت على كيرة تهمة الاتفاق الجنائى، وعلى رغم مساعدة البوليس وجهوده لم يقم دليل واحد على الجريمة، ذلك أن كيرة فى

حرصه الشديد لم يكن يلقى ذلك الشاب إلا منفردين ، بل إنه كان لا يمكّن البواب من رؤيته إذا ذهب إلى الشاب فى منزله ، فقد استشهد الشاب بالبواب على زيارة كيرة له ، لكن البواب لم (يستطع) أن يتعرف عليه ، وأنكر أنه رآه إطلاقًا ، مما يدل على أن وطنيته منعته من أن يشهد ضد الشاب» .

«وانتهى أمر هذه القضية إلى الحفظ ، وأفرج عن كيرة بعد سجن دام أربعة أشهر» .

«ولكن كشف هذه المؤامرة لم يحل دون أن يلقى طالب أزهرى على سعيد باشا قنبلة فى الإسكندرية لم تصبه بسوء وقبض عليه» .

(٢٦)

وننتقل مع عريان يوسف سعد إلى ما يرويه عن حقيقة الدور الذى لعبه هو نفسه فى محاولة اغتيال يوسف وهبة رئيس الوزراء ، وهو حريص على أن يحدثنا عن تفصيلات الحوار النفسى الذى عاشته نفسه حين قرر أن يكون هو نفسه بطل هذه العملية ، وهو يصل فى هذا التفكير إلى قراره بالحرص على أن يعترف بمشاركته فى الحادثة حتى يظهر مغزاها الحقيقى ، بالإضافة إلى الفائدة التى تتحقق من المحاولة نفسها :

« . . . وراجت (شائعة) : أن يوسف وهبة باشا (وهو الوزير القبطى فى وزارة محمد سعيد) سيؤلف الوزارة ، ولاحقتها (شائعة) أخرى أن البطريرك أرسل إليه وفدًا من أعيان الأقباط يرجوه ألا يقبل الوزارة فى ذلك الظرف العصيب حتى لا يكون قبوله تأليف الوزارة التى تستقبل لجنة ملنر على رغم إرادة الأمة سببًا فى سوء الظن بالأقباط ، وإيقاع الفرقة بين العنصرين» .

«ولاحقت (الشائعتين) ثالثة : أن يوسف باشا رفض مقابلة الوفد وألف الوزارة ، ثم صدر مرسوم تأليف الوزارة برياسة يوسف وهبة» .

«ووصلت لجنة ملنر وهاجت البلاد من جديد ، وقامت مظاهرات الاحتجاج ، وعقدت اجتماعات فى الأزهر والكنيسة الكبرى فى الدرب الواسع ، واستشهد خطيب بآية من القرآن : ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ⁽⁹⁾﴾ [يوسف : ٩].

«وخشى الناس أن يعتدى على يوسف وهبة باشا كما اعتدى على محمد سعيد باشا فيقال إن المعتدى عليه مسلم إن لم يقبض عليه، وإنه اعتداء الباعث عليه هو الدين، ومن ثم تشوه الحركة الوطنية، وتظهر فيها مسألة الأقلية والأكثرية، وهى بغية الاستعمار، ومحط أمله يتخذ من حماية الأقلية سببًا لبقائه وبقاء الاحتلال».

«حدثتنى نفسى: لقد جاء وقتك».

«ولكن الحديث مخيف كالمغارة الموحشة».

«إن البلاد قادمة على خطر محدق، هذا قبطى يرأس الوزارة والشعب ثائر، والتلغرافات تنهال كل يوم على رياسة الوزارة تطالب باستقالتها، والمظاهرات لا تنقطع تهتف بسقوطها».

«إذا دبر فرع من الفروع الاعتداء عليه وقعت الواقعة وقيل إن المسلمين اعتدوا على رئيس الوزارة لأنه قبطى».

«ولكن لو أننى أيضًا اعتديت عليه، وتمكنت من الهرب لما قيل غير ذلك، إذ لا يقوم دليل على أن المعتدى قبطى».

«إذاً لابد من أن أسلم نفسى بعد الاعتداء، حتى يعلم العالم أن المعتدى ليس من المسلمين».

«ولقيت صديقى ففاتحته فى الأمر وعرضت عليه حديث نفسى، فقال أمهلنى حتى الغد».

«وجاء فى غده يحدثنى عن خطورة الأمر، وكيف أن الموت فيه أمر محقق: إما فى أثناء الحادث على يد الحرس، وإما بحكم الإعدام الذى لاشك فيه».

«قلت: أكنا جادين حين انضممنا إلى هذه الجماعة؟ أم كنا هازلين؟ وإذا كان نطلب للوطن الحرية والاستقلال فما نيل الحرية ولا نيل الاستقلال بالأمر الهين السهل، ولو لم يكن الموت حائلاً بين المستعبدين والحرية، لما كان فى الدنيا مستعبد واحد».

«قال: تدبر الأمر وفكر فيه إلى غد».

«قلت: ما أنا بحاجة إلى تدبر وتفكير، فقد حزمت أمرى منذ أن بدأت الثورة على أن يكون سبيلى فيها سبيل مَنْ لا يعبأ بالحياة، فاذهب وانظر ما نستطيع أن نحصل عليه من سلاح وعد إلىّ غدا به أو بوعد بالحصول عليه فى أمد قريب!».

«قال صاحبى: أما لك فى الدنيا مأرب تبغى الحياة لتحقيقه؟».

«قلت: بلى لى مأرب فى أن أموت فى سبيل الحياة، حياة الوطن، وأنا ميت على كل حال إن لم أمت فى شرخ الشباب فأنا ميت حين تدركنى الشيخوخة، ولكن الوطن حى لن يموت، فيجب أن نعمل نحن الأموات على أن يحيا الوطن الذى لا يموت حياة كريمة. إن الوطن خالد، فلا يحق لنا أن نتركه يخلد فى القيود لكى نحتفظ بأرواحنا إلى حين».

«ذهبت إلى صاحبى فى الصباح فى منزله، وإذا به يقدم لى مسدسين وقنبلة من قنابل الجيش البريطانى اليدوية (ملز)، وهى صغيرة، كالكمثراة الصغيرة».

«كدت أطير من الفرح حين خلوت بصاحبى، ورأيت أنه حقًا متصل باليد السوداء، وأنها ليست كما خفت أن تكون غولاً لا وجود له».

«قلت له بعد أن أطلعنى على طريقة استعمال القنبلة: أليس لدى الجماعة نوع يصنع محليا أشد فتكا من هذه؟».

«قال: هناك نوع آخر لكنه أخطر على حامله، فهذه حتى لو سقطت على الأرض لا تنفجر مادام الحائل بين المفرقعات والكبسولة فى مكانه، وهو لا ينزع إلا عند الاستعمال، أما النوع الآخر فإنه إذا انقلب أو حتى إذا مال ميلاً شديداً انفجر بعد خمس ثوان، لذلك فإن حامل القنبلة عرضة للنسف إن زلت قدمه أو أساء وضعها».

«قلت: إن الأمر لا يحتمل التفكير فى السلامة، وهى مجازفة محققة النهاية، فلا بأس فى أن تبدأ مبكرة قليلاً، لا بأس فى أن تبدأ المجازفة من وقت حمل القنبلة بدل أن تبدأ وقت إلقائها!».

«لم يبق إلا أن نعرف منزل رئيس الوزراء، ومواعيد خروجه وعودته، والطريق التى يسير فيها ركبه، وجاء صاحبى بالعنوان، إنه يسكن فيلا فى شارع شواربى المتفرع من

قصر النيل، وإنه يخرج الساعة التاسعة، وإن السيارة تسير من شارع شواربى إلى شارع قصر النيل إلى ميدان سليمان باشا، فشارع سليمان باشا، فميدان قصر النيل (الخديو إسماعيل)، فشارع قصر العينى، فشارع الشيخ يوسف (مجلس النواب)، فرياسة الوزارة فى لاظوغلى».

(٢٧)

ونصل إلى التفصيلات التى يرويها عريان يوسف سعد عن واقعة الاعتداء على يوسف وهبة، وكيف قدر له أن يؤدى الدور الذى خطط له بذكاء وقوة، وكيف استعد لهذا الدور بتخطيط جيد، وبمعطف طويل، وكيف عالج جيب هذا المعطف بحيث يحافظ على وضع القنبلتين بلا انفجار، وكيف أجل إفطاره ليكون بمرأى من الناس فى مطعم رئيسى . . . :

« . . . قطعت الطريق بين الدار والوزارة، فوقع اختيارى على ميدان سليمان باشا، لأن قهوة «كافيه ريش» كانت حديقتها تحيط بجزء منه، وهى مكان محترم يستطيع الإنسان أن يجلس فيه وهو آمن، ولأن القادم من شارع قصر النيل يدور حول التمثال فيترك فرصة للتأهب».

«كان صاحبى يقطن منزلاً فى شارع ممتاز المتفرع من شارع السد البرانى فى حى السيدة زينب، واتفقنا على أن يأتينى بمسدسين وقنبلتين (أتسلمها) منه فى المنزل، ثم أخرج (بها) على أن نلتقى فى الميدان».

«أما أنا فأجلس فى حديقة القهوة أشرب الشاب كغيرى من الرواد، وأما هو فيلبس معطفًا قديمًا وجلبابًا وحذاء بغير جورب، ويجلس على أحد المقاعد التى كانت فى ذلك الوقت موضوعة حول التمثال، ووجهه لشارع قصر النيل، فإذا رأى السيارة قادمة وقف وانصرف، تلك هى الإشارة».

«اشتريت معطفًا واقيًا من المطر أستطيع أن أمد يدى من جيبه إلى جيب الجاكتة من فتحة مصنوعة لهذا الغرض، ووضعت المسدسين فى جيبى المعطف، ووضعت القنبلتين فى جيبى الجاكتة، ولكن الجيب كبير ولو تركت القنبلة فيه لانقلبت،

وانفجرت، وإذاً فلابد من أن يقسم الجيب إلى الثلثين والثلث، فالثلثان إذا وضعت القنبلة فيهما لم تمل يمنة ولا يسرة، واشتريت إبرة وخيطًا وتحايلت وصاحبى حتى فصلنا ثلثى الجيب عن بقيته».

. . . .

«وفى صبيحة يوم ١٤ ديسمبر بكرت بالذهاب إلى صديقى، فدعانى لتناول الفطور، فاعتذرت وقلت له سأفطر فى القهوة حتى يطمئن مَنْ قد يرانى من المخبرين إلى أنى من عباد الله المسالمين».

«ووضعت المسدس والقنبلتين كلاً فى مكانه، وخرجت بعد أن صافحت صديقى مودعا، فلما وصلت إلى ميدان السيدة زينب ركبت عربة سارت حتى «كافيه ريش» فنزلت وأجزلت للحوذى العطاء حتى لا يتلكأ، وما حاجتى إلى النقود؟!».

«وجلست وناديت الساقى وطلبت ساندوتشًا وشايًا، فلما أحضرهما نقدته الثمن وتركت الباقى له، فانحنى مرات لهذا الشاب الذى يدل عطاؤه، وإن لم يدل مظهره، على أنه من كبار الموسرين».

«وانتظرت وأنا أرقب صاحبى وهو جالس على المقعد، وكان من الرخام، وأرثى له لشدة البرد، ومرت التاسعة والنصف وإذا به ينهض وينصرف».

. . . .

«وأخذت القنبلة من جيبى وقلبتها وقذفتها نحو السيارة القادمة».

«وكان السائق أسرع منى فدار بالسيارة حول نفسها ووقف وقفة فجائية، واستقرت القنبلة بجانب العجلة الخلفية وانفجرت، وما كادت تنفجر حتى كانت القنبلة الثانية تنفجر فوق السيارة».

(٢٨)

ولا يبخس عريان يوسف سعد البوليس الملكى حقه فى الاعتراف بنجاحه فى إسراعه بالقبض عليه ومعالجته الموقف بطريقة سريعة وحاسمة:

«سقط الجنديان وموتوسيكلاهما، ونهضا لينضما إلى اثنين قفزا من السيارة وأحاط الجميع بى وكل منهم شاهر مسدسه على رأسى».

«وانضم إليهم رجل كان يجلس بجانب صاحبى، وهو الآخر يصوب مثلهم مسدسه إلىّ، لقد كان من البوليس الملكى، وقد جلس نصف ساعة يتحدث إلى عامل متعطل كان يجلس بجانبه ليستريح من الطواف يبحث عن عمل يرثى لحاجته وهو لا يعلم أنه غريمه، وأنه شريك فى الاعتداء على رئيس الوزارة الذى كان مكلفا بحمايته، وذلك بمراقبة هذا الجزء من الطريق الذى يمر به».

«وانضم إلى هؤلاء جميعًا ضابط أجنبى كان يجلس فى شرفة نادى «ريزوفو» الطليانى الذى كان مقابل «كافيه ريش»، فوضعت يدى خلف ظهرى ووقفت أنتظر».

«قال الضابط: معك إيه؟».

«قلت: مسدسان».

«قال: سلمهما».

«خطر لى خاطر كالبرق، إن أنا وضعت يدى فى جيبى وأخرجت المسدس ربما أطلقوا علىّ النار».

«قلت له: مد يدك وخذهما».

«مد الضابط يده فى جيبى فأخرج مسدسًا، ويده فى الجيب الآخر فأخرج المسدس الثانى».

«لم يستغرق ذلك كله نصف دقيقة».

«والتفت الضابط إلى المخبر الذى كان يجلس على المقعد، وانتهره، والرجل يتمتم معتذرًا يقول لا يكاد يستقيم، فأردت أن أعتذر عنه فقلت: وما الذى يدريه بأن شيئًا سيحدث؟!».

«قال الضابط: وأنت مالك أنت؟!».

«قلت: الحق علىّ.. أنت حر!».

«ودعا الضابط عربة ركبتها وجلس إلى يمينى، وجلس عسكرى البوليس المكلف بحراسة الميدان إلى يسارى».

«وقال الضابط: إذا حاولت الهرب سأطلق عليك الرصاص!».

«قلت: لا تخف! فما أنا بهارب، ولو شئت لحاولت الهرب قبل القبض علىّ».

«وسارت العربة إلى بيت الوزير فأحاط حرسها بنا فسألهم الضابط عن الوزير قالوا: إنه ذهب إلى الوزارة، فسارت العربة بنا إليها».

«كان الخبر قد سبقنا، فقد تجمهر حولنا كثيرون من بعيد ونزلنا من العربة، ودخلت وزارة المالية لأول مرة فى حياتى، وانضم إلى الضابط رجل مديد القامة اسمه على ما أذكر برناردو، وهو عملاق إيطالى من البوليس الملكى».

(٢٩)

ونأتى إلى اللقاء البارد فى عصفه الذى تم بين «القاتل» و«المقتول»! ونتأمل فى محاورة عريان يوسف سعد ليوسف وهبة باشا:

«... صعدنا سلم وزارة المالية الخشبى، وسرنا إلى غرفة مدير المكتب شريف بك صبرى (صاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا الآن)، فجلست، وبعد فترة وجيزة قيل إن الوزير يريد أن يرانى».

«قال الضابط: إذا بدرت منك أى حركة وأنت أمام الوزير قتلتك!».

«قلت: أى شىء تخاف الآن؟!».

«قال: لقد أنذرتك!».

«فدخلت قاعة الوزير، وإذا حوله رجال لاشك فى أنهم الوزراء جاءوا يهنئون رئيسهم بالسلامة».

«ابتدرنى الوزير بقوله:

«بتعمل كده ليه يا شاطر؟».

«يا سعادة الباشا أنت خرجت على الأمة، (ولم أكن أعلم أن رئيس الوزراء يخاطب بدولة الباشا)».

«قال: دلوقت يا سعادة الباشا، وفى الشارع كنت عاوز تقتلنى؟!».

«ألست باشا؟ إن أدب الحديث يقضى علىّ أن أخاطبك بلقبك ولست أتملقك!».

«قال: لم فعلت ذلك؟».

«لقد خرجت على الأمة بقبولك تشكيل الوزارة».

«قال: وكيف تحكم بخروجى على الأمة؟».

«أرسل لك البطريرك وفداً من أعيان الأقباط يطلب إليك ألا تؤلف الوزارة فأبيت مقابلة الوفد، وأرسلت لك كل الهيئات برقيات تطلب إليك التنحى فأبيت، وهذه المظاهرات والإضرابات كلها دليل على أن الأمة غير راضية عن تأليف وزارة بعد أن استقالت الوزارة السابقة احتجاجًا على قدوم لجنة ملنر».

«قال: وما يدريك أننى بقبولى الوزارة لا أعمل ما فيه مصلحة البلاد؟!».

«قلت: لقد ذكرت التلغرافات التى وردت من لندن أن رئيس وزراء إنجلترا أفضى بتصريح فى مجلس العموم عن مهمة لجنة ملنر، قال فيه إن الوزارة المصرية ستعمل على تحقيق الأمانى البريطانية فى مصر، والأمانى البريطانية فى مصر ليست هى الأمانى المصرية!».

«قال: وإذا لم أؤلف أنا الوزارة، أما كان غيرى يؤلفها؟!».

«قلت: كان يكون مصيره القتل مثلك!».

(٣٠)

ويروى عريان يوسف سعد فى بساطة شديدة ما يذكره من وقائع تفتيشه فى ذلك الوقت فيكشف لنا فى صراحة عن جزئيتين مهمتين هما: وقوعه فى الخطأ بنسيانه كشفًا بأسماء زملائه فى جيب بنطلونه، وعن تفكيره السابق فى الانتحار وترتيبه لهذه الخطوة:

«وأمر برناردو بتفتيشى فبدأ الرجل يفتش جيوبى، فأخرج النقود حوالى خمسة جنيهات، وأخرج من جيب البنطلون ورقة ما كاد يفتحها حتى بلل العرق جسمى كله، وكأنه لمح ارتباكى والعرق يتصبب منى فأيقن أنه وضع يده على أعضاء العصابة!».

«عدد الأسماء تسعة عشر اسمًا».

«قال: مَنْ هؤلاء؟».

«قلت: طلبة الطب المقيمون فى شبرا والفجالة والظاهر و(عناوينهم) حتى أدعوهم إذا فشل إضراب المدرسة».

«هز رأسه هزة المنتصر الفائز، لقد تألمت أشد الألم لأنى بإهمالى وإن كان سهوا أراده القدر سأسبب لهؤلاء الزملاء وأهليهم إزعاجًا لا مبرر له، إنهم ولاشك مقبوض عليهم، وستفتش منازلهم، ومَنْ يدرى؟ لعل أحدًا منهم يخفى فى منزله منشورات، وكانت ضالة البوليس المنشودة فى ذلك الوقت، أو سلاحًا فينسب إليه الاشتراك معى، وهيهات أن يبرئه إنكارى وإنكاره، وإن هؤلاء الزملاء سيصيبهم الأذى بسببى، ذلك ما صبب عرقى».

«واستمر برناردو فى تفتيشه فعثر على خزنة مسدس محشوة بالرصاص».

«ثم استمر حتى عثر فى ثنايا السترة على قرص سليمانى ناوله للحكمدار فقال: ما هذا؟».

«قال برناردو: إنه سليمانى».

«قال: لم تحتفظ بهذا؟!».

«قلت: فى ركبتى جرح، وذلك السليمانى أضعه فى الماء لأطهر به».

«والحق أننى كنت أخشى أن يعذبنى البوليس لأعترف، فقلت إن فعل ابتلعت هذا القرص فأريح وأستريح، وأمر الحكمدار بنقلى إلى قسم عابدين حيث ينتظرنى النائب العمومى محمد توفيق رفعت باشا للبدء فى التحقيق».

. . . .

يجدر بالذكر أن هذا النائب العمومى محمد توفيق رفعت (باشا) قد أصبح وزيراً بعد هذا وتولى وزارات عديدة فى وزارات عديدة، ثم عين عضواً فى مجمع اللغة العربية ورئيسا له.

(٣١)

وسرعان ما ينتقل عريان يوسف سعد من الحديث عن هذا الدور البطولى الذى أتمه إلى الحديث عن دور آخر لا يقل جسارة ولا بطولة، وهو دوره فى مواجهة السلطات نفسها بمعتقداته التى دفعته إلى القيام بهذا العمل الفدائى الذى قام به، وترينا رواية عريان يوسف لإجاباته فى أثناء التحقيق مدى ما كان يتمتع به من ذكاء وسرعة بديهة:

«جلس النائب العمومى إلى مكتب مأمور القسم، وجلس بجانبه كاتب التحقيق، وجلس إلى جانب المكتب رجلان لم أدر مَنْ هما».

«وشرع النائب العام فى التحقيق بعد أن أملى ديباجة المحضر، وأشار إلى حضور حضرة صاحب المعالى يحيى إبراهيم باشا وزير المعارف، وحضرة صاحب السعادة محمود فخرى باشا محافظ القاهرة».

«وبعد أن سجل اسمى وسنى وصناعتى وسكنى، انتقل إلى الموضوع:

«س: هل ألقيت على دولة رئيس الوزراء قنبلة؟».

«ج: بل قنبلتين».

«س: من أين حصلت على القنبلتين؟».

«ج: اشتريتهما من أجنبى».

«س: أين ذلك الأجنبى؟

«ج: . . . لقيته فى شارع فى الليل، فعرض علىّ مسدسات اشتريت منها اثنين، وعرض علىّ القنابل فاشتريت اثنتين وسار كل فى سبيله».

«س: أتعرفه إذا عرض عليك؟».

«ج، لا، فإن الظلام لم يمكنى من تعرف ملامحه، وكان يخفى شطراً من وجهه تحت قبعته».

«ومال فخرى باشا إلى النائب، فمال النائب إليه ومال إليهما يحيى باشا فتهامسوا بالفرنسية، ثم اعتدل النائب فى مكانه».

«س: ما لون شعر الأجنبى؟».

«هذه إذاً هى ثمرة المداولة، أرادوا أن يحصلوا منى على إجابة عاجلة تظهر كذب قولى ويترتب على ذلك فساد قصة الأجنبى».

«ج: كان الظلام حالكًا ومن المستحيل تبين لون الشعر، وفوق ذلك فقد كانت قبعة الرجل تكسو كل رأسه».

«وحبطت المؤامرة، وبعث فشلها فى نفسى شعوراً بالطمأنية إلى مقدرتى على مواجهة ذلك المحقق الذى كلل شيب التجارب هامته».

«وكانت نتيجة ذلك أن تشجعت ووجهت إليه سؤالا بدل أن يوجه إلىّ سؤاله التالى:

«قلت: هل يستمر التحقيق طويلاً؟».

«قال: طبعًا!».

«قلت: إذاً فليس من المعقول أن أظل واقفًا طوال اليوم، فليسمح لى الباشا بالجلوس».

«نظر إلىّ نظرة طويلة فاحصة، ثم أمر أحد الجنود بإحضار كرسى فجلست، ثم استمر التحقيق فى كيفية إلقاء القنبلة، فلما انتهيت من سرد القصة وجه إلىّ سؤالا فى سرعة خاطفة:»

«ـ مَنْ كان معك عند إلقاء القنبلة؟».

«ـ لا أحد».

«وكان الظهر قد فات بوقت غير قصير، ورأيت أن أدخل فى روع المحقق أننى غير مبال بما أنا فيه، فسألته:

«ـ ألا ينوى الباشا تناول طعام الغداء؟» .

«أنا لا أبالى بمواعيد الطعام، وأمامنا شىء كثير لابد من إنجازه» .

«قلت : إذاً فإنى أرجو أن تأذن لى بطعام، فإنى جائع» .

«وأرسل إلىّ نظرة فاحصة من جديد، وقال : أتشعر برغبة فى الطعام؟ نفسك مش مسدودة؟!» .

«قلت : وما الذى يسدها؟» .

«قال : هذه الجريمة الخطيرة» .

«قلت : وما صلة الجريمة بالجوع، والجوع كافر لا يؤمن إلا بالطعام» .

«قال : فماذا تريد أن تأكل؟» .

«قلت : أشياء خفيفة كالجبن والزيتون» .

«وأمر الباشا بانتقال التحقيق إلى نيابة الاستئناف، وأن يؤتى لى بما أريد من طعام على أن يلحق بنا بعد قليل» .

(٢٣)

ويروى عريان يوسف سعد كيف أمكن له بذكائه أن يحصل على موافقة النيابة على أمر مبيته على نحو لائق بدلاً من أن يوضع فى التخشيبة وعذابها، وكيف نجح فى أن يتم هذا الترتيب فى أثناء إجراء التحقيق معه حين تستهدف سلطات التحقيق الحصول على بعض ما يفيدها، وقبل أن يصبح مجرد إنسان غير مرغوب فى الحصول منه على شىء :

« . . . وأقبل المساء ووابل الأسئلة لا ينقطع، ورأيت أن أحتاط للمبيت حتى لا أقضى الليلة فى التخشيبة، وبرد الليل فى ديسمبر شىء آخر غير برد الليل فى مارس، فقاطعت الباشا متسائلاً :

«أنا طبعًا لن أبيت فى غرفتى الخاصة التى أقطنها؟» .

«قال : هذا ليس بحاجة إلى سؤال» .

«قلت: وإذاً فلابد لى من مكان أبيت فيه غير التخشيبة، إلا إذا أمرتم بإحضار سريرى وفراشى ووضعهما فيها».

«قال: هذا غير معقول، ولكن فى سجن الاستئناف أسرّة وفراش بأجر إن كانت لك فى السجن نقود».

«قلت: لقد صودر منى نحو خمسة جنيهات، فأرجو إرسالها للسجن على أن يعد لى الفراش، فإننى لا أريد أن أبيت على الأسفلت».

«وأصدر الباشا لأحد الضباط الذين وضعوا تحت تصرف النيابة فى أثناء التحقيق أمره أن يخابر السجن لإجراء اللازم».

«وعاد الضابط بعد قليل يقول: إن أوامر مصلحة السجون تقضى بألا يفتح السجن ليلاً إلا بحضور المأمور، وأن مَنْ يرسلون إلى السجن ليلاً يقضون ليلتهم الأولى دائمًا فى التخشيبة حتى إذا أصبح الصبح أرسلوا إلى السجن».

«ورأيت الباشا لا يهتم بالأمر ويقول: س. . .».

«إنه يوجه سؤالاً جديدًا، وخرج الضابط من الغرفة».

«قلت: قبل السين والجيم أريد أن أطمئن إلى مبيت».

«قال: لا تضيع الوقت فإن أمامنا تحقيقًا طويلاً».

«ورأيت أن الجو بدأ يكفهر بينى وبين النيابة، ولولا سابق خبرتى بالتخشيبة وشرها لآثرت ألا أثير جدلاً، ولكنى قلت فى نفسى: أنا الغريق فما خوفى من البلل؟!».

«قال الباشا: س. . .».

«قلت: أرجو ألا توجه إلىّ بعد الآن سؤالاً فإنى لن أجيب!».

«قال: لماذا لا تجيب؟ لابد من أن تجيب حتى يتم التحقيق».

«قلت: أنا لا يهمنى أن يقف التحقيق أو يتقدم! وما إجابتى عن هذه الأسئلة كلها إلا خدمة لسعادتكم حتى تؤدوا واجبكم، فإذا لم أر فيكم استعدادًا طيبًا لتوفير أسباب الراحة فى الأيام القليلة الباقية لى على قيد الحياة فإنى أجد نفسى فى حل من عرقلة

عملكم، وامتناعى عن الإجابة معناه أن التحقيق فى هذه القضية قد أوقف، ولا أظنكم ترضون عن هذا».

«قال: ولكنك ملزم بالإجابة».

«قلت: ما أنا بموظف من موظفى النيابة فأجيب عن أسئلتها لقاء ما أقبض من أجر، ولا إلزام علىّ، ولست أنتظر من التحقيق أن يسفر عن براءة، فإنى معترف بإلقاء القنابل، فإذا لم تجب النيابة طلبى فلن أجيب لها عن سؤال».

«وكان النائب العام رجلاً دمث الخلق، فلم يثره هذا التحدى، واستدعى الضابط من جديد وقال له: أبلغ المأمور بأمرنا أن يفتح السجن الليلة عقب انتهاء التحقيق، وأن يعد للمتهم غرفة وسريرًا على حسابه».

«وعادت المياه إلى مجاريها، وعاد إلى السؤال عن أفراد العصابة يحوم حول الموضوع بأسئلة بارعة أجيب عنها بأجوبة متواضعة، ولكن لا مأخذ عليها».

(٣٣)

وعلى نمط ما فعل عريان يوسف سعد من قبل حين رتب أمر مبيته، فقد كان من الذكاء بحيث رتب أمر عشائه أيضًا:

«وعند الساعة الثامنة قلت للباشا: ألا تتناول طعام العشاء؟».

«قال: ومالك ولهذا؟».

«قلت: إذاً فاسمح لى بتناول الطعام، وأرجو أن تكلف أحدًا بإحضاره».

«فأمر بإحضار الطعام لحمًا، وخضارًا، وأرزًا كما طلبت منه».

«وبعد العشاء عاد إلى أسئلته وأنا أجيب عنها لا أمتنع ولا أجيب إجابة تغضبه حتى انتصفت الساعة الحادية عشرة، وكأنما يريد أن يستمر فى التحقيق إلى الصباح، قلت للباشا: أظن أن التحقيق لن ينتهى الليلة، ولابد من استئنافه غدًا».

«قال: طبعًا».

«قلت: وإذاً فمن الخير أن تستريح استعداداً للغد».

«قال: أنا لست متعبًا».

«قلت: أما أنا فقد تعبت، وأشعر بحاجة شديدة إلى النوم، وأرجو أن يقف التحقيق عند هذا الحد».

«ورضى الباشا، أمر بأن أرسل إلى السجن، على أن أحضر فى الغد فى الثامنة صباحًا».

«وحييته وانصرفت، أو بعبارة أدق انصرف بى الحرس، وخرجنا من نيابة الاستئناف إلى ميدان باب الخلق إلى المحافظة، فلما طرقنا باب السجن قال الحارس من الداخل: أخبروا المأمور ليحضر فإنه فى انتظار السجين».

«وجلست فى غرفة الضابط النوبتجى حتى جاء المأمور وكان إنجليزيًا».

«وفتح السجن وأعاد الحارس تفتيشى، ثم فتح المأمور باب العنبر بنفسه، وصعد إلى غرفة فى الطابق الثانى وفتح فيه بابًا دخلته وأقفل الباب خلفى».

. . . .

«وجاء الحرس يطلبنى للذهاب إلى النيابة، ولكن قبل أن أصحبهم أخذت إلى غرفة المكتب لإجراء اللازم، واللازم هو كتابة اسمى وأعطانى رقمًا كغيرى من المسجونين، وكان ذلك الرقم ٢٠٠».

(٣٤)

وفى ذكاء شديد ينتبه عريان يوسف سعد إلى أن ينبهنا إلى حقيقة مشاعره حين اكتشف أن السجانين وموظفى السجن الذى بات فيه ليلة فى أثناء التحقيق، كانوا مقدرين للدور الذى أداه، وأنهم كانوا يصفونه بالبطولة والفداء والشجاعة والإقدام، بل إن هذا يدفعه إلى الرضا عن النفس، وعما أدته من واجب، ونحن نرى مثل هذا التعبير يتكرر فيما بعد حين عند حديثه عن انطباعات النائب العام والوزراء أيضًا:

«وكان لقاء الموظفين لى مثيراً للشعور، باعثًا فى النفس الشجاعة!».

«أسندوا إلىّ البطولة والفداء، وأسندوا إلىّ الشجاعة والإقدام، فأخجلنى ثناؤهم، أنا شاب عادى وما كان أحد ليوجه إلىّ شيئا من هذا المديح أو يصفنى بهذه الصفات حتى صباح الأمس، وأنا اليوم أنا، لم يهبط عليه من السماء شىء يرفعنى إلى حيث يرفعنى ثناؤهم، ولكن شيئًا واحدًا أخذته من ذلك المديح هو أن الشعب قد رضى عن اعتدائى، وآية ذلك الباشسجان والسجان، وهما من (أدنى) الطبقات، والموظفون ووكيل السجن وهم من الطبقة المتوسطة، وماذا يعنينى بعد هاتين الطبقتين؟ إنهم الأمة المصرية كلها».

«ومع ذلك فإن الطبقة العليا هى الأخرى على ما يبدو غير غاضبة، فالنائب العام والوزراء الذين رأيتهم لم تبدر من واحد منهم كلمة قاسية، إنهم لم يظهروا لى ما أظهر الآخرون من تقدير وإعجاب، ولكنهم لم يظهروا اشمئزازا ولا استنكارا!!».

(٣٥)

ويقدم عريان يوسف سعد صورة بديعة للحوار الذكى الذى قاده مع النائب العام نفسه حين حاول ذلك الرجل القانونى الضليع أن يوقع به، وأن يدفعه إلى التصريح بأسماء أى ممن شاركوه فى هذه العملية الفدائية:

«. . . وكان أول ما سألنى النائب العام إن كنت قد استطعت النوم؟».

«فقلت له: إنى نعمت بالنوم».

«ـ لابد لك من زملاء ساعدوك فى ارتكاب هذا الجرم؟».

«فأقول له: أما أن ما فعلت يُعد جرمًا فلا أوافق عليه، ولابد من تصفية هذه النقطة قبل البحث عن أمر الزملاء».

«فيقول: إنها جريمة من غير شك».

«وأستحلفه بشرفه: ألم يسره نبأ الحادث كمواطن مصرى؟!».

«فيخفى الرجل ابتسامة خلف تجهم وعبوسة، كانت عيناه تحدثان عينى بأنهما كليهما مصطنعان!».

«فقال: أنا لا أسمح لك بتوجيه أسئلة إلىّ!».

«قلت: اتفقنا إذاً مادام كل ما تحتج عليه هو توجيه الأسئلة، وما دمت لم تنف الواقعة موضوع السؤال، وهذا رأيى وظنى بل وعقيدتى، فالنائب العام مصرى قبل أن يكون كبير رجال النيابة، والآن أجيبك عن مسألة الزملاء:

«ج: لا، ليس لى شركاء».

«س: إنه من غير المعقول أن تقوم بجرم خطير كهذا بمفردك، وهذا عمل يحتاج إلى كثيرين».

«ج: أما حاجة العمل إلى كثيرين فمردود بأن من الناس مَنْ هو واحد بألف، وإذاً فمنهم واحد بكثيرين، أى ببضعة أفراد لا بمائة ولا بألف، فلم لا أكون هذا الواحد من زملائى؟!».

(٣٦)

وحين يحاول النائب العام الذكى الأريب أن يوقع عريان يوسف سعد بطريقة ذكية فإن عريان يتمكن من مراوغته بدهاء شديد، وربما تدفعنا خبرتنا بتحليل النصوص إلى الظن بأن عريان يوسف سعد أورد هذا الجزء من مذكراته لنفى أمر شاع عن وقوعه فى شبهة توريط بعض زملائه، أو لنفى اعترافه على بعض هؤلاء، وأيا ما كان الأمر فإن الرواية ترينا صلابة موقف الشبان الوطنيين الفدائيين:

«س: لا يعقل ألا تكون قد فاتحت أحدًا بعزمك على اغتيال رئيس الوزراء!».

«ج: إن لك كل الحق فى هذا القول، وقد فاتحت ثلاثة واحدًا بعد واحد فسألت كلاً منهم إن كان يستطيع أن يقتل رجلاً، فلما أبوا جميعًا أن يحمل أحدهم على نفسه وزر القتل انصرفت عن مفاتحة الزملاء، وحزمت أمرى وتوكلت على الله وقمت بالعمل بمفردى».

«تهلل وجه النائب العام، وأبشر وأظهر البشر على قسماته».

«قال: مَنْ أول مَنْ فاتحت من الزملاء؟».

«قلت: أود أن أذكر لك أولا أننى عرضت الأمر على كل منهم بما لا يشعره بأن هناك جرمًا أو اعتداء على أحد، وإنى أقرر هذا منذ الآن حتى لا تزعج هؤلاء الثلاثة فى غير موجب، وهم أصدقاء أعزاء وأبرياء أمام القانون».

«قال: مَنْ هم؟»

«قلت: فلانًا وفلانًا وفلانًا».

«ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى كان أولئك الثلاثة قد قبض عليهم وجىء بهم إلى النيابة، فأمر النائب العام بإخراجى وإحضار أولهم».

«وبعد قليل دعيت فقال الباشا: إن زميلك ينكر أنك عرضت عليه شيئًا».

«قلت: أريد أن أعرف السؤال الذى وجهته إليه».

«قال: لقد سألته فأنكر».

«قلت: نعم أنكر، ولكن ماذا؟ لعلك سألته إن كنت أنا عرضت عليه قتل رئيس الوزراء، وهذا لم يحصل وله أن ينكر، ولو أنك سألته عما قلته أنا لك وكيف فاتحته فى الأمر لتذكر».

«قلت للزميل: أتذكر اجتماع المشرحة حين خرجنا مضربين؟».

«قال: أذكر».

«قلت: أتذكر أننا سرنا معا حتى وقفنا أمام بوابة السكة الحديد التى تعترض شارع مدرسة الطب، وأننى سألتك إن كنت تستطيع إذا كان معك مسدس أن تقتل به رجلاً فأجبت بالسلب؟».

«قال الشاب: نعم هذا حصل».

«قلت للباشا: ذلك ما قلته لك، ولعلك أضفت إليه من عندك شيئًا أنكره».

«وجاء كل من الاثنين الآخرين فحدث معهما مثلما حدث مع صاحبهما».

«وخرج الثلاثة وبقيت أمام النائب العام وجهًا لوجه، وقلت له: «لقد حاولت أن أجد زملاء فلم أجد، فلا حيلة لى إذاً إذا قمت بالعمل وحدى».

(٣٧)

وينفرد عريان يوسف سعد برواية أن النائب العام محمد توفيق رفعت باشا عبر له عن عطفه عليه بعد أن وجه له التهمة، وكذلك فعل كل من مساعد النائب العام، وكاتب التحقيق، ولا يفوت عريان يوسف سعد أن يشير إلى أن تحية كاتب التحقيق كانت أعظم وقعًا فى نفسه من تحية الرجلين الكبيرين صاحبى المنصبين العظيمين:

«ومضت عشرة أيام سلك النائب العام ومساعده مصطفى بك حنفى (وكيل وزارة العدل فيما بعد) كل سبيل يؤدى إلى العثور على شركاء، فلم يجدا سبيلاً يصل بهما إلى غايتهما».

«وانتهى التحقيق ووجه إلىّ النائب العام التهمة:

«ـ أنت متهم بالشروع فى قتل حضرة صاحب الدولة يوسف وهبة باشا رئيس مجلس الوزراء عمداً مع سبق الإصرار والترصد، بإلقاء قنبلتين على سيارته، فما قولك فى هذه التهمة؟».

«ـ إنها تهمة كل ما فيها صحيح!».

«وأقفل التحقيق».

«وهنا اختفى النائب العام وحل محله المصرى الوالد، وقف محمد توفيق رفعت باشا ومد يده إلىّ مصافحًا فصافحته:

«ـ إنى أسأل الله لك السلامة يابنى!».

«ووقف مصطفى حنفى بك ومد يده وصافحنى وكرر تمنيات الباشا».

«ووقف كاتب التحقيق ونظر إلى النائب العام كأنما يطلب إليه منحة، وقال: أستأذن سعادة الباشا فى أن أحييه أنا أيضًا!».

«ومددت إليه يدى فحييته وشددت على يده، وشكرته، لقد كانت تحية أوقع فى نفسى من تحيتى العظيمين».

«إنه كان مجازفًا، فربما أغضب عمله النائب العام، وإذا غضب عليه فأقل أثر للغضب أن ينقله إلى أقصى البلاد».

«وشكرت النائب العام، واعتذرت عما يكون قد بدر منى من ألفاظ ما كان يصح أن تبدر من شاب فى العشرين لشيخ وقور، لولا أن الأمر كان صراعًا بين محقق ومتهم».

(٣٨)

ولا يبخل علينا عريان يوسف سعد بتصوير دور أسرته فى محاولة إنقاذ رقبته وحياته بكل ما هو ممكن من وسائل الدفاع، حتى إن والده حرص على أن يوكل للدفاع عنه محاميًا إنجليزيًا كانت أتعابه باهظة:

«وعدت إلى السجن لأعلم بعد بضعة أيام أن السلطة العسكرية البريطانية قد طلبت أوراق القضية، وأن النيابة أرسلتها إليها، وأننى سأحاكم بمحكمة عسكرية بريطانية عليا، أخطرت بأسماء أعضائها بكتاب أُسأل فيه إن كنت أرد أحدًا من القضاة».

«ولم أرد أحدا لأنهم ضباط كبار فى الجيش البريطانى لم أسمع باسم واحد منهم حتى أقوم بالرد».

«حدد يوم الجمعة ١٦ من يناير ١٩٢٠ للمحاكمة فى سراى وزارة الحقانية، لا فى المحكمة، ولست أدرى الحكمة فى اختيار وزارة العدل لإجراء المحاكمة فيها، ولم يمض يوم على إعلانى بتشكيل المحكمة حتى استدعيت لمقابلة شقيقى الذى حضر لزيارتى».

«أُخذت إلى مكان الزيارة، فرأيت مكانًا عجبًا يقف السجين فى ناحية، وزائره فى الناحية الأخرى، وبينهما حاجزان حديديان فلا يستطيع أحدهما أن تصل يده إلى الآخر».

«حييت أخى ورد التحية، ثم قال: إن أبى قد اتفق مع المستر سيلى المحامى الإنجليزى على الدفاع عنى أمام المحكمة العسكرية البريطانية».

«قلت: أما هذا فمما لا يمكن أبدًا أن أقبله، إذ كيف يدافع عنى محام إنجليزى؟ وكيف أركن أنا إلى دفاعه والخصومة بين المصريين والإنجليز قد بلغت حد إطلاق الرصاص من الجانبين؟».

«قال أخى: إن المحامى يدافع عن موكله بغض النظر عن الجنسية والسياسة، نظير أتعابه، وسيأخذ فى مقابل دفاعه أربعمائة من الجنيهات، ثم إن وهيب دوس بك المحامى قد تطوع للاشتراك معه فى الدفاع عنك».

«قلت: وهذا سبب آخر يحملنى على رفض دفاعه عنى، ولابد من استرداد المبلغ منه، والقضية ليست بحاجة إلى دفاع، وأنا معترف بإلقاء القنابل، ثم إن هذا المبلغ لا أقبل أن أكون سببًا فى خسارته، وعلى ذلك فأنا لا أقبل دفاعًا».

«قال أخى: إن أباك يعتقد أن نجاتك لن تكون إلا على يدى هذا المحامى، فهو كبير المحامين الإنجليز فى مصر، ولابد من أن تقبل دفاعه عنك إرضاء لأبيك، ودفعًا للوساوس عنه».

(٣٩)

وهو يتحدث بتواضع شديد عن عقليته التى أدارت حواره مع المحامين الإنجليزى والمصرى:

«وفى اليوم التالى دعيت لمقابلة المحامى، فلما لقيته وجدت معه شابا مصريا قدم لى نفسه: وهيب دوس المحامى، وقدم لى المستر سيلى، وبعد تبادل التحية بدأ المستر سيلى يسألنى عن ظروف الحادث، فشرحتها له فى إيجاز».

«قال: أريد أن أعرف زملاءك».

«قلت: ليس لى زملاء».

«قال: أنا محاميك ومن صالحك أن تذكر لى كل شىء، وأن تبوح لى بكل شىء حتى أستطيع الدفاع عنك».

«قلت: ليس لدى ما أقوله أكثر مما ثبت فى محاضر التحقيق، فإذا لم تجد فيه مادة للدفاع فإنى آسف».

«وتدخل وهيب بك فذكر لزميله أن المهم هو العدول عن الاعتراف بنية القتل، وأن نثبت أن الموضوع كله لم يقصد به إلا الإرهاب».

«وعدت إلى الاعتراض، لقد قصدت القتل لا الإرهاب، ولن أرجع عما قلته فى هذا الصدد».

«وقال المحامى: إنه لا سبيل له إلى الدفاع إلا إذا قلت للمحكمة إننى قصدت الإرهاب لا القتل ولا الشروع فيه».

«وتدخل وهيب بك مرة أخرى فأقنعنى بأن الحادثة قد وقعت، وأنها سجلت المعنى المقصود منها، وهو أن قبطيًا خرج على إجماع الأمة، وشكل الوزارة فانبرى له قبطى فألقى عليه القنابل، ولا جناح عليك أن تقول إنك قصدت الإرهاب لا القتل».

«واقتنعت بقوله فقلت: إذاً فسأقرر فى المحكمة أن نيتى كانت الإرهاب لا القتل».

«قال المستر سيلى: ولكنك قلت فى التحقيق إنك كنت تريد القتل، وقلت لرئيس الوزراء أمام الوزراء إنك قصدت القتل».

«قلت: دع لى هذا فسأقرر أن إتمام الإرهاب استوجب أن أقرر عند القبض علىّ أننى قصدت القتل، وأن أقول ذلك فى التحقيق حتى لا يذهب أثر القنابل، أما وقد انتهينا إلى ساحة القضاء فلابد من تقرير الواقع».

«قال: اذكر لنا شاهداً يشهد لك بحسن السيرة».

«فقلت: سأفكر فى شاهد وأبلغك اسمه عن طريق إدارة السجن».

(٤٠)

وعلى القدر نفسه من الدقة المتناهية، والصدق الفنى فى وصف الأحداث يتحدث عريان يوسف سعد عن وقائع يوم محاكمته، وما شهدته هذه المحاكمة من ثباته،

وذكائه، وحسن تصرفه، وقدرته على رسم صورة تحتفظ له بالبطولة العالية حتى إن ساعدت أيضًا على التخفيف عنه:

« . . . وجاء يوم المحاكمة وأقبل فى الصباح ثلاثة من الجنود الإنجليز فوقعوا إيصالاً باستلامى من السجن، وانطلقت بى وبهم عربة السجن يتبعها لورى فيه عدد كبير من الجنود الإنجليز بسلاحهم حتى انتهينا إلى سراى وزارة العدل، وفى ردهة فى الطابق الثانى وجدت صفوفًا من الكراسى أعدت لِمَنْ يشهدون المحاكمة، ووجدت منضدة صفت خلفها كراسى أعضاء المحكمة بثيابهم العسكرية، وقد جلس فى وسطهم رجل يرتدى روبا أسود وعلى رأسه شعر أبيض مستعار. . . إنه قاض إنجليزى».

«وجلس فى الصف الأول من الكراسى المعدة للنظارة المدعى العمومى المستر ماكسويل، وقد وضع على رأسه شعرًا مستعارًا كالذى وضعه القاضى، وكذلك وضع المحامى المستر سيلى ذلك الشعر المستعار. إنه تقليد متبع فى المحاكم الإنجليزية».

«وتلا رئيس المحكمة الأمر الذى صدر بتشكيل المحكمة، وأقسم هو والأعضاء اليمين، ثم دعى المترجم فأقسم اليمين، ونوديت أنا ووجهت إلىّ تهمة الشروع فى القتل، وسُئلت إن كنت جانيا أم لا؟».

«ويترتب على الإجابة إن كانت بالسلب أن يعتبر المتهم شاهدًا، ويقسم اليمين، فإن أجاب بالإيجاب اعتبر متهما ولم يقسم».

«قلت: لم أشرع فى القتل».

«قال الرئيس: أجب بنعم أو لا».

«قلت: لا».

«وأقسمت اليمين أن أقول الحق كل الحق، ولا شىء غير الحق».

(٤١)

وهو يتحدث بفخرٍ خفى عن ثباته فى أثناء محاورة النيابة لرئيس الوزراء:

«وبدأت المحكمة فى استعراض الشهود وسماع أقوالهم، فدعى رئيس الوزراء وأقسم اليمين وشهد قائلاً:

«إنه ركب سيارته كالمعتاد، فلما وصل إلى ميدان سليمان باشا وقفت السيارة وسمع دوىّ انفجار، ثم وجد نفسه أمام المنزل، فأمر السائق بالسير إلى الوزارة، وبعد قليل قيل له إن الذى ألقى القنابل عليه قد اعتقل، فطلب رؤيته، فلما رآه سأله إن كان ألقى القنابل، فاعترف».

«قالت المحكمة: هل لو رأيته تعرفه؟».

«قال: نعم».

«وأشار إلىّ».

«وسأله المحامى: أتعرف المتهم من قبل الحادث؟».

«قال: لا».

«س: هل بينك وبينه ما يدعوه للاعتداء عليك؟».

«قال: لا».

«س: هل تعتقد أن الدافع له على إلقاء القنابل عليك قبولك تشكيل الوزارة؟».

«ج: نعم».

«س: هل طلب إليك البطريرك الاعتذار عن تأليف الوزارة؟».

«المحكمة لا توافق على تقديم السؤال».

«وانصرف الشاهد الأول».

«ودعى الشاهد الثانى. . اليوزباشى سليم أفندى زكى (ابن زينهم باشا زكى حكمدار القاهرة)».

«وأقسم الشاهد اليمين وروى القصة، وأضاف إليها أنه صوب إلىّ مسدسًا فأخافنى فقبض علىّ».

(٤٢)

وتنتقل المحكمة بعريان يوسف سعد إلى مرحلة الاستجواب أمامها عن الوقائع التى وردت فى ادعاء النيابة :

« . . . وبدأ استجوابى» .

«ـ أألقيت القنابل؟» .

«ـ نعم» .

«ـ ولماذا ألقيتها؟» .

«ـ لأرهب رئيس الوزراء فيستقيل ، لأن الأمة غير راضية عن تشكيله وزارة تقابل لجنة ملنر ، والأقباط بصفة خاصة يسىء إلى مركزهم كوطنيين مصريين أن يكون الخارج على الإجماع منهم ، ولذلك فقد أرسل البطريرك وفدًا من أعيان الأقباط ليقابل يوسف وهبة باشا قبل أن يشكل الوزارة ليثنيه عن عزمه على تأليفها ، فأبى مقابلة الوفد» .

«وبدأ المدعى (النائب العمومى الإنجليزى) يوجه الأسئلة :

«س : أثبت التحليل أن القنبلتين كانتا تحتويان على مادة من أشد المواد انفجاراً ، فهل بمثل هذه القنابل الخطرة أردت الإرهاب لا القتل؟» .

«ج : لم تكن القنابل من الخطر بالدرجة التى تصفها ، وعلى كل حال فإنها لم تحدث ضررا على الإطلاق» .

«س : لو أنك تريد التهديد دون القتل إذاً لانتزعت الرصاص من طلقات المسدسين ، وأطلقت الطلقات الخلو من الرصاص» .

«أتظن أن رئيس الحكومة تخيفه طلقات مسدس فارغة لا يزيد صوتها على فرقعة الموتوسيكلين اللذين يسيران خلف سيارته؟» .

«وضحك الحاضرون ، وضحك أعضاء المحكمة» .

«الرئيس جادًا : لا أسمح لك بالرد بهذه الطريقة التهكمية» .

«المدعى : هناك نوع من القنابل . . . يحدث انفجاره دويًا ولا شظايا له، فلماذا لم تستعمل قنابل من هذا النوع إن كنت حقيقة تريد الإرهاب لا القتل؟».

«ج: لم أنل شرف التعرف إليك قبل الحادث، ولم أكن أعلم بوجود هذا النوع من القنابل، وإلا لسألتك عنها وأين تباع، واستعملتها».

«وهنا ضحك الحضور وضحك أعضاء المحكمة، وضحك مستر سيلى، وكان ضخم الجثة، فلما اهتز بطنه من كثرة الضحك أضحك اهتزازه المحكمة من جديد».

(٤٣)

ويحدثنا عريان يوسف سعد عن ذكائه فى اختيار الشاهد الإنجليزى الذى شهد له بحسن الأخلاق:

«وجاء شاهد الأخلاق، وهو الشاهد الوحيد فى صفى، وإن كان لا يمكن أن يطلق عليه شاهد نفى، وكان مدرسًا إنجليزيًا فى مدرسة رأس التين الثانوية اخترته لأنه كان رجلاً شديدًا فى المحافظة على النظام، قاسيًا فى توقيع العقوبة حيثما وجد إلى توقيعها سبيلا من إهمال للدرس، أو خروج على النظام».

«وكانت مهمة اختيار شاهد يشهد لى بحسن الخلق مهمة شاقة، لأن اختيار أحد ممن يمتون لى بصلة القرابة لا يجدى لأن شهادته تكون شهادة مغرضة، واختيار أحد المدرسين المصريين معناه وضع مَنْ أختاره فى موقف حرج، فإن شهادته بحسن خلقى ربما أغضبت عليه أولى الحل والعقد، فلم أجد مخرجا من هذا المأزق إلا باختيار مستر بروكسبانك مدرس اللغة الإنجليزية بمدرسة رأس التين الثانوية، وهو على ما وصفته من شدة وصرامة، كانت لى معه أيام الدراسة صلة جعلتنى أظن أنه لن يكون قد نسيها فى مدى عام وبعض عام».

«وكانت صلتى به أننى تزعمت إضرابًا عن دراسة المقرر فى الأدب الإنجليزى، وكان الإضراب موجهًا إلى طريقته فى التدريس، ولجأنا إلى الناظر، وكان ـ رحمه الله ـ قاسيًا على الطلاب، شديدًا فى معاملته للخارج على النظام مهما كان خروجه طفيفًا، إلا أن يكون له ما يبرره من مصلحة واضحة».

«وانتهت الشكوى والإضراب بأن عادت المياه إلى مجاريها بتغيير المدرس لخطته بعض التغيير، وتوليت أنا الإصلاح بين الطلبة والمدرس».

«دخل مستر بروكسبانك قاعة المحكمة فحياني بإحناء الرأس، ورددت تحيته بالوقوف».

«وأدلى بشهادته:»

«س: هل تعرف عريان سعد؟

«ج: نعم».

«س: هل تستطيع أن تذكر لنا ما تعرفه عن خلقه؟».

«ج: خلق حسن».

«فسأله المدعى: كيف تذكره وأنت مدرس يمر بك كل عام مئات التلاميذ؟!».

«ج: أذكره لأنه كان أول الفرقة (والواقع أننى كنت الثانى لا الأول)».

«س (من المدعى): وكيف تحكم بأن خلقه حسن؟».

«ج: هكذا اعتقادى».

(٤٤)

ويلخص عريان يوسف سعد جوهر الاتهام الذى وجهه له مدعى الأحكام على نحو أمين:

«وترافع مدعى الأحكام فوصمنى بكل سيئة، من الصفات، وأظهرنى للمحكمة غولاً خطراً على الإنسانية يلتهم أجزاءها فى غير تورع، وطالب برأسى حتى يثأر للإنسانية التى اعتديت عليها، وحتى يهدأ روع البرىء الذى حاولت اغتياله، والبرىء الذى لم أحاول بعد اغتياله، وحذر المحكمة من عواقب الأمور إن أخذتها بى رأفة أو شفقة، وأظهر لها فى كثير من الفصاحة مدى انتشار الإجرام، وتهديده لبلاد، لا فى مصر وحدها، ولكن فى العالم أجمع، إن أنا نجوت من الموت الذى أستحقه بعدل،

وأن الجريمة ستنبت فى غير وعى لتأتى على الرطب واليابس إن ترك الغرور بغير رادع، ذلك الغرور الذى دفع هذا الشاب المستهتر الطائش إلى محاولة اغتيال شيخ وقور كل ذنبه أنه قبل أن يخدم بلاده فى ظروفها العصيبة».

(٤٥)

ويصف عريان يوسف سعد فترة الأيام الأربعة التى انقضت بين محاكمته وبين إعلانه بالحكم بأنها كانت أقسى الفترات فى حياته، وهو شعور صادق ودقيق:

«لقد عشت فى ظلال الموت أربعة أيام بلياليها، وظلال الموت باردة مظلمة، زاد تلك الظلال بردًا وظلامًا أن صفق نسر الموت بجناحيه فى أفنية السجن مرتين خلت نفسى فى أولاهما ضحيته، فأحسست الدم فى عروقى باردًا مضطربًا».

«فى صباح الاثنين فتح السجن عند الفجر على غير العادة، وقام المسجونون بتنظيفه قبل الموعد المعتاد، ثم أعيدوا إلى غرفهم».

«وفتح باب السجن بعد قليل، وسمعت وقع أقدام عسكرية كثيرة تصعد السلم وتقترب من غرفتى».

«هذه هى الحالة، وهؤلاء القادمون أقبلوا ليأخذونى إلى غرفة الإعدام، وقد نفذ الحكم فى المحكوم عليهم من المحاكم العسكرية الإنجليزية دائمًا بعد يومين أو ثلاثة من محاكمتهم، ومن غير أن يسمح لهم برؤية أحد من أهلهم، حتى لا يذاع خبر إعدامهم».

«ولكن لم يفتح باب غرفتى، وفتح الباب الذى يليه».

«لقد كان بجانبى اثنان محكوم عليهما بالإعدام فى قضية قتل منذ بضعة أشهر، وقد حل موعد تنفيذ الحكم فى أولهما».

«وشنق الرجل، وفتح السجن فى الموعد المعتاد».

«وجاء السجان ففتح غرفتى وحيانى، وسألنى إن كنت مريضًا أو لم أنم».

« لماذا؟!» .

«قال: إنك مصفر الوجه!!» .

«لقد ذهب ريح الموت الذى عصف بجارى منذ قليل، والذى خلته منقضًا علىّ، لا عليه، ذهب ريح الموت بما كان فى وجهى من لون تاركًا عليه صفرته!» .

«وتكررت المأساة فى اليوم التالى» .

«وفى عصر ذلك اليوم انهالت عليه التهنئة من السجان، ثم من الضابط، ثم من موظفى السجن» .

«لقد أعلن الحكم، عشرة أعوام أشغال شاقة، مبروك. . ألف حمد لله على سلامتك» .

(٤٦)

ولا يبخل علينا عريان يوسف سعد بوصف تفصيلات مروعة عن معاملة المسجونين الذين حكم عليهم بأحكام تقتضى تقييد حركة أجسامهم، وتدفعه ثقته بالنفس ألا ينكر شيئًا مما تعرض له على أيدى السجانين والسلطات:

« . . . ونزلت إلى حوش السجن إلى الحداد الذى يثبت السلاسل فى أرجل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، فوضع فى كل رجل حلقة من الحديد كالخلخال، ووضع فى كل حلقة طرفًا من طرفى سلسلة طولها متر ونصف المتر، وأغلق الحلقة بمسمار جعل يضرب رأسه بمطرقة حتى تفلطح ولم يعد يمكن إخراجه، والحلقتان والسلسلة وزنهما ثلاثة كيلوجرامات» .

«وسألت عن ملابس السجن فقيل لى إنها قميص أزرق وتحته آخر أبيض، وسروال أزرق وتحته آخر أبيض، وشىء يشبه «الجرس» من الصوف والقطن، ولبده» .

«قلت: وحذاء؟» .

«قالوا: لا، فالحذاء فى طره ويصرف لمن يدفع ثمنه» .

«قلت: ولكنى لا أستطيع السير بغير حذاء، فإما أن تتركونى بملابسى حتى أصل إلى طره، وإما أن أرتدى قبقاب السجن وأحتفظ معها بحذائى حتى يصرف لى غيره».

«واستقر الرأى على أن أحتفظ بثيابى كلها مضافًا إليه الحديد».

«ونقلت إلى سجن قره ميدان (سجن مصر) لأبيت فيه ليلة ريثما أنتقل إلى طره من هناك، لأن المحكوم عليهم يجمعون فى قره ميدان من سائر السجون لينقلوا إلى أبى زعبل إن كان الحكم سبعة أعوام أو أقل، أو إلى طره إن كان الحكم أكثر من سبعة أعوام».

(٤٧)

ولا يغفل عريان يوسف سعد الحديث عمن قابلهم فى سجن قرة ميدان من المسجونين السياسيين ذوى الشأن فى العمل العام

«وفى سجن قره ميدان قابلت بعض المسجونين السياسيين، كان فى المستشفى المرحوم الدكتور محمود بك عبد الرازق من أعيان بندر المنيا وكبار الأطباء فيه، وكان من قادة الحركة هناك، وحكم عليه بسبب الاضطرابات، وهو يقضى مدة سجنه فى المستشفى».

«وهناك محمد أفندى السبع ضابط البوليس».

«وهناج جورج فليبدس مأمور الضبط فى حكمدارية بوليس القاهرة، أو بعبارة أصح حاكم القاهرة العسكرى فى الحرب العالمية الأولى، من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٧، حين قبض عليه بتهمة نفى الأبرياء إلى مالطة بحجة اشتغالهم بالسياسة، وأخذ رشوة من الموسرين حتى لا يقبض عليهم بنفس التهمة، وكانت له قضية اهتزت لها البلاد، ولجت فيها الصحافة».

«وهناك رياض الجمل المحامى من قادة ثوار المنيا».

«قابلونى وواسونى، وعجبت لأنى وجدتهم يتتبعون حوادث الثورة والسياسة، فقد كانت الجرائد تهرب إليهم على رغم النظام القائم على منعها، ومن أى كتب أو رسائل عن المسجونين».

«وقضيت الليلة فى قره ميدان، وقدم إلىّ طعام السجن لأول مرة، ولكننى لم أستطع أن أنظر إليه».

(٤٨)

ولا يفوت عريان يوسف سعد أن يشير إشارات ذات مغزى إلى المعاملة الحسنة التى كان بعض ضباط السجون يحرصون على أن يخصوه بها، ومنهم ذلك الضابط الوطنى إبراهيم صفوت الذى أوردنا عدة شهادات إيجابية فى حقه فى كتابنا «فى ضوء القمر»:

«وفى سواد الليل، ولا أدرى فى أى ساعة، فتح باب السجن، وكان السجان قد أحضر لى أربع سجائر بعد أن أوصاه بى زملاؤه وعرفوه بى، فخفت أن يكون فتح باب السجن نذيراً بتفتيش الغرفة، فألقيت السجائر من الشباك، وأمسكت البطانية وأدرتها فى الغرفة بسرعة لكى يتحرك هواء الغرفة وتختفى رائحة الدخان».

«وجلست أنتظر وإذا باب الغرفة يفتح».

«وقفت».

«وإذا ضابط وملكى يدخلان الغرفة».

«أنا إبراهيم بك صفوت مأمور السجن، وهذا صديق أراد أن يراك».

«ومد كل منهما يده فحيانى».

«وأخرج المرحوم إبراهيم بك صفوت علبة سجائر فخمة فناولنيها فترددت فى أخذها، فقال: خذها وثق بأن كل ضابط فى مصلحة السجون سيبذل لك كل مساعدة، وثق بأنك لن تقضى من هذه السنوات العشر شيئًا فى السجن، وشكرته وانصرف هو وصاحبه».

«وجاء الصباح وحل موعد الترحيل إلى طره».

(٤٩)

ونأتى إلى أفضل ذروة يصل إليها فدائى فى تقديمه لقصته مع التضحية، وهو مشهد

الجماهير المؤمنة به وبعمله وهى ترفع بطلها الفدائى إلى أعلى موضع فى وجدانها حين تحرص على أن تودع بطلها ورمزها فى مظاهرة كبيرة وهو فى طريقه إلى السجن :

« . . . ودهشت حين وصلت إلى محطة باب اللوق، إذ وجدت طلبة الطب جميعًا على رصيف المحطة» .

«وكانت مفاجأة لى وللحرس، وهتف الطلبة : لتحيا الحرية! ليحيا الوطن!» .

«وانقضوا علىّ يعانقوننى وأعانقهم، وغلبت العبرات بعضهم فسالت حين وجدوا الحديد فى رجلى ويدى» .

«وكان قائد الحرس ضابطًا مصريًا، رأى أن العنف لن يسعفه ومعه نفر قليل من الجند، وهؤلاء أكثر من مائة شاب، فتحدث فى رفق ولين ورجا الزملاء أن يعينوه على أداء مهمته» .

«وأعطانى زميل منهم (الدكتور حسين عرفان أستاذ الأشعة بكلية الطب، وكان من الدفعة التى دخلت فيها مدرسة الطب سنة ١٩١٨) صورتى، لا كما أخذت لى، ولكنها نسخة للنصف الأعلى وحده، وقال للزملاء : إن صورتك تباع فى كل مكان، ورجانى جاويش الحرس أن أعطيه تلك الصورة لأنها سوف تؤخذ منى على باب السجن، فأعطيتها له» .

«ووصل القطار إلى طره، ونزل الزملاء معى يحيطون بى على الرغم من الحرس، ويودعوننى بالقبلات تارة، وبالهتاف أخرى حتى باب طره، وحال باب السجن بينى وبينهم» .

* * *

البـاب الرابـع

سجيـن ثـورة ١٩١٩ ..

مذكرات الدكتور محمد مظهر سعيد

(١)

نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بأن نعرف بصاحبها فى إيجاز فنقول : إن محمد مظهر سعيد واحد من رجال التربية والتعليم القدامى ، كان له دور مهم فى قيادة مظاهر العصيان فى ثورة ١٩١٩ فى مدينة أسوان، وتعرض بسبب دوره فى هذه الثورة إلى حكم بالإعدام، وكاد الإعدام ينفذ فيه لولا أن ألغى الحكم قبيل التنفيذ بدقيقة أو أقل قليلاً، وحول إلى محكمة عسكرية لتعاد محاكمته، وقد حصل على البراءة، وعاد إلى حياته المدنية، وانخرط فى الحياة العامة والوظيفية حتى كاد دوره ينسى، لكنه فى الستينيات وجد فرصة مناسبة فسجل هذا الدور، وخاطب المؤرخ عبد الرحمن الرافعى وأستاذ التاريخ الحديث الدكتور محمد أنيس فى ١٩٦٣ وأرسلا إليه رسالتين نشرهما فى مذكراته، وفى ١٩٦٩ مكنته الاحتفالات بمضى ٥٠ سنة على ثورة ١٩١٩ من فرصة نشر كتاب مذكراته فى سلسلة «اقرأ» الشهيرة التى تصدر عن دار المعارف، وقد حرص على أن يضع فى مقدمة كتابه الرسالتين اللتين جاءتاه من المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى، ومن أستاذ التاريخ الحديث الدكتور محمد أنيس، والرسالتان، كما سنرى فى نهاية هذا الباب، تثنيان على تسجيله لدوره فى تسجيل الوقائع التى شارك فيها، بل وكان فيها بمثابة البطل.

(٢)

نبدأ بلفت النظر إلى أن محمد مظهر سعيد فى هذا الكتاب يروى مذكراته بثقة واطمئنان بالغين إلى دقة ما يرويه من وقائع وكأنها هى الحقائق بذاتها، ومن حسن حظ

الدكتور محمد مظهر سعيد أن المكتبة العربية تخلو من مذكرات أو وثائق أخرى تتناول جزئيات الموضوع الذى يتناوله بالقدر ذاته من التفصيل.

وعلى كل الأحوال فستدارس فى هذه المذكرات الظروف التى أوجدته فى زمن الثورة لكى يؤدى ما قدر له أو ما قدر عليه من هذا الدور الذى قدر له أن يؤديه، وإن كان لابد لنا من الإشارة إلى أن هذه المذكرات لم تظهر فترة الستينيات إلا أن بعد غلفها صاحبها فى مهارة بمجموعة من الفقرات المنتقاة التى حرص على أن يضعها فى مقدمة كتابه، وقد انتقاها من كتاب «فلسفة الثورة»، ومن خطبة الرئيس عبد الناصر فى الشرقية فى ٢٢ يناير ١٩٥٦، ومن خطابه فى يوم ١٩ يونيو ١٩٥٦، ومن الباب الثالث فى ميثاق العمل الوطنى، وقد مضى التاريخ فإذا بهذا التغليف يكاد - كطبائع الأمور - يقتصر على ما أداه من دور مرحلى، وإذا المذكرات نفسها كفيلة بتقديم نفسها من دون هذا التغليف، وإذا بمضمونها أوضح من أن يحتاج إلى مثل هذه المبررات.

(٣)

بعد كل ما قدمه صاحب هذه المذكرات من أغلفة ومسوغات.. يشير محمد مظهر سعيد إلى السبب العميق الذى دفعه إلى تسجيل مذكراته، وإلى السبب الحقيقى الذى أجل تسجيل ونشر هذه المذكرات، ونحن نراه يلجأ إلى أسلوب مناور فى تفسير هذا التأخير، وتبرير توقيت النشر الجديد فيقول:

«... إن أحداً لم يذكر ثورة إقليم أسوان، رغم ما كان لأهله من دور كبير خطير مشرف فيها، بل إن أبناء أسوان البارزين، وعلى رأسهم المرحوم اللواء صالح حرب، والأستاذ عباس محمود العقاد، لم يسجلوا شيئًا عنها لأنهم كانوا بعيدين عن مسرح الحوادث فى ذلك الوقت، ونحن الذين قمنا بها، واكتوينا بنارها... منعتنا الظروف القاهرة من التحدث أو الكتابة عنها، فقد اشتبكنا بعدها فى قضايا سياسية أخرى، وكان مجرد ذكر اشتراكنا فى ثورة ١٩١٩ يسىء إلى مركزنا وعملنا وأمتنا إساءة بالغة، وربما زج بنا فى السجن مرة أخرى، ثم سافرت إلى إنجلترا لدراسات التخصص العليا عدة سنوات، وعدت بعدها سنة ١٩٢٩ فى عهد حكومات رجعية لا تطيق مجرد

الإشارة للثورة، فضلاً عن الإشادة بها، لما فى ذكرها من نبش لماضى الجهاد الذى دفنوه، وإثارة للشعور القومى من جديد ضد الاحتلال والحكم المحلى الفاسد. ومرت سنوات طويلة وأصبحت الثورة نسيًا منسيًا، وتضاءلت أمام الثورات المتعاقبة حتى سنة ١٩٣٥، وجاءت ثورة ١٩٥٢ البيضاء المباركة، وأشاد بطلها ورائدها الرئيس جمال عبد الناصر فى مختلف المناسبات بجهود السابقين وتضحياتهم فى ثورتى ١٨٨١ و١٩١٩».

. . . .

على هذا النحو وجد محمد مظهر سعيد فرصته فى أن يخلص نفسه من ورطة الظهور بمظهر الحريص على تسجيل أحداث بعد فوات الأوان المناسب لتسجيلها، بينما كان فى وسعه أن يسجل هذه الأحداث فى مرحلة سابقة كانت ترحب بمثل هذا التسجيل، وهو يحل هذه المفارقة حلاً تلفيقيًا غير موفق، لاجئًا إلى الهجوم على العهد القديم الذى تلا ثورة ١٩١٩، وصانعًا فى الوقت نفسه ما يتناقض مع هذا الهجوم من مصالحة وطنية جميلة بين ثورات ١٨٨١ و١٩١٩ و١٩٥٢ على الرغم من أن الواقع لم يكن على هذا النحو لكن ظروف تلك الأيام لم تكن ـ كما نعرف ـ تسمح بغير هذا.

(٤)

يشرح محمد مظهر سعيد أهمية ثورة أسوان من وجهة نظره، مشيرًا إلى نجاح هذه الثورة فى تجنيب مصر ويلات تصرف خاطئ ومدمر فيقول:

« . . . وعلى الرغم من أن ثورة أسوان لم تقترن بالعنف والفوضى والتخريب والتقتيل، ولم يصبها من ويلات السلطة العسكرية البريطانية إلا النزر اليسير بالقياس إلى ما أصاب الجهات الأخرى، كالقاهرة والعزيزية والواسطى ودير مواس، فإنها أدت للبلاد خدمات جليلة كان يجب أن تسجل لها بالفخر، ويكفى أن نذكر إحباط الخطة التى دبرها المهندسون الإنجليز لنسف خزان أسوان، ولو قدر لها الشيطان أن تنجح لكانت كارثة كبرى».

(٥)

يتحدث محمد مظهر سعيد فى التعريف بنفسه عن العوامل التى دفعته بطريقة غير مباشرة إلى الاشتراك فى ثورة ١٩١٩ والحركة الوطنية على نحو ما أتيح له أن يشترك، ونرى فى هذا التعريف الذى يقدمه الرجل أن الاشتراك فى الحركة الوطنية كان أمراً طبيعيًا فى حالة كل وطنى سوى يؤمن بدينه ووطنه ويشعر بواجبه نحوهما، ويشير محمد مظهر سعيد إلى أن والده نفسه كان شاهداً على معاناة المهنيين البارزين فى جيله من نفوذ الاستعمار الإنجليزى، وتربصه المستمر بالوطنيين الناجحين، ويستطرد محمد مظهر سعيد إلى رواية ما لمسه هو نفسه من اضطهاد الأجانب للمصريين وتفضيلهم الأجنبى فى الوطن المحتل عليه وعلى أمثاله من أبناء وطنه. . . وهو يقول:

«ولدت أنا (محمد مظهر سعيد) فى ٢٠ أغسطس ١٨٩٧، ونشأت فى أسرة غرست فى نفسى منذ النشأة الأولى بذرة حب الدين والوطن وروح الثورة والجهاد ضد أعداء البلاد، وكراهية النفوذ الأجنبى المفسد المستغل، والحكم الداخلى الفاسد المستبد».

«. . . كان أبى مهندسًا فرنسى الثقافة، بعد أن تخرج فى مصر أتم تدريبه الميكانيكى بفرنسا، والبحرى بتركيا، وعاد إلى نظارة الأشغال العمومية فلقى من رؤسائه الإنجليز عنتًا كبيراً كأنهم حسبوه فرنسيًا، وواتته فرصة التخلص منهم عندما ندب مهندسًا بشركة السكر فى فابريقة الشيخ فضل مركز بنى مزار، ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار».

«ولمست أنا بنفسى، على صغر سنى، هذه التفرقة عند اللحاق بمدرسة الشركة (يقصد: شركة السكر)، ولم تكن هناك مدرسة غيرها، فالدراسة فرنسية، والكتب تشيد بمجد فرنسا الأم، والدروس تنتهى بهتاف «تحيا فرنسا»، والأولاد الأجانب لهم فصول وملاعب وامتيازات خاصة، ونحن نتعلم بمصروفات وهم بالمجان، فبدأت وأنا فى الخامسة من عمرى أشعر بما يشعر به أبى من كراهية للأجانب».

(٦)

ويعود محمد مظهر سعيد بذاكرته إلى بعض ما ترسب فى أعماق هذه الذاكرة من

وعى بحكايات الطفولة التى أوردتها جدته على مسامعه، وهو يشير فى سياق حديثه هذا إلى انتساب جدته إلى سلالة عبد الرحمن كتخدا، وإلى انتسابه من ناحية أبيه إلى صالح بك سليمان أركان حرب الجيش المصرى فى السودان.

ومن الجدير بالذكر أن صاحب المذكرات فى أثناء حديثه عن الثورة فى أسوان يشير إلى أن جده الكبير لطيف باشا كان حاكمًا عامًا للسودان سنة ١٨٥٠ قبل الثورة المهدية، وإلى أن جد صديقه حبيب كان من كبار نقباء الميرغنية فى السودان.

ومع أن محمد مظهر سعيد يشير إلى أن جدته أم والدته كانت عربية، فإنه يحرص أيضًا على أن يشير إلى أن ثقافة والدته كانت إيطالية(!!) دون أن يشير إلى السبب فى هذه الثقافة، ولا إلى حقيقة جنسية والدته، ومن الطريف أننا نرى وسط المذكرات إشارة إلى أن والدته كانت إيطالية الجنسية، ولسنا ندرى هل كانت كذلك أم أنه زعم هذا الزعم فى إحدى المرات لمجرد التخلص من موقف من المواقف الحرجة التى قابلها فى أثناء نشاطه فى الحركة الوطنية، ومع هذا فإننا نراه حريصًا فيما يروى على أن يثبت أن والدته كانت ذات ثقافة غربية تمامًا فى سلوكها وفى طباعها:

«... كنت أزور أم والدتى بأسيوط، وهى تحكى لى عن أجدادى من قادة الجيوش، وأمراء البحار الذين حاربوا واستشهدوا دفاعًا عن الملة والدولة، وآخرهم لطيف باشا الكبير الذى كان حاكمًا عامًا للسودان قبل الثورة المهدية، ووزيرًا فى عهد إسماعيل، ومع ذلك كان من مؤيدى الضباط المصريين ضد حكومة نوبار، والوزراء الأجانب، والخديو نفسه».

«وكنت أزور أم والدتى العربية فى بنى سويف فتحكى لى عن أبطال الإسلام، وعدل عمر، وصلاح عمر بن عبد العزيز، وبطولة خالد بن الوليد، وأبى عبيدة بن الجراح، وتذكرنا بتاريخ جدها الأكبر عبد الرحمن كتخدا، نائب والى مصر وشيخ البلد الذى كرس حياته لتعميره وإصلاح حال الشعب، فاستوجب غضب الأمراء المماليك، مما اضطره فى أواخر أيامه إلى الهجرة للحجاز، وتختم الحديث بالفاتحة على روح جدى زوجها صالح بك سليمان أركان حرب الجيش المصرى، الذى استشهد فى السودان فى موقعة شندى».

«وكانت أمى بحكم ثقافتها الإيطالية تحكى لى عن ماتسينى، وجاريبالدى محرر إيطاليا وموحد ولاياتها».

(٧)

يشير محمد مظهر سعيد فى هذه المذكرات إلى أولى التجارب السياسية التى شارك فيها، والتى كانت نتيجتها أن فصل من المدرسة، ونحن نفهم من هذه القصة أن بذور روح الثورة كانت قد فرضت نفسها على هذا الرجل منذ طفولته الباكرة، ونحن نرى رد العقل الذكى عند أهل هذا الطفل فقد حافظوا له على سياق سنواته الدراسية وألحقوه بمدرسة بنى سويف حيث موطن جدته، ومن أجل هذا غيروا اسمه إلى اسم آخر غير ذلك الذى سجل به فى شهادة الميلاد، ومن الطريف أنه عاش حياته بالاسم الجديد الذى سمى به تيمنا باسم عم والده المهندس المصرى العظيم محمد مظهر، وهذه هى القصة التى ينفرد صاحب المذكرات بروايتها، والتى لم نجد لها أثرًا فى مصدر آخر، على الرغم من أنها حفية بالتدوين والتسجيل والفخر:

«بدأت تجاربى السياسية القاسية سنة ١٩٠٦ عقب مذبحة دنشواى، وأنا فى الثامنة من عمرى بالسنة الأولى بمدرسة عباس الابتدائية بالقاهرة، بعد أن نقلوا والدى إلى نظارة الأشغال، فقد زار المدرسة مفتش إنجليزى، ورأيت وجهه الأحمر، وطربوشه القذر فثارت ثائرتى وقلت لزملائى: هذا جلاد دنشواى، وسرعان ما قمنا بمظاهرة لعلها أول مظاهرة قام بها التلاميذ فى مصر، وأخذنا نهتف: «فليسقط جلاد دنشواى»، «فلتسقط إنجلترا»، وهرول الناظر أحمد بك كامل اليمانى إلى الشرفة وخلفه المفتش يتميز غيظًا، فأشار نحوى وقال للناظر: «هات الولد ده»، وسرعان ما أمسك بى الفراش العملاق وألقى بى أمامهما، وقال المفتش فى حدة وانفعال: «حضرة ناظر.. دى ولد مش كويس.. لازم طرده من المدرسة»، فأجاب الناظر فى تردد: لكن ياجناب المفتش دا طفل صغير لا يعرف ما يفعل، فأجاب جنابه: بكره لما يكبر يبقى مجرم ضد انجلترا زى مصطفى كامل، افصله نهائيا، فأجاب الناظر: ليس الفصل النهائى من حقى، فقال المفتش: افصله أسبوعا وبعدين ييجى أمر جناب

المستشار، وقبل نهاية الأسبوع جاء الأمر بالفصل النهائى لتلميذ صغير فى الثامنة من عمره يهدد الإمبراطورية البريطانية عندما يكبر مثل مصطفى كامل».

. . . .

«وكان من الممكن أن ألتحق بنفس المدرسة فى العام التالى لأنها المدرسة الأميرية الوحيدة بالحى، ولكن تضيع منى السنة، وأنا مجتهد لا أريد أن أفقد سنة من عمرى، فلم يكن هناك بد من الرحيل إلى جدتى فى بنى سويف وأتقدم لامتحان القبول للسنة الثانية باسم جديد بدل اسم شهادة الميلاد، وهو محمد حسن سعيد، فصار اسمى محمد مظهر سعيد تيمنًا باسم عم والدى المهندس محمد باشا مظهر، ونجحت فى الامتحان ودخلت السنة الثانية، وكان ناظر المدرسة أحمد بك حسن صديقًا لوالدى وعمى فلم يثر أى إشكال».

(٨)

ويتحدث محمد مظهر سعيد أيضًا عن تجربة وطنية مبكرة أخرى أعقبت التجربة الأولى بعامين، حين قدر له أن يلقى كلمة فى تأبين الزعيم مصطفى كامل، ونقتطف للقارئ من فقرات محمد مظهر ما يصور به صدى الكلمة التى ألقاها فى هذه المناسبة، ومدى ما منحته هذه المناسبة من ثقة مبكرة فى توجهه الوطنى، خاصة بعدما أعقبها من ثناء أستاذه عليه، ووشاية ضابط المدرسة به، وما ترتب عليها من عقوبة:

«. . . وفى سنة ١٩٠٨ توفى مثلى الأعلى مصطفى كامل إلى رحمة الله، وأقام المحامون حفل تأبين، واختارنى المحاميان الشقيقان سيد زكى ومحمود كامل، وكانا صديقين حميمين لعمى، لإلقاء كلمة أعدها مدرس اللغة العربية، فيها نثر وشعر، وألبسونى شريطًا من الحرير الأسود على قميص أبيض، وصعدت إلى المنصة».

. . . .

«. . . وارتجت القاعة بالتصفيق الحاد المتواصل، ففزعت من هذا الموقف ونزلت من المنصة مسرعًا والدموع فى عينى وأنا أحيى صورة مصطفى كامل، وأسرع الأستاذ سيد زكى فتلقانى واحتضننى وقبلنى وقال: هذه أبلغ خطبة يامظهر، ستكون مصطفى

كامل الثانى، وفى هذه المرة وشى بى ضابط البوليس المصرى، ففصلت من المدرسة أسبوعين بأمر الوزارة لاشتغالى بالسياسة، وكانت كلمة السياسة بعبعًا يقض مضاجع الحكومة، ولو كان السياسى طفلاً مثلى فى العاشرة من عمره، ورغم ذلك نجحت بتفوق وانتقلت للسنة الثالثة».

(١٠)

ويروى محمد مظهر سعيد أنه كان بعد حصوله على الابتدائية يفكر فى دخول المدرسة الحربية ليكون ضابطًا، لكنه كان صغير السن، وقد تمكن والده من النجاح فى توجيهه إلى العلم ضاربًا على وتر الوطنية الظاهر فى تصرفاته، ومع أن ما يرويه محمد مظهر سعيد يبدو عاديًا أو طبيعيًا فإن تفرده فيما يتعلق بالحركة الوطنية كبير، إذ أنه يدحض القول الشائع بأن بذور هذه الحركة وبداياتها لم تكن بهذه القوة فى مثل هذا الزمان:

«. . . وحصلت على الشهادة الابتدائية سنة ١٩١٠، وكنت أتمنى أن كون ضابطًا بالجيش أدافع عن الملة والدولة كما كانت جدتى التركية تقول، وكانت المدرسة الحربية تقبل حاملى الابتدائية وساقطيها، ولكن من المستحيل أن تقبلنى لصغر سنى، وعدت إلى القاهرة فقابلنى أبى بالتهنئة والترحيب، وقال لى فى رقة وحنان: اسمع يابنى، أنا معجب بوطنيتك التى ظهرت بوادرها مبكرة، وإن كانت عرضتك لتجارب خطيرة، ولكن الله سلم فى المرتين، وأنت بعد طفل غرير ومازلت فى طور التحصيل والطريق أمامك طويل، والوطنية الحقة لا تكون بالقول، وإنما بالعمل، ولا عمل بغير علم، فإن كنت وطنيًا حقًا فعليك أن تتفرغ لتحصيل العلم لا يصرفك عنه شىء، وعندما تحصل على المؤهل العالى افعل ما شئت، وكن زعيمًا كمصطفى كامل».

(١١)

وينتهز محمد مظهر سعيد فرصة حديثه عن دراسته للمرحلة الثانوية فى المدرسة الخديوية ليحدثنا، حديث التربوى القديم والوطنى المثابر، عن بذور اكتشافه لحقيقة

سياسة المحتل البريطانى فى اختيار مدرسى هذه المرحلة، وهو يجاهر بأن أسلوب هذا الاستعمار كان دليلاً على زيف الأسطورة البريطانية، ويصل محمد مظهر سعيد إلى حد تكرار قول غير مشهور بأن مستشار التعليم الإنجليزى الأشهر دنلوب كان إسكافيًا فى الأصل:

«والتحقت بالمدرسة الخديوية الثانوية، واتصلت اتصالاً مباشرًا بالإنجليز لأول مرة، وكنا وقتئذ ندرس جميع المواد باللغة الإنجليزية ما عدا العربى والرياضيات».

. . . .

«. . . أما المدرسون البريطانيون فكانوا خليطًا عجيبًا النقاب عن زيف أسطورة بريطانيا العظمى، والرجل الإنجليزى السوبرمان، فكان منهم قلة جديرة حقًا بالاحترام، الناظر المستر فيرنس الإيرلندى كان يعامل الطلبة كأنهم أولاده، ويرعى أعضاء الفرق الرياضية عامة، وفرقة القسم المخصوص فى الجمباز خاصة، وكنت أنا أحد أبطالها، والمستر هيث الاسكتلندى الوقور كان يشجعنى ويهدينى كتب الأدب الإنجليزى لتفوقى فى اللغة، واتخذنى سكرتيرًا له، والمستر براكنبرى العالم اللغوى كانت له كتب مقررة فى متن اللغة، أما البقية فكانوا جهلاء أدعياء، لا يحملون أى مؤهل علمى أو تربوى، فالمستر فوستر سميث كان بائع إسفنج، ولكنه خطاط (كاليجرافى)، وله أمشق خط مقررة، والمستر لوكاس كان جاويشًا بالجيش البريطانى، ومؤهله الرسمى أنه لاعب كرة ونطاط ورقاص، ومع ذلك يدرس لنا الجغرافيا، ومدرس التاريخ المستر فاولر لا نعرف أصله، ولكنه أجهل الناس بالتاريخ، فكان يقرأ لنا كتاب «دينوف» المقرر كأنه كتاب مطالعة، ويتركنا نحفظه عن ظهر قلب».

«وتلك كانت خطة الاستعمار التى ينفذها المستشار المستر دنلوب، فهو نفسه يقال إنه كان إسكافيًا، وكان هؤلاء الذين يحملون إلى جانب نقيصة الجهل رذيلة الغطرسة، يشتدون فى طلب العقاب لأقل هفوة لولا أن الناظر الأيرلندى كان يكبح جماحهم».

«واجتزت مرحلة الثانوى بنجاح مطرد وتفوق، وحصلت على البكالوريا علمى سنة ١٩١٤ وأنا فى السادسة عشرة».

(١٢)

هكذا يتحدث محمد مظهر سعيد عن نجاحه فى البكالوريا فى ١٩١٤ قافزاً مباشرة إلى ما يتبناه من رؤية بعض المؤرخين(!!) القائلة بأن ما حدث فى ثورة ١٩١٩ كان نتيجة حتمية لثورة وطنية مبكرة حدثت عام ١٩١٤، وهو يروى قصة اللقاء العاصف بينه وبين المستر كيتنج ناظر مدرسة الطب الإنجليزى، وكيف كان حفاظه على كبريائه سبباً فى فقدانه لمكانه الطبيعى طالباً فى كلية الطب رغم محاولات والده علاج الموقف، وهكذا تحول مسار حياته إلى أن يكون طالباً فى مدرسة المعلمين العليا:

. . . .

«يرى بعض المؤرخين أن ثورة ١٩١٩ كانت نتيجة حتمية لأحداث سنة ١٩١٤، ومهما يكن من أمر هذا الرأى فإن سنة ١٩١٤ كانت بالنسبة لى شخصياً سبباً مباشراً للدور الذى شاءت الأقدار أن أقوم به فى ثورة أسوان سنة ١٩١٩، فقد قدمت أوراقى لمدرسة الطب وانتظرت النتيجة، وفى فترة الانتظار أعلنت الحرب العالمية الأولى، وفى ٤ أغسطس أعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا، وانضمت لحليفتها فرنسا، وفى اليوم التالى صدر قرار لمجلس وزراء مصر يخول القوات البريطانية البرية والبحرية حقوق الحرب فى الأراضى والمياه المصرية، وقد أثار هذا القرار سخط طلبة المدارس العليا والمثقفين والصحافة عامة، والحزب الوطنى خاصة».

«وفى أواخر سبتمبر دعينا نحن الطلبة الجدد لمقابلة ناظر مدرسة الطب الدكتور كيتنج، وكان رجلاً استعمارياً قحاً، غريب الأطوار، وحاكماً بأمره يدير المدرسة كما يحلو له، غير خاضع لسلطة الوزارة وقوانينها ولوائحها، ولا للمعتمد البريطانى نفسه، وكان من شذوذه أن يقف الطالب أمامه وقفة انتباه عسكرية، فيلقى سؤالاً بالإنجليزية ويترجمه إلى العربية سكرتيره الحاصل على الابتدائية بلغته الركيكة، ثم يترجم رد الطالب إلى الإنجليزية».

. . . .

«. . . ولما جاء دورى نظر كيتنج إلى السكرتير بغضب وقال:

«ماذا يفعل هذا الطفل فى مدرستى؟ وكيف دخل؟ إنها ليست روضة أطفال،

فأجبته بالإنجليزية منفعلاً ومحتجًا : أنا لست طفلاً ، وهذه مدرسة مصرية وليست مدرستك ، وحدثت مشادة حامية أنهاها هذا العملاق الأحمق بركلة قوية من رجله الضخمة طرحتنى أرضًا ، فجريت هربًا منه فطاردنى حتى باب المدرسة ، ثم فصلنى وأعاد الأوراق بالبريد لوالدى ، وذهب والدى إلى كبير المهندسين الإنجليز يرجوه التدخل فى الأمر معتقداً أنه سينصفنى ، فأحاله إلى مستشار الرى السير جارستن فأعطاه خطاب توصية ، ما كاد الدكتور كيتنج يلقى عليه نظرة عابرة حتى مزقه ، وألقى به فى سلة المهملات وطرد والدى شر طردة ، وكان تعقيب المستشار بعدئذ أن الدكتور كيتنج حر فى مدرسته ولا يستطيع أحد أن يراجعه فى شىء ، وعلى كل فهو دائمًا على حق لأنه إنجليزى ، والإنجليز لا يخطئون ولا يُلامون ، وزادنى هذا الحادث كراهية للاحتلال والاستعمار ، وأصبحت أعتقد أن الإنجليز لا يخطئون ولا يظلمون فحسب ، وإنما هم يظلمون ويبررون الظلم بأنهم معصومون» .

«ولم يكن بد من اللحاق بمدرسة المعلمين العليا لأن المدارس الأخرى كانت قد استوفت حاجتها من الطلاب» .

(١٣)

هكذا ينتقل محمد مظهر سعيد بكل ما فى صدره من وطنية للدراسة فى مدرسة المعلمين العليا ، وهو ينتهز أول فرصة تسنح له فى هذه المدرسة كى يعبر عن مشاعره الوطنية المسيطرة على وجدانه ، وتنبئنا القصة التى يرويها محمد مظهر سعيد عن أن مجادلة البريطانيين كانت لاتزال ممكنة رغم فرضهم الحماية على مصر :

« . . . وبدأت الشرارة الأولى بمدرسة المعلمين العليا فى اليوم التالى لإعلان الحماية ، إذ دخل المستر هاردى أستاذ الطبيعة بغير طربوشه مخالفًا التقليد المتبع لأول مرة وفى عروته وردة حمراء كبيرة ، وتطلع إلينا فى زهو وكبرياء ولم يلق التحية كالمعتاد ، وفاجأنا بقوله فى صلف وغطرسة ، وكأن هذا الحمل الذى كان وديعًا انقلب (ذئبًا كاسرًا) «اسمعوا يا أولاد مصر ، أنتم من اليوم رعايا بريطانيا العظمى ، سواء رضيتم أم أبيتم ، وأهنئكم على هذا الشرف العظيم الذى لا تستحقونه» ، فوجمنا قليلاً

وألجمت الدهشة ألسنتنا، ثم هب الطالب محمد حبيب أحمد رفيق الجهاد والثورة، وقال بصوت جهورى: اسمع يا مستر هاردى، أولا نحن لسنا أولادًا وإنما نحن رجال، فانبريت بدورى قبل أن يتم كلامه وقلت: وثانيًا، نحن لسنا رعايا بريطانيين، ولن نكون كذلك أبدًا. . نحن مصريون مستقلون ولنا الشرف أن نكون ونظل كذلك، أما أنتم فمستعمرون، مغتصبون، وساد الهرج والمرج، وصاح بقية الطلاب: اخرج. . اخرج، فغادر الفصل غاضبًا وشكانا للناظر «أ. ب. بك» الذى عنفنا أمامه تعنيفًا شديدًا وطلب منا الاعتذار له فأبينا ففصلنا أسبوعًا، فذهبت إلى المستر فيرنس ناظر الخديوية المجاورة، ثم إلى ضابط المدرسة صالح بك وكان صديقًا لوالدى، وذهب (حبيب) إلى أستاذ الرياضيات المستر شوبردج، وكان محبوبًا من الطلبة، وعرضنا عليهم الموضوع، فذهبوا ثلاثتهم إلى الناظر وأقنعوه بخطأ هاردى لتدخله فى السياسة، وجرحه لشعور الطلاب، فعدنا إلى المدرسة بعد يومين ولكن هاردى ظل على عناده وامتنع عن التدريس أسبوعين».

(١٤)

ولأن الجرة لا تسلم فى كل مرة، فسرعان ما جاءت الفرصة لعقاب محمد مظهر سعيد وأمثاله على وطنيتهم التى دفعتهم إلى إفساد زيارة السلطان حسين كامل لمدرسة المعلمين فى عام ١٩١٥، وهى واقعة تدل على مدى ما كان هذا العهد كفيلاً به من بساطة فى البروتوكول وما كانت هذه البساطة كفيلة بأن تحققه من أن تتيح للمشاعر الوطنية أن تجد طريقها إلى الظهور فى يسر شديد مهما كانت النتائج والمعقبات:

«وفى أوائل ١٩١٥ أخطرت السراى المدرسة بالاستعداد لزيارة السلطان لها».

. . . .

«وأخذت المدرسة تعد العدة للزيارة، ونحن من جانبنا نعد عدتنا لإفسادها، فأعددنا أربطة رقبة سوداء، وأعد بعضنا قمصانًا سوداء كذلك، وكبار السن لم يحلقوا ذقونهم، وفى صباح يوم الزيارة حضر مندوب السراى وسكرتير عام الوزارة لاستعراض طابور الاستقبال والاطلاع على بقية الترتيبات، وذهلا عند رؤية الأربطة

والقمصان السوداء، ولكن ماذا يفعلان وموكب السلطان فى طريقه من سراى عابدين، ودخلت عربة السلطان وحولها الحرس إلى فناء المدرسة حيث وقفت الطوابير، وهتف الناظر ثلاثًا بحياته فلم يجبه إلا بعض طلبة الدبلوم، واندفع الطالب قاسم خليل نحو العربة وهتف: تحيا مصر، ونزل السلطان مهرولاً والوزير وبقية الركب فى أثره، ومكثوا قليلاً فى حجرة الناظر حتى يدخل الطلبة الفصول، ثم بدأوا الطواف، ودخل علينا السلطان وكان المستر شوبردج يلقى درسًا بالعربية فى الجبر العالى، وأنصت السلطان متعجبًا ثم قال لمن حوله: «ما شاء الله، الخواجة يتكلم عربى، عفارم، عفارم»، فضج الطلاب بالضحك وقالوا: «عفارم.. عفارم»، فارتبك السلطان وخرج مهرولاً، وفى معمل الكيمياء أعدوا غاز الأيدروجين المكبرت الكريه الرائحة، فلم يطق السلطان صبرًا فبارح المدرسة على عجل، حانقًا غاضبًا، ولم يكمل الزيارة، وكان لهذا الحادث وقع الصاعقة على رءوس الوزير والسكرتير العام والناظر».

. . . .

«... وبعد قليل صدر أمر مجلس الوزراء بفصل بعض الطلبة مددًا تتراوح بين أسبوع وشهر وسنة، وكانت أفدح العقوبة من نصيبنا نحن الاثنين (محمد حبيب أحمد، وأنا)، الفصل النهائى والحرمان من التعليم العالى ووظائف الحكومة لمدة خمس سنوات تنتهى فى أكتوبر ١٩٢٠».

(١٥)

هكذا كان على محمد مظهر سعيد أن يواجه حاضرًا قاسيًا ومستقبلاً مظلمًا، وإذا هو يكتشف أن اسمه قد وضع فى قائمة سوداء تمنعه من السفر إلى إنجلترا وإلى تركيا، وحتى من القيد فى مدرسة الحقوق الفرنسية، فضلا عن تعرض بيته للتفتيش من آن لآخر، وهو شأنه فى هذا شأن الذين يعانون من مثل هذه الإجراءات التعسفية يحس بالضيق، ويحس فى الوقت ذاته بطبيعة المشاعر الإنسانية التى تقدر موقفه لكنها تتحفظ فى إبداء هذا التقدير.

ونحن نعجب حين نرى تصوير صاحب المذكرات لكل هذه المعاناة فى ذلك العهد الذى لم يشتهر بهذا النمط من معاملة الخصوم السياسيين، لكننا لا نستطيع أن ننكر على صاحب المذكرات ما يرويه مما أثر بالفعل فى مستقبله :

« . . . وحاولت السفر للخارج لإتمام التعليم العالى حتى ولو فى الجامعة الأمريكية ببيروت فلم تسمح الحكومة، وكانت بريطانيا هى التى تتولى الشئون الخارجية لمصر وقتئذ، وبمساعى بعض أصدقاء والدى الأتراك قبلتنى كلية الطب بالآستانة وقدمت طلب السفر للقنصل البريطانى فرفضه ساخراً وقال : لا نريد أن ننفيك ونعزلك كعباس الثانى، وقدمت طلبًا آخر للسفر لإنجلترا فرفضه كذلك وقال : تريد أن تنقل الثورة من مصر إلى إنجلترا على حسابنا، وحرت فى الأمر، كيف عرف القنصل هذا، وأخيراً علمنا أنها القائمة السوداء، بل إنى قدمت طلبًا لمدرسة الحقوق الفرنسية فرفض لأسباب منتحلة، وعندئذ أيقنت أن القائمة السوداء تلاحقنى كظلى أينما سرت حتى سنة ١٩٢٠ ».

«وأحسست أنى تحت مراقبة البوليس، فالمخبر يلاحقنى، والبيت يفتش من آن لآخر، مما سبب لى وللأسرة ضيقا وعنتًا شديداً، وامتد الأمر إلى والدى فنقل إلى الإسكندرية وبقينا نحن بالقاهرة، وقد عرف زملائى هذه القصة، وعدوها بطولة وطنية وظلمًا صارخًا من جانب الحكومة، ولكنهم فى نفس الوقت تحاشوا مقابلتى والاجتماع بى، وهكذا عشت عامين فى قلق مستمر، وضقت ذرعًا بالفراغ».

(١٦)

ووسط كل هذه المشاعر القاسية يستبطن صاحب المذكرات محمد مظهر سعيد ذاته ويستعرض مواقف حياته الماضية، ويرى فيها بارقة الأمل فى نبوءة سعد زغلول باشا له بمستقبل زاهر، لكنه يتعجب من الحال الذى آل إليه هذا المستقبل وهو لايزال فى شبابه، بل إن محمد مظهر سعيد يعترف، فى سرعة بالغة، بأنه حاول الانتحار، وهو لا يولى هذه التجربة الإنسانية بعض ما تستحق من تأمل أو تعمق، وإنما يتجاوزها سريعًا إلى ما بعدها مما مر به فى الحياة :

« . . . وتذكرت أن سعد زغلول عندما كان وزيراً للمعارف زار مدرسة بنى سويف الابتدائية وسألنى فى الفصل بعض الأسئلة ويبدو أنه سر من إجابتى فقال للشيخ حمزة فتح الله كبير مفتشى اللغة العربية المرافق له: « ولد ذكى . . شاطر، وأتنبأ له بمستقبل زاهر»، فهل هذا هو المستقبل الزاهر وأنا الآن شاب عاطل خامل لا حاضر له ولا مستقبل».

. . . .

«وضاقت الدنيا فى وجهى، وما أقسى البطالة والضياع على شاب ذكى متعطش للعلم، ممتلئ نشاطًا وحيوية، لم يجرب الفشل من قبل، وفكرت فى الانتحار وفعلاً ألقيت بنفسى فى النيل، فأنقذونى وأسعفونى وعادت إلىّ الحياة، وعادت معها ثقتى بالله، وبنفسى، وأدركت أن الحياة نعمة لا يكفر بها المؤمن مهما بلغت من السوء».

(١٧)

وفى وسط هذا كله تتاح لمحمد مظهر سعيد فرصة العمل بالتدريس فى إحدى المدارس الثانوية بأسوان، ونفهم من حديثه الخاطف عن تعاقده لهذا العمل أنه كانت هناك بورصة للمعلمين الذين يقومون بالعمل فى المدارس الأهلية، وأن المؤهلات والخبرة لم يكونا لازمين بوضوح لمثل هذا العمل، كما نفهم من حديثه أن تحديد هذا العمل لأمثاله من الذين بدأوا الدراسة فى المعلمين العليا كان ممكنًا باتباع المفاهيم التربوية والحرص على التفرغ لأداء هذه الوظيفة السامية:

«وفى أغسطس ١٩١٧ حدث أن حضر إلى القاهرة الأستاذ كامل سعيد ناظر مدرسة الأقباط الثانوية بأسوان يطلب مدرسًا للرياضيات والعلوم، وكانت قهوة جراسيمو بورصة للمعلمين، فقدمونى له، وارتاح الرجل لى، ورحبت أنا من جانبى بفرصة الابتعاد عن القاهرة إلى أقصى الصعيد، لعل فى ذلك مخرجًا من عنت المراقبة والتفتيش، وهروبًا من القائمة السوداء، وتم الاتفاق وأمضيت العقد لمدة سنتين، وأعددت نفسى للسفر وأرسلت للوالد بالإسكندرية برقية مختصرة: «مسافر لأسوان بوظيفة مدرس ثانوى»، وجاءنى الرد: «كن رجلاً».

. . . .

«. . . ففى العام الدراسى الأول حرصت كل الحرص على أن لا أطرق باب السياسة مع أى إنسان، وانقطعت كلية للتدريس والنشاط الرياضى والثقافى الذى لم تعهده المدرسة من قبل، وكان لهذا أثر كبير فى تقويم الطلاب، وحسن استغلال وقت الفراغ، وما أطوله فى بلد هادئ كأسوان، مما أكسبنى رضا الطلاب وحبهم، وتقدير أولياء أمورهم، ووثق صلتى الطيبة بهم».

. . . .

هكذا بدأت الأقدار تضع هذا الشاب الصغير فى المدينة التى قدر له أن يقود ثورتها عام ١٩١٩.

(١٨)

ونأتى إلى فقرة يروى فيها محمد مظهر سعيد ما لخص له به أحد أصدقائه من رجال الحياة العامة فى أسوان، وهو ممتاز بك، طبيعة رجال الحكومة فى أسوان، وهو التلخيص الذى أثبتت الأيام صدقه، وجعلته بمثابة ضوء هاد أمام صاحب المذكرات فى جهوده البارزة فى الحركة الوطنية، وسرعان ما يردف صاحب المذكرة هذه الفقرة بفقرة أخرى يلخص لنا فيها خبراته الشخصية مع هؤلاء بطريقة موجزة لكنها كافية لإلقاء الضوء على الشخصيات الأبطال فى مسرح الأحداث الذى شهد روايته لقصته مع ثورة ١٩١٩:

«. . . المدير شرابة خرج لا يهمه غير مصلحته، وإرضاء مفتش الداخلية، ووكيل المديرية رجل طيب صالح لكنه فى حاله «ودن من طين، وودن من عجين»، والحكمدار رجل صادق الوطنية وجرىء، والمأمور أديب فيلسوف سارح فى ملكوت الله، والملاحظ زين العابدين شاب نظيف، جميل الخلقة والخلق، ووطنى جداً، أما الضابط الآخر «ك» فهو ثعبان سام مكير لا تأمن له، وهو المكلف بمراقبتك، أما بقية الأعيان والتجار فأنت تعرفهم وهم يحبونك».

«وكان أوين باشا هو ضابط الاتصال بين السلطة البريطانية والحكومة المحلية، وفى نفس الوقت الحاكم العسكرى الفعلى لمديريتى قنا وأسوان ومقره الأقصر، وهو يشرف على تجنيد العمال، وجمع المؤن والدواب، وتأمين المواصلات بين مصر والسودان،

وكل ما يتعلق بالمطالب الحربية. أما المدير «م. ى. ر. بك» فهو كما قال الشاعر القديم: «أسد علىّ وفى الحروب نعامة»، جميل الصورة، مهيب الطلعة، ضخم الجسم، كبير الشوارب، ولكنه جبان، رعديد ومكير كالثعلب فى جلد الأسد، لعب دور المنافق وحنث فى يمين مقدسة، وتفانى فى إرضاء الإنجليز، فكان الثمن فيما بعد رتبة الباشوية ووكالة وزارة الداخلية، ولكن يبدو أنه تاب بعد التقاعد وانضم للهيئة الوفدية بعد أن كان من ألد أعداء الوفد، أما الحكمدار عبده عباسى بك، ووكيل المديرية حسين كامل نصحى بك، والمأمور محمد عزيز دياب فكانوا كما وصفهم لى مختار بك، والملاحظ زين العابدين توفى فى ريعان شبابه، والضابط «ك» رقى فيما بعد مأمورًا لأحد أقسام بوليس القاهرة، ثم مفتشًا للداخلية لأنه اشتط فى تشتيت المظاهرات والقبض على الطلبة والعمال».

(١٩)

ونأتى إلى حلقة مهمة من حلقات ذكريات محمد مظهر سعيد حيث أتيح له أن يعيش فى المسكن فى أسوان مع زميل له عاش من قبل فى كمبردج وأحبها، فظل يستحضر صورتها طيلة حياته معه فى السكن، ومن الطريف أن هذه الخبرة «السلبية»، أو القائمة على التلقى دون الممارسة، ساعدت صاحب المذكرات فيما بعد على التعامل العميق والذكى مع البريطانيين، وعلى تقمص دور مَنْ عاش فى بلادهم وتربى فى تعليمهم، وسنرى فى روايات محمد مظهر سعيد أن هذه الخبرة «السلبية» المبكرة بالحياة البريطانية قد ساعدته فى مستقبل حياته مساعدات ذات شأن عظيم على نحو ما ترينا تطورات الأحداث:

«واستأجرت مع زميلى حسنين فهمى مدرس اللغة الإنجليزية (المشرف الرياضى بجامعة فؤاد الأول) مسكنًا مفروشًا، لكنا بالضرورة (كنا) نقضى معظم الوقت معًا مع اختلاف الميول والمشارب، فكان يتمسك بالتقاليد الإنجليزية، كلامًا، ومأكلاً، ومشربًا، وحركة، وإشارة، إنه تعلم وقتًا بجامعة كمبردج، وكان لا حديث له إلا مدينة كمبردج وجامعاتها وكلياتها ومعالمها وذكرياته عنها، ولا متعة له إلا ألبوم

صورها يتفحصه كل يوم ويشرح لى كل صورة، حتى أصبحت أعرف كل شىء عنها كأنى عشت فيها، ودرست معه، وحفظتها عن ظهر قلب».

(٢٠)

وهذه حلقة ثانية من حلقات ذكريات محمد مظهر سعيد أتاحت له مسرحًا متميزًا لأداء الدور الوطنى رفيع القدر الذى أتيح له أن يقوم به فى هذه الحركة الوطنية، حيث هيأت له الظروف الانتقال إلى سكن جميل كان فى الأصل استراحة خاصة بأحد المليونيرات الألمان الذين كانوا على علاقة بالمخابرات الألمانية، فلما أوشك أمر اتصال هذا المليونير بالمخابرات الألمانية أن ينكشف هرب وترك تلك الفيلا التى أتيح لمحمد مظهر سعيد أن يستأجرها وأن يؤدى من خلال إقامته فيها دوره الوطنى الكبير فى ثورة ١٩١٩:

«كان الهر فريتز فورل ملك اللحوم المقددة فى ألمانيا يملك فيلا ضخمة على النيل بمحطة الجزيِّرة (تصغير جزيرة) التى تقع شمال أسوان، وتبعد عنها بحوالى عشرين دقيقة سيراً على القدم، لأمر ما سماها «فيلا منيرة»، كانت مؤثثة بأفخر الأثاث، كاملة التجهيزات وجميع وسائل الحياة الأرستقراطية المترفة، وفى الحق كانت أفخم من أى فندق بأسوان، وبها حديقة أزهار وخضر مساحتها أربعة أفدنة، وطاحونة هواء هولندية تمدها بالكهرباء والماء، وحارس وبستانى وحمار وقارب على النيل».

. . . .

«وفى ذات يوم قبيل إعلان الحرب العالمية بأيام حلقت فوق الفيلا طائرة ترفع العلم الألمانى وألقت شيئًا ما فى الحديقة، فالتقطه الخادم وأسرع به إلى سيده، وكانوا يتناولون طعام الغداء وقتئذ، فبادروا بترك المائدة كما هى بما عليها من مأكل ومشرب وحملوا حقائب معدة من قبل وأغلقوا أبواب الفيلا ونوافذها وحملوا المفاتيح معهم ورحلوا دون أى تعليمات للحارس والبستانى، ولعل الطائرة كانت بانتظارهم فى مكان ما، والمهم أنهم كانوا فى عجلة من أمرهم فتركوا كل شىء فى الفيلا على ما هو عليه حتى ثيابهم والطعام والشراب على المائدة».

«واستولت السلطة العسكرية البريطانية على الفيلا وما فيها باعتبارها من أملاك ورعايا الأعداء، وعينوا صديقى اليونانى مدير البنك الأهلى حارسًا قضائيًا عليها، وعلم هذا الصديق برغبتى فى إحضار والدتى لقضاء فصل الشتاء بأسوان لولا صعوبة إيجاد المسكن المناسب، فكتب للحراسة العامة أن أثاث الفيلا الغالى ومحتوياتها الثمينة كادت تتلف بالترك والإهمال طوال هذه السنين، وأنه يوصى بإيجارها لاثنين من المدرسين المهذبين الراقين المتعلمين فى إنجلترا، وهما خير مَنْ يصونها، ووافقت الحراسة على ذلك بإيجار اسمى قدره ثلاثة جنيهات شهريًا، وكانت هذه أجل خدمة قدمها لى نظير رعايتى لابنه فى المدرسة».

. . . .

«وطلبنا إلى مكتبه و سلمنا المفتاح وأمضينا العقد وقائمة المنقولات، وكان كريمًا فتنازل لنا عن الأشياء غير الثابتة كالمفارش والبياضات وأدوات المائدة وآلة كتابة ومحتويات الكرار، وتعهد بدفع مرتبات الحارس والبستانى من حساب الحراسة».

(٢١)

هكذا أتاحت الأقدار هذا المقر المتميز لمحمد مظهر سعيد وصديقه محمد حبيب، وقد قادتهما روحهما الوطنية إلى أداء الدور الذى يؤهل لزعامة وطنية أو لقيادة محلية ذات تأثير، وسارت بهما الأمور من نجاح إلى آخر فى عدد من المجالات الاجتماعية التى خدمت دورهما فى الحركة الوطنية.

ونحن نرى فيما يرويه محمد مظهر سعيد ما يدلنا على أن أجهزة الأمن كانت واعية بمكرها الطبيعى لما يمكن أن ينتوى مثل هذين الشابين قيادته من عمل وطنى أو سرى:

«... وتسلمنا الفيلا ودخلناها بعد أن قضى الحارس والبستانى واثنين من فراشى المدرسة يومين فى تنظيفها وغسلها، فوجدنا أثاثها ومفروشاتها فى غاية الفخامة، ووجدنا بالقبو والكرار مخزونًا هائلاً من صناديق النبيذ الألمانى المشهور «فلاهوف»، ومياه «سلتزر» المعدنية، إلى جانب عدد كبير من المعلبات واللحوم المقددة والمحفوظة،

مما يساوى مبلغًا ضخمًا، وأهدينا مدير البنك كمية كبيرة منها، ولم يكن يعلم بوجودها فقبلها شاكرًا».

«واستطعنا بفضل مخلفات «ف . ف» (أى فرتيز فورل) أن نستضيف أصدقاءنا أيام الجمع، والأجانب أيام الآحاد، وكنا نعد الموائد وأدواتها الفاخرة فى داخل الفيلا أو فى الحديقة، ونقدم الطعام والمشروبات، وهم يظنون أنها من عندنا، وكان الأجانب يحضرون يوم الأحد مع أسرهم ويقضون اليوم فى الغناء والرقص وصيد السمك والنزهة النيلية بالقارب، وكنا ندعو الوطنيين لجلسات خاصة بعيدًا عن أعين الرقباء وآذانهم، وكان لطلابنا نصيب كبير من هذه الضيافة، فكانوا يفدون جماعة جماعة فى كل أسبوع فنرتب لهم مسابقات بجوائز، وكان لهذه الدعوات أطيب الأثر فى نفوس الجميع».

. . . .

«وفى يوم أحد فاجأنا المدير ومعه الحكمدار بالزيارة والحديقة حافلة بالضيوف الأجانب، والموائد معدة لتناول الغداء، فرحبنا به وقضى مع الضيوف وقتًا طويلاً واستمتع بغنائهم وموسيقاهم ورقصهم، وشاركهم طعام الغداء، ثم انصرف وهو يقول: «هذه حقيقة جنة . . يابختكم . . ياريت تبادلونى وأدفع لكم الفرق»، ثم تردد وضحك ونظر إلىّ الحكمدار وقال: «وهى كذلك أصلح مكان لتدبير المؤامرات، فضحكت بالمثل وقلت: «صدقت فإخواننا الأروام يتآمرون علينا كل يوم أحد كما ترى»، وضحك الجميع وبدا السرور على وجه الحكمدار من هذا الجواب الدبلوماسى البارع».

(٢٢)

وتأبى الأقدار إلا أن تهيئ لمحمد مظهر سعيد وصديقه محمد حبيب فرصة إثبات ما يدل على ولائهم للبريطانيين لا لأعدائهم، حين سلموا لهم ما وجدوه من أدلة على خطورة الدور الذى كان يقوم به الهر فورل، وقد كانت النتيجة أن حصلا على كتاب شكر وتقدير من السلطات البريطانية، وكان هذا الكتاب فيما بعد بمثابة سلاح من أسلحتهما فى الدفاع عن نفسيهما من الاتهامات التى وجهت لهما نتيجة دورهما فى ثورة ١٩١٩:

«. . . وفى ذات يوم تعطلت طاحونة الهواء، فتسلقها حبيب إلى أعلاها ليرى ما حدث لها، والتفت عرضًا إلى سطح الفيلا فرأى حجرة بيضاء مسحورة لا ترى من الأرض، فتعجب من أمرها، إذ لم يكن بالفيلا أى مدخل لها، أو سلالم تؤدى إليها، فأحضرنا سلمًا طويلاً وصعدنا إليها فوجدنا بابًا صغيرًا أبيض اللون بلون الحائط، وعليه قفل متين، فعالجناه حتى فتحناه، وكم كانت دهشنا حين وجدنا بداخلها جهازًا لاسلكيًا، وكتاب شفرة رمزية «كود»، واتضح بعد حل الشفرة أن «ف. ف» كان جاسوسًا ألمانيًا خطيرًا يتصل ببوتسدام قصر الإمبراطور غليوم رأسًا، وبادرنا بإطلاع مدير البنك على هذا الكشف وسلمناه الجهاز فأرسلهما بدوره إلى السلطة العسكرية البريطانية، فأرسلت لنا كتاب شكر وتقدير كان له أكبر الفائدة فيما بعد».

(٢٣)

ونأتى بعد هذا كله إلى ما يرويه محمد مظهر سعيد عن جوهر دوره الطليعى فى ثورة ١٩١٩ فى مدينة أسوان، ومن الطريف أنه يحرص على أن يروى أن بداية اتصاله بالثورة المصرية كان فى صورة «حادث عارض»!! ومن الجدير بالملاحظة أيضًا أن محمد مظهر سعيد ينفرد بأن يشير إلى ما لم يشر إليه غيره من أن أول سكرتير عام للوفد كان هو المهندس محمد بدر، وأن تكليفهما بدورهما فى الثورة جاء عن طريق هذا السكرتير العام، ومن الجدير بالذكر أن المصادر التاريخية التى كتب عن ثورة ١٩١٩ لم تثبت لهذا الرجل هذا الدور وإنما نجد فى كتاب الأستاذ مصطفى أمين الكتاب الممنوع ما نفهم منه أن كان سكرتيرًا لسعد زغلول باشا لا للوفد كله، ويروى مظهر سعيد أن معرفة هذا الرجل لهما قد بدأت عندما قدم أسوان لعمل استثمارى ورأى مكانتهما فى هذه المدينة، ولهذا كان من الطبيعى أن يعتمد عليهما فى خطوات ثورة ١٩١٩، وذلك عندما بدأ الوفد بجمع توقيعات المواطنين فى المدن والأقاليم لتأييده وإثبات حقه الشرعى فى التحدث باسم الشعب المصرى من أجل الحصول لمصر على حقها فى الاستقلال:

«. . . وحدث حادث عارض كان القدر قد دبره ليدفعنا دفعًا للخروج من عزلتنا السياسية والقيام بالدور الغريب الخطير فى الثورة المقبلة، ذلك أن المهندس محمد بدر

الذى اختاره سعد زغلول ليكون أول سكرتير عام للوفد المصرى الذى تألف فى أواخر هذه السنة (١٩١٨)، قبل مصطفى النحاس ومكرم عبيد وفؤاد سراج الدين حضر لأسوان لأعمال تتعلق بامتياز حصل عليه للبحث عن الحديد، وكان صديقًا لوالدى، فسأل عنا والتقينا به وأضفناه بالفيلا بضعة أيام، وسألنا عن تفاصيل قصتنا التى حدثه الوالد بها بإيجاز، فشرحنا له كل ما حدث إلى مجيئنا إلى أسوان، وكان وطنيًا ثوريًا مثلنا».

« . . . وأن الوفد بدأ يجمع توقيعات المواطنين فى المدن والأقاليم لتأييده وإثبات حقه الشرعى فى التحدث باسم الشعب المصرى».

(٢٤)

ويروى محمد مظهر سعيد تفصيلات كثيرة عن كيفية اتصالهما (هو وزميله محمد حبيب) بمندوبى سعد زغلول، ونرى فيما يرويه قدرات هائلة للشعب المصرى على التزام الحيطة فى الخطوات الثورية التى كانت ممنوعة بأمر المستعمر البريطانى، ونحن نرى الضابط «ك» الذى كان يراقب الوطنيين والحركات الوطنية قادرًا على أن يتبع مثل هذه التحركات، لكن يقظة محمد مظهر وإخوانه من نشطاء الحركة الوطنية كانت، على نحو ما نرى، كفيلة بإنقاذهم وبإنقاذ خطوات الثورة من مثل هذه العملية:

«وفى يوم ٢٥ نوفمبر أخبرنا الضابط زين العابدين بأن الأوامر صدرت من مستشار الداخلية للمدير بمنع هذه التوقيعات ومصادرة العرائض والقبض على حامليها، وفى يوم ٣٠ نوفمبر جاء مصطفى ماسح الأحذية على عجل وأخبرنا همسًا أن ناظر المحطة ينتظرنا بعد الغروب بقهوة صاوا، وكان منزله خلف المحطة بعيدًا عن العمران، ووجدته بانتظارى أمام المقهى على شاطئ النيل فى مكان هادئ مظلم، ومعه آخر قدمه على أنه الأستاذ زهدى صراف أول السكة الحديد الذى يصل أسوان من القاهرة عدة مرات كل شهر لأعمال مصلحية، وله عربة صالون خاصة لإقامته، وكان معه حافظة أوراق متخمة، وبعد التعارف والتحية أخبرنى أنه موفد من قبل محمد بك بدر سكرتير عام الوفد المصرى ومعه خطاب موجه لنا من سعد باشا ومجموعة قوائم التوكيل، وهو

ينتظر الرد ليسلمه له يداً بيد بعد أسبوع، وما كاد يمد يده ليفتح المحفظة حتى ظهر «ك» الشيطان من تحت الأرض وضحك ضحكته المعهودة».

. . . .

«. . . وسرنا بدورنا على مهل ودرنا حول المحطة لنرى إذا كان لايزال يتبعنا أو اتجه للصالون ليراقب زهدى، ولما وثقنا أنه انصرف لحال سبيله، دخلنا بيت ناظر المحطة فوجدنا زهدى هناك فسلمنا الأوراق وعاد مسرعًا لصالونه، ونحن بدورنا أخذنا الأوراق، وتركنا الأشياء للناظر لينتفع بها لأنها لم تكن إلا خدعة، وعدنا إلى الفيلا سيرًا على الأقدام بعيدًا عن شاطئ النيل».

(٢٥)

ثم يورد محمد مظهر سعيد نص الخطاب الذى حرره فى اليوم السابق صديقهما محمد بدر سكرتير عام الوفد المصرى(!!)، ولسنا نعرف هل احتفظ محمد مظهر سعيد بالرسالة منذ ذلك الحين أم أنه كان يحفظ نصها عن ظهر قلب، وهو يورد أيضًا نص التوكيل الذى كان عليهما أن يحصلا على توقيعات المواطنين عليه:

«ووجدنا فى الأوراق خطابًا تاريخيًا هامًا هذا نصه:

«سكرتارية الوفد المصرى

٢٩/ ١١/ ١٩١٨

«الأستاذان الفاضلان والوطنيان المخلصان

فلان وفلان

تحية طيبة مخلصة وبعد

«فقد عرضت على سعادة سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصرى ما أعرفه من جهادكما الصادق، ووطنيتكما المخلصة، وتضحيتكما الكبيرة السابقة فى سبيل الوطن، وأنكما خير من يمثل الوفد المصرى فى إقليم أسوان، ويؤتمن على تحقيق رسالته، وتنفيذ تعليماته».

«ويسرنى غاية السرور أن أبلغكما أن سعادة رئيس الوفد قرر اعتمادكما نائبين عن الوفد المصرى فى أسوان والنوبة، فعليكما الاتصال بالوطنيين الصادقين من أعيان وتجار وموظفين، وإطلاعهم على خطاب الاعتماد هذا، والحصول على توقيعاتهم على قوائم التأييد مع اتخاذ الحيطة التامة فى تصرفاتكما بعيداً عن أعين الحكومة، وإعادة القوائم إلينا على جناح السرعة بالوسيلة التى تضمن وصولها إلينا سالمة، وليكن رسولنا الأمين حلقة الاتصال بيننا».

«وإنى إذ أكرر التهنئة لكما نيابة عن الوفد المصرى وسعادة رئيسه أرجو لكما التوفيق فى مهمتكما، والنصر لقضية الوطن العادلة، والسلام».

السكرتير العام للوفد

محمد بدر

«أما قوائم التأييد المطبوعة فقد جاء فى أعلاها هذه العبارة:

«نحن الموقعين على هذا قد أنبنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على بك وعبد الطيف المبكاتى بك ومحمد محمود باشا ولطفى السيد بك أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة، حيثما وجدوا للسعى سبيلا، فى استقلال مصر استقلالاً تامًا».

«ويلى ذلك خانات للاسم والعنوان والإمضاء أو الختم».

(٢٦)

ويروى محمد مظهر سعيد ما يدل على عبقرية فطرية فى الخطوات التى اتخذها لجمع التوكيلات وحفظها، فقد لجأ إلى الاستعانة بفندقى نمساوى الأصل كان من رعايا الأعداء لكنه كان يكرههم، وقد أخلص هذا النمساوى هو وزوجته للحركة الوطنية حتى نجحت عملية تجميع التوكيلات فى أسوان على نحو ما نجحت فى غيرها من البلاد المصرية التى هبت لتأييد سعد زغلول وإخوانه فى ثورة ١٩١٩:

«. . . وفى اليوم التالى أطلعنا أصدقاءنا الوطنيين على الخطاب، وسلمناهم القوائم تحت مسئوليتهم مع اتخاذ الحيطة والكتمان وحفظ القوائم لديهم فى مكان خفى

مأمون، دفعًا لأى مظنة أو شبهة فى أى مصرى تسلم القوائم فى ظرف أسبوع لمدير فندق «ماجستيك» النمساوى الذى توثقت صلتى به عندما نزلت بفندقه فى أول الأمر، وكان هو وزوجته يكرهان الإنجليز كراهية التحريم، وهو ليس موضع شبهة، وإن كان من رعايا الأعداء، لأنه عاش فى أسوان مدة طويلة وتمصر وليس له أى اتجاه سياسى، واحتاجت السلطة العسكرية البريطانية إليه فى أثناء الحرب، لنزول الضباط بفندقه، وقد أثنوا على خدماته لهم أطيب الثناء، وتوثقت الصلة بعد أن حكيت لهما قصتى، وكان يفرد لنا غرفة خاصة منعزلة نجتمع فيها خفية للتشاور فى الأمور بعيدين عن الرقباء، وينكر وجودنا لمن يسأل عنا من الغرباء، وتجلس زوجته فى مواجهة الباب الكبير، فإذا اشتمت رائحة الخطر قرعت الجرس ثلاث مرات فنتسلل من الباب الخلفى، وأخطرناه بتسلم القوائم من أصحابها، ثم يسلمها لطه كحالة»،

(٢٧)

ويورد محمد مظهر سعيد بعض أسماء زعماء الطوائف الذين تعاونوا معهم فى هذا الإنجاز الوطنى:

«وكنا قد سلمنا حنفى بك منصور قوائم الأعيان، والشيخ أبو بكر كحالة قوائم التجار، والمهندس أحمد شوكت قوائم الموظفين، والأستاذ توفيق رشدى قوائم المدرسين، والمهندس أحمد حسنين قوائم الخزان، والنجار بك قوائم الجزيرة، والشيخ عبد القادر قوائم جزيرة أسوان، وطه كحالة قوائم البلاد الشمالية حتى إسنا لعائلة حزين بك، وتركنا ضباط الجيش والبوليس لظروفهم الخاصة».

(٢٨)

ونأتى إلى قصة المغامرة التى يروى محمد مظهر سعيد أنه قام بها، مستغلا مرضه وإقامته فى المستشفى للتغطية على قيامه بتسليم التوكيلات إلى مندوب الوفد، ونحن نرى طرافة شديدة فى تدبير محمد مظهر سعيد لخطته للقيام بهذا الدور الذى لم يتعد تسلم سلة التوكيلات من طه كحالة وتسليمها لزهدى، مع أن عملية التسليم والتسلم

كانت ستتم فى المكان نفسه، لكننا نقدر ما كان يقدره هؤلاء الوطنيون من ضرورة تأدية مثل هذه الأعمال على الوجه الأكمل من دون ترك أية ثغرة لخطأ غير مقصود:

«وواجهنا المشكلة الخطيرة المعقدة، وهى: كيف نتسلم التوكيلات من طه كحالة ونسلمها لزهدى ونحن الاثنان مراقبان مراقبة شديدة، وخطواتنا محسوبة علينا فعلاً، وجاءت المصادفة الثانية وكانت مصادفة سعيدة حقًا دبرها القدر الرحيم لنجاح المهمة من أيسر طريق، فقبل موعد التسليم بثلاثة أيام أصبت بخراج كبير فى الزور اقتضى عملية جراحية فى المستشفى الأميرى والبقاء به للعلاج أسبوعًا على الأقل مع الاشتباه فى حالة دفتيريا، وأخطرت المدرسة بذلك، وكان الدكتور نسيم يمر علىّ كل صباح للغيار ويقضى معظم وقت فراغه معى، وحبيب يلازمنى بعدئذ من بعد انتهاء دروس المدرسة إلى الغروب، ثم تتولانى المرضة إلى منتصف الليل، كانت المرضة راهبة إيطالية سألتنى عن حالى فى الليلة الأولى فأجبتها بالإيطالية وأخبرتها أن أمى إيطالية، فأخذت تسامرنى وتقرأ لى شعرًا أو رواية إيطالية إلى أن يدركنى النعاس، وتتركنى ساعة واحدة لتناول العشاء والصلاة، ثم تعود، وتردد الإخوان الوطنيون على المستشفى لزيارتى، وكلفت طه كحالة أن يسأل ناظر المحطة عن موعد وصول زهدى وتتم المقابلة بينى وبين زهدى قبيل العشاء فى منزل المحطة، وفى نفس الوقت يكون طه بانتظارى أمام قهوة صاوا لأن زهدى لا يعرفه، ويضع الأوراق فى سلة صغيرة يغطيها بطبقة من الخضار أو الخيار أو الفواكه أو أى شىء آخر كأنه يحملها إلى منزله».

«وكان «ك» يزور المستشفى زيارات مفاجئة متقطعة ويراقب زوارى فى دخولهم وخروجهم، ويفتش ما يحملونه من فاكهة وجرائد بدافع مجرد الاستطلاع كما يدعى، وينتظر حبيب عصرًا ويدخل معه غرفتى ويلازمنا حتى يخرج فيخرج معه ويسير معه قليلاً فى طريق الفيلا فإذا اطمأن لعدم عودته انصرف، وكان يستدرجنى فى الكلام ويقترح أن يصاحبنى فى جولة بالحديقة أو على كورنيش النيل لتغيير الهواء، فأظل نائمًا فى سريرى أتوجع وأظهر الألم عند كل حركة، وجعلت الدكتور نسيم ينصحنى أمامه بأن فى مبارحة السرير خطرًا كبيرًا فقد يفتح الجرح فأحتاج لعملية أخرى، ثم يطلب من المرضة إعطائى دواء مسكنًا أو منومًا».

«وحرت فى أمر هذه المراقبة المتواصلة وشممت رائحة الخيانة، وتوجست شراً من «ك» فطلبت من حبيب أن يضع خطاب سعد باشا والأوراق الأخرى الواردة من محمد بك بدر فى صندوق صغير من الصفيح ويدفنه فى أرض حديقة الفيلا بعيداً عن الرجل فى مكان يعرفه، وقد صدق حدسى فى الخيانة، فقد علمت فيما بعد أن شخصًا ما وشى بوصول خطاب من سعد باشا ومعه قوائم التوكيل، مع أنه حلف اليمين، وكان هذا الشخص أحد صغار الأعيان، وكافأته الحكومة بأن عينته عمدة فى مكان ما ومنحته رتبة الباكوية، وساعدته تجاريًا حتى اغتنى».

«وفى الليلة المعهودة دخلت الراهبة قبيل الغروب فتصنعت الألم الشديد وطلبت منها منومًا قويًا، فأعطتنى ما طلبت وقالت: ستنام فى راحة تامة حتى الصباح، وبعد قليل طلبت كوب ماء لبلع المنوم، وتظاهرت أنى بلعته واستغرقت فى النوم، وكان الظلام قد حل فتركتنى وأغلقت الباب، وما كاد صوت أقدامها يختفى حتى قمت مسرعًا ولبست القميص والبنطلون والحذاء المطاط ونزلت من النافذة، وقفزت من السور الخلفى وجريت مسرعًا، وطفت بشرقى المدينة بعيدًا عن المساكن، ومن فناء المحطة تسلمت السلة من طه وسلمتها لزهدى فى منزل الناظر، فأسرع بها إلى صالونه، وسافر صباح اليوم التالى».

«ولاحظت فى أثناء عودتى لفناء المحطة شبحًا يتلصص بجوار القهوة ويبدو أنه رآنى فاتجه نحوى، فجريت مسرعًا بأقصى ما يمكن ودرت فى الحوارى والأزقة الجانبية متجنبًا شارع الكورنيش، وأسوان كما هو معلوم تنام من المغرب ما عدا رواد المقاهى ونزلاء الفنادق على شاطئ النيل، وعدت إلى غرفتى بالمستشفى، ونمت فى فراشى كأن شيئًا لم يحدث، وعادت الممرضة فى موعدها فرأتنى أغط فى نوم عميق».

(٢٩)

ولا تكتمل طرافة المغامرة التى رواها محمد مظهر سعيد من دون أن نرى الجانب الآخر لها متمثلاً فى التحقيق الذى أجرته السلطات حول ما وصلها من معلومات

بشأنها، ومن الإنصاف أن نشيد بسلوك أولئك الذين يستحق سلوكهم الإشادة به، وفى مقدمتهم الطبيب نسيم الذى كان قادراً على مواجهة الضابط بما يدحض شهادته من أساسها:

«وكان الدكتور نسيم قد قيد اسمى فى سجل المستشفى يوم دخولى، وتاريخ العملية الجراحية، ونوعها، ومدة العلاج، وأرسل الشهادة الطبية للمدرسة، وبعد يومين فوجئت بدخول رئيس النيابة حليم برسوم، ومعه مأمور المركز، والضابط الإنجليزى إياه، و«ك» (وهو الضابط العميل الذى كان متربصًا بمحمد مظهر سعيد وحريصًا على ضبطه متلبسًا بأداء دوره الوطنى)، وكاتب النيابة، وأحضروا لهم منضدة جلسوا إليها، فأعدت تمثيل التأوه والتوجع، وبدأ التحقيق وفتح المحضر، وقبل أن أجيب عن الأسئلة سمعت شخصًا يسعل فى الخارج عرفت من صوته أنه حبيب، وقد تركوه خارجًا فأدركت أن فى الأمر خدعة، وبدأ رئيس النيابة يقول: وردت إشارة عاجلة من جناب مفتش الداخلية باتهامك أنت وزميلك الأستاذ حبيب بأنك أطلعت بعض الأشخاص على خطاب ثورى وارد من القاهرة، وقدمت لهم قوائم لجمع توقيعات بتأييد ما يسمى بالوفد المصرى، مخالفين بذلك أمر وزارة الداخلية، وحصلت فعلاً على هذه القوائم مساء أول أمس وسلمتها لشخص آخر ثم اختفيت، قلت: وما الدليل؟ وأين كان ذلك؟ قال: تقرير البوليس يقول عند قهوة صاوا، والتقرير يقول إن زميلك اعترف ولا داعى للإنكار، قلت: ومَنْ الذى رآنى؟ ولماذا لم يقبض علىّ متلبسًا؟ فاندفع «ك» يقول: أنا رأيتك بعينى هذه، وأردت اللحاق بك، ولكنك جريت أسرع منى وهربت، فوجهت الكلام للضابط الإنجليزى، وقلت: إذا كان زميلى قد اعترف فهو وحده المسئول عن اعترافه، وعلى فرض أن هذا حدث فنحن مصريون ولسنا إنجليزا ولا صنائع إنجليز، فيكون ما فعلنا واجبًا وطنيًا لا يعاقب عليه القانون، أما عنى أنا فاسألوا الدكتور مدير المستشفى والممرضة الراهبة التى تلازم غرفتى».

« وجاء الدكتور نسيم وبعد أن اطلع على التقرير قلب نظره فيهم وقال فى تهكم: ما هذا التخريف؟ الأستاذ مظهر دخل المستشفى منذ أربعة أيام كما هو ثابت فى السجل، وأجريت له عملية جراحية خطيرة تستلزم ملازمة السرير أسبوعًا على الأقل، وقد أخطرنا المدرسة بذلك، وهو لايزال يتألم من الخراج، والممرضة تلازمه من قبل

الغـروب إلى منتـصف الليل وتعطيـه الدواء المسكن والمنوم، وهى راهبـة لا تكذب فاسألوها، ومن المستحيل أن يكون قد فعل ما ذكره التقرير، فقاطعه «ك» بانفعال شديد وقال: ولكنى رأيته بعينى ولكنه طار منى، فأجابه الدكتور ببرود واحتقار: لو حدث ما تتوهمه لمات فى منتصف الطريق من الاختناق، أو من نزيف الجرح، يظهر ياحضرة الضـابط أنك مـصاب بالهلوسة، أو إدمـان المخدرات، ترى وتسمع أشياء وهمية لا وجود لها، وهذا مرض عصبى خطير يجب أن تبادر بعلاجه قبل أن يصل بك إلى مستشفى المجانين».

«وأصر الضابط الإنجليزى على سماع الراهبة، فاستدعوها من الدير، ولما علمت الموضوع انفعلت فى غضب زائد وقالت: دى كلام واحد شيطان مجنون وملعون، فى اليوم دى كان تعبان كتير، وقبل المغرب أخذ منوم شديد، ونام حتى الصبح، وأنا معاه لحد منتصف الليل، فالتفت الضابط الإنجليزى إلى «ك» وقال فى حدة وشرر الغضب يتطاير من عينيه: «أنتو مش بوليس، أنتو حمير، حشاشين، كذابين، ما تنفعوش أبدًا، بكره راح نشوف»، وابتلع «ك» الإهانة صاغرًا وأقفل المحضر بالحفظ وانصرفوا».

(٣٠)

ثم يتحدث محمد مظهر سعيد عن الأثر المعنوى الذى واكب نجاحه فى هذه العملية الفدائية، وبخاصة أن هذه العملية قد كرست مكانته هو وزميله نائبين عن زعيم الأمة سعد زغلول، ونحن نرى ملامح الذكاء الاجتماعى واضحة فى سلوك هذين الوطنيين اللذين دفعا بالموقف خطوات متعاقبة أخرى فى طريق نيابتهما عن زعيم الأمة وقيادتهما للحركة الوطنية فى أسوان، وقد نجحا فى دعوة الأسوانيين إلى دارهم فى زيارة لهؤلاء الأعيان والتجار فى دورهم أيضا:

«. . . وأسدل السـتار على هذه التجربة الخطرة الموفقة التى مرت بسلام، ولكننا خرجنا منها بنصر شعبى كبير، فقد عرف الناس ما حدث، وأن القوائم وصلت مصر بطريقة لا يعرفها أحد، وأننا لعبنا بمفتش الداخلية والبوليس، وعرف الجميع أننا نائبان عن زعيم الأمة والوفد المصرى الذى يضم كبار الشخصيات الوطنية، ونحن لابد أن نكون منهم بالطبع، فكنا نتلقى التحيات الحارة، والاحترام الزائد أينما سرنا، وفى

نفس الوقت صرنا أبطالاً فى نظر الطلبة، وبدأ الناس يتساءلون عنا . . مَنْ نكون؟ ولماذا قبلنا العمل بمدرسة حرة بأسوان وهى تعد منفى الموظفين؟ وكيف وصلنا إلى هذه المكانة المرموقة عند الوفد فى القاهرة ونحن هنا؟ لابد أننا مكلفون بمهمة وطنية خطيرة».

«فرأينا الفرصة مناسبة لاستغلال هذه السمعة الطيبة لصالح القضية الوطنية، فتخيرنا عشرين من أشد الأعيان والتجار الأسوانيين غيرة ووطنية، ودعونا إلى وليمة غداء بالفيلا، وحضروا فوجدوا الموائد وأدواتها الفضية والصينية والبللورية، ومفارشها المزخرفة معدة أتم إعداد، وكلها منسقة فى الحديقة أجمل تنسيق، والفضل طبعًا للجاسوس «ف . ف»، وكان الطعام شهيًا من الخرفان التى أهداها النجار بك، والسمك العظيم من مهندسى الخزان، وأصناف البقالة والمعلبات والمشهيات من التجار الأروام، والضيوف لا يعرفون».

. . . .

«وجاء دور السياسة، فحدثناهم حديثًا مستفيضًا عن القضية المصرية من ثورة عرابى للآن، ودور الوفد المصرى فى الدفاع عنها، وواجب كل مصرى وطنى صميم، وكانت معظم المعلومات جديدة عليهم بالطبع، ثم انصرفوا شاكرين حامدين، وقد ازدادت حيرتهم فى أمرنا، لكنهم أصبحوا معنا قلبًا وقالبا».

. . . .

« . . . وقمنا بعدة زيارات للأعيان فى منازلهم، والتجار فى متاجرهم، وأخذنا نبصرهم بالموقف الدولى وقضية مصر والأحداث الجارية، ونروى ما كان يحدثنا به زهدى من أخبار أكثر تفصيلاً من أخبار الصحف، مما أقنع الناس بأن لنا وسائل خاصة جبارة للاطلاع على مجريات الأمور».

(٣١)

ويقترن حديث الثورة فى هذه المذكرات بأحاديث أخرى عن مجريات الحياة العادية والخاصة، فها هو محمد مظهر سعيد يروى دوره فى توزيع خطاب سعد زغلول فى ١٥

يناير ١٩١٩ ، ويعقب هذا بدعوته لوالدته وأشقائه إلى الإقامة معه فى أسوان، ومدى الحفاوة التى لقيتها والدته عندما زارت هذه المدينة :

«يوم ١٥ يناير ١٩١٩ سلمنا زهدى عدة نسخ من الخطب السياسية التى ألقاها سعد زغلول فى منزل حمد الباسل فى يوم ١٣ يناير ، ولم تشر إليها الصحف ، فوزعناها على الأصدقاء ، وأكد لنا أن نذر السحب قد بدأت تتجمع فى سماء القاهرة ، وسوف تؤدى إلى انفجار مروع ، فبادرت وأحضرت والدتى وشقيقتى وأخى الصغير مصطفى لقضاء فصل الشتاء بأسوان بعيداً عن جو القاهرة ، ورأيت أن تنزل بمحطة أسوان بدلاً من محطة الجزيرة القريبة من الفيلا لترى المدينة ، وعند وصول القطار دهش الواقفون على رصيف المحطة عندما رأوا سيدة بيضاء اللون ، ذهبية الشعر ، سافرة الوجه ، أوروبية الملابس ، ومعها فتاة وصبى يشبهانها ، وظنوها سائحة إفرنجية ، ولما رأونى أستقبلها وأقبل يدها وأقبل الصغيرين عرفوا أنها أمى فحيوها مبتسمين بإحناء الرأس ، وردت التحية بأحسن منها ، وسارت بنا عربة الحنطور المكشوفة تخترق شارع النيل على مهل إلى الفيلا ، وعلى مرأى ومسمع من الناس» .

. . . .

« . . . وبعد قليل زارتنا أسرة النجار بك المجاورة ، ثم توالت زيارة سيدات أسوان ، وكانت أمى إذا نزلت أسوان وهى مسافرة فى العربة المكشوفة لرد الزيارات أو للنزهة وقف الناس على طول الطريق يحيونها فى احترام ، وترد عليهم التحية فى ابتسام ووقار» .

(٣٢)

وتمضى الأيام حتى يأتى لمحمد مظهر سعيد التكليف بتنظيم مظاهرة شعبية كبرى فى أسوان ، وذلك عقب اندلاع الثورة فى القاهرة ٩ مارس ١٩١٩ ، ونحن نلاحظ النجاح الرهيب الذى أحرزه صاحب المذكرات فى تنظيم المظاهرة فى ١٥ مارس ١٩١٩ ، أى قبل أن ينقضى أسبوع على قيام ثورة القاهرة التى اندلعت عقب القبض على سعد زغلول وصحبه .

ونحن نرى فيما يرويه محمد مظهر سعيد كل مظاهر الثورة الشعبية الحقيقية، بدءاً من تعاون الفئات المختلفة فى إنجاز متطلبات الثورة، كما نلاحظ فيما يرويه صاحب المذكرات ما يدل بوضوح على قدرات تنظيمية متميزة له ولزميله وللأعيان ومجموع الشعب، ونرى فيما يرويه ما يدل على كثير من الأسباب التى ساعدت على نجاح الثورة من الاقتناع والإخلاص والولاء والفهم والتعاون:

«وحضر زهدى لأسوان يوم ١١ مارس وأخبرنا أن مظاهرات ضخمة اجتاحت القاهرة يوم ٩ مارس احتجاجًا على اعتقال سعد ونفيه، وأن الإضراب العام قد أعلن، ووقعت مصادمات عنيفة دامية مع الجنود البريطانيين المسلحين سقط فيها عدد كبير من الضحايا والشهداء، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وأن مظاهرات أخرى بدأت فى المنيا وأسيوط يوم ١٠ مارس، والبلاد كلها تستعد لثورة عارمة شاملة عما قريب، وأن الوفد يأمرنا بإعداد العدة من الآن لمظاهرة شعبية كبرى، وإسقاط الحكومة المحلية إذا لزم الأمر، وإقامة حكومة وطنية شعارها «الهلال والصليب» من الشخصيات البارزة الوطنية الجريئة، وكان هذا إجراء خطيراً، وخاصة بعد أن أخبرنا ناظر المحطة فى اليوم التالى أن السكة الحديد وجميع المواصلات ووسائل النقل قد تعطلت تمامًا بين القاهرة وقنا».

«واستقر الرأى بعد المناقشة واستطلاع رأى الأعيان والتجار والموظفين الوطنيين على تنفيذ أمر الوفد، وأن تقوم المظاهرة يوم ١٥ مارس، وفوراً تبرع التجار بالقماش والأخشاب والبويات والحبال، وكل ما يلزم لعمل الأعلام واللافتات، وتطوعت مدرسات الجمعيات الخيرية بعمل الأعلام، ومدرسة الصنايع باليفط، وطلبنا أن يكون على الأعلام رمز «الهلال والصليب»، وعلى اللافتات عبارات: تحيا الحرية، يحيا الاستقلال، يحيا الوفد، تحيا مصر حرة مستقلة، يسقط الاحتلال، وأعددنا قادة المظاهرة والمشرفين والخطباء والهتافة، ورسمنا خط سير المظاهرة، وحددنا توقيتها وكل ما يلزم لنجاحها».

(٣٣)

ومن الجدير بالذكر أن محمد مظهر سعيد حرص على أن يقدم صورة شبه كاملة لسيناريو يوم الثورة، وهو سيناريو جميل منظم ومعبر عن رغبة جموع الشعب فى تغيير

الوضع، وعن استعدادهم لتحمل تبعاتهم من أجل هذا التغيير، ونرى فى الوصف الذى يقدمه صاحب المذكرات الأهمية القصوى لعنصر الكلمة متمثلة فى الخطب المختلفة التى تلقى فى الجماهير فى المراحل المختلفة للمظاهرة، وكأن هذه الخطب جرعات متوالية دافعة إلى الحماس وإلى استمرار جذوة الثورة على النحو الكفيل لها بتحقيق أهدافها:

«. . . تبدأ التجمعات الساعة التاسعة صباحًا أمام مدرسة الصنايع فى أقصى شمال المدينة، وتقبل الجموع من طرق متفرقة، وتخترق المظاهرة المدينة من شمالها إلى جنوبها عن طريق شارع النيل، مارة بدير الراهبات، والمستشفى الأميرى، والمدرسة الأميرية الابتدائية، والبنك الأهلى، وسراى المدير، ثم مركز البوليس، وسراى المديرية، والمحكمة، وفندق جراند ومحطة السكة الحديد، ثم تعود من دخل المدينة عبر السوق اليسارية، وتنتهى كما بدأت عند مدرسة الصنايع، أما فندق كتراكت فكان بعيدًا عن خط سيرها، وقد تحاشيناه لوجود عدد من الضباط الإنجليز وأسرهم به».

«وحددنا مواقف الخطابة والخطباء حيث تقف المظاهرة فى بعض الأماكن المهمة لبضع دقائق تلقى فيها الخطب على الجماهير: توفيق رشدى أمام مدرسة الصنايع، والشيخ إبراهيم مدرس اللغة العربية بمدرستنا أمام المدرسة الأميرية، وأنا أمام سراى المديرية، وحبيب أمام المحكمة وفندق جراند، وطه كحالة بالسوق، وأخطرنا ناظر المدارس والناظرات بالخطة لإعداد التلاميذ والطلاب واصطحابهم إلى الأماكن المعدة لهم، واخترنا عدة أشخاص ليكونوا ضباط اتصال، وأرسلنا رسلاً يطمئنون دير الراهبات والبنك والفنادق على حسن سير المظاهرة، وعدم الخوف من أى إخلال بالنظام، وأن تظل المقاهى والمتاجر والفنادق مفتوحة كالمعتاد».

(٣٤)

ونأتى إلى الوصف التفصيلى لما حدث فى يوم المظاهرة من نجاحات، ومن معوقات ومن محاولات ناجحة للقضاء على هذه المعوقات، وقد كانت أبرز هذه المعوقات فيما يتعلق بصاحب المذكرات هى المحاولة المبكرة التى قام بها بعض أعضاء مجلس إدارة مدرسة الأقباط لإجهاض دوره فى المظاهرة بدعوى حماية مصلحة المدرسة نفسها من

عسف الحكومة التى كانت تتولى تقديم الإعانة السنوية لها، ونحن نرى ردود صاحب المذكرات تبين عن إيمان عميق بالثورة وجدواها، والوثوق فى نجاحها وسيطرتها على مستقبل البلاد، ونرى كذلك أن ثقته هذه كانت مبعث النجاح له فى مناقشاته مع المحامى الذى وجه إليه الاتهام، كما نرى جذوة الوطنية الحقيقية فى تعليق المهندس لبيب نسيم الذى تمكن به من أن ينتصر لمستقبل الحركة الوطنية، كما نرى حنكة الناظر وقدرته على فهم ما توحى به عبارات محمد مظهر سعيد من ثقته فى المستقبل:

«وبدأ الاستعداد ليوم المظاهرة التاريخى المشهود على ساق وقدم، واضطرتنى الظروف لترك المدرسة بعد الحصة الأولى لمراقبة العمل بمدرسة الصنايع ومدرسة البنات، وكنت قد شرحت للطلبة خط سير المظاهرة وواجبهم فيها، ورسمت خريطة حددت فيها أماكن الوقوف بعلامات وتركتها دون أن أمحوها، وحضر الناظر للفصل بعدى وسأل الطلاب عنها فأجابوا بأنها تمرين على قياس المسافات والأطوال، وتكتموا الخبر عنه، وعدت ظهراً فدعيت لمكتب الناظر، وهناك وجدت أعضاء مجلس الإدارة للجمعية القبطية التى تملك المدرسة، وهم منقريوس بك رئيس الجمعية، والأستاذ رزق سليمان المحامى، والمهندس لبيب نسيم، والدكتور نسيم داود، وناظر المدرسة، ونجيب أفندى سكرتير المجلس، وقسيس الكنيسة، وشخص آخر لا أعرفه، وبدأ المحامى استجوابى بقوله: لقد وصلت إلى علم المجلس أخبار متواترة عن أمور غريبة ومريبة تقوم بها أنت وزميلك الأستاذ حبيب، وقد كلفنى مجلس الإدارة باستجوابك عنها. أنت تعلم مبدئيًا أن هذه مدرسة حرة تعتمد على إعانة الوزارة وتبرعات الأهلين التى تقبض منها مرتبك، والوزارة تحظر على المدارس وموظفيها الاشتغال بالسياسة، وأنت على نشاط سياسى ملحوظ يضر بسمعة المدرسة لدى الوزارة والأهالى، وقد تقوم الوزارة بقطع إعانة المدرسة وربما إغلاقها، وفوق هذا فقد تخلفت عن الدروس دون إذن من الناظر وطلبت إجازة مرضية إن كنت مريضًا حقًا، فأجبته: لا تنس أننى على العكس أحببت المدرسة، ونفخت فى روحها وجعلتها مدرسة بمعنى الكلمة، وإن كان هناك واجب وطنى أهم من مدرستكم أرى أنه يتعين علىّ القيام به فليس هذا من شأنكم، وأنا مستعد لتقديم استقالتى من الآن، وعلى كل أنتم معذورون، وأقدر موقفكم، ولن أحاسبكم عليه فيما بعد، إن الأهالى معى ما عداكم، ومعى كل مواطن حر يحس فى قرارة نفسه بالدافع الوطنى لخدمة وطنه، وتأييد الوفد المصرى الذى

يطالب بحريتكم واستقلالكم وتخليصكم من عبودية الاحتلال والاستعمار، فإذا كنتم تخرجون على الإجماع، وتتخلفون عن الركب، فهذا شأنكم، والشعب هو الذى سيحاسبكم على موقفكم منه، وتأزم الأمر وتحرج الموقف، وارتبك الأعضاء كأنهم فهموا مرمى كلامى، وخافوا على أنفسهم من غضب الشعب، وتصدى المهندس نسيم لإنقاذ الموقف فقال فى تحمس وشجاعة، مع أنه متخرج فى إنجلترا وزوجته إنجليزية: أرجو أن ينتهى الموضوع عند هذا الحد، فأنا وأنتم وكل المواطنين المخلصين يعلمون تمام العلم أن مظهر وحبيب يقومان بعمل وطنى جليل باعتبارهما نائبين عن الوفد المصرى الذى يدافع عن حقوق البلاد، وهذا شرف عظيم لهما، وتعلمون كذلك كم من الزعماء ضحوا بأنفسهم وقبلوا أن يقبض عليهم، ويزجوا فى السجون، وها هم زعماء مصر الشيوخ العظماء فى المنفى، وسيحدث أكثر من هذا وأكثر، وكله لمصلحة البلد، والأستاذ مظهر جدير بأن نشكره ونقدره ونساعده، وخاصة أنه لم يقصر فى واجباته المدرسية، بل قام بما هو فوق الواجب».

«وتذكر الناظر خريطة السبورة وقال: هل كانت الخريطة خط سير المظاهرة التى أطلعت الطلبة عليه قبل أن تخبرنا؟ فأجبت ببرود: نعم، وأرجو أن تشاركنى أنت وأعضاء المجلس فى خروج المدرسين يوم المظاهرة بنظام، وتقودهم إلى مكانهم المحدد لهم بنظام، ليشتركوا فى المظاهرة مع بقية زملائهم، وإلا خرجوا عليك وذهبوا من تلقاء أنفسهم أو تعتبر المدرسة خارجة عن إجماع الشعب، وهذا واجب كل وطنى، مسيحيًا كان أو مسلمًا، إلا إذا كنتم تفضلون بقاء الاحتلال، وستسمع ياحضرة الناظر دوى المظاهرة عندما تبدأ من الإسكندرية إلى حلفا، وكان منقريوس بك رجلاً حكيمًا محنكًا أدرك مغزى عباراتى فقال فى تؤدة: باركك الرب ووفقك فى خدمة البلد، ولكن أرجوك ألا تعرض المدرسة للارتباك أو الخسارة، وانتهت الجلسة عند هذا الحد، وخرج أعضاء المجلس واجمين، وشكرت المهندس لبيب نسيم على وطنيته الصادقة».

(٣٥)

ولا يفوت محمد مظهر سعيد فى خضم كل هذا أن يشير إلى طبيعة اقتناع الشعب بقيمة الثورة وأهميتها:

«. . . وقد استجاب جميع الناس من وطنيين وأجانب بروح طيبة عالية، لأن الوعى القومى قد تيقظ، وأيقن الشعب أنها معركة ضد الاحتلال والاستعمار، وتملكتهم جميعًا روح الجهاد والتضحية».

(٣٦)

ويصل محمد مظهر سعيد بنا إلى مرحلة التعاهد على الثورة، ووضع ما يمكن وصفه بأنه خطة بديلة لتسلم زمام الحكم المحلى فى مدينة أسوان، وربما كانت هذه الصيغة التى وصل إليها هؤلاء الثوار بمثابة «حجر الزاوية» فى الاتهام الذى وجهته إليهم سلطات الاحتلال ومعاونوها فيما بعد:

«وفى المساء عقدنا اجتماعًا للإخوان العشرين الممثلين لمختلف قطاعات الشعب بمنزل الشيخ مصطفى قديس المتطرف (الوصف للمنزل لا للشيخ) عن البلد، وعرضنا الموضوع كله تفصيلاً، وقلنا إن الدين يأمرنا بالجهاد فى سبيل الله والوطن، ولو أدى الأمر إلى إسقاط الحكومة كطلب الوفد، وبعد مناقشة قصيرة والرد على بعض الاستفسارات اتخذت القرارات الآتية بالإجماع وأقسمنا اليمين على تنفيذها:

١ - تأليف مجلس وطنى من الأعضاء الحاضرين يتولى الحكم المحلى بمديرية أسوان.

٢ - تعيين لجنة تنفيذية عليا رباعية برئاسة الأستاذ مظهر سعيد، وعضوية الأستاذ محمد حبيب أحمد نقيب المرغنية، والشيخ مصطفى قديس ممثل الأعيان والتجار الأسوانيين، وجبالى عبد النبى جبالى ممثل العربان.

٣ - تعيين فرقة من الحرس الوطنى المسلحين المتطوعين لحراسة الفيلا مركز اللجنة التنفيذية العليا، وتلقى الأوامر وتبليغها.

٤ - الاستيلاء على جميع دور الحكومة، وإقالة مدير المديرية، وتعطيل المحكمة واستمرار جميع الموظفين فى أداء أعمالهم وصرف مرتباتهم الشهرية كالمعتاد من الأموال الأميرية حيثما وجدت.

٥ - المحافظة على خزان أسوان والنزلاء بالفنادق.

٦ ـ حلف اليمين على القرآن والإنجيل باحترام هذه القرارات وتنفيذها بكل دقة وأمانة وإخلاص مهما كانت الظروف والنتائج حتى الموت .

٧ ـ إعلان هذه القرارات للشعب أمام سراى المديرية يوم المظاهرة .

٨ ـ إبلاغ هذه القرارات للوفد المصرى بكل وسيلة ممكنة» .

«وبعد حلف اليمين وكتابة عدة نسخ من القرارات رأست الجلسة ، واخترنا المندوبين لإبلاغ القرارات للمواطنين كل فى منطقته ، واقترحت أن يبقى الحكمدار الوطنى المخلص بسراى المديرية مشرفًا على البوليس والإدارة ، وأن يتولى الأستاذ حبيب رقابة المواصلات والفنادق ، وأحمد حسنين رقابة الخزان ، فوافقوا بالإجماع ، وقلت إننا فى حاجة للسلاح وخاصة أعضاء اللجنة الرباعية ، أما بقية الأعضاء فلديهم سلاحهم ، فتبرع كل من المهندس أحمد حسنين ، والشيخ عبد القادر بمسدسين ، ووصلتنا المسدسات بالفعل ومعها كمية كبيرة من الطلقات» .

. . . .

(٣٧)

ونأتى إلى المرحلة التى شهدت تقدير الموقف على الجهة الأخرى ، ونحن نرى محمد مظهر سعيد يلجأ إلى الحكمدار وهو المسئول الأول عن قوات الشرطة ويفهم منه أن الشرطة المصرية لن تشارك فى عداء الشعب أو مقاومة ثورته ، وأنه أبلغ المدير (وهو ما يناظر منصب المحافظ الآن) بهذا المعنى ، وهكذا بدأت المعطيات تتغير لصالح الثورة والحركة الوطنية :

« . . . وكان الحكمدار ينتظرنى بفندق جراند فاختليت به وقلت له : المدير رجل لا يطمأن إليه ، أما أنت فالجميع يعرفون صادق وطنيتك ، ستقوم صباح الغد المظاهرة الشعبية الكبرى لتأييد الوفد ، فماذا يكون موقف البوليس إذا ما رأى المدير أن يفضها بالقوة؟ هل تشتبكون مع الأهالى وأنتم قلة رغم سلاحكم؟ أخشى إن حدث هذا فقد يحصل ما لا تحمد عقباه ، ونحن نريد أن ينتهى اليوم بسلام ، فابتسم وقال فى هدوء : نحن على علم كامل بكل شىء ، وكذلك مفتش الداخلية ، وقد اتصل بالمدير اليوم

وأمره بفض المظاهرة بالقوة من نقطة البدء ومكان التجمع، والقبض على الزعماء وخاصة أنتم الأربعة، ولكنى خالفته وأنذرته بالضرر البالغ الذى يحدث حتمًا من تعرض البوليس للشعب المتحمس الثائر، وقلت له: أنا لا أتحمل المسئولية، ولو تحملها هو وأصدر الأمر بنفسه عرض حياته وأسرته لخطر محقق، وأن الذى يفض المظاهرات فى مصر، كما علمنا، ليس البوليس المصرى، وإنما الجيش البريطانى، فإن أراد المفتش أن يفض المظاهرة فليحضر بنفسه على رأس العساكر الإنجليز، وأكد له أن البوليس سيقف على الحياد، ويساعد على حفظ النظام ويحمى المظاهرة من الغوغاء، ولا أظن المدير، وهو رجل جبان كما نعرف، يجرؤ على تغيير رأيه ويصدر الأمر بالمنع، ولو فعل لخالفته وليكن ما يكون، وأقسم بالله على ذلك، وانصرف».

(٣٨)

ومع كل هذه البشائر فإن حذر محمد مظهر سعيد غلبه، ورأى أن يؤمن ظهر المظاهرات بدعم من الجيش المصرى الموجود فى أسوان فى حراسة خزان أسوان (قيادة أورطة الخزان)، وقد كان من حسن حظ الحركة الوطنية أن القومندان كان مرحبًا بالثورة، حانقًا على الحكومة، ومع أنه لم يكن يحبذ الاشتراك فى عمل خارج عن حدوده إلا أنه توصل إلى حل وسط ذكى بأن قام بإجازة وترك للضباط التالين له تسيير الأمور، وهكذا أمكن أن تشارك قوات الجيش المصرى طلائع الحركة الوطنية فى ثورة أسوان، وقد كان مدبرو الثورة من الذكاء بحيث انتبهوا إلى الأهمية البالغة لحماية الخزان، وإلى ضرورة تحركهم قبل الفجر، وإلى أهمية حماية جوانب المظاهرة حتى لا تستغل أو تصور فى اتجاه آخر:

«. . . اتصلت بالضابط على سعد تليفونيًا وذكرت له حديث الحكمدار، وشرحت له الموقف وأبديت تخوفى من تردد المدير، ومن حدوث أى صدام بين البوليس والشعب، رغم تأكيد الحكمدار، وخاصة أن الشعب يكره البوليس بطبعه، وكذلك احتمال اعتداء الغوغاء، وربما بتدبير من المدير، على المتاجر والفنادق وغيرها من المبانى التى يجب المحافظة عليها، فإذا استطاع الجيش أن يساعدنا فإنه يؤدى للوطن خدمة جليلة، فأمهلنى ربع ساعة، طلبنى بعدها وأخبرنى أن قومندان أورطة الخزان

رجل مسالم لا يحب أن يتورط فى أى عمل خارج عن حدوده، ولكنه فى نفس الوقت يرحب بالثورة ويكره الإنجليز ويتضايق كل الضيق من نفيه فى أسوان بعيدًا عن أسرته، وساخط على الحكومة، ولهذا أقام نفسه بإجازة عارضة وترك الأمر لنا».

«واتفقنا أن تنزل قوة كافية لأسوان، مشاة وفرسانًا، بملابس الميدان والسلاح الكامل، ويترك الباقى لحماية الخزان، على أن يتم ذلك فجرًا حتى يكون الجنود فى الأماكن المخصصة لهم قبل الثامنة صباحًا، وتقوم بعض السرايا بالمرابطة أمام المبانى المهمة لحمايتها، والبقية يقفون على جانبى شارع النيل ويرافقون المظاهرة، والمهم حماية منطقة الخزان خوفًا من قيام العمال هناك بمظاهرة غير منظمة قد تنقلب إلى فوضى أو تمتد إلى مستعمرة الخزان وتتهجم على المهندسين والموظفين الإنجليز، ويحسن التنبيه على هؤلاء بأن لا يبارحوا مستعمرتهم الخاصة بهم».

(٣٩)

ولا يقف ذكاء محمد مظهر سعيد وإخوانه من مدبرى ثورة أسوان عند هذا الحد، وإنما يتعداه إلى محاولة من أجل إشراك السلطة القضائية نفسها فى حوادث الثورة، وهو ما مكنهم من الوصول إلى حل وسط يمكن للثورة، ولا يلزم القاضى بما لا يوافق عليه:

«وكلفت حبيب بمقابلة قاضى المحكمة على حيدر حجازى (باشا فيما بعد)، ويتفق معه على أن يفتتح الجلسة كالمعتاد وعندما تصل المظاهرة إلى سراى المحكمة تقف، وتهتف بحياة العدالة والقضاء النزيه وحياة القاضى، ويحضر حبيب ويطلب منه أن يقفل الجلسة باسم الشعب ويسجل ذلك فى المحضر الرسمى، وبعد ذلك يستمر فى نظر القضايا على أن تصدر الأحكام باسم شعب مصر الحرة المستقلة، فوافق على الجزء الأول فقط وفضل إغلاق المحكمة، فوافقه حبيب على ذلك.

(٤٠)

بل إن الثوار نجحوا فى أن يكسبوا حياد بعض الضباط الإنجليز والنزلاء الأجانب فى

فندق كتراكت وأن يضعوا أسسًا كفيلة بتنظيم تعامل هؤلاء مع قيادة الثورة، وأن يثبتوا هذا فى مكاتبات رسمية كانت عونًا لهم فيما بعد على الخلاص من حبل المشنقة:

«. . . ثم توجه إلى فندقى جراند وكتراكت وقابل الضباط الإنجليز والنزلاء الأجانب وشرح لهم بالإنجليزية الغرض من المظاهرة، وطمأنهم على حياتهم وممتلكاتهم، وبما أن المواصلات مقطوعة تمامًا ولا سبيل للانتقال إلى القاهرة أو السودان، فسيبقون ضيوفًا معززين مكرمين إلى أن تنجلى الأمور، ولهم أن يتريضوا ويتنقلوا خارج الفندق كما يحلو لهم، ولكن بملابس مدنية، وطلب من إدارة الفندق دفترًا جديدًا من دفاترها يدونون فيه كل طلباتهم يوميًا، وسيقوم هو شخصيًا بالاطلاع عليه ويحقق مطالبهم ومقترحاتهم على قدر الإمكان، فشكروه شكرًا جزيلاً، وافتتح كبيرهم الدفتر بكلمة شكر وتقدير أمضوها جميعًا بأسمائهم وألقابهم ورتبهم العسكرية ونجحت المهمة».

(٤١)

ونأتى بعد هذا كله إلى ما لابد من حدوثه فى كل ثورة وفى كل حركة وطنية من تيارات معاكسة، تكشف عن قدرة الثوار الحقيقية إذا ما نجحوا فى مجابهتها بالتصرفات السليمة، وبردود الأفعال المنضبطة.

ومن حسن حظ ثورة ١٩١٩ فى أسوان، حسبما ترويه هذه المذكرات، أن قادتها كانوا على مستوى المسئولية واستطاعوا أن يتصدوا بذكاء وحسم لمحاولة بعض الإنجليز نسف خزان أسوان، وهى عملية بدأوا خطواتها بوضع الديناميت فى عيون الخزان، لكن يقظة المهندس المصرى أحمد حسنين كانت كفيلة بإجهاض مثل هذا المخطط الإنجليزى الذى حاول بعض الإنجليز من خلاله التصدى للثورة:

«. . . وحضر المهندس حسنين وهو بادى القلق والاضطراب وأنبأنا بشىء بالغ الخطورة، وهو أن مهندسى الخزان وموظفيه الإنجليز حملوا السلاح وتحصنوا فى مستعمراتهم ووضعوا كميات ضخمة من الديناميت فى بعض عيون الخزان بنية نسفه إذا بدرت بوادر أى مظاهرة شعبية، أو محاولة لاقتحام المستعمرة، وقد حاول أن

يقنعهم بخطأ مسلكهم ويطمئنهم على أنفسهم فليس هناك أية نية للتحرش بهم، وهناك ضباط إنجليز ينزلون مع أسرهم فى فندق كتراكت بأسوان وهم فى غاية الأمان والسلام، ولكنهم لم يقتنعوا، بل إنهم بدأوا التحرش بالعمال والموظفين المصريين واستفزازهم بالصلف والغطرسة والتهديد، فكلفنا كتيبة الخزان بفرض الحصار على المستعمرة والتنبيه عليهم بعدم مباشرة أعمالهم أو الخروج من دائرة المستعمرة، وستجاب لهم كل مطالبهم وندبر لهم احتياجاتهم وتصرف لهم مرتباتهم، ويتولى المهندسان أحمد حسنين ومحمد عبد الله إدارة شئون الخزان، ولا يسمح لأحد بدخول منطقة الخزان إلا بترخيص خاص من المهندس المصرى المسئول، وتم فوراً نزع الديناميت من عيون الخزان، ولو شاء القدر الغاشم أن يتم تدبير الإنجليز الشيطانى ونسف الخزان أو أى جزء منه لكانت كارثة كبرى على البلاد، وفى الحق أن أحمد حسنين كان بطلاً يستحق تقدير الوطن».

(٤٢)

ويبدو أن روايات التاريخ عن ثورة ١٨٨٢ بقيادة عرابى وما لقيته من الغدر كانت قد رسخت فى وجدان القائمين على ثورة ١٩١٩ فى مدينة أسوان قدراً هائلاً من الحذر فى مواجهة احتمالات الغدر من حيث لا يحتسبون جغرافيًا، فإذا هم ينتبهون إلى أهمية التصدى لمحاولات الهجوم عليهم من هنا أو هناك بإجهاض هذه المحاولات بالسبل المناسبة من التمويه والإنكار وقطع الاتصالات والإمدادات، وذلك على نحو ما نقرأ فيما يرويه صاحب المذكرات:

«. . . وقدرنا أن القوات البريطانية لابد أن تصل يومًا ما إلى أسوان، إما من حلفا بحراً، أو من القصير براً، أو من الأقصر إذا فشلت الثورة وأصلحت السكة الحديد، وخشينا أن نفاجأ على غرة، فأمرنا ناظر محطة الأقصر أن يخطرنا فوراً تلغرافيًا بمجرد وصول أى قوة إنجليزية، وكذلك مكتب التلغراف «بعنيبة» فى النوبة، وكذلك قبيلة «البشارية» المنتشرة بين أسوان والسودان عن أى قوة تصل عبر الصحراء، ونبهنا على القائمقام سيد لبيب ضابط الاتصال بمحطة الشلال بقطع الاتصال بالسودان نهائيًا، والرد عند الاستفسار بأن كل شىء هادئ وطبيعى، والبواخر القادمة من حلفا يستقبلها

ويحجزها ويمنعها من العودة، ويخطرنا بأسماء ركابها وعددهم لندبر وسائل نقلهم إلى أسوان، وأماكن الفنادق اللازمة لهم، وسيكون تحت رقابة ضباط الجيش والرقيب العام الأستاذ حبيب، وأقسم الرجل على احترام هذه الأوامر وتنفيذها».

(٤٣)

وعند هذه النقطة يستطرد صاحب المذكرات (متنقلا بنا بعيدًا عن أسوان) إلى رواية ما قصته عليه زوجه من دور المرأة المصرية فى فرض المقاطعة على المحلات الإنجليزية، ومنع المصريين من دخولها، وفى تقوية إضراب الموظفين بمراقبة الذين يخربون الإضراب، وتوبيخهم بتقديم المال والخبز لهم كناية عن ضرورة إشعارهم بما يفرضه الحس الوطنى.

« . . . وقد شرحت لى زوجتى، المربية العربية الجامعية الأولى المرحومة الأستاذة نظلة الحكيم، الدور العظيم الذى قامت به المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩. فالحركة النسوية التى بدأت بزعامة صفية هانم زغلول حرم سعد باشا، وهدى هانم شعراوى زوجة على شعراوى، رأت من أول واجباتها بعد القيام بدورها الفدائى فى المظاهرات أن تساعد على تنفيذ قرار الوفد، فانقسمت المدرسات والطالبات إلى جماعات، وكانت زوجتى يومئذ طالبة بالمعلمات السنية، وتقوم كل جماعة بمحاصرة متجر إنجليزى، مثل «موروم» و«دافيس براين» و«روبرت هيوز» و«لندن هاوس»، ويمنعن كل مصرى من الدخول احترامًا لقرار الوفد، وقد أفلست معظم هذه المحلات أو كادت تفلس نتيجة للمقاطعة، وأكثر من هذا عند إعلان الإضراب العام لموظفى الحكومة كن يرابطن أمام أبواب الوزارات والمصالح الحكومية ومعهن سلال بها خبز وصندوق به قروش، فإذا وقع فى أيديهن موظف متسلل وبخنه وقلن له: إن كان يريد أكلا فهذا هو الخبز، وإن كان يريد فلوسًا فهذه هى القروش، فيخجل الموظف وينصرف».

(٤٤)

ونأتى إلى النتائج المباشرة والحتمية التى لابد أن تعقب كل هذه الأدوار التى قام بها

محمد مظهر سعيد، فقد رتبت سلطات الاحتلال للقبض عليه ومحاكمته، وعقابه بما يرونه من العقاب، ومن الطريف أن صاحب المذكرات يقدم لنا سيناريو جميلاً ومحكمًا لخطة استدعائه وخداعه للقبض عليه، وتصوير الأمر على أنه مدعو لتناول الغداء مع ضيوف عند مدير أسوان، ومن الجدير بالملاحظة أن نتأمل حركة أخيه مصطفى التلقائية أو الفطرية التي عمدت إلى نزع المسدس وتصويبه، وهي حركة عصبية لكن كان لها فيما بعد أثر مفيد:

«... في ظهر يوم ٢٧ مارس ١٩١٩ كنا نجلس مع الأسرة على مائدة أعدت في الشرفة الكبيرة السفلى المطلة على الحديقة لتناول طعام الغداء، وكان أخي الأصغر، وهو في السابعة من عمره، يجلس بحيث يرى باب الحديقة الكبيرة، وكنت أضع مسدسي في جيب السترة المعلقة فوق أحد الكراسي الخالي، أما حبيب فكان لخوفه من الأسلحة النارية يحتفظ بمسدسه في درج مكتبه، وفجأة تسلل مصطفى (هو أخوه الأصغر) من مقعده وأخرج مسدسي ووجهه نحو مدخل الحديقة وأطلقه، ومرت الرصاصة بين رأسي أمي وأختي وخدشت أذن أختي خدشًا بسيطًا والحمد لله، وصرخت الوالدة والأخت أسرعت فقبضت على يده وانتزعت منه المسدس وألقت به بعيدًا على أحد الكراسي وسألته في حدة: ماذا فعلت يا مجنون؟ فقال في ثبات وحزم شفت ضابط بوليس ينزل من عربة الحنطور ويدخل الجنينة، وأنا أكره ضباط البوليس بتوع المدير».

«وكان ما رآه حقيقة، فقد أقبل الحارس مهرولاً وخلفه ضابط بوليس لا أعرفه يمشي على مهل، فأسرعت لمقابلته، وبعد أن حيا وسلم أخبرني أن المدير يدعونا لتناول الغداء في منزله مع ضيوف كبار آخرين، فاعتذرت بأننا على المائدة وقد بدأنا الطعام، فعلاً، والأولى أن يشاركنا هو فيه، ولكنه أصر قائلاً: إن المدير أخر موعد الغداء لحين حضورنا، والجميع ينتظرون بفارغ الصبر، فقبلنا على مضض وركبنا معه، والوالدة تنصحنا بعدم الذهاب، وركبنا معه عربة الحنطور، وعندما وصلنا لسراي المدير وجدنا كوكبة من فرسان البوليس المسلحين أحاطوا بالعربة، وسرنا جميعًا مندفعين إلى سراي المديرية، وسألت الضابط المرافق عن تفسير هذا الإجراء الشاذ، فقال: سوف تعلمون السر في المديرية».

(٤٥)

ونصل إلى تفصيلات القبض على قادة الثورة وما ترتب على خيانة المدير لهم، وهروبه من مواجهتهم وتصويره لهم، عند الإنجليز، فى صورة المخربين ومغتصبى السلطة :

« . . . ودخلنا مكتب المدير فوجدنا وكيل المديرية واقفًا بجوار المكتب واجمًا مهمومًا، وأمر الضابط بالانصراف والتفت إلينا وهو فى شدة الأسف والأسى وقال : «عملها الرجل، وأنا والله العظيم ثلاثًا حاولت معه كثيراً فلم أفلح، وقد أمرنى بتنفيذ أوامر الإنجليز لأنه لا يجرؤ على مواجهتكم بعد أن أقسم اليمين . . . فقلت فى دهشة : إنجليز، أى إنجليز، إنهم سافروا جميعًا إلى السودان مسرورين شاكرين، قال : ألم يخبركم سيد لبيب؟ لقد وصلت باخرة مسلحة للشلال فى الفجر وفيها البريجادير جريج ـ السير جريج حاكم أوغندة فيما بعد، على رأس كتيبة إنجليزية، وكتيبة هندية على رأسها قائمقام هندى، وكتيبة سودانية على رأسها القائمقام شاهين، السفاح قاتل الطلبة والنساء والأطفال فى مظاهرات القاهرة فيما بعد، والكتائب كاملة السلاح ببنادقها ومدافعها كأنها قادمة للحرب، وداهمونا فى الصباح الباكر وطلبوا المدير على عجل، فاعترف لهم رغم اليمين التى أقسمها أنكم أشعلتم نيران الثورة بأمر سعد باشا والوفد المصرى، وهوّل لهم فى الأمر وقدم تقريراً رسم فيه صورة بشعة لأعمال التخريب التى قمتم بها، وكيف اغتصبتم منه السلطة بواسطة الجيش ليبرر تخاذله وإفلات الزمام من يده، فأمر البريجادير بالقبض عليكم فوراً أنتم الأربعة أولاً وتسليمكم له أسرى لمحاكمتكم أمام مجلس عسكرى برئاسته، وهم معسكرون الآن حول المحطة، ونحن بانتظار بقيتكم» .

(٤٦)

ويقدم محمد مظهر سعيد تفصيلات أخرى عن طريقة معاملة القوات الإنجليزية لهم، وما فعلت به من انعدام الإنسانية والتهذيب :

« . . . وبعد قليل وصل الشيخ مصطفى وجبالى عبد النبى مقبوضًا عليهما، وحضر

ضابط إنجليزى معه سرية مسلحة فى لمح البصر وضع فى أيدينا القيود الحديدية (الكلبشات)، فقلت له بالإنجليزية محتداً: ما هذه المعاملة الوحشية؟ هل نحن مجرمون قتلة أو وحوش مفترسة؟ فارتج عليه ونظر إلينا فى دهشة كأنه لا يصدق أننا متعلمون نتقن الإنجليزية، وقال: أنا آسف أشد الأسف، ولكن هذه أوامر عسكرية، والأوامر هى الأوامر كما تعلمون».

«. . . وهناك فى المحطة أدخلونا غرفة خالية من كل شىء غير الباب ونافذة بها قضبان حديدية ومصاريعها مقفلة، وأقفلوا الباب، ونظر بعضنا إلى بعض ولم نجد ما نقوله، وأخذ كل منا يفكر فى صمت بما تمخضت عنه الأحداث المفاجئة، وجلست على إفريز النافذة وجلس الباقون على الأرض».

(٤٧)

وفى وسط هذه المعاناة والغدر يأتى صوت الحكمدار الذى يحاول صادقًا أن ينقذ ما يمكن إنقاذه وأن يرشد هؤلاء الوطنيين إلى بعض ما يخفف به عنهم أدلة الاتهام فيما هم مقبلون عليه على يد سلطات الاحتلال، ويبدو ذكاء محمد مظهر سعيد فى قدرته على اتخاذ القرار المناسب فى مثل هذه الظروف:

«. . . . وفجأة سمعت نقرًا على الخشب خلف النافذة وصوتًا هامسًا يقول: يا مظهر، يا مظهر، أنت سامعنى، فقلت: نعم أنت الحكمدار، واستمر الهمس: مفيش وقت نضيعه، أنا رايح الفيلا حالاً، فين الأوراق والسلاح، وسمعه حبيب فاقترب منى وأشار بالنفى محذراً من الخديعة، وجال فى خاطرى بسرعة البرق أنهم سيفتشون الفيلا حتمًا وسيجدون الأوراق والسلاح فلا يتغير الأمر إن كان الحكمدار يخدعنا وهو ما لا أصدقه بحال، وإن كان صادقًا، ومن المؤكد أنه صادق، فخير، فقلت: مسدسى رميته على كرسى فى الشرفة السفلى، ومسدس حبيب فى درج مكتبه، والأوراق فى محفظة سوداء تحت الوسادة فى سريرى، فاسأل والدتى ولأجل أن تصدق أنك رسولى قل لها: بأمارة «الله يحرسك يا ابنى يا مسخر»، وهو دعاء جدتى التركية لى بالخير ولا يعرفه أحد سوى والدتى، وانقطع الهمس وسمعت صوت وقع حوافر الجواد يخف تدريجيًا حتى انقطع».

(٤٨)

ويروى محمد مظهر سعيد ما يذكره من تفصيلات المحكمة الصورية التى عقدت على عجل فى صالونات من صالونات القطار، وكانت أحكامها فيما يبدو جاهزة لا تنتظر أقوالاً ولا تحقيقًا ولا دفاعًا ولا شهودًا، وقد انتهت المحكمة إلى إيداعهم المعتقل حتى يبلغ لهم الحكم بعد أن يصدق عليه:

« . . . وأيقظونا فى الصباح الباكر، وقمنا للصلاة بعد أن تيممنا لعدم وجود الماء الكافى، ودعانا الجنود السودانيون لطعام الفطور وقدموا لنا خبزًا وشطة فاكتفيت بالخبز، وبعد قليل حضر ضابط إنجليزى وساقنا تحت الحراسة إلى أحد صالونات الدرجة الأولى بالقطار، ومثلنا أمام مجلس عسكرى يتوسطه البريجادير جريج، وعن يمينه ويساره قائمام إنجليزى وآخر هندى وشاهين المصرى وضابط سودانى ومترجم سورى، فبدأ الرئيس يسألنا بالإنجليزية والمترجم يترجم بلغته الركيكة، فتذكرت حسنين فهمى ودعوت له بالخير، وقلت: يا سعادة الجنرال الرئيس، نحن الأربعة نعرف الإنجليزية، وأنا وزميلى هذا «كانتاب» فنرجو أن توجه لنا الأسئلة مباشرة ونحن نجيبك رأسًا، فبهت الرئيس ودقق النظر فينا، وقبل أن يوجه إلينا الكلام تدخل الضابط الهندى وقال فى سخرية: تعلمت فى إنجلترا صاحبة الفضل عليكم وتثورون عليها، أسكته الرئيس وسألنا عن الاسم والسن والمهنة ومحل الإقامة وقال: إذن أنتم تفهمون معنى الثورة على الحكومة، والخروج على النظام، و . . . . ، فقاطعه الضابط الهندى وقال: لا ضرورة لإضاعة الوقت ونحن على عجل، والتقرير شامل لكل الوقائع والأدلة ثابتة ومعززة من الجهات الرسمية، وتداول الرئيس همسًا مع بقية الأعضاء فوافقوا، ورفع الرئيس الجلسة قائلاً: إذن يرسلون إلى المعتقل، ويبقون هناك معتقلين سياسيين إلى أن يبلغ إليهم الحكم بعد التصديق عليه من القيادة العليا، وهكذا عقد المجلس العسكرى وانفض بعد خمس دقائق، بت فيها فى مصير أربعة من المواطنين الأحرار دون سماع أقوال أو دفاع أو شهادة شهود».

«وعدنا إلى عربة من عربات الدرجة الثالثة فى حراسة السودانيين، وأحسسنا بالقطار يتحرك فى غير موعده، والنوافذ مقفلة فلم ندر إلى أين يتجه».

(٤٩)

ويورد محمد مظهر سعيد بعض ما يذكره عن المعتقل الذى أودع فيه هو وزملاؤه فى الأقصر، ويشير إلى مدى ما كان فى هذا المعتقل من تعسف فى المعاملة، وهو يروى وحشية ضابط السجن النوبتجى حين وجد يديه غير مقيدتين نظراً لنحافتهما فوضعهما معًا فى حلقة واحدة من حلقات القيد الحديدى :

« . . . وتحرك القطار شمالاً وأخيراً وصلنا الأقصر فسلمنا السودانيون إلى سرية إنجليزية مسلحة دفعت بنا فى عربة مقفلة إلى المعتقل».

«وكل ما أذكره عن هذا المعتقل أنه بيت كبير قديم من طابق واحد يبدو أنه كان لأحد الأعيان أو رعايا الأعداء، يقع أمام ميدان صغير».

. . . .

«وطلبنا من أحد ضباط النوبة الاتصال بذوينا للحصول على ملابس بدلاً من ثيابنا التى بليت، فقال: إن الاتصال بالخارج ممنوع بتاتًا، وكنت إذا جن الليل وأطفئت الأنوار أنتزع القيود من يدى بسهولة نظراً لصغرها ونحافتها، وفى ذات ليلة استغرقت فى النوم ولم أشعر بضابط النوبة إلا وهو على رأسى، ولما رأى يدى خاليتين من القيود نظر إلىّ طويلاً وهرش رأسه وفكر وتفتق ذهنه عن حيلة جهنمية وحشية، وهى أنه أدخل إحدى الحلقتين فى الأخرى وأدخل يدى فيهما بالقوة فتسلخ الجلد وصرخت من شدة الألم، ولكنه لم يبال وبدا عليه السرور من نجاح حيلته».

(٥٠)

ويصل بنا صاحب هذه المذكرات إلى اليوم الذى شهد انفراج معاملة السلطات البريطانية لهم حيث زارهم الجنرال أوين باشا نفسه فى السجن، وأظهر تعجبه من المعاملة القاسية التى يلقونها بلا مبرر، وذكر لهم أن برنارد باشا حرص على أن يسجل لهم الشكر على مسلكهم معه ومع الضباط الإنجليز وأسرهم، وقد حرص هذا الباشا على أن يلفت نظرهم إلى حسن معاملة السلطة البريطانية لمعتقليها، وإلى التزام بريطانيا بالعدالة.

ويروى محمد مظهر سعيد أن المعاملة بعد هذه الزيارة قد تغيرت تمامًا، وأن البكباشى قدم لهم كل ما يمكن تقديمه من تسهيلات غذائية فى هذا السجن، وكذلك فعل الطباخ، بل إنه حرضهم على طلب كل ما يشاءون، ومن الطريف أن محمد مظهر سعيد يحرص فى نهاية هذا الحديث على أن يعبر عن سعادته البالغة بهذا التغيير الكبير الذى حدث فى حياتهم، وهو شعور طبيعى لمن كان فى مثل وضعه معانيًا من عذابات السجن، منتقلاً إلى وضع آخر يكفل راحة الإنسان ونظافته:

«. . . وقبيل ظهر اليوم التالى سمعنا من الخارج جلبة جنود تصطف وكركون سلاح، ثم فتح الباب بقوة ودخل ضابط إنجليزى وقور فارع الطول، ممتلئ الجسم، مهيب الطلعة، أدركنا أنه أوين باشا، وخلفه البكباشى الإنجليزى وضابط النوبة والحرس مشرعى السلاح على الوضع القديم تمامًا، ولعل البكباشى الجامعى قصد هذا ليثير الباشا، ووقف الباشا فى وسط الغرفة وتطلع إلينا وإلى الحجرة والحرس وقيود يدينا وملابسنا الرثة والشعور والذقون الطويلة التى لم تقص منذ الاعتقال، وهاله منظرنا الكئيب، وبدا على وجهه الامتعاض، وأعاد النظر إلى الضباط وقال فى تهكم وتأنيب: لماذا كل هذه المظاهرة العسكرية؟ ألا ترون أنهم عزل من السلاح؟ إنهم معتقلون سياسيون ومواطنون محترمون وليسوا مجرمين عاديين، ووجه إلينا الكلام فى صوت رقيق وقال: أنا شديد الأسف لهذه المعاملة غير الإنسانية، ولابد أن هناك خطأ ما، وأرجو أن تفهموا الوضع على حقيقته، فلا تلوموا الضباط الإنجليز، وأؤكد لكم أن هذه تعليمات مديركم ممثل حكومتكم المصرية الذى شوه سمعتكم، والسلطة العسكرية البريطانية ليست مسئولة عن هذا ولا ترضى به، ولكن مع هذا يظهر أننا أخطأنا فى التنفيذ وصدقنا أكاذيب الإدارة المصرية، ولم نتعرف على شخصياتكم وأنتم مواطنون محترمون مثقفون، وقد أعطانى برنارد باشا فى خطابه لى صورًا صحيحة عنكم، وهو يشكركم أجل شكر على مسلككم معه ومع الضباط الإنجليز وأسرهم، ولا أقل من مقابلة الجميل بمثله، وعلى كل سيتغير الوضع توًا على نحو ترضون عنه كل الرضا، وبدأ يعطى تعليماته للضابط مدير المعتقل، وقال: اشكروا السلطة العسكرية البريطانية، وعدالة بريطانيا العظمى التى تعلمتم فى جامعاتها وعرفتم فيها طباعنا وأخلاقنا، وحيانا ثم خرج».

«وما مضت ساعة حتى دخل البكباشى يتبعه عدد من الجنود يحملون أشياء كثيرة، وبدأ يفك القيود من أيدينا، وأخذ الجنود ينقلون «العنجريبات» وينصبون أسرة سفرية من أسرة الضباط بكافة مستلزماتها من حشايا، ووسائد، وبطانيات، وملاءات، وعلى كل سرير صابونة ومناشف، ثم خمسة كراسى مريحة، ومنضدة متوسطة الحجم، وأخرى صغيرة عليها أباريق مياه الشرب وكوبات، وقال: لقد عينا لكم طباخًا مصريًا فاطلبوا منه كل ما تريدون من طعام، وما يلزمكم من أشياء أخرى فى حدود المبلغ المخصص لكل منكم وهو جنيه ونصف يوميًا، وسيكون فى خدمتكم من الصباح المبكر إلى التاسعة مساء، وسيكون لكل منكم تعيين من السجاير والسيجار، وهذه هى الدفعة الأولى، وأعطونى عناوين أهليكم بأسوان لنتصل بهم لطلب طقم واحد من الملابس يغير أسبوعيًا، واطلبوا ما تشاءون من القهوة والشاى والطباخ تحت أمركم، وها هى مجموعة طيبة من الجرائد والمجلات والروايات الإنجليزية، أما الجرائد والمجلات المصرية فليس لدينا منها شىء، وهى ممنوعة بطبيعة الحال، ورجائى أن لا تحاولوا الاتصال بالخارج بأى وسيلة، أتريدون شيئًا آخر؟ أغلب الظن أن المدرس لا يستغنى عن الأقلام والأوراق والكتابة، فقلت: أصبت ياسيدى، فأنا أحب دائمًا أن أدون خواطرى ومذكراتى، ونحن عاجزون عن شكرك، فنشكرك بكل قلوبنا قبل ألسنتنا، فأجاب: بل الشكر لأوين باشا والسلطة العسكرية البريطانية، وحيا وخرج».

«ودخل على أثره الطباخ وقال: ماذا تريدون لغداء اليوم والعشاء وفطور بكرة، اطلبوا ما تشاءون فهم سيدفعون كل النفقات مهما بلغت حتى ولو طلبتم ديكًا روميًا كل يوم، وأعطيناه التعليمات بخصوص أكلنا وأكل جبالى عبد النبى ومواعيد القهوة والشاى، وحضر بعده الحلاق وأتم مهمته فى صمت، ويظهر أنه نبه عليه بذلك، وكان البكباشى قد رخص لنا باستعمال دورة مياه وحمامات الضباط، فهرعنا إليها نقضى الضرورة ونزيل أوساخ الأسابيع الماضية الطويلة، ولا أستطيع أن أعبر عن سعادتى بهذا الانتقال المفاجئ، وخاصة بعد الاستحمام وتناول الغداء الشهى والقهوة والاستلقاء على السرير، وقضينا يومًا سعيدًا وليلة هادئة هانئة، نمت فيها نومًا مريحًا تتخلله الأحلام الطيبة».

(٥١)

ويمضى محمد مظهر سعيد فى تصويره للمعاملة الحسنة التى بدا الجنرال أوين باشا حريصًا على أن يحيطهم بها حتى إنه أمر بنقلهم إلى فندق ونتر بالاس وبتخصيص حجرة مفردة لكل واحد منهم، وقد بدت التعليمات بإكرامهم واضحة حين ألقاها الجاويش على جنود الحراسة بعد أن أطلق واحد منهم النار من مسدسه كرد فعل لسقوط إحدى الصفائح من يد حبيب فيما ظنه الجندى مؤامرة لقتله، ويشير محمد مظهر سعيد إلى توثق علاقاتهم بالضابط والجنود.

. . . .

ويروى محمد مظهر سعيد قصة لقائهم بمعتقلين آخرين كان منهم شقيق الدكتور طه حسين:

«وذات صباح دخل علينا أوين باشا بدون المظاهرة العسكرية وعلى فمه ابتسامة عريضة مشرقة وقال مبتهجًا: إظهارًا لشعورى نحوكم وأسفى على سوء معاملتكم فيما مضى أمرت بنقلكم إلى جناح خاص بفندق ونتر بالاس حيث تتوافر لكم كل وسائل الراحة وتنسيكم ما فات.

«ولم نصدق آذاننا وألجمتنا الفرحة عن الشكر فلم نكن أبدًا نتوقع مثل هذا التغيير، بل لم نكن نحلم به، فندق ونتر بالاس الذى ينزل فيه الأمراء والعظماء وأصحاب الملايين مرة واحدة، ونقلنا فعلاً إلى الطابق الثانى بالفندق المطل على الحديقة الغناء، وخصصوا لكل منا غرفة مفردة كاملة الأثاث الفخم من غرف النزلاء، وتركوا باب الغرفة والنافذة المطلة على الحديقة مفتوحين، ولكنهم وضعوا حرسًا مسلحًا فى الطرقة المواجهة للأبواب، وحرسًا آخر فى الحديقة تحت النوافذ».

. . . .

«وحدث أثناء الانتقال حادث كاد يؤدى إلى كارثة لولا لطف الله، فأثناء صعودنا السلم كان كل جندى يحمل كيسًا كبيرًا فيه أغراضه وصفيحة بسكويت كبيرة، وبقيت واحدة، وكنت أنا أحمل ربطة كبيرة فيها الكتب والمجلات والأوراق فأمر الجاويش حبيب أن يحمل الصفيحة الباقية، وعندما وصلنا إلى أعلى السلم كان حبيب قد تعب

من حمل الصفيحة الثقيلة فأفلتت من يده إلى أسفل السلم، ووقعت بجوار الجاويش وأحدثت دويًا هائلاً، ولعل الجاويش ظن أنها ألقيت عمدا لقتله فأطلق رصاصة من مسدسه فى اتجاه حبيب ولم تصبه والحمد لله، وعلى دوى الصفيحة والرصاصة حضر الضابط صاحب النوبة مسرعًا، وسأل الجاويش عن الخبر، ولما علم أنه أمر حبيب بحملها، جمع الجنود فى الطرقة وقال فى لهجة حازمة: اعلموا أن هؤلاء السادة ليسوا حمالين ولا خدمًا، إنما هم معتقلون سياسيون عليكم أن تعاملوهم بكل أدب واحترام، والتفت إلينا وقال: هذه تعليماتكم: يرخص لكم بالخروج من الغرف ساعة فى الصباح لدورات المياه، وتناول الإفطار معًا فى صالة الطعام، وتناول القهوة فى الصالون الصغير، وساعة لتناول الغداء ظهرًا، وساعة للشاى عصرًا، وساعة فى المساء للعشاء، وفيما عدا هذه الأوقات تبقون فى غرفكم لا تبرحونها إلا لقضاء الضرورة مع أحد الحراس، وممنوع قطعًا الحديث مع الجنود والاتصال بالخارج، وإذا أردتم شيئًا فاطلبوا مقابلة ضابط النوبة، وستطفأ الأنوار فى العاشرة مساء، والآن هيا إلى الحمامات وتناول الغداء، فشكرته وقدمت له صندوق سجاير فتقبله شاكرًا لهذه الهدية الثمينة، وبعد انصرافه أعطينا كل جندى علبة سجاير، وكان هذا بدء توثيق صلتنا بهم».

. . . .

«وبعد يومين جاءوا بأربعة معتقلين آخرين قابلناهم ساعة الغداء، وعرفنا منهم: الأستاذ حسين فهمى المحامى بالأقصر، والشيخ موسى الأقصرى الشاعر، والشيخ عبد المعطى الحجاجى كبير آل سيدى الحجاجى بالأقصر، والرابع أبيض الوجه ذو لحية مدببة (أمبريال)، وكان صموتًا كتومًا يجلس بعيدًا مطرقًا يسمع حديثنا ولا يشارك فيه، وينصرف توًا إلى غرفته قبل انتهاء الساعة المرخص بها، وحاولنا أن نستدرجه فى الحديث فلم نفلح وحسبناه جاسوسًا أو أسيرًا ألمانيًا، واتضح فيما بعد أنه الأستاذ عبد المجيد حسين شقيق الدكتور طه حسين، وقد اعتقلوه فى كوم أمبو».

(٥٢)

ونأتى إلى أقسى اللحظات العصيبة فى حياة محمد مظهر سعيد وإخوانه حين واجهوا الحقيقة المرة وهى أنهم قد حكم عليهم بالإعدام.

ونرى من تصوير محمد مظهر سعيد مدى ما اعتراهم من صدمة أودت بحياة واحد من هؤلاء الأربعة حين أدرك من مقدمات حديث الجنرال أوين أن حكم الإعدام قد صدر عليهم:

«. . . فى حوالى التاسعة والنصف من صباح يوم ١٣ يونية ١٩١٩ حضر الضابط السودانى واستدعانا نحن الأربعة دون سائر المعتقلين إلى المكتب، وهناك وجدنا أوين باشا بملابسه العسكرية ونياشينه، وكان متجهمًا على غير عادته، ومعه ضابطان إنجليزيان آخران وحولهم حرس مسلح، وبدأ يتلو أسماءنا واحدًا واحدًا بصوت تبدو فيه شدة التأثر، فأحسسنا فى الجو خبرًا مفزعًا رهيبًا، وقال: لقد كلفت بمهمة شاقة على نفسى، ويؤسفنى أن أبلغكم أن المجلس العسكرى كان قد أصدر حكمه فى قضيتكم من مدة وأمرنى بتنفيذ الحكم فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم، وقد أخفيت الحكم عنكم طوال هذه المدة حتى لا أنغص عليكم حياتكم قبل موعد التنفيذ، ولهذا السبب نقلتكم من المعتقل إلى فندق ونتر بالاس وحرصت على راحتكم وإجابة مطالبكم بقدر ما تسمح به الأوامر، بل إنى تخطيت هذه الأوامر فى بعض الأحيان تحت مسئوليتى إلى أن أمرت القيادة بنقلكم إلى هذا المعتقل، فهل تطلبون شيئًا خاصًا أو تكتبون لأهلكم فى أسوان؟ وفجأة صرخ جبالى عبد النبى ونفث دمًا غزيرًا من صدره ووقع على الأرض وقال: تنفيذ حكم. . ورغبة أخيرة. . ورسالة. . هذا إعدام ياولاد. . إعدام. . ولا حول ولا قوة إلا بالله. . وصيتك بنتى فاطمة يا مظهر، هناك فى الفيوم، أشهد أن لا إله إلا الله، وراح فى غيبوبة، وحضر الجنود فورًا بمحفة ونقلوه إلى المستشفى العسكرى، وتوفى بعدئذ مجاهدًا شهيدًا».

(٥٣)

ثم يقدم محمد مظهر سعيد وصفًا دقيقًا للساعات التى سبقت تنفيذ حكم الإعدام فيه وفى زملائه، ونرى فى هذا الوصف الدقيق انطباعاته الذكية تجاه التقاليد العسكرية البريطانية فى مثل هذه الأحوال، وهو يصف هذه التقاليد بالنفاق، كما أنه يصف حالته النفسية والبدنية بدقة شديدة، ويصور بدقة شديدة أيضًا تفصيلات الذهول الذى اعتراه، والهروب الذى لجأ إليه عقله، كما يصور عودته إلى أرض الحقيقة على نحو

دقيق، والواقع أن هذا الوصف نادر الوجود لأن القصة التى حدثت لمظهر سعيد وإخوانه كانت ولاتزال نادرة الحدوث أيضًا.

ونحن نرى فى الحكم العسكرى الذى أصدرته المحكمة العسكرية البريطانية تجاوزًا فى توصيف التهم وتضخيمًا لها دون أن تعنى هذه المحكمة بتقدير الشعور الوطنى وما يترتب عليه، وهذا أمر طبيعى.

وفى وسط كل هذا يتضح لنا السبب فيما كان الجنرال أوين باشا حريصًا عليه من إحسان معاملة هؤلاء الذين كان يعرف أنهم قد تم الحكم عليهم بالإعدام، وأن تاريخ تنفيذ الحكم قد حُدد بالفعل فى الحكم الصادر عليهم:

«وخرج الضباط وساروا إلى باب المعتقل، ونحن وراءهم نسير بدون وعى كالإنسان الآلى، ووجدنا على طول الشارع موكبًا عسكريًا فى مقدمته جوقة عسكرية موسيقية إنجليزية، يليها أربعة بغال يحمل كل منها مدفع ميدان صغير، ويحرسها الجنود الهنود، ثم كتيبة إنجليزية تليها كتيبة سودانية، وبنادق الجميع منكسة، ووضعونا وسط الموكب، وبدأت المسيرة والموسيقى تعزف لحنًا جنائزيًا «مارش الموت»، والجنود يسيرون بنصف خطوة، ويبدو أن الخبر انتشر فى المدينة، فقد وقف الرجال فى جانبى الشارع على طول الطريق، وبعضهم يقرأ الفاتحة ويرفع يديه بالدعاء، وبعضهم يهمس بعبارات: «إنا لله وإنا إليه راجعون.. الله معكم يا أبطال يا أحرار.. الله المنجى.. أحياء عند ربهم يرزقون»، ومن ورائهم النساء بثيابهن السوداء والزرقاء تتساقط دموعهن ويكتمن زفراتهن».

«وسار الموكب مخترقًا شوارع الأقصر من المعتقل إلى المحطة ثم فندق ونتر بالاس، وكنت طول المسير فى حالة ذهول وقف فيها التفكير، وتخيلت أن جسمى سقط على الأرض، ورأسى تضخم كالبالون، وارتفع فوق رءوس الناس، وأخذت ألقى على الجماهير المحتشدة خطبة ثورية بصوت كالرعد».

. . . .

«وعدت فجأة من سبحتى فى عالم التهيؤات إلى دنيا الحقيقة المرة، والواقع المؤلم، على أثر شعورى بحركة وقوف ونداءات عسكرية، وقعقعة سلاح، وعزف الموسيقى

العسكرية بالسلام الملكى البريطانى، وتلفت حولى (فوجدت أننا) فى وسط شارع النيل أمام ونتر بالاس، وعلى رصيف النيل المقابل أقيمت منصة عالية جلس فى وسطها أوين باشا وبجواره يمينا ويسارا لفيف من العسكريين الإنجليز والهنود والسودانيين، وإلى الجانبين صفوف من المقاعد جلس عليها كبار الموظفين والأعيان والتجار، وكأن على رءوسهم الطير، وخيم على المكان صمت القبور، وفوق المنصة رفع العلمان الإنجليزى والمصرى، ووقف الباشا وأدى التحية العسكرية لنا كما تقضى تقاليد النفاق، وتلا علينا بالإنجليزية أحكام المجلس العسكرى، وتلا الضابط السودانى ترجمتها بالعربية فى بوق مكبر للصوت ليُسمع الحاضرين والأهالى الوقوف».

(٥٤)

ومن المفيد أن ننقل عن محمد مظهر سعيد ما يرويه عما يتذكره من حكم المحكمة العسكرية عليه وعلى إخوانه:

«. . . وهذا ما أذكره منها:

«حكم المجلس العسكرى البريطانى المنعقد فى ٢٨ مارس ١٩١٩ بمدينة أسوان برئاسة البريجادير . . . وعضوية . . . لمحاكمة المعتقلين السياسيين المذكورين بعد وهم (الأسماء الأربعة) رئيس وأعضاء اللجنة التنفيذية العليا لما يسمى المجلس الوطنى للثورة بإقليم أسوان، وقد ثبت من تقرير السلطة المصرية المحلية أنهم ارتكبوا الجرائم الآتية عن عمد وإصرار وسابق تدبير:

١ ـ قاموا بالدعوة لثورة على الحكومة المحلية، وسمموا أفكار الأعيان والتجار والموظفين والطلبة، ودفعوهم للخروج على النظام العام، وألفوا ما أسموه بالمجلس الوطنى الذى حاول تولى الحكم المحلى، ونحوا الحكام الرسميين عن مناصبهم، اغتصبوا سلطتهم بطرق غير مشروعة.

٢ ـ قبلوا أن يكونوا نوابًا عن هيئة ثورية غير شرعية تدعى «الوفد المصرى» بالقاهرة، وممثلين لها بمديرية أسوان.

٣ـ دبروا ونظموا وقادوا مظاهرات عدائية ضد الحكومة مما أدى إلى اضطراب الأمن وتفشى الفوضى، وما نجم عن ذلك من إتلاف وتخريب للممتلكات العامة والخاصة.

٤ـ خالفوا عمداً أوامر السلطة العسكرية البريطانية القاضية بالإخلاد إلى السكينة، والتزام النظام.

٥ـ اعتقلوا بعض ضباط جيش حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور وأسرهم واحتجزوهم بفندق كتراكت بأسوان، وحددوا إقامة المهندسين والموظفين الإنجليز فى مستعمرتهم بمنطقة خزان أسوان.

٦ـ نادوا بسقوط الحكم القائم وحكومة حضرة صاحب العظمة سلطان مصر الذى أقرته حكومة بريطانيا العظمى، متحدين بذلك السلطة العسكرية لقوات الاحتلال».

«وبما أن العقوبات التى نص عليها القانون العسكرى الإنجليزى لهذه الجرائم تتراوح بين الحبس ستة شهور والإعدام، ومجموع أحكام الحبس والسجن مع الأشغال ٦٥ سنة، فإن عدالة حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة المتحدة وإمبراطور الهند، ومستعمرات ما وراء البحار، حفظه الله، ومراحم الحاكم العسكرى العام وقائد جيش الاحتلال، رأت التجاوز عن أحكام الحبس والسجن اكتفاء بعقوبة الجرائم الأولى وهى الإعدام رمياً بالرصاص فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٣ يونية ١٩١٩ علناً فى إحدى الساحات أمام الجمهور، وعلى جناب البريجادير أوين باشا الضابط السياسى المفوض من قبل الحاكم العسكرى العام إبلاغ المتهمين نص هذا الحكم فى الوقت الذى يراه مناسباً، واتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذه فى الوقت المحدد والمكان الذى يختاره».

«ووقف الباشا وأدى التحية العسكرية لنا مرة أخرى، وأشار إلى ضابط إنجليزى يحمل فى جرابه مسدساً ضخماً، فأمرنا أن ندور للخلف وتقدمنا فى السير تجاه سور الفندق الخارجى ووراءنا سرية ضرب النار ببنادقها، ودرنا مرة أخرى لنواجه المنصة، ووقف جنود السرية أمامنا صفاً واحداً، وفتش الضابط البنادق، وجاء بأوراق مستديرة بيضاء ثبتها فوق القلب تماماً، وربط على عينى كل منا عصابة سوداء فانتزعتها بغضب

وألقيتها على الأرض ودستها بقدمى، ثم ربط أيدينا من الخلف، وأخرج مسدسه ووقف باعتدال متجهًا للمنصة منتظرًا إشارة الضرب من الباشا، وطال انتظار الإشارة وقتًا ما».

(٥٥)

ثم نأتى إلى اللحظة الفارقة التى قدر فيها لهؤلاء أن ينجوا من حكم الإعدام الذى لم يكن بينهم وبينه إلا دقيقة واحدة أو أقل منها، فإذا بعربة مسرعة تحمل قائدًا كبيرًا تأتى لتنقذهم من هذا الموت المحدق بهم، ومع هذا فإن محمد مظهر سعيد، وهو صادق فيما يرويه، لا يتصور ما حدث إلا على أن حكم الإعدام قد نفذ فيه، وأنه قد أصبح فى القبر المظلم، وأنه وجد على صدره شيئًا لزجًا كالدم، وهو يحاور زميله حبيب فيجد عنده الظن نفسه فى أنهما ضربا بالرصاص وفارقا الحياة، وأنهما ينتظران حساب الملكين ويستعدان له:

« . . . وهنا رأيت عجبًا لم تصدقه عيناى، وآمنت بأن قدرة الله فوق قدرة البشر، والناس فى التفكير والله فى التدبير، فقد حدثت معجزة قبل تنفيذ الحكم بثوان، سيارة حربية يرفرف عليها العلم البريطانى، غبراء اللون من طول ما علق بها من تراب السفر الطويل، تندفع إلى المكان بسرعة جنونية فيفر الجنود من أمامها، وفى وسطها وقف جنرال إنجليزى أركان حرب يحمل الشريط الأحمر على قبعته، والشارة الحمراء على صدره، وصاح بأعلى صوته لضابط السرية: قف . . قف . . واندفعت السيارة نحو المنصة وأسرع الجنرال متجهًا نحو الباشا وتبادلا التحية وكلمات لم تصل إلى سمعى، وناوله مظروفًا عليه أختام بالشمع الأحمر، وما فضه الباشا وقرأ ما فيه حتى أشار لضابط السرية بالتقدم نحوه وألقى إليه ببعض الأوامر، فعاد وفك العصابات والأربطة، لقد رأيت كل هذا ولم أصدق حواسى، ولكن زميلى لم يريا شيئًا».

«وهنا تملكنى ذهول شديد، ووقف عقلى عن التفكير، وحواسى عن إدراك ما يحيط بى، ومر أمام عينى شريط حياتى من نشأتى الأولى، ولست أدرى ما حدث بعدئذ، ولا كم من الوقت مضى، ثم لا شىء مطلقًا مما جرى فى ذلك الوقت الطويل أو القصير، وفجأة تنبهت وعاد إلىّ شعورى وأحسست بجسدى ممددًا على الأرض

على شيء خشن حسبته رملاً، وفى مكان دامس مظلم صامت كالقبر، وحركت بصرى، ثم أصابع يدى، وتحسست جسدى ثم صدرى، ولمست فيه شيئًا لزجا له رائحة الدم، فأيقنت أنى رميت الرصاص ومت ودفنت فى هذا القبر، وحركت ذراعى بعيداً فلمست يد شخص آخر بجانبى يقوم بنفس المحاولة، فهمست وهمس بكلمات منقطعة خافتة ودار الحديث التالى:

- من أنت؟

- أنا حبيب. . وأنت مظهر؟!

- نعم!

- يظهر أننا ضربنا.

- نعم، وأنا أشم رائحة الدم فى صدرى.

- وأين مصطفى؟

- لا أدرى!

- هل جاءوا؟

- مَنْ هم؟

- الملكان.

- لسه.

- عارف الواحد يقول إيه لما يسألوه؟

- نعم.

- يسألان: مَنْ أنت؟ ومَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومَنْ رسولك؟ وما كتابك؟

فقل: أنا فلان ابن فلان، الله ربى، والإسلام دينى، ومحمد رسولى، والقرآن كتابى، وأشهد أن لا إله إلا الله».

(٥٦)

على هذا النحو نقرأ حديث صاحب المذكرات الذى يستقى معرفته مما يراه المرء فى

البيئة المصرية التى تحفل بتلقين الموتى عند دفنهم، وهو يمضى مع خيالاته هذه التى رحمه الله بها فى هذا الموقف العصيب ويظل ماضيًا معها حتى يعود إلى الحقيقة، فإذا به فى حجرة من المعتقل، وإذا بضابط سودانى يحكى لهم أنهم أحضروا من ساحة الإعدام إلى هذه الحجرة وهم فى ذهول، ذهبوا بعده فى نوم عميق فلم يشأ وزملاؤه أن يوقظوهم، ويلفت الضابط السودانى نظرهم إلى أن زميلهم الشيخ مصطفى لايزال نائمًا، ويطلب منهم إيقاظه فى هدوء:

«وقبل أن أتم الجملة سمعت وقع أقدام تتحرك وأعددت نفسى لمقابلة الملكين، وسطع النور الكهربائى فى هذا القبر المزعوم، وإذا بنا فى غرفة يغطى أرضها كليم صوف ونحن الثلاثة نيام عليه، وإذا ضابط المعتقل السودانى يقول: صح النوم.. الحمد لله اللى جت كده، وإن كنت لا أعرف شيئًا مما حصل ولا كيف حصل، ولكنهم أحضروكم هنا من ساحة الإعدام إلى المعتقل ثانية، وأنتم فى ذهول تام، وتبعًا للأوامر وضعناكم فى هذه الغرفة مؤقتًا حتى لا تختلطوا بزملائكم المعتقلين، وستنقلون غداً إلى مكان آخر، واسف أننا لم نستطع أن نعد لكم غرفة أفضل، وعلى كل الحمد لله فقد نجوتم من الإعدام، وهذه معجزة لا أدرى كيف حصلت، وقد جئناكم بطعام الغداء ولكنكم كنتم تغطون فى نوم عميق فأشفقنا أن نوقظكم، وها هو الشيخ مصطفى لايزال نائمًا فأيقظوه بالراحة، نحن الآن بعد المغرب، وطعام العشاء معد».

(٥٧)

ولاتزال الحيرة مسيطرة على صاحب المذكرات وأصحابه وهم يلجأون إلى التكهن، لكنهم يعجزون عن التفكير فيفوضون أمرهم لله، ويحاولون النوم فيعجزون بالطبع عن النوم المتواصل:

«وهنا ذكرت قول الله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾ [الزمر: ٤٢]، وأدركت معنى الحكمة القائلة: «النوم هو الموت الأصغر»، وأيقظنا الشيخ فقام مذعوراً، ولما رآنا اطمأن وقبلنا، وحمدنا الله، وجلسنا نتناول الطعام، وجاء الضابط بالقهوة والشاى والسجاير، وأخذ الجميع يتبادلون الحديث ويتساءلون ماذا حدث بعد تفتيش البنادق؟ فهما لم يريا شيئًا، فذكرت لهما ما رأيت إلى

أن تهت عن الوجود، وأخذنا نتكهن عن السبب ونفكر فى المستقبل، وعجزنا عن التفكير وفوضنا الأمر لله، ونمت نومًا منقطعًا كله أحلام عن الماضى والحاضر والمستقبل».

(٥٨)

ويلخص محمد مظهر سعيد ما حدث فى قضيتهم والقضايا المشابهة من واقع ما ينقله من أقوال القائد العسكرى الذى روى لهم ما حدث من اتفاق القائد العام للقوات البريطانية مع الحكومة المصرية على إلغاء قرار محاكمتهم الأول وإعادة محاكمتهم، ومن الجدير بالذكر أن محمد مظهر سعيد نقل عن هذا الضابط نمطين من أنماط مشاعره تجاه الذين لقوا حتفهم قبل أن ينقذوا على نحو ما أنقذ مظهر وإخوانه، فالأولى مشاعر ارتياح لإعدام المتهمين الذين قاموا بالثورة فى دير مواس، لأنهم كانوا فى نظره متوحشين، وأما المشاعر الثانية فهى مشاعر أسف لمقتل مأمور بوليس أسيوط الشهيد محمد كامل قبل وصول القرار بإعادة محاكمته بدقائق:

«. . . لقد اتفق القائد العام مع الحكومة المصرية على إلغاء أحكام المجالس العسكرية على جميع المتهمين السياسيين المدنيين لأنهم لا يخضعون للقانون العسكرى، وإحالتهم إلى محاكم عسكرية لها نظام آخر، وهذه نسخة من قانونها عليكم أن تدرسوها بإمعان وترتبوا دفاعكم بمقتضاها، ونظرًا لضيق الوقت وتعذر الاتصال بالسكة الحديد أرسلت القيادة الجنرال وشى الذى حضر بالأمس وجاء بالسيارة العسكرية من القاهرة بأسرع ما يمكن إلى أماكن تنفيذ الأحكام لإبلاغ الأوامر الجديدة، وقد وصل دير مواس بعد إعدام المتهمين، وهم يستحقون لأنهم مجرمون متوحشون قتلوا مفتش السكة الحديد الأعزل وألقوا ببعض الضباط فى فرن وابور القطار وهم أحياء، وبذلك لا آسف عليهم، ولكنى أسفت على محمد كامل مأمور بوليس أسيوط، فقد أعدم قبل وصول الجنرال ببضع دقائق، وستنقلون الآن إلى سجن قنا انتظارًا للمحكمة العسكرية، وبهذا تنتقلون من السلطة العسكرية البريطانية إلى السلطة المصرية، وأرجو أن يحسنوا معاملتكم كما أحسناها، وإن كنت أشك فى ذلك، والآن انتهت مهمتى فأستودعكم الله، ومع السلامة، والحمد لله على نجاتكم، وودعنا وانصرف».

(٥٩)

ومن الطريف أن محمد مظهر سعيد يطلعنا على الوجه الآخر من هذا الموقف، وهو موقف زميلهم الثالث الشيخ مصطفى الذى كان فطنًا إلى طبيعة سياسة الإنجليز الخادعة التى تبرئ نفسها من الإجرام وتنسبه إلى الحكومة المحلية، وهو يعبر له عن إيمانه بهذه العقيدة بعد كل ما رأى من تصرفات الإنجليز فى السودان:

« . . . وفجأة أخذ الشيخ مصطفى يسب الإنجليز ويلعنهم بعبارات جارحة أدهشتنا وأفزعتنا فى نفس الوقت، فأنكرنا عليه مقابلة جميل الباشا بالجحود والنكران فقال: مؤكد أن السلطة المصرية ستبالغ فى إساءة معاملتنا بأمر السلطة البريطانية نفسها. إن الإنجليز مكارون مخادعون منافقون، وأنا أعرف سياستهم أكثر منكم، وقد جربتهم فى السودان، فقد كان المفتش الإنجليزى يأمر المأمور المصرى أن يسىء إلى السودانيين، ويشتط فى طلب الضرائب وجباية أموال الميرى، ويستخدم العنف والقسوة فى التحصيل، ويعاقب على الهفوات الصغيرة بأشد العقاب، فيتقدمون بالشكوى للمفتش بطبيعة الحال، فيستدعى المأمور المصرى أمامهم، ويعنفه أشد تعنيف وينذره بالعقاب وينصف الأهالى بأكثر مما كانوا يرجون، فيخرجون وهم يمجدون المفتش الإنجليزى ويحبون الإنجليز ويلعنون المأمور ويكرهون المصريين، كل هذا لبث كراهية المصريين فى نفوس السودانيين، والإشادة بعدل الإنجليز، والمصرى الذى يمتنع أو يحتج يعاقب وينفى للمديريات الاستوائية، والذى يرضخ يرقى، وها هم يكررون نفس الدرس معنا، يحسنون معاملتنا أولا، ويأمرون السلطة المصرية بإساءتها ليظهر الفرق بين الطرفين فتنطفئ روح الثورة عليهم فى نفوسنا، تمامًا كما يفعلون فى السودان، وسترون».

(٦٠)

ثم يورد محمد مظهر سعيد ما يدلنا على أن رؤية الشيخ مصطفى أو وجهة نظره كانت فى محلها، فها هم فى السجن، وإذا بالمأمور القائمقام جودة ينهى إليهم فى سرية أن الأوامر الإنجليزية صدرت إليه بإساءة معاملتهم، مع أنه يؤمن أنهم لا يستحقون الإساءة، لكنه مع هذا يدعوهم إلى عدم مخالفة لوائح السجن محذرًا لهم

من العقوبات القاسية التى يعتبر الجلد أخفها، وهو ينهى إليهم أنه يعرف تاريخهم وأنه سيحاول أن يتلطف معهم، لكنه يطلب إليهم أن يتعاونوا معه حتى تمر الأمور على خير، وقد سهل المأمور لهم أن ينضموا إلى بقية زملائهم المعتقلين، وأن يلتقوا بهم ويتناولوا معهم طعامهم:

«... واقتادونا إلى غرفة مأمور السجن القائمقام جودة، فوجدته رجلاً كبير الجسم، متجهم الوجه، يجلس إلى مكتبه كالأسد الضارى فى قفص حديقة الحيوان، وتأملنا قليلاً، ولما أوقفنا الضابط صفًا واحدًا أمامه صرخ قائلا: «مساجين.. زنهار.. سلام آل»، وكان النداء العسكرى وقتئذ بالتركية، فقال المأمور: «شوية شوية.. لسه بدرى عليكم، اتفضل أنت شوف شغلك»، فخرج الضابط وانتظر المأمور قليلاً حتى اطمأن من وقع أقدام الضباط أن ابتعد تمامًا عن الغرفة، وأمرنا بالجلوس وقال: كل البلاد تعرف إنكم ثوار أسوان، ونواب الوفد المصرى، والمعلومات كلها وصلتنى عنكم، ومفتش الداخلية أمرنى تليفونيًا هذا الصباح أن أشتد معكم أنتم بالذات، وأعاملكم معاملة المساجين العاديين، مع أنه لا محل لكم هنا، فأنتم لم يحكم عليكم، إنما أنتم معتقلون سياسيون فى انتظار المحكمة العسكرية، والسجن ليس مكانًا للحجز الاحتياطى، ولكن هذه هى الأوامر، ومفروض أننى هنا المأمور، ولكنى فى الواقع العبد المأمور، أنفذ الأوامر دون مناقشة، وما دمتم هنا فانسوا ما كنتم عليه بالخارج واذكروا فقط أنكم فى السجن، والسجن له لوائح يجب أن تتبع، وأوامر يجب أن تنفذ، والمخالفات لها عقوبات بدنية شديدة وقاسية، أخفها الجلد».

....

«... ولكنكم رغم هذا ستبقون بملابسكم العادية، وتنضمون إلى بقية زملائكم المعتقلين وتنامون مثلهم داخل حرم السجن، وليس فى الزنزانات، وتحضرون طابور الصباح وعرض تنفيذ الأحكام ما عدا الشنق، وطبعًا لن تجدوا السجن مثل ونتر بالاس، أو حتى بيت سنجر، وستصادفكم أمور تدعو للشكوى، ولكن اعلموا أن أوامر مفتش الداخلية المشددة بشأنكم أنتم دون غيركم، وها أنتم ترون أنى أخاطر من أجلكم والأمر لله، فتحملوا ولا تصعبوا مهمتى».

....

«. . . وهنا عدد من الثوار معتقلون مثلكم على ذمة التحقيق والمحاكمة، وستذهبون إليهم الآن وتتعرفون عليهم فى الغرفة المخصصة لهم، وصحبنا إلى الغرفة وقدمنا لهم وتركنا، فوجدنا غرفة خالية من كل شىء إلا من كليم على الأرض، ومَنْ فيها جلوس يتسامرون فرحبوا بنا وسألوا عن حالنا، وعرفنا منهم الأستاذ هاشم مهنا القاضى (ورئيس ديوان الحسبة بعدئذ)، والأستاذ الشاب مصطفى مهنا المحامى، والشيخ دندراوى، وشقيقه الشيخ رشيدى من أعيان قنا وثوارها البارزين، وحافظ بك الكلح من أعيان نجع حمادى، وابن أخيه الطالب بالثانوى، والشيخ غزالى المعلم الإلزامى، وعواد الفلاح الصعيدى، وبعد قليل لحق بنا الشيخ مصطفى الأقصرى، والشيخ الحجاجى، وفى موعد الغداء جاءت صوانى عليها أطعمة طيبة مطهية لهم، كانت تأتيهم من أهليهم، وجاء السجان بطعام السجن لنا، فأقسموا علينا أن نشاركهم الطعام فهو يكفى وزيادة، فقبلنا شاكرين، وعلم أعيان وتجار قنا بنزولنا السجن فاعتبرونا ضيوفًا عليهم وأخذوا يرسلون الطعام لنا مع إخواننا».

(٦١)

ويستطرد محمد مظهر سعيد إلى قصة الزيارة التى قام بها الأميرالاى لوكاس مفتش عام السجون إلى المعتقل الذى أودعوا فيه، وقد كانت لهذا الرجل صلة قوية بمظهر سعيد حيث كان أستاذ الجغرافيا فى المدرسة الخديوية، وكان وهو مدرس يعامل مظهر باللطف والحنو، لكنه على العكس أو النقيض من ذلك أساء معاملته إلى أقصى حد وضربه على وجهه ضربتين قاسيتين أسالتا الدم من صدغه ووجهه:

«. . . . . . وحدث ونحن بمنزل المأمور أن طلب منا ترجمة برقية وردت صباحًا تقول: إن الأميرالاى لوكاس مفتش عام سجن الوجه القبلى سيزور السجن بعد يومين لاستعراض المسجونين السياسيين، وما سمع المأمور هذا حتى استعاذ بالله من شر هذه الزيارة لأن الرجل شرس، حاد الطبع، سريع الغضب، ورجانا ألا نستفزه بكلمة أو إشارة، ولا نرد أبدا على ما يقول، وربنا يجيب العواقب سليمة، وأخذنا ننتظر هذا اليوم المشئوم فى قلق واضطراب، ونبهنا زملاءنا بالتزام الهدوء والصبر، وعدم الشكوى أو الرد عليه بما يغضبه».

«وفى اليوم المعهود خرجنا نحن المعتقلين السياسيين إلى حوش السجن ووقفنا فى نصف دائرة وحولنا الضباط والسجانون، أما المأمور ونائبه فكانا أمام الباب الرئيسى يستقبلان جناب المفتش العام، ودخل علينا الرجل بلباسه العسكرى، وطربوشه الأحمر، ومعه عصا من الخيزران ذى العقل المدببة يهزها يمينا ويسارا، كأنه يتحفز للضرب، ومن خلفه سرية من جنود الجوركا الهنود البدائيين يحمل كل منهم بندقية ركبت فيها السونكى، ووقفوا خلفنا كالتماثيل والبنادق فى ظهورنا، وتفرست فيه فإذا هو نفس المدرس المستر لوكاس مدرس الجغرافيا بالمدرسة الخديوية، الذى كان يعاملنى بمنتهى اللطف والحنو، فاطمأنت نفسى قليلا».

«واقترب منا الرجل وكأنه أسد هصور، ووقف يتطلع إلينا واحداً واحداً، وأخذ يقذف من فمه سيلاً من أقذع الشتائم، ويسب الثوار المصريين الناكرين لجميل بريطانيا على مصر، بريطانيا التى أصلحت البلاد، ورقتها ومدنتها وحمتها من الألمان والطليان، كما حمتها من الأتراك من قبل، وأخذ يسأل كلا منا عن اسمه وعمله، وبدأ بالصعيدى العملاق وقال: أنت حمار بهيم لا تعرف شيئًا، اخرج بره امشى، واتجه إلى المشايخ وقال: أنتم الآخرين بهائم، أطيان كتير وفلوس كتير لكن مخ مفيش، الحق على اللورد كرومر اللى كان يدافع عن الفلاح ويحميه من ظلم الباشوات، ثم قال للمحامين: أنتم بغبغانات كلام فارغ كتير، خطب وهتافات، كلام. . كلام، بريطانيا لا تخرج بالكلام والخطب والهتاف والمظاهرات، ثم أشار إلىّ بالعصا فقلت: أنا سعيد جداً لوكاس بك لتشريفك اليوم، أنا مظهر سعيد تلميذك فى الجغرافيا فى المدرسة الخديوية وفى الكورة والجمباز، فنظر إلىّ بطرف عينه وقال: ودلوقت بتشتغل إيه؟ قلت: مدرس، فرفع عصاه وضربنى على وجهى ضربتين قاسيتين أسالا الدم من صدغى ووجهى، وفقدت صوابى وكدت أهجم عليه ولكن حبيب تصدى لى وحسنًا فعل، فقد أحسست بالسونكى يغرسه الجندى الجوركى الواقف ورائى بين ضلوعى، فوقفت ساكنًا ورفعت يدىّ إلى أعلى علامة الاستسلام، وصاح لوكاس غاضبًا هادراً كالثور الجامح: أنتم المدرسين أنتم طاعون البلد، تسمموا أفكار التلاميذ والأعيان والفلاحين الحمير يعملوا مظاهرات وتخريب، وتعلموا الفلاحين والعمال العصيان والثورة، أنتم تستاهلوا ضرب من غير رحمة، ويبدو أن الغضب أفقده صوابه وازداد

احمرار وجهه وأذنيه، فأدار وجهه وانصرف والمأمور وجنود الجوركا فى إثره دون أن يتم دورة الأسئلة، وحضر الطبيب وضمد جراحي ونقلونى إلى غرفة الجلوس».

(٦٢)

وتتوالى المفاجآت التى قدر الله أن ينجى بها محمد مظهر سعيد وزميليه من الإعدام أو من حكم قاس، فها هو الضابط المصرى المكلف بأن يتولى الترجمة يطلب من المحكمة أن تأذن له فى إطلاع المتهمين على قانون الأحكام العسكرية، ويستغل هذا الموقف لتلقين هؤلاء المتهمين وإرشادهم إلى ما يمكنهم من الإفلات من العقوبات، كما أنه يؤكد لهم ما استنتجه محمد مظهر سعيد من أن هؤلاء الأهالى قد جيء بهم ليشهدوا ضدهم، وقد أحس بهذا عندما لم يردوا عليه التحية حين ألقاها عليهم:

«. . . . وبعد أسبوع حضرت المحكمة العسكرية، وأفردوا لها قاعة فسيحة فى السجن، وضعت فيها منضدة كبيرة طويلة وعدة كراسى حولها، وأمامها ثلاثة كراسى، ودعينا نحن الثلاثة فقط: أنا وحبيب ومصطفى قديس، للمثول أمامها، وفى طريقنا إليها وجدنا عدداً من أهل أسوان جلوسًا ووقوفًا فى الحديقة خارج غرفة المحكمة، وفيهم ناظر المدرسة وسكرتيرها، وألقينا التحية فلم يرد أحد فأدركنا أنهم شهود إثبات جنّدهم مفتش الداخلية ضدنا، ودخلنا الغرفة فوجدنا حول المنضدة هيئة المحكمة برئاسة بريجادير إنجليزى وعضوية قائمقام هندى وضابطين إنجليزيين آخرين، وإلى جانب المنضدة يوزباشى مصرى يقوم بالترجمة، وقبل بدء المحاكمة استأذن الضابط المترجم اليوزباشى حسن حسنى الزيدى (الفريق الزيدى فيما بعد) رئيس المحكمة أن ينتحى بنا جانبًا ليشرح لنا قانون المحكمة العسكرية الإنجليزية، وهنا تمت المسرحية الرابعة البالغة الخطورة التى قام فيها الزيدى بدور المؤلف والمخرج وأداه بكل شجاعة وجرأة وتضحية ووطنية صادقة، فقد فتح الكتاب فعلاً وتطلع إلينا كأنه يقرأ ويترجم، وقال فى صوت خافت: «أنا وطنى مثلكم ما تخافوش، وأنت يامظهر أنا صديق والدك، لقد رأيتم فى الخارج أشخاصًا تعرفونهم فى أسوان أحضرهم المدير بأمر مفتش الداخلية ليشهدوا ضدكم»، ورسم لنا خطة الدفاع وطريقة الكلام والإجابة،

وناشدنا أن ننفذها بحذافيرها كما رسمها، وقد كان، وبفضل الله والزيدى نجونا من الموت، أو على الأقل السجن أو الجلد، وعاد بنا وأوقفنا أمام المنضدة».

(٦٣)

ونصل إلى جوهر الدفاع الذى قام به صاحب المذكرات عن نفسه، وكيف نجح فى أن يحول القضية إلى قضية شخصية مع مدير أسوان وزعم أن المدير كان يبتغى تزويجه هو وصديقه حبيب من ابنتيه لكنهما اعتذرا لارتباطهما السابق، ولا ندرى هل كانت هذه الفكرة من بنات أفكار محمد مظهر سعيد، أم أنها كانت من ضمن ما أشار عليه به اليوزباشى حسن الزيدى، والاحتمالان واردان، ويروى صاحب المذكرات أن القاضى العسكرى الإنجليزى بدأ يميل إليه:

«. . . . ونادانا رئيس المحكمة واحدًا واحدًا بأسمائنا فأجبنا باحترام وقال: أقسموا أشهد بالله العظيم أن أقول الحق كل الحق، ولا شىء غير الحق، وأقسمنا، فأمرنا بالجلوس على الكراسى المعدة لنا فى مواجهته، وقال: أنتم الثلاثة، فلان، وفلان، وفلان، أما الرابع فلان فقد سقطت عنه الدعوى لوفاته، متهمون بكذا وكذا، وتلا نفس الاتهامات الواردة بحكم المجلس العسكرى السابق دون ذكر الأحكام، وتمهل قليلاً ثم قال: أنتم تحاكمون أمام محكمة عسكرية وفق القانون الإنجليزى الذى اطلعتم عليه منذ قليل، فهل لكم اعتراض على هيئة المحكمة؟ فانبريت بسرعة، حسب تعليمات الزيدى، وقلت: ياسعادة الجنرال الرئيس إنه يسعدنا ويشرفنا نحن الذين درسنا فى جامعة كمبردج أن نقف أمام (قاض) إنجليزى وقضاة بريطانيين عرفوا بالعدالة والإنسانية والتمسك بروح القانون وليس بحرفيته، فابتسم وقال: إن هذه التهم التى تشير إليها التقارير: مظاهرات عدائية، تعطيل لأعمال الحكومة، تخريب، تقارير وشهود كلها تدينكم، فهل أنتم مذنبون أم غير مذنبين؟ فقلنا معًا: غير مذنبين، وعدت فقلت يسمح لى سعادة الجنرال بكلمة: إن هذه التقارير المختلفة صادرة عن مدير المديرية والبوليس والمدير كاذب جبان، وكانت بيننا وبينه أمور شخصية دفعته للنكاية بنا، وهناك سر أخجل أن أبوح به علنًا، أقوله للرئيس فى أذنه إذا سمح، فقال:

بل قل للمحكمة كل ما تريد، فليس هناك أسرار، فقلت: إن المدير له بنتان فأراد أن يغرينا بزواجهما، أنا وحبيب، وهما لا تجدان فى أسوان مَنْ هم أفضل منا شبابًا وثقافة ومركزًا، فاعتذرنا بطبيعة الحال لأن حبيب خطيب شقيقتى، وأنا خطيبتى تنتظرنى بالقاهرة، ومن ذلك الوقت تغيرت معاملته لنا فقاطعنا وسلط البوليس وراءنا لمضايقتنا، بعد أن كان يدعونا بين آن وآخر لتناول الشاى، ولو حضر هنا أمام المحكمة الموقرة لفضحت لكم كذبه، أما البوليس فمعذور لأنه مأمور وعليه أن يلفق ويكذب ويزور كما يأمره المدير، فتجهم وجهه وظهر الغضب عليه لأن القضاة الإنجليز لا يكرهون شيئًا أكثر من النقائص الخلقية، كما لمست بنفسى أثناء دراستى بإنجلترا فيما بعد».

«ثم قال: ما علينا، فما الذى حدث إذًا فى أسوان؟».

(٦٤)

وعند هذا الحد يجد محمد مظهر سعيد الفرصة سانحة ليروى الأحداث المعروفة مع تحويرها تحويرًا ذكيًا بالقدر الذى يكفل نجاته، ومن دون أن يظهر أنه يختلق قصة جديدة تتعارض مع ما استقر فى الأذهان والوجدان والأوراق، وهنا نلمس مدى ذكاء الرجل الذى تمكن من صياغة جديدة ودقيقة لا يزيد فيها الاختلاق على الحد المطلوب لنجاته ونجاة أقرانه:

«...... فقلت: أما وقد أقسمنا اليمين أمام المحكمة الموقرة، فبالنيابة عن زملائى أقرر الحقيقة كاملة تحت مسئوليتى وأترك لضمائركم الحية وعدالتكم المعروفة تقدير الظروف والملابسات، ونحن قابلون مطيعون للحكم كيفما كان».

«فارتاح الرئيس على كرسيه وابتسم وقال: استمر، فقلت: حقيقة الأمر أن الشعب كله خرج فى مظاهرة سلمية لإظهار شعوره نحو قضية بلاده العادلة، وهذا أسلوب لإعلان الرأى العام الحر، وقد شاهدنا الكثير من هذا فى حديقة «هايد بارك» بلندن، بل إننا شاهدنا ملاحدة وفوضويين يعلنون آراءهم المتطرفة فى حرية مطلقة، وأشخاصًا يتناولون الأسرة المالكة والكنيسة والبرلمان والحكومة بنقد لاذع وبذىء أحيانًا،

والجمهور يسمع فى هدوء والبوليس لا يتعرض لأحد، لأن القانون الإنجليزى يحمى حرية الرأى ولا يعاقب عليه، فرديًا أو جماعيًا، مهما كان متطرفًا ومنحرفًا، وإنما يعاقب على استخدام العنف والإكراه والوسائل غير المشروعة فى تنفيذه، ولم يحدث أى شىء من هذا فى أسوان».

«وقاطعنى الضابط الهندى قائلاً: أنتم كما يقول التقرير لم تشتركوا فى مظاهرة فقط لكنكم دبرتم وأشرفتم وقدتم وحملتم الطلبة والموظفين والأهالى على الاشتراك فيها».

«فأجبت فى هدوء وابتسام موجهًا كلامى للرئيس: إن المظاهرة إذا لم تكن لها قيادة محترمة مطاعة يحتمل جدًا أن تضم بعض المتحمسين غير المسئولين أو حتى الغوغاء الذين لم يعتادوا النظام، وقد خشينا من هذا وحسبنا حسابه، ولما كنا مدرسين لنا مكانة مرموقة وكلمة مسموعة عند الطلاب وأولياء أمورهم، فقد طلبوا منها أن نقوم بمهمة الإرشاد والقيادة، وقد كلفنا الضابط فعلاً بالقبض على بعض الغوغاء الذين أرادوا اقتحام محطة السكة الحديد وتخريب القطار وقطع أسلاك التلغراف والتليفون».

(٦٥)

وهنا ينتبه الشريك الثانى لصاحب المذكرات إلى ما ينبغى عليه أن يدعم به الرواية التى قدمها زميله، وهكذا يتدخل حبيب وينبه المحكمة إلى حقيقة دورهما السابق فى إبلاغ السلطات البريطانية عن الأدوات التى كان يستخدمها صاحب الفيلا الألمانى فى التجسس، وهو ما يدل دلالة قاطعة على أنهم لم يكونوا أعداء للبريطانيين، وإنما كانوا على العكس من ذلك حريصين على التعاون معهم، وهو يردف هذا بالحديث عن دورهم فى الحفاظ على أرواح الضابط الإنجليزى والسكرتير المالى لحكومة السودان وعامل الإنجليز فى مستعمرة الخزان:

«. . . . . وتدخل حبيب وقال: وأحب أن تعرف المحكمة الموقرة أننا عثرنا بالفيلا التى كان يملكها الجاسوس الألمانى الخطير فريتزر فورل واستأجرناها من الحراسة البريطانية على أملاك رعايا الأعداء، على جهاز لاسلكى وشفرة حربية سرية،

وسلمتها للحارس القضائى، وكيل البنك الأهلى بأسوان، ووصلنا خطاب شكر وتقدير من القيادة العسكرية العليا».

«وقد حافظنا على الضباط الإنجليز وأسرهم فى فندق كتراكت وأجبنا كل طلباتهم، وأكرمناهم كل الإكرام، وكذلك مع برنارد باشا السكرتير المالى لحكومة السودان ومرافقيه، ويسرنا لهم العودة للسودان فى أمان وسلام، أما عن المهندسين والموظفين الإنجليز بمستعمرة الخزان فقد خشينا عليهم من تهجم بعض الغوغاء الذين لا سلطان لنا عليهم هناك فحرسناهم وأجبنا كل طلباتهم، وقد سجل الضباط شكرهم فى دفتر الفندق، فأرجو أن تطلبوه لتطلعوا عليه، ودون الرئيس بعض ملاحظات على ورق أمامه».

(٦٦)

ويعود محمد مظهر سعيد ليستشهد بالوقائع التى حدثت بالفعل بما يدل على براءتهما الظاهرة من مثل هذه التهم التى أجيد سبكها وترتيبها:

«...... وتسلمت طرف الخيط من حبيب وقلت: إذا كانت المحكمة الموقرة قد اطلعت على تقارير كاذبة مزيفة، فهناك تقارير صادقة كتبها الضباط الإنجليز الشرفاء وعلى رأسهم برنارد باشا نرجو الاطلاع عليها لتتأكدوا أن هذه الدعوى كيدية باطلة، فابتسم الرئيس وقال: لقد سلمنى أوين باشا تقرير برنارد باشا عنكم واطلعت عليه وهذا هو، وسلمه إلى الضابط الهندى الذى هز رأسه وقال فى عناد: ومع ذلك فلابد من سماع الشهود».

(٦٧)

هكذا يدلنا محمد مظهر سعيد على أنهم كانوا يعتمدون على بديهة سريعة مكنتهم من أن يحولوا الشهود المجبرين عن موقفهم الذى جاءوا من أجله وتجهزوا له بما لقنتهم السلطات:

«..... وجاءت لحظة المسرحية، فرفعت أصبعى للرئيس وقلت: أستأذن المحكمة فى استراحة قصيرة، نؤدى فيها فرض الصلاة وقد حان موعدها،

وأذن الرئيس بذلك، فوقفنا قرب الباب ووقف الشيخ مصطفى أمامنا ورفع يديه للسماء وقال بصوت عال يسمعه مَنْ فى الخارج: «أنتم ياشهود ياللى بره اسمعوا، والله العظيم ثلاثًا لو حد منكم شهد ضدنا أو قال إنه سمعنا أو شافنا لابد نجيب رجله ونثبت أنه اشترك معنا بالباع والدراع، وأنه فى وسط المظاهرة، وتدخلوا السجن معانا»، وأخذنا نصلى ركعتين وفى كل ركعة يكرر الشيخ هذا التحذير، وكان الضابط الهندى لا يعرف صلاة المسلمين فسأل الرئيس: ماذا يقولون؟ فرد عليه: إنهم يتلون آيات القرآن كتاب المسلمين المقدس، وتمت مسرحية الصلاة فعدنا وجلسنا أمام المحكمة، وتداول الرئيس مع العضوين الآخرين وقال: حسنًا، استدعوا الشهود، فدخل جماعة منهم وبسؤالهم أخذ كل منهم يجيب بسرعة وكأنه يود أن يطير ويهرب بعيدًا عن المكان: أنا لم أر ولم أسمع، أنا كنت بعيد عن المظاهرة، أنا كنت بالبيت، أنا كنت مريض، أنا كنت خارج أسوان، وطبيعى أنهم سمعوا التهديد وهم خارج غرفة المحكمة، وبعد سماع عدة شهود والبقية مازالت تنتظر بالخارج ضاق الرئيس ذرعًا وتملكه الغضب وضرب المنضدة بيده وقال: شىء عجيب! هذا المدير مجنون أو إنسان كاذب شرير، لماذا أحضر كل هؤلاء كشهود إثبات وهم فى الواقع شهود نفى، اخرجوا جميعًا عليكم اللعنة، وعلى كل حال أنا مكتف تمامًا بتقرير برنارد باشا ولا أريد أن أسمع شيئًا آخر، وأشار إلينا وقال: انصرفوا أنتم وسنبلغكم الحكم فيما بعد، فشكرنا المحكمة على سعة صدرها وعدالة حكمها المنتظر، وعدنا إلى غرفة جلوسنا بالسجن، وبصّرنا زملاءنا المحامين المصريين المعتقلين بأسلوب المحاكمة ونظام المحكمة، وأجمع الكل على أن طرد رئيس المحكمة لبقية الشهود علامة طيبة، وفأل خير، وعدنا إلى حياة السجن الروتينية كما كنا».

(٦٨)

على أن الأمور التى قادت إلى براءات هؤلاء لم تكن لترضى غرور مفتش الداخلية الذى صمم على أن ينتقم بكل طريقة من هذين البريئين، لكن مأمور السجن بضميره الحى أبى أن ينساق إلى إجراءات تعسفية لا داعى لها فى نظره، فإذا هو يطيب خاطر

مظهر وحبيب ويحرص على أن يعدهما بأنه سوف يعوضهما عن بقائهما فى السجن بكل ما يمكنه من تعويض :

« . . . . . وذات يوم استدعانا مأمور السجن نحن الثلاثة إلى مكتبه ودخلنا فوجدناه غاضبًا أشد الغضب وفى يده خطاب يقرؤه بإمعان ، ولما رآنا انفجر يقول : «الراجل مفتش الداخلية ده وحش مجنون ، بينكم وبينه إيه ، أنتم قتلتم أبوه وبينكم وبينه تار بايت» ، اسمعوا أمر جنابه : بما أن المحكمة العسكرية قد أصدرت حكمها بالبراءة فى قضية فلان وفلان وفلان ، فيخلى سبيل الشيخ مصطفى قديس فورًا ويفرج عنه وتسلم له تذكرة سفر بالدرجة الثالثة بالسكة الحديد ويرحل إلى أسوان مباشرة ، أما المتهمان الآخران فلان وفلان فيبقيان فى السجن لحين محاكمتهما أمام السلطة المحلية ، وعلى كل حال مبروك ياشيخ مصطفى وأرجو بمجرد وصولك أسوان أن تزور الفيلا وتطمئن الجماعة هناك وتطلب منهم فورًا إرسال رسول ومعه طاقم ملابس جديدة وغيار لكل منهما ، وكان هذا ممنوعًا منذ دخولكم السجن بأمر مفتش الداخلية ، أما النقود فممنوعة بتاتًا داخل السجن ، وهذه هى تذكرة السفر ويمكنك أن تزور بقية زملائك للوداع ، أما أنتما من الآن فلستما مساجين ولا معتقلين وإنما ضيوف إلى أن يأذن الله بالفرج ، ولا يملك مفتش الداخلية ولا مَنْ هو أكبر منه أن يحاكمكم مرة أخرى بعد حكم المحكمة العسكرية ، وستتغير المعاملة من اليوم وأنا المسئول ، فلكما أن تقضيا الوقت مع زملائكم أو فى الحديقة أو فى مكتبى ، وتتناولون الطعام كالمعتاد ، أما المبيت فسيكون فى مستشفى السجن ، وقد أعددنا لكما غرفة خاصة مريحة ، وذهبنا مع الشيخ مصطفى إلى غرفة جلوس الزملاء وأعلنا خبر الإفراج عن مصطفى فقابلوه بالعناق والتقبيل ، وطال عناق الأستاذ مصطفى المحامى لسميه ، فارتجل الشيخ الأقصرى على البديهة هذين البيتين :

ضاقت علينا حجرة ... بالسجن ليس بها صفا

ومن العجائب مصطفى ... فيها يعانق مصطفى

«فضحكنا وودعنا الشيخ ورحل» .

(٦٩)

ويتوالى التعاطف الحكومى مع مظهر وحبيب فيأتيهما رئيس نيابة قنا بعد يومين بنفسه ويتولى بنفسه كتابة ما ينجيهما به من عسف مفتش الداخلية الإنجليزى وبطشه، صادراً فى هذا عن خبرته بجنون هذا المفتش الإنجليزى:

«. . . . . وبعد يومين دعينا إلى مكتب المأمور مرة أخرى فوجدنا على مكتبه رجلاً وقوراً لم نره من قبل، وإلى يمينه ضابط بوليس مصرى، وإلى يساره كاتب أمامه دفتر مفتوح، وبعد التحية قدمنا إليه المأمور وعرفنا أنه رئيس نيابة قنا، وقال الرجل: أهلاً وسهلاً بالأساتذة الثوار الوطنيين نواب سعد باشا والوفد المصرى، تفضلوا بالجلوس فلى معكم كلمتان، ونظر فى ورق أمامه وقال: أنا مش عارف إيه اللى بينكم وبين مفتش الداخلية، الراجل المجنون ده له تصرفات غريبة غير قانونية وعامل دكتاتور فى البلد ولا أحد يستطيع أن يقف فى وجهه ويصده، وقال للمأمور: أنت فاكر الأمر الذى أصدره بأن كل مصرى فى أى مكان مهما كانت مكانته إذا مر عليه ضابط إنجليزى بأى رتبة عليه أن يقف ويؤدى التحية العسكرية، وفاكر أخينا القاضى كان جالس فى المقهى ومر عليه ضابط إنجليزى مجرد ملازم وكان يقرأ الجرنال فلم يره، فعاد الضابط ومعه جنود مسلحين قبضوا عليه وأهانوه وأوسعوه ضرباً، وأنت ياحضرة اليوزباشى صدر لكم أمر بالوقوف والسلام باحترام واحتشام لأى ضابط إنجليزى ولو كان أقل منكم رتبة، وناقص يأمروا بالوقوف للعساكر كمان، وهكذا انقلبت الأوضاع».

«وقد عرف هذا الرجل المجنون أن المحكمة العسكرية برأتكم وليس له سلطان عليها فاستغل سلطته فى الحكومة المصرية وطلب إحالتكم إلى النيابة للتحقيق معكم من جديد وإحالتكم إلى محكمة الجنايات المصرية مخالفًا بذلك القانون، ولكننى أعرف كيف أرد عليه وأوقفه عند حده بالقانون مهما كانت النتيجة، افتح المحضر ياحضرة الكاتب واكتب:

«إنه فى الساعة. . . من يوم. . . الموافق. . . حضر أمامنا نحن رئيس نيابة قنا بسجن قنا بناء على طلبنا الأستاذان. . . و. . . للتحقيق معهما فى التهم الموجهة إليهما من جناب المستر ماكنوتن مفتش الداخلية، توطئة لإحالتهما لمحكمة الجنايات،

بناء على أمره المذكور بخطابه رقم . . . بتاريخ . . . وبما أن هذا الطلب غير قانونى ومرفوض شكلاً وموضوعًا، لأن المحكمة العسكرية سبق أن نظرت هذه الدعوى وحاكمت [الأستاذين] على نفس التهم المذكورة فى الخطاب، وأصدرت حكمها بالبراءة، وحكمها نهائى واجب التنفيذ وغير قابل للاستئناف أو النقض أو أى وسيلة من وسائل الطعن، ولا يجوز للمحاكم المصرية أن تعيد النظر فى أحكام المحاكم العسكرية، فبناء على المواد . . . من قوانين . . . نقرر تحت مسئوليتنا أن الأستاذين المذكورين . . . لم يرتكبا أية جريمة (جناية أو جنحة أو مخالفة) يعاقب عليها القانون الجنائى المصرى، ولهذا نأمر بحفظ الدعوى نهائيًا والإفراج عنهما فورًا ما لم تكن هناك أوامر من سلطات أخرى حكومية . . . ».

«إمضاء وختم»

(٧٠)

ونصل إلى نهاية عهد الرجلين بالسجن والمعتقلات ونرى الروح الوطنية تسرى فى دماء المصريين وهى تقيم الاحتفالات الفورية بمجرد العلم بخبر الإفراج عن الرجلين، وهو الخبر الذى كان يسبق تحركهما من محطة إلى محطة من محطات القطار:

« . . . . . وشاء القدر الرحيم فى صباح يوم ٢٠ أغسطس ١٩١٩، وهو بالمصادفة يوم عيد ميلادى، أن استدعانا المأمور إلى مكتبه وبلغنا فى سرور بالغ أمر الإفراج عنا وترك السجن فورًا والسفر إلى أسوان رأسًا بالقطار بتذاكر الدرجة الثالثة، لأن مفتش الداخلية يريد إذلالنا حتى فى آخر لحظة، وبالطبع لم تكن معنا نقود لنركب الدرجة الثانية على الأقل وندفع الفرق، فشكرناه وذهبنا نودع زملاءنا وعدنا إلى المكتب فوجدنا ضابط بوليس مصرى وشرطيين مكلفين بمرافقتنا إلى المحطة والانتظار حتى يقوم القطار منعًا لاختلاطنا بالأهالى، ولكن اتضح أن ناظر محطة قنا رآنا وعرفنا فأبرق إلى ناظر محطة الأقصر وهذا بدوره إلى ناظر محطة أسوان، وانتشر الخبر فى المدينة وكان لذلك أثر كبير فى استعدادهم لاستقبالنا».

ولا يفوت محمد مظهر سعيد بعد هذا كله، وبعد أن يروى الحفاوة والترحيب والتمجيد الذى حظى به هو وزملاؤه أن يروى أن المدير نفسه كان قد حاول أن يعتذر لوالدته عما ارتكبه معهم، وأن يمضى فى خداعها عن موقفه المتواطئ مع سلطات الاحتلال، وأنه وصل فى هذا السبيل إلى حد أن ذهب بنفسه إلى الفيلا ليعتذر لها إلا أنها بذكائها الشديد لقنته درسًا قاسيًا ولم تسمح له بمقابلتها، وأهانته على مسمع من الناس:

«...... وذات صباح حضر المدير فى عربته وحوله حراس مسلحون من رجال البوليس كأنه فى موكب رسمى، ودخل الحديقة من الباب الكبير، وهرول «ركابى» يخطر الوالدة برغبة المدير فى مقابلتها، فوقفت فى الشرفة ونادت الضابط السودانى فحضر مع سرية من الحرس، وكانت قد أخبرتهم بالدور الذى لعبه المدير فأنكروا عليه نذالته، واقترب المدير من الشرفة، فقالت له فى حزم: قف مكانك لا تتقدم، ماذا تريد؟ هل تريد أن تقبض علينا نحن الآخرين؟ وفزع المدير من هول المفاجأة، ودار الحديث على مسمع من الجميع كما يلى:

«المدير: صباح الخير ياهانم أفندى، أنا آسف جدًا لما حصل ولا ذنب لى فيه والله العظيم، وأنا والمديرية كلها فى خدمتكم ورهن إشارتكم، ومستعد لإجابة كل طلباتكم، أؤمرى وعلينا الطاعة».

«الوالدة: ماذا فعلت بزوجتك المسكينة التى أقسمت عليها؟ هل طلقتها كما حلفت لهم ثلاثا أمام الشهود وكذبت عليها كما كذبت عليهم، اخرج يارجل ولا ترنى وجهك، وسيكون بيننا وبينك حساب عسير وكل آت قريب، نحن والحمد لله فى غنى عنك وعن أمثالك، وإذا لم تخرج فى سلام فسأكلف الحرس السودانى إخراجك بالقوة وليس لك عليهم سلطان».

«وتلفت الرجل حوله فرأى الجميع حتى حراسه ينظرون إليه شذرًا، فحنى رأسه فى خجل وخرج، واقترب الضابط السودانى من والدتى وقبل يدها فدعته للجلوس وشرب القهوة وأخذ يقول: سيدة ولا كل السيدات، شجاعة أم الشجعان».

«وتناقل هل أسوان هذا الحديث فزادهم إكباراً لها وتقديراً لشجاعتها وبطولتها إلى حد أن الوالدات أخذن يسمين بناتهن «فاطمة» على اسمها «فاتيمة» والأولاد «مظهر» و«حبيب».

(٧٢)

ثم يقفز صاحب المذكرات إلى ما بعد هذه الأحداث بربع قرن حين أتيح له أن يزور أسوان فى عمل رسمى، وهو يوجز القول فيما لقيه من ترحيب وتمجيد، وفى أصداء ذكراه فى نفوس الأهالى:

«..... وفى سنة ١٩٤٤ بعد ربع قرن بالضبط من الثورة، شاءت الظروف دون سابق تفكير أو تدبير أن أزور أسوان فى مهمة رسمية تستغرق ثلاثة أيام للتفتيش على معاهد المعلمين والمعلمات والمدرسة الثانوية، وكنت وقتئذ مفتشًا عامًا بوزارة المعارف، ومن عجيب الصدف أنى وصلت فى نفس اليوم الذى بدأت فيه الثورة وهو ١٥ مارس».

«وذهبت بعد الظهر مع لفيف من رجال التعليم إلى النادى على شاطئ النيل، لحفل شاى أقاموه لى، وكان من بين المدعوين مدير أسوان وكبار الموظفين، وكان هناك ماسح الأحذية «مصطفى»، وكان قد كبر سنًا، وتهدل جسمًا، وما إن سمع اسمى ووقعت عينه علىّ حتى ترك ما فى يده وأقبل مهرولاً يقبل يدى، ويعانقنى ويقول فى تحمس والدموع تترقرق فى عينيه: «مظهر البطل جه ياولاد، غبت عنا غيبة طويلة، وما كانش يصح منك، إذا كنت نسيتنا فنحن فاكرينك ولا ننساك أبدًا، أمال فين حبيب؟ ودهش الحاضرون من هذه المفاجأة العجيبة وسألونى فقلت بإيجاز: نحن معارف منذ أن كنت هنا سنة ١٩١٧، ولم أشر إلى ثورة ١٩١٩، فليس هناك داع للتفاخر بجهاد مضى وانقضى منذ ربع قرن وأصبح فى ذمة التاريخ، وعلى الأقل فى ذاكرتى إن كان التاريخ نسيه ولم يسجله».

«وانطلق مصطفى يذيع الخبر كعادته القديمة، وراح يخبر الأصدقاء القدماء بحضورى، وبعد فترة طويلة (!!) أقبل فوج كبير منهم للتحية حتى امتلأ النادى وظن

المدير فى أول الأمر أنهم قادمون لمقابلته فى شأن ما، فقام لمقابلتهم لكنهم تركوه وأقبلوا نحوى بالعناق والقبل والسؤال عن حبيب والوالدة وإخوتى، وسألهم المدير عن المناسبة فقالوا له فى حماس: هذا البطل مظهر قائد الثورة وحاكم الإقليم سنة ١٩١٩، فازددت حرجًا ورجوتهم عدم الإشارة للثورة، لكنهم لم يستمعوا لى وأخذوا يلقون على مسامع رجال التعليم تفاصيل ما حدث سنة ١٩١٩ ويسترجعون كل لحظة من لحظاتها فى انفعال وحماس، وعتبوا علىّ عتبًا شديدًا لانقطاع الصلة طول هذا الوقت وكأننا نسينا أسوان التى لن تنسانا مهما مرت الأيام والأعوام، وقالوا للمستمعين: نحن الكبار نذكر حوادث هذه الثورة وما كان فيها من بطولات وتضحيات بكل فخر واعتزاز، لأن إقليمنا قام بدوره المجيد فيها، ونرويها لأولادنا وأحفادنا حتى أصبح الكل يعرفون مظهر وحبيب، بل إننا أطلقنا أسماءهم على الكثير من أولادنا تخليدًا لذكرى هذه الثورة (ثورة ١٩١٩)».

(٧٣)

ويتواصل الترحيب بمحمد مظهر سعيد دون أن نجد فى الرجل رغبة فى أن يوَفّى هذا الترحيب حقه الواجب بأن يبقى مع هؤلاء، أو أن يقرر العودة إليهم فى إجازة من إجازات نصف السنة، وكأنه لا يريد أن تبقى له صلة بماضيه فى الثورة إلا صلة الذاكرة، وهو شعور يتطلب قدرًا كبيرًا من الدرس والبحث والتأويل والتأمل:

«وحاول كل من الحاضرين أن يستضيفنى وكانت فى الواقع مشكلة وتخلصت منها بأنى جئت لعمل متواصل يشغل كل وقتى ولدىّ تقارير طويلة أريد أن أنجزها، لذلك لم أنزل فى فندق وإنما فى استراحة المدرسة، ولا أستطيع بحال أن أقبل ضيافة واحد منهم وأغضب الآخرين وهم جميعًا بمنزلة واحدة عندى، وقضينا الليلة فى النادى نتناول أحاديث الثورة، وعند الانصراف أقسم علىّ الشيخ أبو بكر كحالة أن أتناول طعام الإفطار بمنزله على عادة الأسوانيين».

«وزارنى فى المدرسة صباحًا وصحبنى إلى منزله الجديد، وفى الطريق أخبرنى عن وفاة شقيقه الأصغر البطل طه كحالة وهو فى عنفوان شبابه، وقال: إنه ذهب إلى

القاهرة بعد الثورة بخمس سنوات وسأل عنا وقابل الوالد والوالدة وعلم منهما أنى بإنجلترا وسأقضى سنوات طويلة، وأن حبيب أصبح مفتشًا للتعليم بالإسكندرية وتزوج أختى، وبعد الإفطار جاء حفيده مظهر الصغير وحيانى بحماس الطفولة وأخذ يسأل عما فعلت فى الثورة، وكان جده قد حكى له الشىء الكثير، وقال: «أنا بكرة لما أكبر راح أبقى بطل زيك»، فقلت: إن شاء الله وتكون أعظم منى، وقبلته، وانصرفنا لزيارة بقية الأصدقاء فى منازلهم ومتاجرهم، ومررنا بدكان الأسطى عبد الحميد الحلاق وكان يغفو على كرسى الحلاقة، ويغطى وجهه بمنديل، فاقترب منه الشيخ أبو بكر وهمس فى أذنه: «مظهر هنا يا عبد الحميد»، فقفز الرجل من كرسيه وهو يصيح: «مظهر وحبيب. . حلم ولا علم يانهار أبيض ياولاد!» وقبلنى وعانقنى وقال: ياسلام بعد الغيبة الطويلة دى مين يصدق ياولاد، الحمد لله اللى عشت لحد ماشفتك تانى، وفين حبيب أمال؟ ليه ما جاش وياك؟ بالله عليك تتفضل معانا ولا تسبناش تانى».

(٧٤)

بقى فى هذا الباب أن ننقل عن المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ثناءه على الملخص الذى بعث به إليه صاحب المذكرات:

« . . . كنت أشعر دائمًا بأن هناك حلقة مفقودة فى السلسلة، وفصلاً ناقصًا فى تاريخ هذه الثورة، فليس من المعقول أن لا يشترك إقليم أسوان فى هذه الثورة التى عمت القطر، وقد وقفت فى سرد الحوادث عند أسيوط، وعذرى أن الصحف لم تشر إليها ولم يذكر أحد من أهلها شيئًا عنها، وقد سدت رسالتك الكريمة هذا الفراغ، وأكملت النقص، وأصبحت السلسلة كاملة الحلقات. وليتك كنت أرسلتها قبل طبع كتابى، وإنى لأرجو أن يمد الله فى الأجل حتى أضمها وأنوه بها فى طبعة جديدة للكتاب، فإن جهادكم فى سبيل الله والوطن عمل قد ينبغى أن يخلده التاريخ الحديث، وواجبك الوطنى يحتم عليك أن تسارع بإتمام كتابك الذى وعدت به، والمكتبة التاريخية فى أمس الحاجة إليه».

«القاهرة فى ٩ فبراير ١٩٦٣»

أما الدكتور محمد أنيس فقد قال فى رسالة مقاربة أرخها فى ١٤ فبراير ١٩٦٣ :

«قرأت مذكرتك المستفيضة وفى اهتمام بالغ عن الدور الذى قمتم به فى أحداث ثورة ١٩١٩ بمدينة أسوان، ووجدتها فى غاية الأهمية من الناحية التاريخية، وإنى أستسمح سيادتكم فى الإشارة إليها فى كتابى الذى أقوم بطبعه الآن تحت عنوان «دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩»، وهو دراسة مبنية على وثائق ومراسلات عبدالرحمن الرافعى».

«وإنى إذ أشكر لسيادتكم هذا الجهد العظيم فى سبيل إحياء وبعث أمجاد الحركة الوطنية فى مصر، أرجو أن تتقبلوا خالص شكرى وتقديرى لشخصكم ولماضيكم السياسى العظيم».

* * *

كتب للمؤلف

فى التراجم

- **الدكتور محمد كامل حسين عالمًا ومفكرًا وأديبًا**

سيرة حياة المفكر المصرى الكبير محمد كامل حسين (١٩٠٢ ــ ١٩٧٧) صاحب «قرية ظالمة» و«وحدة المعرفة» و«الوادى المقدس» و«النحو المعقول» و«التحليل البيولوجى للتاريخ».

فاز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب (١٩٧٨)، صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، وضمت الطبعة الثانية أبوابًا وفصولاً لم تضمها الطبعة الأولى.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

- **مشرفة بين الذرة والذروة**

سيرة العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة (١٨٩٨ ــ ١٩٥٠)، وإنجازاته العلمية ومدرسته الرائدة وأفكاره الاجتماعية وقدراته البيانية والموسيقية، وببليوجرافيا بإنتاجه وما كتب عنه، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠، ونال جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم (١٩٨٢).

الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.

- **سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى**

يستعرض الإنتاج الفكرى والأدبى للدكتور أحمد زكى (١٨٩٤ - ١٩٧٥) فى كافة الميادين ويعرض آراءه وفلسفته فى الحياة والعلم والسياسة والفكر والاجتماع، وتتميز الطبعة الثانية باحتوائها على الببليوجرافيا الكاملة لإنتاج الدكتور أحمد زكى فى كتبه ودراساته وترجماته ومقالاته المتنوعة فى مجلات: الرسالة، والثقافة، والهلال، والاثنين، والدنيا، والعربى وغيرها.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣.

□ **أحمد زكى : حياته وفكره وأدبه**

يضم هذا الكتاب معظم فصول الأبواب الأولى من كتاب سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٤.

■ **الدكتور على باشا إبراهيم**

سيرة حياة رائد الطب المصرى فى العصر الحديث د. على إبراهيم (١٨٨٠ - ١٩٤٧) وإنجازاته العلمية والحضارية، وآراؤه فى الحياة والعلم والطب والجامعة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٥.

■ **الدكتور نجيب محفوظ باشا**

سيرة حياة الرائد الأول لطب النساء فى العالم العربى د. نجيب محفوظ (١٨٨٢ - ١٩٧٢)، الذى أضاف إلى العلم كثيرًا من الإنجازات، وعرض لفلسفته وقدراته العلمية والبحثية والبيانية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **الدكتور سليمان عزمى باشا**

سيرة حياة أول أطبائنا الباطنيين د. سليمان عزمى (١٨٨٢-١٩٦٦)، وتحليل لآرائه فى التعليم الطبى والجامعى، وفلسفته فى ربط الطب والتعليم الطبى بالحياة العامة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **عثمان محرم .. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية (١٩٢٤ - ١٩٥٢)**

يستعرض المقومات العقلية والفكرية والمهنية والسياسية التى أسهمت فى صنع إنجازات المهندس الوطنى العبقرى عثمان محرم (١٨٨١ - ١٩٦٣)، ويعرض لسيرته المهنية والسياسية والوطنية، ويتدارس أوراق محنته فى أول عهد الثورة حين قدم للمحاكمة كنموذج لكباش الفداء التى أراد العهد الجديد بها أن يمحو من الأذهان مهابة وقيمة رموز العهد السابق. مكتبة مدبولى، ٢٠٠٤.

■ **سيد مرعى، شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح (١٩٤٤ - ١٩٨١)**

سيرة حياة المهندس سيد مرعى (١٩١٤ - ١٩٩٢)، وإسهاماته السياسية والمهنية والزراعية فى ثلاثة عصور متتالية، وما تركته شخصيته من بصمات سياسية واجتماعية لا تزال آثارها باقية. مكتبة مدبولى، ١٩٩٩.

■ **إسماعيل صدقى باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠)**

سيرة حياة واحد من أهم الشخصيات التى مرت بتاريخ مصر الحديث وأثرت فى تاريخها القومى تأثيرًا كبيرًا بالإيجاب والسلب، وعرض لإنجازاته الاقتصادية والحضارية، ونقد لعقليته السياسية، وتقدير لأفكاره الاستراتيجية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٨٩.

■ **صانع النصر.. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ ـ ١٩٧٤)**

سيرة حياة قائد عسكرى متميز أتيح له أن يتحقق على يديه أعظم نصر فى تاريخ مصر المعاصر، وملامح حياته وتكوين شخصيته وإنجازاته العسكرية على مدى حياته، ويناقش النقاط الخلافية فى تاريخه. دار جهاد ثلاث طبعات ، ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٥ .

□ **مايسترو العبور.. المشير أحمد إسماعيل**

سيرة موجزة لحياة قائد القوات العربية فى حرب ١٩٧٣.

■ **سماء العسكرية المصرية الشهيد عبدالمنعم رياض (١٩١٩ ـ ١٩٦٩)**

سيرة موجزة لحياة ألمع العسكريين العرب، وعرض سريع لأفكاره العسكرية والاستراتيجية وإسهاماته التاريخية. دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ **توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية**

إطلالة سريعة بترتيب موضوعى على شخصية توفيق الحكيم وحياته وآثاره الأدبية، من خلال رحلته فى الحياة، وتعريف موجز بآثاره الأدبية والفكرية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨.

■ **عبداللطيف البغدادى.. شهيد النزاهة الثورية**

سيرة حياة عبداللطيف البغدادى (١٩١٧ ـ ٢٠٠٠) أبرز رجال عهد الثورة فى المجال التنفيذى، وتتبع لفكره الإصلاحى والسياسى، وإنجازاته الحضارية، وإسهاماته فى الحياة البرلمانية، والوزارات المختلفة، والعلاقات العربية، ومحكمة الثورة، ورؤاه الاستراتيجية والسياسية والحربية.

دار الخيال، ٢٠٠٦.

■ **عاشق العلم أحمد مستجير**

سيرة حياة وفكر وإنجازات عالم الوراثة المصرى والمفكر والأديب والمترجم عميد علماء الزراعة فى عصره وعضو مجمع الخالدين.

■ **مصطفى مشرفة**

سلسلة قمم مصرية، السلسلة الثقافية لطلائع مصر، العدد ٧٣، المجلس القومي للشباب، القاهرة، فبراير ٢٠٠٧.

■ **أستاذ الجيل في السعودية، محمد طاهر الدباغ**

سيرة حياته وفكره التربوي وإنجازاته التربوية.

في التراجم المجمعة

■ **مصريون معاصرون**

مجموعة من كلمات ومقالات التابين التي نشرت في رثاء بعض المصريين المعاصرين أو إحياء ذكراهم، متضمنة أضواء موحية على بعض من الجوانب التي تبدت في حياة وإنتاج هذه الشخصيات. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.

■ **كيف أصبحوا عظماء .. دراسات ورثاءات**

مجموعة منتقاة من الخطب والدراسات ألقيت في تأبين بعض أعضاء مجمع اللغة العربية، وفي إحياء ذكرى رموز العلم والفكر والأدب في احتفاليات الجمعية الخيرية الإسلامية بروادها.

الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ .

■ **عشرون من الخالدين :**

مجموعة دراسات ومقالات ألقيت ونشرت في سلسلة عظماء المصريين (روز اليوسف) وأيام في الذاكرة (الأهرام).

■ **يرحمهم الله : كلمات في التأبين**

تراجم انطباعية تأبينية لكلٍّ من: بدرالدين أبو غازي، وصلاح عبد الصبور، ومحمد زكي عبد القادر، ود. يحيى المشد، ومحمد فهمي عبد اللطيف.

دار الأطباء، ١٩٨٤.

دراسات أدبية

■ **فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين**

مجموعة من القضايا النقدية والفكرية، المرتبطة بفن كتابة التجربة الذاتية، وأساسياته،

وأركانه، وتطوره، ومدى الحاجة إليه، والنقاط الخلافية فيه مع محاولة لتأصيل مذهب المؤلف فى نقد أدبيات التجارب الذاتية المنشورة فى صور مختلفة.

دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **فى ظلال السياسة.. نجيب محفوظ .. الروائى بين المثالية والواقع**

دراسة أدبية نقدية تحليلية تستعرض الفكر السياسى لنجيب محفوظ من خلال آرائه الصريحة المباشرة وأعماله الفنية ومذكراته المتعددة، وتثبت أنه فكر متقدم تناول القضايا الوطنية برؤية واضحة ونظر ثاقب وعبّر عن وعى سياسى من طراز متميز نجا من التقولب والأيدلوجيات واستشرف الأمل فى الآفاق الرحبة لمستقبل مزدهر لأمته، ونجح فى لفت النظر إلى حقيقة الإيجابيات الليبرالية التى تحققت بفضل ثورة الشعب فى ١٩١٩.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **على هوامش الأدب**

مجموعة من الدراسات والبحوث فى اللغة والأدب والنقد، تحاول فهم النقد ووظيفته وتصور علاقة الإبداع بالحياة، وتحلل الوسائل الكفيلة بالارتقاء بالذوق الأدبى العام، وتناقش كثيرًا من القضايا والإشكاليات التى شغلت الحياة الثقافية، وترتاد آفاقًا جديدة فى درس علاقة اللغة بالحياة فى عصر المعلومات، وفى علاقة النقد بالذوق فى حقبة تتسم بتسارع الخطى والانكفاء على الذات معًا.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

■ **ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة**

يناقش التأثيرات المتبادلة بين السياسة والتاريخ والأدب من خلال مجموعة من الفصول الموثقة (٢٣ فصلاً) تستعرض وقائع ثقافية وأدبية ونقدية محددة، بعضها مشهور وبعضها لا يتمتع بالقدر الكافى من المعرفة به.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

□ **من بين سطور حياتنا الأدبية**

خمسة من الفصول التى يضمها كتاب ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة نشرت مبكرًا.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ **أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى**

دراسة وتعريف وتقييم لجهد ثلاثة من أساتذة كلية الآداب فى الجامعة المصرية تصدوا لكتابة تاريخ الأمة الإسلامية، تلقى الدراسة الضوء على ملامح وسمات ومميزات هذه

التجربة الرائدة التى أثمرت عملاً يجمع بين الأدب والتاريخ، وقد أصبح بمثابة المصدر المفضل لأهل التاريخ وتاريخ الأدب العربى، وكثير من الدراسات الإنسانية.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٤.

■ كلمات القرآن التى لا نستعملها

دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية مع جداول تفصيلية كاملة بالكلمات ومعانيها والآيات التى وردت فيها من خلال تصنيف لغوى دقيق مع شرح موجز لفكرة اختلاف العينات اللفظية والعوامل المؤثرة فى هذا الاختلاف.

صدر فى طبعتين : دار الأطباء، ١٩٨٤، دار الشروق، ١٩٩٧.

وجدانيات

■ أوراق القلب (رسائل وجدانية)

يضم أكثر من خمس وسبعين رسالة من الرسائل القصيرة تعبر بطريقة مبتكرة عن أحوال وجدانية متباينة، وتعكس قدرة عالية على التصوير والتعبير والقبض على لحظات الخصوصية والتفرد والمفارقة فى العلاقات الإنسانية.

الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٤، الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

■ أوهام الحب : دراسة فى عواطف الأنثى

يتضمن خمسة وثلاثين فصلاً ترسم الملامح الجوهرية فى الطبائع الإنسانية المتباينة، وتقدم صورًا فنية ونفسية دقيقة أقرب فى طبيعتها إلى اللقطة اللحظية، كما تقدم استعراضًا دقيقًا لتقلبات الوجدان ودواعيها وتوابعها.

الطبعة الأولى، الكتاب الأول فى سلسلة كتاب الجمهورية الشهرى، أغسطس ١٩٩٩.

الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

فى أدب الرحلات

■ رحلات شاب مسلم

انطباعات ذاتية عن رحلات علمية مبكرة فى أمريكا وإيطاليا والهند وبريطانيا صورت فى دقة

إبداعية بعض مشاعر الاحتكاك المباشر للمؤلف مع بيئات مختلفة وحضارات متعددة، كتبت بحرص شديد على الالتزام والدقة الموحية.

صدر فى ثلاث طبعات : دار الصحوة ١٩٨٧، دار الشروق ١٩٩٥، دار جهاد ٢٠٠٣.

■ **شمس الأصيل فى أمريكا**

يتميز بأسلوب مستحدث فى كتابة الرحلات لا يصف الطبيعة كما فعل السابقون، لكنه يحاول أن يصف الحضارة، وعلى حين أن وصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة.. فإن وصف الحضارة يستلزم كذلك أقدارًا متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جنديًا من جنود الحضارة لا فارسًا من فرسان الطبيعة.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ودار جهاد، ٢٠٠٣.

فى الأمن القومى والسياسى

■ **الأمن القومى لمصر، مذكرات قادة المخابرات والمباحث**

مرجع ضخم يتدارس قضايا الأمن القومى المصرى من خلال قضاياه الأساسية والممارسات التاريخية لقادة أجهزته، ويستعرض مذكرات الرؤساء الأربعة الأوائل لجهاز المخابرات العامة: صلاح نصر، ومحمد حافظ إسماعيل، وأمين هويدى، وأحمد كامل، واثنين من قادة أجهزة أمن الدولة: حسن طلعت، وفؤاد علام.

■ **قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيات**

دراسة عميقة لدور جهاز مهنى حيوى فى الحياة السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وتعريف بيوجرافى بستين شخصية شرطية مع ذكر أدوارها التاريخية، وذلك من خلال قراءات مكثفة، ومقابلات منتقاة، ودراسات عميقة.

مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢ .

مدارسات تاريخية ونقدية لكتب المذكرات

■ **مذكرات وزراء الثورة**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات عشرة من وزراء ثورة يوليو ١٩٥٢ من ذوى الانتماءات المختلفة والأدوار المتباينة، فضلاً عن اختلاف آرائهم السياسية: كمال حسن على، وسيد مرعى، وعبدالجليل العمرى، وثروت عكاشة، وإسماعيل فهمى، وعثمان أحمد عثمان،

وضياء داود، وأحمد خليفة، وعبدالوهاب البرلسى، وحسن أبوباشا.

دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **المرأة والحرية : مذكرات المرأة المصرية**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لقضية الحرية فى النظام الاجتماعى من خلال قراءة متأنية لمذكرات أربعة اتجاهات كاشفة عن دور المرأة المصرية فى الحياة العامة مشاركة للزوج فى مجده، أو ممارسة للسياسة، أو للوظيفة، أو عارضة لتجربة حياة متميزة: بنت الشاطئ، وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنچى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى.

دار الخيال، ٢٠٠٤.

□ **مذكرات المرأة المصرية**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية».

دار الشروق، ١٩٩٥.

■ **نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار**

تصوير دقيق للفترة الأولى من حكم ثورة يوليو (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) ومقدماتها وصراعاتها والتحولات التى انتهت إليها من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات كلٍّ من: اللواء محمد نجيب، وخالد محيى الدين، وعبدالمنعم عبدالرؤوف، وجمال منصور، ومحمد عبدالفتاح أبو الفضل، وحسين حمودة.

دار الخيال، ٢٠٠٣.

□ **مذكرات الضباط الأحرار**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «نحو حكم الفرد» تضم أيضًا بابًا عن مذكرات عبداللطيف البغدادى لم تتضمنه الطبعة الثانية.

دار الشروق، ١٩٩٦.

■ **من أجل السلام، مذكرات رجال الديبلوماسية المصرية**

تحليل ومقارنة لرؤى مجموعة من أعلام الديبلوماسية المصرية الذين شغلوا مواقع مختلفة وعاصروا حروب مصر الديبلوماسية من أجل استعادة التراب الوطنى: أحمد عصمت عبدالمجيد، ومحمود رياض، ومحمد إبراهيم كامل، وحسين ذوالفقار صبرى، ومحمد عبدالوهاب العشماوى، وجمال بركات.

دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **فى خدمة السلطة .. مذكرات الصحفيين**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لعلاقات الصحافة بالسلطة على مدى عهد الثورة انتقالاً من عصر الليبرالية إلى التأميم والتنظيم إلى انفتاح محسوب، مع تحقيق لوقائع استغلال النفوذ ومصادرة الرأى: موسى صبرى، وأحمد بهاء الدين، وعبدالستار الطويلة، وفتحى غانم، وحلمى سلام، وجلال الدين الحمامصى.

دار الخيال، ٢٠٠٢ .

■ **عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط فى غير الحرب**

دراسة موسعة للتأثيرات العملية المباشرة وغير المباشرة لممارسة رجال القوات المسلحة للأدوار والمهام المدنية فى عهد الثورة فى مجالات الإدارة والوزارة والتنظيمات والسياسة والصحافة والقضاء والإعلام والدعوة والدبلوماسية والهندسة من خلال مدارسات مكثفة لمذكرات سمير فاضل، وأحمد طعيمة، وحلمى السعيد، ومصطفى بهجت بدوى، ورياض سامى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

■ **فى رحاب العدالة : مذكرات المحامين**

مدارسة تاريخية نفسية لمذكرات أربعة من المحامين المصريين من ذوى الاتجاهات الفكرية المختلفة (عبدالفتاح حسن، وفتحى رضوان، ود. محمود كامل، ود. يوسف نحاس) عملوا بالسياسة، والحزبية، والاقتصاد، والصحافة، والأدب، وظلوا على ولائهم لمهنة المحاماة يستلهمون قيمها، ويستعينون بخبراتها، ويوظفون مهاراتها، وحين كتبوا مذكراتهم فإنهم اعتبروها أداء للمحاماة عن معتقداتهم، وتصرفاتهم، وسلوكهم، وانحيازانهم.

■ **يساريون فى زمن اليمين: مذكرات قادة الفكر اليسارى المصرى**

تأملات فكرية فى مذكرات أدبية من قادة الفكر اليسارى المصرى فى ميادين مختلفة قدر لهم أن يعايشوا صعود الفكر اليسارى ثم معاناته فى زمن التحول إلى اليمين : د. مراد غالب، ود. حامد عمار، ود. رشدى سعيد، ود. عبدالعظيم أنيس.

فى تاريخ عهد الملكية

■ **على مشارف الثورة : مذكرات وزراء نهاية الملكية ١٩٤٩ - ١٩٥٢**

دراسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات خمسة من وزراء السنوات الأخيرة فى عهد

الملكية ينتمون إلى اتجاهات وتوجهات مختلفة، مع تحليل أدبى تاريخى لما تضمنته المذكرات من حقائق وروايات، وتشمل مذكرات كلٍّ من: أحمد مرتضى المراغى، وكريم ثابت، وإبراهيم فرج، وصليب سامى، وعبدالرحمن الرافعى.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **فى كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية**

تحليل تاريخى واستعراض نقدى لمذكرات أربعة من الذين شغلوا مواقع مهمة فى القصور الحاكمة وقدر لهم أن يشهدوا بأعينهم ما يجرى فى الكواليس فى فترة حافلة بالأحداث، ثم قدرت لهم حياة ممتدة أتاحت لهم أن يربطوا بين ما رأوه وما عرفوه عن تاريخ الفترات والأحداث التى عاشوها عن قرب. مذكرات : حسن يوسف، ود. حسين حسنى، وصلاح الشاهد، والغريب الحسينى.

الطبعة الأولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٦ .

فى الفكر التربوى وتاريخ الحياة العقلية

■ **آراء حرة فى التربية والتعليم**

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الفصول عرض فيها المؤلف آراء حرة ومدروسة فى قضايا التربية والتعليم حاول بها أن يفتح الأبواب أمام الفهم المستقيم لهذه القضايا، وأن يقدم الحلول الأكثر مناسبة والأجدى فائدة لمشكلات مزمنة، وأن يؤصل للفهم التربوى المعاصر من خلال فكر مفتوح لا يخضع للأهواء الوقتية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١. طبعة خاصة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

■ **مستقبل الجامعة المصرية**

مجموعة مختارة من الأفكار والتصورات والمقترحات التى نشرها المؤلف فى الصحافة المصرية على مدى تسع سنوات مستهدفًا تجديد الرؤى فى إصلاح الجامعة على أسس علمية دون طفرة، ومعبرًا عن رؤية علمية وعملية مختلفة عن تلك المطروحة على الساحة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

■ **تكوين العقل العربى .. مذكرات المفكرين والتربويين**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أبرز المفكرين والتربويين الذين أسهموا فى تكوين العقل العربى، وعرض لرؤاهم التربوية والفكرية ولوجهات نظرهم فى الحياة العقلية فى

مصر المعاصرة من خلال تحليل انطباعاتهم ورؤاهم فيما يتعلق بتكوين عقلياتهم وعقلية تلاميذهم وأساتذتهم ومعاصريهم. وتشمل المدارسة مذكرات: شوقى ضيف، وعبدالرحمن بدوى، ومحمد عبدالله عنان، ومحمد على العريان، وأحمد عبدالسلام الكردانى، ونادية رضوان.

دار الخيال، ٢٠٠٢.

■ **الثورة والإحباط : مذكرات الأدباء وأساتذة الأدب**

دراسة أدبية نقدية لمجموعة من المذكرات كتبها الأدباء وأساتذة الأدب، وأضاءت علاقاتهم بالسياسة والحياة العامة وتفاعلات الأدب والكتابة فى عهد الثورة، وخبراتهم الفنية والأدبية، والعوامل التى شكلت وجدانهم، والتجارب التى عكستها آثارهم الأدبية، وتضم مذكرات الدكتورين: أحمد هيكل وعلى الحديدى، والأساتذة صالح مرسى، وفتحى أبوالفضل، وجليلة رضا، وعايدة الشريف، وأمانى فريد.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤.

■ **أقوى من السلطة : مذكرات أساتذة الطب**

استعراض للتاريخ الاجتماعى فى الحياة المصرية المعاصرة من خلال منظور طبى وتعليمى اصطبغ بالعلاقة المباشرة والتجربة الحية مع شخصيات السلطة المتعاقبة وتوجهاتها المتباينة على نحو ما تضيئه مذكرات الدكاترة: زكى سويدان، ومصطفى الرفاعى، ومصطفى الديوانى، ودمرداش أحمد، وأرنست سليمان شلبى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ .

■ **بناء الجامعات والأكاديميات : مذكرات رواد العلوم والفنون**

تحليل تاريخى وتوثيق تربوى للجانب المؤسسى فى أكاديميات التعليم المتخصص فى الشرطة والفنون والجامعات الإقليمية والاتحادات العلمية عبر مدارسه لمذكرات أربعة من الأكاديميين المؤسسين: سليمان حزين، وسمحة الخولى، وعبدالحليم منتصر، وعبدالكريم درويش.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.

فى الفكر التنموى

■ **القاهرة تبحث عن مستقبلها**

مجموعة من المقالات والفصول استهدفت تغيير وجه القاهرة من خلال أفكار علمية وعملية

تستند إلى تحليل المعلومات وتوظيفها، والقدرة على تصور البدائل وطرح الحلول انطلاقًا من رؤية رحبة الأفق، وقد تحقق بعض هذه الأفكار، ونتمنى أن يتحقق البعض الآخر لتصبح عاصمتنا فى المكانة اللائقة بها بين بقاع الدنيا.

دار المعارف، ٢٠٠٠.

■ **التنمية الممكنة: أفكار لمصر من أجل الازدهار**

مجموعة مختارة ومنتقاة من المقالات والدراسات التى كتبها ونشرها المؤلف على مدى سبع سنوات (١٩٩٤ - ٢٠٠١) طارحًا فيها أسلوبًا جديدًا لمعالجة قضايا الوطن الاقتصادية والاجتماعية، معتمدًا على منهج موظف للمعلومات من أجل الانطلاق بفكر رحب يفيد من تجارب الحضارات السابقة والنظم السياسية المعاصرة، وتتناول الأفكار مناحى متعددة فى حياة الوطن ومستقبله واقتصادياته ويجمع هذه الأفكار أنها صادرة عن رؤية عملية قابلة للتنفيذ دون أن تتطلب موارد جديدة، وهو ما يدفع إلى المطالبة بالإسراع فى الأخذ بها من أجل ما ننشده من ازدهار فى مستقبل الوطن.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الإعلام والبيئة والتنمية**

مقالات ودراسات مستفيضة لبعض مشكلات الحياة العامة فى مصر، تقدم رؤى مختلفة الطابع تصدر عن فهم جديد لطبيعة الحضارة المعاصرة بعيدًا عن الآثار الكلاسيكية للأفكار الأيديولوجية التى صبغت بعض مناحى الحياة العامة فى مصر بما يستحسن الخلاص منه فى ظل فكر إنسانى علمى جديد يعتمد على التعويل على العناصر الإيجابية فى الإنسان، وعلى إعلاء قيمة الحرية، والتمكين للقيم الفاضلة فى حياة المجتمع، وفهم المشكلات فى إطارها الخاص بعيدًا عن التعميم، وعلى استنطاق الإحصاءات بالبعد التنموى الذكى والمحافظ فى الوقت ذاته على البيئة.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧ .

■ **الصحة والطب والعلاج فى مصر**

مجموعة من المقالات والفصول والدراسات تستعرض جوهر العلاقة بين الطب والصحة والمجتمع، وتقدم لمحات عن الدين والمرض، وعن مستقبل الطب الإسلامى، وعن طب الطوارئ. كما تقدم أفكارًا جديدة فى تطوير التعليم الطبى وتنظيم المؤسسات الطبية. وتتضمن الطبعة الثانية دراسات موسعة تستهدف تطوير الخدمات الصحية بإعادة استخدام الموارد المتاحة من خلال رؤى عصرية لسياسات العلاج والصحة. الطبعة الأولى، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ .

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥ .

فى الفكر السياسى

■ **الفلسطينيون ينتصرون أخيراً .. دراسات فى التنبؤ السياسى**

تقدم مجموعة المقالات والفصول التى يتضمنها الكتاب أفكار المؤلف وتصوراته لمسار الصراع العربى ـ الإسرائيلى وقضية فلسطين، وهجرة اليهود العرب إلى فلسطين، ومعضلات السياسات الفلسطينية، وأخطاء السياسات العربية فى حقب متتالية، وحقيقة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والحركة الصهيونية وإسرائيل.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

■ **المسلمون والأمريكان فى عصر جديد**

مجموعة من الفصول والمقالات تتميز بجسارة فكرية وعقلية كفيلة بالنفاذ إلى جوهر المشكلات والتوجهات فى السياسة العالمية، ويجاهر المؤلف بأن الدعوة إلى الإسلام أجدى بكثير من الدفاع عنه. كما يستعرض مبرراته للتنبؤ بأن أمريكا قد تعتنق الإسلام، ويلقى الضوء على الدور الذى يلعبه الدين فى الانتخابات الأمريكية وفى غيرها من مواقع الأحداث فى عصر العولمة.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

موسوعة تاريخ النظام السياسى المصرى المعاصر

■ **النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠)**

مجموعة من الدراسات البيوجرافية التى يمكن وصفها بلغة البحث العلمى بأنها أصيلة وغير مسبوقة، ومجموعة من المقالات (المستندة إلى دراسات) تتناول بالبحث والتعليق تكوين شخصيات النخبة الحاكمة فى النصف الثانى من القرن العشرين وعوامل صعود هذه الشخصيات إلى مواقع المسئولية.

مكتبة مدبولى، ٢٠٠١ .

■ **البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ ـ ٢٠٠٠)**

المرجع الأول والأوفى فى مجاله، وهو دراسة تاريخية وفهارس كمية وتفصيلية لإنشاء وإلغاء وإدماج الوزارات والقطاعات الوزارية وتبعيات المصالح والهيئات للوزارات المختلفة، ودراسة لتوزيع المسئوليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة.

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار الشروق، وركزت على فترة الثورة.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠ . طبعة خاصة : مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥

■ **الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم**

توثيق تاريخ الوزارات المصرية وتشكيلاتها منذ قيام الثورة ١٩٥٢، من خلال ثلاثة أبواب، الأول: ترتيبى، والثانى: زمنى، والثالث: شخصى، ويقدم معلومات عن الوزراء ورؤسائهم ونواب رؤسائهم ونوابهم وتشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ١٩٩٧ .

□ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢ ـ ١٩٨١)**

طبعة مبكرة ومختصرة من كتاب الوزراء، تقف عند نهاية حكم الرئيس السادات، وتقدم فقط بعض ما شمله البابان الثانى والثالث من كتاب الوزراء.

الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٨٦ .

■ **المحافظون**

دراسة تأسيسية تشمل قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠) وحتى نهاية القرن العشرين. مع الإشارة إلى خلفياتهم المهنية وعلاقتهم بالمناصب الوزارية والإدارية.

صدرت الطبعة الأولى عن دار الشروق، ١٩٩٦. الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صناعة القرار السياسى**

فصول بيوجرافية وتاريخية فى إطار دراسة تحليلية ونقدية لصناعة القرار السياسى فى مصر، وهى دراسة لا تخلو من استرجاع ومن إحصاء ومن استقراء ومن استنباط، ومن تحقيق للروايات ومن عرض للرأى والرأى الآخر، ومن وضع المقارنات على هيئة جداول وأرقام.

دار الخيال، ٢٠٠٢.

أعمال موسوعية

■ **القاموس الطبى نوبل فى ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أ. د. محمد عبداللطيف)**

قاموس طبى ضخم يحوى ستين ألف مصطلح يسهل من خلاله الوصول إلى المصطلح المقابل

من خلال أية لغة من لغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ويشمل مسارد كاملة لكافة المصطلحات الطبية الواردة فى اللغات.

دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، القاهرة، ١٩٩٨.

■ **دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث**

نبذات وافية ومعلومات كاملة تاريخية عن تطور مؤسسات وهيئات التعليم الطبى المصرية فى الجامعات ومراكز البحوث ووزارة الصحة. الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧.

فى طب القلب

■ **أمراض القلب الخلقية الصمامية**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضًا للثقافة العامة، يستعرض الخلقية الصمامية وأسبابها وطرائق تشخيصها وعلاجها وجراحاتها ومآلها.

دار المعارف، ٢٠٠١ .

■ **أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضًا للثقافة العامة، عرض فيه المؤلف الأمراض الناشئة عن وجود ثقوب أو تحويلات فى تشريح القلب، مع تقديم صورة وافية عنها والاستعانة بكل ما يمكن أن يصور طبيعة المرض وحقيقته وسماته والطرق المتاحة لتشخيصه وعلاجه وجراحاته.

دار المعارف، ٢٠٠٢ .

تحقيق

■ **يوميات على مصطفى مشرفة .. يناير ١٩١٨ ـ يوليو ١٩١٨**

تحقيق دقيق لمخطوطة من اليوميات التى وجدت فى آثار العالم المصرى الكبير عن الشهور الأولى من فترة بعثته إلى بريطانيا وما حفلت به مشاعره من حس وطنى ودينى، وتفاعل مع صورة مختلفة من الحياة، وحوارات عقيدية وفكرية، وخبرات علمية وحضرية وثقافية مكثفة.

مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣.

ببليوجرافيات

■ **مجلة الثقافة (١٩٣٩ - ١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق**

سيرة حياة مجلة رائدة، ودراسة صحفية وأدبية تحليلية للمجلة الشهيرة التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بصفة أسبوعية، وتشمل فهرسة كاملة للأعداد الـ٧٣٣، وكشافات للموضوعات التى أسهم بها الكتاب الذين بلغ عددهم أكثر من ألف، مع تراجم وافية لحوالى ١٣٠ كاتبًا بارزًا واظبوا على الكتابة للمجلة. وتعد بعض النبذات البيوجرافية المقدمة عن هؤلاء بمثابة النبذات التعريفية الوحيدة المتاحة عنهم.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

■ **الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)**

ببليوجرافيا كاملة للبحوث الطبية المنشورة فى مائة وخمسين دورية طبية مصرية (١٩٨٥ - ١٩٨٨)، مع معلومات ببليوجرافية كاملة وملخصات وافية للبحوث، صدر فى ثمانية أجزاء نشرتها الأكاديمية الطبية العسكرية على مدى الفترة من ١٩٨٨ وحتى ١٩٩١.

الكتب المسبوقة بمربع أبيض ☐ نفذت ولن يعاد طبعها حيث ظهرت لها كتب بديلة وافية.